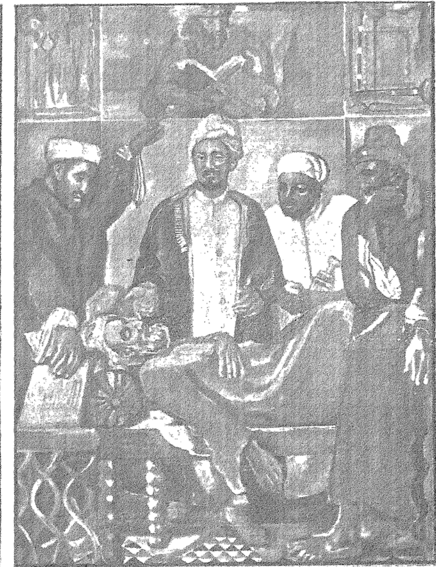
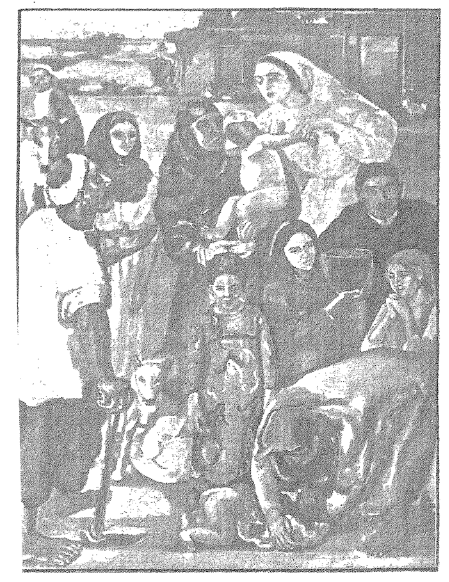






لوحتان من اللوحات الفنية التي صورها المصور المصري محمد ناجي على جدران البهو في مدخل مستشفى المؤاساة بالاسكندرية

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الخامس والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٤ — ١٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣

لبنات الكون

الدقائق الاساسية في بناء الاجسام

الالكترون والبروتون والنوترون والبوزيترون[١]

من الاقوال المعزوّة الى السر جيمز جينز العالم البريطاني الكبير ان الرياضي فقط ، يستطيع الاجابة عن مسائل تتعلق ببناء الكون المادي . وانه اذا اجاب فلا يفهمهُ الاَّ رياضي مثله . وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكن الطبيعة الانسانية لا تحتاج الى تثبت من الرياضة العالية لكي تستثيرها انباء المكتشفات الحديثة في عالم الذرّ . خذ مثلاً على ذلك رجلاً يدعى ديراك . فهو استاذ من اساتيذ جامعة كمبردج . عمد في سنة ١٩٣١ الى المرقم والورق والمعادلات الرياضية العالية، فأنبأ بوجود دقيقة غير معروفة من الدقائق التي تتركب منها الاجسام . وفي سنة ١٩٣٢ كان الاستاذ كارل اندرسن الاستاذ بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي يراقب صوراً لاصطدام الاشعة الكونية بذرّات الهواء وجزيئاتهِ، فرأى شيئاً يتصرف تصرف الدقيقة التي انبأ بها ديراك. هذا هو البوزيترون ندُّ الالكترون الحقيقي وصنوهُ واحدث اللبنات في البناء الكوني. بل قبيل اكتشاف البوزيترون اكتشافاً تجريبيًّا كان الاستاذ شدك — من جامعة كمبردج كذلك — قد اكتشف النوترون . فأُضيف هذان الاكتشافان اذ كانت الآراء متعددة متباينة في تعليل الاشعة الكونية وأُصلها ، والكون الآخذ في الاتساع وطبائعه، فقال الفلكي الاميركي الاستاذ شابلي « الفروض العلمية اكثر

---

(١) فصل من كتاب « فتوحات العلم الحديث » الذي صنفه رئيس تحرير المقتطف ليكون هديته السنوية ١٩٣٤

مما نحتاج اليهِ» . وشبَّه وز العلم الحديث بجدّ غنيّ جاء الى ملعب احفاده بطائفة كبيرة من اللعب فأصبح الاطفال وهم لا يدرون ما يفعلون بها جميعاً

ولكن هل هذه الفروض العلمية الكثيرة ألاعيب حقيقةً نتسلى بها ثم ننبذها ؟ ألا نستطيع ان نتذكر عبرة التاريخ في هذا الصدد ؟ الم ينبيء كلارك مكسوِل بمعادلاتهِ الرياضية من ستين سنة بوجود الاشعة اللاسلكية ؟ فهل يصحّ — ونحن نعلم من عجائب الراديو ما نعلم — ان نقول ان ذلك الاكتشاف الرياضي كان ألهية او العوبة علمية فقط ؟

بناء الذرة

كانت الذرة في نظر العلماء ، حتى اكتشاف ظاهرة الاشعاع في اواخر القرن التاسع عشر ، دقيقة لا تتجزأ . فلما تبين ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة ، تتفجر ، وتنطلق منها مقذوفات متباينة ، كان حتماً على الباحثين ان يسألوا انفسهم : وكيف يمكن ان تكون الذرّة ، تلك الكرّة الصغيرة الصلبة التي لا تتجزأ ؟

وما لبث الباحثون ، حتى اثبتوا ان الاشياء التي تنقذف من عنصر الراديوم على ثلاثة أصناف

(١) دقائق لها وزن نسبيٌّ كبير وتحمل شحنة كهربائية موجبة دعيت « دقائق الفا »

(٢) دقائق خفيفة (اخفُّ من دقائق الفا نحو الفي مرة) وتحمل شحنة كهربائية سالبة . دعيت « دقائق بيتا » وهي الالكترونات

(٣) اشعة شديدة النفوذ لا تحمل شحنة كهربائية ، فدعيت « أشعة غمّا » ثم ثبت انها من قبيل الضوء قصير الامواج اي من قبيل أشعة اكس

وخطر لأحد اساتذة الطبيعة في جامعة « مَجِل » الكندية — الاستاذ ارنست رذرفورد وهو لورد رذرفورد الآن — ان يستعمل هذه المقذوفات الراديومية كالقنابل يطلقها على الذرّة ، لعلَّهُ يستطيع ان يحطمها ، فتبيحهُ اسرارها . ووالى تجاربهُ حين عاد الى انكلترا ، الى الجامعة التي تخرّج منها — جامعة كمبردج — فأثبت بالتجربة والبرهان العملي ان الذرة ليست كما ظنَّ من قبل كرة صلبة لا تتجزأ [١] ، بل هي كما تقتضي ظاهرة الاشعاع ، مؤلفة من اجزاء . وكان في خلال تجاربهِ يطلق دقائق الفا على ذرّات الذهب ، فتتخلّل الدقائق الذرّات ، وانما كان يتفق احياناً ان ترتدَّ احدى الدقائق التي اطلقها ، كأنها صدمت في الذرة كتلة راسيةً ، فارتدّت عنها بعد اصطدامها بها

فجعل رذرفورد همّهُ ان يبلغ تلك الكتلة . ومضى يطلق القنابل على المعقل ، ويحسب حساباً

(١) السر جوزف طمسن هو اول من اكتشف الالكترون في اواخر القرن الماضي عند بحثه في مرور الكهربائية في الغازات

لعدد القذائف التي ترتدّ ، وقوة ارتدادها ، ومن هـذا كله رسم رسماً عجباً ، هو التصميم الاول لبناء الذرّة . فجعل في وسط الذرّة كتلة صغيرة دعاها النواة ، وعلى ابعاد متباينة منها — تزيد الوف المرّات على قطر النواة — اقام الالكترونات وهي اجسام صغيرة جدًّا تحمل شحنات كهربائية مضادة ومعادلة لشحنة النواة . وهذه الالكترونات في رسمهِ كانت تدور حول النواة دوراناً طبيعيًّا كدوران السيّارات حول الشمس

وكذلك تلمّس رذرفورد قلب الذرّة في الظلام

ولكن هل النواة ، دقيقة فردة ، او مجموعة مندمجة من الدقائق ؟ هـذا سؤال تصدّى لهُ مارزدن Marsden احد اعوان رذرفورد باطلاق دقائق الفا على ذرة الايدروجين . ودقيقة الفا هذه تفوق ذرة الايدروجين اربعة اضعاف وزناً ، فلما اطلقت دقائق الفا على ذرات الايدروجين بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية مزّقت الالكترون الذي حولها ، فانطلقت نواة الذرّة بسرعة ١٩ الف ميل في الثانية . ولكن مارزدن عجز عن الحصول على جزءٍ من نواة الايدروجين ، وفي جميع التجارب التي جرّبها ، كانت نواة الايدروجين تتصرف كأنها دقيقة لا تتجزأ

وتلاهُ رذرفورد فوجّه دقائق الفا الى ذرّات النتروجين . ووزن النتروجين كما لا يخفى يفوق وزن الايدروجين نحو ١٤ ضعفاً . وكانت الدقائق التي اطلقها رذرفورد كذلك قلما تصيب ، بل ان معدّل اصابتها كانت بنسبة واحدٍ الى مائة الف . ولكن كلما اصابت احدى دقائقهِ هدفهُ — اي نواة ذرّة النتروجين — كان ينطلق منها نواة ايدروجين . ثم وجّه قنابله الى ذرّات الصوديوم ، فخرج من ذرّات الصوديوم نوى ايدروجين كذلك . ثم وجّهها الى ذرّات الالومنيوم والفصفور ، فكان في جميع هذه الحالات ، يحصل على نوى الايدروجين

فهل الايدروجين هو المادة التي تبنى منها نوى الذرّات ؟ قبل ذلك بقرنٍ من الزمان كان الدكتور بروت Prout احد اطباءِ ادنبره قد اقترح رأياً مؤداهُ ان جميع العناصر الكيمائية مبنية من الايدروجين . وكان هذا الرأي وليد الخيال في الغالب . ذلك ان بروت نظر في الاوزان الذرية في بعض العناصر فوجدها ارقاماً صحيحة ، فقال والخيال رائده ، ان الكون اذا كان منسجماً ، وجب ان تكون فيه العناصر مركبة من اخف العناصر الذي وزن ذرته واحد اي الايدروجين . واذن فقد يكون الايدروجين ، هو الهيولى التي قال بها القدماء . ولكن علماء الكيمياء في ذلك العصر اعرضوا عن رأي بروت واهملوهُ . على ان التاريخ كثيراً ما ينقض اقوال الثقات وينزلهم عن عروشهم. وكذلك ما انقضى قرن من الزمان على بروت ومعارضي رأيه ، حتى تبين لرذرفورد ان نواة الايدروجين تنطلق من كل ذرة يطلق عليها دقائق الفا ، واذاً فهي لبنة من لبنات الكون الاساسية فأطلق عليها اسم بروتون او « الاوّل »

وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً . فكأن كتلة الذرة كلها في بروتونها

خذ بروتوناً واحداً والكتروناً واحداً يدور حواليه ، فأنت امام ذرة من الايدروجين . وهي ابسط الذرات بناءً . وتليها ذرة الهليوم . ووزنها يفوق وزن ذرة الايدروجين اربعة اضعاف . واذاً فذرة الهليوم يجب ان تحتوي على اربعة بروتونات . وانما البحث اثبت ان لهذه الذرة الكترونين فقط يدوران حول نواتها . فكيف تستطيع كهربائية الكترونين ان تعدّل كهربائية اربعة بروتونات لان المفروض ان الشحنة الكهربائية الموجبة على البروتون تعادل الشحنة الكهربائية السالبة على الالكترون . وفي سبيل التغلب على هذه العقبة وتخطيها فرض بناة الذرات ان في نواة ذرّة الهليوم الكترونين محبوسين يعدلان بروتونين من البروتونات الاربعة . وكذلك يعدّل الالكترونان الدائران حول النواة البروتونين الباقيين

ثم بسط العلماء صورة بناء الذرة من عنصر الهليوم وأطلقوها على ذرّات سائر العناصر ، لانهم وجدوا ان في كل ذرة منها ، يزيد عدد البروتونات على عدد الالكترونات الدائرة حولها

وكذلك ترى ان نواة الذرة منطقة محشوكة بالبروتونات والالكترونات . ونوى الذرات على ذلك تحتوي على جميع البروتونات في الكون المادي ، ومعظم الالكترونات ، وجلّ ما له وزن ، حتى ليكاد الكاتب ان يُغرى بأن يقول « ان الذرة انما هي النواة »

معقل الذرة وفتحه

من النواميس الكهربائية ان الدقائق التي تحمل نوعاً واحدة من الشحنة الكهربائية تتنافر . وقد حسب الاستاذ صدي الانكليزي قوة هذا التنافر . وضرب المثل الآتي عليها لتقريبها الى الافهام . قال اذا اخذنا غراماً من البروتونات ووضعناه عند القطب الشمالي . واخذنا جراماً آخر ووضعناه عند القطب الجنوبي . فالتنافر بين الجرامين ، يقلّ طبعاً ، كربع المسافة بينهما . ومع ذلك تبقى قوة هذا التنافر تعدل ٢٦ طنًّا . والغريب في كل هذا ان البروتونات التي تتنافر هذا التنافر العظيم ، محشوكة معاً في النواة حتى ليصعب تفريقها ، لعظم الطاقة التي تربطها

والعلماء لا يستطيعون انّ يحلّوا هذا السرّ ، الاّ اذا مزّقوا النواة واستباحوا اسرارها

فالذرّة في نظر العلماء كالمعقل قلب حصنه النواة ، والكهارب بمثابة القلاع الخارجية التي تحيط به . وقد حملوا على القلاع فحطّموها وعرفوا على وجه من الدقة جلّ ما تهمهم معرفتهُ عن الجوّ الالكتروني الذي يحيط بالنواة وبنائهِ وخواصهِ . ولكن النواة تنطوي على اسرار يريدون استباحتها فهم لذلك يعدّون المدافع الضخمة والقنابل المدمّرة لتحطيم هذا الحصن . لقد احدثوا ثغرات فيهِ ولكنهم لا ينون عن الاستنجاد بمدافع جديدة ووسائل مبتكرة حتى يبلغوا غايتهم ، اذا كان بلوغها في متناول الانسان

والقذائف التي يستعملها العلماء لدكّ حصون النواة نوعان . فثمّة اولاً دقائق الفا التي تنطلق

من تلقاءِ ذاتها من ذرَّة الراديوم ، وهي من اسرع المقذوفات التي يستطيع العالم الطبيعي استعمالها ومن اعظمها طاقة ، لذلك قيل انهُ اذا اطلق تيّار من دقائق الفا على مادة من المواد ، فيحتمل ان تصيب دقيقة منها نواة ذرّة من الذرات او تصير على قرب عظيم منها ، وفي الحالين لا بدَّ ان تؤثر في القوى التي تربط بين اجزاءِ النواة ، فتفقد النواة استقرارها وتنقسم الى دقيقتين

ومن قبيل دقائق الفا دقائق اكتشفت من عهد قريب تعرف باسم «النوترونات» . ذلك ان عنصر البريليوم اذا قذف بدقائق الفا ، لم تنطلق منهُ بروتونات كما يحدث في النتروجين وغيره . بل ينطلق منهُ اشعاع قوي النفوذ . فأثبت الدكتور شدك الانكليزي ان هذا الاشعاع انما هو تيّار من دقائق لم تعهد من قبل دعاها نوترونات وهي تماثل البروتونات في ان وزن النوترون كوزن البروتون اي واحد (١) ولكن النوترون متعادل الكهربائية حالة ان البروتون موجبها . وهذه النوترونات قذائف عجيبة يمكن استعمالها باطلاقها على نوى ذرات اخرى وهي لتعادل كهربائيتها تخترق ذرات المادة من دون ان تفقد شيئاً كثيراً من طاقتها ، ولا تنمُّ على نفسها الاَّ اذا اصطدمت بنواة ذرّة من الذرّات . وقد أثبت باحث يدعى « فذر » ان اطلاق النوترونات على الأكسجين يحوّلهُ بقذف دقائق الفا من نوى ذرّاته . وهذه حقيقة لها شأن خاص لان اطلاق دقائق الفا على الاكسجين لم تؤثر فيه على الاطلاق

هذا عن النوع الاول من القذائف وهي القذائف التي تنطلق من تلقاءِ ذاتها من انحلال العناصر المشعة اوما هو من قبيلها ولكن العلماء ادركوا ان توسيع نطاق معرفتهم يقتضي انواعاً جديدة من القذائف لتحطيم نواة الذرة واستباحة اسرارها . وكان معروفاً ان اطلاق تيار كهربائي في غاز لطيف يخرج منهُ مقذوفات منوّعة من ذرّات وجزيئات مكهربة (ايونات) سريعة الانطلاق . فاذا زادت سرعة هذه الذرّات المنطلقة بامرارها في فراغ معرّض لفعل الجذب المغناطيسي ، فقد تصبح سرعتها كافية لاطلاقها على نوى الذرّات بغية تحطيمها

فاذا أُطلق مثلاً تيّار كهربائيٌّ في غاز الايدروجين في احوالٍ معيّنة انقذف وابل من القنابل الصغيرة لا ينقذف مثلها من مائة الف غرام من الراديوم في الوقت نفسهِ . ثم ظُنَّ انهُ اذا استعملت تيارات كهربائية عالية الضغط — من رتبة مليون ڤولط — تمكن العلماءُ من الحصول على مقذوفات سريعة يستطيعون استعمالها كما استعملوا دقائق الفا من قبل

ومعلوم ان للايدروجين نظيراً وزن ذرته ضعف وزن الايدروجين العادي وهو ما يعرف بالدوتيريوم في اميركا وبالدبلوجين في انكلترا . وقد عمد الاستاذ لورنس الاميركي الى اطلاق نوى الايدروجين الثقيل وهي تعرف باسم دوتونات ثم زاد سرعة انطلاقها بطريقة خاصة استنبطها ، فوجدها افعل في تحطيم الذرّات من البروتونات العادية

والآلات التي بنيت لقذف هذه القنابل آية من آيات الصناعة الكهربائية الحديثة . فآلة الاستاذ

لورنس الاميركي تشتمل مثلاً على مغناطيس وزنهُ ٨٥ طنًّا من شأنهِ ان يزيد سرعة البروتونات المنطلقة من الغاز حتى تبلغ طاقتها نحو خمسة ملايين فولط . واما الآلة التي بنيت في معهد ماستشوستس الصناعي باشراف الاستاذ فاندِه جراف فتطلق مقذوفات بسرعة ٢٦ الف ميل في الثانية

النظائر وسرّ النواة

كان العلماء يعتقدون ان ذرّات كل عنصر تشتمل على عددٍ ثابت من البروتونات والالكترونات. فذرّة الاكسجين مثلاً تشتمل على ١٦ بروتوناً و١٦ الكتروناً. ومن قبل كان الكيماويون قد عيّنوا وزن الاكسجين الذرّي فجعلوهُ ١٦ وقاسوا عليهِ الاوزان الذرية لسائر العناصر . فلما اكتشف طمسن طريقتهُ المغناطيسية العجيبة[1] لمعرفة اوزان العناصر ثبت ان معظم ذرّات الاكسجين وزنها ١٦ ولكن بعضها وزنهُ ١٧ او ١٨ ومتوسط نسبة هذه الذرّات التي وزنها ١٧ او ١٨ الى الذرّات التي وزنها ١٦ كنسبة ١ الى ٥٠٠ ثم ظهر ان عنصر الرصاص لهُ ثمانية اصناف من الذرّات مختلفة الوزن . واما عنصر الزئبق فلهُ تسعة اصناف وكذلك عنصر القصدير لهُ احد عشر صنفاً

هذه الاصناف من العنصر الواحد تعرف باسم « النظائر » isotopes اطلقهُ عليها الاستاذ صدي الانكليزي . وقد ثبت حتى الآن ان ٧٢ عنصراً من العناصر الكيمائية لكلٍ منها نظيران او اكثر بل قد ظهر ان للعناصر التي درست نحو ٢٧٠ نظيراً ، وهذا يعني ان نواة كل نظير تختلف وزناً عن نواة النظير الآخر ، لان كتلة الذرّة في نواتها

وفهم النظائر أمر لا مندحة عنهُ لفهم الحملة التي يوجهها العلماء الى نواه الذرّة . فهي اولاً قد تمكنهم من ان يلمحوا شيئاً من بنائها . وثانياً لانها تبين لهم عظم القوى التي تربط بين اجزائها . ذلك ان وزن النواة اقلّ من مجموع اوزان اجزائها . خذ مثلاً دقيقة الفا . فهي في الواقع نواة ذرّة الهليوم . ووزنها ٤٫٠٠٢ ولكن دقيقة الفا مكونة من اربعة بروتونات والكترونين ومجموع اوزان هذه الاجزاء ٤٫٠٣٢ فنواة الهليوم تزن ٠٫٠٣٠ اقل من وزن اجزائها . هذا الفرق في الوزن يمثل المادة التي تحوّلت الى طاقة عند تكوين دقيقة الفا من اربعة بروتونات والكترونين . والطاقة التي تنشأ عن تحوُّل هذا القدر من المادة الى طاقة تعدل ٢٧ مليون الكترون فولط[2] . ولذلك يجد العلماء نواة الهليوم — او دقيقة الفا — من أعسر الدقائق على التحطيم . بيد ان نواة الاكسجين تنقص (٫١٢٣٨) عن مجموع اوزان اجزائها . وهذا يعني ان هذا القدر من المادة قد تحوّل الى ١١٥ مليون الكترون فولط وهي الطاقة التي تربط بين اجزاء نواة الاكسجين

(١) تشتمل هذه الطريقة على قطبي مغنطيس احدهما ازاء الآخر . ثم يطلق في الفسحة بين القطبين وابل من الذرّات التي أينت ionized اي فقدت جزءاً منها حتى اصبحت لها شحنة كهربائية . فيجذب المغناطيس هذه الايونات ومقدار الجذب يختلف باختلاف كتلة الذرة

(٢) اي طاقة الكترون سائر بضغط كهربائي قدره ٢٧٠٠٠٠٠٠ فولط

فلما اكتشفت نظائر الاكسجين اخذ بعض العلماء المدققين يحسبون . قالوا ان وزن نواة الايدروجين يعدل $\frac{1}{16}$ من نواة الاكسجين بعد حساب ما يتحوَّل من المادة الى طاقة كما تقدم . وعلى هذا يفهم كون وزن الاكسجين الذرّي ١٦ وان ذرّتهُ مؤلفة من ١٦ بروتوناً وانَّ نواة الايدروجين مؤلفة من بروتون واحد . ولكن ما القول في ذرّات نظيري الاكسجين اللذين يزنان ١٧ و ١٨ . ان ١٦ بروتوناً لا يمكن بحالٍ من الاحوال ان تكوّن نواةً وزنها ١٧ او ١٨ فكيف يعلل ذلك ؟ هل يمكن ان يكون عنصر الايدروجين عنصراً غير نقيٍّ ، وهل لهُ نظيرٌ يماثله ، في خواصهِ الكيمائية والطبيعية ويختلف عنهُ وزناً ؟

الايدروجين الثقيل

هذا الاعتبار النظري الصرف حمل طائفة من علماء اميركا على البحث. فأتى الاستاذ اليسن (معهد الاباما الصناعي) بأدلة على وجود نوع من الايدروجين تختلف ذرّاتهُ عن ذرات الايدروجين العادي . وعمد الاستاذ يوري (جامعة كولومبيا) والاستاذ بركويد (مكتب المقاييس بوشنجطن) الى تقطير الايدروجين السائل على بردٍ قريبٍ من درجة الصفر المطلق فاستفردا ذرات ايدروجين وزن كل ذرة منها ضعف وزن ذرة الايدروجين العادي . فأطلق على هذا النوع من الايدروجين اسم «دوتيريوم» وفي انكلترا دعي « دبلوجين » . وأطلق على نواته اسم « دوتون» في اميركا و «دبلون» في انكلترا . وقد كان لاكتشاف هذا النظير شأن خطير في دوائر العلم ، يفوق ما كان لاكتشاف النظائر الاخرى من خطورة الشأن . ذلك ان نواة هذا النظير نوع جديد من النوى يجب استكشافه ومعرفة بنائهِ . ثم ان الدوتونات نفسها تستعمل الآن كقذائف تطلق على نوى العناصر والنظائر المختلفة بغية تحطيمها[1]

النوترون وبناء النواة

في اوائل سنة ١٩٣٢ اذيع من انكلترا ان الاستاذ شدك اكتشف دقيقة جديدة اطلق عليها اسم « النوترون » . هذا الاكتشاف يمكن ان يؤخذ دليلاً على اسلوب العلم وعلى شيوعيته . ذلك ان طوائف من العلماء ، في بلدان مختلفة ، مهدوا بمباحثهم الطريفة ، الطريق لاكتشاف النوترون على يد الاستاذ شدك

ففي سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث Botho وبكر Becker يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسدَّدة ، تصيب بعض نوى البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ . فظن بوث وبكر ان هذا الاشعاع من قبيل اشعة غمَّا التي تخرج

(١) راجع آخر الصفحة الخامسة من هذا المقال

من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقوة اختراق . وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو الفرنسي وزوجته (كريمة مدام كوري) بتجارب من قبيل تجارب الالمانيين

فوضعا حوائل من مواد مختلفة بين البريليوم الذي يطلق هـذه الاشعة وغرفة التأيين onization chamber [١] فوجدا انهُ اذا كان الحائل من مادة فيها غاز الايدروجين كمادة البرافين ، زاد عدد الايونات المتولدة في غرفة التأيين وهو غير منتظر، بل المنتظر حجب بعض الاشعة الصادرة من البريليوم بواسطة هـذا الحائل . ويعلل ذلك بأن هذه الاشعة الصادرة من البريليوم تصيب بعض ذرّات الايدروجين في البرافين فتطلق بروتوناتها بسرعة ١٨ الف ميل في الثانية . فقالا اذا كانت اشعة البريليوم امواجاً فطاقتها يجب ان تكون ٥٠ مليون الكترون فولط

واذن فهذه الظاهرة عجيبة تثير الدهشة لان المواد المشعة لا تطلق دقائق لها طاقة تزيد على ٦ ملايين الكترون فولط مثل دقائق الفا المنطلقة من عنصر البولونيوم . واذن فالبريليوم يطلق اشعة تفوق طاقتها عشرة اضعاف طاقة الاشعة المسدّدة اليهِ وهذا غريب

ففرض جوليو وزوجتهُ ان هذه الاشعة المنطلقة من البريليوم امواج ، وانها في قصرها وقوة نفوذها تقع بين اشعة غما التي تخرج من الراديوم والاشعة الكونية التي كشفها ودرسها ملكن ورهط من اكبر علماءِ العصر

قرأ شدك عن هذه التجارب العجيبة ، فعمد الى أنابيب قديمة من الراديوم كانت قد اهديت اليهِ ، بعد ما فقد الراديوم فيها خواصه العلاجية ، فاستخرج منها عنصر البولونيوم وهو يختلف عن الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ دقائق الفا حالة ان الراديوم يطلق دقائق الفا وبيتا واشعة غما . وكان يعلم ان طاقة دقائق الفا ٦ ملايين الكترون فولط . فاذا كانت تستطيع هذه الدقائق ان تقذف من البريليوم اشعة طاقتها ٥٠ مليون الكترون فولط فهو اما امام ظاهرة غريبة جديرة بالبحث حرية بالتفسير

اطلق شدك دقائق الفا من عنصر البولونيوم على البريليوم ووضع بين البريليوم وبين غرفة التأيين حائلاً من النتروجين ، فكانت الاشعة المنطلقة من الراديوم على النتروجين عنيفة كل العنف حتى انها احدثت في غرفة التأيين ٣٠ الف ايون . هنا توقف شدك وقال : لو كانت اشعة البريليوم التي اصابت النتروجين من طاقة ٥٠ مليون الكترون فولط ، لما استطاعت – بحسب النواميس المسلَّم بها – ان تحدث مثل هذا العدد من الايونات. بل لما استطاعت ان تحدث اكثر من ١٠ آلاف ايون

ولكن اذا فرض ان الاشعة المنطلقة من البريليوم هي دقائق مادية كتلتها ككتلة البروتون وتسير بسرعة تعدل عُشر سرعة النور فاحداثها ٣٠ الف ايون في غرفة التأيين يصبح امراً معقولاً

(١) اداة تستعمل لقياس قوة الاشعة وهي غرفة تحتوي على غاز . فاذا مرت فيها تيار نزع بعض الالكترونات من الذرات فتصبح ايونات (اي دقائق مكهربة او شوارد كما دعاها بعضهم) وتحصى هذه الايونات فيقاس بعددها قوة التيار

ثم اذا فرض ان هذه الدقائق لا تحمل شحنة كهربائية ـ وهي لذلك لا تتأثر بالجذب المغناطيسي ـ فعندئذٍ يمكن تعليل قوة اختراقها للمواد على اوفى وجه

وكذلك كشف عن «النوترون» . وقد اثبتت التجارب ان النوترونات يمكن اطلاقها من مواد اخرى عدا البريليوم . والرأي الآن على ان النوترون لبنة اساسية في بناء نواة الذرَّة

ولكن بناء النوترون نفسه مثار للجدل . فبعضهم يحسبه دقيقة فردة لا تتجزأ . وبعضهم يذهب الى انهُ مؤلف من بروتون والكترون وقد حشكا معاً فلا ينفصل احدهما عن الآخر . وهذا الرأي يعلّل لنا مشابهة النوترون للبروتون وزناً . ويعلل كذلك تعادل كهربائيتهِ لان شحنة البروتون فيه تعدّل شحنة الالكترون . فهو بحسب هذا الرأي ذرّة ايدروجين ولكن المسافة فيها بين البروتون والالكترون قريبة جدًّا حتى تكاد تكون معدومة

ان بناء النوترون على هذه الصورة يغيّر الرأي في بناء نواة الذرة . كنا من قبل ، نفرض ان النواة مؤلفة من بروتونات والكترونات كل الكترون منها يعدّل بروتوناً ولما كان عدد البروتونات يزيد على عدد الالكترونات فالعدد الزائد من البروتونات تعدله الالكترونات التي حول النواة. فأصبحنا اليوم نقول ان النواة مؤلفة من بروتونات ونوترونات . وكذلك نستطيع ان نفهم بناء الدوتون (ذرة الدوتيريوم او الايدروجين الثقيل) فنواة الايدروجين الثقيل مؤلفة من نوترون (بروتون والكترون متلاصقين او يكادان فيعدّل احدهما الآخر) وبروتون . وخارج النواة الكترون واحد يعدل البروتون الذي داخلها . اما نوى الذرات في العناصر الثقيلة فقد تكون مبنية من مجموعات من البروتونات والنوترونات والدوتونات والهليومات (heliums اي نوى ذرات الهليوم وكل منها مؤلف من اربعة بروتونات) فنواة الاكسجين تتصرف كأنها مؤلفة من اربعة هليومات (١٦ بروتوناً) . اما البريليوم فعنصر اقل استقراراً والمرجح انَّنواته مؤلفة من هليومين (الهليوم اربعة بروتونات) ونوترون وهذا هو النوترون الذي ينطلق منها عند توجيه دقائق الفا الى البريليوم كما حدث في تجارب بوث وبكر وجوليو وشدك.وقد جاء في الصحف العلمية من عهد قريب ان اطلاق الدوتونات على عنصر الليثيوم كان افعل في قذف تيارات النوترون من اطلاق دقائق الفا على البريليوم

البوزيترون صنو الالكترون

واذ كانت الدوائر العلمية دهشة متحمسة ، لكشف النوترون وامكان استعماله في تصحيح بعض الآراء العلمية السائدة عن بناءِ نواة الذرّة ، جاءت الانباء بكشف دقيقة اخرى يرجّح انها كذلك من لبنات الكون الاساسية

جاءَ هذا الكشف بطريق العَرَض . ذلك ان الاستاذ لورنس كان يبحث في الاشعة الكونية . والاشعة الكونية شديدة النفوذ تخترق لوحاً سمكهُ بضع اقدام من الرصاص . ولكنها تعيي الباحثين فلا يستطيعون درسها مباشرة . ولذلك يعمدون الى فعلها في دقائق الهواءِ . ذلك ان هذه الاشعة تصيب بعض دقائق الهواءِ فتؤيّنها (اي تزيل جانباً منها فيصبح الباقي ولهُ شحنة كهربائية) وفي سنة ١٩٢٩ حاول العالم الروسي سكوبلزن Skobelzyn ان يصوّر مسارات الاشعة في غرفة غائمة[١] وتبعهُ ملكن واندرسن فحسّنا الطريقة واتقناها وصوّرا بها مسارات الاشعة الكونية كما يدل عليها اصطدامها بدقائق الهواءِ في غرفة غائمة . في هذه الصور لاحظ اندرسن عدا مسارات الاشعة الكونية خطوطاً مزدوجة ومنحنية فاسترعى نظرهُ اولاً ان هذه الخطوط المنحنية لا تكون الاَّ ازواجاً . وثانياً ان احدها منحرف الى اليمين والآخر الى اليسار . اي ان احدها سالب والآخر موجب . وتبيّن عند البحث ان الخط السالب المنحني انما هو الالكترون . ولكن لم يستطع احد ان يعلّل الخط الموجب . ذلك ان اصغر وحدة للكهربائية الموجبة عرفت حتى ذلك الوقت كانت وحدة البروتون . وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً . فاذا كان الخط الموجب يمثل البروتون فيجب ان يكون انحرافهُ اعظم جدًّا من هذا الخط البادي في الصورة

فقال اندرسن في ذاته ، ان البروتون ليس صنو الالكترون بل صنوه دقيقة اخرى اصغر من البروتون كتلتها مثل كتلة الالكترون وشحنتها موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . ودعا هذه الدقيقة البوزيترون . ثم توالت التجارب فأيدت اكتشاف اندرسن واشهرها التجارب التي قام بها بلاكِتْ واوكياليني في كمبردج

***

وقد اختلف العلماء في تسمية هذه الدقيقة فقال بعضهم ان لفظ بوزيترون قد يخدع الاَّ اذا تخلّينا عن لفظ الكترون وسميناهُ نغاترون . ونحن نستطيع ان نتغلب على هذه الصعوبة فنسميهما الكهرب الموجب (البوزيترون) والكهرب السالب (الالكترون)

***

وكذلك يرى القارىء ان لبنات الكون ، ونحن نكتب هذه الكلمات في منتصف سنة ١٩٣٤ هي اربع : الالكترون (الكهرب السالب) والبروتون (الاوّيل) والنوترون (المحايد اي لاسالب الشحنة ولا موجبها) والبوزيترون (الكهرب الموجب) . وكل دقيقة من هذه الدقائق لا تزال لغزاً من الالغاز ، ومن يدري فقد تسفر المباحث الجارية الآن عن نتائج تجعل لبنات الكون الاساسية اكثر من اربع ، او قد تحوّلها الى اثنتين فقط هما الكهربان الموجب والسالب

(١) الغرفة الغائمة طريقة تتبين بها مسارات الدقائق التي تمكن رؤيتها بما تتركه من الاثر في الطريق الذي تسلكه

جولات في الادب الاوربي

روح القصة في الادب الحديث

لحسن محمود

كنت في احدى الليالي جالساً في مقهى مع جماعة من الادباء وتناثر الحديث فاصطفى كل واحد منا واحداً من الجماعة يتحدث اليهِ في صوت رفيق ومال اليّ احد افراد الجماعة يسألني ما هي الكتب التي قرأتها في السنوات الاخيرة فوجدت فيها اكبر مثال للنزعة الحديثة في الادب القصصي فجذبت ورقة امامي وانتضيت القلم واخذت ارسم خطوطاً ورموزاً في غير قصد كي يكون لديّ مجال للتفكير فانني والحق اقول حرت في الاجابة ولكنني رأيت ان اترك الامر للعاطفة بدلاً من الفكر فاذا هي تملي عليّ اسماء لكتب اربعة ظهر بعضها منذ سنوات وظهر البعض في السنتين الاخيرتين وهذه الكتب بحسب ظهورها رواية توماس مان الالماني التي اسماها « الموت في البندقية » ورواية اندريه جيد الكاتب الفرنسي التي اسماها «المزيفين» ورواية «الامواج» لفرجينيا وولف الكاتبة الانجليزية ورواية « عالم جديد جريء » لألدس هكسلي

وما ان كتبت هذه الاسماء الاربعة حتى عجبت لنفسي لانني لم اضع بين هذه القصص قصصاً كنت ولا ازال اعجب بها واتخذها مثالاً للادب الحديث : فلماذا لم اختر كتاباً من كتب د. ه. لورنس مثلاً ؟ ولماذا لم استشهد بفن جيمس جويس في رواية « عوليس » ؟ لست بمستطيع ان اقول ان توماس مان كسر في قصة « الموت في البندقية » قيود القصة القديمة كما فعل مؤلف «عوليس» الذي حاول ان يصور حياة مدينة بأسرها في اقصر من يوم وليلة ويرسم كل ما يمر بخلد رجل في اثناء تفكيره ، عجبت لنفسي اذ وضعت قصة نشرت في سنة ١٩١٢ مثل قصة « الموت في البندقية » الى جانب قصة نشرت في سنة ١٩٢٥ مثل قصة « المزيفين » الى جانب قصتين ظهرتا في السنتين الاخيرتين وعجبت لنفسي اذ لم اميز بين قصة قصيرة مثل « الموت في البندقية » وبين قصص طويلة من النوع الذي اصطلحوا على تسميتهِ بالرواية

كل ذلك اخذته على نفسي ورأيت انني ربما تسرّعت في الحكم وآثرت مجرد الميل على الوصول الى الحقيقة . ولكنني كلما اطلت التفكير وجدت ان اختياري لم يكن عبثاً واني اذا كنت قد اغفلت روايات فيها مثال حي للنزعة الحديثة فبعدت عن لورنس وادبه واغفلت جيمس جويس وتعقيداته

واهملت مارسيل بروست ودقائقه النفسية فاني لم اكن في اختياري غير موفق ولم اكن عن الصواب بعيداً

ربما كنت اجد في لورنس ما يتخذ مثالاً للنزعة الحديثة : في « قوس المطر » وفي « عصا هارون » بل اكثر من ذلك في « الثعبان ذي الريش » ، ففي لورنس نجد نزعات حديثة بادية في اكثر صفحاته — وان مباحثهُ ودورانه حول اللذة الجسدية وتمجيده لها وحرقه البخور دائماً امام آلهة الحب واللذة نزعة حديثة من نزعات هذا العصر وانهُ لمن المستطاع ان نقرأ ما شئنا من ادب عصر الملكة فيكتوريا دون ان نجد اثراً لتلك النزعة ، قد نجد تيارات قليلة دائمة في جميع عصور الادب ولكنها تيارات خفية وربما قيل ان النزعة الواقعية تصف نقائص الناس ومثالبهم وتصور الامور بحيث لا ترحم سراً ولا تكتم تفصيلاً ولكن النزعة الواقعية تفعل ذلك ابداً عن غرض هو تصوير الحياة الواقعية فحسب ، فليس في ادب القرن التاسع عشر — فيما عدا الطلائع التي تسبق العصر بزمن مديد — ما يشبه دعوة لورنس وليس لورنس وحده بل البعض من معاصريه ايضاً ، فتمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة هي نزعة حديثة بلا ريب ولكن ما اخطأ فيهِ لورنس هو اعتباره ان اللذة الجسدية هي القاعدة الوحيدة للحياة انما نعيش من اجلها او يجب ان نعيش من اجلها ، وانما نموت من أجلها او يجب من أجلها ان نموت. وفي ذلك كان لورنس يعارض أدب العصر السابق له الذي تجرد من اللذة الجسدية او لم يذكرها الاَّ في معرض الذم ولكن لورنس ذهب الى أبعد من ذلك فقد اتخذها ديناً ونصب نفسهُ لهذا الدين كاهناً ومبشراً وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الاول عن عقيدة ثابتة فيما يبشر بهِ ويدعو اليهِ وربما كان مبلغ هذا التعصب ومداه ناجماً عن علة نفسية كما يقول البعض ليست هي الاغراق في معرفة اللذة وانما هي الحرمان من معرفة اللذة وربما كان لعلة نفسية اخرى ولكن مهما يكن الامر فان دعوة لورنس لاقت نجاحاً وصار لدين اللذة مكان معترف بهِ في العالم الادبي الحديث ولكن لحسن الحظ لم يأخذ العالم بمقاييسه فقد قبل التعاليم على أن يضمها الى عقائده الاخرى ، فليست اللذة الجسدية إذن — وهي الطابع الغالب على مؤلفات لورنس — هي ما نريد ان نعتبره نزعة حديثة فقد يكون الاهتمام باللذة الجسدية احدى النزعات ولكنا نبحث عن روح الادب الحديث ونزعته في تياره الاكبر

وفي مارسيل بروست اين نجد النزعة الحديثة ؟ نحن نعلم ان بروست اختطَّ في قصصه خطة تكاد تكون فريدة وعرض لنا صوراً في طريقة غريبة ابتدعها فقد رسم لنا حياة مارسيل وبطل قصته وهو طفل يفكر تفكير البطولة المبعثر وفي منزل سوان ذلك السيد البسيط الذي كان صديقاً لأمير من اكبر الامراء وصوَّر لنا حياة ذلك السيد يتقلب بين الشك والغيرة وصوَّر حب مارسيل لجلبرت وخيبته ثم رغبته في التخلص من شبح هذا الحب ثم تقلبه في شمس الدوقة جرمانت وما يحوطها من جوّ ارستقراطي يعرفهُ بروست حق المعرفة وما فيهِ من ديدان مزخرفة وحشرات مذهبة ووصف

لنا حياة شارليس العجيبة وميوله الزائغة يحمل سرًّا خائفاً مضطرباً مهدم الاعصاب

هذا الفن قائم على التحليل الدقيق المسهب الى درجة الاملال وان كان شديد الجاذبية فذلك الفحص المستمر وتقطيع الجسد وما داخل الجسد وفحص كل جزء بمنظار — ذلك العزف على وتر واحد وتكرار نغمة واحدة ، وتلك الصور المتتابعة في اسلوب متصل معقد ان هو الاّ نزعة حديثة في الادب . ولكن هل هي روح العصر الحديث ؟

ثم جيمس جويس الذي يشبه بروست في طريقته بعض الشيء وان كان يختلف عنهُ في نواحٍ متعددة ماذا يظهر لنا من عناصر جديدة ؟ انهُ يروي لنا قصة يوم واحد او اقل من يوم من حياة رجل عادي من اهل دبلن هو المستر بلوم اليهودي الاصل الذي جاوز الاربعين من العمر وهو رجل مرهق بعمله اذ هو منظم اعلانات وبحكم هذا العمل يدخل هذا المتجر وذاك وبحكم هذا العمل يكون مع الناس رفيقاً ولهم مداهناً ، ثم يصوّر لنا الكاتب امرأته الحسناء التي تخونه وتتخذ خليلاً بعد خليل وهو حزين لذلك مهموم ولكنهُ لا يجرؤ على اتخاذ خطوة حاسمة لانهُ لا يجد في نفسهِ من علائم الرجولة ما يساعدهُ على ذلك ونرى صورة ستيفن ديدالوس الذي عرفناه في صباه في رواية سابقة لجويس وصف فيها حياة هذا الصبي وهو يتعلم في المدارس ورأينا نموه الذهني والجسدي ، وهو في رواية «عوليس» فتىً يستعد لاتمام دراسته في فرنسا ونتتبع في هذه الرواية حركات بلوم في يومه ونراه ينتقل من مكان الى مكان ويقوم بأعمال عدة اكثرها بعيد عن عمله حتى ينصرف الى ستيفن اي حتى يعثر تليماك على عوليس كما في «الاوديسة»

***

اراد جويس ان يصوّر لنا حياة رجل في اقل من يوم وليلة داخل المدينة ولكنهُ اراد اكثر من ذلك ان يعكس لنا حياة مدينة عظيمة صاخبة بحسناتها ورذائلها . ثم اراد ابعد من ذلك ان ينقل الصور التي تمر في مخيلة العقل الانساني وهو في غمرات الحياة . وهذا ما دعا جويس الى ان يخلق لنفسهِ اسلوباً جديداً مليئاً بالاستعارات والتشابيه والاشارات الى حوادث ماضية وهو اسلوب يصعب تتبعه ولكنهُ ابتدع ليؤدي الغرض المقصود منهُ وليس أدلّ على صحة هذا القول من المقابلة بين اسلوبهِ في مجموعة القصص المسماة « أهل دبلن » وبين أسلوبه في « عوليس » ثم بين اسلوبه في «حياة الفنّان في صباه» واسلوبه كذلك في «عوليس»

ولا ريب في ان تعقد الاسلوب ظاهرة من ظواهر الادب الحديث وهي نتيجة للتعمق في التحليل النفسي ونجد هذه الظاهرة واضحة في كل من بروست وجويس وقد بنيت على فكرة جديدة في فن القصة . فالكتّاب المحللون يزعمون ان القصة كما نراها في الكتّاب الذين يسيرون على المبدأ القديم ان هي الاّ نتيجة الانتخاب والاختيار فالروائي يختار ما يريد ان يقوله عن شخصيات روايته ويكتم ما يريد ان يقول ويصف جوانب منهم ويسكت عن جوانب ويتكلم عن مواقف ويهمل

مواقف فيوفق احياناً ويخطىء احياناً وهو في الحالين عابث بجزء كبير بل بالجزء الاكبر من الحقيقة يخفيه ، فصور الكاتب في روايته ان هي الا صور مبتورة واذا بدت للقارىء صوراً كاملة ، واذا بدت لهُ في ثوب الحقيقة فانما ذلك نتيجة عمل ذهني كان من الاولى ان لا يحدث

وهذه النظرية هي بلا ريب خطوة نحو الطريق الصحيح وبها اخذ الكتّاب في الادب الحديث بوجهٍ عام غير ان البعض تطرّف فيها والبعض لم يتطرّف ونجد عناصر هذا المذهب في لورنس ونجد استعمالاً مستمرًّا له في جويس وفرجينيا وولف وبروست على اختلاف في كل منهم ونجد تطرفاً في استعماله في رواية كرواية « الحج » لمسز ريتشاردسن التي سجلت فيها حياة بطلة روايتها « مريم هندرسن » فأخرجت عشرة اجزاء من هذه الرواية ولما تبلغ بطلة الرواية سن الاربعين . وقد يكون لنا ان نتساءل هل وفقت مسز ريتشاردسن حقيقة في تسجيل هذه الحياة تسجيلاً دقيقاً وهل يمكن لكاتب مهما أغرق في هذه الطريقة ان يصل الى ان يثبت كل شيء ؟ عقيدتي ان ذلك ليس مستطاعاً

فالاختيار اذن قائم دائماً ومسز ريتشاردسن نفسها لا تستطيع الاَّ ان تكون كغيرها من الروائيين يتبين لنا الآن في وضوح مدى العلاقة بين هذه الطريقة وبين ما يفعلهُ اطباء النفس على طريقة فرويد فالمسلك في الحالين واحد والغرض متشابه : الاطباء يتطلعون الى الوقوف على خفايا نفس العليل فيطرحون عليه في جلساتهم اسئلة عدة يحاولون بها ان يستطلعوا سره الكمين فيقتربون من موضوع هذا السر احياناً ثم يبتعدون بقدر ما يجدون فيه من استعداد الى ان يوفقوا في معرفة سرّ الداء وسبب العلة والكتّاب الحديثون يسجلون الدقائق والتفصيلات باسهاب للوقوف على علة الحوادث

***

كل هذه النزعات المختلفة تؤثر بلا ريب في سير الادب الحديث ولكنني لم ارد ان ارى فيها ما يدل على الروح الحقيقية للادب فان هذه الروح في خلاصتها هي شيء ابعد من ذلك ، لقد اردت نزعة خفية تتمثل فيها نفسية العصر وهذه النزعة وجدتها في القصص الاربع التي اشرت اليها

فقصة توماس مان عن « الموت في البندقية » هي بلا ريب من خير القصص التي الفت في هذا القرن حتى لتكاد تبلغ حدّ الكمال وقلما نجد لها مثيلاً في روعة الاسلوب على بساطته وموضوعها رحلة رجل مكدود جاوز الستين مدير لمصرف الماني اضنى العمل جسمه وحطّم اعصابه نال الثروة والجاه ولكنهُ في سبيل ذلك كاد يفقد الحياة فهو يرحل الى البندقية لعلَّ شمس ايطاليا وسماءها يعيدان اليهِ شيئاً من الصحة التي يلتمسها وقد وجد الراحة الجسدية ولكنه وجد تعباً نفسيًّا فان عاطفة غريبة غير معقولة تولدت فيهِ هي اهتمامه بغلام في نحو الحادية عشرة من عمره اهتماماً لا يدري هو سببه وازدياد هذا الاهتمام الى ان صار شاغلاً لتفكيره فلا يطيب له شيء غير مراقبة

الغلام مراقبة دائماً ، وانتشرت الكوليرا في اثناء ذلك بمدينة البندقية فأسرع الاجانب الى الرحيل عنها ويزمع اهل الغلام الرحيل فيذهب الرجل المحطم ليرقب الغلام في سفره ويودعه بآخر نظرة فيجلس على مقعد وعينه لا تتحول عن غلامه الذي لم يتصل به قط ولو بكلمة واحدة ويتحرك القطار فاذا الرجل يرتمي على المقعد ميتاً

***

لم يخرج توماس مان في وضع هذه القصة عما هو مألوف ولكن فيها الروح الحديثة التي نشير اليها لا نعني ذلك الحب غير الطبيعي الذي شعر به رجل جاوز الستين لغلام في الحادية عشرة من عمره ، حب لا يمكن ان ينشأ عنه شيء وليس له غاية وانما الذي نعنيه هو تصوير ذلك القلق والاضطراب النفسي الملازم للحياة الحديثة فهذا الرجل كان يريد الراحة في سن يستحق فيها هذه الراحة ويريد ان يخلد الى السكون في وقت يجب فيه السكون ولكنه بدلاً من ذلك لا يجد غير التعب الذي خلقه لنفسه كأن الحياة في ضجتها وصخبها وسرعتها تأبى ان تعرف الراحة فاذا كان العالم قد فقد البساطة وتعقدت وسائله المادية فان النفس تأبى الاّ ان تصير معقدة شأن الحياة المادية فالانسان لا يستطيع ان يحول دون خلق المتاعب والمشاكل لنفسه والادباء الحديثون لا يستطيعون الاّ ان يصوروا هذه الحيرة وهذا الاضطراب النفسي

أما رواية « المزيفين » لاندريه جيد فهي جديدة في كل شيء سواء في ذلك موضوعها او اسلوبها الفني وهي ليست كالروايات العادية اذ لا نجد لها موضوعاً او نظاماً متتابعاً او فكرة ظاهرة محددة ويعالج المؤلف كثيراً من الموضوعات في الحوار الذي يدور بين اشخاص وأهم شخص في الرواية هو ادوار الروائي الذي يؤلف رواية باسم « المزيفين » ومن ذلك نرى ان المؤلف انما اراد ان يصور نفسه في صورة بطل روايته ونراه يروي لنا حوادث هذا البطل احياناً وأحياناً ينقل مذكراته ، واشخاص الرواية مجرّدون تجريداً تامًّا من الرادع الخلقي ولكنهم يمثلون فكرة اكثر مما يمثلون احياء ومع ذلك نرى هذه الرواية تمثل الحياة العصرية حق التمثيل بصخبها وضجتها ، باضطرابها وحيرتها

واذا رجعنا الى رواية «عالم جديد جريء» نجد لوناً آخر من الوان الفن الحديث هو الفكاهة الممزوجة بالسخرية فقد اراد منا الدس هكسلي ان نرى العالم كما يبدو في المستقبل اذا تطورت الامور تطوراً منطقيًّا وفاقاً لبعض الآراء التي يقول بها بعض العلماء اليوم ولا ريب في ان هذه الرواية العجيبة بعالمها العجيب إن هي الاّ نقد لاذع في قالب روائي للنزعة المادية التي ينزع اليها العلماء ويتطرّف فيها بعضهم وميل بعض هؤلاء العلماء الى الاغراق في الاستنتاج ونسيانهم الواجب الاول في البحث العلمي وهو ان يحتاطوا اشد الاحتياط في ابداء آرائهم وان لا يسلموا

برأي الاّ بعد ان تثبت لهم صحته بالتجربة العلمية الصحيحة . لقد تمكن العلم من هدم اركان الاوهام وازال دولة الآراء والمعتقدات التي لا تقوم على اساس ونال العلم نصراً كبيراً ولكن كيف كان ذلك ؟ لم يكن العلم لينجح نجاحاً يذكر لو لم يقم على طرق البحث النزيه المجرد من اية غاية الاّ الوصول الى الحقيقة او الاقتراب منها فاذا حاد العلم عن هذه الخطوة وأخذ يندفع في طرق الحدس والتخمين فانه لا بدَّ فاقد مكانته بين الناس

ففي هذه الرواية كما في سائر روايات الدس هكسلي نزعة دائمة الى السخرية القاسية المرة ومما يؤخذ عليه دائماً جفاؤه نحو شخصيات رواياته على ان موضوع هذه الرواية بطبيعته مما يلائم الدس هكسلي ويظهر بجلاء جوانب عبقريته

ان الدس هكسلي اتى في هذه الرواية بشخصية فذة هي شخصية الشاب المتوحش الذي نشأ بين القبائل الهمجية يتكلم لغة انجليزية غير لغة الناس الذين نشأوا في «العالم الجديد الجريء» فولدوا في المصانع ودبت فيهم نسمة الحياة نتيجة لتفاعل كيميائي فهو يتكلم لغة تعلمها من كتاب مجهول عثر عليه لشاعر اندثر ذكره وعفا اثره لان المدنية التي يصفها هكسلي تأبى الاتصال بالقديم وهذا الشاعر هو وليم شكسبير

في هذه الشخصية نرى أثر الروح الحديثة التي رأيناها في المؤلفات السابقة ، نرى التردد والحيرة القريبة من اليأس على ان الكاتب ابتدع لها سبباً معقولاً وعلة مقبولة وكيف لا يكون الشاب المتوحش في حيرة من امره وهو يرى كل ما يحوطه عجيباً بحيث يصعب عليه فهم الامور كيف تجري وفهم الناس كيف تفكر : ان عالمنا لم يبلغ بعد مبلغ هذه الحياة العجيبة التي وصفها هكسلي في روايته والتي ينتظر ان يصل اليها لو صحت احلام بعض العلماء ولكن عالمنا الآن بما هو فيه جدير بأن يكون موضع الحيرة

***

وفي رواية « الامواج » لفرجينا وولف ماذا نرى ؟ هل نرى شيئاً غير هذه الحيرة في فهم الحياة ؟ وغير هذا القلق الذي استولى على النفوس ؟ تصف الرواية حياة اشخاص وتتبعهم وهم اطفال وهم صبية وهم فتيان ثم وهم رجال ثم شيوخ تتلقفهم الحياة وتطوح بهم الى هذا الشاطىء أو ذاك كما تفعل الامواج وهم قد يناضلون حيناً ويمانعون ولكن بحر الحياة المترجرج أقوى منهم وأعز سلطاناً

إن هذا الكتاب ان هو الاّ نشيد موسيقي يعزف على آلات عديدة متنوّعة الاصوات صاخبة احياناً وهادئة احياناً وقد يكون في آخر نغماته روح الاستسلام ولكنه استسلام الحائر الذي اراد ان يعزف الحقيقة فعجز عن استجلاء السر

الاصداء

حكاية مؤلفٍ وكتاب

كنا خمسة في الحديقة الغناء التي تحيط بفندق «مينا هوس» عند سفح الهرم الكبير ، والوقت وقت الغسق والحديث يتنقل من الادب الى الفلسفة الى السياسة . وكان احدنا اميركيًا طويل القامة عريض المنكبين قيل لنا انهُ روائيٌّ مشهور ، يجني من مؤلفاتهِ نحو عشرة آلاف جنيه في السنة . وكانت ترافقهُ زوجتهُ ، وهي ربعة نحيفة القوام ، في عينيها ألقة الذكاء والاحساس المرهف ، ويبدو على وجهها انها من اصلٍ الماني . وكان ثالثنا انكليزيًا تقلب في الاعمال الصحافية والادبية في بلادهِ حتى استقرَّ اخيراً في منصب الناقد الادبي الاول لجريدة « الترانسكربت » وهو من اكبر المناصب الادبية مقاماً في بلادهِ . اما الرابع فكان صحافيًا مصريًا درس في فرنسا وبريطانيا وحذق لغتي البلادين ، واكبَّ على الفلسفة في السوربون ، ولكنَّ السياسة زجَّتهُ في معتركها فاقتحمهُ اقتحام فارس مغوار

جلسنا نتجاذب اطراف الحديث حول مائدة الشاي . فانتقلنا من حديث الجوّ والآثار القديمة ، الى حديث نزع السلاح وعصبة الامم واكتساح القومية الجامحة لمعظم بلدان اوربا . ثم تطرقنا الى سياسات الدول الغربية في الشرق الادنى ، في مصر وسوريا والعراق . وما لبثنا ان سررنا جميعاً بخروجنا من معمعة السياسة الى حلبة الادب ، واذا الحديث يدور ، ونحن لا ندري على مقام «الحظ» في ميدان التأليف . فذكر بعضنا اسماء نفر من المؤلفين ، ليس لمؤلفاتهم قيمة من الناحية الادبية رغم ما اصابوهُ من صيت ذائع وثروة طائلة . وذكر البعض الآخر اسماء نفر آخرين من المؤلفين اوفوا على الغاية من إجادة التأليف ولكن مؤلفاتهم لا يقرؤها الاَّ قليل من المثقفين

وكان الاميركي صامتاً يصغي ، فاذا هو عند هذا الحدّ ، قد استوى في مكانهِ وقال بلهجة القطع « انا لا اصدق ان للحظ ايَّ أثر في نجاح المؤلف »

فعلت الدهشة وجوه الصحب لهذا التصريح الحاسم ، ولحظ هو ذلك ، فاذا التصريح البسيط ، ينقلب خطبة بليغة تدور على الاجتهاد والسعي وشق المرائر وعدم الاعتراف بالخيبة وختمها ، ويدهُ في صدرتهِ كأنهُ نبوليون التأليف بقوله « ان كلمة الحظ لا توجد الاَّ في معجم الكسالى »

فنظر اليهِ الانكليزي ، نظرة هدوءٍ وطمأنينة وقال : لا اظنك تصدق كلّ ما تقول . فاذا شئت سردتُ لك عشرات الحوادث كلٌّ واحدةٍ منها تدحض حكمك المطلق فقلنا معاً : نكتفي بواحدة منها فوقف قليلاً ريثما اشعل لفافتهُ . ثم قال : اذا شئتم — رويت قصةً وقعت وهي غريبة في بابها

الاَّ انها تمثل نصيب « الحظ » في الحياة بوجهٍ خاص ، اكثر من اية قصة تناهى اليَّ خبرها

نقرأ في هذه الايام عن قصص اصابت رواجاً عظيماً فطبعت منها مئات الالوف من النسخ . وحكايتي تدور على احداها

كان في لندن دار للنشر تعرف بدار « ريد وروجر » قوامها جون روجر وابنهُ وليم ، لان اسرة ريد كانت قد انقرضت قبل حوادث حكايتنا بنحو عشرين سنة . وكان روجر وابنهُ يفتخران بانهما لا ينشران من الكتب الاَّ ما كان في رأيهما من الادب العالي . على انهما كان يجهلان اساليب النشر الحديثة كاعلان مطبوعاتهما ، اعلاناً يشوّق اكثر مما يصدّق ، وحثّ النقّاد على افتتانها[١] لكي يسير ذكرها في الناس . وكان الاب روجر لا يستطيع ان يمسك عن طبع كتابٍ اعجب بهِ ، غير حاسب لرواجه حساباً . وكان علاوة على ذلك يدهش ويتململ من نوع الكتب التي تخرجها المطابع ويكثر اقبال الجمهور عليها . وكانت هذه الدار قد اصابت مكانة في ميدان النشر ونجاحاً ماليًّا . فاصبحت في العقد الاول من القرن العشرين ولا قبل لها بمجاراة بيوت النشر الجديدة فقلَّ عليها الاقبال ، وهدّدها الافلاس . فعرض على صاحبيها رجل يدعى بُجُتْ — هذا اسم مستعار لهُ — ان يشتري الدار محتفظاً باسمها ، وبالشاب وليم روجر وكيلاً لهُ وقارئاً[٢].

وما كاد بُجُتْ يتسلّم مقاليد الامورَ ، حتى نقل الدار من شارع زريٍ الى شارع فخم ، واخذ ينشر من الروايات ما يقبل عليهِ الجمهور ، وكان ذا قدرة عجيبة على تبين تيارات الرأي الادبي العام ، من دون ان يفهم او يقيم للادب وزناً صحيحاً . وساعدهُ في عملهِ ، صيت الدار التي اشتراها ، فاقبلت الدنيا عليهِ ايمَّا إقبال

وبقي روجر الاب متصلاً اتصالاً اسميًّا بالدار الى ان ادركتهُ الوفاة . وكان ابنهُ وليم وكيلاً لا حقَّ لهُ في الادارة ، وقارئاً لا يقام لآرائهِ وزن ما . ذلك ان بُجُتْ كان يخشى ان يعتمد على آراءِ الفتى الادبية ، خشية ان يقتفي خطوات والده وينصرف عن الخطة الجديدة التي رسمها

وفي سنة ١٩١٠ ذهب بُجُتْ الى نيويورك ، وبقي وليم في منصب المدير ، خلال غيبتهِ

وفي احد الايام اذ كان جالساً في مكتبهِ ، دخل عليهِ شاب اصفر الوجه غائر العينين اقنى الانف يتأبط اصول كتاب ، فارتمى على كرسيّ هناك وقذف باصول الكتاب على المائدة

قال : انني لا استطيع ان امنّي نفسي بفخر قبولك هذا الكتاب فهو رواية لا تشبه الروايات السيّارة ولا تعالج موضوعاً يستفزُّ الشعور الضعيف بل تدور على فكرة قلما يشار اليها في المجتمعات الراقية . وقد شرفني كل ناشر في لندن برفضها على اني أرغب في اطلاعك عليها ان لم يكن لديك مانع

وتبين وليم في الشاب شيئاً غامضاً استرعى نظره ورأى وما كذبهُ فؤاده ان هذا الجفاء

---

(١) الافتتان مدح شيء وذمه اي المحاسن والاضداد

(٢) القارىء في دور النشر الاعجمية رجل يقرأ اصول الروايات التي تعرض للنشر قبل قبولها او رفضها .

وهذا الاستخفاف كانا حجاباً لنفس دقيقة الحس. واحس بدافع قوي يدفعه الى الظهور بمظهر الصداقة لهذا الشاب غائر العينين. فجعلا يتحدثان. وكلما تقدم الحديث زال الجفاء في كلام الروائي. ثم ما لبث ان صارح الناشر، بأنهُ لا يملك شروى نقير، وان روايتهُ «الاصداء». — وهذا ليس اسمها الحقيقي — كانت مناط امله الاخير. ثم قال ثق ان الرواية ممتازة. فقد بذلت فيها نفسي. واني لواثق من جودتها، ثقة الملاّح ببيت الابرة (البوصلة). ولكنني لا آمل في الحصول على مبلغ كبير لقاء نشرها. فليس فيها مواربة ولا نفاق. بل انها ترسم الحياة كما هي، لا كما ندّعيها او نتظاهر بها. وانك لتقلدني منة اذا قرأتها، واسرعت في ردّك عليّ

فوعد وليم بالشروع في قراءتها حالاً

قال: ليس لديّ ما يشغلني الآن. فاذا جئت غداً بعيد الظهر فقد استطيع ان افضي اليك بقراري في شأنها

وكأن شيئاً في الفتى الروائي اثار كوامن النفس في وليم الاديب، فسرعان ان اقبل على الرواية يقرؤها. ولم يكد يقرأ بضع صفحات حتى ادرك بميزان ادبه الحسّاس انهُ قد فاز بلقية. فلما انجز قراءتها في الهزيع الاخير من الليل، اقتنع بأنهُ قد عثر على آية من الآيات. كان اسلوبها قويّاً متزناً ألمعيّاً، وكانت من سطرها الاول الى الاخير، تنبض نبضاً شعريّاً متدفقاً من نفس سداها الاخلاص ولحمتها دقة الاحساس. ولكنها من حيث النشر كانت لا تتفق هي وسُبُل ذلك العهد. لانها تعالج موضوعات نفسية بعيدة عن نفوس الجماهير، بُعد مبادىء النسبية او الراديو حينئذٍ عن افهامهم. كان الجمهور لا يزال متأثراً بتعاليم العصر الفكتوري. وقلّ منهم من سمع باسم فرويد والتحليل النفسي. وكانت الحياة تميل الى النزعة الخيالية، لان الحرب، التي غيرت النظم الاجتماعية وازاحت لثام الاوهام الشعرية عن حقائق الحياة، كانت ما تزال في طيّات الغيب. ولو نشرت رواية «الاصداء» في سنة ١٩١٠ لاستقبلت استقبال فتاة تسير حينئذٍ في شوارع لندن مجمومة الشعر قصيرة الحلّة الى حدّ الركبتين وفي فمها لفافة من التبغ

احسّ وليم عند ما اتمّ قراءة الرواية، انهُ قلب في القفر صخراً فعثر بماسة. ثم تذكر رئيسهُ بجت فخبا ذلك البريق في عينيه. ايقبل بجت ان ينشر الرواية؟ ايجرؤ هو على المغامرة بقبولها للنشر؟ ولو كانت المسألة رهن قراره لما تردّد. ولكنهُ ادرك ان بجُت لن يقبلها. وبجُت عائد من اميركا بعد بضعة اسابيع. وكان وليم لا يزال متحيّراً في ما يفعل، لما دخل عليهِ دان كارتر — لندلّ على المؤلف بهذا الاسم — فلما اقبل عليهِ، احسّ وليم، برابطة عطف خفية تربطه بهذا الفتى، فأعرب عن اعجابهِ العظيم بروايتهِ العجيبة، ثم بسط لهُ الحالة كما هي، والبواعث التي تحول دون اتخاذه قراراً حاسماً في موضوعها. وختم بقولهِ: اذا اردت ان تصبر حتى يعود المستر بجُت من نيويورك، فقد استطيع ان أقنعهُ. ولكنني لا اريد ان يؤخذ قولي هذا على انهُ تعهُّد بـ . . . . . .

فعبس وجه الفتى بعد ما استبشر عند ما اعرب لهُ وليم عن اعجابهِ بروايتهِ وقال :

لما كنت قد صارحتني بموقفك اودُّ ان اصارحك انا كذلك بحالتي . فانني لست املك فلساً واحداً . ولا استطيع بوجهٍ من الوجوه ان اصبر بضعة اسابيع . بل لااستطيع ان اصبر بضعة ايام. لم اتناول بعد مقابلتك امس الاَّ فنجاناً من القهوة ، ولا اتذكر آخر مرة اكلت فيها حتى الشبع . وضحك ضحكة استهتارٍ رنَّ صداها في الغرفة ثم قال : وارجو ألاَّ تحسب انني احاول التأثير في مشاعرك بقولي هذا . انما ابسط لك لماذا لا استطيع الصبر بضعة اسابيع . وما يزال امامي دار او داران للنشر !

انقبضت نفس وليم ، وامتدت يدهُ الى جيبهِ من تلقاءِ نفسها وهو يقول « اذا سمحت بقرض صغير . . . » ولكن الفتى قاطعهُ محتدّاً : انني لا استعطي . انا لا اطلب احساناً . ثم ضرب بقبضة يدهِ على اصول الكتاب وقال أتظني مغفَّلاً لا ادرك قيمة كتابي ؟ ان في هذا الكتاب ثروة لمن يجرؤ على نشره .

فقال وليم : ولكنني بسطت لك عذري . ولو ان كتابك كان رواية عادية لكان . . . .

فوقف الفتى ، وتأبط اصول كتابهِ واتجه الى الباب قائلاً : « انكم معشر الناشرين تثيرون غضبي وشفقتي في آن . أنتم اناسٌ لاتملكون ذرّة من الخيال . اعرض عليكم كتاباً ذا قيمة خاصة ، ولكنهُ يختلف عن الروايات العادية التي تنشرونها ، فلا تجرؤون على نشره ! انكم لأجبن من الارانب »

وما كاد يصل الى الباب حتى استوقفه وليم قائلاً :

« قِفْ . أَقبلُ ان أُخاطرَ حتى ولو طردتُ لاجلها . انني اؤمن بهذا الكتاب . انا اعلم انهُ آية من الآيات . ولا استطيع ان افرّط فيها »

فالتفت اليهِ دان كارتر وهو لايكاد يصدق . وكأنَّ وليم كان يناجي نفسه ... لابدّ من المغامرة وقد تصيب هذه الرواية نجاحاً عظيماً ... ثم جلسا يتحدثان في شروط الاتفاق . عندئذٍ انبأ المؤلف صاحبهُ ان اسمهُ الحقيقي ليو فرجوسن . فلما عرض عليهِ نصيباً من الربح يوزع بعد طبع الكتاب وبيعه فرغ صبرهُ وقال : « الم اقل لك انني احتاج الى المبلغ نقداً . ألا تستطيع ان تدفع ثمن الرواية فوراً » . وبعد تردد كثير عرض وليم على فرجوسن خمسين جنيهاً ثمناً مطلقاً للرواية وحقوق طبعها جميعاً . وقال انا اعلم ان المبلغ يسير ولكنني لا اجرؤ ان اعرض عليك مبلغاً اكبر من هذا

فقال فرجوسن « ولو كنت مكاني لادركت ان مبلغ الخمسين جنيهاً هبة سموية » .

وكذلك تناول وليم دفتر التحويلات المالية وشرع يكتب التحويل بعد توقيع العقد الذي نقلت بموجبه جميع الحقوق في رواية « الاصداء » من مؤلفها الى دار « ريد وروجر » بلا قيد ولا شرط

وما كاد المؤلف يخرج حتى استسلم وليم للهم . فآناً يحسب نفسهُ رجلاً احمق لانهُ غامر هذه المغامرة وآناً آخر يهنيء نفسه لانهُ كشف عن آية من آيات الفن الروائي فيدركه الخجل للمبلغ اليسير

الذي بذله في ابتياعها . ولكنه كان يطمئن نفسه بأنهُ اذا نشر الكتاب وأصاب رواجاً فانهُ يكون مقدمة لبلوغ المؤلف ما يتمنى في عالم الادب

وكذلك لبث وليم، والآراء تتنازعه ، ينتظر عودة بجُتْ من نيويورك . ولما عاد هذا حاملاً في جعبته الروايات مضمونة الرواج ، وقرأ « الاصداء » تحققت مخاوف وليم . فان بجت ارغى وأزبد ورمى بأصول الكتاب ، جاحظ العينين منتفخ الاوداج ، محقراً وليم بما نثره عليهِ من صفات الحمق والتهور . ووليم صابر يتوقع سكون العاصفة يحاول هنا وهناك ان يقول كلمة دفاعاً عن الرواية ومؤلفها . فلما عرض بجت بوالد وليم جن جنون الشاب وأخذ قبعته وعصاه ومضى

هنا توقف الانكليزي هنيهة عن سرد قصته ، وحدّق في الفضاء البنفسجي يحيط بالهرم الكبير بعيد الغروب ثم انتبه الى ان الصحب ينتظر نهاية القصة فرمى بعقب لفافته واستأنف حديثه فقال :

كان ذلك سنة ١٩١٠ وانقضت اثنتا عشرة سنة ظلّت فيها رواية « الاصداء » مطوية في قِمَطْرٍ يكسوها الغبار . واستحالت نفسية الجماهير في بريطانيا في خلال هذه السنين . كانت السنوات الاربع الاولى منها سنوات رخاء واقبال وسلام ، وكان الناس في خلالها يأبون كل حافز للتفكير ، ويعرضون عن كلّ من يقول حقيقة تمزق عن عيونهم ذلك الغشاء الورديّ . ثم تلتها سنوات الحرب ، وهي سنوات حافلة بالآلام والفظائع والعنف ، فتمزق الحجاب عن كل عمل مصطنع ، او شعور مقلد ، وتعرت نفوس البرايا امام شبح الحرب . وجاءت بعدها اربع سنوات من الفوضى ، فانقلبت النظم الاجتماعية وتغيرت الآراء والآداب ، وقام جيل من الناس لا صبر له على المغالطة والمواربة يريد الحقيقة غير مقنّعة ويرفض ان يسير في طريق الحياة وعلى أبصارهِ غشاوة

وكان أثر هذا الانقلاب في ادب الرواية عظيماً فبارت الروايات التي كانت رائجة قبل الحرب ونشأت طائفة جديدة من الكتّاب تعالج شؤون الحياة معالجة صريحة ، وكان بَجُتْ كما قلت رجلاً يعرف مهابّ الرياح في ميدان النشر ، فكان ينشر الكتب التي تشغل موضوعاتها اذهان الناس ، سواء أكانت علماً ام تاريخاً ام سياسةً ام ادباً على آخر طراز . وكذلك لما اقبلت سنة ١٩٢٢ كانت داره في مقدمة دور النشر في لندن

ووقعت جناية ما اروعها في لندن حينئذٍ . ذلك ان سيدة جميلة من كرائم البيوت اغرت رجلاً بقتل زوجها ، لكي تستطيع ان تفرّ مع عشيق لها ، في عروقه آثار واضحة من دماء الزنوج . وكانت محاكمتها من اشهر المحاكمات الغرامية في العصر الحديث . رسائل الغرام التي تليت في المحكمة ، والحوادث الغريبة التي كشف اللثام عنها ، والعوامل النفسانية التي حلّلت وبسطت على مسمع من الناس ، ثم نشرت جميع تفصيلاتها في بعض الصحف ، كل ذلك كان توطئةً لاعظم نجاح ادبيٍّ احرزتهُ رواية بعد الحرب

كانت شفتا الانكليزي وهو يقول هذه الكلمات تتقبض ثم تنبسط . وكانت غنة صوته تتقلب

تقلباً يستر عي الانتباه ، كانهُ كان ينبش من قلبه ذكريات طال عليها الامد ثم قال :—

وطالما فكّرت كيف خطر على بال بجت ، ذكر تلك الرواية المنسية ، المطوية في قمطرٍ قديم تعلوها طبقة من الغبار ، وانني لاستطيع ان اتصوره ، وقد خطرت بباله ، كيف راح يفتح القماطر ويقفلها ، باحثاً عن اصول الرواية التي اشتراها داره رغماً عنهُ بخمسين جنيهاً قبل اثنتي عشرة سنة . بل استطيع ان اتصورهُ وقد عثر بالاصول وجلس يقرؤها ، واجداً فيها من تحليل النفوس ما يشبه كل الشبه ، العجائب التي اسفرت عنها المحاكمة في تلك الجريمة . عند ذلك لا بدَّ ان يكون قد قفز فرحاً لان هذا الكتاب ملكه الخاص بلا قيدٍ او شرط . فأسرع في طبع الرواية . وكانت النتيجة فوق ما توقع . ذلك ان موجة الاقبال عليها ، ظلّت ترتفع اسبوعاً بعد اسبوع حتى اصبح الطابعون عاجزين عن مجاراة ما يطلبهُ الجمهور منها . وكانت مثاراً لمناقشة حادة بين النقّاد على صفحات الجرائد وترجمت الى عشرات اللغات . ثم حولت الى روايةمسرحية ومثلت فالىشريط سيمي

ولما اراد بجُت ان يخرج روايات اخرى من قلم هذا المؤلف بحث عنهُ فلم يجده . فظن ان الرجل لا بدّ ان يرى كتابهُ ، وقد حاز هذا الاقبال فيجيء من تلقاءِ نفسه طالباً نصيباً من الربح . ولكن المؤلف لم يفعل فبحث عن اسمه الحقيقي ، فعثر عليهِ بعد تفتيش دقيق على كعب التحويل الذي اعطيهِ قبل اثنتي عشرة سنة فاذا هو « ليو فرحوسن » . فذهب الى مكتب من الجواسيس وطلب اليهم ان يبحثوا لهُ عن هذا الرجل . . . . .

هنا توقّف الانكليزي عن الحديث . وكلنا شوق الى معرفة النتيجة . فقلنا معاً اوهل وجدوهُ ؟

قال : الجوابِ بالايجاب والنفي معاً . بعد انقضاءِ بضعة اسابيع ابلغ مكتب الجواسيس صاحبنا بجُت ان رجلاً يدعى ليو فرجوسن توفي قبل تسعة اشهر في ملجإٍ من ملاجئ المعوزين ، وكان سبب موتهِ داءُ السلّ وقد ثقّل الجوعُ وطأتهُ

وتوقف ثانية والتفت الى صديقنا الاميركي ، وقال : ماذا تقول في هذه الحادثة ، عن علاقة الجدارة بالنجاح . الرجل الذي وضع اروج كتاب عرف بعد الحرب ، مات في ملجإ . والرجل الآخر الذي عرف قيمة الكتاب طرد من عملهِ . والرجل ... بجُت ... اثرى منهُ . كيف تعلّل كل هذا ؟

فتململ الاميركي في كرسيهِ ورفع يديهِ ، يشير بهما اشارة مبهمة ، وقال متردداً «و..ول..لكن.. كيف تعلم ان الرجل الذي مات مسلولاً في الملجأ كان مؤلف الاصداء »

فهزّ الانكليزي كتفيهِ وقال اولاً لان الاسم « ليو فرجوسن » ليس اسماً مألوفاً ، ثم انهُ وجدت صورة في مخلفات الرجل الذي مات في الملجأ ، وانني لأستطيع ان اعرف تينك العينين أين رأيتهما

فقلنا جميعاً انت . . . انت . . . ؟

فقال . . : نعم . لقد اتفق انني كنت في هذه الحادثة . . . احد ابطالها الثلاثة — وليم !

[مقتبسة]

الطب المصري القديم

معارفهم الطبية ووصفاتهم وأمراضهم

للدكتور حسن كمال

﴿ تمهيد ﴾ كان الاعتقاد السائد بين نفر كبير من الأثريين الى عهد قريب ان الطب المصري القديم اكثر اتصالاً بالسحر منهُ بالعلم . لان الادراج البردية الخمسة او الستة التي كانت معروفة الى ذلك العهد لم تحو الكثير من العقاقير الهامة (وان كان بعضها لا يزال مستعملاً الى الآن في كثير من الامراض) ولكنها حافلة بالتعازيم والدعوات التي كانت تتلى على المرضى وقت تعاطي الدواء . وهذا القول قريب من الحقيقة الى حدٍّ ما . خصوصاً اذا لاحظنا ان بعض الوصفات كانت تعازيم سحرية او دعوات قدسية . وفي درج منها لم يهتم الكاتب بذكر مقادير العقاقير اللازمة للعلاج مع اهتمامه بذكر الدعاء الخاص للحالة . ثم اننا اذا فحصنا محتويات كل درج على حدة وجدنا انها لم ترتب بعناية تامة . كذلك العقاقير المذكورة في الوصفات كانت تختار احياناً من مواد ذات فعل سحري مثل لبن امرأة حملت ذكراً او مواد غاية في القذارة على اعتبار ان اقذر العقاقير أنجعها مثل براز الذباب أو دم الفأر

هذا باختصار كان رأي معظم الاثريين الى عهد قريب . لكننا كلما تعمقنا في الموضوع وزدناه فحصاً وتمحيصاً اتضح لنا ان علم الطب كان منتشراً في القطر بانتظام وعناية . وان وصفاته المذكورة تحوي آلاف من اسماء النباتات والعقاقير المجهولة المعنى . وان البعض من العقاقير المعروفة قد ثبت فعلهُ وعمَّ استعماله وأضحى الآن بين العقاقير التي نصفها في تذاكرنا الطبية اليومية لمرضانا . ثم ان الباحث النزيه في الادراج البردية المذكورة يجد فيها بيانات هي في الحقيقة اساس الطب الحديث . فالقلب فيها معتبر مركز الاوعية . وهذه موصوفة بأنها منتشرة في سائر اجزاء الجسم . وان نبضها دليل عليها لان النبض هو « كلام القلب الداخلي » . هذا التعريف كافٍ لان يظهر انهُ كان لدى اسلافنا فكرة عن دورة دموية وان كانت غير تامة وعن ماهيّة النبض وعلاقته بضربات القلب لان وصفه بأنهُ « كلام القلب الداخلي » دليل قاطع على اتصاله بحركات العضلة القلبية . لكننا بجانب ذلك نجدهم يظنون احياناً ان هذه الاوعية تحمل دماً او ماءً او مواد اخرى . وهذه الظنون توارثها الخلف مدى الدهور من شرقيين وغربيين حتى ظهرت مبادىء الطب الحديث . ويأبى التاريخ المصري الاَّ ان يكون مثال العجب . وتأبى المدنية المصرية الاَّ ان تكون انموذج العبر . لذلك نجد انهم

في الوقت الذي نراهم يتكلمون عن وجود مياه ومواد اخرى بالاوعية يفسرون بعض الامراض بأسباب اقل ما يقال عنها انها مطابقة لاحدث الآراء عندنا . فانهم يقولون ان كثيراً من العلل ناجم من مرض الاوعية وعدم قيامها بوظائفها الطبيعية . وان العلاج حينئذٍ يجب ان يوجه الى تبريد الاوعية او تسكينها او تجديدها او إبطاء دورتها بالعقاقير الخاصة . وهذا من العجب العجاب

هكذا كان موقف العلماء الأثريين من الطب المصري القديم الى عهدٍ قريب . لكن حدث منذ عشر سنوات تقريباً ان اكتشف درج بردي يعرف باسم صاحبه (ادوين سميث) أنار الظلام الحالك الذي كان مخيماً على هذا الموضوع . ورفع منزلة الطب المصري القديم الى ذروة المجد والفخار . فتغيرت بهِ آراء الباحثين . وانزوى من اجله كل منتقد وراء الستار . وخرس كل همَّازٍ مشَّاءٍ بنميم . وظهر وقتئذٍ ان الادراج البردية السابقة هي في الحقيقة ادراج كانت تتداولها العامة وانها مزيج من الرأي العلمي والجهل العامي . اما قرطاس (ادوين سميث) المذكور فوجد انهُ مثال الكتاب الطبي من حيث ترتيب مواده التي تبدأ بأمراض الرأس اولاً ثم اعضاء الجسم التي تليه حتى القدمين ، واحتواؤه ايضاً على كثير من اصول الجراحة وبالاخص جراحة العظام والاجزاء السطحية. اما شرح حالاته فعلى غاية من الدقة والنظام. فكاتبه يبدأ بذكر اسم الداء ثم طريقة فحصه ثم تشخيصه ثم علاجه وانذاره . وهو الاسلوب الذي يدرس الآن في كلياتنا الحديثة . وكثيراً ما يذكر الكاتب اسفل كل حالة ملاحظات تفسيرية تظهر مهارة عجيبة في معرفة المرض وطريقة فحصه والسبب الذي احدثه . واغرب من هذا وذاك ان الاساتذة الذين راعهم هذا المستوى الطبي العالي في هذا الدرج استرعت نظرهم عبارة واردة في ظهره خاصة بطريقة ارجاع الشيخ الى صباه [1] . فقال بعضهم هذا دليل قاطع على مزج الطب بالشعوذة . لكن هل محاولة الرجوع الى الشباب ضرب من الشعوذة . ان ابحاث الاستاذ فرنوف كفيلة بالاجابة على هذه التخرصات . والغريب ان معظم المعلومات الطبية يرجع تاريخها الى عهد الاهرام (٢٦٠٠ — ٢٢٠٠ ق.م.) ذلك العصر الذي ابتكر تشييد المباني بالاحجار وابتدع الهندسة الفراغية وهندسة الانهر والحساب والقانون والسياسة والفنون الجميلة وغير ذلك

ان الالمام بهذا الموضوع في فصل واحد أمرٌ محال . محال لكثرة مباحثه وغزارة مادته . لكنني سأجتهد ما امكن في ايضاح هيكله . ليتمكن القارىء من تكوين فكرة عامة عنهُ لان البحث في الطب الفرعوني يتطلب اولاً دراسة الكتب المصرية القديمة البردية المسماة ادراجاً او قراطيس . ثانياً البحث فيما وصلت اليه معارفهم في فن التحنيط خاصًّا باجزاء جسم الانسان . ثالثاً البحث في الآثار من تماثيل ونقوش وموميات مما له علاقة بالامراض وطرق العلاج والجراحة . هذه باختصار النواحي الثلاثة المهمة التي اريد ان اعرض لها الآن

(١) الغرض من هذه الوصفة هو ازالة التجعدات الجلدية وتغيرات كبر السن بالوجه . وتتلخص في اغلاء نبات يقال له هايت مجهول النوع عدة دفعات ثم دهن الوجه بالعجين الناجم من هذا الاغلاء . وهذا النبات قريب في فعله من « حسن يوسف » الذي لا يزال مستعملاً عند العامة للآن لنفس الغرض

﴿ القسم الاول ﴾

١ — ﴿ الكتب الطبية القديمة او الادراج او القراطيس ﴾ قرطاس ايبرس . هو أضخم هـذه الكتب . عثر عليه بمقبرة الاقصر مع قرطاس ادوين سميث عام ١٨٦٢ م . واشتراه الأثري الالماني ايبرس حينذاك . وهو الآن محفوظ بمتحف ليبزيج بألمانيا وفي حالة جيدة جدًّا . وعلى ظهر هذا القرطاس دوّنت تواريخ هامة ساعدتنا كثيراً على معرفة عدة ازمنة مجهولة . والمعروف ان هذا القرطاس دوّن حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . لكن لغته واعتبارات اخرى فيه تدل على انهُ منسوخ من كتب اخرى اقدم منهُ بقرون عديدة . خذ مثلاً ما ورد في احدى عباراته من انها مأخوذة من وصفة من الاسرة الاولى (٣٤٠٠ ق . م .) وفي اخرى انها من زمن احدى ملكات الاسرة السادسة . لكن ذلك لا يعني ان نأخذه قضية مسلمة . لان المصريين كانوا كثيراً ما ينسبون معلوماتهم الى اجدادهم اعلاءً لشأنها وزيادة في فائدتها . لذلك تجدوننا لا نعتمد كثيراً على مثل هذه العبارات بل على نوع الخط والقواعد النحوية واساليب التعبير مما يتغير بالتدريج مع الزمن . وعلى ذلك فلا يبعد ان يرجع تاريخ الكتب التي نسخ منها كتاب ايبرس الى الاسرة الثانية عشرة او الثالثة عشرة (حوالي القرن العشرين ق . م .) . ولو ان بهِ بعض عبارات من المحتمل ارجاعها الى عهدٍ اقدم من هذا بكثير

وكتاب ايبرس يحوي وصفات عديدة لامراض كثيرة متباينة . وكل وصفة مكوّنة من عدة جواهر . وامام كل جوهر مقداره اللازم . وآخر كل وصفة طريقة تعاطي الدواء . وهناك اجزاء لا تشمل العلاج فقط بل اعراض المرض وطريقة تشخيصه . وقد تضاف الى ذلك ايضاً بعض عبارات ايضاحية . ولا يسع الباحث في هذا القرطاس الاَّ ان يستنتج بانهُ مجموعة كتب صغيرة بعضها طبي والبعض الآخر روحاني . وكتابة هذا القرطاس في شكل أعمدة أشبه بجرائدنا اليومية . ويبلغ عددها المائة وعشرة أعمدة . وعدد وصفاته ٨٧٧ وصفة

٢ — ﴿ قرطاس هيرست ﴾ اكتشف عام ١٨٩٩ بدير البلاص بالصعيد . وفي عام ١٩٠١ اشتراهُ الدكتور ريزنر الأثري واهداهُ الى جامعة كاليفورنيا بامريكا . واوائل هذا الكتاب قد تلفت نوعاً . والباقي في حالة جيدة جدًّا . وهو يحوي خمسة عشر عموداً من النصوص الطبية . ويرجع تاريخه الى حوالي ١٥٠٠ ق . م . وفيه شبه كبير بقرطاس ايبرس السابق . حتى ان بعض عباراته مطابقة في كلياتها وجزئياتها لبعض عبارات قرطاس ايبرس . ويبلغ عدد وصفاته ٢٦٠ وصفة

٣ — ﴿ قرطاس برلين الطبي ﴾ احدث عهداً من القرطاسين السابقين . لكنهُ يحوي عبارات قديمة العهد . وعباراته مكتوبة باهمال ومحشوّة بالاخطاء . وتحوي ٢٤٠ وصفة . بما في ذلك العبارة المذكورة على ظهره الخاصة بمعرفة العقم ونوع الجنين في الرحم . وكان العثور عليهِ في القرن التاسع عشر

بواسطة بسالاكا بمقبرة في سقارة يرجع تاريخها الى عهد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق.م .)

٤ — ﴿ قرطاس كاهون الطبي ﴾ اكتشفهُ السير فلندرز بتري عام ١٨٨٩ اثناء القيام بحفائره في جهة الفيوم . وهو اقدم من القراطيس المذكورة اعلاه . ويرجع تاريخه الى عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) . وهو ممزق . لكن نصوصهُ واضحة . وهي خاصة بفن الولادة وامراض النساء . وتحوي ٣٤ وصفة

٥ — ﴿ قرطاس لندن الطبي ﴾ اغلبهُ روحاني ويرجع الى زمن الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م .) ولو ان عباراته اقدم بكثير من ذلك . وهو محفوظ في متحف لندن تحت رقم ١٠٠٥٩

٦ و ٧ — ﴿ قرطاسا متحف ليدن وتورين ﴾ هما قرطاسان طبيان روحانيان يحويان قليلاً من الوصفات الطبية

٨ — ﴿ قرطاس (ادوين سميث) الطبي ﴾ هو اهمها كان العثور عليهِ بمقبرة بالاقصر عام ١٨٦٢ م . وفي تلك المدة اشتراه المستر (ادوين سميث) وقد اعتراه بعض التلف وفقدت بعض نصوصه . لكنهُ اهتدى اليها واشتراها بعد ذلك على دفعتين . ثم توفي وانتقل القرطاس بعد ذلك الى ابنته (ليونورا سميث) التي اهدتهُ الى الجمعية التاريخية بنيويورك . ويبلغ طول القرطاس الآن ٤٫٦٨ متراً . انما يظن انهُ كان يبلغ خمسة امتار طولاً . ويتراوح عرضه بين ٣٢ ½ و ٣٣ سنتيمتراً وهو يقرب من عرض القراطيس القديمة التي يرجع تاريخها الى ما بين المملكة الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق . م .) وعهد الامبراطورية (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م .) وفي هذا القرطاس اثنا عشر لوحة متعاقبة وتحوي ٢٢ عموداً من النصوص المصرية القديمة منها ١٧ رأسية و ٥ أفقية . ويظن ان هذه النصوص المصرية القديمة كتبها عدة اشخاص لاختلاف واضح في الخط

وبمقارنة الخطوط المصرية القديمة التي في هذا القرطاس بالخطوط المستعملة ايام ملوك الرعاة لوحظت بينهما مشابهة كبيرة . وعليه فلا يبعد ان تاريخ هذا القرطاس يرجع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ويلاحظ ايضاً ان كاتب هذا القرطاس كان يجيد الخط لكنهُ لم يكن طبيباً . وانهُ ترك بعض الاحرف بدون ذكرها . وراجع كتابته وصححها بالمداد الاحمر فوق الاسود وبالمداد الاسود فوق الاحمر . وتشتمل السبعة عشر اعمدة الرأسية على شرح ٤٨ حالة مرضية لم يذكر لها شيء من الادوية . وهذه الحالات تبدأ بالرأس وتنتهي بالقدمين وهي موصوفة وصفاً دقيقاً كما يشاهد ذلك في الحالة المرقوم لها بالرقم ١٨ وتعريبها : —

تعريف عن جرح عظمة الوجه zygoma

الفحص اذا فحصت مريضاً بجرح غير مشقوق (اي وخزي) واصل الى العظم أدخل المسبر فيهِ فان وجدت عظمة الوجه سليمة شخّص الحالة بانها جرح فوق عظمة الوجه وهي حالة قابلة للعلاج

العلاج : ضع على الجرح لحماً صابحاً في اليوم الاول . بعد ذلك ضع عليهِ زيتاً وعسلاً يوميًّا الى ان يتحسن

ملاحظة : اذا كان الجرح غير متسع الفتحة وواصلاً الى العظم فهو جرح صغير واصل للعظم ليس فيهِ شقٌّ بل هو ضيق ولا توجد شفتان له (وهذا منتهى الدقة في وصف الجرح الوخزي) اما من خصوص مكان الوجه المصاب فهو الموضع الكائن بين تجويف العين وفتحة الاذن خلف الفك

وعلى هذا المثال وردت في القرطاس احوال كثيرة من الامراض . وقد ذكر الكاتب المصري ان بعض الحالات عسرة العلاج . وهذه ملاحظة جديدة لم تستعمل سابقاً في الادراج الطبية . ويبلغ عدد الامراض التي يعرف علاجها وقتئذٍ اربعة عشر مرضاً . وبذلك امتاز قرطاس ادوين سميث عن غيره بشرح الحالات الممكن علاجها والعسرة الشفاء . وصرف النظر عن ذكر الوصفات الكثيرة التي تشاهد في باقي القراطيس الطبية

***

وتشاهد في هذا القرطاس ملاحظات كثيرة واردة بعد شرح كل حالة . بخلاف ما هو متبع في القراطيس الطبية الاخرى . وهذه الملاحظات تظهر لنا ما وصل اليهِ اطباء المصريين من علم التشريح فتزيد معلوماتنا الحالية في هذا الموضوع . وورد في هذا القرطاس عدة كلمات طبية لم يرد ذكرها في عبارات القراطيس الاخرى من ذلك لفظ (جا) الذي ظهر من الوصف انهُ يعني عظمة الوجه zygoma وكذلك كلمة (امعت) التي وصفها الكاتب بانها تعني الجزء الخلفي للفك السفلي (وهو المعروف باسم Ramus) وقد شبههُ الطبيب القديم بمخلب الطائر . ولا يزال التشبيه مستعملاً عندنا في احوال طبية متباينة مثل لسان التوت Rasberry tongue ولسان الشليك Strawberry tongue والورم الشبيه بالكمثرى Pyriform tumour . وورد في الحالة المرقومة بالرقم ٨ ان الطبيب كان يميز في احوال جروح الجمجمة بين كسور العظام وتلف الانسجة التي فوقها

***

ومما يدل على مهارة الطبيب تحرّيه للوقوف على سبب المرض حيث اورد لنا ما تعريبه : « آخر حالة من امراض العمود الفقري بالعنق هي اصابتهُ بمرض (سحم) وفيهِ يفقد المريض سمعه وكلامه ويصاب بشلل بذراعيه ورجليه . ويقول الطبيب حينذاك ان الحالة خطرة . وان الاصابة عبارة عن تدخل احدى حلقات العمود الفقري في حلقة اخرى نتيجة سقوط المصاب على رأسه من اعلى الى اسفل . وان ذلك يمنعهُ من رفع رأسهِ وحمل ثقلها على عنقه »

ومنهُ يتضح ان المقصود بمرض (سحم) هو تدخل حلقات العمود الفقري بعضها في بعض . (حالة رقم ٣٣ بالقرطاس)

القسم الثاني

الى هنا انتهى ما اردنا ايراده عن القراطيس الطبية الهامة . وسنبحث الآن في المعلومات التي اكتسبها قدماء المصريين من مزاولة فن التحنيط آلاف السنين العديدة . فنقول ان الاجراءات الكثيرة التي اتبعها قدماء المصريين في التحنيط هيأت لهم الوسائل لمعرفة احشاء الجسم الداخلية من حيث شكلها ونوعها وعلاقتها بعضها ببعض مما لم يتيسر لاي عنصر بشري آخر . وبديهي ان التحنيط له تأثير كبير على تاريخ الطب لانهُ عوّد اذهان الشعب على احتمال قطع الجثث الميتة واخراج احشاءها وذلك لمدة طويلة من الزمن تُربي على العشرين قرناً . وهكذا تمكن اطباء اليونان في عهد البطالسة ان يشرّحوا الجثث تشريحاً علميًّا في الوقت الذي كان مثل هذا العمل محرّماً في سائر انحاء العالم (راجع مقال الاستاذ اليوت سميث في مجلة العاديات المصرية ج ١ص ١٩٠)

ومعلوم ان التحنيط يستوجب استخراج الاحشاء الباطنية والصدرية والتأثير فيها بالعقاقير . لذلك كانت هذه العملية درساً تشريحيًّا قيماً لمن يقوم بها . وجميع الاحشاء (ما عدا القلب الذي كان يترك غالباً في موضعه) كانت تفصل اولا من الجسم ثم تغسل على حدة ثم تحنط بالطريقة المختارة واعتاد القوم بعد تحنيط هذه الاحشاء ان يضعوها في اربعة اوانٍ تحت حماية اولاد حوريس الاربعة ومنذ عهد الاسرة التاسعة عشرة(١٣٥٠—١٢٠٠ ق. م.) بدأ القوم يصنعون اغطية لهذه الاواني بهيئة رؤوس اولاد حوريس المذكورة وهي (رأس آدمي ورأس نسر ورأس ابن آوى ورأس قرد) . لكن في عهد الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق. م .) اندثرت هذه العادة الدينية واكتفى القوم بلف تلك الاحشاء في اغلفة كتانية مع تماثيل صغيرة لاولاد حوريس المذكورة ثم وضعها بالتالي داخل الجسم المحنط . وبديهي انطرق التحنيط التي اتبعها المصريون افهمتهم كثيراً عن مظاهر الاحشاء واشكالها وعلاقتها بعضها ببعض داخل الجسم بل وبمقابلتها باحشاء الحيوانات الاخرى التي كانت منذ اقدم العصور المعروفة تذبح وتقطع وتقدم قرباناً للآلهة او غذاءً لاصحابها . ومما هو جدير بالذكر ان الخط الهيروغليفي (الذي يرجع ابتكاره الى ما قبل حكم الاسر بمدة طويلة) لا يحوي من الاشارات الخاصة باجزاء الجسم او الاحشاء الداخلية الاّ ما له علاقة بالحيوانات فقط مما يدل على ان معرفة المصريين الاقدمين لتشريح الحيوانات كانت اقدم عهداً من معرفتهم لجسم الانسان . من ذلك اشارة القلب وتلفظ (اب) فانها تمثل قلب الثور لا قلب الانسان . كذلك اشارة الحلق والعنق فانها تمثل رأس الثور وحنجرته وقصبته . ثم ان اشارة الرحم تمثل رحم البقرة ذا القرنين . كذلك «الاذن» فهي تشبه اذن حيوان من ذوات الاربع . وعلى هذا النمط رسمت الاشارات التي تمثل الاضلاع والعمود الفقري واللسان والاسنان. اما اشارات الخط الهيروغليفي التي تعني اجزاء جسم الانسان فتمثل الاجزاء الخارجية التي تعنيها من جسم الانسان فقط . وهذا دليل قوي على عدم معرفة القوم لاحشاء الانسان الداخلية وقت ابتكار الخط الهيروغليفي

ومن الادلة على معرفة القوم لاي علم من العلوم كثرة تعداد الالفاظ التي يستعملونها في تعبيراتهم في هذا العلم . واللغة المصرية القديمة تحوي ما ينوف على مائة اسم تشريحي لاجزاء الجسم مما يشير الى امكانهم التمييز بين اجزاء الجسم في الوقت الذي كان يتعذر ذلك على غيرهم من الامم . نعم ان تقسيم الجسم بواسطة قدماء المصريين الى اعضائه المتباينة لم يشمل الاّ الاعضاء الكبيرة والمتوسطة الحجم ولم يجزَم التمييز بين الاعصاب والعضلات والشرايين والاوردة . ولكن اساس علم التشريح على اي حال فضله راجع اليهم دون سواهم

اما فيما يختص بعلم وظائف الاعضاء فقد سبق ان ذكرت ما جاء بقرطاس ايبرس الطبي بخصوص القلب والاوعية من ان القلب هو مركز اوعية الجسم وان هذه الاوعية تتفرع منه الى سائر انحاء الجسم وان النبض هو كلام القلب الداخلي وانهُ دليل هذه الاوعية حيث كانت . وهذه العبارة مأخوذة من كتاب اقدم عهداً من قرطاس ايبرس كما هو واضح من عنوان العبارة وتعريبه «مبدأ معرفة فن الطب . طريقة تفهم حركة القلب وسرّ القلب» . يلي ذلك بيان بسائر اوعية الجسم الدموية كل عضو بما يخصه . وبعض هذه الاوعية مطابق للحقيقة والآخر خيالي . لكن لم يذكر الكاتب شيئاً معيناً عن دورة الدم في الجسم بالرغم من ان البعض يرى ان ما ورد في العبارة المذكورة كافٍ لاثبات ان قدماء المصريين كانت لديهم فكرة عن هذه الدورة والثابت على كل حال ان هؤلاءِ القوم اعتبروا القلب اهم عضو بالجسم ومركز الفهم والانفعالات النفسية . فكان ذلك باعثاً على عدم نزع القلب من الجسم وقت التحنيط فكان القوم يتركونهُ محله متصلاً باوعيتهِ الكبرى بالرغم من نزعهم لجميع الاحشاء الصدرية الاخرى حوله . وسوف نذكر عن معلوماتهم لوظائف الاوعية ما يطابق معلوماتنا الحديثة بصرف النظر عن البعيد منها عن الصواب . فقد روى هؤلاءِ القوم ان الانف يغذيهِ وعاءان دمويان، وكل اقليم جداري بالرأس يغذيه شريانان وهاذان يغذيان ايضاً مؤخر العينين القريب منهما واعتُبرت الدموع من افرازات الجفون . ونسبت تغذية الشعر الى وعائين دمويين بمؤخر الرأس، وورد في القرطاس ان الهواء يدخل الجسم عن طريق الانف ثم الى الرئتين والقلب

وبخلاف ذلك نجد انفسنا امام معلومات وهمية بعيدة من الطب الحديث . ولا غرابة في ذلك فالطب حينذاك كان في مبدئهِ . والخزعبلات والتخرصات لا تقلل من اهمية جزئهِ السليم . والثابت ان تعدد المباحث والنظريات وقتئذٍ دليل قاطع على شدة حرصهم على الحقيقة وولعهم بالفن واهتمامهم بجزئياتهِ وكلياتهِ . وهو سعيٌ مشكور وجهدٌ مبرور

اما علم الامراض وطبائعها المعروف بالباثولوجيا فليس من السهل تفهمهُ من مخطوطات هؤلاء القوم لعدة اسباب . اهمها عدم معرفتنا لمدلول الالفاظ العديدة . ثم اننا لو فرضٍ وعلمنا المدلول بوجه عام فهناك عدة اسماء لامراض متشابهة المعنى متباينة التخصص . خذ مثلاً ما ورد بقرطاس ايبرس عن الاورام فانهُ يحوي حوالي الستة اسماء لهذه الحالة المرضية . ولا نزال نجهل نوع المرض

بالضبط الذي يعنيه الكاتب في هاتهِ الاحوال . فمدلول اللفظ الحقيقي لا يزال غامضاً . ومن الجائز جداً ان هــذه الاورام تحزم الجراجات بانواعها واورام البلهارسيا وغير ذلك . والمحتمل ان معظم الامراض التي كانت تهم القوم وقتئذٍ هي نفس الحالات المتفشية اليوم بين الفلاحين كالديدان المعوية والرمد الحبيبي والبلهارسيا والخراجات المختلفة ولسع الحشرات ولدغها والتهاب المهبل والاذن الوسطى

واقدم العمليات الجراحية التي قام بها قدماء المصريين خلاف التحنيط هي عملية الختان التي كان ينظر اليها من وجهة دينية اكثر من الوجهة الطبية . وقد كانت معلوماتنا الى عهد قريب عن جراحة قدماء المصريين محصورة فيما هو وارد بالجزء الاخير من قرطاس ايبرس لكن لما اكتشف قرطاس ادوين سميث وجدت فيهِ معلومات كثيرة من هذه الناحية . وقد سبق ان المعنا الى ان هذا القرطاس مقسم بحسب الحالات لا بحسب العلاج . وهو خاص بجروح سائر اجزاء الجسم من الرأس حتى الصدر . وما عدا ذلك فلا يزال مفقوداً . وهذا الترتيب دليل على اتقان التقسيم ومراعاة النظام الطبي

القسم الثالث

والآن ننتقل الى القسم الثالث وهو الخاص بامراض قدماء المصريين التي وجدت بمقابرهم وجثثهم. فنقول ان الحصوات البولية بالمثانة وجدت في جثث قبل عهد الفراعنة وحصوات الكلى في جثث من عهد الاسرة الثانية (٣٠٠٠ ق . م .) وحصى الكيس الصفراوي في موميا من عهد الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق . م .) . وعثر الدكتور روفر على بويضات البلهارسيا في كلى موميات من عهد الاسرة الحادية والعشرين

وذكر الاستاذ شاتوك وصفاً لمرض الاورطي بجثة الملك منفتاح وذلك بمجلة Lancet ١/٣٠ ١٩٠٩ . وايضاً الدكتور روفر فانهُ اورد كثيراً من امراض هذه الاوعية في مجلة Jour of Path. & Bact ج ١٥ سنــة ١٩١١ . وعثر الاستاذ اليوت سميث اثناء فحص موميات من الاسرة الحادية والعشرين على حالة واضحة لداء بوت وخراج بارد بالظهر وتقوسات عديدة بالعمود الفقري ودرن بعضل الفخذ . وعثر على ورم خبيث من نوع osteo-sarcoma ورم (لحمي) في رأس عظمة الذراع بموميا من عهد الاسرة الخامسة بالجيزة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ . ق . م .). ولم يعثر على حالات carcino.na (سرطان) حتى العهد اليوناني حيث وجدت في الانف والحلق والمستقيم .

وهناك حالتان لمرض الجَنَف talipe وجدت احداهما في موميا الملك سيتاح (١٢١٠ ق.م.)[1] والثانية بجثة قسيس من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م) . ووجد النقرس gout في جثة رجل هرم بجزيرة الفيلة من اوائل العهد المسيحي حيث لوحظت رسوب املاح بيض كثيرة فوق العظام المشطية لابهامي القدمين واخرى حول عظام باقي اصابع القدمين وايضاً فوق عظمتي الساقين والشظيتين والجهة الخلفية للردفتين والاوتار الخلفية للساقين . وايضاً بعظام اليدين

(1) Elliot Smith Royal Mummies Cairo 1912 p 71.

والذراعين . وهذه الجثة محفوظة الآن في متحف كلية الجراحين الملكية بلوندرة

اما تلف الاسنان فنادر في الجثث التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الاسر . كذا في موميات الفقراء الذين كانوا يقتاتون بالاغذية الصلبة كالخضراوات الغير مطبوخة . اما الموميات التي وجدت في عهد الاهرام وبعده (لما دخل البذخ على معيشة المصريين وعمت الرفاهية منازلهم) فانها وجدت مصابة بتلف الاسنان وخراجات الفكين مع رسوب الطرطير بشكل واضح

وكثيراً ما عثر على التهاب المفاصل الشبيه بالروماتزم Rheumatoid arthritis في موميات مصر والنوبة حتى ليندر وجود جثة من تلك الازمنة العتيقة سليمة من هــذا الداء [1] ووجدت عدة حالات لالتهاب العظام في جثث العهد القديم وهذه تشمل التهاب الانف المزمن والتهاب النتوء الحلمي للاذن وتقيحات عظام الجمجمة وعدة حالات لخلع المفاصل وكسور العظام مصحوبة بنتائج متباينة من التحام جيد الى مضاعفات غاية في الخطورة

ومومياء رمسيس الخامس مصابة بطفح الجدري . وفي نفس الجثة آثار لقيلة مائية بالصفن

وشوهدت اعراض التهاب الزائدة الدودية في موميا سيدة من العهد البيزانطي واخرى مصابة بالتصاقات بلوراوية بالرئة اليسرى حيث وجدت الرئة المذكورة في حالة انكماش . وحالات لسقوط الامعاء وسقوط المهبل . وعثر الدكتور جرنفل على أثر لمرض برحم موميا في العهد الفارسي [2]

وعدا الامراض التي وجدت بالموميات المصرية توجد عدة تماثيل ورسوم على جدران المقابر تظهر لنا حالات مرضية خلاف المذكورة اعلاه . فشاهد قبر الكاهن روما السوري الاصل المحفوظ الآن بمتحف كوبنهاجن بالدانمارك يحوي رسماً للكاهن المذكور مصاباً بشلل طفلي بالرجل اليمنى . اما رسوم وتماثيل الاقزام في العهد الفرعوني فكثيرة للغاية وهي تمثل مرض Achondroplasia اوضح تمثيل . وهناك رسوم على الآثار لمرض الكساح ومرض درن العمود الفقري (بوت) . ويلاحظ على تمثال الملك اخناطون (اسرة ١٨) اعراض مرض Dystrophia Adiposo Genitalis التي تتلخص في تأنيث الشفتين وبروز البطن واطالة الجمجمة وكبر الفك السفلي واستسقاء خفيف بالدماغ [3] .

بقي علينا الآن ان نذكر شيئاً عن عقاقير قدماء المصريين وما بقي منها محافظاً على مركزه بين الادوية الحديثة . والبحث في هذا الموضوع ليس بالهين . لاننا لا نزال نجهل مدلول معظم اسماء هذه العقاقير . نعم ان هناك مئات من الجواهر ذات الاصل الحيواني والنباتي والمعدني مذكورة ضمن الوصفات لكننا لانزال نجهل معظم هذه الحيوانات . وكل ما يمكننا معرفته هو الجزء الخاص من الحيوان مثل شحمه او لحمه او دمه . اما الحيوانات المعروفة التي كانت اجزاؤها تستعمل في التطبيب فهي الثور والحمار والماعز والغزال والوعل والخنزير وفرس البحر والأسد والفأر والوطواط

(1) Arch. Survey of Nubia Report-1907-8 (2) Philosophical Transactions 1825
(3) El. Smith. Camb. Unv. Med. Soc. Mag. Vol IV No. 1.

والقنفد والاوز والخطاف والنسر والهدهد والضفدع والثعبان والسلحفاة وعدة انواع من السمك واما النباتات التي كانت تدخل ضمن الوصفات فلا نزال نجهل اغلبها . وكان القوم يستعملون كل النبات او ورقه او بذره او فاكهته او عصيره او جذوره او راتنجه

وقد كان استعمال الاجزاء الحيوانية كالسابق ذكرها معتبراً في القرن التاسع عشر مثال الجهل بالعلم والخلط بالشعوذة . لكن المباحث الحديثة اظهرت لنا العجب العجاب

فأصبحنا الآن نعلم ان بعض الامراض ناجم عن قصور غدد الجسم وهذه تعالج بتعاطي ما يقابلها من غدد الحيوانات . فمرض المكسيديما ناجم عن فشل الغدة الدرقية ويعالج بتعاطي هذه الغدة المأخوذة من الثور . كذلك مرض ادرار البول الغير سكري (ديابيطس انسبيدس) فهو ناجم عن فشل الغدة النخامية Pituitry ويعالج بتعاطي خلاصة هذه الغدة المعروفة باسم بترونرين Pitruitrin والانيميا الخبيثة التي هي نتيجة قصور الكبد تعالج الآن بتعاطي هذا العضو نيئاً من اي حيوان . ويرى البعض ان تعاطي المعدة النيئة كافٍ ايضاً لشفاء هـذا الداء القتّال . كذلك مرض التكزز tetany فيعالج بخلاصة الغدة المتاخمة للدرقية . وهكذا . . . . . هـذا من جهة الامراض الناجمة من فشل الغدد . لكن هناك امراض اخرى ناجمة من قلة الفيتامين بالجسم مثل الكساح والبلاجرا وهي امراض مصرية قديمة تعالج الآن بالفيتامين (د ــ D) في حالة الكساح المستخرج من كبد السمك . والفيتامين B 2 في حالة البلاجرا وهو كثير في اللحوم والخميرة والحبوب . وبعد كل هذا يحق لنا ان نتسأل هل كان أجدادنا عالمين بخواص الاعضاء الحيوانية وانواع النباتات حتى اكثروا من وصفها لامراضهم كما نصفها نحن الآن

وما اوردناه عن صعوبة معرفة الحيوانات والنباتات الطبية ينطبق تماماً على الجواهر المعدنية المذكورة ضمن الوصفات العديدة

والسائل الذي تتعاطى العقاقير معه هو عادة الماء او اللبن او الشهد او النبيذ او الجعة . اما الدهان والمروخ فأغلب وصفاتهما تحوي الشهد او الصمغ او الراتنج او شحوم حيوانات متعددة . وكانوا احياناً يتعاطون العقاقير جافة بشكل مسحوق . وأحياناً ينقعونها او يغلونها او بين بين . وجرت العادة ان الادوية الظاهرية كانت تستعمل بالدعك او بالدهان او بشكل لبخ . وكثيراً ما وصف القوم الحبوب والاقراص المستحلبة والاقماع . ويذكرون آخر كل وصفة طريقة الاستعمال كما نفعل الآن تماماً . فكانوا يقولون مثلاً يؤخذ هذا الدواء ليلاً او نهاراً ، قبل الغذاء او بعده ، وهكذا . وأمام كل جوهر مقداره اللازم مما يشير الى عنايتهم بعلم الاقرباذين

والى قدماء المصريين يرجع كثير من الفضل في ابتكار عدة عقاقير لا نزال نستعملها للآن . منها النشادر (وكانوا يستخرجونه بسحق او حرق قرون الحيوانات او اظفارها او حوافرها او عظامها) وذلك بشكل بخور او علاج موضعي . وهذه الطرق المبدئية في استخراج النشادر

واستعماله هي الاصل في بقاء هذا الدواء في الطب اليوناني والسوري والعربي والاوربي في عهد القرون الوسطى . وكان يطلق عليه في القرون الوسطى اسم « hartshorn » ومعناه قرن الايّل . ومحلول النشادر المائي لايزال يعرف في وقتنا هذا باسم Liq. Ammoniae او "Spirits of Hartshorn"

ومن اهم عقاقير النبات قشر الرمان . وهذا النبات قديم العهد في مصر . وكثيراً ما عثر على فاكهته بالمقابر الفرعونية. ووردت بقرطاس ايبرس وصفة لطرد الديدان من الامعاء تتلخص في سحق قشر الرمان ومزج ذلك بالماء ثم تعاطيه (ايبرس لوحة ١٦ سطر ١٥ — ١٨) . واستمرت هذه الوصفة متبعة عدة قرون في بلاد متنوعة كآشور واليونان والعرب . وهناك وصفات مصرية قديمة تحوي الشبث (Dill) والكزبرة (Coriander) والكمون (Cumin) والكراوية (Caraway) والحلبة (Funigreek) وكان الاثريون يقولون باستعمال اليبروح او الماندراغورا (ويقال له Podophyllum) في الطب الفرعوني لكن ذلك لم يثبت للآن . نعم انهُ عثر على فاكهة هذا النبات بمقبرة توت عنخ آمون . لكن ذلك كان بقصد الزينة فقط . والرأي السائد انهذا النبات ليس مصريًّا بل استجلب من الخارج للزينة . وان النبات المسمى بالمصرية (ديدي) لا يعني اليبروح

***

قال هيرودوتوس وديودوروس واسترابون وغيرهم ان المصريين زرعوا نبات الخروع واستخرجوا من بذره زيتاً استعملوه للاضاءة . وقالوا انهذا النبات كان يعرف وقتئذ باسم (كيكي) لكن هذا ليس صواباً . والثابت ان زيت الخروع بالمصرية اسمه (دجام) . وهناك نص مصري في متحف اللوفر بفرنسا من الاسرة السادسة والعشرين يقول باستعمال هذا الزيت للاضاءة اما اسم الشجرة النباتي المعروفة بهِ الآن فهو Ricinus وورد بقرطاس (ايبرس) علاج لاطلاق البطن يتلخص في مضغ حبوب الخروع وتعاطيها مع الجعة . ووصفة اخرى لاسكان الألم تتلخص في التدليك بزيت الخروع . . وكان القوم يتعاطون بذور الخروع للامساك والضعف العام والصداع وغير ذلك

وأهم العقاقير المعدنية التي كانوا اول من استعملها في الطب هي السلقون (red lead oxide) والشبّة وملح الطعام وكربونات الصودا والنطرون. واليكم مثال لوصفة لطرد الديدان المعوية (ايبرس لوحة ١٣ سطر ١٢ — ١٥) :—

حبوب شجرة (نوزم)	١	سخّن . امزج معاً . تجرّعه على اربعة أيام . هذا الدواء يطلق البطن
لبن	١	
عسل نحل	١	
حبوب الحلبة	١	
نبيذ	١	

وذكر قدماء المصريين امراضاً عديدة تصيب العيون وبالاخص اجفانها . ويظهر ان الشعرة كانت كثيرة عندهم . وانهم كانوا يستأصلونها بالنتف . والقراطيس البردية تحوي عدداً وفيراً من وصفات العيون يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها . واهتم القوم بأمراض الاذن وعالجوها بالعلاجات الموضعية . واستعملوا لذلك الشبة وصفراء الثور والمرّ . وحقنوها بالنبيذ وغيره [(١)]

اما الطب المصري في اواخر عهد الفراعنة فوردت عنهُ بعض قراطيس تحوي وصفات عجيبة تطابق كثيراً من وصفاتنا . خذ مثلاً ما جاء منها في احد القراطيس [(٢)] (١٠٠ ب . م .)

❋ المرهم الاصفر للجروح المتقيحة ❋ كالمين (كربونات الزنك الخام او حجر التوتية) ٤ درهم ابيض الرصاص ٨ درهم دقيق ناعم ٤ درهم اكسيد الحديد ferric oxide ١ درهم زعفران ١ درهم افيون ٣ اوقيات صمغ ٤ درهم ماء

❋ لايقاف النزف ❋ مسحوق الشبّة يبطل النزف حالاً

❋ للارق ❋ سيكران Henbane او Hyoscyamus ... ينسون ١ درهم افيون ٤ اوقيات تمزج معاً . وتتعاطى بطريق الفم

وهناك قرطاس بردى قبطي (٨٠٠ — ٩٠٠ ب . م) يقال له قرطاس المشايخ [(٣)] يحوي حوالي ٢٣٧ وصفة . منها الوصفة الآتية لالتهاب الاذن الحاد . افيون . دهن عجل . لبن . امزجها معاً . ثم دفّئ المزيج وضعه في الاذن . فان الالم يسكن حالاً . لكن حذار ان تصف هذا الدواء قبل ان تأخذ أجرك . وتعلمون ان السرّ في ذلك راجع الى الافيون الذي يسكن الالم لوقته . وان زوال هذا الالم وراحة المريض قد يقنعانه في عدم الحاجة الى الطبيب فيبخل عليهِ باتعابهِ وهكذا بدأنا نشعر بالغبن الذي كان يقع على زملائنا الاقدمين اذا ما صادف علاجهم نتيجة ناجعة

ما كان تأثير الطب المصري القديم على الحديث ؟ وكيف حصل هذا التأثير ؟ والى متى استمر ؟ . والجواب على ذلك ما اورده الاستاذ (وارن دوسن) [(٤)] من ان جانباً كبيراً من معلومات ديوسقوريدس (٥٠ ب . م) وجالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ ب . م) وپلينوس (٢٣—٧٩ ب . م) وغيرهم مأخوذة بطريقة مباشرة من القراطيس المصرية . وهذه المعلومات لقنت بواسطة هؤلاء الفطاحل الى اطباء القرون الوسطى باوربا وصارت اهم اركان الطب العشبي herbalist وتعاليم الطب القيّمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد استمر الطب المصري محافظاً على جوهره بعد دخول المسيحية مصر الى ان ظهر الطب اليوناني الذي اخذ يمتزج تدريجاً باصول الطب الفرعوني [(٥)]

(1) Oxyrhynchus Pap. Grenvel & Hunt vol II No 234 p. 134-136

(2) Oxyrhynchus Pap. Hunt Vol VIII No 1088 p. 110—115

(3) E. Chassinat, Un Pap. Méd. Copte (Cairo 1921) No 114 line 242-3.

(4) Science Progress 1927 p. 283

(5) Proc. of the Roy .Soc. of Med. vol XVII pp 5—7, Warren Dawson

تجارب الانسان والنبات

للامير مصطفى الشهابي

يتجبر الانسان على الارض ويستكبر ، ويتيه على المخلوقات السائرة بادراكه وعقله ، ويسخر النبات والحيوان لأغراضه ، ويعمد الى النباتات في تربتها فيستأصلها من جذورها ويدفنها حية او يطعمها ماشيته او يحرقها تحريقاً ويذرو رمادها في الريح والهبوب ، ثم يدك تلك التربة او يبسطها ويشيد عليها شاهقات القصور بمقاصيرها الهادئة وأفنيتها الواسعة وبلاطها المجزّع وفسيفسائها الآخذة بمجامع القلوب . ومتى انتهى من عمله هذا شمخ بأنفه وتصلف في قوته وأيّده ونظر الى الطبيعة المغلوبة على امرها نظرة القائد المعتز بالنصر وراح يتباهى بأعماله الباهرة وبمدنيته الزاهرة وهي تجتاح كل عقبة تقف في سبيلها سواء اكانت تلك العقبة راسخة متمكنة ام رجراجة مضطربة

ويظن الانسان في غروره انه قد غلب النبات على امره وأنهُ قد ازاحه عن منابته واستولى على بلاده وجعلها مستعمرة يتصرف بها تصرف المالك في ملكه . لكن هذا النبات الذي يبدو ضعيفاً لأعين البسطاء من الناس لا يبيت على ضيم ولا يغمض له جفن على قذى ، فهو يظل ينبت ويتكاثر حوالي القصر القائم على تربته حتى اذا لاحت له غرة من صاحب ذلك القصر قذف ببزوره داخله فانتشت ونمت فيه . اما اذا غدر الزمان الخؤون بأهل القصر وسكانه فطاح بحضارتهم الحائلة ومدنيتهم الزائلة فهنالك تشاهد النبات قد ثارت ثوائره وتباشرت بالخير أزاهره فنما بين البلاط وفي شقوق الجدران وعلى السطوح وفي كل مكان ضيق او واسع يستطيع فيه الحياة بمناء او برخاء وتراه ينشب جذوره في ضيق من سم الخياط فيقلق البلاط ويفرج ما بينه ويصدع حجارة الجدران ويزيحها عن مواضعها حتى يدك بنيانها دكّاً . ولا ينفكّ يعمل في هذا السبيل اناء الليل وأطراف النهار الى ان تتفتت حجارة القصر وتستحيل تراباً فيكون النبات قد عاد الى وطنه المحبوب وطهره من بقايا الانسان الغاشم الظلوم وعاش بأمان وصفا له الزمان ولسان حاله يقول « ان عادت العقرب عدنا لها ... »

وربما ظنّ القارىء ولا سيما اذا كان مصريّاً انني ابالغ فيما اقول ، لان المصري يعيش في بلاد ترتوي بماء النيل لا بماء المطر فلا تتكاثر الأعشاب في صحاريها ولا تلتفّ ولا تستأسد ولا يزحم

بعضها بعضاً . لكن الامر على خلاف ذلك في الارض القريبة من خط الاستواء حيث وفرة الامطار وارتفاع الحرارة تمدان النباتات بغذاء وماء وقوة فيسمو قدُّها ويكبر جرمها ويعظم خطرها حتى اذا تركت وشأنها نشأت منها حراج غبياء الشجر وادغال يتسابق فيها العشب والجنبة وجميعها متشبثة بالارض تتزاحم على الشبر منها وتتقاتل في امتلاك كل ذرة من ذراتها . وليست البلاد الشمالية اي اوربا وما على سمتها من البلاد بأقل إنباتاً لمختلف النباتات البرية ، بسبب غزارة امطارها وان كانت حرارة الجو فيها ادنى منها في البلاد القريبة من خط الاستواء

ولهذا اذا نظر المصري الى اهرام الجيزة مثلاً وجدها موطدة الاسس ثابتة الاركان سليمة السطوح لم يعبث بها عابث من مملكة النباتات لأن هذه لا حياة لها في ارض جفَّ ترابها وتلاعبت في اجوائها اشعة الشمس المحرقة ، ويجد ابا الهول جاثياً أمام مدينة المعز يهزأ بتعاقب الايام وتتالي السنين والقرون وهو اجرد امرد تطوف العين في هيكله الضخم فلا تقع على نبتة واحدة تسبّح خالقها في الغدوّ والآصال . لكننا اذا ركبنا البحر الى سيام مثلاً وطوَّفنا في بعض مصانعها ومعابدها القديمة الفيناها غرقى في غابات من الاشجار الملتفة . فهذا صنم عظيم للآله بوذا قد طوقت عنقه النباتات المعترشة حتى همت بخنقه ، والبسته في رأسه قلنسوة من اوراقها المتشابكة ونسجت على منكبيه اردادها السندسية ، وحلَّت زنديه باسورتها الزمردية ، ولم تتورَّع في هجومها وانحائها عليه فغطت اذنيه لكي يصم وفرَّخت في عينيه لكي يكف ويعمى وانبتت بزورها في فيه حتى تخمد منه الانفاس ، ثم صاحت بالناس تعالوا فانظروا ماذا صنعت بربكم الاعلى واعبدوه ان كنتم لمثله عابدين ولكن لا تنسوا انني سأحيله بعد حين الى تراب وطين

وما لنا وللبلاد البعيدة نتمثل بها ما دام في بلادنا امثال كثيرة لما ذكرت . فلقد مررت في السنة الماضية بخرائب افامية الشهيرة شماليَّ الشام فوجدت بعض النباتات قد مدَّت جذورها في شقوق العُمُد والتماثيل وكأنها تهزأ بها وبناحتيها . ومررت بقرية حقيرة من قرى حلب بعض ارضها مكسو بفسيفساء رومانية قديمة فاسترعت نظري ازهار علت جسم غادة حسناء من فواتن الفسيفساء . وحدث ان مرَّت في تلك الفترة قافلة من الابل وكان في رفقتي عالم فرنسي فقال لي ان بلادكم مفتاح الجزيرة وهي مهما تعاقبت فيها المدنيات ومهما عشقها الفاتحون فانهُ لا يدوم فيها غير هذه الازهار وغير اصحاب هذه الابل

والخلاصة ان صاحب الارض الحقيقي هي نباتاتها فهي التي استولت على سطح الكرة الارضية في طولها والعرض . وما مدنية الانسان بقصورها ومدنها ومصانعها ومعابدها وهياكلها سوى بقع صغيرة تلطخت بها بشرة هذه الارض . وهي كلها صائرة الى الزوال لان النباتات اذا غذتنا بحبوبها وأثمارها وكستنا بنسيج أليافها وكانت اكبر دعامة في بناء حضارتنا المتتالية فهي لا تجيز لنا ان نتجاوز على حرمها الاقدس فنلوّثه بهذه المدنيات الزائفة ...

الكريم والفتى والسيد

What is a Gentleman?

الدكتور امين باشا المعلوف

٢

اما مؤنث جنتلمان لفظاً فهو جنتلومَن ومعناهُ المرأة الكريمة اي الطيبة الاصل والشائع في الاستعمال كلمة ليدي يقابلها بالعربية كريمة وسيدة وست وخاتون ولا يقال فتاة بهذا المعنى . اما الكريمة فقد وردت في كتب اللغة وسيأتي ذكرها في مادة كرم قال الطغرائي في لامية العجم

نؤُمّ ناشئة بالجزع قد سقيت   لحاظها بمياه الغنج والكحَلِ

قد زاد طيب احاديث الكرام بها   ما بالكرائم من جبن ومن بخَلِ

واما السيدة فمعروفة عند الخاصة والعامة يلقبون بها نساء الاشراف من القرشيين . واذكر ان صاحب نشوار المحاضرة كان اذا قال السيدة اراد بها والدة الخليفة دون غيرها واما لفظة ستّ فكان يستعملها اذا خاطبت جارية احدى نساء القصر فانها كانت تقول لها يا ستي والكلمة مولدة وهي واردة في شعر البهاء زهير كثيراً وفي نشوار المحاضرة كما تقدم وشائعة في الشام ومصر وكانت في لبنان لقباً لنساء الامراء ، والمشايخ ، واما في العراق فلم اسمعها الاَّ في مخاطبة الراقصات والمغنيات الاجنبيات او عند ذكر قبر في جانب الكرخ يسمونهُ قبر الست زبيدة وهو ليس قبر السيدة زبيدة زوجة الرشيد بل قبر اميرة سلجوقية بهذا الاسم . واما الخاتون فقد ذكرها صاحب القاموس قال : الخاتون للمرأة الشريفة كلمة اعجمية وزاد صاحب التاج استعملها الفرس والترك والجمع الخواتين ، وقال محيط المحيط: الخاتون كلمة اعجمية للمرأة الشريفة وهي من لغة التتر تلقب بهِ نساء الملوك عند العرب . واذكر ان ابن جبير كان لا يقول الخواتين الاَّ لنساء الملوك ومثله ابن بطوطة فانهُ سافر في ركب اميرة رومية هي زوجة خان التتر او الخزر في ذلك العهد فكان اذا ذكرها قال الخاتون والكلمة شائعة في العراق فاذا ذكروا احدى الكرائم قالوا الخاتون مثل فاطمة خاتون واميليا خاتون وصورما خاتون وهذه عمة بطريرك النساطرة الحالي ويسميها الانكليز ليدي صورما وكانت المس بل رحمها الله تستحسن هذا اللقب كثيراً وقد زرتها مرة وكنت لا اعرف بيتها فركبت عربة وقلت للسائق خذني الى دار الخاتون فاخذني توّاً الى منزلها وكان في اطراف المدينة فقالت كيف عرفت الدار فقلت على اهون سبيل فاني ركبت عربة وقلت للسائق خذني الى دار الخاتون واظنها ابتسمت لذلك واذكر انهُ جرى ذكر سيدة في بغداد فقالت احدى السامعات ان فلانة حقيقة خاتون اي انها ارادت بخاتون ما يريده الانكليز بكلمة ليدي

قلت ان كلمة خاتون شائعة كثيراً في العراق ويتلوها لقب خان فيقولون مثلاً ربيعة خان وحسيبة خان ولعلها ترخيم خانم على انهم يقولون ايضاً خانم وهانم وجميعه مؤنث خان اي ان خانم وهانم مؤنث خان ومعناها ملكة ولفظة خان تمت الى ما معناه ملك بالانكليزية واللهجات الجرمانية واصلها خانغ باللغة الجغتائية اي التركية القديمة وخانم اصلها خانغم ومثل ذلك بكم مؤنث بك سمعت جميع ما تقدم من الاديب التركي المشهور يوسف سامح بك نزيل مصر في ايامنا وكثيراً ما كنا نجتمع للسمر في صيف سنة ١٩١١ والسنة التي تلتها. ولما كان البحث الآن في كرم الاخلاق والمروءة وكنت آليت على نفسي الاَّ اذكر احداً من الاحياء ولكنني وجدت الفرصة سانحة والواجب يقضي عليَّ ان اذكر بعض الذين كنا نجتمع واياهم في هذه المجالس من كرام القوم ممن تجلى فيهم الكرم في احسن معانيهِ فنهم الدكتور شبلي شميل فتى لبنان الحرّ الشهم ورفيق بك العظم من فتيان العرب وساداتهم وحسني بك يكن واخوهُ رضا بك من فتيان مصر وساداتها . وربما عدت الى هذا البحث في فرصة اخرى وضربت امثلة على اعمالهم مما اختبرتهُ بنفسي رحمهم الله جميعاً . واني لم اذكر اسماءهم لادبهم الجمّ او لعلمهم الواسع او لسخائهم او كياستهم بل لما كانوا عليهِ من مكارم الاخلاق اي ان كل واحد منهم كان فتىً اي جنتلمان

ومن القاب الكرائم في العراق « بكم » وهي شائعة في الهند وايران وفي الكرخ والكاظمية في بغداد وربما في كربلاء والنجف واللفظة كما تقدم مؤنث بَك ومما يحسن ذكره ان اهل العراق ولاسيما في الموصل يلفظون كلمة بَك كما كان يلفظها الترك قديماً ومثلها كلمة بَكم اي بفتح الباء وهي شبيهة بلفظ الانكليز للكلمتين الآتيتين اي Beg & Begum فخان معناها في الاصل ملك او سلطان او امير ومثلها بك وكلنا نعرف اسم ارطغرل بك فاتح بغداد وكان من السلاطين السلجوقيين

ولنبحث الآن في ماجاءَ عن الكريم والفتى في كتب اللغة وكلام العرب فقد جاءَ في التاج ما نصهُ : الكَرَم محركة ضد اللؤم يكون في الرجل بنفسهِ وان لم يكن لهُ آباء ويستعمل في الخيل والابل والشجر وغيرها من الجواهر اذا عنوا العِتق واصلهُ في الناس. قال ابن الاعرابي كرُم الفرس ان يرق جلده ويلين شعره وتطيب رائحتهُ .وقال بعضهم الكرم مثل الحرية الاَّ ان الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال الاَّ في المحاسن الكبيرة كانفاق مال في تجهيز غزاة وتحمُّل حمالة يوقى بها دم قوم . وقيل الكرم افادة ما ينبغي لا لغرض فمن وهب المال لجلب نفع او دفع ضرر او خلاص من ذمّ فليس بكريم . وقد كرُم الرجل وغيره بضم الراء كرامة على القياس والسماع وكَرَماً وكَرَمة محركتين فهو كريم وكريمة وكِرمة بالكسر ومُكرم ومُكرمة بضمهما وكُرام كغُراب واذا افرط في الكرم قيل كُرَّام مثل رُمَّان . الى ان قال اي صاحب التاج والكريم الواسع الخلق والصدر الصفوح عن الذنب . الى أن قال وقوله تعالى « واعتدنا لها رزقاً كريماً » أي كثيراً وقولهُ تعالى « وقل لهما قولاً كريماً » اي سهلاً ليناً وقوله تعالى « ويدخلكم مدخلاً كريماً » أي حسناً وهو

الجنة . الى أن قال ومما يستدرك عليه الكريم من صفات الله تعالى واسمائهِ وهو الكثير الخير وقيل الجوّاد وقيل المعطي الذي لا ينفد عطاؤه وقيل هو الجامع لانواع الخير والفضائل والشرف وقيل حميد الفعال وقيل العظيم وقيل المنزه عما لا يليق . الى ان قال واذا وصف بهِ الانسان فهو اسم للاخلاق والافعال المحمودة التي تظهر منهُ ولا يقال كريم حتى يظهر منهُ ذلك والكريم ايضاً الحرّ والنجيب والسخيّ والطيب الرائحة والطيب الاصل والذي كرّم نفسه عن التدنس بشيءٍ من مخالفة ربهِ .وايضاً الرقيق الطبع والحسن الاخلاق والواسع الصدر والحسيب والمختار المزيّن المحسّن والعزيز عندك والحج وايضاً الجهاد وفرس يغزى عليهِ والبعير يستقى بهِ . وكتاب كريم اي مختوم او حسن ما فيهِ وقرآن كريم يحمد ما فيهِ من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وقول كريم سهل ليّن ورزق كريم اي كثير ومدخل كريم حسن

والكريم ايضاً الرئيس والعفيف والجميل والعجيب الغريب والعالم والنفيس والمطر والجود والمعجز والدليل على التهكم فهذه نيّف وثلاثون قولاً في معنى الكريم ولم اره مجموعاً في كتاب الى أن قال والكريمة الاهل وقيل شقيقة الرجل والجمع الكرائم . قلت والكريمة بمعنى الشقيقة شائعة في الحجاز سمعتها غير مرة بهذا المعنى والكريمة في الشام ومصر ابنة الرجل الكريم وهي شائعة بهذا المعنى . الى ان قال صاحب التاج وفي الحديث ان الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن ابراهيم لانهُ اجتمع له شرف النبوة والعلم والجمال والعفة وكرم الاخلاق ورياسة الدنيا والدين . انتهى ما اريد نقله عن التاج . وفي سائر كتب اللغة ما لا يخرج عن ذلك والمآل واحد ولا بأس بايراد ما جاء في محيط المحيط مما لم اعثر عليه في التاج . قال صاحب محيط المحيط ما نصه : قيل الكريم قد يطلق على الجوّاد الكثير النفع وقد يطلق من كل شيء على احسنه كما قيل الكريم صفة ما يرضي ويحمد في بابه . يقال رزق كريم اي كثير وقول كريم اي سهل ليّن ووجه كريم اي مرضٍ في حسنه وجماله وكتاب كريم اي مرضٍ في معانيه وفي جزالة الفاظه وفوائده ونبات كريم اي مرضٍ فيما يتعلق به من المنافع . والكريم من كل قوم ما يجمع فضائله . كليّات . انتهى ما اريد نقله

ثم انهم ميزوا بين الكرم والشرف فالشرف يقتضي له آباء اشراف اما الكرم فقد يكون في الرجل بنفسه كما جاء في تعريف الشرف في ص ٦٧٣ من مقتطف الشهر الماضي . فالكرم خُلق يكون في الرجل بنفسه يرثه عن آباء كرام او لا يرثه . اما اللؤم فكتب اللغة مجمعة على انهُ ضد الكرم . قال صاحب التاج اللؤم بالضم ضد العتق والكرم ومرّ له في الكرم انهُ ضد اللؤم وعاب جماعة عليهِ (أي على الفيروزابادي تفسيره الكرم في قوله انهُ ضد اللؤم وتفسيره اللؤم في قوله انهُ ضد الكرم) ووقع في شرح الشواهد للعيني ان اللؤم ان يجتمع في الانسان الشح ومهانة النفس ودناءة الآباء وهو من اذم ما يهجى به وقد لؤم لؤماً بالضم فهو لئيم وفي الاصل شحيح النفس

فالكلام صريح على ان الكرم ضد اللؤم وعندي ان الكرم خلق في الانسان كذلك اللؤم

يكونان عن الآباء وهو الغالب وقد لا يكونان وهو نادر والكرم صفة ما يحمد واللؤم صفة ما يذم لذلك وصفوا الكريم اي الطيب الخلق والاصل بالجود والسخاء ووصفوا اللئيم اي الدنيء الاصل بعكس ذلك اي ان الكريم ليس معناه في الاصل السخيّ المعطاء الوهّاب بل الكريم في خلقه وفي نفسه ولما كان من فطرة العرب السخاء غلب معنى الكريم على السخي الجوّاد المعطاء وهو ليس كذلك في الاصل . اما الانكليز فمعنى الكريم عندهم الطيب الاصل كما تقدم في ص ٦٧٤ وما يليها من مقتطف الشهر الماضي ثم اشتقّ من هذه المادة الاصلية الفاظ اخرى تدل على الجود والسخاء وغير ذلك من المعاني فكلمة جنتل يقابلها الكريم بالعربية ثم تفرّعت منها المعاني الاخرى بالعربية والانكليزية . اما الكلمة الانكليزية فقد بينت اصلها عن معجم وبستر في الشهر الماضي وأما مادة كرم العربية وعلاقتها اللغوية بالكرْم اي شجر العنب فلا محل للبحث فيه الآن ولعل اصلهما واحد ومن شاء زيادة البحث فليراجع مادة كرم في الامهات

اما الفتى فقد جاء في تاج العروس ما نصه : الفتى الشاب يكون اسماً وصفة . وفي المصباح الفتى في الاصل يقال للشاب الحديث ثم استعير للعبد وان كان شيخاً مجازاً لتسميته باسم ما كان عليهِ قبلاً وقوله تعالى « واذ قال موسى لفتاه » جاء في التفسير انهُ يوشع بن نون سماه بذلك لانهُ كان يخدمه في سفره ودليله قوله « آتنا غداءنا » وقال الراغب ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة ومنه قوله تعالى « تراود فتاها عن نفسه » . الى ان قال صاحب التاج والفتى ايضاً السخيّ الكريم وهو من الفتوّة يقال فتىً بين الفتوّة نقله الجوهري وهما فتَيان بالتحريك ومنه قوله تعالى « ودخل معهُ السجن فتيان » جائز كونهما حدثين او شيخين لانهم كانوا يسمون المملوك فتىً . الى ان قال والفُتوَّة بالضم والتشديد الكرم والسخاء هذا لغة وفي عرف اهل التحقيق ان يؤثر الخلق على نفسهِ بالدنيا والآخرة وصاحب الفتوة يقال له الفتى ومنهُ لا فتى الاّ علي . وقول الشاعر

فانّ فتى الفتيان من راح واغتدى لضرّ عدوّ او لنفع صديق

وعبروا عنها في الشريعة بمكارم الاخلاق ولم يجيء لفظ الفتوّة في الكتاب والسنّة وانما جاء في كلام السلف واقدم من تكلم فيهِ جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الامام احمد وسهل والجنيد ولهم في التعبير عنها الفاظ مختلفة والمآل واحد . انتهى ما اريد نقله عن التاج . وفي لسان العرب مما لم اعثر عليهِ في التاج : قال القتيبي ليس الفتى بمعنى الشاب والحدَث وانما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال يدلك على ذلك قول الشاعر

ان الفتى حمّال كل ملمّةٍ ليس الفتى بمنعّم الشبان

وفي اساس البلاغة : هذا فتى بيّن الفتوة وهي الحرية والكرم قال عبد الرحمن بن حسّان

ان الفتى لفتى المكارم والعلى ليس الفتى بمملج الصبيان

وقال آخر : يا عز هل لك في شيخ فتىً ابداً وقد يكون شباب غير فتيان

انتهى ما اريد نقله عن كتب اللغة . وللاديب العراقي الكبير مصطفى جواد نزيل القاهرة مقالة نفيسة في الفتوة في لغة العرب ص ٢٤١ وما يليها من المجلد الثامن قال فيها ما يأتي : الفتوّة مذهب حيوي ديني سلك بعد ظهور الاسلام لتهذيب الاخلاق ونعش النفوس وبث العبقرية وتوكيد المؤاخاة بين الناس والدعوة الى الفضائل والشجاعة والتجافي عن الرذائل والجبن فالفتوة عند الفتيان هي استجماع النعوت الكريمة والاخلاق القويمة والطباع السليمة والجرأة والاقدام ولا سيما السخاء والكرم . وقال في مبعثها : ان الفتيان ينسبون طريقتهم هذه الى الامام علي عليهِ السلام فهو قدوتهم وفيهِ اسوتهم ويؤمنون بأنهُ اول الفتيان وأقدسهم لورود « لا فتى الاّ علي ولا سيف الاّ ذو الفقار » في فتوته المقدسة وشجاعته الفذة . ثم ذكر الاديب الكبير شيئاً كثيراً عن الفتوة وتطوراتها فقال ما يأتي : حكم التطور جار على كل امور الدنيا ولذلك تطورت الفتوة اطواراً شتى فدخل فيها الغناء ورمي البندق وتطيير الحمام للمسابقة . قلت وقد كتب ذلك قبل مجيئه لى مصر ومروره بالشام فما قوله الآن في فتوّات مصر وزملائهم قبضايات الشام . وقد لقيته الامس فسألته هل تعرف العامة في بغداد كلمة فتوّة فاني لا اذكر اني سمعتها منهم بمعنى الفتوة عند عامة اهل مصر قال لا وانما يقولون اشقياء اي انهم يستعملون الجمع مكان المفرد قلت اذكر انهُ يقال في بغداد ابو جاسم اي ابو قاسم قال نعم يقولون ذلك . اقول ان أبا قاسم لا تزال شائعة في الشام بهذا المعنى فيقال أبو قاسم وابو حمد وابو علي ولا يزال بعض البيوت المعروفة في الشام يكنى بهذه الاسماء ولعلّ اجدادهم كانوا فتياناً ومن اهل المكارم وهم يفخرون بهذه الكنى . ثم ان كلمة فتوة في مصر وزميلتها كلمة قبضاي في الشام ليستا بالمعنى الذي تفهمه العامة بل لا تزال وراء ذلك شيء من النجدة والمروءة . اما كلمة قبضاي فهي على ما قيل لي تركية الاصل ومعناها الخال الضخم او الخشن ولا يزال أثرها في بيروت حتى الآن في قولهم مرحباً يا خال . والجواب يعزك يا روح

وان اول عهدي بكلمة فتىً بمعنى جنتلمان كان في الثورة العربية فقد رأيت في دمشق امراً عسكريًّا بتعيين ضابط لا اذكر اسمه الآن وانما كتب في الأمر ان الفتى فلان ابن فلان منح رتبة الملازم الثاني وهو ما يفعله الانكليز اذا ذكروا ضابطاً بلا رتبة سابقة ولا يزالون يفعلون ذلك حتى الآن كما اذا عين تلميذ بهذه الرتبة او طبيب لاول مرة فانهم اذا ذكروا اسمه قالوا جنتلمان ولا اعلم من ادخل كلمة الفتى بهذا المعنى ولعلّ ضباط الثورة اخذوها عن سليم بك الجزائري شهيد العرب . وكان رحمه الله اديباً وعالماً مشهوراً وفتىً من فتيانهم وان كثيرين من ضباط الجيش العثماني السابق هم من تلامذته ولا يزالون يذكرون ما كان عليهِ من كرم الاخلاق

فما ورد عن الفتى في كتب اللغة يدل على انهُ الشاب الحديث والعبد والكامل الجزل من الرجال والسخي والكريم اي الحرّ لان السخاء غير الكرم فاستعار العرب كلمة فتىً للمعاني المتقدمة كما استعارت العامة كلمة آدمي للرجل الكريم الاخلاق وكما اشتقوا كلمة مروءة من المرء اي الرجل

ولا اريد الآن ان ابحث في الفتوّة ولا في صحة ترجمتها وقد ترجمها الاديب العراقي مصطفى جواد او صاحب مجلة « لغة العرب » كما يأتي La Chevalerie arabe واظنها ترجمة صحيحة لا غبار عليها . وانما البحث الآن في كلمة جنتلمان . ولنذكر الآن بعض ما ورد في الكريم والفتى في كلام العرب وهو كثير وانما نجتزيء بالقديم منه . قال طرفة بن العبد البكري في معلقته

فلولا ثلاث هنَّ من لذة الفتى وجدّك لم احفل متى قام عوّدي

قال الزوزني في الشرح لولا حبي لثلاث خلال هنَّ من لذة الفتى الكريم لم ابالِ متى قام عوّدي من عندي آيسين من حياتي اي لم ابالِ متى مت . ثم ذكر طرفة في الابيات التالية هذه الخلال اي خلال الفتى الكريم في ذلك العهد اي عهد الجاهلية فالاولى شربة من الكميت والثانية اغاثة الخائف المذعور والثالثة مغازلة حسناء في يوم الدجن وكان طرفة غفر الله لنا وله يحسب لذة الفتى في هذه الخلال الثلاث قلت ولا يزال البعض على رأيه فطرفة كان جاهليًّا يشرب الخمر وكان يغازل حسناءه في خدرها وفي يوم دجن ماطرٍ لا يراه فيه احد او يفاجئه فيه مفاجيء فلم يغازلها على قارعة الطريق او يضايقها في غدوّها ورواحها . وان قيل ان الفتى الشاب الحدث لأن طرفة قتل في شبابه فجده قبله يقول :

فالحرب لا يبقى لجا حمها التخيل والمراح
الاَّ الفتى الصبّار في الـ ـنجدات والفرس الوقاح

فهو لا يريد بالفتى هنا الشاب الحديث بل الرجل المجرّب في الحروب . وقال طرفة في قصيدة يفتخر بقومه

اجدر الناس برأس صِلدمٍ حازم الأمر شجاع في الوغم
كامل يحمل آلاء الفتى نبه سيّد سادات خِضمّ

فقد وصف الفتى هنا احسن وصف ثم قال

وتفرّعنا من ابنيْ وائل هامة المجد وخرطوم الكَرَم

فالكرم هنا معناه طيب الاصل كما تقدم في مادة كرم . وقالت قتيلة بنت النضر بن الحارث

امحمّدٌ ولانت ضِنء نجيبة من قومها والفحل فحل معرِق
ما كان ضرّك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنَق
والنضر اقرب من اصبت وسيلة واحقهم ان كان عِتق يعتق

قال شارح ديوان الحماسة وقد نقلت عنه هذه الأبيات : الضنء الولد والنجيبة الكريمة والمعرق من كان له عرق في الكرم والمعنى يا محمد ان التي ولدتك كريمة قومها والذي ولدك سيد عريق في الكرم فانت خلاصة شريفين والمعنى اذا كنت كذلك فما كان يضرّك لو مننت على ابي واطلقتهُ وليس هذا عيباً عليك اذ قد يعفو الفتى مع انطوائه على الغيظ والحنق. قات وقد وردت هذه الأُبيات في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ولكنه قال الحارث بن كلدة الثقفي والصواب القرشي لا الثقفي

ولعلَّ احسن ما قيل بهذا المعنى ما وقع لابي الاسود الدؤلي مع عمر بن ابي ربيعة على ما جاء في

الجزء الاول من الاغاني قال : حج أبو الاسود الدؤلي ومعهُ امرأتهُ وكانت جميلة فبينا هي تطوف بالبيت اذ عرض لها عمر بن ابي ربيعة فأتت ابا الاسود فأخبرتهُ فأتاه ابو الاسود فعاتبه فقال له عمر ما فعلت شيئاً فلما عادت الى المسجد عاد فكلمها فأخبرت أبا الاسود فأتاه في المسجد وهو مع قوم جالس فقال له

وانّي ليثنيني عن الجهل والخَنـا وعن شتم اقوام خـلائق اربع
حياءٌ واسـلامٌ وبُقيا وانني كـريمٌ ومثلي قد يضرّ وينفع
فشتّان ما بيني وبينك انني على كل حال استقيم وتظلع

فقال عمر لست اعود يا عمّ لكلامها بعد هذا اليوم ثم عاد فكلمها فأتت أبا الاسود فأخبرتهُ فجاء اليه فقال لهُ

انت الفتى وابن الفتى واخو الفتى وسيدنا لولا خـلائق أربع
نكولٌ عن الجُلّى وقربٌ من الخنا وبخلٌ عن الجدوى وانك تبَّع

ثم خرجت وخرج معها ابو الاسود مشتملاً على سيف فلما رآها عمر اعرض عنها فتمثل ابو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ وتتقي صولة المستأسـد الحامي

قلت الـكريم في البيتين الاولين معناها الكريم في طبيعته اي الواسع الخلق والصدر كما تقدم في مادة كرم يريد ابو الاسود أن يقول يمنعني عن الجهل والخنا وشتم الناس اربع خلائق اي طبائع هي حيائي واسلامي واشفاقي وكوني كريماً ولكن الفرق بيني وبينك اني مستقيم وأنت تظلع اي تميل في مشيك . ولا ادري كيف يكون معنى الفتى في البيتين التاليين الاَّ بقولنا كريم اي جنتلمان فتجد ان هذه الابيات حوت معاني جنتلمان في ثلاث كلمات هي الـكريم والفتى والسيد

وقال سلمة الجعفي يرثي اخاه لامه :

فتىً كان يدنيه الغنى من صديقه اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

قلت هذا لعمري من احسن صفات الجنتلمان اي الرجل الـكريم وفي ديوان الحماسة شيء كثير من هذا : وقال آخر معرّضاً بحديثي النعمة

إن الـكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

وقال المتنبي : ولـكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وهذا مثل قول شكسبير « فَتَيان من فيرونا » وهو ما يقوله القائد الانكليزي عند مخاطبة ضباطه وما كان يقوله الانكليز في كثير من كتاباتهم وما كان يقوله سيبويه في مخاطبة تلاميذه وما يقوله الاساتذة من الانكليز والاميركيين في مخاطبة تلاميذهم وهذا يوافق المعنى الرابع من معاني جنتلمان بالانكليزية على ما جاء في ص ٦٩٨ من الجزء الماضي ويدل على أن العرب وشعراءهم كانوا على أدب كبير. وعليهِ أرى ان المعنى الاول من كلمة جنتلمان هي الفتى والكريم والسيد كذلك المعنى الثاني والرابع والخامس والسادس . أما المعنى الثالث فلا يقال غير الفتى أي ان جميع المعاني يصلح لها كلمة فتى وكريم وسيد . أما المعنى الثالث فانه لايصلح لهُ الاَّ الفتى

الدكتور رضا توفيق

آراؤه في السلالة، وشكل الحكومة ، والحرية ، والديمقراطية ، والاريستوقراطية ، والفن والشعر ، والفن والطبيعة ، والفلسفة

لالياس ابو شبكه

ليس من السهولة في شيءٍ أن آتي — في هذه الصفحات القليلة من المقتطف — على جميع المراحل التي جازها صديقي الكبير الفيلسوف الشاعر الدكتور رضا توفيق بك في حياة طويلة طافحة بجلائل الاعمال وألوان الاضطراب ، فالإقدام على عملٍ كهذا يستغرق وقتاً طويلاً ومجلدات ضخمة لان حياة هذا الرجل إنما هي ملحمة كثيرة الوقائع ، متعددة الصور ، تبدأ عند اعلان الحرب بين تركيا وروسيا ، تلك الحرب الطاحنة التي كانت نتأجها وخيمة على مسقط رأس الشاعر ، وتنتهي — وقد لا يجوز لنا ان ننهيها — في مطلع الثلث الثاني من هذا القرن العشرين

ولد الدكتور رضا توفيق من أب تحدّر من سلالة ألبانية فكان آخر عقبٍ من اولئك الفرسان الاشداء الذين نشأوا في الجبال فاستمدوا الصلابة من الصخور والصراحة من الطبيعة التي لا تتصنّع ولا مشاحة في أن الشاعر ورث عن أجداده المتحمسين بعض خلال لا يزال يحترمها وبعض هفوات كانت شؤماً عليهِ في حياتهِ السياسية ، على أن هذه الهفوات المزعومة تقوم على فضائل جبلية كتعشق الاستقلال المطلق ، والتمرّد على كل سلطة لا تدعمها عاطفة احترام للرتب الانسانية . وكانت أمّهُ شركسية تمتّ الى قبيلة « شابصيح » المتحدرة من القفقاس ، وقد يكون الدمُ التركيّ المتمشي في عروق الشاعر متصلاً بهِ من جدتهِ لابيهِ ، وهي تركية من مكدونيا

فهذا الخليط في الدم يجعلنا نجاري الشاعر في إنكاره النظرية القائلة بنقاوة النسل ، وهي ضلال فظيع تكاد عدواهُ تغمر هذا القرن العشرين الذاهل المضطرب ! ... فهو يذهب الى ان نقاوة النسل إنما هي نظرية خلقت لدعم جنسية مصطنعة لتبرير سلطان ممهِّد هو ينبوع جميع الفتن التي تهدّد السلام العالمي . فثمة طائفة من العلوم كالتاريخ والاتنولوجيا والانطروبولوجيا وغيرها تبرهن على أن البشر الحاليين قد جبلتهم حروبٌ متواصلة منذ عشرات من القرون ، وأن العوامل التي تجعل من شعبٍ أمةً متفوقة انما هي عديدة ، ولا يخفى أن تمازج الشعوب إنما هو اهمّ هذه العوامل واشدها تأثيراً . فالشعب اليوناني القديم ، وهو أنبغ الامم التي درجت على سطح هذه الكرة واكثرها تفوقاً من ناحيتي الثقافة والخلق ، كان مزيجاً من شعوب مختلفة ، وفي هذا برهان واضح على خطإِ النظرية القائلة بنقاوة السلالة

ولنعد الى الدكتور رضا توفيق فنقول انهُ ولد في « جسر مصطفى باشا » وهو مدينة صغيرة تقوم على ضفاف مريج — وقد اصبحت اليوم مدينة بلغارية معروفة باسم « ساريبرود » — في ٢٣ رمضان ١٢٨٣ الموافق للعام ١٨٦٨ ، ولما بلغ السابعة من عمره جاء بهِ والده الى اسطنبول ، وكانت الحرب بين تركيا وروسيا على وشك الانطلاق ، فأتيح له ان يشهد تلك الحوادث المشؤومة التي كانت وبالاً على تركيا ، ولا يزال يذكر خلع السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس وجلوس عبد الحميد على العرش وغير ذلك من الحوادث الخطيرة

وفي أثناء تلك الحوادث كان الشاعر منصرفاً الى الدرس في قلب الطبيعة التي اوحت اليهِ تعشقها ولا مشاحة في ان للطبيعة يداً على شاعريته التي ارتفع بها الى مستوى كبار الشعراء في تركيا . وفي العام ١٨٨٢ انتظم في المكتب السلطاني ، الاَّ ان طبيعته الميالة الى الاستقلال ، المتمردة على كلّ نظام دقيق ، وعلى كلّ سلطة لا تستطيع أن توحي اليهِ بالثقة والاحترام جعلت حياتهُ في تلك الجامعة صعبة لا تطاق . واخيراً في العام ١٨٩٠ اتهم بالائتمار على الحكومة فألقي القبض عليهِ وسجن اربعين يوماً . ومنذ ذلك الحين بدأت حياته السياسية التي دامت ثلاثين سنة . على اننا نضرب صفحاً عن ذلك العهد المضطرب من حياته ، ونكتفي بأن نقول ان الدكتور رضا توفيق يعيش في البلاد العربية منذ احدى عشرة سنة مغموراً بعطف صاحب السموّ الامير عبدالله . وهو يقيم اليوم على ضفاف الشاطئ الوردي المضطجع عند اقدام مدينة جونية في تلك البقعة الرمادية من لبنان، المتوّجة بالآكام السبع الممتدة من جبل حريصا الى طرف خليج جونية والشاخصة شخوصاً ازليًّا الى الشفق البعيد المتموّج بجميع ألوان الشمس الصريحة

والدكتور رضا توفيق شيخ يدلف الى العقد السابع من العمر ، على ان الطبيعة خلعت على هيكله الجبار كلّ ما في وسعها فلم تستطع الايام أن تزيل عن جسده بريق الشباب . ففي عضلاتهِ القوية ، تلك العضلات المفتولة الشبيهة بعضلات المصارعين ، وفي قامته المستطيلة كالاسطوانة ، واندلاق صدره الى الامام ، واسترسال كتفيه الى الوراء ، وفي اتزان مشيته العصبية ، ولفتاته السريعة المتيقظة ، في ذلك كله عناصر من الشباب الجبار تخونها شعور بيضٌ هي اكليل السبعين

جبهة نافرة عالية تشطر الوجه الى شطرين متساويين أغدقت قمتها على الرأس شعراً غزيراً ترامت أمواجه الى سفح الرقبة وتفرت منها موجتان فانتشرتا مشعثتين كلٌّ منهما على أذن . وفي سفح هذه الجبهة المنحدرة يعبّس حاجبان متسقان جيلان تطمئنّ تحتهما مقلتان ساذجتان على ما فيهما من البريق الذكيّ هما مقلتا الفيلسوف الشاعر ، وانك لترتاح الى تلك الاشعة الغريبة المنبعثة من وراء نظارتيه الذهبيتين والمنتشرة شعاعاً على تينك الوجنتين المشربتين بألوان خمرية كألوان الشفق قبيل الغروب ، انك لترتاح الى ما يطفو عليها من الوجدان النيّر المغمور بأعذب ما في القلب البشري من زبد الرحمة والحب . وأول ما يقف نظرك عليه في ذلك الرأس المردود الى السلالة العبرانية القديمة ،

او اذا شئت الى فلاسفة اليونان في عهد سقراط وافلاطون لحية كثيفة تنحدر كالشلال الى مغرس الثندوتين ثم يتجمع بعضها على بعض فتعير الوجه هيئة نبيٍّ خرج من التوراة ، وفي حنجرة هـذا الرجل لا أعلم أية كنارة أم أي أوتار ساحرة يهزك منها في الكلام صوت ، عذب تشدّ بهِ غنّة كالتي تصدر عن رجع النحاس ، فهو اذا كلمك أطربك بحديثه وصوته معاً . والفيلسوف الشاعر رضا توفيق مبسوط العلم باللغات الفرنسية والانكليزية والفارسية واليونانية والعربية

ولننتقل الآن الى آراء الدكتور رضا توفيق في الادب والاجتماع ، ولا سيما المسائل المتعلقة منهما بالحرية والواجبات والحقوق والدين والحكومات وغيرها من المسائل التي يعبر عنها البعض بصيغ مبهمة لا يستقيم لها وزن والتي كثيراً ما تنجم عنها مجادلات عقيمة مزعجة

﴿ شكل الحكومة ﴾ لا يزال كثيرون ، منذ نحو من قرن الى اليوم ، يعلقون شأناً كبيراً بشكل الحكومة حتى ان جميع الانقلابات الثورية تكاد تكون وليدة تلك العقيدة الذاهبة الى ان الحكومات تتوقف على اشكالها . غير ان الدكتور رضا توفيق يخالف هذا المذهب قائلاً انهُ وهم محض ، وان الاختبار اظهر له في مواقف متعددة ان كل شيء يتوقف على الحرب او على السلم فثمة علاقة دقيقة بين الادارة المطلقة او المحافظة او الديكتاتورية والحروب العامة او المحلية . اما الشكل فليس سوى بطاقة او اعلان او صورة لا طائل تحتها ، ولقد قال احد الشعراء الفرنسيين ان شكل الحكومة يشغل افكار المجانين ، ولكن افضل الحكومات هي افضلها ادارة [1]

وكان كانت وسبنسر يقولان : « ان افضل الحكومات هي اقلها ادارة »

﴿ الحرية ﴾ ان كلمة «حرية» تدعو الى الالتباس كجميع الالفاظ المبهمة او كمعظمها . ثم ان هناك اصطلاحين للحرية ، الاول هو الاصطلاح النفساني وآخر الاصطلاح السياسي الاجتماعي . ولما كانت النفسانية psychologie نوعاً من العلم الطبيعي فانها لتضطرّ الى انكار الحرية ، اذ ان كل نوع من انواع العلوم يجتهد في شرح جميع العوامل التي يدرسها بأسباب من شأنها ان تحدد هذه العوامل ، اذن فجميع العلوم مجبرة بحكم المنطق على الاقتناع بأن كلّ حادث انما هو نتيجة اسباب عديدة لا نعرف الاَّ بعضها

ولقد اتيح للبعض ان يزعم ان الذي اصطلح على تسميته بـ « الارادة البشرية » او « الارادة المطلقة » انما هو السبب الاهم الذي يحدد أعمالنا ، على ان النفسانية العلمية تبرهن لنا على ان الارادة نفسها ليست سوى عامل محصّل من عدة اسباب نفسية فيزيولوجية تشترك بدون علم منا في عمل دماغنا ، ولما كان العمل الدماغي هو الذي يتيح لنا فرض تعديلات على الافعال المنعكسة التي تسببها العوامل الخارجية فمن البديهي ان يخيل الينا اننا احرار

ولقد تناقش العلماء المسلمون طويلاً حول هذه المسألة العسيرة لاجل تقرير المسؤولية البشرية

(1) La forme de l'etat préoccupe les fous, Le mieux administré est le meilleur de tous

من الوجهتين الدينية والحقوقية ، وظلوا يتناقشون حولها قروناً طوالاً . ثم انقسموا الى ثلاث فئات او مدارس : (المعتزلة) وهي القائلة بالارادة المطلقة ، واصطلاحها (ان شاء ترك) و (الجبرية) او انباع مذاهب القدر الذين كانوا يذهبون الى ان المقدّر لا يستطيع النزول على سنة التعديل . و (اهل السنّة) الذين كانوا يعتقدون ان للانسان « ارادة جزئية » يستطيع معها الاختيار بين مقدورين لا مناص منهما كالخير والشر مثلاً . وهـذا المذهب الاخير هو المعروف اليوم بمذهب «الحرية في الاختيار» وهو الذي يعتنقه الدكتور رضا توفيق بحجة ان العلم يوافق اهل السنـة في مذهبهم لان الارادة المركزية هي في الدماغ

اما الحرية السياسية فهي احترام الشريعة الوضعية مع التمتع الممكن بالافعال التي لم يستدركها التشريع المستبدّ . وخلاصة القول هي خضوع اختياري لقانون يرمز الى ارادة شعب مثقف ، وليس خضوعاً جبريّـا لارادة سلطان او حاكم فرد اريسطوقراطيّـا كان او ديموقراطيّـا ، او لارادة وصوليّ او ديكتاتور . واما الحرية الاجتماعية فهي حقّ الفرد في ان لا يخضع لتقاليد بلدٍ بشرط ان لا يكون تمرّده مخالفاً للشريعة الوضعية او للاصطلاح الاخلاقي الادبي المقرر في العالم

﴿ الديموقراطية ﴾ ذلك هو رأي الفيلسوف رضا توفيق في الحرية ، اما رأيه في الديموقراطية فيلخص بما يلي :

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . ولكن أيستحيل ذلك ؟ لقد حصر الفيلسوف العظيم شوبنهور هذه المسألة في برهان ذي حدّين ، فقال: « انه لمن الظلم المحرّم ان يحكم شعب بالرغم منه » وهذا حقّ على أنهُ أضاف إلى ذلك قوله: « وان الشعب ولدٌ ويظل ولداً ويحكم بالرغم منه » . وهذا يبعث على القنوط . الاّ ان القرآن — لحسن الحظ — أعطى أفضل حلّ لهذه المسألة العسيرة، فقد جاء فيه قول الآية : « ولقد كرّمنا بني آدم . . . » إذن فالانسان مكرّم أيّـا كان ، وينبغي ان تحترم قيمته الانسانية التي لم يستمدها لا من ملكٍ ولا من رئيس جمهورية بل من نعمة الله نفسهِ الذي خلقه على صورته . ولقد اضاف النبيّ قوله : (سيّـد القوم خادمهم) وإذن فأول شرط من شروط السيادة ان يكون السيد خادم الشعب الذي اولاه السيادة عليه

﴿ الاريسطوقراطية ﴾ يراد بالاريسطوقراطية ، حـكم الشعب بأفضل شخص بشري . على ان الاريسطوقراطية هي اليوم نوع من الامتياز الاقطاعي الوراثي يقوم على (حق الفتح) الذي لا يوفر لمدّعيه جميع الخلال والفضائل التي تجعل من الرجل شخصاً متفوّقاً تفوقاً حقيقيّـا يرفعهُ الى مستوى أفضل انسان في الامة . ومثل هؤلاء الاشخاص لا يستطيعون ان يحكموا بألقابهم وأنسابهم ورقوقهم أمة بأسرها جديرة بأنجاب طائفة من النوابغ كما هي الحال اليوم في الامم الراقية . اذن فالاريسطوقراطية التاريخية لن يحقّ لها التمتع بالسلطة الوراثية في ادارة بلد ما لم تخلق نوابغ . على ان ثمـة اريسطوقراطيةً طبيعية لا تتعدّى كونها فردية اي اريسطوقراطية نبوغ موهوب ،

كاريسطوقراطية سقراط وكانت وابن رشد في الفلسفة ، وغليليو وباستور وابنشتين في العلوم ، وشكسبير وجوته وهيجو في الشعر ، وبيتهوفن وجونود وفردي في الموسيقى ، وهلمَّ جرًّا . ولقد جاء في القرآن الكريم (وفضّلنا بعضهم على بعض)

﴿ الفن والشعر ﴾ يراد بالشعر الصحيح الذي يعبر ، بلغة سليمة مألوفة وانشاء موسيقي وجيه وأسلوب ذي عصمة في الصياغة ، عن بعض شواعر حارة تهزّ الروح البشرية هزًّا عميقاً . وهذه الشواعر — ينبوع الهاماتنا البديعية التي لا تنضب — لا تتأتي الاّ في اوقات العوارض النفسانية التي لا علاقة لها قط بأغراض الحياة الحيوانية المادية ويرجع ذلك الى ان هزة نفسانية شديدة تنير دخيلة الرجل على حين غرة فترحّب آفاقها المظلمة المتحيرة وتوقظ فيها جميع الخصائص الفعلية . وفي هذه الحالة من الاستنارة الداخلية يستطيع الرجل ان يرى ويميز بوضوح وجلاء عوامل العاصفة العاطفية التي تحرك روحه . عند هذا يتراءى العالم الخارجي نفسه لعينيه المنذهلتين في اجمل صورة من تآلفه ويكشف له في جميع تبدلاته المؤثرة العلاقات الحميمة التى تربطه بالوجود الكلّي ربطاً لا انحلال له . فالفني الحقيقي ، وهو خالق في الصيغ ، يتناول جميع مجازاته ورموزه وكناياته من تلك العلاقات الحميمة نفسها التي تجعله دائماً يتحد في حياته والطبيعة الجميلة

وهذا الاتحاد المكين يضيء في روح الشاعر الحقيقي كما تضيء اشعة الشمس اذ يشمل الوجود بأسره ، فهو مقرُّ التفاؤل الذي يحوّل الحياة الاكثر دعة الى سعادة كلية فالجمال الذي يوحي الحب ليس سوى التأثير الهادىء الهنيء يعالجه ذلك التآلف الكلّي العجيب في روحنا المسجورة . والتعريف البياني للمزاج الفني انما هو بالتدقيق تلك الحاسة المتطرفة ولكن السليمة ، التي يتاح لها عند اقل داعٍ ان تحدث في النفس تأثيرات شديدة خصبة ، فالعمل الفني شعراً كان او موسيقى او نقشاً ما هو في التحليل الاخير سوى المادة التي تنجم عن مثل تلك الحاسات البديعية بشكل من التعبير يمتّ الى الموضوع بصلب شديد . اما البصيرة ، ويراد بها النظر الصائب المحكم للعوامل الداخلية . فهي اظهر حالات نفسية الفن . وهذا النظر الصائب يوفّر للشاعر عُدّة عمله كلها، كالشعور والفكرة والصور الاستعارية والرموز وأخيراً جميع هذه الاشياء التي تؤلف عملا فنيًّا والتي لا توجد كما هي في العالم الخارجي . فالفني النابغ لا يسأل العالم الخارجي الاّ الاشياء الجامدة ليستعملها وسائل للتعبير فقط

تلك هي — في خطوطها العريضة — نظرية الدكتور رضا توفيق في الفن ، وهي نظرية خطيرة تجعل من الصدق قاعدة الفن الاساسية وشرطه اللازم ، وتبرهن على ان طبيعة الفن انما هي الحياة وان الفن الحقيقي متّحد مع الحياة الكلية ، الينبوع الذي لا ينضب لاي إلهام بديعي ، وترينا اخيراً بجلاء ووضوح أن الفن انما هو غير الصناعة ، وانهُ ليس ثمة شعر قديم وحديث ، بل هناك شعرٌ حقيقي ومزيّف ، فالشعر الحقيقي لا يتصل بالزمان ولا بالمكان فهو خالد كالنفس ودائم كالحياة الشاملة

﴿ الفن والطبيعة ﴾ الطبيعة هي مجموعة الوجود بما فيهِ من الشرائع المعروفة او غير المعروفة

والحوادث المدركة او غير المدركة . وقد قيل ان الطبيعة هي أمهرُ الصنّاع . صحيح ، ولكنها تعالج صناعتها او فنّها على ما تشاء ، وجميع اعمالها حيّة . وقيل ان الطبيعة هي ينبوع الفن الذي لا ينضب . وهذا صحيح ، على ان الفنّ هو انسانيٌّ قبل كل شيءٍ ، فهو عمل النبوغ البشري ، ومن الهذيان أن يزعم البعض ان تمثال الزهرة ، أو تائية ابن الفارض ، او الحمراء في غرناطة ، أوصورة من صور رفائيل، او نغمة من نغمات بيتهوفن هي طبيعية كالشجرة او كالزهرة

يزعم الطبيعيون أن الطبيعة هي أ كمل مثالٍ ينبغي للفني ان يقلّدهُ ، ويزعم الخياليون انهُ ينبغي للمرء ان يتصوّر الاشياء تصوّراً أو أن يكتشف من وراء هذه الاشياء الفكرة الجوهرية المختبئة فيها ، ويسعى الرمزيون أن يهتدوا الى الصيغة الرمزية الاكثر بلاغة وتبياناً ليتاح لهم معها التعبير عما يرونهُ في الطبيعة ، إن بالريشة وإن بالقلم او بالقطعة الموسيقية . وهلمَّ جرًّا

كل هذا حسن ، على ان الشاعر رضا توفيق لا يرى في هذا كله سوى تعبير عن شواعر بديعية ليس لها أقل علاقة بالنفس او بالحياة الداخلية . وقد قال : « إني لا أُؤثر أن اعبّر بأبيات من الشعر وبانشاء سليم ليس عن طلوع الشمس او مغيبها مثلاً بل عن الشعور القويّ الذي يوحيه اليَّ مشهد الشمس الجميل . فبهذا التعبير اكون قد أتيت على تبيان حالتي النفسية وليس على تبيان حالة الشفق والمناظر عند طلوع الشمس او مغيبها » إذن فالطبيعة النفسية هي التي تمثل دور الفنّي وليس الطبيعة الافقية التي ليست سوى عامل او سبب من اسباب التهييج

﴿ الفلسفة ﴾ يذهب الدكتور رضا توفيق هذا المذهب الشائع وهو ان الفلسفة علمٌ يبحث في ايجاد نظريات حول المسائل التي تطرحها معميات الحياة على ذكائنا المذهول . وهي ايضاً فنٌّ يستعمل لبناءِ مذهب عقليٍّ على نظريات مختلفة . اذن ليست الفلسفة علماً دقيقاً بل هي تاريخ الافتراضات البشرية حول اسرار الوجود . واذن فهي محاولة خاسرة او نوع من انواع التسلية العقلية

ولكن عند ما نشعر بحاجة ملحّة الى تقرير تصرفاتنا في الحياة بمبدإٍ عقلي تصبح الفلسفة وهي أخت المنطق وترتفع الى مستوى الجدّ

كان الاغريق يفصلون الفلسفة عن الدين ويذهبون الى انها علم معرفة السعادة ، على انهم لم يستطيعوا الاتفاق على طبيعة السعادة . ويقول الدكتور رضا توفيق ان السعادة انما هي عقيدة او حالة نفسية لا علاقة لها بالفلسفة ، وما عدا ذلك فهو يعتنق مذاهب كبار الفلاسفة وعلى الخصوص مذهبي اريسطو وزَرْدشت ، النبي الفارسي القديم

تلك خلاصة الآراء التي استطعت ان اكشفها في الشاعر التركي المنفي خلال الاحاديث المتباينة التي نتداولها في كل سانحة . وهي في معظمها آراء وجيهة لها وزنها الادبي وقيمتها ، فضلاً عن انها تشير اشارة واضحة الى عقلية وروحانية ناضجتين لا نلمس مثلهما بين ادبائنا ومفكرينا الاَّ نادراً

بيروت

فضل « الصفر » على المدنية

لقدري حافظ طوقان

﴿ مقدمة ﴾ قد يعجب القارىء من هذا العنوان .. وقد يتبادر الى ذهنه اسئلة كثيرة : ما علاقة « الصفر » بالمدنية ؟ وهل للصفر قيمة فيكون له اثر في تقدم المدنية ؟ أليس الصفر صفراً فيعني الفراغ والعدم اذن . . . . فكيف تسند اليهِ هذه القيمة الكبيرة وتخصص بضع صفحات من مجلة علمية لها مقامها العلمي كالمقتطف للكتابة عنهُ ؟ ولكن مهلاً . . . لنفكر قليلاً ، ولنرجع الى الكتب الرياضية وغيرها فقد يظهر لنا اشياء لم نكن نعرفها وقد نتبين للصفر مميزات وخصائص ما وقفنا عليها ، وما كان لنا ان نجرؤ فنضع هذا العنوان لولا اعتقادنا صحة مانقول ولولا ان التمحيص والتعمق افضيا بنا الى ذلك . وغرضنا ان نبين للقارىء الفوائد التي تجنيها البشرية من « الصفر » والتسهيلات التي قدَّمها للبحوث الرياضية وغير الرياضية والتي لولاها لما تقدَّمت العلوم الرياضية تقدمها الحاضر ولما استطاع علم الجبر ان يخطو خطواته الواسعة المعروفة وبالتالي لما تقدمت العلوم التي تعتمد على الرياضيات في كثير من مباحثها كالفيزياء والفلك والكيمياء .....

﴿ نبذة تاريخية ﴾ وقبل ذكر شيءٍ عن « الصفر » وخصائصه وفوائده نرى ان نذكر اولاً نبذةً عن تاريخ الترقيم واستعمال اشارة الصفر . ان النظام الذي نتبعه الآن في الترقيم يبنى على اساس القيم الوضعية ، وبواسطتهِ يمكن ترقيم جميع الاعداد واجراء الاعمال الحسابية بسهولة كبيرة . ولقد بقيت الامم في القرون الخالية كالمصريين والبابليين واليونانيين وغيرهم محرومة من هذا النظام وكانوا يجدون صعوبة في اجراء الاعمال الحسابية حتى ان عمليتي الضرب والقسمة كانتا تقتضيان جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً . ولو قدّر لاحد علماء اليونان من الرياضيين ان يُبعث فقد يعجب من كل شيء ولكن عجبهُ يكون على اشده اذ يرى ان اكثر سكان الاقطار في اوربا واميركا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ويجرونهما بسرعة ومن دون عناء

ولما نهض العرب نهضتهم العجيبة ودوّخوا اكثر اقطار المعمورة اتصلوا بالهند فاقتبسوا فيما اقتبسوهُ منها الارقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمي عندهم (عند الهنود) ففضلوه على حساب الجمّل الذي كانوا يستعملونهُ قبلاً . ومن الغريب ان في بلاد الهند اشكالاً متنوعة ومختلفة للارقام ،

ولكن العرب بعد ان اطلعوا على اكثر هذه الاشكال كوّنوا منها سلسلتين عرفت احداهما باسم (الارقام الهندية) وعرفت الثانية باسم (الارقام الغبارية). ففي بغداد والجانب الشرقي من العالم الاسلامي عمَّ استعمال الاولى اي الارقام الهندية وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا. وشاع استعمال الثانية اي الارقام الغبارية في القسم الغربي — في الاندلس وافريقية والمغرب الاقصى — وهذه الارقام هي المستعملة الآن في اوربا وهي المعروفة باسم الارقام العربية (Arabic Numerals) ولم يتمكن الاوربيون من استعمال هذه الارقام في الاعمال الحسابية الاَّ بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها اي انهُ لم يعم استعمالها في اوربا والعالم الاَّ بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد

ولم يفطن احد قبل الهنود لاستعمال «الصفر» في المنازل الخالية من الارقام، وقد اطلقوا عليهِ لفظة «سونيا» ومعناها «فراغ». واستعملوا النقطة (.) كعلامة للصفر وقد اخذها العرب عنهم واستعملوها في معاملاتهم. ويقال ان الهنود لم يلبثوا ان عدلوا عن استعمال النقطة واخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة

﴿فوائد الصفر﴾ مما لا جدال فيهِ ان نظام الترقيم الذي نعرفه الآن والمنتشر بين اكثر امم الارض هو من المخترعات الاساسية القيمة ذات الفوائد الجلّى التي توصل اليها العقل البشري، وهذه الطريقة لم تنحصر (كما لا يخفى في تسهيل) الترقيم وحده بل تعدَّتهُ الى تسهيل جميع اعمال الحساب. ولولا هذا النظام لما رأينا سهولة في الاعمال الحسابية ولاحتاج المرء الى استعمال طرق عويصة وملتوية لاجراء الضرب والقسمة. ومما لا شك فيهِ ايضاً انه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ولما كان لهما اية ميزة، بل لما فضلتهما الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة في الترقيم. والنظام المستعمل والشائع الآن يقضي بجعل قيمة الرقم تتغير بتغير منزلته اي انهم اوجدوا منازلَ للارقام تكسب الرقم الواحد قيماً مختلفة اذا نقل من منزلة الى اخرى، فالرقم الذي على اليمين يدلّ على الآحاد والذي يليه على العشرات والذي يليه على المئات وهكذا . . .
واذا اردنا ان نكتب العدد (ثلاثة واربعين) فاننا نضع الثلاثة في المنزلة الاولى اي منزلة الآحاد والاربعة في المنزلة الثانية اي منزلة العشرات وتكتب هكذا (٤٣) وهنا نجد ان الثلاثة دفعت الاربعة الى المنزلة الثانية الى اليسار واعطتها قيمة اربعين. ولكن اذا اردنا ان نكتب بالرقم العدد (اربعين) فمعنى ذلك انهُ علينا ان نجد رقماً يدفع الاربعة الى المنزلة الثانية الى اليسار وبذات الوقت لا يزيد في المجموع شيئاً ومن هنا استعمل الصفر ووضع علماء الهند علامة لهُ لتملأ المرتبة الخالية فجاءت مكملة لطريقة كتابة الأعداد بالارقام

وللصفر فوائد اخرى هي من عظم الشأن في مكان عظيم لا يقل خطرها عن التي ألمحنا اليها، فلولاها لما استطعنا ان نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن، ويمكن القول بأن الرسم البياني لم يتقدم خطواته الواسعة الاَّ باستعمال الصفر، والرسم

البياني من أهم بحوث الرياضيات وعليهِ ترتكز الهندسة التحليلية وحلول كثير من المعادلات الصعبة بل هو الركن الاساسي للموضوعات التي تحتاج الى استعمال علم الاحصاء . وهل تقدمت المثلثات تقدمها المعروف الآ بمعادلاتها ؟ وهل يستطيع الرياضي ان يتقدم خطوة في حلها الآ اذا استعمل اشارة « الصفر » ؟

قد يدهش القارىء اذا قلنا ان حساب التمام والتفاضل لا يستغني في بحوثه عن استعمال الصفر ، بل ان الصفر عامل مهم جدًّا في تسهيل حلّ كثير من مسائله العويصة الصعبة . وعلى كل يمكن القول بأن « الصفر » ضروري ولازم في البحوث الرياضية الحديثة والعالية اذ جعل كثيراً من الاوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك يمكن الاخذ بها والاستفادة منها واستعمالها في فروع المعرفة من فلك وطبيعة وكيمياء وهندسة وما يتعلق بهذه من صناعة وفن

﴿ علاقة (الصفر) بالمدنية ﴾ ألا تشاركني أيها القارىء في الاعجاب بالارقام التي نستعملها ويستعملها الاوربيون وبالنظام الذي يستولى عليها ؟ أليس عجيباً ومثيراً للدهشة ان لا تجد اقل صعوبة في كتابة اي عدد شئت (مهما كان كبيراً) من ارقام لا يتجاوز عددها عدد الاصابع ؟ ألا ترى معي ان هذه الارقام العجيبة قد سهلت الاعمال الحسابية كثيراً ؟ ألا تعتقد انهُ لولاها لما تقدمت المعاملات التجارية تقدمها الحاضر ؟ ولولاها ايضاً لوجدنا صعوبة كبيرة جدًّا في اجراء أبسط الاعمال في الضرب والقسمة ؟

ارجح ان كل هذا معروف لديك وتوافقني عليه ولكن قد يزيد عجبك اذا علمت ان اشارة «الصفر» هي التي اوجدت اكثر التسهيلات التي تراها في الترقيم وهي التي اعطت بعض الخصائص الممتازة للارقام . لقد ظهر لك من هذا المقال المقام العالي الذي يشغله (الصفر) في البحوث الرياضية وانهُ عاملٌ مهمٌّ في ترقيتها وفي تسهيل الصعب منها ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا انهُ لولا الصفر لما تقدم العلماء تقدمهم الغريب في العلوم الرياضية . وهنا قد يحلو للبعض ان يسأل ويقول : قد يكون للصفر هذا المقام في الرياضيات وقد يكون له هذا الاثر الكبير في ارتقائها ، ولكن ما علاقة ذلك بالمدنية؟ وهل المدنية تقوم على الرياضيات ؟

وجواباً عن هذا السؤال ليسمح لنا القارىء ان نعطي الجواب اولاً فنقول : نعم . ان المدنية في أساسها وجوهرها ترتكز على العلوم الرياضية . ونسأله الآن ان يتمهل وان لا يرمينا بالتسرع قبل قراءة بقية المقال فالامل وطيد بأنهُ سيجد فيهِ ما يحقق قولنا وقد يوافقنا عليه ويشاطرنا الرأي فيهِ ، ونرجو ان نخرج واياه من هذا الحوار متفقين راضيين بالنتائج التي توصلنا اليها

ان كل فرع من فروع المعرفة يتقدم ويتناول التغيير والتبديل وكلما اقترب هذا الفرع من الارقام زاد دقة في التعبير ونحا نحو الكمال ونحو الذروة من الحقيقة . قال كانت Kant « يكون العلم دقيقاً اذا استعمل العلوم الرياضية في بحوثه » ولم يستطع العلماء ان يستفيدوا من بحوث الضوء

ومن انكسار النور الاّ بعد ان افرغوا قوانين الانكسار في قالب رياضي وبذلك استطاعوا ان يستعينوا بالمعادلات والارقام في العدسات التي تستعمل لاصلاح عيوب العين . ان علمي الفلك والفيزياء وصلا الى درجة كبيرة من الدقة والكمال ، وما ذلك الاّ بفضل الارقام والمعادلات . جرّد هذين العلمين من رياضياتهما بل جرّد الكيمياء الحديثة من معادلاتها وقوانينها وحينئذٍ لا يبقى الاّ تعريفات ومبادىء لا يمكنك ولا بحال من الاحوال ان تستفيد منها او ان تطبقها فيما يعود على البشرية بالنفع والخير . ولن يستطيع العالم مهما كان قوي العقل خصب الفكر ان يقف على اسرار الطبيعة والكون ولن يستطيع الغوص في بحارها ليقف على كنوزها وعجائبهما ، الاّ اذا المّ بالرياضيات وكانت عنده خبرة بها ، وان الكيمياء الحديثة لفي حاجة الى الرياضيات حاجتها الى التجربة والاختبار وناهيك بالكيمياء فهي الاساس الذي شيّد عليه صرح الصناعة في هذا القرن وازدهرت هذا الازدهار العجيب . ان هذا العصر لهو عصر الهندسة وعصر الآلة وكل هذه في حاجة الى الرياضيات ، ولا يمكن الاستفادة منها او تطبيقها على مقتضيات العمران الاّ بذلك . قال البروفسور ڤوس Voss « ان مدنيتنا التي ترتكز على الاستفادة من الطبيعة والسيطرة على عناصرها مبنية على اسس العلوم الرياضية » . فالهندسة وأنواعها والملاحة والصناعة كل هذه تحتاج الى الرياضيات ولا يمكنها ان تستغني عنها ، بل ان اسس انشائها تقوم على الارقام والمعادلات . وما يقال عن هذه العلوم يمكن ان يقال عن علوم اخرى الى حدٍ ما ، فان هذه كلما تقدمت وكلما استطاعت ان تدخل الارقام في بحوثها تقترب من الدقة والكمال . فالعلوم على اختلافها اذا اقتربت من الكمال فانها لا بدَّ محلقة في سماء العلوم الرياضية وفي جوّ من الارقام والمعادلات

من هنا تظهر لنا الفوائد التي تجنيها المدنية من العلوم الرياضية ومن استعمالها في العلوم والفنون الاخرى ، وقد ظهر ايضاً كيف ان الحضارة الصناعية مبنية على اسس من الارقام والمعادلات وقد سبق ان ابنّا مكانة الصفر في العلوم الرياضية وفضله في تسهيل المسائل والاعمال ، ومن هذه النقطة يتبين للباحث فضل الصفر على المدنية والصناعة

***

وقبل الختام اود ان اوجّه نظر القارىء الى اني اخشى ان يساء فهم هذا المقال فيظن ان الصفر هو الكل في العلوم الرياضية وبالتالي في المدنية ، ومع استبعادي لذلك ارغب في القول بأن الصفر (ولا شك) عامل مهم في البحوث الرياضية لا يستغنى عنه وهو لازم وضروري لها ولتسهيل المعاملات والاعمال الحسابية ، وينتج من ذلك الى انهُ عامل مهمٌّ في الصناعة والاعمال الانشائية التي تحتاج الى استعمال الارقام والمعادلات ، فأعجب لصفر يشغل هذا المقام السامي وتجني منه الحضارة فوائد هي على اعظم جانب من خطر الشأن

معجزات الكهارب

مستنبطات جديدة في الدقائق الكهربائية

تبين مبلغ سيطرة القوة الكهربائية على المعيشة الانسانية

لعوض جندي

يستفاد من احدث الانباء التي وردت على الدوائر العلمية في اوربا وأمريكا ان روّاد العلم القائمين بالمباحث في احد ميادينه العجيبة قد استنبطوا حقائق جليلة مدهشة اذ تبينوا اسباب وقوف السيارات في طرقها، وتعطلها بلا علة ظاهرة . وعرفوا كنه استنبات البذور في تربتها، وادركوا طريقة تفقس البيض، وفهموا سرّ الراديو وغيره من الظواهر الطبيعية المحيطة بنا حتى اسباب ما يشعر به الانسان من سرّاء وضرّاء عند قيامه من نومه . فصاروا يعزون تلك الحوادث الى المقذوفات الكهربائية الخفية التي تسدّد الينا من ارجاء الكون . وقد اضافت حديثاً المختبرات العلمية في شتى البلدان، معارف جديدة الى الحقائق المعروفة الخاصة بالعمل السحري الذي تعمله القوة الكهربائية التي في الاجواء

ففي ايطاليا مثلاً، قام احد العلماء باطلاق امواج كهربائية في الجوّ فغيّر بها نظام الوراثة في النباتات . ونبغ في هولندا عالم آخر يقتل البكتيريا بالامواج الكهربائية فاستطاع درء الفساد عن الاغذية البشرية . وتمكن عالم غيرهما في المانيا من الفوز بنتائج مدهشة بكهربة الهواء في حجر المستشفيات . واتيح في الولايات المتحدة لجراحيّن من نطاسيّيها كشف حقيقة علمية جديدة، وهي ان القذائف الكهربائية الدقيقة ضرورية لادمغة الناس وأبدانهم

ولعلّهم يهتدون بمباحثهم في الارياح الكهربائية والعواصف المغناطيسية والدخان الشمسي والغبار الكهربائي، الى حل الغاز الطبيعة التي التبست عليهم من قديم الازمان . وغدا كثيرون من العلماء يعتقدون ان تفسير الالغاز الطبيعية التي بين ظهرانينا، والوقوف على اسرار الحياة والوراثة والموت، كلها كامنة في الدقائق المشحونة بالكهربائية . وانه ليس في ميادين المباحث العصرية ما يماثلها في اسرارها العجيبة وفيما ينتظر ان تأتينا به من الخيرات العميمة

سر وقوف السيارات وتعطل الطيارات

كان رتل من السيارات مؤلف من مائة سيارة ونيف سائراً منذ عهد قريب بين مدينتين في امريكا فهبّت عليه ريح هوجاء اثارت الرمال فملأت الجو حول السيارات غباراً . فأخذت محركاتها

تقف بغتة بلا سبب جليّ . فكنت ترى حينئذٍ السيارات كلها معطلة وجميع سائقيها منهمكين في ادارة مقوّماتها عبثاً ، وهم لا يدركون علة تعطل المحركات . وظلوا على تلك الحال حتى سكنت الريح فجعلت المحركات تدور فاستأنفت السيارات سيرها ففطن السائقون الى ان قوة خفية كانت العاصفة مثارها ، عطلت اجهزة اشمال البنزين في محركات السيارات تعطيلاً وقتيًّا

فكان ذلك الحادث الغامض مدعاة لتذكر الباحثين ما اشيع في خلال الحرب العالمية بشأن شعاعة مبهمة كانت تستعمل وقتئذٍ لوقف محركات الطيارات واسقاطها . فاعلن عالم نمسوي منذ بضعة اسابيع انهُ اخترع جهازاً من هذا الطراز تنطلق منهُ في الجو امواج كهربائية قصيرة جدًّا فتعطل اجهزة اشتعال البنزين في محركات الطيارات وهي طائرة

اذن يتسنى للباحث ان يفقه سرّ تعطل السيارات في ذلك الرتل الاميركي من استنباط جديد استنبطه العلماء في كثير من انحاء العالم . وهو ان عواصف الرمال تولد دائماً قوة كهربائية . وقد تكون تلك الدقائق الكهربائية (الايونات) إما موجبة واما سالبة . ويتوقف ذلك على نوع التركيب الكيماوي للرمل والغبار في الجهة التي يقع فيها الحادث . ففي جنوب افريقية حيث يكثر البلور الصخري ، تكون الدقائق الكهربائية دائماً موجبة . وفي انكلترا حيث يجزلُ حجر البلاط تتشبع الارياح الهوج التي تثور على الطرق المطروقة جدًّا بالسيارات، بمقذوفات من الكهربائية السلبية

وفي كليفورنيا عالم شاب هو (ريتشارد فولرات) اخترع جهازاً بديعاً لتوليد زوابع الرمال مطبقاً العلم على العمل ، فصار في وسعه اثارة رياح مشبعة بالغبار في انابيب من النحاس الاحمر تولد قوة كهربائية تدخر في كرة معدنية ضخمة قد تبلغ ٢٦٠٠٠٠ فولط كما ثبت في احدى التجارب

وفي فصل الربيع الماضي قامت دائرة المقاييس في وشنطون بتجارب تبينت بها مبلغ تأثير القوة الكهربائية الجوية في محركات السيارات اذ شحن الهواء الذي ادخل في منفذ جهاز (مزج الهواء بالبنزين) بعدة دقائق مكهربة مختلفة محشودة بعضها مع بعض ، فكانت قوة محرك السيارة تختلف باختلاف عدد تلك الدقائق المكهربة

﴿ الكلف الشمسية والراديو ﴾

ويرى الخبيرون ان السنة الحالية اصلح ما يكون لسماع الراديو منذ سنة ١٩٢٣ لاننا نستطيع سماع الاشارات من ابعد المسافات اشد وضوحاً وانتظاماً منها في السنين العشر الماضية . وسبب ذلك ان التقلبات الحاصلة في الكهربائية الجوية طفيفة لضؤولة الكلف الشمسية . والمعروف ان الكلف بمثابة براكين من الغاز الناري على وجه الشمس ، يزيد عددها او ينقص في ادوار زمنية منتظمة يبلغ كل منها احدى عشرة سنة . وهي الآن في احط دركاتها . اما في السنوات الخمس المقبلة فسيحتشد على وجه الشمس عدد من الكلف يزيد شيئاً فشيئاً حتى يبلغ غايته نحو سنة ١٩٣٩ ثم

يأخذ في التناقص حتى يختفي بتة سنة ١٩٤٥ وحينئذٍ ينتهي دور آخر من ادوار الكلف الشمسية

وفي السنين السبع الغابرة قام عالم فلكي ومهندس من المشهورين بمباحث توخيا بها التبحر في درس علاقة الكلف الشمسية بالراديو . وهما الدكتور هارلان . ت . ستتسون مدير مرصد پركنز والدكتور جرينليف پكرد الذي يعد من اقطاب امريكا الذين اشتغلوا بنقل الحديث بالامواج الكهربائية . فكان الدكتور ستتسون يرصد ويصور الكلف الشمسية يوماً فيوماً ، بينما كان زميله يرقب التقلبات التي كانت تحدث في ذلك الحين في قوة امواج الراديو التي كانت تجيء من محطات الاذاعة القاصية

ولما تضاعف عدد الكلف الشمسية في سنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ كانت اشارات الراديو تضعف شيئاً فشيئاً . ولكن من سنة ١٩٢٩ فصاعداً حينما نقص عدد الكلف الشمسية ، اشتدت اشارات الراديو . فعلل العلماء ذلك بأن الغلاف الضخم المؤلف من الدقائق المكهربة الذي يحفُّ بالارض (وهو المعروف بطبقة كينلي وهيڤسيد — نسبة الى العالمين اللذين استنبطاهُ) يتأثر بالتقلبات التي تحدث في الشمس . لأن الشمس تقذف الارض بفيض من الدقائق الكهربائية كالذي ينبعث من انابيب الاشعة السلبية الضخمة . ومتى صدمت تلك الدقائق الغلاف الجوي ، مزقت دقائقه وجعلتها ذات كهربائية ايجابية او سلبية ، فيقوم (ذلك الغلاف المكوَّن من الدقائق المكهربة والذي يعلو عن سطح الارض نحو ٧٠ ميلاً) مقام مرآة ضخمة تعكس او تردُّ امواج الراديو المتجهة نحو الجو الى الارض ثانية . ومتى انعكست الامواج او ارتدّت بفعل ذلك الغلاف المكون من الذريرات الكهربائية ، استطاعت قطع المسافات البعيدة والدوران حول الارض . وتتوقف درجة تكهرب ذلك الغلاف على مبلغ قوة الشمس . فان كانت شديدة جدًّا ، اي حينما تكون ذات كلف كثيرة جدًّا ، انطلق منها اكبر عدد من الكهارب فيزداد تكهرب تلك الطبقة ودنوها من الارض فتردّ امواج الراديو بعنف اشد من ردّها الاول وتقصّر المسافة التي تقطعها. ومن جهة اخرى فان اي نقص في قوة الشمس يقلل من تكهرب الطبقة الهيڤسيدية ويفككها ويرفعها فيكون ردُّها للامواج اضعف من ردّها السابق وتضطرها الى قطع مسافات ابعد على سطح الارض. وبهذه الوسيلة يكون تمدد وتقلص ذلك العاكس الممثل في الغلاف المحيط بالارض مسيطراً على المسافة التي تقطعها امواج الراديو

وقد قرر الدكتور ستتسون ان القمر (كالشمس) يؤثر تأثيراً محدوداً في تلقي الراديو ، فقد اتضح له بتحليل اشارات اذيعت بالراديو بين مدينتي شيكاغو وبوسطن ، ان قوتها زادت حينما غار القمر تحت الافق، ونقصت عند ارتفاعه الى السمت ، وهو يعتقد ان هذا ينشأ من اشعة الراديوم التي تشع من القمر فتميل الى دفع الغلاف السابق الذكر الى اسفل حينما يرتفع القمر ارتفاعاً عموديًّا فتقلل بذلك المسافة التي تستطيع امواج الراديو قطعها

مصادر القذائف الكهربائية

والواقع ان في كل جانب من جوانب الكون قذائف كهربائية دقيقة — بعضها سابح في الهواء وبعضها منبثق من الشمس يخترق اجسامنا ، والبعض كمين في المواد التي نتغذّى بها . ولكننا لم نعرف كثيراً بشأن تلك الدقائق الكهربائية الخفية الاَّ منذ بضع سنين

والمعروف انها تكون اولاً ذرات ثمَّ ينزع منها كهرب من كهاربها . ففي الايام المصحِيَة يكون الهواء مشبعاً بالدقائق الكهربائية اكثر منها في الايام الغائمة . وكذلك في الايام الدفيئة اكثر منها في الباردة . وايضاً في الايام الصافية اكثر منها في الايام التي يكدر جوَّها الدخان . ويختلف عدد الدقائق الكهربائية الجوية (الايونات) من ساعة الى اخرى بل من دقيقة الى دقيقة . ويحدث التغير طبقاً للجزر والمدِّ في الحرب العوان الخفية الدائرة حولنا على الدوام . ونعني بها النزاع الحاصل بين القوات التي تخلق الدقائق الكهربائية والقوات التي تبيدها . فالقوى التي تولّد الايونات هي الاشعة الكونية التي تصل الينا من الفضاء الخارجي ، والاشعاع الصادر من الشمس ، وتأثير المواد المشعة مثل الراديوم فوق سطح الارض وتحت سطحها

ينبعث من الشمس مقادير جزيلة من الدقائق المتناهية في الصغر المشحونة بالقوة الكهربائية . وبعض العلماءِ يسمي تلك الكتلة المتحركة ، « الدخان الشمسي » . فاذا دنا منَّا ذلك المجرى المؤلف من الدقائق المشحونة بالكهربائية أصبح تحت سيطرة المجال المغنطيسي الارضي ، وانشطر شطران يتجه كل منهما نحو قطب من قطبي المغناطيس . ومتى وصل الى الجو الخارجي للاقطار القطبية فكثيراً ما تصطدم الدقائق بجزيئات الهواء فتتمزّق فيتولد منها ظاهرة جميلة تعرف باسم نور الشفق . وتظل الدقائق المتمزقة معلقة في طبقات الهواء العليا فتقوم مقام نواة لتكوين السحب الرقيقة المرتفعة وتسمَّى بالعربية الفصيحة القَزَعُ

ثم ان الشلالات مصانع تصنع فيها الايونات ، ومنها شلال نياجرا الذي تشبع مياهه بكهربائية ايجابية والهواء المحيط بهِ بكهربائية سلبية . حيث تتولد من رشاش الماء دقائق كهربائية ايضاً . والغريب في هذا الموضوع ان رشاش الماء الملح يشبع الهواءَ المحدق بهِ بدقائق ايجابية على حين ان المياه العذبة تشبعه بدقائق سلبية . وقطرات المطر الكبيرة تصير مشبعة بكهربائية ايجابية متى تفرطحت وتفرقت بمقاومة الهواء . وفي السحب الشاهقة جدًّا تتكوّن دقائق اخرى بتأثير كهربائية الضوء في ابر الثلج . ويزداد عدد الدقائق بقرب الارض من الرياح التي تهب على سطوح الفلزات ونحوها

وقد بحث حديثاً المستر س . د . فلورا العالم الميتيرولوجي الاميركي تلك الرياح المكهربة فأدرك انها تلحق بالحقول في الفصول الجافة ، اضراراً شديدة في القمح وغيره من الحبوب . وتنمُّ عليها آثارها التي تخلفها كمناطق دكْن مستطيلة في حقول الحبوب

ولكن اشد العوامل في توليد الدقائق هي المواد المشعة التي في الارض لان عليها يتوقف نحو نصف كهربة الهواء . وتلك المواد كثيرة في الارض . اما القوى التي تقاوم تولد الايونات او تتلفها فأولاها اتحاد الدقائق الايجابية بالسلبية فتصير ذرات او جزيئات . والثانية تعلق الدقائق بسطوح الفلزات او السوائل حيث تلتصق بها التصاق الذباب بالورق اللزج

ونتيجة هذه المعركة الكونية لها مقام خاص اكبر مما كنا نظن الى عهد قريب . فقد دلّت احدث المباحث على ان للقوة الكهربائية الجوية علاقة وثيقة بأحوالنا الصحية وامزجتنا . ومثال ذلك اننا نستيقظ من النوم في بعض الايام جذلين ، بينما نصحو في غيرها مغمومين ، ويعلل الخبيرون في الكهربائية الجوية معظم ذلك التباين بالاختلاف في مقدار الدقائق المشبع بها الهواء

﴿ تأثير الدقائق الكهربائية في حالتي الصحة والمرض ﴾

وبينما نحن نكتب هذه السطور تجرب تجربة علمية في هذا الموضوع في دار مؤلفة من عشر قاعات في مدينة شنيكتادى قد يكون لها نتائج بعيدة المدى ، حيث يقوم مهندسو الشركة الكهربائية العامة باختبار جهاز يدل على احوال الهواء ، من طراز جديد يسيطر على الكهربائية الجوية والحرارة والرطوبة ، مؤلف من آلات خاصة اخترعها الدكتور لويس ، كلَرْ الموظف في معمل المباحث التابع للشركة المشار اليها ، تحصي الدقائق الكهربائية التي في الهواء وتتحكم فيها وتسجل في الحين نفسه تسجيلاً مدققاً مبلغ تأثير الكهربائية في سكان ذلك المختبر العلمي

وينتظر ان تلقي تلك التجارب ضوءًا على اللغز الذي حيَّر مهندسي الاقاليم الشرقية في الولايات المتحدة الذين عنوا من زمن غير بعيد بمسألة تجديد الهواء في البيوت . وبيان ذلك ان مدرسة من مدارس تلك الجهات جهزت بجهاز متقن يقوم بغسل حجرها وتدفئتها ، وترطيب هوائها فترتب على استخدامه استهداف التلاميذ للنوازل ، اكثر من قبل !! والجواب عن تلك الاحجية كما يرى بعض الخبراء ، اختلاف عدد الدقائق الكهربائية المشبع بها الهواء . وقد أثبت ذلك بتجارب قاطعة مدهشة العلامة ف . دسويه F. Dessauer الاستاذ بجامعة فرنكفورت بألمانيا اذ برهن على ان للاختلاف السابق تأثيراً بليغاً في ابدان الناس

وشوهدت حوادث عجيبة في جبال الألب بسويسرا وهي ان قنن بعض هاتيك الجبال الشامخة يتفشى فيها مرض جبلي يتولد منهُ حمى وصداع وغثيان تستمر بضعة أيام ، على حين ان قمماً اخرى معادلة لها في ارتفاعها ، يندر فيها ذلك المرض . ويعلل العلماء اختلاف تينك الحالتين بتغاير مقدار الكهربائية الجوية في ذينك المكانين

ولقد كانت تلك المباحث مشجعةً للاستاذ على مواصلة مباحثه في مبلغ تأثير الكهربائية الجوية في الاجسام البشرية فاخترع جهازاً لتوليد الدقائق الكهربائية يملأ بهِ أية غرفة او اسطوانة بهواء

مشبع بأي مقدار يبغيه من الدقائق الكهربائية . فاستنتج من هذه التجربة ان الدقائق الايجابية هي مثار التعب والدوار والصداع وطنين الآذان دائماً ، والغثيان احياناً . اما الدقائق السلبية فهي مصدر الانشراح

وطبق الاستاذ دسويه تلك النتائج على علاج امراض مختلفة فنجح نجاحاً باهراً . فقرر انها تنجع في مداواة الربو (ضيق التنفس) والروماتيزم وضغط الدم والتهاب شعب الرئة وامراض الشرايين . وتبين من فحص ٢٠٠ اصابة من اصابات ضغط الدم ان ٨٠ ٪ من المرضى قد استفادوا كثيراً من استنشاق الهواء المشبع بالدقائق الكهربائية بعد انقضاء عدة اسابيع. وظهر من بحث سجلات المصابين بالروماتزم ان صحتهم تحسنت تحسناً محدوداً باستنشاق الهواء المكهرب ايضاً

وأسفرت المباحث عرضاً عن تعليل لما كان معروفاً عن ان وخز الروماتيزم دليل على دنوّ عاصفة ! كما تبين للعلماء انهُ قبل انهمار المطر المصحوب برعد يكون الهواء القريب من الارض غاصًّا بمقدار خارق للعادة من الكهربائية الايجابية . وجهاز دسويه آنف الذكر يقذف ٢٠ مليوناً من الدقائق الكهربائية في كل سنتيمتر مكعب من الهواء . وهذا يفوق كثيراً ما تحشده الطبيعة في أية بقعة من بقاع العالم . وقد رُكّب أحد اجهزة دسويه في مستشفى بنيويورك وجهاز آخر في جامعة وسكنصن فأسفر استعمالهما عن نتائج تعزّز الامل الذي عقد عليهما

وفي جامعة هارفرد يقوم الدكتور ت . ب باجلو المعلم في مدرسة الصحة العمومية بسلسلة مباحث في الموضوع عينه ، وقد دلته مباحثه القيمة في هذا الباب على ان الدقائق السلبية ترطب الجسم في فصل الصيف . ثم عثر على لغز علمي آخر لم يتوصل الى حله للآن . اذ تحقق ان الدقائق الكهربائية في الغرف الخالية تكاد تكون مثلها في الخلاء . بيد انهُ حين يدخل الناس غرفة خالية ، يقل عدد الدقائق الكهربائية فيها ويظل قليلاً حتى يخرجوا منها فيصعد الى حالته الاصلية . ولكن لا يمكن تعليل ذلك بالقول ان الدقائق الكهربائية تمتص بالتنفس لان مقدار الهواء الذي يدخل الرئتين طفيف بالنسبة لما تشتمل عليهِ الغرفة

وربّ سائل يقول : أين تذهب الدقائق الكهربائية ؟؟ وما سبب اختفائها . وما سبب عودتها ؟؟ والجواب عن تلك الاسئلة : ان العلماء في الكهربائية ما زالوا يبحثون عن تلك الاسباب ومسبباتها التي استعجمت عليهم حتى اليوم

﴿ الدقائق الكهربائية ينبوع الحياة ﴾

وكلما تعمق العلماء في البحث أيقنوا بوجود علاقة وثيقة بين الحياة البشرية والطاقة الكهربائية. وهذا هو الموضوع الجليل الذي اجله الجرّاح الكليفلندي المشهور، الدكتور جورج ه. كريل فقال « القوة الكهربائية تجعل شعلة الحياة البشرية تتلظى في الخلية » .

ثم زاد الدكتور تشارلز هـ . مايو (وهو من أشهر الجراحين في مدينة روتشستر باقليم منيسوتا) على ذلك الرأي قوله « ان القذائف الكهربائية الدقيقة من الضروريات التي يستعين بها المخ على القيام بوظيفته » وأيَّد قوله الدكتور واشبرن الاستاذ بجامعة سيراكيوز اذ ذكر من زمن قريب في خطاب القاه في جماعة تقدم العلوم الامريكية ان المباحث الحديثة ارشدتهُ الى الاعتقاد بان التعلُّم « انما هو تنسيق الدقائق الكهربائية التي في ألياف اعصاب المخ في نماذج مختلفة»

***

وجاءَ من روسيا نبأ عظيم يدل على استخدام الدقائق الكهربائية في صنع الاطعمة . فقد منحت حكومة السوفييت احد العلماء ٥٠٠٠ ريال وهو الدكتور تشيزفيتزكي Chizevitsky لاستنباطه طريقة استخدام الدقائق الكهربائية في تعجيل نمو الدواجن . إذ ثبت له ان الدقائق الكهربائية السلبية اذا اضيفت الى الهواء في اكنان الدجاج افلحت الدواجن فلاحاً عجيباً وزاد ثقلها سريعاً وتحسنت صحتها واشتد نشاطها — وقد جرَّب ذلك في ١٠٠٠ دجاجة ثم تدرَّج منها الى كهربة هواء زرائب المواشي حيث تبرعت له الحكومة بمعمل كيماوي خاص لاجراء مباحثهِ العلمية

واتضح من مباحث أُخرى ان النباتات تتأثر تأثر الحيوانات بالهواء المكهرب . فقد تحقق العالم الايطالي الدكتور . م ميزادرولي الذي يقوم بتجاربه بالتيارات الكهربائية السريعة التموج في مدينة بولونياء ان بعض البصل الذي يُعرَّض لتلك الموجة ثلاثين دقيقة كل يوم ، ينضج قبل غيره الذي ينمو نموًّا طبيعيًّا بعشرة ايام . وان البذور التي تطلق عليها الامواج الكهربائية كثيراً ما تتغير مزاياها الوراثية عند استنباتها . وثبت له بتجارب كهربائية اخرى ان دود القز يمكن تنشيطهُ في عمله اذا وضع في مجرى امواج لاسلكية طول الموجة منها متران

ولما كان دأب العلماءِ تلمس طرقهم ، اذا قصدوا البحث في مجاهل تلك الامواج الكهربائية السريعة التموج فانهم كثيراً ما يكتسبون ، اتفاقاً ، معلومات طريفة لم تكن تخطر على بالهم . والدليل على ذلك ان الدكتور ويليس هويتني الاميركي حينما كان يمتحن بعض الامتحانات الحديثة رأى الفئران تفقد ، أذنابها ، والذباب النائم في فصل الشتاء ينتعش اذا وقع تحت تأثير الامواج القصيرة السحرية . فوضع فأراً في مجال كهربائي حاد تشتد قوته شيئاً فشيئاً فارتفعت درجة حرارة جسمه حتى تجعد ذنبهُ وسقط دون ظهور اي انزعاج على الفأر . واسفرت تجربة اخرى عن كون ذباب الفاكهة الذي كان محبوساً في انبوب زجاجي ، حينما تعرض لمقذوفات باردة في درجة الصفر ، اخذ ينام كأنهُ في سبات فصل الشتاء . وحدث في اثناء توجيه الهواء البارد عليهِ ان سلطت عليهِ ايضاً الامواج الكهربائية اللاسلكية القصيرة فانتعش لأن الامواج دفَّأته داخل جسمهِ رغم ما كان يحيط بهِ من البرد الشديد ! !

وقام العالم روبرت پيپ Robert Pape في مدينة سومرست بهولندا بكهربة الاغذية، فوضع بيضة مكهربة مكسورة في طبق وتركها في الهواء الطلق شهراً كاملاً فلم تعذر ولم تنتن. وذلك انها وضعت في مجال مغناطيس كهربائي بكيفية خاصة فوقاها الفساد على ذلك المنوال. وفي كلية التربية بمدينة اونتاريو من اعمال كندا قام العلماء بمباحث اخرى مدهشة في البيض فجاءوا بمفرخ ذي اسلاك وصفّوا فيهِ البيض صفوفاً مختلفة بين الواح معدنية بعضها مكهرب كهربائية سلبية والبعض مكهرب كهربائية ايجابية، فنقف البيف نقفاً عجيباً وكانت هناك طائفة من البيض لم تتعرض للتأثير الكهربائي فسبقت في التفريخ، وبعد ست وثلاثين ساعة نقفت جماعة اخرى كانت مصفوفة صفوفاً، في زوايا قائمة مع الالواح الكهربائية. ثم تلتها، جماعة اخرى ففقست بعد خمسة ايام (وهي التي كانت مصفوفة صفوفاً موازية للالواح المعدنية المكهربة) فتساءل الباحثون عن سبب تأخر التفريخ تبعاً لاختلاف وضع صفوف البيض ازاء الالواح المكهربة فلم يستطع احدهم الاجابة. وهم يحاولون ذلك الآن

﴿علاقة المغناطيسية والكهربائية والبراكين والزلازل بعضها ببعض﴾

والمعروف ان خطوطاً من القوة المغناطيسية تخترق الارض دون ان يشعر بها احد غير الآلات الدقيقة، منبعثة من القطب المغناطيسي الشمالي الى القطب المغناطيسي الجنوبي وتلك الخطوط ذات القوة، مارة في الهواء والارض وتتقلب تقلبات مختلفة طبقاً لقواعد قلَّ من يفهمها. وكل ما يعرف بشأنها انهُ من عشرين سنة قامت باخرة اسمها كارنيجي لا تقل شيئاً على الاطلاق من الفولاذ ولو مسماراً، فأخذت تجوب البحار لكي تجمع المعلومات الخاصة بهاتيك الخطوط المرتبطة بالكهربائية الجوية ارتباطاً وثيقاً واستمرت تلك الباخرة الفذة قائمة بمهمتها حتى دمرتها النيران التي شبت من انفجار مستودع بنزين في غرب جزيرة ساموى في سنة ١٩٢٩ فأيقن العلماء ان المغناطيسية والكهربائية والبراكين والزلازل، مرتبطة بعضها ببعض، بروابط مافتئت مستغلقة عليهم جميعاً فاذا انفجر بركان مثلاً رأيت ابر الملاحة والبوصل في اجهزتها تهتز اهتزازات مغناطيسية، ولو كانت تبعد عن مجال الهزات الارضية التي يحدثها وعدا ذلك فانهُ متى أُخذت الحمم في البرودة تمغنطت ايجابيًّا او سلبيًّا بحسب اتجاه مجال الارض المغناطيسي في ذلك الحين

***

ويرى الدكتور ا. ج. فلمنج الموظف بمعهد كارنيجي أن البحث في طبقات الحمم القديمة يمكن العلماء من الوقوف على حقائق جديدة في تاريخ مغناطيسية الارض. واحدث جهاز يدل على دنو وقوع الزلازل هو الذي يجرب الآن في جمهورية شيلي بامريكا الجنوبية حيث تكاد تحدث زلازل صغيرة كل اسبوع. ومداره على اضطراب مغناطيسية الارض فيتخذها دليلاً على قرب وقوع الزلازل وفي مرصد الاحوال الجوية بمدينة سنتو في ذلك الاقليم شوهد ان الزلازل العنيفة كانت تسبقها

دائماً عواصف مغناطيسية في ذلك الصقع . وقد وضعت في المرصد آلات حساسة تسجل دقيقة فدقيقة تقلبات المغناطيسية الارضية ثم يذاع ما تسجله الآلات من الانذارات الخاصة بالزلازل، مشفوعاً بتقارير الاحوال الجوية اليومية

كيف يستفيد الزراع بالعواصف الكهربائية

في الجهة الشرقية من الولايات المتحدة ينتفع الاهالي بالقوة الكهربائية الجوية انتفاعاً غريباً جدًّا وهو ان مربّي الفطر تحققوا كون العاصفة الكهربائية يعقبها دائماً تعجيل نمو الفطر . ويظن ان الاوزون في الهواء ، وهو الذي يتولد في الجو عقب تألق البرق ، مصدر ذلك التأثير — فغدوا حينما يريدون انضاج منتجاتهم ، قبل اوانها لكي يبيعوها لمستهلكيها ، يديرون الآلات التي تطلق كهربائية احتكاكية في الهواء فيولدون بها حالات شبيهة بالاحوال التي تعقب وميض البرق

***

ويرى العلامة الطبيعي الاسوجي تادبرج ان البرق قد ينزل من السماء الى الارض سالكاً طريقاً عبَّدتهُ له الاشعة الكونية . وبناء على هذا الرأي تكهرب الاشعة الكونية الهواء في طريقها غير المعتاد فتقوم تلك الدقائق الكهربائية التي يتشبع بها الهواء مقام معابر تعبر عليها الصاعقة . ويقول احد مهندسي الشركة الكهربائية العامة في امريكا وهو المتخصص في مباحث البرق ان الصواعق التي تنقضُّ من الجو تضيف كل سنة الى التربة ما يقدر بنحو ١٠٠ مليون طن من النيتروجين

***

ومتى اخترقت تلك الكمية طبقات الهواء هذه، واربعة اخماسها نيتروجين، واستقرت على الارض ادمجت في تربتها مقادير كبيرة من تلك المواد الكيماوية الحيوية لنمو النباتات . وطالما خالج العلماء الشك في حوادث البرق الذي ينقضُّ من السماء على شكل كرات ، حتى تمكن عالمان في نبراسكا منذ بضعة اسابيع من مشاهدة تلك الظاهرة الطبيعية العجيبة حيث صوراها بالفوتوغرافيا صوراً بديعة اذ شاهدا الكرات البرقية في اثناء عواصف حادة تكاد تكون أرياحاً هوجاً . وقد وصفها احدهما المستر جورج رافلنج الموظف بالمرصد الجوي في اقليم لينكون بالولايات المتحدة ، فقال انها بمثابة مجرى ناري يسيل من جوانب سحابة ساخنة لدرجة الغليان مشبعة بالغبار كأنها مياه تسيل من مصفاة فتتفرَّق بعد نزولها كرات شاذة الاشكال . اذن القوة الكهربائية بأشكالها المختلفة سواء كانت مسوقة بالرياح او عاملة في الهواء حولنا ، ستتبوأ سريعاً مكاناً رفيعاً خليقاً بها في علم الطبيعة. ومع ما بلغه العلماء في الزمن الاخير من التقدم في المباحث النظرية الخاصة بها ما برحت عالماً لا حدَّ لهُ في اعماله وغوامضه [عن مجلة العلم العام بتصرف يسير]

مرض الجماد وتلقيحه ونموه

جرت العادة من قديم الزمان ان تقسم الاجسام الارضية الى حيوان ونبات وجماد . ومميزات كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة واضحة جدًّا الاَّ عند الحدّ الذي يدنو فيهِ القسم الواحد من الآخر فان انواع الحيوان الدنيا تلتبس بأنواع النبات العليا وانواع النبات الدنيا تلتبس بأنواع الجماد العليا حتى لقد يتعذر عد بعض الموجودات من الحيوان او من النبات او من الجماد

وزد على ذلك ان بعض الانواع العليا من الحيوان تظهر فيها خواص النبات كما ترى في تشعُّب المرجان والاسفنج وكثير غيرهما من الحيوانات البحرية التي تماثل النبات في نموها وتشعبها وكما ترى في الاشكال التي تتشكل بها بعض انواع الفراش والديدان حتى تماثل الازهار والاوراق والاغصان وكما ترى في النبات الحسَّاس والنبات المفترس اللذين يتمثلان بالحيوان . وقد يظن لاول وهلة ان الجماد لايماثل الحيوان والنبات في شيء ولكن هذا غير الواقع فان بعضهُ يتبلور باشكال تشبه اشكال النبات واغرب من ذلك ان بعضهُ يمرض او تظهر فيهِ ظواهر مثل ظواهر المرض في الحيوان وبعضهُ يتغير من حال الى اخرى اذا تلقَّح وبعضه ينمو نموًّا محسوساً . واليك بيان ذلك :

﴿ مرض الجماد ﴾ ذكر ارسطوطاليس ان القصدير الذي يؤتى بهِ من بلاد السلت اسهل ذوباناً من الرصاص العادي بدليل انهُ يذوب في الماء ويذوب ايضاً اذا اشتدَّ البرد وجلدت الارض . وقد أبان الاستاذ كوهن حديثاً انهُ اشتدَّ البرد مرة في مدينة من مدن المانيا الشمالية وكان في كنيستها ارغن أنابيبهُ من القصدير فتخرقت من نفسها وصار قصديرها قصماً حول الخروق تفركه بيدك فيتحول الى مسحوق ناعم . وقيل ان البرد اشتدَّ مرة في بطرسبرج وكان في دار جمركها قطع كبيرة من القصدير فتفتتت من نفسها

واذا اشتدَّ البرد على القصدير ظهرت على وجههِ كلف كالحبوب والثآليل ثم جعلت تنتشر حتى تغطي وجههُ كلهُ ولذلك سميت بمرض القصدير او بوباء القصدير . ويستحيل القصدير بعد ذلك الى مسحوق وهذا المسحوق قصدير صرف اي انهُ ليس مثل صداٍ الحديد وزنجار النحاس مركباً من المعدن وعنصر آخر بل هو قصدير صرف ويستحيل الواحد الى الآخر عند الدرجة ١٨ بميزان الحرارة وذلك ليس شرطاً لازماً لان القصدير المعدني قد يبرد الى هذه الدرجة او ما تحتها ولا يمرض ولا يسحق . ولكن اذا ظهر فيهِ المرض ولو في بقعة صغيرة جدًّا امتدَّ حالاً وشمله كلهُ فهو كالمرض الذي يصيب الحيوان والنبات

﴿ تلقيح الجماد ﴾ المعروف ان الماء اذا برد الى درجة الصفر بميزان سنتغراد او ٣٢ بميزان فارنهيت جمد واستحال جليداً . ولكن يحدث كثيراً ان الماء يبرد الى الدرجة الرابعة او الخامسة تحت الصفر ولا يجمد وقد يمكن تبريده الى الدرجة العاشرة او العشرين تحت الصفر ولا يجمد بل يبقى سائلاً وذلك اذا كان موضوعاً في اناء زجاجي نظيف وكان سطحهُ مغطى بقليل من الزيت حتى لا يصل اليهِ الغبار من الهواءِ . ولكن اذا طرحت فيهِ حينئذٍ قطعة صغيرة من الجليد جمد كلهُ حالاً كأن تلك القطعة لقحته كما يلقح الالقاح البيضة في الحيوان والثمرة في النبات . ويحدث مثل ذلك في كثير من الجمادات كالقصفور والحامض الكربوليك والثيمول . فاذا برد الثيمول الى الدرجة التي يجمد فيها ولم يحرَّك اناؤه ولا وقع فيهِ غبار بقي سائلاً واذا طرح فيهِ حينئذٍ بلورة صغيرة من الثيمول الجامد جمد كلهُ حالاً وتبلور. وكذلك خلات محلول الصوديوم يبرَّد الى ما تحت الدرجة التي تتبلور ثم تطرح فيهِ بلورة صغيرة من خلات الصوديوم فيتبلور كلهُ حالاً . اي ان القطعة الصغيرة التي تطرح في السائل المبرد تفعل فعل اللقاح في الحيوان والنبات

واغرب من ذلك ان تلقيح بيضة الحيوان قد يتم بفعل كيماوي مثل هذا كما ثبت حديثاً في بيوض بعض الحيوانات البحرية . ثم ان خلات الصوديوم الذي برّد كثيراً ولم يتبلور حالاً اذا وضع في غرفة سحق فيها شيء قليل من بلوراتهِ بهاون كأن الذرّات الدقيقة التي تطير في الغرفة من خلات الصوديوم حين سحقهِ تكفي لتلقيح السائل المبرد كما ان لقاح السمك الذي يكون منتشراً في ماءِ البحر يكفي احياناً لتلقيح بيضهِ . واللقاح الذي تحمله الرياح اللواقح يكفي احياناً كثيرة لتلقيح النخل والصنوبر

وكما ان القليل من لقاح الحيوان والنبات يكفي لتلقيح ما كان من نوعهِ كذلك القليل جدًّا من لقاح الجماد يكفي لتلقيح ما كان من نوعهِ . فاذا لمست بلورة من بلورات الثيمول بشعرة من شعر رأسك ثم لمست بتلك الشعرة سائلاً مبرداً من الثيمول كفت لتلقيحهِ وبَلوَرَته مهما كان ما علق بها قليلاً

﴿ نمو الجماد ﴾ اما النمو فشامل لكل الاجسام التي تتبلور . ولكل نوع من البلورات درجة خاصة من النمو وشكل خاص . اذب ملح الطعام في قليل من الماءِ حتى يشبع منهُ ثم صبَّ من الماءِ على لوح من الزجاج وانظر اليهِ بعدسة مكبرة فتراه يتبلور بلورات مربعة قائمة الزوايا مجوفة في وسطها كأنها مركبة من طبقات متراكزة وتراها تنمو وتكبر امام عينيك . وقد حسبوا ان بلورات القصفور تنمو بسرعة مائتي قدم في الدقيقة وبلورات الجليد عند الدرجة ٢ تحت الصفر تنمو بسرعة ثماني عقد في الدقيقة . والغالب ان يكون نمو البلورات في الطبيعة بطيئاً جدًّا مثل نمو الحيوان بل ابطأ منهُ

وقد يتغير شكل البلورات من وقت الى آخر. مثال ذلك : ان بلورات الكبريت المصهور اذا برد رويداً رويداً تكون في اول الامر ابرية لامعة ثم يزول لمعانها وتستحيل الى اشكال معينة مما يدل على ان الجماد يتغير احياناً كما يتغير النبات والحيوان

كتاب الشيطان

تأليف امين الريحاني

يعنى الكاتب الكبير امين الريحاني ، بوضع كتاب يضمنه على لسان « الشيطان » لباب ما خبره من شؤون الافراد والامم ، مفرغاً في قالب من النقد والتهكم يغري بالقراءة ويحمل على التفكير والتأمل . والريحاني رجل مستقل التفكير ، ينشد الاصلاح وقد وعى من اخبار الامم وعبر التاريخ وحكمة المتقدمين والمتأخرين وآيات الادب القديم والحديث ، ما يجعل كلامه جديراً بكل عناية واحترام ، تشهد بذلك كتبه السائرة في اللغتين العربية والانكليزية . و« المقتطف » يسره ان يقدم الى قرائه هذا الفصل وهو الاول من « كتاب الشيطان »

كانت المدينة ملتحفةً بلحافٍ كثيف من الليل . وكانت ال « بُصّات[1] » التي لا تنام تسير الهوينا في تلك الساعة ، كأنها تمشي في حلم ، وتهدر ثم تئن كأنها الشبح في رواية همْلِت

ورأيت من نافذتي نوراً ضئيلاً متحركاً في المتحف البريطاني الذي كنت اسكن في جواره . رأيته ينتقل من دار الى دار في ذلك المتحف ، ورأيته يخرج من احدى نوافذه ، ويطفو بين البيوت وفوقها ، وهو يترجرج ويزداد ضياء

رجعت تلك الليلة متأخراً من وليمة في النادي ، وكنت لا ازال افكر ، وأنا انظر الى المصباح الكهربائي خارجاً ، في كلمة قالها احد الاعضاء في ما للشيطان من الاثر الفعّال في تعقيد مشاكل العالم الحاضرة ، وخصوصاً منها المشاكل الجنسية بين الرجل والمرأة

ولكن ذلك النور شغلني وقطع عليَّ فكري . رأيته يدنو من البيت الذي اقيم بهِ . فركت عيني وأنا اظنني في خدعة من خدعات البصر ، فكذّب النور ظني ، وهو يدنو مني . ها كه امام النافذة . ها كه في الغرفة . ها كه على الكرسي — يتجسم ويخيف

لست ممن تتراءى لهم الاشباح ، ولست ممن يخدعون بالخيالات . وما كان ما رأيت شبحاً او خيالاً . رأيت امامي رجلاً في ثوبٍ « لندنيّ » انيق ، يجلس في ذلك الكرسي جلسة الزائر الكريم ، ويحيي ، ويده على رأسه ، تحيةً طيبة

---

(١) وأحدها بص اي سيارة كبيرة للنقل auto-bus

حاولت ان اخفي ما عراني من اضطراب ، وحاولت ان اجاريه في تأدُّبهِ فقلت : « وهل يتفضل سيدي فيزيدني علماً بشخصه الكريم »

فقال وهو يبتسم ابتسامةمؤنسة مغرية : « قد التقينا صدفةً بضع مرات . انا الشيطان خادمك المطيع المخلص »

— « عجيب . وما الذي تبتغيه الآن مني ؟ »

— « سمعتك تناديني وتدعوني اليك »

— « ما دعوتك دعوةً رسمية . انما كنت افكر فيك . وكنا في النادي ، هذه الليلة ، نتحدث بشأنك »

— « جميل منكم ذلك . فقد حان للناس وخصوصاً منهم المفكرين ، ان ينظروا اليَّ والى اعمالي نظرةً عقليةً صادقةً حرة »

فقلت بشيء من العطف : « اظن ان اشغالك وهمومك كثيرة في هذه الايام »

فقال وهو يمكّن جلسته : « الهموم لا تهم . اما الاشغال فهي كما قلت . اننا نجتاز في هذا الزمان دوراً سريعاً خطيراً في التطور البشري . وترى الانسان لذلك مضطرب البال ، حائراً جزعاً . تراه ، وقد فقد الفطنة والشجاعة ، يعود الى الخرافات ، الدينية منها والسياسية ، ويعتصم بها . بل تراه يخبط في الدُّجى وهو لا يدري بما دخل عليهِ من وهن وفساد . ان الله نفسه مضطرب البال من اجله . فهو يود ان يظل الانسان جريئاً نشيطاً مقداماً ، فيماشي سنن الكون وسنن الحياة ، ولا يتقهقر ، ولا يهلع ، ولا يتكل كل الاتكال على القوى الالهية . وها هنا فسحة العمل ، عملي انا . إن عليَّ واجب التشجيع ، والتذكير ، والتحريض . وعليَّ ان اشعل في صدر الانسان نور الطموح كلما انطفأ ذلك النور . عليَّ انا ان اكمّل عمل الله فازيّن للانسان سبيل النشوء الدائم ، والارتقاء المستمر . عليَّ ان انبههُ ، واستفزهُ ، واحرضهُ ، واستغويهُ . وماذا يهم اذا خسر في طاعته لي معمل صابون ، او معمل اسلحة ؟ ماذا يهم اذا ذهبت في سبيلي الثروات والاساطيل والدول ؟ وما سبيلي غير سبيل رقيه وسعادته . فيجب عليَّ ان اساعدهُ ليفهم ذلك ، وان استحثهُ على العمل ، على السير ، على التصعيد في السبيل الاعلى . هذا هو شغلي . وما هو ، وحياتك ، بالشغل الهيّن الليّن »

***

عندئذٍ اخرج من جيبه كيساً وغليوناً ، فعبأ الغليون واشعله ، ثم قدم الكيس اليَّ قائلاً : « أتريد ان تجرب هذا التبغ ؟ » فملأت غليوني منهُ ، شاكراً لطف زائري ، وسألتهُ ان يستأنف الحديث ، فقال وهو يدخن :

« ان خصمي عالَمٌ من الجمود والخرافات . وعليَّ ان اتغلب عليهِ . عليَّ ان احرّك كل جامدٍ في نفس

الانسان ، وفي روح الامم ، وان امحق كل اسباب السخافة ، وكل عوامل الفساد ، في حياة الانسان ، وحياة الامم . واني في عملي لجادٌّ ، واني فيه لَمنتصر . فقد انتصرت حتى الآن في بضعة اماكن من هذا العالم المتألب عليَّ : في الصين ، في روسيا ، في تركيا قد انتصرت انتصاراً باهراً . وكان لي بعض النصر في اميركا التي بدأت تدرك شيئاً من اغراضي . اما النصر الاكبر فسيكون ها هنا في هذه الجزائر البريطانية . اقول — ولا عار — الحقيقة كلها . فقد انهزمتُ في هذه الجزائر مراراً في الماضي وسأفوز لذلك فوزاً باهراً في المستقبل — المستقبل القريب

« قد يُظن ان قوتي هي دون قوى الشعب الانكليزي . وقد يصدق الظن ظاهراً . ولكني في الحقيقة مستحوذ على المصادر الاولى لقواه : ان عقله وروحه في يدي . وهو يعلم ذلك ولا يجهر بهِ . واعجب من هذا انهُ يجاريني ظاهراً ، ويستعين سراً بي في حروبهِ الاخرى ... ان في مؤسسات الانكليز العقبة الكؤود . فلا طبيعية هي ، ولا قانونية . هي على ما يظهر مما وراء الطبيعة ، ومما دون القانون . تكاد تكون « مِتافيزيكية » لا جسم لها ، ولا روح ، مثل الشركات المالية والاحتكارية . تقاليد ونظم واصطلاحات ، وافانين في الاصطلاحات والنظم والتقاليد . وكلها لا ترى ، ولا تدرك في غير نتائجها — مثل الكهرباء . ولكنها لا تقوى عليَّ . اقول ، لا تقوى عليَّ . فقد يكون ركنها ، او احد اركانها ، في هذا البرلمان برلمانهم ، الشبيهة اعماله واقواله باعمال الرُسُل واقوالهم . تذكرني مناقشات البرلمان الانكليزي برسائل بولس الرسول . عقلٌ دقيق ، على حبل رقيق ، فوق وهدة عميقة تلذُّ لي مراقبته . وعندما يقع — وسيقع عاجلاً او آجلاً — اكون انا هناك للتأسية والنجاة »

***

وكان قد انطفأ غليونه ، فاشعلهُ ثانياً ، ثم قال : « وماذا تفعل انت في لندن ؟ » فقلت : « اني طالب علم . انشد المعرفة والحقيقة . ولا اكتمك اني مفتون بالانكليز . هم قوم اتقياء قديسون . او ان وجوههم ، في الاقل ، هي كوجوه القديسين ، كما قال شاعرهم الاكبر . واني اراهم في كل حال يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . بل اراهم ينصرون المظلومين من الشعوب ، ويدافعون عن المغبونات من الامم »

— « لا تزال مخيلتك شرقية »

— « ولكنني روَّضتها في روضتين : روضة العلم لدروين ، وروضة الشك لهكسلي »

— « جميل ، جميل . انما استأذنك بكلمة . ارى ان الشك فيك دون العلم قوةً وسيراً . شكُّك كديش[1] — لا تؤاخذني — وعلمك جواد أصيل . ما لنا وهذا . وما لنا ورأيك بالانكليز . انما اقول لك — مستأذناً مستغفراً — انك تضيّع في لندن شيئاً كثيراً من وقتك ومن عواطفك . اراك تمشي في شارع پيكادِلّي ، والسبحة بيدك ، كانك في رواق من اروقة الازهر . اراك تهيم على

(١) الكديش من الخيل غير الجواد الاصيل يمتهن بالركوب والحمل (محيط المحيط)

وجهك في هَيْدبَرْك ، وانت تنشد استعارة جديدة ، او قافية شريدة ، كأنك في بستان من بساتين دمشق . اراك تقف مأخوذاً في قلب المدينة ، بين البورص والبنك والسراي ، وتدوّن في مذكراتك ما تراه من قوة الامبراطورية البريطانية وعظمتها . واراك معجباً حتى بالمهرجانات الصبيانية التي يقيمونها باسم محافظ المدينة ، او باسم من حاول يوماً ان ينسف البرلمان . بل اراك ترد موارد المؤتمرات السياسية والاقتصادية والسلمية وتتمشى في ظلال التعريفات الجمركية والاعتزالات القومية ، فتردد صدى السفسطات السائرة ، والاضاليل الشائعة ، وتود ان تحمل منها الى الشرق رحمة ربه . ولكني رحمةً بك ، انبهك ، واحذرك . فانك مثل كل القوميين المفكرين تفكر نصف تفكير . بل تقف في التفكير عند الجانب الذي يفيدك او يفيد قومك ويضر الآخرين . واراك مأخوذاً بما يسمونهُ النجاح المادي ، فتقيم له تمثالاً . وما النجاح برب يُعبَد »

— « انهُ ليدهشني هذا القول منك . انت الشيطان تحمل على النجاح المادي ، بل على المدنية نفسها ، هذه المدنية التي كنت اظن انها من صنع يدك »

— « انك في بعض ظنك مصيب . انا لست ضد النجاح المادي . ولست خصماً للرفاه الاجتماعي انما انا خصم اولئك الذين يجعلون من ثمار المدنية إرثاً عائليًّا او وطنيًّا . اني خصم الرفاه المحصور ، والبؤس المشاع . اني ارى بعينيَّ الاثنتين . والناس لا يرون بغير العين الواحدة . وانت في هذا — لا تؤاخذني — من الناس . قد فقدت يا صديقي ، عيناً من عينيك ، وانا الآن اجيئك بها . انا الشيطان اعيد اليك عينك الاخرى . فهل تقبلها مني وتتبعني . هيابنا . سأفتح لك ابواباً من الآبنوس المرصع بالذهب ، فتدخل بها الى عالم قصي شتى ، يدمي القلوب ويذيبها . البؤر — البؤر — بؤر الحياة — بؤر الوجود ، هذا ما يهمني الآن ويشغل بالي وقواي . بُؤَرٌ تُرى ، وبؤر لا ترى . بُؤر تُذكَر وبؤر يُعَد ذكرها عيباً . بُؤر روائحها من المجارير ، وبُؤر أريجها من القوارير ، وبُؤر عنوانها اليود والسلفرسان . لا تخف . لسنا سائرين الى حي الاشقياء ، او الى حي الاغنياء ، او الى مستوصف المدينة العام . انما نحن سائرون الى عالم آخر ، محبوسة فيهِ ارواح من يقيمون في مقاذر هذه الحياة : ارواح المخدوعين ، والمنبوذين ، والمقسورين ، والمصابين بالامراض الظاهرة والخفية . سأريك ضحايا السيارات البشرية كلها . سأريك الضحايا لما في العالم من القيود السياسية والدينية والاجتماعية ، فقد مررتَ امس ببعض آثارها في المتحف البريطاني ، ولكنك ما رأيتَ غير ما كان امامك في صناديق الزجاج »

— « وهل كنت أنت في المتحف ؟ »

— « نعم . كنت هنالك . اني اتردد على المتحف لاغراض شتى — لأنعش ذاكرتي ، لاستوحي آثار اعمالي ، ولأستريح في بعض الاحايين من عناء الاشغال . وقد رأيتك في دير وستمنستر ، نعم ، اني ازور ايضاً ذلك الدير وازور كذلك بعض الكنائس ، كنيسة مار بولس العظيمة مثلا ،

وكنيسة مار بطرس العظمى . انما غرضي من هذه الزيارات غير اغراض الناس . غرضي في اللاهوت القديم الذي ينبغي ان يمحق ، ان يستأصل تماماً . وقد باشرنا العمل ، وتقدمنا فيه ، أفما سمعت الواعظ المصري يعظ ويحدث ؟ ان في لندن اسقفاً محبوباً محترماً من المفكرين والمفكرات ، المحررين والمحررات . فهل تعلم من اين تجيئه الآراء الجديدة ؟ هو نفسه لا يعلم . هيَّا بنا »

ما ترددت في مصاحبته . ولكني ، وأنا ألبس معطفي ، رغبت في قايل من ذلك الذي ينشط القلوب وينعشها . ورأيت من الواجب عليَّ ان اكرم زائري كما اكرمني ، فقلت . « وهل لك قبل ان نخرج من البيت ، بكأس من الوسكي ؟ » فقال : « لا بأس بالوسكي » وبين نحن نشرب الكأس الثانية قلت : « وهلاّ تفضلت بالجواب عن سؤالك الاخير ، أنا لا اعلم . والاسقف نفسه ، كما قلتَ ، لا يعلم . فمن أين يا ترى تجيئه الآراء الجديدة ؟ »

***

فابتسم ابتسامته اللطيفة وقال : « اني ازوره عند ما يكتب فاجلس الى جانبه . وازوره عند ما يخطب فأقف وراءه في المنبر . لا اقول انهُ يعي كل ما اوحي بهِ اليهِ ، ولا اقول انهُ ينطق بكل ما أهمسه في قلبه . ولكنهُ باذلٌ جهده ، وجاهرٌ طاقته . فلا يلام في ما يفوته ، ولا في ما يتقيه . ان قلبه لفي المكان السليم . وهو مثل قلبي يذوب شفقةً وحناناً لدى مشاهدته الشقاء البشري . انما لا يمعن ، ولا يجرؤ ان يمعن في البحث عن الاسباب الاولية لذاك الشقاء . . . ولا يزال الواعظ المصري مقيداً ببعض التقاليد في ما يتعلق بي او بعيداً عن الحقيقة في ما يعتقده روح الزمان . فأما أنهُ ينكر وجودي بتاتاً ، واما انهُ يتمسك بظنه اني عدو الانسان ، بل عدو العالم . هو لا يدرك ان حقيقة النشوء والارتقاء تشمل كل حي يُرى ولا يُرى في ذا الوجود بل هي تشمل الكون ، وأنا وأنت والواعظ والضفدع من الكون وفيهِ . الوعاظ ، وان ادركوا هذه الحقيقة فانهم لا يجرؤون اليوم ان يجهروا بها من منابر كنائسهم

« أطلت الحديث . ولكني أقول لك — واسألك وانا اشرب هذه الكأس على صحتك ان تذكر كلامي — اقول لك ان البؤس والاحزان والآلام تخف رويداً رويداً لو كان الناس اعلم بي ، وادرك لحقيقة حالي . بل اقول اكثر من هذا . ان البؤس والاحزان والآلام تزول لو اعترف الناس بوجودي الاعلى ، وكانت لهم الجرأة ان ينصروني ويطيعوني . ولو فعل السياسيون ذلك لأفلحت مؤتمراتهم كلها . ولكن هذه المؤتمرات — مؤتمرات نزع السلاح ، ومؤتمرات السلام ، ومؤتمرات التعاون الاممي كلها لا تفيد اذا كان اربابها لا يصغون اليَّ . فيكفرون بتقاليدهم القديمة وقوانينهم السقيمة ، بل ينبذونها كلها . هي لديهم مقدسة . وهي في نظري وعلمي رأس الشرور وسبب الحروب ، ومصدر الآلام والاحزان . انا الشيطان اقول هذا وأنا الشيطان عامل عملي .

تلك الشرائع والتقاليد ، وتلك الانانيات الدولية ، اني ساعٍ الى هدمها ومحقها لاستئصالها ولو تبعني واطاعني الناس لكنت امرع عملي ، ولكانت الشعوب تفرض السلم فرضاً على الدول والحكومات اقول لو تبعني الناس لساد السلم ولساد العدل في العالم . خذ البرهان . انت شرقي.وأنت عالم بالعراق. وقد رأيت هناك طائفة من الاقدمين الصالحين ، وهم في الوداعة وكرم الاخلاق والمسالمة المثل الاعلى . هم من اتباعي . هم يعبدونني ، اجل يعبدون الشيطان . ولكنهم متقهقرون في أحوالهم الاجتماعية لأنهم اخطأوا الفهم والتفسير لوحيي . فقد اغرق اليزيديون في التعبّد ، لحال ذلك دون تصعيدهم في سلم الارتقاء . انا لا اطلب العبادة ،ولا استحب التمجيد . اني انفر من الاثنين . ولا ارى في الهياكل والمعابد غير القيود التي تؤخر نمو الروح البشرية . ان رقي الانسان وسعادته لفي علمه وحريته . وأنا لا اطلب منهُ غير ان يعلم الحقيقة الشاملة المزدوجة ، ويعمل بعمله . هذا ما اريده منهُ ، وهذا ما يريده الله . انا والله . العفو ، العفو . ألله وأنا . ولا تعجبنَّ لهذا القران . اظنك تعلم اني كنت مرة فيخدمته تعالى .هي قصة قديمة لا فائدة من تردادها . انما اقول ان تعاوننا في الزمان الاول قد يجدد في هذا الزمان . عفوك . قد اطلت الحديث »

***

كنا قد وصلنا الى المتحف البريطاني ، فدخلنا من مكان لا يفتح كما علمت لغير رفيقي وصحبه وبينما كنا نجتاز ردهة الاواني الخزفية في القسم الاغريقي ، ورواق الآثار الاشورية ، حدثني الرفيق الدليل في موضوع فني اجتماعي جليل ، فتطرق الى الرموز ومقامها في حياة الانسان ، فأشار الى الصفة البارزة في الاناء الذي يدعى أمفورا — جرّة — وفي الصفة السائدة في الاسد الاشوري المجنح . ثم قال : « الجمال والقوة ، لا قيمة للحياة تذكر بدونهما »

وسرنا بعد ذلك الى ردهة القراءة ، تلك الردهة المستديرة ، تحت القبة الكبيرة . فأومأ الرفيق الى القبة ، فاذا هي تنشق ، فتنشق ، حتى بدت السماء من الفرجة فيها . فقال وهو يبتسم ابتسامة مؤنسة مطمئنة : « هات يدك ، ولا تخف » ، ما خفت . وما دهشت ، ويده تضم يدي ، مما كان حتى من جرأتي . انما خيل اليَّ في البدء اني في سفح جبل . وكان الرفيق نفسه ذلك الجبل . بل كنت امامه ، وقد تمطى فلامس رأسه القبة ، كالقزم امام مارد من الجن . وظللت كذلك وأنا تارة على ركبته ، وطوراً على صدره ، حتى بلغت الكتف منهُ ، وأطللت على الفضاء — على النجوم

فشجعني بقوله ثانياً : « لا تخف » وكانت القبة قد انسدت تحتنا ، فعراني ، اذ قبض ثانياً على يدي ، شيء من الخوف . ثم احسست ان قلبي سقط في لحظة من بين جنبي ، وان جسمي قُذف كالقنبلة في الفضاء

تناظر اللغة الصينية والعربية

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ — ﴿ تمهيد ﴾ يقول اللغويون: نظرت الكلمة الفلانية الى الكلمة الفلانية. اذا اشبهتها او قابلتها. وتناظرت الكلمات: نظرت بعضها بعضاً. ونحن نريد ان نبين في المقال الآتي، ان في اللغة الصينية الفاظاً تشبه الحروف العربية. ولعلَّ ذلك كان منذ عهد الناس بوضع الكلم، ولا سيما القليلة الاحرف. وفي ما يلي بيان هذه الحقيقة

٢ — ﴿ كتاب حديث في تناظر اللغة الصينية لغيرها من اللغات ﴾ في نحو اواخر السنة الماضية، ألَّف احد الادباء الفرنسيين، وهو المسيو ميشيل هونوراة كتاباً بقطع الربع. قليل الصفحات سماه: « ايضاح قرابة اللغة الصينية مع اللغات اليافثية والسامية والحامية » وبالفرنسية: [١]

وقد قال المؤلف في صدر مقدمتهِ ما معناه: « تتصل اللغة الصينية كل الاتصال بلغات شعوب الغرب. تلك هي الحقيقة المدهشة

« وكيف ان الناس لم يلاحظوا ذلك قبل هذا الحين؟ فهذا ما لا أصل الى فهمهِ ابداً. والواقع بيّن وادعهُ ينطق بنفسهِ. وشواهده واضحة بنفسها بنوع كاف » ثم قال في نحو اواخر مقدمتهِ المذكورة

« وانا ابحث في هذه الكراسة — وقد اختصرتها لغاية في النفس — عن ١٠٠ر١ كلمة صينية. واما ما بقي من الالفاظ الصينية فستكون موضوع كتاب آخر يظهر بعد هذا »

ومن بعد ان أتمَّ مقدمتهُ بما لا حاجة لنا الى استيعابهِ هنا، شرع في بحثهِ، وقد صوّر كل كلمة صينية، بحرف افرنجي كبير يمتاز عن بقية اوضاع سائر اللغَى. وراقماً كل كلمة برقم. والظاهر من انعام النظر في ما سرده من الكلم، ان الرجل لا يحسن العربية احساناً يمكنهُ من مقابلة ما في لساننا العدناني، بما وجده في سائر الالسنة، ولو عرفها لذكر لكل كلمة صينية كلمة عربية. بخلاف ما ورد في باقي اللغات فانهُ ذكر للكلمة الصينية ما وجد منها في سائر الالسنة، من غير ان يكون هذا السرد متتابعاً في جميع الالفاظ. اما في لساننا فيكاد يجد القارىء لكل كلمة صينية حرفاً عربيّاً وانا اعالج الآن هذا الامر مبتدئاً بأول كلمة الى العاشرة، وهي كل ما جاء في الصفحة الاولى، ولا اريد ان امضي فيها قدُماً الى آخر ما ورد في المصنف المذكور، لكي لا يمتدَّ بي النفس الى ما يحرج الصدور، ويدفعها الى السأم والملال

---

(1) Michel Honorat Démonstration de la parenté de la langue chinoise avec les langues Yaphétiques, Sémitiques et Chamitiques.—Paris—Librairie Orientaliste Paul Guthner 1933

٣ — ﴿ كلمات صينية يقابلها الفاظ عربية ﴾ قبل ان ابدأ بالمقابلة اقول: لاحاجة لنا ان نرى الكلمة الصينية كما هي في العربية ، بل ما يقاربها بالصوت والمعنى . وقد يقع في الكلمة العربية « قلب » اي ان تكون احرف الكلمة الواحدة موجودة في الكلمة الثانية لكن بترتيب آخر غير الترتيب الاول . وابتدأ المؤلف بالكلمة الصينية

١ — Mi, Mie قال : هي قريبة من الفرنسية Miel التي معناها العسل ولو صورت الفرنسية بأحرف عربية لقلنا : « مِلء » بكسر الميم . فاذا قلبت صارت « لِمْء » « بكسر اللام . واللمْء : العسل . وذكر من الالفاظ المقاربة ما جاء في الالمانية بمعنى العسل ، فقال Medu, Mido, Miod, Met وهذه تقرب من لفظتنا : « الماذِيّ » وهو العسل الابيض . واقول : ان الذي اراه ان الماذي وما يقاربهُ في الجرمانية والصقلبية والمجرية مأخوذ من ماذية اي بلاد الماذِيين La Médie وعسل هذه الديار الى يومنا هذا هو عسل ابيض بديع اللون . وقد رأيتهُ واكلت منهُ مراراً والمسيو هونوراة صاحب كتاب « الايضاح » لم يذكر من العربيتين كلمة واحدة . ولا ذكر لنا رأيهُ في اصل كلمة « الماذيّ » عند بعض ابناء الغرب

٢ — Yen أي آلة البصر والبصر نفسهُ . وذكر مقارباً لها في الفرنسية Œil ولو كان يعرف العربية لذكرها حالاً قبل سائر الكلم اي « عَيْن » فهي اقرب الى الصينية من جميع الالفاظ التي سردها

٣ — Mien ومعناها الوجه والهيئة والصورة وذكر لها في الفرنسية Mine ولم يذكر لها العربية « مِيْلة » بكسر الميم . وهي الهيئة

٤ — Tien ومعناها السماء والضوء . وذكر قريباً منها الجرمانية Ti, Tio ولم يعرف العربية « ضوء »

٤ مكررة — Tsien, Tsin, Tsing اي الاسمانجوني او الازرق السماويّ . والحرفان المزدوجان الصينيان TS كثيراً ما يقابلهما بالعربية حرف واحد . إذ قد يكون سيناً مهملة او شيناً معجمة او صاداً . وذكر المؤلف من الالفاظ المقاربة للصينية Tinte الجرمانية وقال معناها : حبر بنفسجي أسود . قلنا : فاذا كان الامر كذلك فما اقرب كلمة « الشامة » العربية من الصينية ومعناها : اثر سواد او زرقة غامقة في البدن

٥ — Lang, Long, Loh بمعنى الذئب . واهمّ حرف في مادة الكلمة الصينية هي اللام . وتكاد ترى في جميع اللغات الفرنسية والبريطونية والغالية والجرمانية واليونانية . وذكر المؤلف من نظائر الصينية الفرنسية Allan وقال معناها الكلب . وقال : Lain هو الشيطان في العربية . وفكرت طويلاً لاعرف هذه الكلمة العدنانية وما عسى ان تكون ، فاهتديت اليها في الآخر وانها « اللعين » — ولم يذكر من لغتنا غير هذه الكلمة . وكان في امكانهِ ان يقول مثلاً : اللعوة واللعاة وهي الكلبة — واللعْوس (كجعفر) : الذئب واللأى بالتحريك الثور الوحشي . او البقرة الوحشية . ومؤنثها اللآة كفتاة وعندنا ايضاً اللّغا وهي الشاة لا يعتدّ بها في المعاملة

على ان الكلمة الحقيقية في لساننا للدلالة على الذئب والمجانسة لما في الالسنة غير السامية هي

اللعوس التي ذكرناها — واما «العين» التي ذكرها المؤلف بمعنى الشيطان فهي من المجاز لا من الوضع الحقيقي . ومع ذلك تراه ذكرها في معنى الذئب لانهُ يفترس النفوس – في نظره – لا لأنهُ ملعون ، فانظر الى هـذا التحكم في الاشتقاق وتقريب الالفاظ بعضها من بعض والتلاعب بها

٦ — Hen, Han هو البغضة وذكر المؤلف من متقابلاتها في سائر اللغات الفرنسية والانكليزية والبريطونية والعبرية ، ولم يذكر العربية وهي «العين» العَيْب والاصابة في العَيْن

٧ – Siw اي خاط وطرّز والابرة (اذا نقل الفعل نفسهُ وبصورتهِ الى الاسمية) وذكر لها المؤلف متناظرات في الهندية الفصحى والجرمانية واللاتينية اليونانية والثوانية والصقلبية ولم يذكر لها مقابلاً في لغة من اللغات السامية ، مع انك تجد في العربية قولهم : جأَى الثوب جأواً : خاطه وأصلحه . والفعل واوي ويأي معاً

٨ — Ye : الليل وامسِ الدابر . وذكر لها الكاتب من النظائر في اللغات الكارلية والمجرية والفنّوية والماناويّة والارلندية والفرنسية قال: ومنها في الفرنسية Jé, Jeais وقال : معدن غير لماع او Jé, Geai طائر اسود الى آخر ما قال . — قلنا : وفي لغتنا الهِيْر (بكسر الهاء ، والهِيتَر بتاءٍ مثناة بعد الهاء في مكان المثناة التحتية) من الليل : النصف الاول منهُ .ـ والهِناء : القطران . والهِينْءُ : الطائفة من الليل ، الى غير ما هناك من الالفاظ

٩ — Je وهي الشمس والنهار .وذكر لها اشباهاً ونظائر في اللغات الماناوية والروسية والبلغارية والفرنسية والكُرْنية . ولم يذكر كلمة واحدة من لغة سامية . فلا نعرف كيف يحاول ان يجد حروفاً سامية ليصحّح او يوجّه عنوان كتابهِ — وفي اللغة العدنانية : الجَوى، ويراد بهِ الهوى الباطن، والحزن ، والحُرْقة . والجُوَّة والجُوْوَة : غبرة في حُمْرة . والجوْوَة :أرض غليظة في سواد

١٠ — Pang : الضخم الغليظ السمين . وذكر لها مقابلاتٍ في البريطونية والفرنسية واللاتينية ولم يذكر لها مشابهاً من اللغات السامية شيئاً.وفي لغتنا الفَخْم والضخْم ومعناها معروف . وعندنا ايضاً فعل « فقَم » . يقال : فقَم الاناءُ : امتلأ . وفقم مال فلان : نفد . وقيل : كثر ، ضد . وفقم الامر : فَقَماً (بالتحريك) ، وفَقْماً ، وفقوماً (كجلوس) لم يجرِ على استواءٍ و « عظم» . وأكل الرجل حتى فقِم (بكسر العين) اي حتى بَشِم . وفقُم (بضم العين) الامر : اي عظُم . فكل هذا مضارع لما ورد في الاصل الصيني وفي اصول بعض اللغات الغربية . ومع ذلك لا تجد ادنى أثر لما ذكرناه لك في كتاب المسيو هونوراة فلا جرم ان الرجل غير متضلّع من لغتنا ولا من اي لغة سامية . فالعنوان الذي اتخذه لكتابه اعظم من فحواه . ولعله اذا وقف على ما بيّناهُ هنا من الامثال يحدو به الى التحقيق اكثر مما فعل الى الآن . هذا ما اردنا اثباته هنا ، اظهاراً لعلوّ كعب لغتنا وانها تطلعنا على خفايا اللغات على اختلاف انواعها وعلى اختلاف الاقوام الذين ينطقون بها وهذا كاف لان نحافظ على كنوزنا اللغوية ونفاخر بها سائر الالسنة وعلمهُ فوق كل ذي علم

القضاء في السودان

خليل الخوري

القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء الجنائي

منذ اواخر القرن الثامن عشر سادت في اوربا فكرة جمع الشرائع وتأليفها بشكل قوانين فوضع في اول الامر القانون المدني في فرنسا في سنة ١٧٩٣ قبل ظهور نابليون ولكن هذا القانون لم ينظم وينشر وينفذ حتى سنة ١٨٠٤ وفي ذلك الحين كانت تلك الحركة شاملة القارة كلها ففي انكلترا كان الفقيه العظيم جرمي بنتام يسعى الى تأليف الشرع الانكليزي وجمعه بشكل قوانين ولم تختلف في الحقيقة نظرياته عن نظريات الفقهاء الفرنسيين الا انهُ كان مسوقاً ومسيراً بأصل المنفعة الذي جعله ركن الشرائع وركن جميع الاشياء . والفقهاء الفرنسيون جعلوا القانون الطبيعي الخيالي اصل الشرائع — اما بنتام فكان هدفهُ الاسمى اصلاح الشرائع وتسهيل فهمها على الناس ورأى في توحيدها وجمعها بشكل قوانين وسيلة لبلوغ ذلك الهدف — وعلى سبيل الذكر اقول ان بنتام هو صاحب كتاب اصول الشرائع المشهور الذي ترجمه الى اللغة العربية المرحوم فتحي باشا زغلول — ثم حذا حذو بنتام الفقيه الانكليزي الكبير اوستن على ان الانكليز كانوا ولا يزالون يعافون جمع اصول الشرع المدني بشكل قانون لانهم يرون دون ذلك عقبات لا يستطاع تذليلها ويعتقدون ان في جمعه على تلك الصورة مساوي تربي على المنافع . على انهم لم يروا مناصاً من جمع اصول الشرائع الاخرى وقد اصبحت الآن جميع اصول الشرائع عندهم ما عدا الشريعة المدنية وعند غيرهم على اختلاف انواعها مجموعة بقوانين — واذا صحَّ ان يبقى الشرع المدني مبعثراً مشتتاً في كتب الفقهاء وفي احكام المحاكم وفي العادات والسوابق فلا يصح ذلك في الشرع الجنائي لان باب الاجتهاد والقياس والتأويل في الاول مفتوح على مصراعيه حتى في البلدان التي وضعت فيها القوانين ولكن في الثاني لا بدَّ من حصر الجرائم والعقوبات

وقد وضع في السودان على أثر الفتح الثاني في سنة ١٨٩٩ قانون للعقوبات وآخر لتحقيق الجنايات وبني القضاء الجنائي السوداني على القضاء الهندي وهذا بني على القضاء الانكليزي ثم عدل قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات في السودان في سنة ١٩٢٥

والذي اتوخاه في هذا المقال ايراد بعض الاصول المتعلقة بالقضاء الجنائي في السودان مما يسترعي النظر ويختلف عن مثيله في مصر وفي غيرها من الاقطار التي انسلخت عن السلطنة العثمانية والتي اكثر قضائها الجنائي مبني على القضاء الجنائي الفرنسي ومستقى من مصادره.

***

﴿ تقسيم الجرائم ﴾ — قسمت الجرائم في القوانين المبنية على القانون الفرنسي الى جنايات وجنح ومخالفات والاساس الذي بني عليه هذا التقسيم هو جسامة الجريمة واختلاف العقوبة بسبب ذلك — وفي الواقع ليس هذا التقسيم علمياً او منطقياً لانهُ لا ينص على فرق جوهري بين قسم وقسم . ومع ان هذا التقسيم يخلو من المنطق فانه ضروري في فرنسا وغيرها لان نظام القضاء الجنائي برمته عندهم مبني على ذلك التقسيم فقد اخطأ في الاصل واضعو القانون الجنائي وقانون تحقيق الجنايات الفرنسيون وغيره اخطاءً شتى لانهم استعجلوا وضع جميع القوانين في بضع سنوات على اثر ظهور نابليون وقيدوا البلاد بنصوص ثابتة ليس من السهل تعديلها ثم نظمت المحاكم والدوائر والهيئات بناءً على تلك القوانين. اما في انكلترا فانهم لم يستعجلوا بل تريثوا كثيراً فلم يضعوا قانوناً الاّ بعد ان اختمرت الحاجة اليه ومن هذا ترى التعقيد والارتباك في النظم التي اخذت عن فرنسا مما يحول فيها دون الاصلاح والتعديل من العقبات — وهذا شأن كل عمل يباشر بسرعة وبدون تروٍّ تكون عواقبه غير محمودة

لم يكترث المشترع السوداني لهذا التقسيم بل عمد رأساً الى مهمته فقرر جميع الافعال التي يعدها جرائم فسردها واحدة فواحدة وقرر لكل جريمة عقوبتها الخاصة وهو اسهل جداً واكثر انطباقاً على المنطق والعقل من التقسيم المربك وكم من مرة وقع الاختلاف في مصر وغيرها على اختصاص المحاكم بسبب وصف الجريمة هل هي جنحة او جناية وكم من مرة حار قضاة الاحالة في اعمالهم — وشيء من هذا يستحيل ان يقع في السودان. وقد كان الخيال الدافع الاعظم لفقهاء الثورة الفرنسية فربطوا الاجيال التي بعدهم بسلاسل من الاوضاع والنظريات التي تحاشاها المتشرع الانكليزي بما فطر عليهِ من بعد النظر والتجرد عن الخيال والتصرف بحسب الحالة الطارئة

***

﴿ بيان مدلول الالفاظ والعبارات ﴾— امتاز قانون العقوبات السوداني بتعريف بعض الالفاظ والعبارات وبيان ما تدل عليهِ غير معناها الاصلي وهذا التعريف ضروري لازالة ما قد يقع من الالتباس في معاني الالفاظ الواردة في القانون . واليك بعض الامثلة على ذلك ففي المادة ٣٧ ورد تعريف لكلمتي « حسن النية » كما يلي : « لا يقال بان الشيء عمل او اعتقد بهِ بحسن النية متى عمل او اعتقد بهِ بدون العناية والانتباه اللازمين »

وفي المادة ٣٨ عرّف كلمات التهييج الفجائي الشديد كما يلي : — التهييج الفجائي الشديد الذي

يترتب عليهِ تغيير ماهية الجريمة او تخفيف العقوبة التي يمكن الحكم بها بمقتضى اية مادة من هذا القانون لا يشمل الحالات الآتية : —

(١) التهييج الذي ينتحله المجرم او الذي ينتج من تهييجهِ العمد لتبرير ارتكاب الجريمة او

(٢) التهييج الناشيء عن عمل اطاعة للقانون او الذي يسببهُ موظف في اثناء مباشرته اعماله قانوناً او

(٣) التهييج الناشيء عن عمل شيء في اثناء استعمال حق الدفاع الشخصي قانوناً

ثم عرف كلمة الرضاء كما يلي بالمادة ٣٩ :

لا يعتبر الرضاء رضاء بمقتضى اية مادة من هذا القانون اذا صدر من شخص خشية من وقوع ضرر او عن خطأ في الواقع وكان يعلم الذي اجرى العمل او كان لديهِ سبب للاعتقاد بان ذلك الرضاء صدر بسبب الخوف او الخطأ او اذا كان الرضاء صادراً من شخص لا يقدر بسبب اختلال عقله او سكره على فهم ماهية الشيء الذي رضي بهِ ونتيجتهِ او اذا صدر الرضاء من شخص يقل عمرهُ عن اثنتي عشرة سنة

وهنالك تعريفات اخرى لالفاظ شتى لا يعرف الحكمة من ايرادها وتقريرها ولا يقدرها الاَّ من اشتغل بالقضاء

***

﴿ الافعال التي يظهر لاول وهلة انها جرائم ولكن القانون لا يعدُّها جرائم ﴾ — هذه سنة أخذ بها المتشرع السوداني ولم يأخذ بها غيره فقد نصَّ في اوائل قانون العقوبات على افعال خاصة اخرجها من عداد الجرائم وبذلك سهَّل على المحاكم وعلى المحققين معالجة تلك الافعال وهي افعال تبدو لاول وهلة انها من الجرائم المقررة في القانون ولكن المتشرع بسبب الظروف التي لابستها رأى اخراجها من سلسلة الجرائم وعلى سبيل التمثيل اذكر بعض تلك الحوادث

المادة ٤٤ — لا يعتبر الفعل جريمة اذا فعله شخص يجبره القانون على فعله او يبرره في فعله او فَعَلهُ وهو يعتقد بحسن نية بسبب جهل الوقائع لاجهل القانون انهُ مجبور قانوناً على فعله او يبرره القانون في فعله

المادة ٤٥ — لا يكون الفعل جريمة متى وقع من شخص وهو يباشر القضاء كمحكمة او كعضو محكمة بالسلطة المخولة لهُ او التي يعتقد بحسن نية انها مخولة له قانوناً

وقد ادخل المتشرع في هذه المواد افعال الانسان في اثناء دفاعه عن شخصه او عن غيره او عن ماله او مال غيره او عن شرفهِ او شرف غيره وافعال الطفل الذي عمره دون السبع سنين وافعال الطفل البالغ من العمر سبع سنين ودون الاثنتي عشرة سنة اذا لم يبلغ من الرشد تمييزاً كافياً لادراك ماهية الفعل او نتيجتهِ وافعال المجنون جنوناً دائماً او مؤقتاً او مختل العقل وافعال السكران الذي نجم سكره عن اعطائه اية مادة رغم ارادتهِ او بدون علمه والافعال التي الجيء الى ارتكابها الفاعل

بالتهديد والافعال التي تنطوي على اضرار طفيفة والافعال التي تحدث ضرراً ولكنها اجريت لمنع ضرر آخر اريد الحاقه بالاشخاص او الاموال وغير ذلك : —

﴿ العقوبات المقررة ﴾ من العقوبات المقررة في القانون السوداني عقوبتا الجلد بالسوط ذي الفروع التسعة والجلد بالمقرعة — والعقوبة الاولى يحكم بها القاضي من الدرجة الاولى او الثانية على المجرم الذكر البالغ والعقوبة الثانية يحكم بها القاضي من الدرجة الاولى او الثانية على المجرم الذي عمره دون ست عشرة سنة

وهاتان العقوبتان لا يوقعهما القاضي في جميع الجرائم بل في جرائم معينة وليس هو مجبوراً على الحكم بهما بل هو مطلق الرأي اذا شاء حكم بالجلد وان شاء حكم بعقوبات اخرى مقررة للجرم لان الجلد ليس من العقوبات الاساسية المفروضة للجرائم وانما اعطي القاضي الحق في الحكم به في بعض الاحوال بدلاً من الحكم بالعقوبات الاخرى — وقد ظهر بالاختبار ان الجلد عقوبة فعّالة ذات اثر عاجل في الاقتصاص والردع وقد يعترض عليه البعض انهُ اثر من آثار الشدة التي كانت تسود القضاء في الماضي ولكن منفعة الجلد في بعض الأحوال وبالنسبة لبعض الأشخاص لا يمكن انكارها —

***

﴿ التحريض على ارتكاب الجرائم والشروع في ارتكاب الجرائم ﴾ — يمتاز القانون السوداني في هذين البابين بأنهُ — بالنسبة الى التحريض — يعاقب المحرض على ارتكاب الجريمة ولو لم ترتكب الجريمة ويعاقب المحرض على التحريض كما اذا اغرى عمرو بكراً ليغري كاملاً على قتل زيد قتلاً عمداً فأغرى بناءً على ذلك بكر كاملاً على قتل زيد قتلاً عمداً فارتكب كامل تلك الجريمة بناءً على اغراء بكر فيعاقب بكر من اجل جريمته بعقوبة القتل العمد وبما ان عمراً اغرى بكراً على ارتكاب الجريمة فيعاقب بنفس العقوبة . ومن حرّض على ارتكاب جريمة عقوبتها الاعدام او الحبس المؤبد يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى سبع سنين وبالغرامة ايضاً اذا لم ترتكب الجريمة بناءً على ذلك التحريض — ومن حرّض على جريمة عقوبتها الحبس يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى ربع اقصى المدة المقررة لتلك الجريمة او بالغرامة المقررة لها او بالعقوبتين معاً ان لم ترتكب الجريمة ويعاقب المحرّض كالفاعل اذا ارتكبت الجريمة

اما الشروع في ارتكاب الجرائم فان القانون السوداني لم يذكر في صدده سوى مادة واحدة أراها وافية بالمرام وهي على غاية البساطة والسهولة وهي المادة ٩٣ — كل من شرع في ارتكاب جريمة عقوبتها الحبس او شرع في تسبيب ارتكابها وارتكب في ذلك الشروع اي فعل في سبيل ارتكاب تلك الجريمة يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى نصف اقصى المدة المقررة لتلك الجريمة او بالغرامة المقررة لها او بالعقوبتين معاً ان لم يوجد نص صريح في هذا القانون او في اي قانون آخر

معمول بهِ على عقوبة لذلك الشروع — ولا صعوبة في تطبيق هذه المادة في الشروع بالجرائم التي يعاقب فاعلها بالاعدام لان القانون السوداني في جميع امثال الجرائم ينص على عقوبة الاعدام او بالحبس المؤبد والغرامة والحبس المؤبد معناه عشرون سنة فقط . فالشارع في ارتكابها يعاقب الحبس لغاية عشر سنين ولو قارنا مادة الشروع هذه بمواد الشروع في القانون المصري او قانون الجزاء العثماني لتبين لنا الفرق الكبير بين التشريعين فان الاول سهل واضح والثاني معقد مرتبك

***

﴿ الاسباب المخففة والاسباب المشددة والعود ﴾ — اذا راجعنا المواد الواردة في القانون المصري في هذا الصدد رأينا مشقة جسيمة في تفهمها وفي مراميهـا وفي تطبيقها وتعقيداً كبيراً في نصوصها كأنها الغاز في الغاز وقد خلا القانون السوداني كل الخلو من مثل هذه النصوص . والسبب الظاهر الذي حدا بالشارع السوداني الى تحاشي مثل هذه النصوص ليس فقط لغرض الخلوّ من التعقيد ورغبته في الوضوح والبساطة بل لانهُ يرى فيها تكبيلاً للقاضي . ومثل هذه النصوص غير ضرورية في القضاء السوداني لان الشارع لم يفرض حدًّا أدنى لعقوبة الحبس ولا لعقوبة الغرامة فالقاضي مخير في المدة والمبلغ وفي جميع المواد يفرض الشارع الحد الاقصى لمدة الحبس التي لا يصح للقاضي تجاوزها وهو في ما خلا الجرائم التي يعاقب فاعلها بالاعدام او الحبس المؤبد حرٌّ في تعيين مدة الحبس . خذ مثلاً مسألة العذر في من قتل زوجته حال تلبسها بالزنا الوارد لها مادة خاصة في القانون المصري وهي التي تقضي بالحكم على الزوج في هذه الحالة بالحبس بدلاً من الاشغال الشاقة الخ — وقد حاول بعضهم في مصر توسيع نطاق هذه المادة حتى تشمل قاتل المحارم على العموم ولكنهم لم ينجحوا في هذا —

ولا حاجة في القضاء السوداني الى مثل هذه النصوص لان القتل في السودان نوعان القتل العمد والقتل الجنائي الذي لا يبلغ القتل العمد . وفي القانون السوداني مواد وافية للتمييز بين النوعين فالاول عقوبته الاعدام او الحبس المؤبد والغرامة والثاني عقوبته الحبس المؤبد او الحبس مدة اقل من المؤبد او الغرامة او العقوبتان لجريمة الزوج الذي يقتل زوجتهُ في حالة الزنا تدخل تحت النوع الثاني وللقاضي أن يحكم على الزوج بالغرامة فقط اذا رآها وافية وليس ملزماً بالحكم بالحبس واذا حكم بالحبس فهو غير مقيد بمدة وله ان يحكم بيوم واحد فقط — وله ذلك ليس فقط في مسألة الزوج بل في كل مسألة لا يبلغ فيها القتل درجة العمد فقتل المحارم في الحالة المذكورة يدخل في هذا وكل قتل حصل اثر التهييج الفجائي الشديد يدخل في هذا وكل هذا بمثابة الظروف المخففة أو الاعذار او دواعي الشفقة او مهما شئت فسمه — فالقاضي السوداني لديه مجال واسع جدًّا لاستعمال مثل هذه الاسباب — وكذا قيل عن العود وهو الذي معناهُ في غير السودان عود المجرم الى الاجرام فيشددون عليهِ العقوبة بمقتضى سلسلة من المواد معقدة اما في السودان فلا حاجة الى هذا ما دام

المجال للقاضي كما ذكر واسع النطاق فاذا أحضر امامهُ مجرم قديم عريق في الاجرام طالجهُ بما لديه من السلطة التي خوله القانون مباشرتها بحسب الظروف في كل مسألة. فالقاضي السوداني يصعد بالعقوبة من الحبس يوماً واحداً أو الغرامة ببضعة قروش إلى الحبس عشرين سنة أو الغرامة مائتي جنيه وهو حرٌّ بين الحدين

***

﴿ جرائم الموظفين او الجرائم التي تتعلق بالموظفين ﴾ —في هذا الباب نصوص قاسية شديدة وقد توخى الشارع السوداني الشدة فيها لضمان نزاهة الموظفين في أعمالهم وانصافهم في معاملة الناس فالرشوة مثلاً تشمل غير معناها المفهوم المألوف كل ما يعطى او يوعد باعطائه نقداً او غير نقد وتشمل ما يعطى على سبيل المكافأة من اجل عمل اجراه الموظف ولا تسري الرشوة على الموظفين فقط بل على من كان يتوقع ان يصبح موظفاً وقبل الرشوة . ومما ادمج في سلسلة الجرائم احالة الموظف اشخاصاً للمحاكمة او للحبس مع علمه بأنهُ يفعل ذلك مخالفة للقانون — واهمال الموظف القبض على الشخص . وترك الموظف عمداً القيام بواجبه حيث يسبب ذلك الترك خطراً وترك الموظف عمله بدون حق لعرقلة الاعمال العامة واشتغال الموظف بالتجارة وشراء الموظف مالاً او مزايدته فيه على خلاف القانون — والاختفاء للهرب من تبلُّغ ورقة حضور او اعلان

وقد خصص الشارع السوداني باباً في قانون العقوبات للقسوة على الحيوانات فعدَّ ضرب الحيوان بقسوة او تعذيبه او الاساءة اليه بطرق اخرى والافراط المقرون بالطيش في ركوب الحيوان او في سوقه او تحميله واستخدام الحيوان العاجز عن العمل بسبب عمره او مرضه او جراحه او اعتلاله واهمال الحيوان جرائم مقررة —

وعقد فصلاً خاصًّا لجرائم الاذى وهي تشمل جميع الافعال التي تؤذي الانسان لما دون القتل وهو مفصّل وافٍ واضح لا مثيل له في غير السودان ومن الفصول الجلية الواضحة ما تعلق بالاعاقة والاعتقال بدون حق وبالقوة الجنائية والتهجم وبالخطف وبالتشغيل الجبري — وبالاغتصاب والجرائم المخالفة للطبيعة وهتك العرض — والاخلال الجنائي بعقود الخدمة والجرائم المتعلقة بالزواج والزنا بالمحارم والجريمة الاخيرة إي الزنا بالمحارم جريمة جديدة قررت في القانون الجديد الذي صدر في سنة ١٩٢٥ على أثر ظهور جماعة في السودان دعت الى اباحة التزوج بالمحارم فوضعت المادة ٤٣٥ خصيصاً لمنع مثل ذلك المبدإ الفاسد من الانتشار فعدَّت الزنا بالمحارم جريمة عقوبتها الحبس لغاية سبع سنين وبالغرامة ايضاً والمحارم من جهة الرجل هنَّ ابنته وحفيدته وامه وأية أنثى اخرى من اصوله او فروعه الاناث واخته وابنة أخيه وابنة اخته وعمته وخالته . ومن جهة المرأة ابنها وحفيدها وأبوها وأي واحد من اصولها او فروعها الذكور وأخوها وابن اخيها وابن اختها وعمها وخالها — فيعاقب الرجل الزاني والمرأة الزانية كلاهما . وهذه الجريمة لا مثيل لها في غير السودان

« لها تتمة »

أقمرٌ عاشرٌ للمشتري

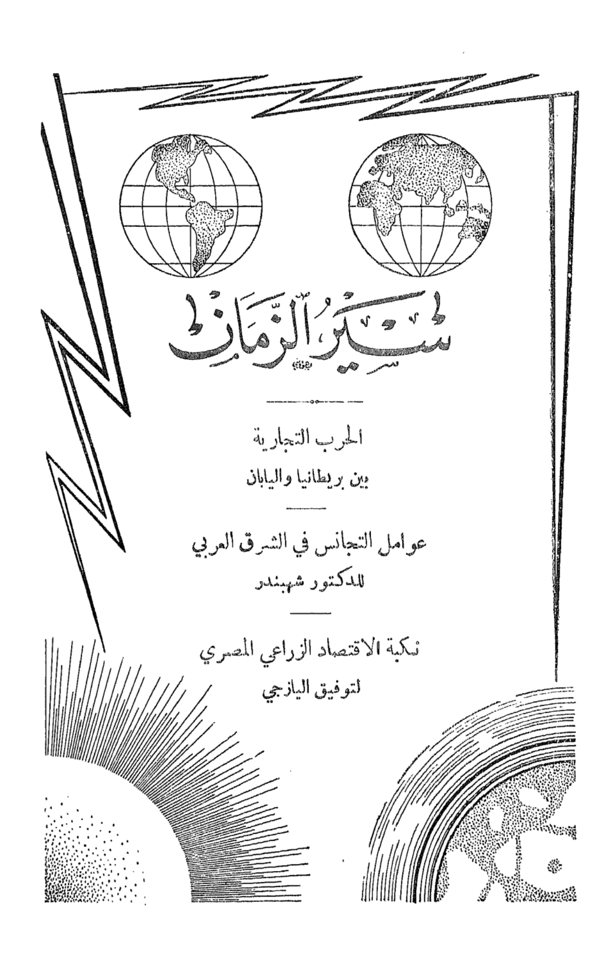
في انباء الدوائر الفلكية ان الدكتور جفرز Jeffers احد علماء مرصد لِك كشف عن جسم على مقربة من المشتري قد يثبت انهُ قمرٌ عاشرٌ لأكبر السيارات . ذلك ان الدكتور جفرز كان يصوّر قمر المشتري الثامن فشاهد في صورهِ جرماً يتحرَّك حركةً يومية تشبه حركة القمر الثامن . وهو صغير خافي النور من القدر التاسع عشر لا يرى الأَّ باكبر النظارات الفلكية . وقد اذيع هذا النبأ من مرصد هارفرد الى مراصد العالم لكي يتعاون الفلكيون على تحقيقهِ ، ومعرفة هل هذا الجرم قمرٌ عاشرٌ للمشتري او نجيمة

فاذا صحَّ ان هذا الجرم قمرٌ عاشرٌ للمشتري ، كان هو والقمران الثامن والتاسع ، من اعجب الاجرام في النظام الشمسي . ذلك ان الاقمار السبعة الاولى التي تدور حول المشتري تدور من الغرب الى الشرق في جهة دوران السيار نفسهِ حول الشمس وجهة دوران القمر حول الارض واما الاقمار الباقية اي الثامن والتاسع والعاشر ، فتدور من الشرق الى الغرب في جهة مضادّة لجهة دوران الاقمار الاخرى وجهة دوران السيار حول الشمس وهو « نكوص » في عرف الفلكيين

والمشهور ان غليليو هو اول من كشف عن اقمار المشتري الاربعة الاولى ، يوم وجَّه نظارتهُ الى المشتري في يناير سنة ١٦١٠ . ولكن يقال ان فلكيًّا المانيًّا يدعى سيمون ماريوس شاهدها في السنة السابقة وانما لم يدرك ما هي هذه الاجرام ، حتى أذاع غليليو ما كشف

وظلّت اقمار المشتري المعروفة اربعة ، حتى كشف الاستاذ ادورد بارنرد في مرصد لِك الاميركي القمر الخامس سنة ١٨٩٢ وتلاهُ علماء هذا المرصد نفسهِ فكشف الدكتور پرين القمر السادس والسابع سنتي ١٩٠٤ و١٩٠٥ . اما القمر الثامن فكشفهُ الدكتور ميلوت احد علماء المرصد الملكي بمدينة غرينتش سنة ١٩٠٨ ثم كشف العالم نيكلصن من علماء مرصد لِك كذلك ، القمر التاسع سنة ١٩١٤ . وهذا هو العاشر على ما يُظَنّ

ومن غريب ما يعرف عن هذه الاقمار التفاوت في اقطارها . فالاقمار الاربعة الاولى يكاد كلٌّ منها يكون من حجم قمر الارض . على ان ثانيها (قطرهُ ٢٠٠٠ ميل) اصغر قليلاً من الثلاثة الباقية (قطر اكبرها ٣٥٠٠ ميل) ولولا قربها للسيار لاستطعنا رؤيتها بالعين المجرَّدة . ولكن ضياءَ السيار يغمرها ويطغى على ضيائها . اما القمر الخامس فقد لا يزيد قطرهُ مائة ميلٍ ويدور حول السيار في ١٢ ساعة وهو اسرع الاقمار دوراناً حول المشتري على ما نعلم . واما الاقمار الباقية فتتباين اقطارها من مائة ميل الى ١٥ ميلاً وهو قطر القمر التاسع


سير الزمان
الحرب التجارية
بين بريطانيا واليابان
عوامل التجانس في الشرق العربي
للدكتور شهبندر
نكبة الاقتصاد الزراعي المصري
لتوفيق اليازجي

الحرب التجارية بين

بريطانيا واليابان

تقلّص تجارة بريطانيا وبواعثها

تكهّن غلادستن في اواخر القرن التاسع عشر بمستقبل بريطانيا التجاري فقال : « اميركا وحدها ، تستطيع اذا آن الاوان ، ان تنتزع منا سيادتنا التجارية ، والراجح انها تفعل » . كانت اليابان في ذلك العهد بقعة لا شأن لها على الخريطة الجغرافية . دع عنك خريطة العالم الاقتصادية . وكانت بلادها ما تزال في عرف المثقفين بلادَ الشمس الطالعة والربيع الزاهي والفنون اللطيفة والبنات الرواقص . فما كان سياسي بريطاني يستطيع حينئذٍ ان يتصورها ، وقد أصبحت بعد نصف قرن من الزمان ، الامة التي تلي الامة الاميركية في شدة منافستها لسيادة بريطانيا التجارية . ونحن اذا قابلنا بين اميركا واليابان ، وجدنا الأولى تفوق الثانية في مصادر الثروة الطبيعية واسباب القوة المالية . بل ان اليابان ازاء اميركا من هذه الناحية كالقزم امام الجبّار . على ان ذلك لا يمنع ان تكون اليابان مصدر قلق لبريطانيا من حيث منافستها لها في بعض ميادين الصناعة

واذا نحن نظرنا الى الموضوع نظرة عامة ، وجدنا ان اميركا قد تفوّقت على بريطانيا في صناعات الحديد وما اليها وهي ما يعرف «بالصناعات الثقيلة» Heavy Industries . ففي هذا الميدان لا تخشى بريطانيا من اليابان شرًّا . على ان ما تخشاه بريطانيا من اليابان ، انما هو منافستها لها في بعض الصناعات الخفيفة كصناعة نسيج القطن والصوف ، وهي من الصناعات الاساسية التي بنيت عليها عظمة بريطانيا التجارية ،وكانت حتى عهد قريب لا ينافسها في ميدانها منافس

***

كانت مصانع القطن البريطانية قبل الحرب الكبرى تحتوي على ٥٥ مليون مغزل . اي ثلث مغازل القطن في العالم . وفي سنة ١٩١٣ صدّرت انكلترا ٦٫٧٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يردة مربعة من المنسوجات القطنية وكانت مسيطرة على تجارة الاقطان في الاسواق العالمية . وكان عدد المغازل في مصانعها في سنة ١٩٣٢ خمسين مليوناً ، اي ان العدد الاول نقص خمسة ملايين مغزل ، وهو ليس نقصاً كبيراً . ولكن الصادر من المنسوجات القطنية الانكليزية في سنة ١٩٣٢ بلغ ٢٫٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يردة مربعة اي ان مقدار الصادر في سنة ١٩٣٢ نقص ٤٫٥٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يردة مربعة عنهُ سنة ١٩١٣ وهو نقص كبير

وهذا يبيّن لك ان المغازل الباقية في مصانع الاقطان الانكليزية كانت عاطلة خلال جانب كبير من سنة ١٩٣٢ لقلة الطلب على منتجاتها

وماذا تمّ لليابان في خلال هذه الفترة ؟ زاد عدد مصانعها القطنية من ٠٠٠ر٣٠٠ر٢ مغزل قبيل الحرب ، الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٨ مغزل في سنة ١٩٣٢ ومع ان عدد مغازلها في سنة ١٩٣٢ كان لا يبلغ الاّ ١٦ في المائة من عدد مغازل بريطانيا ، الاّ ان هذه المغازل انتجت في سنة ١٩٣٢ من المنسوجات القطنية ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٣٠ر٢ يردة مربعة ، وهو لا ينقص عما صدّرتهُ بريطانيا في تلك السنة الاّ ١٧٠ مليون يردة مربعة . وفي الشهور الستة الاولى من سنة ١٩٣٣ بلغ ما صدّرتهُ اليابان من المنسوجات القطنية ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٣٥ر١ يردة مربعة حالة ان ما صدّرتهُ بريطانيا بلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٨٣ر١ فكان الفرق بين بريطانيا واليابان ٤٨ مليون يردة مربعة فقط

ويمكن ان يقال بوجهٍ عام ان تجارة الصادر العالمية في المنسوجات القطنية تبلغ في السنة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر٥ يردة مربعة ، تصدر منها بريطانيا واليابان ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٣٠ر٤ ذراع مربعة في حصتين متساويتين او تكادان . اما الباقي وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ر١ يردة مربعة فتصدره الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من البلدان الصناعية

هنا مجال للتأمل . ثمانية ملايين مغزل في اليابان تنتج من المنسوجات القطنية قدر ما تنتجهُ خمسون مليون مغزل في بريطانيا . هل سبب ذلك ان معظم المغازل في بريطانيا عاطلة عن العمل ؟ او لانَّ صناعة المنسوجات القطنية في اليابان ، يشملها نظام أدق وأتم من نظام الصناعة البريطانية ؟

***

ان بلاد الهند هي اوسع الميادين التي تنافس فيها التجارةُ اليابانية والتجارةَ البريطانية . فبعد الحرب الكبرى اخذت التجارة اليابانية تغزو الاسواق الهندية التي كادت تكون من قبل احتكاراً لمصانع لانكشير وتجار منشستر . ففي سنة ١٩٢٩ استوردت الهند البريطانية ٦٦ في المائة من وارداتها القطنية من بريطانيا و٣٠ في المائة من اليابان . وفي سنة ١٩٣٠ نقصت حصة بريطانيا الى ٥٩ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٣٥ في المائة . وفي سنة ١٩٣١ نقصت حصة بريطانيا الى ٥٠ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٤٥ في المائة . وفي سنة ١٩٣٣ نقصت حصة بريطانيا الى ٤٨ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٥٠ في المائة ، اي ان ما استوردتهُ الهند في سنة ١٩٣٣ من بريطانيا بلغ ٦٠٠ مليون يردة مربعة من المنسوجات القطنية واما ما استوردتهُ من اليابان فبلغ ٦٤٥ مليوناً .

فكان تفوُّق اليابان على بريطانيا في سوق الهند ، باعثاً على القلق العظيم ، وحمل حكومة الهند في اغسطس سنة ١٩٣٢ على رفع الضريبة الجمركية على البضائع غير البريطانية (اي على البضائع اليابانية) من ٣١ في المائة الى ٥٠ في المائة ، حالة ان الضريبة الجمركية على الواردات القطنية البريطانية ظلّت ٢٥ في المائة

ومع فداحة هذه الزيادة رأت حكومة الهند ان تعلن حكومة اليابان عن طريق لندن، في ١٠ ابريل سنة ١٩٣٣ عن عزمها على انهاء المعاهدة اليابانية الهندية التجارية بعد انقضاء ستة أشهر، وفي هذه المعاهدة بندٌ يمنح اليابان حق معاملتها في الهند على قدم المساواة بالامم الاخرى. وكذلك مهّدت الطريق لزيادة الضريبة الجمركية على الواردات القطنية اليابانية الى الهند

وكان ميعاد انتهاء هذه المعاهدة في ١٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣

ولكن قبل انتهائها اصدرت حكومة الهند قانوناً يخوّل نائب الملك رفع الضرائب الجمركية على الواردات الاجنبية، عند الاقتضاء، حماية للصناعة الوطنية وفي ٦ يونيو ١٩٣٣ زيدت الضريبة الجمركية على الواردات اليابانية القطنية الى الهند حتى اصبحت ٧٥ في المائة تقابلها ضريبة جمركية على الواردات القطنية من منشستر قدرها ٢٥ في المائة

ولم تكتفِ بريطانيا باستنهاض الهند بل حركت اصبعها في بلدان مختلفة لمكافحة البضائع اليابانية ففرضت مصر في ١٤ مايو ١٩٣٣ على الواردات ضريبة اضافية قدرها ٣٥ في المائة. وفي ١٥ مايو اعلنت حكومة لندن انتهاء المعاهدة التجارية بين اليابان وغرب افريقية البريطانية بعد سنة من ذلك الاعلان. وفي ١٦ يونيو رفعت مستعمرة المضائق Straits Settlements الضريبة الجمركية على الواردات اليابانية. وفي ٢٦ يونيو اقتفت مقاطعة شرق افريقية البريطانية أثرها. وفي ٢٩ يونيو أقرت استراليا قانوناً لمقاومة غمر الاسواق Anti dumping على ان يبدأ تنفيذه في ٥ دسمبر سنة ١٩٣٣

***

ومع ذلك فمقام بريطانيا في اكبر هذه الاسواق، اي السوق الهندية والسوق الاسترالية—ليس من المنعة بحيث يتصوّر المتصوّرون

خذ مثلاً على ذلك السوق الهندية :

في السنوات العشر التي انقضت بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٣١ ابتاعت اليابان من الهند ما متوسطهُ ١٦٠٠ مليون باله قطن كلّ سنة ثمنها ٢٤٠ مليون ين. فاذا ردّت اليابان على محاولات بريطانيا بمقاطعة القطن الهندي، بار القطن الهندي وخرب زرّاعه. فينجم عن ذلك ان مقدرة الهند على شراء بضائع لنكشير تضعف. وكذلك تخسر بريطانيا بحيلولتها بين اليابان والسوق الهندية. ولا حلّ لذلك الاّ ان تقبل منشستر على القطن الهندي فتحلُّ محلّ اليابان في ابتياعهِ. ولكن لنكشير لن تبتاع القطن الهندي في الغالب. ذلك ان لنكشير كانت تستورد مقادير كبيرة من قطن الهند في القرن الماضي فشجع ذلك الزرّاع الهنود على توسيع نطاق زراعتهِ. فلما اقبلت الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الاميركية على زراعة القطن تحوّلت لنكشير من استعمال قطن الهند الى استعمال القطن الاميركي. ولولا أن تنجد المصانع اليابانية الزرّاع الهنود بشراء قطنهم لحلّ الخراب بهؤلاء. وقد تعنى بريطانيا

الآن بالعودة الى استعمال القطن الهندي رغبةً في استعادة مقامها في السوق الهندية . ولكن ذلك غير مرجَّح . لان عمال المصانع الانكليزية وقد تعوَّدوا غزل القطن الاميركي ونسجهُ — وهو ادق الياقاً من القطن الهندي — يرفضون استعمال القطن الهندي مدَّعين انهُ غير صحي . ثم ان مصانع لنكشير مجهَّزة بالآلات اللازمة للنسج الدقيق ولا تصلح لاستعمال القطن الهندي الا اذا طرأ عليها تغيير كبير

فالحيلولة بين البضائع اليابانية والسوق الهندية ، يصدق عليهِ مثَل الرجل الذي قتل اوزة تبيض بيضةً من ذهب . ففي العشرين السنة الاخيرة ابتاعت اليابان من الهند خامات يفوق ثمنها ثمن ما ابتاعتهُ الهند من اليابان بنحو ٢٦٠٠ مليون ين . وفي الفترة نفسها باعت انكلترا الهند بضائع تزيد قيمتها على قيمة ما اشترتهُ انكلترا من الهند بنحو ٢٣٠٠ مليون ين . اي ان اليابان كانت تفرغ في الهند في كل سنة من سنوات تلك الفترة ما متوسطه ١٣٠ مليون ين ، حالة ان بريطانيا كانت تأخذ من الهند في كل سنة من سنوات هذه الفترة ، ما قيمته ١٦٠ مليون ين . واذاً نستطيع ان نقول ان الهند بوجه عام ، تسدد لانكلترا بما تأخذه من اليابان . اي ان ميزان التجارة بين الهند واليابان في الفترة المذكورة كانت في جانب الهند ، وأما ميزانها بين الهند وبريطانيا فكان في جانب بريطانيا . فاذا توقفت اليابان عن ابتياع خامات الهند ، نقصت تجارة بريطانيا في السوق الهندية ، لنقص قوة الشراء في الشعب الهندي

ولا ريب في ان هذه الحقيقة حملت حكومتي الهند ولندن على الاتفاق مع اليابان في ٨ يناير سنة ١٩٣٤ ، بعد مفاوضات دامت اربعة اشهر على ما يأتي : يسمح لليابان بتصدير ٤٠٠ مليون يردة مربعة الى الهند كل سنة — وهذا الرقم ينقص عما صدرته اليابان الى الهند في سنة ١٩٣٢ بنحو ١٠٠ مليون ذراع مربعة — على ان تشتري اليابان من الهند ما لا يقل عن ١٥٠٠ مليون بالة قطن — وهو اقل مما اشترته سنة ١٩٣٢ بمائة الف بالة — وقدتمَّ الاتفاق كذلك على ان تفرض حكومة الهند ضريبة جمركية على واردات اليابان قدرها ٥٠ في المائة وتبقى الضريبة الجمركية على الواردات الانكليزية الى الهند ٢٥ في المائة . ومدة هذا الاتفاق ثلاث سنوات

والراجح انهُ لو لم يتم الاتفاق لقاطع اليابانيون القطن الهندي ، وفقاً لقرارٍ اتخذته جماعة غزالي القطن اليابانيين في ١٣ يونيو سنة ١٩٣٣ والانكليز يعتقدون ان اليابانيين لا يستغنون عن القطن الهندي ، الا ان اليابانيين يرون غير ذلك . وفي رأيهم ان القطن الاميركي يحل محل القطن الهندي ، على ان يخلط بقطن قصير الشعرة يستصدر من ايران والصين وتركيا وغينيا الجديدة . والطرق التي يستعملونها لخلط الاقطان سرٌّ من اسرار الصناعة اليابانية وقد برع فيهِ اليابانيون براعة عظيمة . والعقبة الوحيدة في سبيل ذلك غلاء سعر القطن الاميركي بالمقابلة مع سعر القطن الهندي

هذا عن الهند . أما استراليا فوقفها شبيه بموقف الهند من هذه الناحية

ان تربية الغنم في استراليا كزراعة القطن في الهند . واليابان تستورد من الصوف الاسترالي كل سنة مقداراً تزيد قيمته بنحو ١٠٠ مليون ين على ما تصدره اليابان الى استراليا ففي سنة ١٩٣٢ بلغ ما ابتاعته اليابان من خامات استراليا ١٣٤مليون ين

وبلغ ما باعته من بضائعها في السوق الاسترالية ٣٦ مليون ين . والصوف كما لا يخفى هو مادة التصدير المقدَّمة في استراليا . ومع ذلك اضطرت استراليا ، ان ترفع الضريبة الجمركية على الورادات اليابانية اليها ، وفقاً لاتفاق اوتوى الامبراطوري . فهي كذلك تقتل بعملها هذا الاوزة التي تبيض بيضاً من ذهب . اذ ما يكون مصير صناعة تربية الغنم في استراليا ، اذا اعرضت اليابان عن الصوف الاسترالي وأقبلت على الصوف الارجنتيني ؟ وأصحاب المصانع اليابانية واثقون كل الثقة من انهم يستطيعون ان يفعلوا ذلك ،وان ما يقوم في وجوههم من الصعاب يستطيعون التغلب عليه

ولعلَّ خشية استراليا من مقاطعة اليابان لصوفها ، حملها على تعيين ممثل دبلوماسي في طوكيو مثل ممثل كندا في وشنطن . وفي الانباء الاخيرة ان استراليا قد زادت ما تستورده من اليابان . وفي اوائل هذه السنة ذهب وزير خارجية استراليا الى اليابان لمفاوضة حكومته في الشؤون التجارية

***

هذا هو التحدي الذي يوجهه الشرق الى الغرب . ففي بريطانيا نظام صناعي قديم . حالة ان نظام اليابان لا يرتدّ الى اكثر من خمسين سنة على الاكثر . فالمصنع الكبير الاول الذي بني في اليابان لصناعة نسج القطن بني سنة ١٨٦٢ وكان فيه خمسة آلاف مغزل . وفي سنة ١٨٦٨ كان في اليابان ٣٠٠ مصنع أما في سنة ١٩٣٠ فقد كان فيها ستون الف (٦٠٠٠٠) مصنع

والفرق الكبير بين النظامين ان مستوى المعيشة في بريطانيا أعلى منه في اليابان . فنفقات الصناعة أعلى . خذ مثلاً العمال البريطانيين الذين يشتغلون في مصانع الجوارب . فالرجل منهم يأخذ اجراً قدره اربعة جنيهات في الاسبوع. والسيدة تأخذ أجراً قدره يختلف من جنيهين الى جنيهين و ٢٥ قرشاً . يقابل ذلك في اليابان ان الرجل يتناول أجراً قدره ١٢ شلناً في الاسبوع والسيدة ستة شلنات . ولكن من الخطاٍ ان نحسب ان العامل الياباني ، يرهق في العمل لقاء اجر قليل . فالعامل الياباني يكتفي بالاجر الذي يتناوله ويعيش به عيشه ترضيه . فمسألة الاجور مسأله نسبية

واذاً لا يكفي ان نعمد في تفسير تفوق اليابان على بريطانيا ، الى القول بأنها تغرق الاسواق وتقلد الماركات المسجلة . قد يكون شيء من هذا قد وقع في بعض النواحي ، ولكنهُ لا يفسر الاكتساح الذي اكتسحت به تجارتها تجارة بريطانيا في الاسواق العالمية

ونحن اذا تغلغلنا الى صميم الموضوع ، في تقصينا ، وجدنا ان الاسباب التي منحت اليابان هذا التفوق تقسم الى قسمين . اسباب وقتية، واسباب دائمة

فمن الاسباب الوقتية الازمة العالمية ، وتأثيرها في هذه الناحية عجيب . ذلك أن الازمة العالمية قد نقصت مقدرة الناس الشرائية ، فأصبح اكثر الطلب في انحاء العالم على البضائع الرخيصة . ولما كان معظم ما تخرجهُ المصانع اليابانية من هذا الصنف كثر الطلب عليهِ واتسع نطاق تجارتها به ، ويظن احد كتاب السبكتاتور ، ان مقدرةالناس الشرائية في بعض البلدان قد تقلصت ،حتى ليتعذر على الناس فيها ان يشتروا البضائع البريطانية الغالية ، ولو انسحبت اليابان من ميدان المنافسة.يضاف الى ذلك أن هبوط سعر « الين » قد مكن اليابانيين من ترخيص بضائعهم وخصوصاً في البدء ، لما كانت مخازنهم لا تزال مكظوظة بمواد خام ابتيعت بالذهب

***

اما الاسباب الدائمة ، ففي مقدمتها ان اليابانيين ، عنوا من بدء سنة ١٩٢٩ باتباع خطة Rationalisation في صناعتهم ، أي اعادة تنظيمها ، بصرف النظر عن التقاليد ، وفقاً لاحكام العقل، حتى تقل نفقات الانتاج الى أدنى حد مستطاع . وهناك عامل آخر . فالمشهور ان اليابان كانجلترا تحتاج الى ان تبتاع كل غذائها من الخارج . وهذا على ما يظهر خطأ واذاً فسقوط سعر الين ، من حيث مقدرته على ابتياع الاغذية اللازمة لها من الخارج لا يهمها على الاطلاق . وعليهِ ، تستطيع ان تستعمل كل الاموال التي تبيع بها صادراتها في الخارج، لشراء المواد الخام لمصانعها . أما في انكلترا فاكبر جانب من ثمن بضائعها الصادرة يستعمل لابتياع الطعام . وما دامت الاطعمة التي تنتجها بلاد اليابان نفسها ، مماشية لزيادة السكان فيها ، فمقامها الاقتصادي ،كصانعة ومصدرة ، يظل قوياً كل القوة

صحيح انهُ من المتعذر الآن ، التنبؤ بما تكون عليهِ نقود الامم بعد سنة او بعد خمس سنوات. وهل تبقى لليابان هذه الميزة التي يمنحها اياها هبوط « الين » ولكن الامر الذي لا ريب فيهِ انهُ اذا استقرّت العالم ، ظلّ في نظام الصناعة اليابانية ، عناصر تجعل لليابان ميزة على بريطانيا ، وعلى الدول الصناعية في الغرب بوجه الاجمال

يضاف الى ذلك عامل نفسي له شأن كبير . فالعامل البريطاني ، لا يحسب الصناعة همه الاول والتاجر البريطاني كذلك . بل ينصرفان الى مطالب الحياة الاخرى ، في الرياضة او الفن أو العلم او المطالعة او غيرها . ولكن العامل الياباني ، يحسب الصناعة او التجارة همه الاول ، لان لا حياة لامتهِ من دونهما فينصرف اليهِ بعزم يفل الحديد . وقد يفضل الغرب الشرق من هذه الناحية لان للحياة مطالب أعلى من مطالب النجاح المادي ، ولكن هذه الصفة على كل حال ، مهما يحسن الظن بها ، لا تساعد الغربي في ميدان المنافسة الدولية ؟

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

عوامل التجانس

الذي تبنى عليه وحدة الأمم

لقد جعلنا التجانس المحور الذي تدور عليه الوحدة السياسية في الامم ، فلا امة حيث لا يرتبط الافراد برابطة التشابه والتماثل ، ولا نعرف سياسيًّا عبّر عن هذا التجانس بقاعدة قريبة من قواعد العلوم الحسية الرياضية مثل بسمارك داهية الالمان فقد جعل القاعدة التي تقوم عليها الامبراطورية الجرمانية ما يأتي وهي : « طاقة النموذج البرومي على اهتضام العناصر الجرمانية الاخرى وتمثيلها » لما بينهُ وبينها من اسباب التشابه والاتصال

وتبوّب هذه العوامل على الطريقة الآتية :

(اولاً) احتلال بقعة جغرافية منضمة ، لان شأن القطر الواحد في سبك سكانه امةً هو مثل شأن البيت في سبك اهله اسرةً . فنزول قوم بارض يستنشقون هواءها ويشربون ماءها ويتدفأون بشمسها ويتمتعون بمناظرها ويتعاونون على استخراج خيراتها يقرب شقة الخلاف فيما بينهم ويساعدهم على التجانس في الافكار والاوضاع ؛ ذلك ان اتصال الجمعية البشرية بمحيطها الطبيعي واعتمادها عليهِ هو اتصال مباشر ، وقدماً عرف الناس ان المرء ابن الارض التي ينبت فيها ، واهتمام الامة بان تكون الارض التي تعيش عليها منضمة معروفة الحدود غير متداخلة في غيرها يفسر لنا احتجاج الالمان الصميم على ما احدثتهُ معاهدة (فرساي) من اقامة (المجاز البولوني) بين بروسيا الشرقية وبروسيا الغربية . ومثل هذا الباعث يحمل الارلنديين على مقاومة كل جهود لاقرار دولة (ألستر) في شمال جزيرتهم مع كل ما قيل من تلك الفروق الواهية بين اهل الشمال والجنوب ، ونحن اعرف الناس بمن لا يرضى ان يتحد البروتستانت والكاثوليك هناك ، بل ان يبقى الخلاف بينهم على سلطة البابوية الروحية الى الابد ، لاننا خبرنا في سورية من لا يرضى ان يتحد السني والشيعي فضلاً عن المسلم والنصراني . وما تلك الدويلات الخرافية التي احدثتها يد الاستعمار في الوطن الغالي الأ محاولة لتمزيق شمله بتمزيق وحدة ارضه ؛ بل ان انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين يبغي في جملة ما يبغيهِ من الغايات السياسية اقامة حاجز اجنبي بين اجزاء البلدان العربية لاضعاف صلتها الجغرافية

وكما لا تعيش اسرة من غير بيت تنضم تحت سقفه كذلك لا تعيش امة من غير وطن تأتلف فوق

ارضه . وان قواعد الحقوق الدولية الحاضرة كما قال (لورنس) تتخللها فكرة السيادة الارضية الى درجة انكل هيأة سياسية لم تستقر على بقعة من سطح الارض تمتلكها وتتصرف فيها تصرفاً مشتركاً لا تستطيع الانتفاع بالقانون الدولي[1] وقد كان اغتصاب الاراضي من اصحابها في ازمنة التاريخ باعثاً من أقوى البواعث على الحرب والانتقام ، ونرى اثر ذلك في البوادي التي لا يظن انها ملك احد عادة اذ يقع العراك فيها لاجل الآبار والمراعي ،وكلما استقرت الامم واستبطر عمرانها ارتبط تاريخها بالارض التي نبتت فيها بحيث تصير سواقيها وانهارها وجبالها واغوارها حتى كثبان رمالها رمزاً لكل عزيز ومقدس ومبجل

(ثانياً) العامل الثاني (القرابة) او (وحدة النسب) :

ان علائق النسب بين الام وابنائها وهي اقدم قرابة عرقية كانت الاساس الذي قامت عليه الرابطة الاجتماعية منذ انبثاق فجر البشر ، ولا تزال العامل الاكبر في تعيين الاخوة في الجماعات الابتدائية . وتنقسم قبائل البدو في ايامنا الى بطون وافخاذ جرياً على هذه القرابة الطبيعية الحيوية بيد ان البحوث المقابلة في الحيوان لا تمنح هذا الاتصال في الاصلاب والابدان غير شأن مؤقت ، فالاشبال مثلاً تتعامل فيما بينها تعامل الاخوة ما دامت تعيش في عرين واحد وترضع من طبي واحد ، ولكن متى اضطرتها مصالحها الفردية الى البحث عن طعامها وما تتطلبهُ اجسامها من المطالب الحيوية بطريقتها الخاصة انقطعت عن الاسرة وغادرت المكان الذي ولدت فيهِ ولم تعد تعرف امها ولا اخوتها بالامس بل اذا صادفت احداً منها عرضاً في الطريق عاملتهُ معاملة العدو المزاحم . ولو بقي هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً خلواً من الميزات التي جعلتهُ انساناً — من اللغة والعقيدة والعاطفة والفكرة وسائر الملكات الاجتماعية التي اكتسبها في حجر ابويه وبين اخوته — ما اختلفت هذه القرابة فيهِ عن الحيوان اختلافاً بيّناً ، ولكن الذي اكسبها هذا الشأن في الاقوام على اختلافها — حتى في الاقوام الراقية المعاصرة — كما هو الحال في المانيا النازية اليوم وما صنعتهُ من تمييز الجنس الآري للخلاص من اليهود الساميين — هو ان مهد القرابة في حجر الآباء والامهات هو مهد الاتحاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي أيضاً ، ففي هذا المهد يتلقن الانسان اللغة ويمارس شؤون الحياة العملية وتتربى فيهِ الملكات الاجتماعية مما يحمله على الظن ان هذه التحف المعنوية الثمينة التي زانت نفسه هي العرض ، وان القرابة الرحمية هي الجوهر ، مع ان الحال على عكس ذلك الى مدى بعيد ، ولا يعني هذا الكلام اننا ننكر بتاتاً شأن الوراثة السلالية القومية ولاسيما في السلالات المتباينة في الوانها بل نريد ان نقول ان البيض — خصوصاً الآريين منهم — افرطوا في تقويم هذه القرابة بالثمن الغالي كما افرط الانسان في تقويم الماس والياقوت والفيروز وسائر الاحجار الكريمة وان كانت هذه «المجوهرات» عند التحليل النهائي وفي الميزان العقلي المجرد لا تعدو ان تكون احجاراً فقط

(1) The Principles of International Law p. 58.

على ان الثمن الذي يضعهُ المجتمع للاشياء والاعيان اصطلاحاً هو ثمن شئنا ام أبينا ، ومعرفتنا ان الماس من الوجهة الكيموية مثلاً فحم لا تمكننا من شرائهِ بالارطال بل لا يزال يباع بالقراريط وانصافها وارباعها على رغم الصيغة التي تدوّن بها مادته في كتب الكيمياء

لا غرو ان الاقوام الناشئة تبحث عند سعيها لتأليف وحدتها عن عنصر القرابة ايضاً ، وهذا ما يشاهد في شعوب العالم العربي اليوم ، فما نسمعهُ من الضجة حول اصل السوريين والمصريين وسائر سكان افريقيا الشمالية هو ظاهرة من ظواهر هذا السعي الموفق ، فهذه المجموعة لا تكتفي بما بينها من عناصر الاتحاد الاجتماعي الوثيق من لغة وعقيدة وعادة وتاريخ ومصلحة بل تبحث عن تلك الرابطة البيولوجية ايضاً — رابطة الاعراق — فتجدها في الموجات السامية التي طغت من الجزيرة العربية على الانحاءِ في القرون الخالية وربما كان آخرها الفتح الاسلامي ، وهي ترى كيف انتقلت هذه الدماء الى الاقطار القريبة والبعيدة في آسيا وأفريقيا ، وهذا مما يساعد على تقوية الائتلاف الحاضر وتأييد الرابطة المنشودة وان لم يكن جوهريًّا كما يدل تأليف الولايات المتحدة من عناصر متباينة .

وغير نكير ان العرب الاقحاح حاولوا بعد الاسلام الاحتفاظ بأنسابهم ولكن دخولهم الامصار واختلاطهم باخوانهم في الدين من العرب والعجم وتزاوجهم كل ذلك ادَّى بهم الى اطراح اكثر هذه الأنساب — الاَّ ما بقي منها متعلقاً ببعض البيوت المقدسة وأشباهها كالبيت الهاشمي والبكري والعمري والعلوي الخ — ذلك ان الدين الاسلامي لا يفرق بين اتباعه الاَّ بالتقوى ، لاجرم اننا نجد القبائل العربية التي دوّخت فارس والروم اندمجت في البلدن التي فتحتها ، فما كان متيسراً لها من حفظ انسابها وهي نازلة بالبقاع المنقطعة في الجزيرة تعاني شظف العيش وتعجز عن تحمل فرد واحد آخر تزيد اعالته على ما عندها من الموارد الضيقة المحدودة ، اصبح متعذراً بعد نزولها الامصار وامتزاجها بمن اعتنق دينها وقبل ثقافتها . وفي عقيدتي ان كل محاولة لاتخاذ اية قرابة اقليمية خاصة في العالم العربي لتقف دون الروابط الوثيقة التي ذكرناها هي محاولة عقيمة محكوم عليها بالاخفاق في عصر الامم الكبيرة الذي نعيش فيه ولا تستند الى شيء من العلم ، وقد يكون الباعث عليها احقاداً خلفتها القرون الوسطى او اغراضاً استعمارية لا يطمئن بالها ما لم تر سكان الشرق العربي ممزقين الى فينيقيين وأشوريين وفرعونيين وبربر وعرب علاوة على تمزيقهم الى ملل ونحل لا يتسع لذكرها هذا المقام . وان تعجب لشيء فعجب ان تستعين قوى التاريخ الاجتماعية بالثقافة العربية منذ اربعة عشر قرناً لتجعل منا وحدة صحيحة فيأبى الممزقون من مستعمرين او متعصبين الاَّ ان يستعينوا بقوى البسطة الاوربية السياسية في القرن العشرين ليبلبلونا

لقد اتفق المستثمرون على آلة الهجوم فما بالنا ونحن الذين تنزف دماؤنا نختلف على آلة الدفاع؟

ومما هو حري بالتدوين اننا احصينا الزعماء النافذين في بعض البلدان التي قام من ابنائها نفر يصيح

حالياً بهذه الدعوة الاقليمية « الجاهلية » فوجدنا معظمهم من العرب الاقحاح الذين لا يختلف في نسبهم مؤرخان ولا ينتطح في عروبتهم عنزان ـ ناهيك بتلك العرى الوثيقة التي لم تغادر كبيراً او صغيراً الاَّ ضمته الى هذه الوحدة المقدسة

ثالثاً : ﴿ وحدة اللغة ﴾ نعتقد ان اللغة عامل من اقوى العوامل للتشابه بين الناس ، فقد دلت التتبعات الدقيقة في التدرج الاجتماعي على ان الثقافة العامة هي الاساس المتين الذي يشترك الافراد ـ كلٌّ بحسب قابليته ـ في بناء صرح الامة عليه ، ففي حجر القرابة الرحمية يتوارث الخلف عن السلف ثقافة معنعنة واحدة ، وفي رابطة الدين تنتقل العقائد من الواحد الى الآخر وينتقل معها الكثير من مقوّمات الثقافة ، ولكن في الاشتراك اللغوي المبني على التفاهم المباشر توحد هذه الثقافة ويكون الشبه القائم عليها شبهاً روحيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا في آن واحد ، ولم يعد المجتمع اسرة ولا فخذاً او بطناً او قبيلة بل اصبح يضم العناصر على انواعها تحت لواءٍ واحد من الثقافة هي ثقافة اللغة في الدرجة الاولى . وقد وجد اهل البحث في الولايات المتحدة حيث يكثر المهاجرون ان اهل اللغة الواحدة هم اقرب الى التفاهم والتضامن على اختلاف الدين والمذهب من اهل العقيدة الدينية الواحدة المختلفين في لغتهم الاَّ اذا كان المهاجرون لا يزالون في ثقافتهم على طريقة القرون الوسطى . ومن المسائل التي اتعبت الحكومة الاميركية ما اشار اليه « الموجز في علم الاجتماع » بقوله « والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جدًّا حتى انها لتلاحظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين .... واللغة هي وليدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار ، ومن ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي ردّ فعلها سبباً من الاسباب الداعية الى تكوين هذا المجتمع ونتيجة من النتائج الناجمة عنه »

ونحن باللغة نصور حالات النفس ، ونرسل على سلكها ادق مشاعرنا الى اعماق قلوب غيرنا وبها نقنع الخصم ونهذب الطبع ونستفز الحمية وننشر العلم ونهدي الضال وننير الطريق ، واللغة رحى اجتماعية تطحن العناصر وتمزج بعضها ببعض ولولاها ما كان اتساق ولا انسجم رأي عام ، فهي هي اساس التشابه الاجتماعي الذي تبنى عليه الوحدة الوطنية وهي هي اداة التنظيم العقلي الذي يكسب الامة ارادة عامة ، وقد احسن ارسطو كل الاحسان بتعريفه الانسان انه حيوان ناطق .

قال الاستاذ بايندر «وطاقة الناس على التكلم بلغة واحدة تعني إشتراكهم في اعمال أُخرى على نَمَطٍ متشابه وطريقة واحدة ، وتنتقل الملاحظات من الواحد الى الآخر بسبيل الكلام فكان متحتماً ان يعمل التلميذ مثل استاذه على اساس المحاكاة والارشاد . وهكذا يكون اتجاه عقلي متماثل يتجلى في الاعمال المتماثلة في كل دائرة من دوائر الحياة ، فتكون عروة الاتصال في الواقع عروة تطبيع لاعروة طبع ، ولكن هذه الحقيقة لبثت مجهولة زمناً مديداً . فاهتمَّ الناس خطأً بالانساب وصلة الارحام

بدلاً من ان يوجهوا عنايتهم شطر العنصر التهذيبي المتجلي في العلائق القائمة بين الناس على الادراك. ولا تزيد قيمة الانساب والاصلاب في الانسان عن قيمتها في الحيوان، ولكن الباسها حلة من القدر والقيمة جعلها رابطة من الروابط الاجتماعية (١)

رابعاً : ﴿ الوحدة الدينية ﴾ الاخوة الدينية جزء من الثقافة العامة ولها اثر فعال في جمع العناصر المتباينة ، وكان ذلك خصوصاً قبلما ظهرت الوطنية الحديثة بشكلها الزمني الشامل ، ولما كان الدين في القرون الوسطى الفارق الاعظم بين الناس ، وكان المجتمع قائماً من الاساس على انواع المعبودات التي يسجدون لها بحيث ينظر الى دين المرء أكثر مما ينظر الى لغته وعاداته وجنسه والاقليم الذي ولد فيه ، فكانت الحروب الخارجية تعان بين الجماعات لاسباب دينية كما هي الحال في الحروب التي أثارتها النصرانية لتحطيم الوثنية والثورة العالمية التي قام بها الاسلام للتوحيد والتنزيه عن الشرك ، والحروب الصليبية التي شنتها اوربا على بلاد الاسلام بحجة انقاذ القبر المقدس ، وهي ما فتئت تشنها حتى في القرن العشرين كما يستدل من قول اللورد اللنبي عن فتح فلسطين انه آخر حرب صليبية - لما كان ذلك كلهُ قائماً على اعتبارات يتعلق معظمها بالايمان وبالعبادة وبالموقف الخاص الذي يقفه المؤمن تجاه معبوده فلا غرو ان يقسم الخلق اجمالاً الى قسمين اثنين لا ثالث لهما قسم المؤمنين وقسم الكفار وان نعتبر ملة الكفر واحدة مهما اختلفت العقائد التي تدين بها ، وان يعامل « المؤمنون » معاملة فيها كل انواع التفضيل ، في حين يحرم الكفار من كثير من الحقوق حتى ما كان منها في بعض الاحيان جوهريًّا ، ويبدو الاثر الذي تحدثه هذه النظرية الى عصر متأخر في الكتب التي وضعها بعض المشترعين الاوربيين المتأخرين عن « حقوق الدول » وفيها حصروا التمتع بمزايا هذه الحقوق ومنافعها في العالم النصراني - دون العالم الاسلامي مثلاً - يعني ان الذي يقول « باسم الاب والابن وروح القدس » يحق له ان يجلس في قاعة الامم واما الذي يقول « باسم الله الرحمن الرحيم » فيبقى خارجاً !

وفي العلوم الاجتماعية الحديثة ان الدين هو احد الروابط التي تربط الناس بعضها ببعض من غير زيادة ولا نقصان - فالرأيان المتطرفان وهما رأي من يقول ان الدين لا شأن له اليوم في جمع الناس من جهة ، ورأي من يقول ان الدين هو العامل الوحيد في تأليف الجماعات من جهة اخرى ، كلاهما بعيد عن محجة الصواب ولا يؤيده العلم ، وحسبنا في تأييد ما للرابطة الدينية من قوة في دهماء الناس ان نبين هنا كيف تستغلها السياسية التوسعية لمصلحتها وتستعين بها على الجماعات كما تفعل فرنسا في سورية فاننا نراها هنــاك احرص على المذهب النصيري والدرزي من النصيريين والدروز أنفسهم . وليس في الاحداث السياسية بعد الحرب العظمى حدث بني على الرابطة الدينية - في الظاهر - مثل الوطن القومي الصهيوني في فلسطين ، فمثل هــذه التجربة الجريئة في بلاد لا يدين

(1) Major Social Problems, p. 207

أهلها باليهودية لا تليق بدولة تعيش في القرن العشرين ، ولو قامت مثل هذه الدعوة في بلاد شرقية متعددة الاديان لرمانا اهل اوربا بكل مذمة ولادعوا بأننا لا نزال على وضعة القرون المظلمة ، وليس في جميع الشرق اليوم دين حرماني ينصب الحواجز حوله عالياً كالصهيونية لأنها اضافت الى الوطنية المتطرفة تعصباً دينيًّا متطرفاً

وهل يوجد في جميع العالم سخيف واحد في طاقته ان يدعي ان مجرد هيام فرنسا بالدرزية وانكلترا باليهودية أدّى الى تأليف دولة الدروز في سورية والوطن القومي الصهيوني في فلسطين ؟

وكنا نحسب ان إرلندة في نهضتها الحديثة افهمت الانكليز خطر العبث بالاديان واتخاذها وسيلة للاغراض السياسية المادية ، فزرع البغضاء على هـذا النمط لا ينبت غير القلاقل في الاحوال العادية ، واما عند سنوح الفرص ـ في الحروب العامة واشتغال كل فريق بما يضمن له اسباب الحياة ـ فالخطر يتجاوز حدود الشرائع وقواعد الايمان

***

ونحن وان لم يخامرنا شك في قوة الدين الروحية وانها على جانب عظيم من الخطورة الاَّ ان نهضة الشعوب الحديثة في القرن الماضي وفي هذا القرن ـ نهضة الترك انفسهم وهم من صميم الشرق ـ حملتنا على لفت انظار القرّاء الى قول الاستاذ (بايندر) وما فيه من الحق الصريح حين وصفها بأنها «تفقد سلطانها حتى بين الشعوب الاكثر جهلاً في آسيا ، لانه لما اريد جمع المسلمين تحت لواء الجهاد المقدس لمقاتلة النصارى لم يطع اتباع النبي تلك الدعوة بل ان الكثيرين منهم قاتلوا خليفتهم على اساس وطنية استفاقت من غفلتها حديثاً . فالعرب مثل المسلمين الهنود اشتبكوا في حرب يقاتلون الترك باعتبارهم طورانيين . وفي يومنا هـذا تفوق الوطنية عداها البعيد وشأنها الخطير سائر روابط الاتصال بين الجماعات » (١)

(خامساً) خضوع مشترك حِقبةً من الزمن لحكومة نظامية ثابتة !

مهما قيل في الامبراطوريات العظيمة التي تتألف من عناصر متنافرة فان خضوع هذه العناصر لحكومة واحدة مدة من الزمن مديدة يقرّب شقة الخلاف الطبيعي فيما بينها من بعض الوجوه ويجعلها في كثير من امورها على نسق واحد . وقد كانت الامبراطورية النمسوية مثلاً على ذلك في الغرب الى ان مزقتها الحرب العالمية ، وكذلك كان حال الامبراطورية العثمانية ، فان حكومة الترك العثمانيين بعد استقرارها اجيالاً في الاستانة استطاعت ان تخلق من الترك والعرب والكرد والارمن واليونان والالبان على اختلاف الملل والنحل شيئاً من التشابه والاتساق على الرغم من دواعي التنافر

(1) Major Social Problems, p. 209

وبواعث الاحتكاك . فاذا كان هذا سلطان الادارة المستديمة في سبك العناصر المتنافرة فليت شعري ماذا يكون سلطانها في العناصر المتجانسة في طبعها وطبيعتها وثقافتها ؟ ولا مراء ان ذاك الوضع الديني السياسي الذي خلفته القرون الوسطى وهو وضع البابوية في النصرانية والخلافة في الاسلام كان له الاثر الفعّال في سبك (المؤمنين) وطبعهم على غرار واحد . وغير نكير ان البابا كان في بعض الاحيان في وكر كما كان الخليفة في قفص ولكن الوضع الذي مثلاه كان ممتدًّا الى اقاصي المعمور ، ولئن تجلى هذا الامر الروحي السياسي بأتم مظاهره في القرون الوسطى فذلك لان العقيدة الدينية تناولت حياة البشر في تلك الاجيال من جميع الوجوه فقد عاش الناس يومئذٍ في الدين واكلوا في الدين وشربوا في الدين وماتوا في الدين وعملوا سائر اعمالهم في الدين كما يتضح من التلاوات والاوراد والشعائر التي كان يقوم بها الفرد منذ ما يصبح في فراشه الى ان يعود اليهِ في الهزيع الاول من الليل. ويعجز القلم عن تبيان الخدمات الجلّى التي أدّتها العقيدة الدينية لتنظيم اكثرية عظمى من الناطقين بالعربية تنظيماً روحيًّا عقليًّا اجتماعيًّا واعدادهم للتفاهم ، لان الشرط الاول في تأسيس الدولة الثابتة هو احداث نواة من التجانس صالحة للارتكاز والتجمع ؛ ولولا هذه النواة المؤلفة من الاكثرية لادّى التنافر والتشاكس بين العناصر المتكافئة الى الفوضى والتفتت . ومن بعد ما تألفت هذه النواة صار في الميسور الانتقال الى الطور الاجتماعي التالي وهو طور الوحدة السياسية، ففي هذا الطور تتسع اسباب التشابه بحيث تصير الثقافة العامة – بصرف النظر عن العقيدة الدينية والمذهبية – اساس اجتماع الكلمة ، فيكون للوضع الديني السياسي المزدوج في القرون الوسطى والحالة هذه القدح المعلّى في اعداد الشعب على اختلاف ملله ونحله للانتظام الحديث والمضي في طريقة سياسية تضمن للجميع اخوة ومساواة من غير تفريق ، لان وحدة من غير اكثرية أساسية سابقة يقوم عليها البناء السياسي وتلتفُّ حولها الاقليات مع احتفاظها بخصائصها هي وحدة الاحلام ، ويعمل القبط اليوم وهم من صميم النصارى مع اخوانهم المسلمين لرفعة شأن مصر اعمالاً تسجل بمداد الفخر وهي درس بليغ يجب ان يتلى على مسمع من شغلتهم السفاسف القروسطية والتعصبات البالية عن انقاذ بلادهم من مراشف المستنزفين وبراثن المستعمرين

(سادساً) : اشتراك في المصلحة الاقتصادية وتماثل في المهن والحرف وما ينتظر لها من ثمرات

(سابعاً) : «اشتراك في تقاليد عامة وفي ذكريات من آلام مرّت وانتصارات تمت وهي تبدو في الاغاني والاساطير والاسماء الغالية لشخصيات عظيمة تتجلى فيها ميزات الامة ومثلها العليا وكذلك في اسماء الامكنة المقدسة حيث الذكرى الوطنية العامة مدفونة في كعبة يحج اليها القوم» وقد قال الاستاذ (رمزي ميور) عن هذا العامل انهُ اقوى العوامل التي تسبك الافراد امة وانهُ لا يمكن الاستغناء عنهُ ، مما يدلّ على انهُ يرى الوطنية كما يراها سائر الكتّاب المحققين شعوراً داخليًّا وفيضاً معنويًّا وهذا ما سنزيده ايضاحاً في المقال الآتي

نكبة الاقتصاد الزراعي المصري

ازمة وسائل النقل

لتوفيق البازجي

اجمع الاقتصاديون في العالم كلهِ على ان الازمة التي تعانيها جميع الامم هي ازمة شبع لا ازمة جوع وقد جمعت من المتناقضات ما تشمئز منهُ النفس البشرية . فالقمح يتلف في استراليا وكندا واميركا الشمالية. ومع ذلك يقدر عدد العاطلين والاسر المرتبطة بهم بنحو خمس الجنس البشري على الأقل وجميع هؤلاء العاطلين في حاجة الى القوت الضروري . وتهلك اميركا وبلاد السكندناف الخنازير وغيرها من حيوانات اللحوم لكي تصون سعر اللحم في السوق مع ان عشرات الملايين من الفقراء والعاطلين لا يجدون الخبز فضلاً عن اللحم . وتبادر جميع البلاد الزراعية الى تحديد الانتاج من القمح والسكر والقطن ولو تركت الاراضي بوراً مع ان ابناء الانسانية الفقراء الذين يعدون بمئات الملايين يحتاجون الى الطعام والملابس ولكنهم لا يجدون سبيلاً الى الحصول عليها

على ان هذه الخدمة العظمى التي تؤديها الدول المنظمة القوية لارباب رؤوس الاموال لا يمكن ان تدوم طويلاً لأن ناموس الاقتصاد الطبيعي لا بدَّ ان يفعل فعله فيتطور الزمن وتتبدل الاحوال والآراء ويسير الاصلاح سيره شيئاً فشيئاً . ونحن نشهد هذا السير الآن وان كان بطيئاً . فالامم التي تنتبه لهُ وتبادر الى تكييف حياتها الاقتصاديه تكييفاً منطبقاً عليهِ تستطيع ان تنجو بنفسها من حكم الطبيعة القاسي وتجاري الامم الاخرى في مضمارها الجديد

***

وفي طليعة الحقائق التي ينبئنا بها سير العالم الاقتصادي الحالي هبوط اثمان الحاصلات الزراعية ونزول اثمان المصنوعات في اثرها . فقد ارتقى العلم في هذا العصر ارتقاء شمل الانتاج الزراعي من جميع نواحيه كما شمل كل شيء آخر ، فأصبحت آلة صغيرة لا يزيد ثمنها على بضع مئات من الجنيهات قادرة على انتاج محصول لم يكن ينتجه من قبل سوى مئات من الايدي العاملة . وتقدمت وسائل النقل وتنوعت فهبطت الاجور وترتب على ذلك كثرة الانتاج وترتب على كثرة الانتاج هبوط الاسعار فضعفت قوة الشراء في البلدان الزراعية . ولما كانت هذه البلدان تستهلك الجانب الاعظم من مصنوعات المعامل فانهذه المصنوعات لم تجد اسواقاً لاستهلاكها لان ثمنها اعلى من القدرة العامة

على الشراء ولم يكن في وسع المعامل تخفيض الاجور تخفيضاً يذكر لان العمال منظمون ومستعدون للاضراب عند تخفيض اجورهم . ومن هنا نشأت الازمة الصناعية واستفحلت البطالة واستطاع بلد كاليابان رخصت فيه أجرة العامل ان ينتهز هذه الفرصة ويغمر اسواق العالم بمصنوعاته . ويضيف الى رخص اجرة العامل اتقان التنظيم الصناعي وتخفيض سعر العملة

فاليابان في مقدمة الدول التي استطاعت تكييف الانتاج وفاقاً لحاجة الزمن ولذلك لا نرى فيها من الازمة ما نراه في غيرها . فالازمة تعظم او تضعف بقدر ما تنتبه الامة الى تكييف احوالها ومراعاة التطور الاقتصادي الجديد في العالم

***

اما مصر فقد تكون في مؤخرة الامم المنتجة التي تنتبة الى هذه الحقائق اذ ما زالت تكاليف الانتاج فيها كما كانت قبل الازمة . ولو لم تخفف الحكومة وطأة هذه التكاليف بتخفيض ضريبة القطن وبمنح الاعانات لتصدير القمح والفول والارز وبتسهيل التسليف الزراعي وبتخفيف بعض الضرائب لاصيب هذا القطر بكارثة كبرى

ولكن جميع هذه التدابير ليست علاجاً بل مسكناً وقتيًّا من ألم الازمة . اذ ما زالت تكاليف الانتاج موازية لثمن المحصول . فالقطن لا يباع الآن بربح يذكر . والقمح لا يمكن ان يبلغ سعره الحالي لولا الرسوم الجمركية الفادحة المفروضة على القمح الاجنبي . فالربح منهُ ليس ربحاً اقتصاديًّا بل عبارة عن مبلغ تأخذه الحكومة قسراً من جيوب جميع السكان في مصر وتمنحهُ لزراع القمح الذين لا يستطيعون ان ينتجوه ويبيعوه بالسعر الذي يباع بهِ قمح البلدان الاخرى . ولولا اعانات التصدير الكبيرة التي انفقت على الفول والارز لما كان من الممكن اصدار شيء منهما ولهبط سعرهما الى اقلّ من تكاليف انتاجه الحالية كما رأيناه ذلك فعلاً في وقت من الاوقات

فالخطة الوحيدة التي يجب اتباعها لجعل الاقتصاد الزراعي المصري عملاً منتجاً رابحاً بذاته هي تخفيض تكاليف الانتاج وزيادة غلة الفدان . واود ان اقصر كلامي في هذا المقال على الشق الاول لانهُ في نظري من المهام التي يسهل الاضطلاع بها في الحال بدون حاجة الى عناء كبير او نفقات كثيرة

***

وفي مقدمة تكاليف الانتاج اجرة اليد العاملة واثمان البذور والسماد والضرائب واجور النقل. اما الاولى والثانية فلا سبيل الى تخفيضهما تخفيضاً يذكر لانهما بالغتان ادنى الحدود . واما الضرائب فقد خفض جانب منها واستعاض الزراع عن جانب آخر باعانات التصدير وببعض المنح السنوية . على

انها ما زالت اعظم من الحد الذي تتحمله حالة الانتاج الزراعي الحاضرة فلا بد للحكومة عاجلاً او آجلاً من ان تفكر في تخفيضها الى المستوى الذي تقتضيه سلامة الاقتصاد الاهلي . وأما اجور النقل فهي التي تستحق العناية العظمى الآن ويتوقف عليها جانب كبير من التيسير الذي يسمح للاقتصاد الزراعي بأن يكون رابحاً

واعظم وسائط النقل في مصر هي السكك الحديدية فلو رجعنا الى تعريفاتها المختلفة وجدنا انها اغلى السكك الحديدية اجوراً في العالم مع انها لا تدفع ضريبة ايراد ولا رسوماً محلية ولا شيئاً مما يحد من ارباحها . ويتقاضى موظفوها على اختلاف درجاتهم مرتبات تزيد اضعافاً على امثالها في السكك الحديدية الاخرى في العالم . على ان اجور النقل عدلت فيها قليلاً في العهد الاخير ولكنه لم يكن التعديل الكافي الذي تقتضيه مصلحة الانتاج الزراعي . ويكفي ان نعلم الآن ان اجرة نقل قنطار من البصل من الوجه القبلي الى الاسكندرية تزيد كثيراً على ثمنه . وأجرة نقل شحنة كاملة من البطيخ من مكان يبعد ثلاث ساعات عن القاهرة الى اسواق هذه المدينة تزيد على ثمن الشحنة زيادة كبيرة فكأن الزارع يزرع وينتج ويعمل طول السنة لكي يدفع ضعف ثمن محصوله اجرة نقل

***

ومن الغريب ان لدينا في مصر وسائل نقل رخيصة جداً ولكننا نهمل امرها ونحاربها بكل قوانا . فالنيل يتخلل بفروعه وترعه انحاء القطر جميعها . وفي الامكان تعزيز الملاحة النهرية تعزيزاً يسمح بنقل المحاصيل المصرية بين المدن المختلفة وبين الحقول والموانئ بأجور تقل عن ربع الاجور الحالية بالسكك الحديدية ومع ذلك تضع الحكومة جميع العقبات الممكنة في سبيل النقل النهري ورائدها في ذلك منعه من منافسة السكك الحديدية مع ان الخطة المثلى هي ان تعمل على انزال تكاليف النقل بالسكك الحديدية الى مستوى اجور النقل المائي او ما يقرب من مستواها لا على رفع هذه الى مستوى تلك

وما يلاقيه النقل المائي من العراقيل تلاقيه السيارات . فالقطر المصري محروم من الطرق المعبدة التي لم تعد اقل المستعمرات شأناً في العالم خالية منها . ومن العار ان يوجد في بلد ناهض كمصر طريق سيئ بين مدينتين كبيرتين كطريق القاهرة والسويس . ومتى خرج المرء من المدن الكبيرة فانه لا يكاد يجد طريقاً عصرية للسيارات . ولا نظن ان قلة المال هي التي تدفع الحكومة الى اهمال الطرق . ولا نجد تعليلاً لهذا الاهمال سوى الحرص على ان لا تنافس السيارات السكك الحديدية

ومن جملة التدابير التي اتخذتها الحكومة لحماية السكك الحديدية من المنافسة زيادة الرسوم الجمركية على السيارات اضعافاً ورفع الرسم الجمركي المفروض على البنزين من نحو ١٤٠ قرشاً في سنة

١٩٣٠ الى ١٢ جنيهاً في سنة ١٩٣٢ . وما زال هذا الرسم كما هو حتى الآن . وأصدرت الحكومة اخيراً ضريبة السيارات . فكان نصيب السيارات الخاصة بالنقل منها فاحشاً جداً اذ قد حصرت استعمال سيارة النقل الكبيرة في مديرية او محافظة واحدة وكلما امتدت الى مديرية او محافظة اخرى زاد عليها الرسم . ثم ان الرسم جعل وفاقاً للوزن فهو ١٥ مليماً عن كل كيلو من الوزن الاجمالي لسيارة النقل على ان لا يقل مجموع الرسم عن ١٥ جنيهاً ولا تستعمل السيارة الاَّ في مديرية او محافظة واحدة . فاذا استعملت في مديريتين زاد الرسم الى ٢٠ مليماً على الكيلو الواحد . والحد الادنى الى ١٥ جنيهاً . واذا استعملت في جميع انحاء القطر زاد الرسم الى ٢٥ مليماً على الكيلو الواحد . وقد احتفظت الحكومة لنفسها في قانون هذه الضريبة بالحق في زيادتها حتى ٣٥ في المائة ومعنى ذلك انها اذا لم تجد الضريبة كافية لمنع السيارات من منافسة السكك الحديدية فانها تظل تزيد الضريبة الى ان تقضي على المنافسة

***

قد يقال ان الحكومات الاوربية تجري على مثل هذه الخطة لمنع السيارات من منافسة السكك الحديدية في النقل ولكن الفرق بين ما نفعله نحن وما يفعلونه هم هو انهم يتوخون الانصاف في الفرص وفي المعاملة لا حماية احد الفريقين على حساب الآخر . فالسكك الحديدية في انكلترا مثلاً تدفع ضريبة ايراد فاحشة وتدفع رسوماً محلية عديدة فلا تستطيع وهي تتحمل هذه الاعباء ان تقوى على المنافسة ولذلك تضع الحكومة من الاعباء على السيارات ما يقيم ميزان العدالة بين الفريقين فتتساوى الفرص وتكون الغلبة لمن يقيم الدليل على انهُ اقدر من الآخر على خدمة الجمهور . اما في مصر فالسكك الحديدية تتمتع بجميع المزايا ولا تدفع للحكومة شيئاً سوى فائدة قدرها ٤ في المائة عن رأس المال ومع ذلك لم تزد ارباحها في السنة الماضية على ٢ في المائة بعد دفع فائدة رأس المال . فلو انها كانت تدفع ضريبة ايراد لاصيبت بخسائر فاحشة . ثم لو انها كانت تجدد خطوطها وأدواتها المحركة والمتحركة لقلنا انها تنفق جانباً من دخلها على تحسين حالتها . ولكن السكك الحديدية المصرية كما يؤخذ من التقارير الرسمية اسوأ حالاً من جميع السكك الحديدية في العالم . فالمدير العام يقول في مذكرة كتبها في يناير الماضي ان جميع الخطوط تحتاج الى تقوية وان كثيراً من المحطات ليس فيها ارصفة للبضاعة وليست مربوطة بعضها ببعض باشارات . وكثير من ارصفة التخزين قصيرة لا تستوعب العدد اللازم من عربات البضاعة ويتطاير الغبار على الركاب على جميع الخطوط . ويخشى من الحالة التي وصلت اليها القاطرات والمركبات على سلامة الجمهور

فالسكك الحديدية المصرية في حاجة الى اصلاح جوهري يقلب نظامها الاساسي رأساً على عقب وينزل اجور النقل الى المستوى الذي يتفق مع مصلحة الانتاج وقدرة الجمهور على الشراء وهذه

هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للاقتصاد الزراعي الى حد كبير بان يكون رابحاً وتكفل منع منافسة السيارات للسكك الحديدية

***

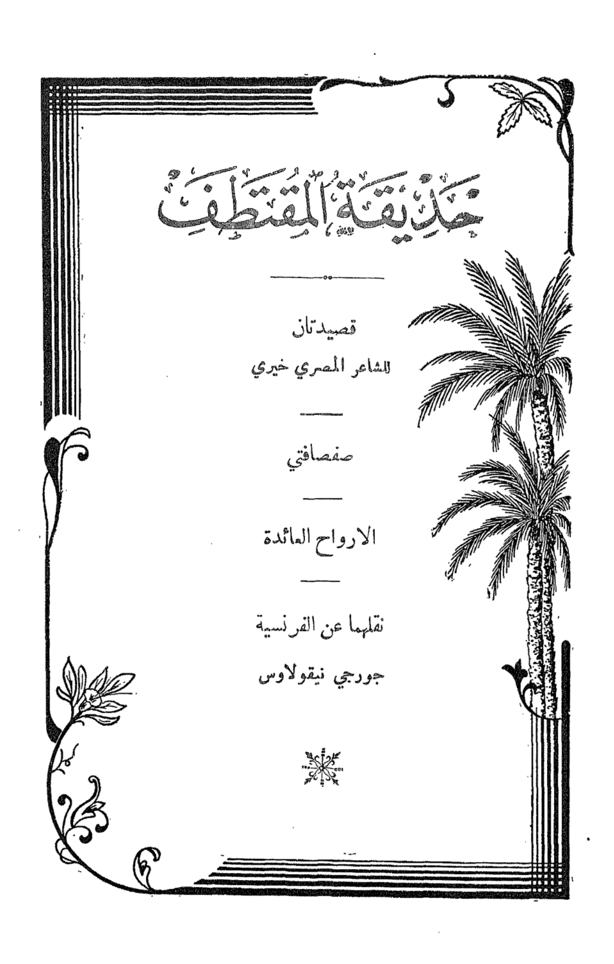
وقد لا نجد مناصاً من التفكير في توحيد وسائط النقل في القطر المصري فيكون مشتركاً بين السفن النهرية والسيارات والسكك الحديدية لكي يمكن تخفيض الأجور الى اقل حد يتفق مع مصلحة الانتاج . وقدوجدت وسائط النقل في العالم لخدمة الانتاج ولاسيما متى كانت ملكاً للحكومة ونحن نثق بان المدير العام للسكك الحديدية المصرية يعرف هـذه الحقائق حق المعرفة فان لم نره يعمل بها الاَّ ضمن حدود ليست بذات شأن كبير فقد تكون يده مغلولة عن العمل

***

بقي الشطر الآخر من وسائط النقل وهو النقل البحري اي ايصال المحصولات المصرية الى اسواق الاستهلاك الخارجية .وهو لا يقل ارهاقاً للمحاصيل عن النقل بالسكك الحديدية. ومن اهم المحصولات المصرية التي تنقل الى الخارج القطن والبصل والبيض والارز . وجميع السفن التي تنقلها اجنبية . والاجور فاحشة في جميع الحالات تزيد على ضعف اجور نقل البضائع التي ترد الى مصر من الخارج في السفن ذاتها. ويحدث عند ابتداء كل موسم ان يتآمر ارباب السفن على المحصول المصري ويحددوا سعراً فاحشاً لنقله فلا يجد التجار مناصاً عن دفع هذه الاجرة . ومن المقرر انهم يضيفونها الى التكاليف ويحسبون حساب السعر في سوق الاستهلاك ويحددون الثمن الذي يشترون بهِ المحصول على هذا الاساس فلا يبقى للزارع المصري من ثمن محصول ما يكفي لتسديد نفقات انتاجه . ولولا اعانة التصدير لاصيب بخسارة محققة . وترهق القطنَ طائفة كبيرة من التكاليف والنفقات الاضافية بعد خروجه من الحقل. وقد حسب صاحب السعادة احمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية هذه التكاليف في مذكرتهِ عن السياسة القطنية وتتبعها واحدة فواحدة فوجد ان القنطار الواحد من القطن يصيبهُ ١١٠ قروش ابتداء من خروجهِ من الحقل حتى يصل الى ليفربول ، فهل يربح الزارع نصف هذا المبلغ من قنطار من القطن ؟

***

والحل الوحيد لمشكلة النقل البحري هو ان يكون لمصر اسطول تجاري ينقل محاصيله الى الخارج باجور معقولة . وقد بدأنا نرى نواة هذا الاسطول تتكوَّن . فعسى ان تحقق آمال مصر وتؤدي للاقتصاد الزراعي المصري الخدمة التي يحتاج اليها الآن كل الاحتياج للمحافظة على سلامته وجعله قادراً على المنافسة في اسواق العالم



حديقة المقتطف

قصيدتان

للشاعر المصري خيري

صفصافتي

الارواح العائدة

نقلهما عن الفرنسية

جورجي نيقولاوس

قصيدتان

للشاعر المصري خيري : نقلها عن الفرنسية : جورجي نيقولاوس

صفصافتي

أيتها الصفصافة ! ياصفصافة دموعنا ، ذات الاوراق العيية التعبة ، انك لتنحنين دون رجعة ، على ثرى الاموات ، وتتهدلين فوق باقات الزهور الداكنة المبعثرة ، ذات الاكمام الثلجية ، التي هي ازهار آلامنا وأحزاننا

بينما أشجار الغابات ، التي يعطرها الندى ، واقفة كالمردة ، وقد انتصبت اغصانها فأشبهت قننها سهام القباب الذاهبة صُعُداً ، في الفضاء الوردي ، وهي تكاد تمس السماء

ورياح العواصف الهوجاء ، وهي الجبارة التي لا يسلس لها قياد ، تنثر أوراق هذه الاشجار ، عابثة بها ، فتتحمل الاشجار آلامها بصبر وجلد ، وهي تضطرب تحت وابل الامطار ، وقد ادركتها حشرجة الموت ، لكن ذلك لايحني هامتها ، ولا يثني من عزتها

ومع ذلك تجد هذه الاشجار القائمة العابسة ، ضحية الصقيع القارض ، في اكثر الاحيان ، الغبطة والبهجة ، اذا ما انطلق ، في رابعة النهار ، وتحت ظلالها الوارفة تغريد الطيور الصداحة البهج ، المختلف الالحان ، الذي يشبه نشيد جوقة ، ذا تراديد طويلة المدى ، شجية التواقيع

.. او اذا ما جذبت اليها من بعيد ، زمرة من العشاق الجذلين ، فتظلل تحت اغصانها الحب ومباهجه العديدة ، ولذة كلماته العذبة المسكرة ، المملوءة سحراً وشجواً فتمتزج أحاديث الهوى وتباريح الغرام ، بحفيف اوراق هاتيك الاشجار الحريرية ، فتتكون من ذلك الحان وأغان ، تملأ القلوب لذة وحبوراً

اما انت ، ايتها الصفصافة الساكنة ، الكئيبة ، المنعزلة ، البعيدة عن مباهج الحياة ، المنزوية في ركن الوحدة ، فلا يطرق اذنيك ، سوى تنهدات وأنات اولئك الاحياء الباقين ، وزفراتهم المؤلمة ، المتساقطة من اعماق نفوسهم المتفجرة

وهذا النشيد المميت ، الذي سيودي بك ، يحني بحزن اغصانك المنتحبة الباكية ، فكأنها بهذا التدلي الابدي ، تتقبل الآلام المنبعثة من قلوب الاحياء المنفطرة

يا صفصافة دموعنا ، يا صديقة متوسدي الثرى ، قد يكون انحناؤك على اجداث الموتى ، فوق زهور الراحلين ، ذات الاكمام الثلجية ، حناناً منك ورأفة ، فتميلين لتسكبي على تلك الارض الغامرة ، شآبيب السلوى ، وتفيضي عليها حنانك ورحمتك

الارواح العائرة

أجل! في جوف الليل الهادئ ، تمسنا ارواح موتانا ، فتتدفق في قلوبنا الوسيعة ، المعدة لاحتوائها ، كأنها ازاهير الليل ، المتفتحة الاوراق والاكمام ، التي يكتمل رواؤها ، عند ما تقع عليها اعين المحبين

قد تكون هذه الارواح ، ارواح ابناء تدفعها المحبة البنوية ، او ارواح امهات تحملها عاطفة الامومة ، فتتنسم نزعات قلوبنا النسبية ، حيث تحترق اميالنا ، وتذوب نزواتنا ، فتجدد في افئدتنا الايمان ، الذي يشرف احلامنا ، ذات المنازع العدائية

وانت ايتها الشقيقة الساهرة ، الحارسة ، المنبئة بما يخبىء لنا المقدور ، وانت أيتها الحبيبة الوفية ، ذات النزعات الحبية الخالصة ، وانت ايتها الاشباح ، اراك تحسدين ذخائرك الحية ، اي نحن الباقين ، نحن الاصدقاء البعيدين ، المحتلين لمقامك الارضي الذي رحلت عنه

عندما يتملكنا الكلال عقب الاوقات الصخابة ، نشعر في قرارة نفوسنا ، بانجذاب الى الوحدة والانفراد ، لننعم بالهدوء والسكينة ، في تلك الجنان الجميلة الحافلة بالاشباح المؤلمة ، السارية في تلك المفازة الغريبة ، ذات المناظر الخفية الجذابة

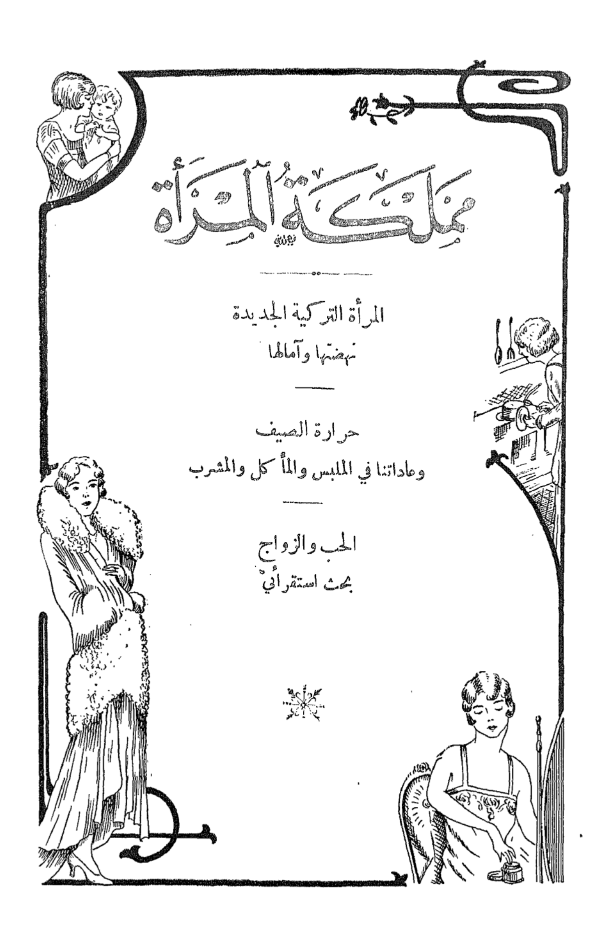
وأنت يا ارواح الموتى ، الأمينة الحبيبة الينا ، تحركين بنفسك ، ذكرياتنا الماضية ، في احلامنا الهادئة ، فتمدين الينا يدك الخفية ، وتقودييننا بتؤدة ، نحو اشجار السرو ، التي هي أشجار التنهدات والزفرات

ايتها الاشباح المحزنة ، يا اخوات الوحدة القاتلة ، انك تسحريننا بهذا التسكين الشعري ، المؤلف من سيال لا نهاية له ، يسكرنا ويضرم عواطفنا ، ليتسنى لك دون عائق ، ان تغدقي على افئدتنا ، حنوك الكلي ، ورقتك السماوية

ايتها الروح الحائر ، يا روح الام المتبخر عطفاً ، السعيد بهذا العطف ، ليسهر بواسطة بكائه ، على ابنه العزيز ، ويحوطه بالحب الاموي المتناهي ، الذي لا ينضب معينه ، انك الروح المحب ، الذي يعذبهُ ابداً ، ذلك العطف الذي تتساقط اوراقه ، في قلب نقي ، لا يعتريه ندم ، ولا وخز ضمير

اجل ! ان الارواح تمسنا في جوف الليل الهادىء ، ولكن في نهارنا الذي يملأه النسيان الجنوني الكثير الصخب ، تتطاير في اكثر الاحيان ، اعز ذكرى لها ، تطاير الرماد تذروه الرياح ، فتعفو آثارها ، متغلغلة في طيات القدر المحتوم

صاح ! عند ما تتفجر في قلوبنا هذه الاصوات العزيزة علينا ، لنكرم بحسرة وارتياح عودتها العطوف ، ولنقدم بهذه المحبة العميقة ، التي تحنو على آلامنا واوجاعنا ، الزنابق الطاهرة ، لأسمى واشرف حب ، تضطرم بهِ حشىً ، ويختلج بهِ فؤاد



مملكة المرأة

المرأة التركية الجديدة

نهضتها وآمالها

حرارة الصيف

وعاداتنا في الملبس والمأكل والمشرب

الحب والزواج

بحث استقرائي

المرأة التركية الجديدة

نهضتها وآمالها

شهدت تركيا في العقد الاخير ، انقلاباً ايّ انقلاب في مقام المرأة التركية ومكانتها الاجتماعية فالسيدات اللواتي كنّ منعزلات في الحريم ، ولا يخرجنَ الى الشوارع الاّ وعلى وجوههنّ احجبة كثيفة ، وملاءات تغطيهنّ من قمة الرأس الى اخمص القدم ، تراهنّ الآن في شوارع استانبول وازمير وانقره ، مرتديات احدث الازياءِ ، او على شواطىء جزائر الامراءِ وترابيا لابسات آخر ما يعهد من ملابس الاستحمام . ثم ان المرأة التركية قد شقّت طريقها في حياة تركيا العامة ، تراها تشترك في الانتخاب وتدرّس في المدارس وتنتخَب في مجالس البلديات وتجلس الى جانب القضاة في المحاكم وتشترك مع ارباب الاقلام والاعمال في انشاء الصحف على انواعها وادارة المصارف

***

صباحت فتاة في التاسعة عشرة من العمر تخرجت من الليسيه هذا الصيف ، وينتظر ان تنتظم في الجامعة في اوائل الخريف المقبل . نشأت في بلدة بالاناضول سكانها خمسون الفاً . فكانت اولى فتيات تلك البلدة في تلقي العلوم بمدرسة من درجة « ليسيه » . ولكي تدرك مقام هذا العمل من جانبها يجب ان تعلم ان الفتيات المسلمات في بلدتها ، كان يحظر عليهنّ الانتظام في مدرسة اجنبية فيها فكادت تلك المدرسة ان تكون وقفاً على الفتيات الارمنيات . ولكن صباحت ، كانت ترغب في العلم رغبة ملحة وكان ابوها ارمل وهي وحيدتهُ . فعطف على رغبتها ولكنهُ تردّد ، ذلك ان اعمامها واخوالها وعماتها وخالاتها وسائر اقاربها اعترضوا اشد اعتراض على هذه الفكرة النكراءِ . وظلت هي تقاوم مقاومتهم ثلاث سنوات متوالية ، وصبرها لا ينفد ، وعزيمتها لا تُفَلُّ . واخيراً سلّم لها ابوها بما تريد وسمح لها بان تنتظم في سلك مدرسة اميركية للبنات في مدينة مجاورة . فلما اقفلت المدرسة الاميركية انتظمت صباحت في مدرسة « ليسيه » تركية في مدينة بعيدة عن مسقط رأسها

وكانت صباحت فتاة ذكية ، مجتهدة ، فتعلمت لغتها قراءة وكتابة — بنوعين من الحروف — العربية واللاتينية — وتمكنت من اللغة الانكليزية ، وهي كما تدرين يا سيدتي تختلف عن اللغة التركية اصولاً وقواعد . وبني خُلُقها على قواعد من الاعتماد على النفس ، وقوة التمحيص والنقد ، وحسن تدبير الامور ، ونظرة فلسفية الى الحياة ، اتمها فيها انواع المقاومة التي لقيتها وتغلبت عليها . وهي فتاة نحيفة القوام ، فاحمة الشعر مجعدتهُ ، بيضاء البشرة ناعمتها ، سمراء العينين دعجاواها ، يسترعي منظرها الانظار . وقد رحب افق نظرها الى الحياة فلا تحصر عنايتها في اتقان الدروس التي تتعلمها ، بل تحب المطالعة المسلية المثقفة ، والرياضة والموسيقى وما اليها من الفنون

ولو انَّ صباحت وُلدت قبل بضع سنوات ، لكان تعذّر عليها تحقيق امنيتها هذه . ذلك ان القانون

التركي ، كان يحظر على البنات التركيات ، قبل سنة ١٩٠٨ ان ينتظمنَ في سلك المدارس الاجنبية . والمدرسة التركية الوحيدة في استانبول ، حينئذٍ ، كانت دار المعلمات وهي قريبة من رتبة مدرسة ليسيه، وكانت دروسها الرئيسية محصورة في الفقه الاسلامي واللغتين العربية والفارسية او تكاد ، وكانت بعض الاسر السرية تستقدم الشيوخ لتدريس بناتها في منازلهنَّ

وتذكر صباحت ان امها قالت لها مرَّة « يجب الاَّ تقلّمي اظافرك في الليل . ان ذلك خطيئة » فقالت الفتاة ولماذا

فقالت الام : اننا نساء . فنحن لا نسأل . انما نطيع » . تلك كانت النفسية النسائية السائدة في العهد السابق لمولد صباحت

ولو ان مولدها تأخر بضع سنوات ، لكانت رأت سبيلها سهلاً . فعشرون فتاة من فتيات بلدتها يذهبن الى مدرسة الليسيه الآن ، والراجح ان مدرسة ثانوية للبنات سوف تنشأ قريباً في تلك البلدة ايضاً

بل ان حماسة الامة التركية لتعليم البنات بلغ مبلغاً عظيماً ، حتى ترى المدارس مزدحمة بهنَّ ، فتجلس ثلاث فتيات على مقعد اعدّ لفتاتين فقط . وابلغ مثلٍ على ذلك عدد الطالبات التركيات في المدارس الثانوية وازدياده. ففي سنة ١٩١٣ كان عددهنَّ ٦٧ فتاة وفي ١٩٢٣ كان عددهنَّ ٧٧٣ فتاة وفي سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ كان عددهنَّ يربي على ثمانية آلاف . اما جامعة استانبول فتنتظم فيها الشابات على قدم المساواة مع الشبان . والتعليم المشترك سائد في المدارس الاولية والمتوسطة ، ولكنهُ يكاد يكون غير مألوف في مدارس الليسيه . والمشرفون على شؤون التعليم في تركيا ، يعتقدون ان شيوعهُ في مدارس الليسيه ينطوي على خطر

وتلبس الفتاة التركية في المدرسة ثوباً رمادياً او ازرق غامقاً او اسود. وهي تقف باحترام عند دخول المعلمة او عند ما تقترب منها في حديقة المدرسة . تتكلم عندما تخاطب . وتقوم بما يطلب اليها ان تقوم بهِ . وانما يلاحظ فرق بين الفتيات صغيرات السنّ والفتيات المتقدمات في السن . فصغيرات السن قد أصبحن اقلّ كلفة في سلوكهنَّ . وقد قيل لاحد الكواتب الاميركيات ان فتاة منهنَّ اعطيت مجموعة من قصائد انكليزية كتبت في عهد الملكة اليصابات وطلب اليها ان تختار منها قصيدة تفضلها على الباقي، فاختارت قصيدة مطلعها ما معناهُ « من المتعذر على حداثة السن ان تساكن تقدم السن» . وترجمت القصيدة ووزعتها على صويحباتها في المدرسة فأعجبنَ بها كلَّ الاعجاب . وقد تحدثت المعلمات التركيات في احدى المدارس مع هذه الكاتبة في حكمة اطلاع الفتيات على قصص الغرام من قبيل ما كتبهُ شكسبير وجاين اوستن . وهنَّ يرين ان مطالعة الفتيات لقصص تحتوي على كثير من حوادث الغرام والزواج يضرّ بهنَّ . ثم سألت الكاتبة من لقيتهُ من الفتيات فرأت انهن مطلعات اطلاعاً واسعاً على قصص الغرام . وعدّدت لها الفتاة صباحت ما قرأتهُ من هذه الروايات ولكنها اضافت ان مطالعة القصص لا تهمها بوجهٍ خاص

كانت الفتاة في العهد القديم تلبس الملاءة في السنة الثانية عشر من عمرها . وكانت قبل ان تلبسها ، حرّة في الذهاب الى المدرسة واللعب مع الاحداث من جيرتها ، فاذا لبستها حُظِر عليها كل ذلك واصبح هم والديها البحث لها عن زوج

ولكن الملاءة اصبحت في تركيا الآن من مخلّفات الماضي . فاذا اردت ان تعرف مقام نزع الملاءة في حياة المرأة التركية اقرأ الحادثة التالية : — كانت طائفة من المرشدات التركيات يسرنَ في شارع من شوارع استانبول ، وكانت امرأة متقدمة في السن لابسة الملاءة القديمة تراقبهنَّ وهي تذرف الدموع فقالت « اني لا افهم . انني لا افهم . لم اتصوَّر انني اعيش حتى ارى هؤلاء الفتيات وهنَّ في سنّ الزواج ، وقد طرحنَ للملاءة وخرجنَ عاريات الاعناق والاذرع . ألا يخجلنَ » . وكانت هذه السيدة تعتقد ان هذا الاثم لا يمكن ان يستمرَّ من دون عقاب رادع من السماء !

ان رجال الغرب ونساءَهُ الذين تعودوا ان ينظروا الى تقدم المرأة من ناحية الحقوق السياسية وخوضها ميدان الاعمال لا يدركون الشأن الكبير الذي تعلقهُ المرأة التركية بالملابس كمظهر من مظاهر حريتها الجديدة . وتقول الكاتبة لوكي باركر انها عرضت على بعض صديقاتها التركيات صورة في مجلة اميركية لامرأة لابسة ملاءةً وتطلُّ على البوسفور وقد كتب تحتها « سيدة في تركيا الجديدة » فغضبنَ غضباً شديداً

ثم قالت : نعم لقد منحت المرأة التركية امتيازات سياسية حتى أصبحنَ اسوة بالرجال ، ولكن هذه الامتيازات في نظر المرأة التركية المتوسطة اقل شأناً من الحقوق التي فتحت امامها ميادين السينما والمسرح والالعاب الرياضية والكتب والملابس الغربية وما الى ذلك . وليست الملابس اقل هذه شأناً . فقد رأيت طائفة من خريجات الجامعة التركية يقضينَ ساعة حافلة بالسرور امام صورة ثوب جديد من الاثواب الباريسية . والانسان مغرًى بأنهُ يقلب شفتهُ استخفافاً عند ما يرى هذه العناية بالملابس فيقول « أهذا هو مقياس عقولهنَّ » ؟ ولكن يجب ان نذكر انهُ انقضت قرون والمرأة التركية محرومة من حق اظهار شخصيتها بملابسها خارج دارها . فلهذه العناية بالملابس من جانبهنَّ مغزًى اجتماعيٌّ وتاريخيٌّ كبير

***

وتروي هذه الكاتبة انها سافرت من انقره الى استانبول في القطار الذي يسير بين المدينتين فشاركتها سيدة تركية تدعى جولتن هانم مخدعَ النوم بالسكة الحديدية . وكانت جولتن هانم ربعة تميل الى السمنة وفي الاربعين من السن . ولكنها تامة الانوثة

جلست هنيهة في مقعدها وهي تنظر بسرور الى ما حولها ، المقاعد الوثيرة والمصابيح الكهربائية والحقائب ورفيقتها الاميركية ، وبعد ما رتبت أمتعتها التفتت اليها بعد ما حاولت مخاطبتها بالتركية وسألتها هل تتكلم الفرنسية ، فأجابت انها تتكلمها متعثرة

فسرّها ذلك وقالت : ان ابنتي قالت لي بأني لن استطيع التحدُّث معك ولكننا نتحدث الآن وهذا يبعث في نفسي غبطة عظيمة

مضت في حديثها كالجدول السلسال ساعة فاخرى فاخرى . قالت ان من بواعث غبطتها ان يتاح لها السفر وحدها . ففي العهد القديم كان احد افراد اسرتها من الرجال يصحبها دائماً ليعتني بها — اما والدها او شقيقها او زوجها . وكان يتعذر عليها ان تحدِّث احداً مع انها تحبُّ ان تتحدث مع الناس . وسردت لي انباء ثلاث اجيال من اسرتها ووصفت الملابس التي ابستها السيدات في الحفلة الراقصة الكبرى التي اقيمت تلك السنة في انقره

واذ هي ماضية في حديثها قامت الى حقيبة صغيرة وفتحتها وأخرجت منها طعامها ، وطلبت اليَّ ان اشاركها فيهِ . وقبل ان استطيع الجواب كانت قد وضعت امامي صحفة عليها قطعاً من دجاجة مقلوّة . ولاحظتها وهي تأكل فاذا آدابها في تناول الطعام ومضغه لا يُعلى عليها . وبعد ما انتهينا من الاكل اخرجت منشفة مبلولة وأعطتني اياها لامسح بها اصابعي . وانني لاعجز عن تعداد وجوه عنايتها . بل لاعجز عن ذكر امرأة غربية تفوقها في ادبها

وكانت جولتن هانم قد ذهبت الى انقره في زيارة لشقيقة لها اصغر منها سنًّا . قالت وهي تحرّق الارّم ان شقيقتها هذه تجيد الانكليزية . اما هي فنسيت القليل الذي تعلمته في المدرسة لانها تزوجت وهي في السادسة عشرة رجلاً طيباً ولكنه كان متقدماً في السن ، وانها في الواقع لم تتعلم الاّ الخياطة والعناية بالاطفال

فقلت ان تدبير امور البيت والعناية بالاطفال من اهم ما تجيده المرأة

فقالت لا شك في انهما من اهم ما تتعلمه المرأة . ولكن التثقيف الحقيقي والمقدرة على مخاطبة الاغراب ... وقالت ان لها ابنة شقيق التقت في حفلة راقصة بشاب انكليزي فاستطاعت ان تخاطبه بلغتهِ ! وقد تزوجتهُ الآن رغم مقاومة اهلها وهم عائشان الآن في ازمير معيشة كلها رغد وهناءة

وكذلك انقضت الساعات بين انقره واستانبول . كانت جولتن هانم من اشد مؤيدات النظام الجديد حماسة ، مع انها لم تمارس حقوقها السياسية الجديدة . ولم تكن تنوي ان تنتظم في سلك صناعة من الصناعات او حرفة من الحرف . ولا كان يهمها ان تتولى هي تدبير ملكها الخاص

وهذا لا يعني ان جميع نساء تركيا تهمهنّ هـذه الناحية السخيفة — في نظر البعض — من نواحي حريتهنّ الجديدة . فثمة طائفة صغيرة من النساء اللواتي بلغنَ مقاماً عالياً في حياة تركيا العامة . فثمة طبيبات ومحاميات وقاضيات ومؤلفات وكاتبات في المحال التجارية وصحافيات ومعلمات يزداد عددهنَّ سنةً فسنةً . والنساء التركيات يشغلنَ مناصب ذات شأن في مجالس المدن البلدية وفي مصالح الحكومة . وقد بعث ببعضهنَّ مندوبات عن الحكومة الى مؤتمر البلقان

ثم ان اقتحام ميادين الحياة العامة ليس مقتصراً على نساء المدن . فقد انتخبت سيدة حديثاً

لمنصب محضر وهو يقابل منصب « عمدة » في مصر ، في قرية على مقربة من ازمير . ومن مهام هذا المنصب تدوين المواليد والوفيات وتوقيع كل الاوراق الرسمية الخاصة بالملك والبيع والارث وما اشبه . وكثيراً ما يحتكم الى المحضر في النزاعات المحلية . وعن طريقه تبعث الحكومة بأوامرها الى الاهلين . واذن فانتخاب امرأة لتشغل هذا المنصب حدث ذو خطر خاص

وقد مهّلت الاحوال طريق المرأة لبلوغ مناصب كبيرة في ميدان الاعمال . فقد مُنِيَتْ تركيا بفقد نصف رجالها في حرب البلقان والحرب الكبرى وحرب الاستقلال التي تلتها . فاقتضى الواجب من النساء التركيات ان يتقدمنَ لسد الثغرة التي احدثتها الحروب في صفوف الرجال . فتقدمنَ غير هيابات وقمنَ بكل نوع من العمل من حرث الارض الى ادارة البنوك — خذ مثلاً سيدة في بيرا باستانبول تدعى خديجة هانم . فهي مديرة فرع بنك الاعمال في بيرا وهي اول امرأة تركية حازت حق التوقيع باسم البنك . غير ان خديجة هانم ليست مديرة بنك فقط بل هي والدة ستة اولاد كذلك ، وتعاون زوجها في ادارة مزرعة ، وهي تقول ان عملها الحقيقي التعليم ، وهو في نظرها ، اوسع نطاقاً من الاشتغال بأعمال البنوك . ولكنها تحسب عمل البنوك ميداناً يوافق موافقة خاصة مزاج السيدات لانهنّ اقدر من الرجال على التدبير . وأكثر منهم لطفاً في معاملة الموظفين والمتصلين بالبنك بصلة العمل

وثمة سيدة تدعى سعاد هانم كتبت كتاباً عرضت فيه لقضية المرأة في تركيا الجديدة ، من ناحيتي تأييدها ونقدها . وهي من اوليات الفتيات التركيات اللواتي انتظمنَ في كلية البنات الاميركية باستانبول بعد دستور سنة ١٩٠٨ . ثم وسعت نطاق تعليمها بالدراسة في المانيا . وقد ندبتها الحكومة التركية غير مرة لتمثلها في مؤتمر البلقان ، وأرسلت الى اميركا لحضور اجتماع عقدته « عصبة النساء الدولية للسلام والحرية »

وقد طالبت المتطرفات من زعيمات الحركة النسوية في تركية في الشتاء الماضي بحق المرأة التركية في الانتظام في صفوف ضباط الجيش . ومنصب ضابط الجيش ذو مكانة كبيرة في تركيا ولكن الشبان يقولون انهم ما زالوا قادرين على الدفاع عن الوطن ، فمنح النساء حق بلوغ مراتب الضباط من غير ان يعملنَ اولاً عمل الجنود ، غير معقول والراجح ان هذه المطالبة لن تسفر الآن ، عن قرار عملي ما

والراجح ان ميادين العمل النسائي في تركيا ، اذا استثنينا دائرة البيت ، سوف تنحصر في التعليم والطب والصحافة والتجارة والعمل الاجتماعي وشغل بعض المناصب الحكومية

كانت المرأة في السلطنة العثمانية اشبه شيء بالاسيرة في البيت يمنعها الحجاب وسوء التعليم او عدمه من الاشتراك في حياة الامة وتأدية نصيبها في ترقيتها . اما الجمهورية التركية فتقول ان الواجب يقضي على المرأة بالاشتراك في تكوين حياتها المثلى . فهي معلمة وطبيبة ومحامية وقاضية وصحافية ولا يمنعها كل ذلك من ان تكون زوجة فاضلة وأمًّا رؤوماً

حرارة الصيف

وعاداتنا الصحية في الملبس والمأكل والمشرب

اذا اشتدَّت حرارة الجوّ كما اشتدت في اواسط يونيو الماضي عمد الناس الى كثير من الامور التي لا تخفف وطأة الحرّ وقد تضرُّ بهم اضراراً بالغة

وأول ما يجب ان يشار به في هذا المقام وجوب الانصراف عن التفكير باشتداد الحرّ او الاهتمام بهِ لان ذلك من افعل الوسائل لتخفيف وطأته. وقد روى الدكتور سدلر الاميركي في هذا الصدد انه كان ماشياً في شوارع شيكاغو في يوم اشتدَّ حرهُ حتى بلغت درجة الحرارة نحو ٣٧ بميزان سنتغراد وهي حرارة عالية جدًّا اذا قيست بحرارة الجوّ العادية في شيكاغو فرأى فتاتين تبدو عليهما دلائل الحبور والنشاط فلما اقتربتا من صيدلية امامهما دخلت احداهما الصيدلية في شأن لها ولبثت الاخرى تنتظرها خارجاً فوقع نظرها اتفاقاً على ميزان الحرارة فرأت ان درجتها بلغت ٣٧ بميزان سنتغراد فهرولت الى الداخل تنادي صديقتها قائلة « لا شأن لنا نجول في الشوارع الآن وقد بلغت الحرارة هذه الدرجة من الارتفاع اننا في خطر من الاصابة بالرعن » (ضربة الشمس فهلما بنا الى البيت) ان شعور هذه الفتاة باشتداد الحرارة لم يكن طبيعيًّا لانها قبل رؤية ميزان الحرارة كانت تسير في الشوارع كأن حرارة الجو عادية او تكاد. ومن هذا القبيل حوادث كثيرة تجري في القطر المصري

حرّ الصيف لا مندوحة عنهُ وفي قدرة كل انسان ان يحتملهُ اذا لم يصرف كلّ همهِ الى قياس الفرق بين حرارة يومهِ وحرارة امسهِ والتكهن بما تكون عليهِ حرارة غده وفيما يلي ارشادات صحية لا بدَّ من الجري عليها في الصيف لتخفيف وطأة حرهِ

﴿ الطعام والشراب ﴾ — معظم الطعام الذي نأكلهُ ونهضمهُ يتحد بالاكسجين الذي يصل الى الدم عن طريق الرئتين ويتحوَّل الى حرارة. فاذا اكلنا اطعمة من شأنها توليد مقدار كبير من الحرارة لدى اتحادها بالاكسجين كالزبدة والسكر والنشاء زدنا مقدار الحرارة التي تتولد في الجسم وزاد بذلك شعورنا بحرارة الجوّ ولو لم تكن شديدة. فيجدر بنا ان نكثر من تناول هذه الاطعمة في الشتاء حين تكون حرارة الجوّ اقل كثيراً من حرارة الجسم فنحتفظ بحرارتنا الطبيعية ولكن حرارة الجو في الصيف تقرب من حرارة الجسم فيجب ان نقلل من هذه الاطعمة ونكثر من تناول الاطعمة التي لا تولد مقداراً كبيراً من الحرارة كالفاكهة والخضراوات على انواعها وعلينا ان نكثر من شرب الاشربة الباردة لانها تكثر افراز العَرَق والعرَق لدى تبخرهِ يبرد الجسم

على ان كثيراً من الناس يكثرون من وضع السكر في اشربتهم الباردة وهذا وهمٌ صحيٌّ يجب الاقلاع عنهُ لان السكر كما ذكرنا يولّد مقداراً كبيراً من الحرارة حين اتحادهِ بالاكسجين . ومن هذا القبيل اشير بالاكثار من شرب الماء البارد لان الاشربة الاخرى وخصوصاً ماكان من نوع « الدندرمة » يبرّد من يتناولهُ حين تناولهِ ولكن لا يلبث ان يتحوّل الى حرارة في جسمهِ فيعكس فعلهُ الاول

جاءَ اليّ احد المرضى الذين اطالجهم يتبرّم بتأثير الحرّ في جسمهِ مع انهُ يشرب نحو ٢٠ كأساً من الاشربة الباردة في النهار . ولدى الفحص وجدت ان هذه الكؤوس العشرين التي يشربها كل يوم تحتوي على مقدار من السكر يكفي وحدهُ لتوليد ما يحتاج اليهِ الجسم من الحرارة في يوم كامل ومع ذلك فقد كان يتناول طعامهُ ثلاث مرات في اليوم ومعظم ما يتناولهُ كان يتحول الى حرارة ايضاً

يتصوَّر بعض الناس خطأً ان الاكثار من اكل الخضراوات والفاكهة الغضَّة يضرّ بالمعدة والصواب ان الخطر الذي قد يصيب المعدة من تناول الخضراوات والفاكهة انما ينجم عن تناولها غير نظيفة اذ قد تكون مكروبات الدوسنطاريا او التيفوئيد عالقة بها وعليهِ فيجب غسلها قبل تناولها

فالمآكل التي يحسن اكلها في الصيف هي : الفاكهة . التفاح . الكرز . العنب . البرتقال . الخوخ . الكمثرى . الاناناس . الكبوش . البطيخ . عصير الفاكهة على اختلافها الخ

. الخضراوات — الطماطم . الخرشوف (ارضي شوكي) . الهليون . الفاصوليا الخضراء . الاسبانخ . الكرنب . الكرّاث . الخيار . الباذنجان . الخس . الكوسى الخ

مآكل اخرى — البيض باعتدال . اللبن . السلطة على انواعها

والمآكل التي يجب اجتنابها او الاقلال منها هي : الحبوب والخبز وكل المواد النشائية . انواع الكعك . المعكروني . الرز والاوتميل . الزيتون وزيتهُ . الجوز واللوز وما اليها . البلح . التين . الموز . البطاطس . اللحوم على انواعها . الفاصوليا المجففة والحمص . الزبدة وكل الادهان . العسل . الدبس . الحلويات . السكر

ولا بدَّ من الانتباه الى المآكل التي قد يتطرق اليها شيءٌ من الفساد لشدة الحرّ وخصوصاً المآكل التي يدخل اللبن في تركيبها او يكون فيها مادة بروتينية كاللحم والجبن . قد تتقيأ او تمرض حين تأكل قطعة من فاكهة تطرق اليها الفساد ولكن مرضك لا يكون مميتاً واما اذا تناولت طعاماً فاسداً وكان من قبيل اللحم او اللبن اي من الاطعمة التي فيها مواد بروتينية فان تناولهُ قد يكون مميتاً

***

﴿ الاستحمام ﴾ — يمكن تخفيف وطأة الحرّ في الليالي بمسح الجسم باسفنجة رطبة وعدم تنشيفهِ فيتبخر الماءُ وفي اثناءِ تبخره يتناول من الجسم جانباً من الحرارة اللازمة لتبخيرهِ

كذلك يستحسن ان يعلق في غرفة النوم مثلاً ملاءة رطبة فتبرد جو الغرفة وتخفف وطأة الحر. على ان الملآت يجب ان تكون تقطر ماء . واذا طال التعرض للشمس وخيف من الاصابة بضربتها (الرعن) فيحسن لف الجسم بملاءة مبلولة ماء

ولا شك ان الحمام البارد كبير الفائدة في انعاش الجسم حين اشتداد الحر على ان الجسم يفرز افرازاته الجلدية في الصيف كما يفرزها في الشتاء ويبقى من هذا الافراز طبقة اقذار يلزم لازالتها حمام فاتر بالصابون او حمام سخن فيجب ان لا يكتفى بالحمام البارد يوماً بعد يوم

والاستحمام في البرك العامة وعلى شواطىء البحر مفيد اذا كان معتدلاً . على ان كثيرين من ضعاف البنية يتعرضون لاضرار صحية خطيرة اذ يطيلون مدة اقامتهم في الماء وغيرهم يتعرض لمثل هذه الاضرار بكثرة تعرضهم لنور الشمس بعد استحمامهم في ماء البحر او ماء بركة عامة . وليس من الحكمة في شيء ان يستحم احد بعد تناول طعام ثقيل

***

﴿ الرياضة ﴾ — يتوهم البعض ان البقاء على شاطىء البحر والتعرض لنور الشمس حتى تدبغ البشرة بلون النحاس مفيد كل الافادة . وعندي ان المكوث على الشاطىء كذلك من غير رياضة او تمرين لا يفيد الجسم كثيراً . ولا بد ان ينتبه كل الذين يصطافون على شواطىء البحر الى ان الخروج عن حد الاعتدال في التعرض لنور الشمس قد يكون ضاراً اذ للاشعة التي فوق البنفسجي اذا طال التعرض لها فعلاً قوياً يتلف خلايا الجسم

ولا يخفى ان التعرض لنور الشمس يقوي الجسم على مقاومة امراض الانيميا والكساح وغيرها ولكن يجب تغطية العينين والرأس والسلسلة الفقارية حين التعرض لها . ويجب التدرج في تعريض الجسم للشمس فيبدأ بتعريضه ثلاث دقائق او اربع دقائق مرتين او ثلاث مرات في اليوم ثم يزاد الى عشر دقائق

ويجب ان تذكر ربات البيوت ان الواح الزجاج التي تصنع منها نوافذنا تحجب الاشعة التي فوق البنفسجي فلا تدخل الغرف . فاذا ارادت أم ان تضع طفلها في نور الشمس في غرفة من الغرف فلا بد من فتح النوافذ لانهُ اذا اقفلتها حجبت الاشعة التي تفيد الطفل.

أما الاصابة « بضربة الحر » فلها في الغالب سبب غير شدة الحر ومن أسبابها

١ — ادمان المشروبات الروحية والمخدرات

٢ — التعب

٣ — اقفال الغرف وعدم تهويتها

٤ — ازدياد الرطوبة في الهواء

٥ — لبس ملابس ضيقة تضغط على الاعضاء

٦ — الاكثار من اكل اللحوم والاكل فوق الشبع بوجهٍ عام
٧ — الشيخوخة او حداثة السن فالشيوخ والاطفال اكثر الناس تعرضاً لها
٨ — الهمّ والغمّ
٩ — الاكثار من تناول الاشربة المثلوجة

ان الرياضة المعتدلة حين اشتداد الحرّ مفيدة لانها تعدّ الجسم لافراز العرق وافراز العرق ينعشهُ لدى تبخره . على اني بوجه عام اشير بعدم الرياضة العنيفة في الشمس حين اشتداد الحرّ

***

﴿ الملابس ﴾ — يجب ان لا نلبس في الصيف ما يمنع الجسم من اشعاع الحرارة التي تتولد فيهِ باتحاد الطعام باكسجين الدم . ولكن يجب ان نلبس ما يكفينا لحفظهِ من التعرّض لاشعة الشمس من غير قيد او رابط

فعندي ان لبس البرانيط في الصيف لازم اذ قد ثبت لي ان كثيراً من اصابات الصداع التي عالجتها سببها التجوال في الشمس من غير برنيطة تغطي الرأس . فحين يشتدُّ الحرّ يجب ان يحفظ الرأس بارداً بقدر الامكان ويجب ايضاً حفظ العينين من وهج النور . واعتقد ان تعريض الرأس لنور الشمس يساعد سقوط الشعر اكثر مما يساعد نموهُ

وأهم ما يجب ان ننظر فيهِ حين اعداد ملابس الصيف هو شراء أقمشة كثيرة الثقوب حتى يسهل اشعاع الحرارة التي تتولد في الجسم . وتفضل الالوان البيضاء او القريبة من البياض لانها لا تمتصُّ الحرارة . كذلك يجب اجتناب كل القمصان والياقات التي غمست بالنشا وكويت فأصبحت كالدرع

ولا شك ان ملابس السيدات في هذا العصر توافقهنَّ كل الموافقة في فصل الصيف لدى اشتداد الحرارة . وفي ذلك قد تغلبنَ على الرجال فقد كان الرجال منذ سنوات ينظرون شزراً الى السيدات ولقد لبسنَ المشدّات وغيرها مما يعيق النمو والحركة فما قول أسيادي الرجال الآن وقد طرحت السيدات كل ما يعيق نموهنّ واقبلنَ على ما يطلق الحرية للجسم ولا نزال نحن مقيدين بقيود الياقة المكوية والقميص المكوي الخ

اما برانيط الرجال التي يجب لبسها في الصيف فيجب ان تكون من نوع البرانيط المصنوعة من قش بناما لانها خفيفة الوزن لا تضغط على الرأس فيبقى مهويًّا وتردّ عنهُ الشمس لانها بيضاء ولها دائر غير ضيق . اما برانيط القش الجامد فلا ارى لبسها مفيداً لانها تضغط على الرأس وتعيق دورة الدم في جلده وبذلك تمهد السبيل للصلع

وما يقال عن ملابس النساء عامة يقال عن احذيتهنَّ التي من نوع الصندال وقد اخذنَ يلبسنها في أثناء النهار ، فهي مرنة لا تتعب الرجل وكثيرة الثقوب يتخللها الهواء فتبقى الرجل مهوية . وليست كذلك أحذية الرجال

الحب والزواج

بحث استقرائي

في مدينة نيويورك مكتب يعرف بمكتب الصحة الاجتماعية ، وجّه طائفة من الاسئلة تتعلّق بالحب والزواج الى مائة رجل متزوج والى مائة امرأة متزوجة . والغرض من هذه الاسئلة جمع اكبر قدر من الحقائق عن الزواج والحياة الجنسية بالاستقراء . وكان جميع الرجال والنساء الذين وجّهت اليهم هذه الاسئلة من درجة خريجي الجامعات او ما دونها قليلاً ، وكانت اعمالهم متباينة فمنهم المهندس والطبيب والمحامي والتاجر . وكان متوسط الدخل السنوي لنصف الرجال اقل من الف جنيه في السنة . وكانت اعمار النساء تختلف من ٢٣ سنة الى ٥٩ سنة وانما سوادهنّ كان بين الثلاثين والاربعين . وقد تبين ان هؤلاء الرجال والنساء حدثت لهم في خلال حياتهم ١٣٥٨ حادثة حبّ قبل الزواج وفي خلاله . والمقال التالي تلخيص لبعض الحقائق العامة التي خلص اليها الباحثون من النظر في هذه الحوادث والاجابة عن المسائل المتعلقة بها

وفيما يلي مثال من الاسئلة التي وجّهت الى النساء

اذكري الشبان الذين أحبَبْتِهم قبل الزواج او بعده وأجيبي عن المسائل الآتية الخاصة بهم :

١ — ماكان عمرك عند بدء كل حبٍّ جديدٍ
٢ — أكان اكبر منك سنًّا او اصغر سنًّا
٣ — ماكان لون عينيه وشعره وبشرتهِ
٤ — أكان طويل القامة او قصيرها او ربعةً
٥ — أكان سميناً او دقيق القوام او متوسطاً
٦ — أكان يشبه والدك او احد اشقائك في خلقه ومزاجه ؟
٧ — أكان يشبه والدك او احد اشقائك في مظهره الخارجي ؟
٨ — اي حدٍّ بلغت مكاشفة الحب بينكما
٩ — كيف انتهى حبكما ؟ واسئلة أخرى من هذا القبيل

وغنيٌّ عن البيان ان الاجابة عن هذه المسائل كانت تتخذ احياناً شكلاً من الحديث فكانت السيدة مثلاً تبسط ما تريد بسطه — بعد تدوين اجابتها — ومندوب المكتب يصغي ويدوّن الحقائق المهمة من دون ان يقول كلمة توجه تيار الحديث في وجهة خاصة . وكان معظم الرجال الذين سئلوا متزوجين نساء غير النساء اللواتي سئلن . وكان معظم النساء اللواتي سئلنَ متزوجات غير الرجال الذين سئلوا . وقد تبين من دراسة هذه الاجابات وتبويبها ان ثلاث نساء من مائة امرأة، لم يحببنَ في حياتهنَّ رجلاً قط وانهنَّ غير قادرات على حب من هذا القبيل . أما الباقيات —

وعددهن ٩٧ — فقد حدثت لهن ٦٧٧ حادثة حب بمتوسط ٧ حوادث للمرأة الواحدة . اما الرجال المائة فحدثت لهم ٦٨١ حادثة حب . فمتوسطهم اقل قليلاً من متوسط النساء في هذه الناحية

* * *

كان الحب قبل الزواج توطئة للزواج في حياة هؤلاء الرجال والنساء اذا استثنينا رجلاً واحداً والنساء الثلاث اللواتي قلن انهن لم يحببن رجلاً في حياتهن وامرأتين أخريين . ومن غريب ما تبينه الباحثون ان معظم الرجال والنساء الذين سئلوا عن النساء او الرجال الذين احبوهم في حياتهم لم يذكروا ازواجهم الاّ بعد تذكيرهم . فكانت تقول المرأة مثلاً « آه نسيت ان اذكر زوجي »

في اجوبة هؤلاء الناس تبين الباحثون نواحي من مآسي الزواج . فهنا رجل متزوج يلتقي بسيدة متزوجة فيرى كلٌّ منهما في الآخر عطفاً وتقديراً لا يراهما الرجل في زوجته ولا السيدة في زوجها . فيحسان عندئذٍ بأن الزواج كان نوعاً من الوحدة الالية ، خفّف وقعها ولادة الاولاد والانصراف الى العناية بشؤونهم . وفي اكثر هذه الحوادث كان الحائل دون تبادل الحب ، احساس المرأة بالواجب عليها نحو اولادها ، واحساس الرجل بالشفقة على زوجته

هذه المآسي تملأ حياة نحو نصف النساء اللواتي سئلنَ وثلث الرجال الذين سئلوا . ويؤخذ من هذا الاحصاء ان واحدة وأربعين امرأة من مائة كنَّ يحببنَ رجالاً غير ازواجهن وتسعة وعشرين رجلاً من مائة كانوا يحبّون نساءً غير زوجاتهن . ولكن هذه الحالة النفسية في هؤلاء النساء والرجال لم تكن من القوة في الغالب بحيث تحمل على الطلاق والزواج من الشخص المحبوب . وكان لكلّ من هؤلاء النساء والرجال في الغالب عناية خاصة بمطلب من مطالب الحياة يهوّن عليهم ألم الوحدة الذي يحسّون بهِ

ولا يخفى ان من الآراء الحديثة ان الطلاق او الانفصال او انشاء صلات حبية خارج نطاق الزواج يجب ان يعقب هذا الاحساس بفقد الحب بين رجل وزوجتهِ ، او بين امرأة وزوجها . وان الطلاق او الانفصال او اتخاذ خليلة دليل على اثبات حرية الانسان وتعزيز لاستقلالهِ . فهل دلّت احصاءات هؤلاء الباحثين على ان الذين يفعلون ذلك يفوزون بنصيب اكبر من الرضا ؟

يؤخذ من تبويب الاجابات ، ان ٥١ في المائة من الرجال و ٤٥ في المائة من النساء كانوا راضين عن حالتهم الزوجية . اما الرجال والنساء الذين كانوا غير راضين عن حالتهم الزوجية ففريقان . فريق حافظ على عهود الزوجية . وفريق لم يحافظ عليها

فمن الرجال ٢٨ رجلاً اقرّوا بعدم محافظتهم على عهود الزواج ولكن ثمانية فقط منهم — او ٢٩ في المائة — اعترفوا بأنهم ما يزالون راضين بحالهم الزوجية . ومنهم ٧٢ رجلاً انكروا خيانتهم لعهود الزواج ومنهم ٤٣ رجلاً منهم — اي ٦٠ في المائة — اقرّوا برضاهم بحالتهم الزوجية

ومن النساءِ ٢٤ امرأة اقررنَ بخيانتهن لعهود الزواج — واربع منهنَّ فقط اي ١٧ في المائة — راضيات عن حالتهن الزوجية

ومنهنَّ ٧٦ امرأة حافظنَ على عهود الزواج . وقد اقرَّت ٤١ امرأة منهنَّ — اي ٥٤ في المائة — انهنَّ راضيات عن حالتهنَّ الزوجية

فهذا الاحصاء يتجهُ الى اثبات ان انشاء علاقات الحبّ خارج نطاق الزوجية ، لا يزيد الرضا بالحالة الزوجية بل على الضدّ من ذلك يزيد التبرُّم بها

***

اذا انتقلنا من هـذه الناحية الى ناحية صلة العمر بحوادث الحبّ ظهر لنا ما يمكن تلخيصهُ في الجدول التالي

العمر	عدد حوادث الحب للرجل — متوسط	عدد حوادث الحب للمرأة — متوسط
٦ — ١٢	٠٫٦٣	٠٫٥٧
١٢ — ١٥	١٫٥٠	١٫٤٤
١٦ — ٢٠	١٫٥٦	٢٫٣٢
٢١ — ٢٥	١٫٦٨	١٫٣٣
٢٦ — ٢٩	١٫٠٣	٠٫٧٦
٣٠ — ٣٤	٠٫٧٩	٠٫٥٦
٣٥ — ٣٩	٠٫٣٤	٠٫٣٥
٤٠ وما فوقها	٠٫٤٣	٠٫٦٤

فالرجل بحسب هذا الجدول يسبق المرأة في العهد الاول ، أو هي في الواقع تتخلَّف عنهُ . ولكن النساء اسرع نموًّا من الرجال شعوراً و جسداً ولذلك يبلغنَ اقصى مدى في حوادثهما الحبية في ما بين السادسة عشرة والعشرين (المتوسط لهنَّ حينئذٍ ٢٫٣٢) واما الرجال فلا يبلغون اقصى مداهم الاَّ بين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين ومع ذلك فمتوسطهم في هذه الفترة (١٫٦٨) هو دون متوسط النساء في الفترة السابقة . وبعد ذلك ينحدر متوسط الجنسين ولكن انحدار متوسط الرجال ابطأ من انحدار متوسط النساء كما كان ارتفاع متوسطهم ابطأ من ارتفاع متوسطهنَّ

وعند ما يبلغ الفريقان سنَّ الاربعين تستيقظ فيهم صبوة جديدة بحسب هذه الاحصاءات فيزيد متوسط حوادث الحبّ في حياة الرجال من ٠٫٣٤ الى ٠٫٤٣ ولكن الزيادة في حياة النساء اكبر جدًّا لان المتوسط ينتقل من ٠٫٣٥ (وهو مثل متوسط الرجال في تلك الفترة) الى ٠٫٦٤ اي زيادة نحو ٣٠ في المائة في الفترة نفسها . ولعلّنا نجد تعليلاً لذلك في ان المرأة اذا بلغت هذه السن ، تكون قد انتهت في الغالب من العناية الدائمة بشؤون اطفالها ، فتتسع حياتها حينئذٍ لبواعث الحبّ والخيال

ما العلاقة بين سن المحب وسن المحبوب ؟

الاعتقاد الشائع يقضي بأن يكون الزوج اكبر قليلاً من الزوجة . ولهذا سبب فسيولوجي

وآخر نفسي . فالمرأة تسبق الرجل نمواً ، جسماً وانفعالاً . فيجب عليها ان تتزوج من هو اكبر منها حتى تتزوج كفؤاً . والرأي السائد يقول ان الفتيات في الغالب يهمن برجال تخطوا الشباب الى الكهولة . والشبان يهيمون بنساء اكتملت فيهنَّ صفات الانوثة . وان الكهول يلتفتون الى الصبايا . والكهلات الى الشبان . وهذا كله تؤيده الاحصاءات التالية :

	رجال احبوا نساء اكبر منهم سناً	نساء احببن رجالاً اكبر منهن سناً	رجال احبوا نساء اصغر منهم سناً	نساء احببن رجالاً اصغر منهن سناً
١٠—١٩	١٧ ٪	٣٥ ٪	٤ر٠ ٪	٠ ٪
٢٠—٢٩	١١ ٪	٤١ ٪	١٣ ٪	١
٣٠—٣٩	٦ ٪	٣٧ ٪	٥٦ ٪	١٩ ٪
٤٠ وما فوقها	١ ٪	١٩ ٪	٨٠ ٪	٣٨ ٪

فالقارىء يتبين من هذا الجدول ان الفتيان والفتيات يحبون رجالاً ونساءً اكبر منهم في ما بين السنة العاشرة والسنة التاسعة عشرة وان هذه الصفة في الفتيات ابرز وأعم منها في الفتيان . ولكن قلما تجد في هذه السن احداثاً يحبون من كان اصغر منهم من الجنس المقابل . فالاحصاء يبين انهُ لم توجد فتاة واحدة احبت فتى اصغر منها سنّاً . وان نسبة الفتيان الذين احبوا فتيات اصغر منهم سنّاً ٤ في المائة فقط . أما في السطر الاخير من هذا الجدول فترى الآية وقد عكست . فلست تجد الاَّ ١ في المائة من الرجال فوق الاربعين أحبُّوا امرأة أكبر منهم سنّاً . ونسبة النساء في هذه الناحية (١٩) ولكنها أقل في هذه السن منها في الادوار السابقة . ولكن ثمانين في المائة من الرجال — في سن الاربعين أو فوقه — يميلون الى من كان أصغر منهم سنّاً من النساء ، وكذلك النساء في هذا الدور من الحياة يملنَ الى من كان اصغر منهنَّ سنّاً من الرجال

وقد بيّنت في الاحصاءات ان الرجال او النساء الذين حدثت لهم خمس حوادث حبّ او دون ذلك اكثر سعادة في الزواج من الرجال او النساء الذين أربت حوادث حبّهم على ذلك.ومن غرائب ما جاء ان احد الرجال حدثت لهُ ٢٧ حادثة حبّ ولكن « وقع » على حدّ التعبير العربي السائر ، فكان شقيّاً في زواجهِ .واليك البيان :

❁ من الرجال ❁ — ٦٦ رجلاً وقعت لكلّ منهم خمس حوادث حب او اقل — ٥٩ في المائة منهم سعيد في زواجهِ . و ٥٤ رجلاً وقعت لكلّ منهم اكثر من خمس حوادث حب— ٢٤ في المائة منهم سعيد في زواجه

❁ من النساء ❁— ٣٩ امرأة وقعت لكل منهن خمس حوادث حب او اقلّ — ٥٩ في المائة منهن سعيدات في زواجهنَّ و٥٨ امرأة وقت لكلّ منهنَّ خمس حوادث حب—٢٨ في المائة سعيدة في زواجهن

وفي الحالين نسبة السعداء من الفريق الاول في الجنسين اعلى من نسبتهم في الفريق الثاني

مقابر الكتب

١ — ديوان عبد المطلب

قامت بطبعه ونشره مطبعة الاعتماد سنة ٩٣٤

وقف على طبعه الاستاذ محمد الهراوي وشرحه وصححه الاستاذان (ابراهيم الابياري) و (عبد الحفيظ شلبي)

كان عبد المطلب رحمه الله — على كثرة ما يعاوده من الامراض — فتيًّا تسمع لحديثه رنّات مجلجلات كأنما يتكلم وحده في بيداء تتداعى اصداؤها ، وكانت الكلمات العربية الخالصة تتحدّر من لسانهِ ومن بين شفتيهِ وعليها ميسم العرب الخُلَّص الاّ في قليل من الحروف ، وذلك القليل هو حرف (الضاد) فاني كنت اسمعهُ ينطقه على لهجتنا (اعني اهل مصر) كأنهُ دال مفخمة (١) ، وكان الرجل في احساسه بوداد اصدقائه كأنما خلقت اعصابه كلها من المادة التي يُخلَق منها القلب الرقيق الوفيُّ ، ولذلك كان اهون الناس عداوةً على الرغم مما ترى من شدتهِ وجفائهِ في الخصومة ، ولذلك ايضاً كان أحسن الناس تقديراً لمعاصريه من الادباء لا يداخله في ذلك حسدٌ. هذا الاحساس الرقيق وحده كان هو موضع الشعر في عبد المطلب ، فاذا صعب على اصحابنا من الادباء ان يعدُّوا شعر عبد المطلب كله من عالي الشعر في هذا العصر ، فليس منهم من يستطيع ان ينسى ان رجلاً من الرجال اسمهُ عبد المطلب رحمة الله عليه كان كما خلق انسانيةً من الشعر لا انساناً من الشعراءِ

وأنا حين اقرأ شعر عبد المطلب لا اشكّ ساعةً في أمرين. اما احدهما : فكون هذا الشعر ليس من النمط العالي الذي تقوم بهِ البلاغة العربية في هذا العصر وان كان هو من حيث العربية وعلومها من جيد الكلام وجزلهِ ورصينهِ ومحكمهِ . فان اتساع الفكرة في هذا الزمن ثم بساطتها ثم خفاء موضع الفلسفة العالية فيها ، ثم تغلغل النظرة الفلسفية الى أعماق الحقيقة الحية في الكون هو رأس ما يمتاز بهِ كبار الافذاذ والبلغاءِ في عصرنا هذا . وهو النوع الذي لم تعرفهُ العربية الاّ في القليل من شعرائها ، وفي القليل من شعر هؤلاء الشعراء . وليس في العربية من هذا النوع الاّ معجزتان:

---

(١) اما المنطق العربي الصحيح (للضاد) فهو قريب الشبه بالظاء مع اختلاف المخارج فان مخرج الضاد من اول حافة وما يليه من الاضراس من الجانب الايسر وهذا الحرف يستطيل في النطق به حتى يتصل بمخرج اللام وهو الحرف الوحيد الذي يسمى (المستطيل) لما فيه من القوة بالجهر والاطباق والاستعلاء

احداها القرآن ، والاخرى ما صحَّ من حديث الرسول صلى الله عليهِ وسلم ففيهما وحدهما تبلغ الفكرة في نفسها ، ثم بتعبيرها والفاظها، ثمَّ بشمول معانيها لجميع الحقائق الواشجة بها ، ثم بسريانها من الفاظها وكلماتها مسرى الرَّوْح العطر في جوّ السَّحَر ، ثم فوق ذلك كله البساطة واللين والتقارب والتعاطف بين هذه المعاني كلها — تقول يبلغ هـذا كلهُ مبلغاً يكون منه ما هو كنسيم الجنة في طيبه ونعمته ، ويكون منه ما هو كحزّ المواسي في علائق القلوب ، ويكون منهُ ما هو كالنار تستعر وتتلذع ، ويكون منهُ ما ينتظم البنيان الانساني البليغ المتفهم فيهزُّه هزّ الزلزلة أعصاب الأرض وبهذا كان القرآن معجزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبمثله كان حديث الرسول صلى الله عليهِ وسلم هو ذروة البلاغة البشرية التي تتقطع دونها أعناق الرجال . . . . .

***

اما الامر الآخر الذي لا اشك فيه حين اقرأ شعر عبد المطلب ، فهو هذه الحياة التي تترقرق في شعره وان كان هذا الشعر نفسهُ على النمط الذي يسمونه (التقليدي) ، فهو يصف الابل ويتغزل لافتتاح القصيدة ثم يتخلص من غزلهِ الى المدح او اي كان من اغراض الشعر الى غير ذلك من الملامح التي يحفظها هذا الشعر الحديث لشعر آبائنا رحمهم الله في عصورهم الماضية . فالعجب ان يكون عبد المطلب وهو الرجل العربي الذي احتفظ بعربيته في القرن العشرين يحاكي شعر اجدادنا واجداده ولا يخرج الشعر من فكره قاراً ميتاً بل يخرج وهو يتحرك وينبض وكأنهُ شعر عصره الذي كان يمكن ان يقال فيه هـذا هو العجب . وهو عندي الدليل الوحيد على ما كان في نفس عبد المطلب رحمة الله عليه من اسباب الشعر ومادته الحية

فكانت مقدرة هذا الرجل الشاعر في نقله صورة من القرون الماضية وحياتها الى القرن العشرين ... نقل هذه الصورة ولم يدعها كما أتته بل ارسل فيها من شاعريته ، ما احياها ونفخ فيها الرُّوح حتى لا يشك المرء في انها لا تزال حية بين يديه مع اختلاف الازمان عليها وتطاول العصور بها . ومن هنا كان يسمي نفسه بالشاعر البدويّ لانهُ هو الذي استطاع في شعره ان يعطينا صورة حيـة من انسانية قد مضت ونفذَ بها الاجل في ثوب من العربية الفصيحة التي لا عجمة فيها ولا فساد

***

هذا هو الشاعر البدوي كما بدا لنا قبل ان نقرأ ديوانهُ مجموعاً وبعد ان قرأنا ديوانهُ مطبوعاً فمن شاء ان يختار لدراسة الشعر القديم استاذاً يهديه فليرجع الى ديوان عبد المطلب فسَيَسْهُل عليهِ بعد ذلك ان يحسّ بجمال الشعر البدويّ حين يقرؤه لامرىء القيس وغيره من شعراء الجاهلية ومن جاء على آثارهم . وليعذرنا القارىء اذا بدا له انّا لم نختر لعبد المطّلب ما نثبته في هذه الكلمة ، فان باب الكتب في هذا الشهر لا يحتمل اكثر مما كتبنا ، وليرجع الى الديوان نفسه وليقس على ما قلناهُ فسيجد ذلك صواباً — ان شاء الله

٢ — مرشد المتعلم

تأليف السر (جون ادمز) استاذ التربية بجامعة لندن سابقاً — وترجمة الاستاذ (محمد احمد الغمراوي) خريج المعلمين العليا وجامعة لندن والمدرس بكلية الطب — من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر بدار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤

الاستاذ الغمراويُّ كما عرفتهُ من سنين رجل موفق فيما يتعمده من الامور ، مرتّبُ الحديث كأنما يحدثك عن كتاب ، واسع الفكرة بسيطها حتى ليخيل اليك احياناً انهُ يتكلَّمُ بكلام يتداولهُ الناس لا عمل للفكر الدقيق فيهِ ، ولكنك اذا راجعت نفسك فيما تسمع رأيت التوفيق معاناً بالترتيب، مقدَّراً بالفكرة ، محفوفاً بالبساطة والحرية والجمال . واذا اردت ان تتبيَّن ما وصفنا لك فاقرأ كتاباً يؤلفهُ رجلٌ يدرّس الكيمياء ويريق عليها من شبابه ، في باب يتباعدُ ما بينهُ وبين الكيمياء وهو الادب . اقرأ كتابهُ الذي ألّفهُ في ردّ الرأي الذي اذاعهُ الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلي فسترى كيف (يحلل) هذا الكيميائي كتاب الدكتور طه ويصنف لك في (تحليله) انواع الجرائم الفكرية التي وقعت فيهِ ، ويقيدها لك بسلاسل من العلم ، ويضع لك الدواء الذي يذهب بها ويميتها ونحن لا نقول هذه الكلمة لننتصر برجل على رجل ، بل نقولها لأن الحقيقة تفرض علينا أن نقول ذلك وان ندعو — ما تعرَّضت الفرصة — الى قراءة هذا الكتاب الذي لا غنى لاحد من الادباء عنهُ لانهُ هو الكتاب الذي ادخل في الادب دقة التحليل الكيميائي ومزج بين الفكرة العلمية المتلبّثة المتثبّتة ، وبين الفكرة الادبية الخيالية الجامحة واخرج منهما (مزيجاً) شافياً لما انتشر عندنا من الامراض الادبية الكثيرة

قلنا ان الغمراوي رجلٌ موفّق فما رأينا من توفيقه اختياره كتاب (مرشد المتعلم) للترجمة . فان المتعلمين في مصر وغيرها من بلاد العربية بل الذين يعدُّون انفسهم من شيوخ المثقفين وكبار النابغين !! هم احوجُ الناس في الارشادِ الى مثل هذا الكتاب . ولعلّ كثيراً من الذين يسمعون قولنا هذا او يقرأونه يكبر عليهم ان يكون ذلك كذلك . ولكن هذه هي الحقيقة لا تحجبها عنا الاَّ كبرياء النفس المتعالية . لقد كان القدماء من آبائنا رضوان الله عليهم يتخذون من شيوخهم امثلة يسترشدون بها ، وكانوا اقدر منا على ذلك لشدة تعلق الطالب منهم بشيخه من العلماء فهو يتشبه به ما استطاع ، ويسأله عن اشياء من صغائر العلم وأدب طلبه ، يستحي احد طلبتنا الآن ان يسأل عنها اباه او اخاه او استاذه . ثم ان العلماء من المتقدمين كانوا يعمدون الى طريقة بارعة في التدريس وهي التي يسمونها (التوقيف) ومعناها ان يدلَّ الشيخ ولده او مريدهُ من الطلبة على اصول الشيء الذي يتلقاه عنه ويبسطها له ويدربه عليها ، ثم يتركه يقيس عليها ثم يصحح له قياسه ان اخطأ . ولا يذهبنَّ بأحد ان هذا يشبه ما يسمونه الآن (بالتطبيق) فان الفرق بينهما بيّن وليس هنا موضع تفصيل ذلك

فهذا التوفيق الذي كان يقال في الايام الماضية ولا يقيد بالكتاب قد جاء في كتاب السرجون ادمز طرف بارع منه حاوٍ لاكثر ما يحتاج اليه المتعلم صغيراً وكبيراً او كما يقولون (من المهد الى اللحد)، فهذا هو الباب الاول من التوفيق في ترجمة هذا الكتاب

ثم يلي ذلك الباب الثاني من التوفيق وهو في طريقة الترجمة، فان المترجم حين تعرض لها لم ينسَ ما ينساه جمهرة المترجمين في هذا العصر، وهو مقدار التخالف بين الامة التي الف لها ثم فيها الكتاب. وبين الامة التي يترجم لها وفي بلادها هذا الكتاب بعينه. وهذا امر حتم على كل من يتصدّر للترجمة، فربَّ مضرة استجلبها المترجم على قارىء كتابه بنسيان مقدار هذا التخالف بين الامتين. ولكن الغمراوي امسك المفتاح بيده وأداره في الكتاب كله فتسنت له وللقراء من بعده مغاليق الرأي، وكانت الفائدة اجل وأعظم وأوفى. وسيرى قارىء الكتاب حين يتمشى في صفحاته المثمرة كيف وفق الغمراوي كل التوفيق حين ترجم هذا الكتاب

اما التوفيق الثالث فهو اسلوب المترجم في كتابه وهذا امر يفرغ من الاقتناع بهِ كل من يقابل صفحات من الاصل الانكليزي بأخواتها من الترجمة

أما خير ما وفق اليهِ المترجم فهو الفصل الاخير وهو الملحق بالفصل السابع من اصل المؤلف وفيه ذكر كتب المراجع في العربية. وذلك ان الفصل السابع عند مؤلف الكتاب كان في كتب المراجع الانجليزية فاستدرك الغمراوي ما يفوت غيره واستوفى باباً هو اول ما رأيته مما كتب عن المراجع التي يحتاج اليها طالب العلم العربي. لم يترك مؤلف هذا الفصل باباً من ابواب العلم العربي المتداول بين الناس الاّ ذكر لك فيه طرفاً من الكتب الاولى التي لا يستغنى عنها متعلم او متخصص في علم بعينه

ونحن لو ذهبنا نستقصي توفيق هذا الرجل في ترجمة كتابه اولاً ثم في الفصل الملحق، وذكرنا من الحوادث والاخبار التي تذكرناها حين قرأنا في فصولهِ، مما يدل على حاجة كبار المثقفين منا الى الاسترشاد به لادخلنا الضيم على صفحات نقد الكتب من هذه المجلة. فقصارى ما نعمل هنا ان نحمل شكر الامة العربية الى هذا المترجم البارع ثم نسأل الله ان يزيده فيما هو بسبيله توفيقاً وهدًى، وان يهدي قراءنا وادباءنا الى الاستفادة من (كتاب مرشد المتعلم) فان فيه — ان شاء الله — ري النفس، وهدى العقل، واطمئنان القلب الى طريقة محكمة في التحصيل والتفكير

٣ — مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام

تأليف الاستاذ محمد عبد الله عنان. طبعة ثانية بدار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢، سنة ١٩٣٤

ظهر هذا الكتاب من عدة سنوات فلقي من الانتشار وأُلقي عليهِ من المحبة ما لا تبلغه كثير من الكتب العربية التي تطبع في بلادنا. وسبب ذلك على الارجح ما لهذا الغرض بعينه من الشوق في قلوب الناس من أهل الشرق. فطغيان الحياة الاوربية التي تنقل الينا على ظهور البواخر كل يوم

وعلى ظهور الآدميين وعقولهم وشهواتهم بما فيها من الفساد والضعف والانحلال ، وبما فيها من العلم والقوة والنبوغ ايضاً ، . .هو من أهم ما يحفز اكثر المثقفين المفكرين الى درس المواقف التي كانت سبب التحاجز بين أمم الغرب والامة العربية المسلمة ، تلك المواقف التي جعلت للتاريخ الاسلامي صورة ينساها ابناء الاسلام ، ويحقق النظر فيها علماء الامم المسيحية ليأخذوا منها العبرة الباقية على مدى العصور واضحة جلية مفصحة مبينة

المواقف الحاسمة التي وقفت من سيل المسلمين بدينهم ومرَّنت الامم المسيحية على خُلُق المسلمين وآدابهم وعاداتهم وشيء من دينهم ، كانت ولا تزال مادة للتاريخ الحي الذي يجب على كل شرقي ان يوجد العناية بهِ في نفسه ان كان لا يجدها ، وذلك لما فيها من مفاخر السلف العاملين ، وفي هذه المفاخر اصول للقدوة والاتباع فيها إنقاذ الحياة الشرقية من الفوضى والجهل ، واستخلاصها من براثن الاستعمار الذي لا يدع للقوي قوة يفزع اليها ، ولا للضعيف عدة يستنصر بها

ولعلَّ أول من اعتنى من كتّاب العصر الحديث بهذا هو الاستاذ محمد عبدالله عنان فقد كتب كتابه هذا باذلاً اقصى الجهد في تحقيق ماهو بسبيله من التاريخ على قدر مايكون في طاقته مخلصاً في ذلك كل الاخلاص . ولهذا الاخلاص يغتفر له من يقرأ كتابه بعض الزلات . ولهذا نفسه كان هو اول من رجع على فصول كتابه بالتعقيب فنقّح منها وزاد فيها ما صحَّ له من العلم . وهذا وحده فخر عظيم للاستاذ يجعله دائماً في طليعة من يريد العلم للعلم . لا للشهرة والاسم

ولا نزيد قراءنا تعريفاً بالكتاب وكاتبه ، فالكتاب قد اخذ قسطاً وافراً من الشهرة في الامم الشرقية والعربية ، والكاتب له في قلوب الشرقيين مكانة ومودة . ويبقى علينا ان ننبه الى شيء جديد وهو ان هذا الكتاب يكاد يختلف اختلافاً كبيراً عن الطبعة الاولى منه ، لما فيه من الفصول التي اضيفت له ، وما دخله من التغيير والتنقيح حتى اصبح كتاباً مستقلاً يضارع الطبعة الاولى منه . فلا غنى لمن يملك الطبعة الاولى عن اقتناء الطبعة الثانية ، ونرجو ان يوفق الاستاذ في طبعته الثالثة الى اضافة فصول جديدة وادخال تنقيح جديد في ابواب كتابه فما من كلمة يكتبها أحدنا اليوم والاَّ ويصبح وقد بدا له فيها . وهذا هو السر في تجدد العلم . وهو سرُّ العقول النابغة التي لا تفتر ولا تمل

محمود محمد شاكر

وراء الغمام

اشعار الدكتور ابراهيم ناجي — صفحاته ٢٠٢ قطع صغير — طبع بمطبعة التعاون

اختلف النقاد في الحكم على شعر الدكتور ناجي . فهبط بهِ جلُّهم الى الحضيض ورفعهُ بعضهم الى السماك . والنقد فنٌّ او هو ضرب من الفن . والفن نظرة الى الحياة ومعانيها والكون واسراره من خلال المزاج الخاص . لذلك كان كلُّ نقد حكماً خاصًّا لا يمكن ان يسري سريان الحكم العلمي . لان هذا اذا أيدتهُ التجارب وجب التسليم بهِ سواءٌ ارضيت عنهُ أم لم ترض . وقد ينظر شاعر ان

الى مشهد واحد ، فيراه احدهما على وجه يختلف عن الوجه الذي يراه عليه الآخر . او قد ينظر ناقدان الى صورة واحدة لرجل معين ، فيهملها الواحد لانها تعلي من شأن صفة في الرجل لا يهمهُ شأنها ويكبرها الآخر لان تلك الصفة نفسها في نظره من اسمى مناقب الرجال. وليس في مستطاعك ان تقول ان هذا اخطأ او ان ذاك اصاب ، وجلّ ما تستطيعهُ ان النظرتين اختلفتا

ولا يمكنك ان تعلّل الاختلاف في حكم النقّاد على شعر ناجي الاّ اذا ادركت هذه الحقيقة الاساسية في فلسفة النقد

فأنت مثلاً رجلٌ ظلمتك الحياة فبدّدت حقائقُها القاسية احلامك بعد ما اسبغت عليها من الوانها كلّ زاهٍ وطروب ، فيعجبك قول هذا الشاعر .

اشتري الاحلام في سوق المنى وابيع العمر في سوق الهموم

ويتغلغل في نفسك وتراه يعبر في بيته اصدق تعبير عن الحياة : فاذا كنت من الذين اصابوا النجاح على الطريقة الاميركية ، احتقرت الاحلام والمنى والهموم ، وقلت ما هذا الهذيان

او قد تكون رجلاً تعوّد الشعور بالتبعة ، ادبية كانت او غير ادبية ، فيتعذر عليك ان تطلق نفسك في مجلس شعارهُ المرح والمزاح. فتحسُّ بانقباض لذلك في بعض الاحيان، لانك اذا استطعت ان تمرح وتمزح خفّفت عما يساورك وأحسست انك وصحبك كالراح والماء، تتجاوب نفوسكم ، وفي هذا التجاوب اعلى معاني الصحبة والصداقة . فاذا كان هذا التجاوب متعذراً عليك اعليت من شأن شاعرنا حيث يقول

لمَ لا تذوق كؤوسهم شفتي ؟ ان الحجا سمي وتدميري
في ذمة الشيطان فلسفتي ورزانتي ووقار تفكيري

فاذا كنت ممن يغشون المجالس ويستسلمون الى المزاح ، والتنادر السخيف ، قلت ما هذا الرجل المتعالي لانهُ وعى بعض حقائق ونظريات ، تفوقه فيها كتب قليلة

او قد تكون من الذين تشوقهم معاني الحب ، وذكرياته في عهد الصبا فتطرب اذ تقرأ له :

هل رأى الحب سكارى قبلنا كم بنينا من خيال حولنا
ومشينا في طريق مقمرٍ تثب الفرحة فيه قبلنا
وتطلعنا الى انجمهِ فتهاوين وأصبحنا لنا
وضحكنا ضحك طفلين معاً .وعدونا فسبقنا ظلنا

او اذا كنت ممن يتأمل في حقائق الحياة ، فنقل على طبعك منها الرياء والزور والصغار ، وطلبت العزلة لعل فيها برء النفس عن طريق الاتصال بحقيقة الوجود الكبرى رأيت في قصيدة «الليالي» قوله

مكاني الهادىء البعيدْ كن لي مجيراً من الانام
قد أمّك الهارب الطريد فآوهِ أنت والظلام

قد صار حبّ الحياة منا يقنع بالجيفة السباع
وعلّم السمْح ان يضنَّا وثبّت الجبن في الطباع

مَللتُ في هاتهِ العوالم مهزلة الموت والحياه
وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الجباه

فالشاعر الذي يستطيع ان يعرب عن هذه الحالات النفسية ، وغيرها ، هذا الاعراب الناصع ، جدير منا بالاكبار

والواقع ان رجلاً كناجي ، واسع الاطلاع على الادب الاوربي بوجهٍ عام والادب الانكليزي بوجهٍ خاص ، مجرّب لانهُ خبر الحياة كطبيب ممارس ، مرهف الاحساس دقيق الشعور ، لا يمكن ان يكون كلُّ ما يقولهُ من سقط المتاع . فالعقل لا يقبل مثل هذا الحكم الحاسم . ونحن لا ننصب انفسنا للدفاع عنهُ ، وانما للدفاع عن سجية الانصاف في تقدير الادب والادباء

قد يسفُّ الشاعر احياناً ، واي شاعر سلم من ذلك . وقد يكون طبيباً وعالماً واديباً واسع الاطلاع ولا يكون شاعراً . ولكن من عرف ناجي عرف ان تركيبهُ العصبي تركيب شاعر . اسمعتهُ يتغنَّى ببيت من الشعر لهُ او لغيرهِ ? ارأيت ألقة عينيه وهو يصغي الى الشعر الجيد ? اشهدتهُ ينفعل لمشهدٍ يُرى او لحكاية تُروى او لذكرى تستعاد ? اتبيّنت في شعرهِ رجع الحوادث في نفسهِ ? قد تكون اداتهُ اللغوية غير كاملة لتأدية اغراضهِ . او قد يختار هو عمداً بعض التعبيرات التي تجري على السنة العامة لحكمة خاصة . ومثل هذه التعبيرات لم تنتقص من قيمة روبرت برنز كشاعر كبير . وقد تكون موضوعاتهُ محدودة محصورة في ناحية واحدة او بضع نواحٍ من الحياة ، ولكن اذا كان الحصر لا يمنع الترداد ، ويقي من التقليد ، فانعم بهِ ، فالعبرة في الشعر بصدق الشعور وصدق البيان ، وناجي اصاب من هذين قسطاً وافراً

مجلة العرفان

اصدرت زميلتنا مجلة العرفان بصيدا العدد الخامس والسادس لسنة ١٣٥٢ في جزء واحد وكله عن العراق . وهو رحلة الى العراق قد طالت زمناً حتى استطاع الاستاذ احمد عارف الزين صاحب المجلة ان يستوفي الدقائق التي تخفى على الكثيرين واثبتها في هذا العدد وقد زاد هذا العدد خطراً على خطره ما اثبته الرحالة من تاريخ البلدان التي مرَّ بها او مكث فيها، وتنبّه الى دقائق في تاريخ هذه البلاد وفق فيها كل التوفيق ولم يخل مع ذلك من كثير من النظرات في الحالة الاجتماعية فوصفها أدق وصف ، وزاد على ذلك ما فيهِ من ذكر وجهاء البلاد التي مرّ بها وعلمائها وشعرائها وساستها الى غيرهم من طبقات الناس فهذا العدد هو احفل من اي كتاب آخر فيما يتعلق ببلاد العراق المذكورة فيهِ . ومجلتنا تهنئ مجلة العرفان بما وفقت اليهِ وتعتذر عن تأخير الكتابة عن عددها هذا لما كان حدث من اختلاط بعض الكتب وشتاتها

شخصيات شرقية

مهاتما غاندي — غاندي والحركة الهندية — مصطفى كمال — ابن سعود — عصمت باشا

— ١ —

مهاتما غاندي ترجمته على لسانه . نقله اسماعيل مظهر . طبع بمطبعة عيسى الحلبي بمصر عدد صفحاته ٢٨٦ (ترجمة)

وضع المؤرخون والمؤلفون في شتى اللغات فوق الاربعة آلاف مؤلف عن نابليون وما زال المؤلفون والمؤرخون يجدون مجال القول فسيحاً في نابغة الحروب وعبقريها . ففي كل حقبة من الزمن يطلع علينا نابليون جديد على قلم كاتب جديد . ولا بدع فكل سيرة من هذه السيَر تاريخ عصر بأسره. وشخصية العبقري بأعمالها العظيمة فسحة من الدهر ممدودة الرواق على الغد موصولة العلائق بالامس هدمت الماضي وبنت للمستقبل مما ليس في وسع كاتب واحد ان يحصر اشعة لمعانها ويحصي أنجم اشراقها و يطوق نواحيها الكثيرة . اذاً ما على الاستاذين الكبيرين اسماعيل مظهر وسلامه موسى ان يعتذرا للقارئين على اصدارهما كتابين اثنين في زمن واحد عن رجل واحد بل لهما ان يغتبطا فكلٌّ من كتابيهما مكمل للآخر ولكل منهما شخصية ممتازة

ان بعض الرجال العظام يدوّن مذكراتهِ بيده ومنهم من يستكتب سواه ومنهم من لا يكتب ولا يستكتب فيسلم شخصيته بعد موته لاقلام المشرحين يتصرفون بها كما يوحي اليهم تفهمهم وعلمهم وتجردهم ووجدانهم . والكتاب الذي عنوانه :« مهاتما غاندي» مكتوب بقلم غاندي ومنشور بعناية المستر اندروز ومترجم بيراعة اسماعيل مظهر فهو يحتوي على ثلاثة رموز للاخلاص فغاندي أنصف نفسه واندروز صديق غاندي أنصف الصداقة واسماعيل مظهر أنصف امانة النقل والترجمة

يستهويك في هذا الكتاب اسلوبه المغري فأنت تطالع سيرة غاندي بشكل روائي لا ملل فيه ولا سأم . وتعبيرهُ جميل لا كلفة فيه ولا تثاقل . ويستهويك فيه موضوعه ألا وهو غاندي ، والنشاؤه ألا وهو لاسماعيل مظهر

ان الهند مكمن الاسرار وغاندي سر المكمن ومن الصعب دراسة شخصيته ومنشأه ومنحاه ونفسيته وتطورها وهو بعيد عن عين الدارس واذنه لذلك نعلق بكتاب اسماعيل مظهر شأناً خاصاً لانهُ مكتوب بقلم صاحب السيرة نفسه افرغ فيهِ غاندي كل ما يعلم عن نفسه وما يشعر بهِ فقد تكلم عما حدث لهُ وعما كاد ان يحدث لهُ وعما يجب ان يكون فظهرت في مذكراته الحوادث الواقعية والعوامل الداخلية والخفايا السياسية . ولولا حديث غاندي عن نفسه لما عرفنا انهُ يكره النصرانية (صفحة ٣٨) ولما سمعنا بالفتاة المستخدمة في مكتبه التي كانت تستشيره في أمر زواجها فينصحها ويعنى بأمرها عناية الاب بالابن وهي ناحية جديدة جديرة بالدرس لعلاقتها بشعور زعيم مفروض فيه

الحنان على ابناء وطنه . نعم ان غاندي كان يكره النصرانية في حداثته ولكنهُ — كما يقول — يدين بدين : « قابل الاساءة بالاحسان » وهو مبدأ مسيحي . وغاندي يكره سياسة الاسلام في الهند ولم يقل انهُ يكره المسلمين كما انهُ لا يكره من النصرانية سوى بعض اساليبها ومظاهرها والحقيقة ان غاندي وان راض نفسه على ان يكون متسامحاً نحو الاديان الاخرى اي غير النصرانية فان ذلك لم يكن معناه انهُ يعتقد في وجود الله (صفحة ٣٩)

يحدّثك غاندي عن مولده ومسكنه وأيام المدرسة والحداثة وعن باكورة شبابه ورحلته الى لندن والعودة الى الهند ويعرض عليك اخبار حرب البوير وثورة الزولو ويقص اخبار السجن وحياته فيه ثم ينتهي بك الى لذة الانتصار ولكنهُ لا يفصّل تشعُّب المفاوضات ولا يدخل في صميم المشكلة السياسة القائمة بين انكلترا والهند ولا يصف لك حلولها وعلاجها لان الكتاب ينتهي عند مرحلة معيّنة في حياتهِ خُتِمت قبل ان تصبح مشكلة الهند من المشكلات الكبرى التي تعانيها الامبراطورية البريطانية والهند بعدما وضعت الحرب اوزارها

وفي الكتاب مقدمة بليغة من قلم المترجم جمعت في سطورها القليلة ابلغ ما كتب عن غاندي . فاسمع : «امبراطورية لا تغيب الشمس عن املاكها فكُرة الارض تحمل من الوانها الجغرافية زناراً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ولسلطانها يخضع الابيض والاسمر والاصفر والنحاسي والاسود من سلالات البشر وفي داخل املاكها تدين اقوام بصور من الاديان والوان من العقائد لايحصرها العد هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشري من الدم واللحم والعظام لايزيد وزنهُ على وزن كرة مدفع من اصغر مدافع بريطانيا العظمى . واما هذا الهيكل البشري الضئيل فغاندي العظيم»

— ٢ —

غاندي والحركة الهندية . تأليف سلامه موسى مطبوع بمطبعة المجلة الجديدة بمصر وعدد صفحاته ١٠٤

يقول المؤلف في المقدمة : « هذا الكتاب ثلاثة اجزاء . يعالج الجزء الاول منه الاحوال العامة في الهند مع اشارات تاريخية موجزة . اما الثاني فيعالج سياسة غاندي وفلسفته . وفي الجزء الثالث نقلنا بعض مقالات كتبها غاندي ونشرت في المجلات الهندية »

لا اعلم اذا كان الاستاذ سلامه موسى يحسن الهندية ولكني اعرف انهُ احسن الكتابة عن غاندي وعن الهند فكتابه عن امبراطور الهند غير المتوج دراسة ثمينة ملمة بنواحي الموضوع من غير تطويل ممل ولا اقتضاب سقيم . وقد كتبه بشغف وحماسة واندفاع ولكن من دون هوى وتعصب ويقصد به الى غاية . فبتمجيده بطل الهند يرمي الى غرض ليست مصر بغريبة عنه

وقد لا نشاطر الاستاذ سلامه موسى رأيه في تشبيه الحركة الهندية بالحركة المصرية فهو ذاته يعترف بأن احوال البلادين مختلفة وليس على مصر ان تأخذ بالحركة الهندية الا استئناساً وعلى مقدار حاجتها الى المثل العليا والى الامثلة . لان مبادىء السياسة في مصر غيرها في الهند . فالهند

للانجليز غاية ومصر للانجليز طريق الهند . ولكن قد تتشابه اسباب الكفاح ووسائله في المكانين مع بعض اختلاف، ثم انهُ لا يجب ان ننسى ان ما بلغته مصر من المقام الدولي هو فوق ما للهند منه فالجهود التي تبذلها مصر في هذه الناحية يجب بطبيعة الحال ان تكون دون الجهود التي تبذلها الهند . وعلى كل فان مصر دانت بمبادىء زغلول وآرائهِ في جهادها السياسي ونضالها للاستقلال فمن اصالة الرأي ان تعمد دائماً الى تعاليم زغلول وخططه لتجد فيها وسائل الكفاح وطرق النضال لا الى تعاليم سواه من زعماء البلدان الاجنبية وان كان لا يضير مصر ان تستلهم مواقف الآخرين الذين صهرهم الظلم فأخرجت ادمغتهم عصيراً قاتلاً في بعض المرات لمكروب الاستعمار

قال المؤلف ان غاندي قام بدعوة الى الاستقلال النفسي فالاعتماد على القوة الروحية وما يتبعها من تقشف ونسك . وقام ايضاً بدعوة الى الاستقلال الاقتصادي باتخاذ المغزل وايثار القماش الهندي على جميع الاقمشة الواردة الى الهند . وقد فطن الاستاذ سلامه موسى الى ان مصر ابعد الناس عن التسك فالنسك هو النظر السلبي للحياة ومزاج مصر هو المزاج الايجابي . على ان مصر تستطيع ان تأخذ عن غاندي الاستقلال الاقتصادي مع بعض تعديل في الاسلوب كأن تجعل النول بدل المغزل رمزاً للكفاح الاقتصادي

ومما لا شك فيه ان الكفاح الاقتصادي في مصر غير معدوم فالصناعة الوطنية تجتاز شوطاً بعيداً وليس من حاجة الى تنشيطها عن طريق النعرة القومية الوطنية. بل هي تنشط ذاتها بعوامل من جنسها اي اقتصادية فالمنافسة والمزاحمة خير كفاح اقتصادي

وفي كتاب الاستاذ سلامه موسى بحث جغرافي واحصائي وسياسي عن الهند مما لا غنى عنه لكل من يعنى بشؤون هذه البلاد العريضة الطويلة فقد تكلم المؤلف عن الاستعمار البريطاني والسكان والاديان وعن الثقافة الانجليزية في الهند والفقر والنجاسة والمرأة الهندية — وغاندي اعتمد كثيراً على المرأة في جهاده — وأخيراً عرض المؤلف الى شرح الدستور الجديد

ويتلاقى كتاب سلامه موسى بكتاب اسماعيل مظهر في الموضوع وفي الجزء الثالث من الكتاب الاول وهو الجزء الذي يحتوي ترجمة المقالات التي كتبها غاندي بقلمه وفي هذه المقالات تطالع آراء زعيم الهند في الانجليز وفي نساء الهند والتعليم وفي مذهب السيف والخوف من الموت الخ فغاندي في هذا الجزء يخاطبك مباشرة كما خاطبك في كتاب اسماعيل مظهر

ولا نغالي اذا قلنا ان كتاب غاندي والحركة الهندية أعم كتاب في موضوعه باللغة العربية ولم يكتف المؤلف بمعالجة موضوع الهند فقط بل قابل بينها وبين مصر مقابلة سهلها له انضواء الهند ومصر تحت لواء الامبراطورية الانجليزية انضواءً ارغامياً ولكنه انضواء على كلّ حال

ولا خفاء ان هذا المؤلَّف — بالفتح — نتيجة دروس وبحوث وتنقيب ومراجعة ومطالعة واستقصاء بل هو نتيجة متاعب يعرفها المنصرفون الى التأليف والوضع

— ٣ —

مصطفى كمال او المثل الاعلى . تأليف الكاتب الالماني داجوبرت فون ميكوش
وتعريب الاستاذ كامل صموئيل مسيحه مطبوع بمطبعة الوفاء بيروت وعدد صفحاته ٣٦٠

نطالع في هذا الكتاب سيرة مصطفى كمال من عهد المدرسة الى عهد الحكم ويتخلل ذلك صفحة من تاريخ تركيا الحديث وهو تاريخ مشحون بالانقلابات والدسائس والمفاجآت ولا نرانا بحاجة الى ذكر موضوعه بالتفصيل فقد عرف الناس كيف قضى مصطفى كمال على عرش الخلافة وهزم آخر سلاطين بني عثمان وكيف تسنم ذروة الحكم ونهض بامته ونفض عنها وشاح التقاليد القديمة وقد وصف كل هذا الكاتب الالماني باسهاب واحسن المترجم نقله الى العربية . يقول المترجم عن المؤلف :

« اعتمد المؤلف الالماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية وترجم مذكرات الغازي ذاتها وراجع معلومات جمعها له اصدقاؤه الاتراك فجاء كتابهُ تحفة تاريخية نادرة ومثلاً اعلى للكتابة بامانة واخلاص عن سير الرجال العظماء »

فبعد هذا لا نجد تقريظاً آخر للمؤلف . ان عظمة مصطفى كمال وعبقريته وفضله على تركيا فوق كل شبهة . وقرَّاء هذه المجلة يذكرون مقالات محرّرها على اثر زيارته لتركيا في الصيف الماضي

— ٤ —

٤—ابن سعود . تأليف الرحالة الانكليزي الشهير كنث وليمز وتعريب الاستاذ كامل صموئيل مسيحه

وهذا ايضاً كتاب عن امير العرب ورجل الساعة في الجزيرة يضعهُ انكليزي ويترجمهُ عربي وانت ترى ان الكتب الموضوعة عن الشخصيات الشرقية في المدة الاخيرة كثيرة جداً وترى ايضاً ان معظم هذه الكتب العربية والتركية الموضوعة مكتوبة باقلام غربية فمن الخير المحمود ان نطالع كتاباً عن سعد زغلول بقلم مصري يتناول فيهِ ناحية جديدة من حياة رئيس الوفد فمما لا شك فيهِ ان زغلول لم يدرس دراسة تفصيلية ولا يزال جانب عظيم من حياتهِ الخاصة السياسية مطوياً

— ٥ —

عصمت باشا . خطبه واقواله السياسية والاجتماعية نشرتها جريدة الحادثة باللغة التركية
نقلها الاستاذ عبد العزيز امين الخانجي . والكتاب مطبوع في مطبعة السعادة بمصر وهو يقع في ٣١٥ صفحة

ولا شك ان نشر هذه الوثائق وجمعها للمشتغلين بالقضايا السياسية الداخلية والعالمية ذو شأن كبير فان عصمت باشا لعب دوراً كبيراً في سياسة بلادهِ من حيث الاصلاح الداخلي وفي سياستها الخارجية بصفتهِ ممثلاً لتركيا في المؤتمرات السياسية

وقد جمع عصمت باشا الى المرونة في السياسة العبقرية في الحرب وفنونها وشهد له الالمان بنبوغهِ العسكري ومنحوه الاوسمة العالية وقد انضم الى الحركة الوطنية وعمل بجانب مصطفى كمال ووجد

هذا فيهِ خير معوان واكبر عضد . وجدير بالسياسيين المصريين اقتناء هذه المجموعة لعلاقة موضوعاتها ببلادهم علاقة غير مباشرة اذ ان عصمت باشا عرض اكثر من مرة الى الروابط التي تربط بلاده بالبلدان الاجنبية وعلى الاخص بتلك التي كانت ذات علاقة وثيقة بالسلطنة العثمانية . والذي يزيد في شأن الكتاب انهُ صادر عن رجل مسؤول لا يرسل القول على عواهنهِ ولا يعقل ان يشحن خطبه واقواله بغير الحقائق . فكل ما في الكتاب اقوال فاه بها عصمت باشا في جلسات البرلمان والمفروض فيها الحقيقة والصدق

توفيق وهبه

تحضير الميزانية المصرية

تأليف الدكتور محمد توفيق يونس — رسالة قدمت الى كلية الحقوق المصرية — حازت رتبة « جيد جداً » — صفحاتها ١٩٩ — طبعت بمطبعة الرغائب

عالج المؤلف هذا الموضوع الجديد في اثني عشر باباً المّ في اول كل منها بالنظرية العامة التي تتصل بهِ ، وبمختلف الطرق التي تتبعها الدول ، توضيحاً للحال السائدة في مصر ، وتحديداً لأ نظمتها من بين هذه الطرق. ثم اتبع هذه الالمامة في كل باب بكلمة تاريخية وصف فيها الحال التي كانت سائدة بعصر في الماضي ومختلف ضروب الاصلاح التي أخذ بها ، حتى اذا وصل الى النظام الحالي حدّده وحللهُ مبدياً ما يقترحه من وسائل العلاج .وقد صدّر الكتاب بتمهيد تاريخي عام تناول فيهِ المراحل الرئيسية التي قطعتها الميزانية المصرية وسلسلة الادوار المختلفة التي مرت عليها في طريقها الى السهولة والوضوح ومطابقة الواقع ، تاركاً التفاصيل للكلمة التاريخية الواردة في كل باب

ولقد خصَّ المؤلف البابين الاول والثاني ببحث عدة مسائل اولية عامة ، فتكلم في الباب الاول عن المدة التي توضع لها الميزانية ، ثم تناول التاريخ المحدد لابتداء هذه المدة اي السنة المالية باحثاً في التعديلات المختلفة التي ادخلت على هذا التاريخ شارحاً شرحاً مستفيضاً الاسباب التي ادّت الى كل منها والاجراءات التي اتخذت لتحقيقها . وتكلم في الباب الثاني عن موضوع يتصل بالسنة المالية اتصالاً وثيقاً وهو طريقة وضع الحساب النهائي لها

وبعد ان انتهى المؤلف من بحث هذه المسائل الاولية ، تناول التحضير الفعلي للميزانية في الابواب التالية ، فتكلم اولاً عن محضري الميزانية ، وهو موضوع وقف عليهِ ثلاثة ابواب : وهي الثالث والرابع والخامس ، فتناول في الباب الثالث نصيب السلطة التنفيذية من تحضير الميزانية مفصّلاً دور الوزراء في تحضير تقديراتهم ، فالدور الهام الذي يقوم بهِ وزير المالية في اعداد الميزانية ، دون ان يغفل عمل السكرتيرين العاليين الذين يعتبرون اداة اتصال بين وزير المالية وبين زملائه الوزراء الآخرين . ولقد بيّن المؤلف كيف ان وزارة المالية في مصر لا تملك قانوناً ان تعدل اقتراحات الوزارات الاخرى دون موافقتها ، وكيف انها في الواقع تعدل فعلاً في هذه

الاقتراحات على الرغم من ذلك ويوضع مشروع الميزانية على اساس هذه التعديلات التي تراها وزارة المالية « او بالتدقيق لجنتها المالية » بعد ان يقرها مجلس الوزراء

اما الباب الرابع فقد خصصهُ للكلام عن المال الاحتياطي لما لهُ من المقام الخاص وعلاقته بعمل وزير المالية في تحضير الميزانية وموازنتها . ثم تكلم في الباب الخامس عن نصيب السلطة التشريعية هذا التحضير باحثاً في التغييرات التي ادخلها دستور سنة ١٩٣٠ في هذا الصدد. بعد ان انتهى من الكلام عن محضري تقديرات الميزانية ، تناول كيفية وضع هذه التقديرات فتكلم في الباب السادس عن الطريقة المتبعة في مصر في تقدير الايرادات ، وفي الباب السابع عن الطريقة المتبعة في تقدير المصروفات

وفي البابين التاسع والعاشر والحادي عشر تناول المؤلف بعض المميزات التي تنفرد بها الميزانية المصرية مثل الايرادات المخصصة للدين العمومي والميزانيات الخاصة والملحقة مثل ميزانية الاوقاف وميزانية الازهر وميزانيات الجامعة المصرية ودار الكتب المصرية والسكة الحديدية والتلغرافات والتلفونات والحسابات الخاصة بالسلف التي قدمتها الحكومة في العهد الاخير الى الملاك والزراع والصناع. وقد حلل في الباب الثاني عشر والاخير مجلد الميزانية في شكله الحالي نظراً لاحتواء هذا المجلد على النتيجة النهائية لجميع هذه الخطوات التي تمر بها الميزانية . وقد ختم هذا الباب باقتراحات جمة تتعلق بمجلد الميزانية حتى يمكن لمن يرجع اليه ان يلم بمركز الدولة المالي دون صعوبة

وعلى الجملة فقد بحث المؤلف بحثاً وافياً دقيقاً المراحل المختلفة التي تجتازها الميزانية المصرية والمبادىء والقواعد التي تخضع لها ، والاساليب التي تنفذ بها هذه المبادىء والقواعد ، مبيناً ما لكل منها من مزايا ومساوىء ، معقباً عليها بمقترحاته

حرب نيقوبوليس الصليبية (١)

تأليف الدكتور عزيز سوريال عطية — بالانكليزية نشره بيت مثوين بلندن — الثمن عشر شلنات ونصف

اهدى الينا الدكتور عزيز سوريال عطية نسخة من كتابه التاريخي النفيس الذي وقع احسن وقع في دوائر انكلترا التاريخية لما اشتمل عليه من العلم الواسع والتدقيق في حقبة من تاريخ اتصال الشرق بالغرب ، لم تنل من المؤرخين ما هي جديرة به من العناية . وقد اطلعنا في جريدة التيمس في ملحقها الادبي على مقال في هذا الكتاب فرأينا ان ننقله الى القرّاء ، فنصيب به عصفورين بحجر واحد . ذلك ان المقال المذكور وصف دقيق للكتاب ودليل على مكانته في آن واحد

قالت التيمس :

ان الاعتقاد السائد بان الحملة الصليبية الاولى كانت وجهتها الى فلسطين جعل الكثيرين يظنون انهُ بخروج الصليبيين من تلك البلاد وطرد سلطان المماليك لهم انتهت تلك الحروب الصليبية . هذا

(1) The Crusade of Nieopolis by Dr. Aziz Suryal Atiya Published by Nethuen and Co. Ltd London 10/6

بينما يعتبر الآخرون موقعة ليبانتو من ذيول تلك الحروب ويرى غيرهم في موقعة نوارين والحصارات الفرنسية في الجزائر ومراكش وفي تحرير الجنرال اللنبي لفلسطين دلائل على الروح الصليبية .

ولكن قليلين من امثال الدكتور عزيز سوريال عطيه قد اتجهوا وجهة اخرى في اعتبار الحملة التي ارسلت الى نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ آخر الحملات الصليبية التي حدثت خلال القرون الثلاثة التي سبقت ايام بطرس الناسك

وقد اتبعت الحملة الى نيقوبوليس نفس الطريق التي سلكتهُ الحملات السابقة ممن كانت اسعد حظًّا من هذه ، وكان النظام في حملة نيقوبوليس نظيره في الحملات السابقة اذ كان معدوماً انعداماً تامًّا وطغت الحزازات والمنازعات على الصليبيين هذه المرة كما طغت عليهم وحطمتهم في المرات السابقة

وقد دلت التجارب الحالية على ان التحالف لا يؤدي دائماً الى الكفاءة والقوة الحربية حتى ولو توفر النظام وتيسرت الادارة الحازمة في كل من المتحالفين على حدة ... ويوضح لنا الدكتور عطيه كيف كانت حالة الصليبيين يرثى لها فبعض الجماعات الصليبية ثائر وبعضها خائر العزم يسعى الى هجر الحرب بينما كان البعض خرافيًّا ممن تعلق بالخرافات وحتى القواد انفسهم كانوا متنازعين متخاصمين يملأ الحسد قلوبهم ، لا يعملون الاَّ لمجد انفسهم الفردي جاهلين ما يؤدي اليهِ التعاون من النتائج

***

اما في نيقوبوليس فلم يكن اي أثر للنظام اعني تكوين الفرق بشكل نظامي ، ويصف الدكتور عطيه بدقة كبيرة ما كان عليهِ كل من الجيشين المسيحي والتركي وكيف كان الاتراك يعتمدون كل الاعتماد على السرعة وخفة حركة جيادهم بعكس الصليبيين ، وعلاوة على ذلك ان الاتراك كانوا يحاربون تحت قيادة حربية مطلقة استبدادية فكانت اوامر القائد مطاعة اطاعة عمياء بينما الصليبيون لم يكونوا ليطيعوا شخصاً معيَّناً بالذات وكان جلُّ همّ الفرنسيين مثلاً احراز اكاليل الظفر لانفسهم حتى انهم لم يمهدوا الطريق لشخص مثل سجسمند في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمحاربة الاتراك كانتخاب الجنود ممن تعودوا اساليب الاتراك في الحرب

وكانت نتيجة هذا النظام الفاسد والسياسة الخاطئة انهُ بالرغم من الشجاعة النادرة والتفوق المدهش الذي اظهره الصليبيون في القتال وجهاً لوجه فان القائد الفرنسي قتل وولي عهد دوق برجندي اسر بينما افلت ملك المجر بغاية الصعوبة هارباً خلال بلاد الدانوب الى البحر الاسود حيث آوته احدى السفن وحملتهُ سالماً الى مملكتهِ ، وكم كان سرور الاشراف حين عاد اليهم ملكهم مهزوماً حتى لا تزيد سطوته فيهم !

وقد كان من الممكن للاتراك ان يتقدموا في الفتح بعد هذا النصر ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ويمكن تعليل ذلك بمرض السلطان او برغبتهِ في عدم التوغل في الفتح بعيداً عن قاعدة ملكه ويعتقد الدكتور عطية انهُ لم يكن هناك ما يمنع السلطان من غزو المجر

وقد كانت النتائج الحربية لانتصار السلطان جلية في زيادة نفوذه في البلقان حيث فضل الارثوذكس السلطان التركي وآثروه على بابا روما لان اللاتين اشتهروا بعدم تساهلهم في الأمور والاختلافات الدينية

وقد خصص الدكتور عطية جانباً كبيراً من عنايته لدراسة الامور المالية في تلك الحروب الصليبية اذ انهُ كان لا بدَّ من دفع مبالغ كبيرة للسلطان التركي فدية عن الاسرى من الصليبيين ، وانهُ لمن المتبع حقًّا ذكر طريقة دفع هذه المبالغ والمفاوضة في شأنها

ان قصة حرب نيقوبوليس الصليبية ليست طويلة ولكن الدكتور عزيز سوريال عطيه قد دعمها بالبيانات الاضافية حتى ان القارىء ليشعر انهُ قد المَّ بوصف دقيق للحالة السياسية والمالية في اواخر عهد الفروسية في اوربا وبين الملحقات الاضافية للكتاب ما هو خاص بتواريخ موقعة نيقوبوليس المتضاربة ويستدل المؤلف بالبرهان الكافي على انها حدثت في ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦

***

ويعتقد المؤلف ان بايزيد كان اول من لقب بالسلطان العثماني اذ تسمى وتلقب بهذا اللقب بعد انتصاره على الصليبيين في نيقوبوليس كما لقب السلطان محمد بالفاتح بعد سقوط القسطنطينية في يده

صحيفة دار العلوم

لدار العلوم فضل كبير على الناطقين بالعربية في هـذا القطر فهم — كانوا ولا يزالون — مادة العربية التي تقوّم الالسنة في مدارس مصر . ولا ينكر احد فضل هذه المدرسة في تقويم الاخلاق والآداب في مدارسنا . ولقد عمدت دار العلوم في سنة ١٩٠٦ ان تضم الى ما تقوم بهِ من الاعمال عملاً يكون اكثر فائدة واوسع مدًى في تثقيف الناس فأخرجوا صحيفة باسمهم « تنشر بحوثهم بين جميع طبقات الامة ، ثم عصفت — لسوء الحظ — بأبناء دار العـلوم عواصف هوجاء اجتاحت فيما اجتاحت ناديهم وصحيفتهم . فلما كانت النهضة القومية سنة ١٩١٩ اخرجوا باتحادهم مع زملائهم من خريجي (المعلمين العليا) صحيفة اخرى بقيت عدة سنوات ، فكانت من خير ما اخرج للامة في بابها . ثم قضى عليها ماقضى على كثير من مظاهر النهضة المصرية»

ثم اجتمعت « جماعة دار العلوم » في ١٤ دسمبر سنة ١٩٣٣ وقررت اصدار هذه الصحيفة فأصدروا العدد الاول منها في اول ربيع الاول سنة ١٣٥٣ حافلاً بالكلمات الجيدة لكبار اساتذة دار العلوم في اللغة والادب والتربية والفلسفة . ونرجو ان تسير المجلة على خطتها مالئة فراغاً كنا في حاجة الى من يقوم بهِ ونسأل الله ان يوفق الى خير ما يكون من خدمة العربية في انحاء العالم العربي

باب الأخبار العلمية

التحكم في الجنس بالتيار الكهربائي

استنباط مدهش يمكن مربي المواشي من نتج ذكورها وأناثها بحسب مرامهم

جاء في انباء الدوائر العلمية الروسية ، أن الاستاذ نيقولا . ك . كولتزوف Nicholas K. Koltzoff العلامة الروسيُّ المشهور في علم الحياة قد نجح في توليد الحيوان ، إمَّا ذكوراً ، وإما أناثاً ،وفق رغبته. ومنها السنانير والبقر والثيران والنعاج والكباش. وذلك في التجارب التي جربها في مختبره العلمي

فأسفرت التجارب التي جرِّبتْ في أرانب المختبر عن كون ٩٠ ./. من الخزانق يتسنّى التحكم في شقها بالطريقة الكهربائية التي يستخدمها الاستاذ كولتزوف . ويجرَّب الآن هذا الاستنباط تجارب متقنة في ضياع حكومة روسيا، فاذا نجحت تجربتهُ في الغنم والخنازير والمواشي والخيول، كنجاحها في الارانب ، قيِّض لارباب الضياع التي فيها مصانع للزبدة والجبنة ، توليد البقر الحلوب ، دون الثيران ، واستطاع أرباب المزارع التي تربّى فيها المواشي والدواب ، انتاج عجول البقر ، دون اناثها. وامكنهم تقليل الخسائر التي يكابدونها من تصرفات الطبيعة العرضية في نتج الذكور والاناث اعتباطاً

وقوام عمل الاستاذ كولتزوف على الخلايا التي تتألف منها جميع اجسام الحيوان اذ من المعروف الآن انها تتأثر بالقوة الكهربائية

ولما كانت كريات الدم في جسم القرش (كلب البحر) تنجذب نحو القطب السلبي للبطارية ، على حين ان كريات دماء جُلّ الحيوان ، تنجذب نحو القطب الايجابي —

فلمَ لا تتأثر بالكهربائية كذلك خلية منيِّ الذكر التي تلقح خلية بيضة الانثى ، فتسيطر على الشق ؟؟ هذا ما خالج العلاّمة كولتزوف من سنة ونيف، فجعل يجرب تجاربهُ الابتدائية حتى يتبيَّن الحقيقة

والمعروف الآن عند علماء البيولوجيا على بكرة أبيهم، ان خلية البيضة وخلية المنيّ كلتيهما تحتوي على دقائق ، مستقيمة الشكل ، متناهية في الصغر ، تسمى كروموسومات . وهذه تكوّن نوى الخلايا وتنقل الصفات الوراثية . والبيضة أي خلية البيضة ، للانثى البشرية صغيرة جداً بحيث اذا وضعت بعضها بجانب بعض فان ٥٠٠٠٠ بيضة منها تكاد تبلغ مساحة طابع بريد ، وتشتمل البيضة الواحدة على ٢٤ كروموسومة . اما خلية المني اي خلية الذكر وهي التي تلقح بيضة الانثى

مع كون هذه اكبر منها — غير ان خلية الذكر ذات ذنب مثل السوط تجعلهُ بمثابة رقّاس تدفع به نفسها دفعاً حثيثاً اسوة بفَرْخ الضفدع — فتشمل اما ٢٤ كروموسوماً او ٢٣ كروموسوماً

وزعم الاستاذ كولتزوف ان فريقاً من خلايا الكروموسومات ينجذب نحو القطب السلبي . وفريقاً آخر ينجذب نحو القطب الايجابي . وانه اذا ثبت هذا الرأي ، صار ذا فائدة خطيرة لا نظير لها في تاريخ البيولوجيا . وأثبت ذلك بالتجربة ، فجاء بأنبوب زجاجي معقوف هكذا (U) ذي صمامين فاصلين كلٌّ منهما ، قريبٍ من قاعدة كل من المستقيمين ، وركّب صماماً آخر للصرف في منتصف الجزء الافقي من الانبوب . ثم ثبَّت في كل من المستقيمين أسلاكاً ذات توصيلات من المسامير الفولبية أوصلها ببطارية تخزين ، وذلك بعد ان ملأ الانبوب المعقوف السابق وصفه ، ملأً جزئيًّا بمحلول يشتمل على خلايا ذكور الارانب . واخذ الاستاذ كولتزوف وأعوانه يتأملون في ذلك السائل العديم اللون الذي كان في الانبوب ، فاذا بهِ يتحرك حركة وئيدة تولدت من ملايين من السبرماتوزوى — الجراثيم المنوية — (التي لا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة) وهذه جعلت تسبح مثل فراخ الضفادع . وبعضها يتجه نحو احد قطبي البطارية اتجاهاً سريعاً جدًّا ، والآخر يتجه نحو القطب الثاني من البطارية . وكان السائل في اثناء ذلك يرتفع رويداً رويداً رغم جاذبية ثقله في ضلعي الانبوب المعقوف العموديين ، الايمن والايسر

وما انقضت ساعتان حتى اختفى السائل من القسم الافقي وتعلق ، كأنهُ مسحورٌ ، في الانبوبين الرأسيين وكاد ينقسم قسمة متساوية بينهما . فأغلق الاستاذ كولتزوف الصمامين مانعاً السائل من الهبوط الى قعر الانبوب ، ثم قطع التيار الكهربائي . وعند ذلك أخذ الاستاذ كولتزوف يناجي نفسه قائلاً « هل قسم التيار الكهربائي الخلايا الخفية اقساماً مختلفة ، بعضها يولد ذكوراً والآخر يولد أناثاً ؟؟ »

وكان الاستاذ كولتزوف يفترض ذلك . ومع ذلك فانه حينما تفرّس في المادة التي كانت في الانبوبين ، بوساطة مجهر قوي جدًّا رأى الخلايا المكبرة جميعها من مثال واحد . وانما بتلقيح اناث الارانب تلقيحاً صناعيًّا بالحيوان المنوي من الانبوبين السابقي الذكر ، وبتدوين الملاحظات تدويناً محكماً ، قُيِّض للاستاذ كولتزوف اثبات نظريتهِ . فما انقضت ستة اسابيع حتى بدأ مولد السلالات ، فنتجت اولاً سلالة مكونة من ست خرانق[1] كلها أناث لان أمها كانت ملقحة من الانبوب المحتوي على القطب الايجابي . وجاءت السلالة الثانية مؤلفة من خمس خرانق كلها ذكور الاَّ واحداً لان أمها كانت ملقحة من الانبوب المحتوي على القطب السلبي ، ثم ظهرت السلالة الثالثة وكانت مولدة بوساطة مزج الخلايا المأخوذة من الانبوبين ، فاذا هي مؤلفة من اربع خرانق ، وهي ذكران وأنثيان ، فدلَّ ذلك على ان القطب السلبيَّ كان يجذب خلايا الذكور والقطب الايجابي يجذب خلايا الاناث . بيد ان الاستاذ كولتزوف ، وهو مدير معهد المباحث البيولوجية

(١) الخرنق ولد الارنب والجمع خرانق

في مدينة موسكو من خمس عشرة سنة ، لم يقتنع بتلك النتيجة ، فاتفق مع العلماء في مختبر آخر لكي يلقحوا طائفة من اناث الارانب بمادة يقوم هو بتحضيرها . ثم قسم الارانب قسمين ، فلقح القسم الاول بخلايا الذكور ولقح القسم الثاني بخلايا الاناث . وتوفر العمال على مراقبة النُتُج من غير ان يعرفوا انواع الخلايا فأيدت الارقام ذلك الرأي العلمي. وقد دلَّ المجهر على سبب عدم توليد ١٠٠ في المائة ذكوراً او اناثاً ، إذ ظهر ان الحيوان المنوي قد يكون ذا اذناب ملتوية ، وربما يتفق عند الاضطراب المصاحب لعملية الانفصال التي تقع في الانبوب المعقوف ان تشتبك تلك الخلايا باضدادها فتجذب نحو القطب الكهربائي غير المقصود

واثبتت مباحث اخرى ان وسائل كولتزوف يمكن التوسل بها الى توليد الاجناس المبتغاة من الحيوانات الكبيرة اذ اتيح تبعيض خلايا التلقيح للثيران وخيول الطلوقة بسهولة اسوةً بالارانب . وللحكومة الروسية ضياع يربى فيها ما ينوف على مليونين من الحيوانات حيث تلقح تلقيحاً صناعيًّا وتجرب فيها التجارب الجديدة المشار اليها لتكييف جنس النتاج بحسب المرام

والمعروف ان في اسلوب التناسل الطبيعي خسائر دائمة من تفوق انتاج الذكور على الاناث فاذا اتيحت السيطرة على شق الحيوان قبل ولادته ، تيسر جعل الاناث من المواليد ٩٠ ٪ او اكثر ، وأمكن زيادة عدد المواشي سريعاً. أما مسألة التحكم في اجناس سلالات الدواجن بالطريقة السابقة الذكر ، فما برحت على بساط البحث . غير انهُ قد تبين اخيراً (على عكس القاعدة المعروفة للحيوانات اللبونة) ان خلية البيضة ، لا خلية المني تتسلط على الشق في الدواجن . وتجرب التجارب في مختبر موسكو للتحقق من تأثير الوسائط الكهربائية التي ثبت نجاحها في الخلايا التذكيرية للحيوانات اللبونة في الدواجن ايضاً . ومن اربع سنوات قام كولتزوف ورفيق له باستنباط الجرافيدان gravidan وهي خلاصة من مفرزات النُتُج[1] ، أفادت في علاج أمراض عديدة ولاسيما الجنون المسمى « النرسام » وثبت ايضاً نجعها في تجديد الشباب . وقد استعملها لتلك الغاية بعض علماء اميركا وألمانيا . وكان استنباط طريقة الاستاذ كولتزوف في روسيا مفضياً الى تأسيس معهد لعلاج الامراض البولية . ويلخص تاريخ الاستاذ كولتزوف انهُ ولد سنةُ ١٨٧٢ ثم تعلم في جامعة موسكو وقضى سنوات باحثاً في المختبرات العلمية في المانيا وفرنسا وايطاليا . فكان نجاحه في وقاية السلالات النقية من ديدان القز بواسطة التلقيح الذاتي للبيضة باستعمال اليود ، سبباً في ذيوع صيته ، فاستعملت طريقته استعمالاً تجاريًّا منذ عهد قريب . وقد ألَّف كتباً في التناسل فأصبح يعد من أقطاب البيولوجيا في اوربا لانهُ استطاع حل اللغز الذي طال عليه الدهر وهو التحكم في اجناس الحيوان فاهتم به العلماء في الخافقين اهتماماً عظيماً

[عن مجلة العلم العام] عوض جندي

(١) انتجت الفرس والناقة حان نتاجها وقيل استبان حملها فهي نتوج

الجزء الاول من المجلد الخامس والثمانين

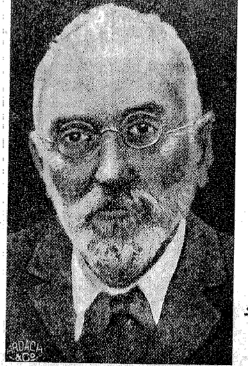
صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها «ادارة المطبعة العصرية» بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م
٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة المانية (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م
١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨ النبي « « «
٥ آلهة الارض « « «



ميجيل دى اونانومو

وهو من اكبر كتاب العصر

من ابناء اسبانيا المتوثبة

فلاسكو ايفانيث

روائي البحر المتوسط كما دعاه احد النقاد





مدام كوري

ولدت سنة ١٨٦٧ — توفيت في ٤ يوليو سنة ١٩٣٤

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الخامس والثمانين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٤ — ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣

مدام كوري

في خريف سنة ١٩٢٠ ذهب الى ولاية كولورادو الاميركية جيش من العمال وقصدوا الى منطقة قاحلة في جنوبها لينقبوا فيها عن تبرٍ معين . كانوا قد بحثوا في مختلف الولايات الاميركية عن هذا التبر النفيس ولم يظفروا بهِ لذلك اضطر زعيمهم الى الاكتفاء بنوع من الرمل يكثر في صحارى كولورادو القاحلة يدعى كارنوتيت . فأخذ رجاله — وكانوا اكثر من ثلاثمائة — يشتغلون ليل نهار في جمع اطنان منهُ ثم نقلوها في صحارٍ لا تخترقها طرقٌ ما ، مسافة ١٨ ميلاً الى اقرب مكان فيهِ ماءٌ حيث عنوا بتشييد معمل خاص لغسل هـذا الرمل وتنقيته . هنا عولجت خمسمائة طن منهُ معالجة كيمائية حتى بقي منها مائة طن فقط . وما بقي سحن حتى صار مسحوقاً دقيقاً ثم وضع في اكياس نقلت بسكة الحديد الى بلدة تدعى بلايسرفِل . ثم شحنت الاكياس في مركبات شحن خاصة مسافة ٢٥٠٠ ميل الى بلدة تدعى كانونزبرغ بولاية بنسلفانيا في الشمال الشرقي المتوسط من الولايات المتحدة الاميركية

وفي كانونزبرغ عُهد الى مائتي رجل في تحويل هذه الاطنان من المسحوق الناعم الى بضع مئات من الارطال فقط مستعملين مقادير كبيرة من الماء في غسل المسحوق ثم معالجتهِ بمواد كيمائية واحماض لاستخراج كنز ثمين منهُ . لم يضيع الرجال ذرة واحدة منهُ على رغم تعدد عمليات الغلي والتصفية والبلورة . وانقضت اشهر فاذا ما بقي من ٥٠٠ طن من رمل كولورادو مقدار يسير جداً ارسل الى معامل البحث في شركة بتسبرغ الكيمائية بحراسة حرس خاص . هنا في المعامل الكيمائية أجريت العمليات الاخيرة في استخراج بضع بلورات من ملح معين . فلما تم استخراجها كانت سنة

كاملة قد انقضت على جمع الرمل من صحارى كولورادو وانفق عشرون الف جنيه فكانت تلك البلورات اثمن مادة معروفة على سطح الارض — مائة الف ضعف اثمن من الذهب . ثم وضعت هذه في أنابيب صغيرة من الرصاص والانابيب حفظت في صندوق فولاذي كثيف الجدران مبطن بألواح كثيفة من الرصاص . ثم وضع الصندوق الفولاذي في صندوق آخر من خشب المغنة المصقول وهذا حفظ في خزنة متينة انتظاراً لقدوم زائر كريم من فرنسا

وفي ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وقف رئيس الولايات المتحدة الاميركية في ردهة الاستقبال في البيت الابيض يحفّ به سفير فرنسا ووزير بولونيا المفوض واعضاء وزارته ورجال القضاء واكبر المشتغلين بالعلم ، ووقفت امامهُ سيدة نحيفة البنية وديعة المنظر مرتدية ثوباً اسود ثم خاطبها الرئيس فقال : « كان من حظك انك قمت بخدمة خالدة للانسانية . ولقد عهد اليَّ ان اقدم لك هذا القدر الضئيل من الراديوم . فنحن مدينون لك بمعرفتنا لهُ وملكنا اياه . لذلك نرفعهُ اليك واثقين انهُ وهو في حيازتك لا بدَّ ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم وتخفيف آلام الناس»

تلك السيدة كانت مدام كوري

﴿ نشأتها ﴾ وُلدت ماري كوري في بولونيا في ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ وفقدت أمها وهي لا تزال في طفولتها . وكان والدها الاستاذ سكلودفسكا مدرساً للرياضيات والطبيعة في مدرسة ڤرسوڤيا العالية . وكان يقضي مساء كل سبت امام مصباحهِ يقرأ آيات الادب البولوني نثراً وشعراً . فكانت ابنته ماري تحفظ فقرات طويلة منها وتعيدها امامهُ عن ظهر قلب ورآها العالم الروسي منديلف في حداثتها تخلط المواد الكيمائية في مختبر كيمائي لابن عمّها في فرسوڤيا فتنبأ لها بمستقبل علمي مجيد

كانت بولونيا في تلك الايام مقاطعة من روسيا وحكومة روسيا تفرض اعباء ثقيلة على الشعب البولوني المحكوم . فاستعمال اللغة البولونية كان محظوراً في الصحف والكنائس والمدارس . والبوليس السري الروسي كان ألحق بالناس من ظلّهم لا تخفى عليهِ خافية مما يفعلون . فلما كانت ماري في حداثتها اجتمع بعض تلاميذ والدها وألفوا جمعية سرية غرضها قلب الحكومة وطرد المعتدين على وطنهم وكانوا يجتمعون كل ليلة ليدرسوا اللغة البولونية وليدرّسوها لجماعات من الطلاب فانتظمت ماري في احداها وتمادت فكتبت في احد الايام نشرة ثورية شديدة اللهجة

ولكن البوليس الروسي نمت اليهِ اخبار الشبان الثائرين فقبض على بعضهم . ونجت ماري من الشرك ولكنها اضطرت ان تغادر فرسوڤيا لكي لا تشهد على اخوانها عند المحاكمة . فجاءت باريس في شتاء سنة ١٨٩١ وهي لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرها . هنا استأجرت غرفة صغيرة في مكان حقير . فكان البرد يقرصها في الشتاء والحر يكاد يخنقها في الصيف . وكانت معيشتها شديدة البؤس لانها كانت مضطرة ان تحمل الماء والفحم الى غرفتها الكائنة على سطح المنزل فوق الدور الرابع . وكانت فقيرة لا تجرؤ ان تنفق اكثر من نصف فرنك في يومها . وكثيراً ما كان طعامها ظهراً ومساء

لا يزيد على كسرة من الخبز وقطعة من الشوكولاته . ولكن هذه المصاعب لم تقعدها عن تحقيق رغباتها لانها جاءت باريس لتدرس في السوربون . ولكي تتمكن من تسديد اجور التعليم اضطرت ان تغسل الزجاجات في معمل البحث في كلية العلوم وتعنى بنظافة الموقد

في سنة ١٨٩٤ التقت بپيير كوري في دار احدى صديقاتها . وكان هو يشتغل حينئذ في معمل شوتزنبرجر مؤسس مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء بباريس ومديرها . وكان قد تخرّج من السوربون وانشأ يبحث مع اخيه جاك في موضوع « المكثفات الكهربائية » . فلما تعرف اليها اخذا يتحدثان في ما يهمهما من موضوعات العلم . ثم انتقلا الى بعض الموضوعات الاجتماعية والادبية. فكان ذلك مبعث سرور خاص للفتاة البولونية الشريدة لانها وجدت على قولها : «اتفاقاً غريباً بين آرائه وآرائي رغم اختلاف وطنينا». اما بيير فدهش لما رآه في هذه الفتاة من توقد الذهن وسعة العلم ولما اعرب لها عن دهشته ردت عليه «ترى يا استاذ من اين اتيت بآرائك الغريبة في حدود عقل المرأة»

كان بيير قد كتب لما كان في الثانية والعشرين : « النابغات بين النساء نادرات . اما المرأة المتوسطة الذكاء فلا ريب في انها عائق كبير لعالِم جادٍّ في عمله » . كتب ذلك في الثانية والعشرين. وها هو ذا في الخامسة والثلاثين ، واتصاله بالحياة قد غيّر آراءه . ولما تحولت معرفته بماري الى صداقة متينة انقلبت آراؤه في النساء رأساً على عقب . وكانت هي قد فتنت بما عرفته في العالم كوري من صفات الشاعر والحالِم علاوة على علمهِ الغزير . فلم تلبث حتى استأذنت الاستاذ شوتزنبرجر فأذن لها في ان تصبح مساعدة للمسيو كوري في معمله

﴿ الزواج العلمي ﴾ تزوجا في يوليو سنة ١٨٩٥ ولم تكن مسألة فرش البيت مسألة خطيرة في نظر كائنين لا تهمهما التقاليد المرعية . فاستأجرا ثلاث غرف تشرف على حديقة وابتاعا قليلاً من الاثاث لقضاء الحاجات الضرورية . وفي ذلك الاثناء عين بيير كوري استاذاً للطبيعيات في مدرسة البلدية المذكورة وكان مرتبه ستة آلاف فرنك في السنة فتمكنت زوجه من مواصلة دروسها . ولكن دخلهما لم يسمح لهما بشيء من الكماليات الاّ دراجتين ابتاعاهما لقضاء رحلاتهما الاسبوعية الى الريف

وفي اواخر سنة ١٨٩٥ — اي بعيد زواج بيير وماري — كشف الاستاذ وليم كونراد رنتجن الالماني عن الاشعة السينية. ولم تكد تصل انباء هذه الاشعة الغريبة التي تخترق الاجسام الصلدة وتبين عظام الجسم، الى دوائر العالم العلمي حتى حدثت حادثة غريبة اتفاقاً في غرفة مظلمة بمعمل الاستاذ هنري بكرل بباريس . لم تكن من الحوادث التي تعنى بها الصحف وتنشرها بأحرف عريضة في صفحاتها الاولى كحوادث القتل وفضائح الغرام ، مع ان اثرها كان اثراً عالميًّا عظيماً لان سلسلة من الحوادث العلمية الخطيرة جاءت في اثرها وتوّجت اخيراً بانتصار مدام كوري الباهر في كشف عنصر الراديوم فكانت حدًّا فاصلاً في تاريخ العلم ، انتهى عنده عصر وبدأ عصر جديد

فقد كان معروفاً ان المواد الفصفورية بعد تعرضها لنور الشمس تتألق في الظلام . وكان بكرل

يحاول ان يعرف هل هذه الاجسام تطلق اشعة كالاشعة التي كشفها رنتجن . فوضع اتفاقاً قطعة من الاورانيوم على لوح فوتغرافي حساس كان ملقى على مائدة في غرفته المظلمة . فلما رفع اللوح في يده في اليوم التالي لاحظ انهُ كان قد تأثر تأثراً خاصًّا حيث كان الحجر ملقى عليهِ . فلم يفهم لذلك علة وظن ان احدهم لعب لعبة عليه . فحاول ان يعيد التجربة ليرى هل يحصل على النتيجة نفسها فأعادها مستعملاً صخوراً مختلفة تحتوي على الاورانيوم وفي كل مرة كان يجد البقعة على اللوح حيث يضع الحجر . فحلل الصخور ووجد ان فعلها في اللوح الفتوغرافي سببهُ عنصر الاورانيوم الذي فيها

فصرح بكرل ان عنصر الاورانيوم كان وحده سبب الفعل الغريب الذي يقع في اللوح الفوتوغرافي . ولكنه لم يلذ بتصريحه هذا طويلاً . لانهُ جرب البتشبلند وهو اهم الصخور التي تحتوي على الاورانيوم — معدن يستخرج من شمال بوهيميا — فوجد فعله في اللوح الفتوغرافي اقوى جدًّا مما كان منتظراً من الاورانيوم مهما يعظم قدرهُ في هـذا الصخر . فاستنتج من ذلك استنتاجاً بسيطاً وهو ان عنصراً آخر يستطيع ان يؤثر في الالواح الفوتغرافية اضعاف تأثير الاورانيوم

وكان بكرل يعرف ماري كوري وقد راقبها تعمل في المعمل ولاحظ رشاقتها وخفتها في تناول الادوات الكيمائية واستنباط الحيل لمعالجة مشكلة تجدّ في خلال البحث وكان معجباً بصفاتها الممتازة كعالمة مجرّبة فأفضى اليها باستنتاجه الثاني وعهد اليها في البحث عن هذا العنصر المجهول. فأخبرت زوجها بما حدث والفرح يستخفها ففتن بحماستها . وكان هو يبحث في البلورات وهي في صفات المعادن المغنطيسية . فتركا بحثيهما الخاصين ليشتركا في مغامرة فكرية شاقة ولكنها اخّاذة ، وهي البحث عن العنصر المجهول في البتشبلند

ولم يكونا على شيء من الثروة للقيام بنفقات البحث فاقترضا مبلغاً من المال لذلك . ولم يكونا يدريان اين يبدآن البحث ولا كيف يواصلانه والى اين يتجهان فيه . فكتبا الى حكومة النمسا فردت عليهما باستعدادها لمعاونتهما وارسلت اليهما طنًّا من البتشبلند من مناجم جواكيمستال ، فلما وصل البتشبلند الى باريس اخذا يشتغلان بلا انقطاع ، يغليان هذا الطن من التراب بعد سحنهِ وينقيانهِ لكي يستخلصا منهُ المادة الثمينة . وكثيراً ما كانت ماري تقف ساعات متوالية تحرك المزيج وهو يغلي على النار بعصا حديدية تكاد تماثلها وزناً

وقد وصفت مدام كوري معيشتها حينئذ فقالت : « كنا في انصرافنا الى بحثنا كأننا في حلم » ولما اقبل شتاء سنة ١٨٩٦ كانا لا يزالان يعالجان بحثهما في معمل خشبي يشبهُ طنب البدوي « تخفق فيهِ الارواح » . كان البرد والفاقة والاعياء والحمل قد انهكت جسم مدام كوري فأصيبت بالتهاب الرئة ولزمت فراشها ثلاثة اشهر قبلما استطاعت ان تستأنف بحثها العلمي . وكان التعب قد حطّ من قوة زوجها كذلك فكان يعود الى بيتهِ معيىً في كل مساءٍ ولكنهما لم يتوقفا عن العمل فكأنما كانا مدفوعين اليهِ بارادة خفية

وفي سبتمبر من سنة ١٨٩٦ ولدت مدام كوري فتاة[1]، ولكنها كانت وهي ملازمة سريرها على اثر الوضع دائمة التفكير بعملها العلمي الذي ملك عليها قلبها وعقلها . وبعد الولادة باسبوع واحد فقط غادرت بيتها الى معملها واستأنفت البحث هناك . ولكن ما السبيل الى العناية بالطفلة ومتابعة البحث العلمي من جهة اخرى ؟ واتفق حينئذٍ ان والدة زوجها توفيت فدعوا والدهُ وهو طبيب اعتزل العمل للسكن معهما وعُهد اليهِ في العناية بالطفلة

وبعد الاغلاء والتصفية والتنقية التي دامت اكثر من سنة تحوّل طن البتشبلند الى نحو مائة رطل من مادة غريبة ثم تلا ذلك سنة اخرى من العمل المتواصل مرضت في اثنائها ماري ثانية واخذ القنوط يتطرق الى نفس زوجها ، ولكنها كانت مقدامة صلبة العود فلم تلن للمصائب . وقد وصفت ايامها في تينك السنتين بقولها الشعري : « في ذلك المعمل البائس قضيت اسعد ايام حياتي »

﴿ الراديوم ﴾ اخيراً استخرجا من طن البتشبلند قدراً ضئيلاً جداً من املاح البزموت فثبت ان فيها مادةً فعالة جداً تفوق فعل الاورانيوم ثلاثمائة ضعف . واستفردت منها مدام كوري مادة تشبهُ النكل وبعد ما امتحنتها بكل وسائل الامتحان الممكنة اعلنت في يوليو سنة ١٨٩٨ انها كشفت عن عنصر جديد دعتهُ « بولونيوم » نسبة الى بلادها . واختلف العلماء اولاً في صحة اكتشافها ثم ثبتت صحتهُ ثبوتاً لا ريب فيهِ

على ان مدام كوري وزوجها لم يقتنعا بفخر الكشف عن عنصر جديد . وظلاَّ يواصلان البحث والامتحان حتى استخرجا قدراً ضئيلاً من مادة ثبت انها افعل جداً حتى من عنصر البولونيوم ولما بلغا هذه الدرجة من البحث كان محتوماً عليهما ان يشددا العناية بكل ذرة من ذرات هذه المادة التي استخلصاها بجهد يكاد يكون من فوق طاقة البشر فكانت ماري تمتحن كل قطرة ماء تخرج من المرشح وكل ذرة تعلق بهِ

وكان المعمل الذي يشتغلان فيهِ غرفة لتشريح جثث الموتى من قبل . فكانا اذا دخلاهُ ليلاً يستولي عليهما رعبٌ لغرابة ما يشاهدان . وذلك انهما بدلاً من ان يشاهدا ارواح الجثث المشرحة ترفُّ في فضائه كانا يشاهدان الانابيب المحتوية على هذه المواد تشع في الظلام كأنما بسحر ساحر . فعلما من ذلك انهما على قاب قوسين من تحقيق غرضهما او أدنى . واخيراً استخلصت مدام كوري من هذه المادة بضع بلورات فكانت أول انسان التى بصره على املاح الراديوم واثبتت انهُ عنصر جديد واطلقت عليهِ اسم «الراديوم» اي « المشع » فكان كشفهُ منشأً لانقلابات من اعظم الانقلابات التي وقعت في ميدان الكيمياء والطبيعيات

فعين الاستاذ كوري استاذاً في السوربون وعهد الى زوجتهِ بالمحاضرات العلمية في مدرسة

(١) هي ايرين المعروفة الآن في ميدان العلوم باسم مدام كوري جوليو وقد كان لها اكبر اثر في الكشف عن النوترون (راجع المقالة الاولى في مقتطف يوليو ١٩٣٤ او فصل « لبنات الكون » في كتابنا : فتوحات العلم الحديث : صفحة ١٤٤)

المعلمات العليا في بلدة سيفر على مقربة من باريس . فكانت تعلم وتدرس وتبحث في معملها وتعني بابنتها . ولكي تنال منصباً عالياً في ميدان التعليم كان لا بدَّ لها من ان تنال لقب «دكتورة في العلوم» فأعدت رسالتها وقدمتها باسطة فيها جميع مباحثها في موضوع الاشعاع فدهش العلماء الكبار الذي عينوا لفحص هذه الرسالة لما وجدوا فيها من الحقائق الجديدة والمباحث الطريفة ، ولما وقفت امامهم للاجابة عن اسئلتهم كانوا بمثابة اطفال امام معلمهم لا يدرون اي أسئلة يوجهون اليها. وقرروا ان هذه الرسالة اعظم بحث علمي قدم لنيل « دكتوراه العلم » في تاريخ جامعة باريس

وذاعت الانباء ! انباء عنصر جديد تكشف عنهُ سيدة . املاحهُ تتألق وتضيء في الظلام كمصابيح كهربائية صغيرة . وتنطلق منهُ مقادير دقيقة من الحرارة انطلاقاً دائماً . ان حرارة طن من هذا العنصر كافية لاغلاءِ الف طن من الماء مدة سنة كاملة . ثم ان هذا العنصر اقوى سم معروف يفعل عن بعدٍ فاذا وضع انبوب يحتوي ذرة منهُ بحجم رأس الدبوس على ظهر فأرة إصيبت بالشلل في ثلاث ساعات . واذا وضع قرب الجلد قرّحهُ . بل ان اصابع الاستاذ كوري نفسه كادت تشلُّ من لمسهِ . وذاع ان بكرل قال يوماً لمدام كوري « أحب الراديوم ولكني محنق عليهِ » ذلك أنهُ اصيب بحرق مؤلم في صدره بعد حمله انبوباً فيهِ ذرة من ملح الراديوم في جيب صدرتهِ . بهذا العنصر كانت المكروبات تقتَل والنوامي السرطانية السطحية تشفَى وحجارة الماس تلوَّن والهواء المحيط بهِ يكهرب حتى يصبح موصلاً جيداً للكهربائية

﴿ نصر وفجيعة ﴾ وبين ليلة وضحاها ذاع اسم الاستاذ كوري وقرينتهُ . فأخذ السيّاح يتوافدون الى دارها ومصورو الصحف ومخبروها يغزون حياتهما الخاصة بالاسئلة والصور والرسائل والبرقيات وجعلت الدعوات تنهال عليهما . فدعاها لورد كلفن ليأتيا الى لندن ليتسلما مدالية دايفي من الجمعية الملكية فكانت هذه المدالية اول اوسمة الشرف الكثيرة التي رفضها الاستاذ كورى . ويقال انهُ لما عرض عليه وسام اللجيون دونور رفضهُ قائلاً اني افضل ان اوهب معملاً على ان امنح اوسمة. وفي سنة ١٩٠٣ وهبت لهما جائزة نوبل الطبيعية بالاشتراك مع الاستاذ بكرل فأنفقا المال في توفية الدين الذي استداناه للشروع في عملهما وللانفاق على مواصلة البحث . وقد كان بامكانهما ان يستغلا مكتشفاتهما استغلالاً تجاريًّا ولكن الثروة لم تكن الغرض الذي يتطلعان اليهِ . فبحثهما كان بحثاً علميًّا للعلم وحده وغرضهما انما كان خدمة الانسانية . وكل ذرة كانا يستخرجانها من املاح الراديوم كانا يقدمانها للمستشفيات ودور البحث بلا مقابل

فطفح كأس مدام كوري عندئذ غبطة وهناءة . ها هو ذا زوجها يفقد قليل من كآبته واحوالهما المعاشية اسهل من قبل وها طفلة ثانية تولد لهما فينعمان بمحبتها وتربيتها

ولكن مخبراً نقر على باب مدام كوري في مساء ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ واخبرها ان الأستاذ كوري كان قبل بضع دقائق يتكلم مع الاستاذ پران فلما غادر كلية العلوم محاولاً ان يجتاز احد

الشوارع صدمتهُ عربة فوقع في عرض الشارع فمرّت عجلات عربة نقل ثقيلة كانت قادمة من الجهة الاخرى على رأسهِ فمات في الحال .

أصغت ماري الى القصة ولم تذرف دمعاً ولم تولول ولم ترفع يديها الى السماء . بل جعلت تردد كأنها في حلم « بيير مات بيير مات » .وكادت الصدمة التي اصابتها بموتهِ تقوى عليها . فانها ظلت مدة لا تستطيع ان تجمع قواها لمواصلة عملها . ولكن بعد انقضاءِ بضعة اسابيع قويت على حزنها وعادت الى معملها اكثر صمتاً وهدوءًا من قبل

وحينئذٍ تصرفت فرنسا ذلك التصرف النبيل الذي اشتهرت بهِ في الملمّات . ذلك انها دعت ماري كوري لتشغل كرسي استاذ الطبيعيات في السوربون الذي خلا بموت زوجها . وكانت هذه الدعوة مغايرة لجميع التقاليد . لم يعلم ان امرأة قبلها تقلّدت منصب استاذ في السوربون فلما تمّ تعيينها وأُعلن كان باعثاً على كثير القال والقيل وجعل بعض الاساتذة يهمسون في آذان اصفيائهم مستنكرين خطأً كهذا . واخذ بعضهم يشيع بأن الفضل في نجاحها في كشف عنصري البولونيوم والراديوم عائد الى اشتغالها تحت مراقبة زوجها . قالوا : « انتظروا بضع سنوات لتعرفوا حقيقتها فتجدوا انها قد مرّت على منبر العلم مرور شبح لا يترك اثراً »

❁ ماري تقوم بالعمل ❁ ثم شاع انها ستلقي محاضرتها الأُولى في السوربون . فهرع الى باريس رجال ونساءٌ يشغلون اكبر المناصب العلمية والتعليمية في البلاد — اعضاء الاكاديميات وأساتيذ كلية العلوم وكبار رجال السياسة ونبيلات السيدات . رئيس جمهورية فرنسا كان هناك يصحبهُ الملك كارلوس ملك البرتغال وزوجهُ الملكة اميليا . ولما قرعت الساعة الثالثة دخلت من باب جانبي سيدة نحيلة مرتدية ثوباً اسود . . . . واذا الردهة تدوي بالتصفيق . وكأن ذلك أزعجها فرفعت يداً نحيفة مرتجفة تطلب السكون . فخمدت العاصفة حتى لكدت تسمع رنة إبرةٍ تقع على الارض

وبدأت محاضرتها بصوت خافت واضح . ففتن سامعوها بقولها . لم تُشر بكلمة واحدة الى فجيعتها بل هي استأنفت موضوع البحث في عنصر البولونيوم حيث تركه زوجها . فلما ختمت كلامها دوت الردهة ثانية بعاصفة من التصفيق . ولكن بعض المشككين ظلوا يشككون بمقدرة امرأة على ملء منصب استاذ بالسوربون ! سمعت هي بذلك ولكنها ظلت صامتة كأبي الهول

على انّ عنصر الراديوم لم يكن قد استفرد بعد . ولم تحضّر منهُ الاَّ املاحهُ . فأكبّت مدام كوري على تحقيق هذا الغرض الصعب لندرة الاملاح التي يمكن تجربة التجارب بها . فجربت طرقاً مختلفة لفصل العنصر من املاحه، على غير جدوى . وكأن ماري لم تكن تعيش حينئذٍ الاَّ في معملها . فلم تخرج الى المسرح ولا الى الاوبرا . ورفضت ان تلبي الدعوات الاجتماعية التي وجهتّ اليها . وأخيراً سنة ١٩١٠ امرّت تياراً كهربائيًّا في كلوريد الراديوم المصهور . فلاحظت تغييراً يحدث عند القطب السالب (المهبط) حيث رأت ملغماً يتكوّن . فجمعت هذا الملغم وأحمته في انبوب من السلكا مع

نتروجين تحت ضغط مخفف . فبخر الزئبق الذي في الملغم تاركاً وراءه كريات بيضاً لامعة لم تلبث حتى اكمدّت في الهواء . تلك كانت كريات الراديوم النقي

فكان عملها هذا في استفراد الراديوم النقي وتعيين وزنهِ الذري تاجاً لجميع مباحثها السابقة . هذا بحث علمي دقيق قامت بهِ المرأة — ماري كوري — بعد وفاة زوجها . ايرتاب المرتابون بعد هذا ؟ فلتخرس الالسنة الطويلة ! ومنحت مدام كوري جائزة نوبل للكيمياء اعترافاً بعملها هذا فكانت العالِم الوحيد الذي فاز بشرف جائزتين من جوائز نوبل

وأقنعها بعضهم بتقديم اسمها للعضوية في اكاديمية العلوم . ولكن مانع الجنس حال دون انضمامها لهذه الجماعة الممتازة من ابناء العلم . لم يعرف من قبل ان امرأة انتخبت عضواً في اكاديمية العلوم فلماذا التنكب عن هذه الطريق ؟ انت ترى مظاهر الحماسة والانفعال في الجدال المحتدم بادية على اكثر العلماء رزانة ووقاراً ! واخذت الاصوات في ٢٣ يناير ١٩١١ فاخفقت مدام كوري بصوتين. وحتى وفاتها لم تكفّر الاكاديمية عن تعصبها هذا !

ولما نشبت الحرب وأصبحت جيوش الالمان على أبواب باريس ، عمدت مدام كوري الى الانبوب الذي يحتوي على ما عندها من الراديوم واسرعت بهِ الى بوردو خشية ان يقع في أيديهم . فلما وضعتهُ في بوردو في حرز حريز ، عادت الى باريس لا يقلقها فيها خطر الغزاة على أبوابها ولا طياراتهم في فضائها. واكبَّت على جمع ما تستطيع جمعهُ من آلات المعالجة بالراديوم والاشعة ، واستنفرت بنات باريس للتمرُّن على استعمال هذه الآلات في معالجة الجرحى ، فلبّت نداءها مائة وخمسون فتاة ، كانت بينهن ابنتها ارين Irene وهي في السابعة عشرة من عمرها ، فأقامت شهرين تخطب فيهنَّ وتعلمهنَّ استعمال هذه الآلات ، ثم تعلمت هي قيادة السيارة وجعلت تنقل هذه الآلات الى مستشفيات الجيش وتقيمها فيها . وتقدمت ابنتها الى صفوف النار بل الى منطقة ايبرس حيث كان غاز الكلورين السام يفتك بالجنود فتكاً . فلما ارتدَّ الجيش الالماني ، عادت مدام كوري مطمئنةً الى بوردو واخرجت أنبوبها الثمين من مخبئهِ الامين وعادت بهِ الى باريس . وما كادت تنتهي السنة الاولى من الحرب الكبرى حتى كان قد تمَّ في باريس انشاء معهد الراديوم وجعلت مدام كوري مديرة لهُ ، وانصرفت بعدها الى البحث والعلاج . ولكنها كانت تحب الحرية ومقتت الحرب فقالت لما عقد الصلح : « غمرني الصلح بموجة من الغبطة نتيجة للنصر الذي احرزناه بعد بذل عظيم . وقد عشت لارى بلادي ينتصف لها من قرن حافلٍ بالجور والتفرقة » . ولما سئلت في سنة ١٩٢٠ عما تتمنى قالت فوراً : «غرام من الراديوم اتصرف فيهِ كما اشاء» . ذلك ان هذه المرأة التي منحت العلم والانسانية عنصر الراديوم بكشفها عنه كانت لا تملك شيئاً منهُ ، مع ان مائة وخمسين غراماً منهُ كانت موزعة في مختلف المستشفيات ومعامل البحث . فكان قولها هذا باعثاً على سخاء الاميركيات في تقديم الغرام الذي ذكرناه في مطلع المقال

تمخضت الفأرة
فولدت جبلاً

بقلم ميخائيل نعيمه

في سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا» جلس الفلس على عرشه ونادى بأعوانه ثم خطب فيهم هكذا:

«منذ سلمني الناس مقاليدهم وانا أدأب النهار والليل في سبيل اسعادهم. واجترح العجيبة بعد العجيبة لانقذهم من بؤسهم وشقائهم

«سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم. فابتدعت لهم لساناً واحداً. وذلك اللسان أنا. أنا هو الحرف والمقطع والكلمة. وحيثما اجتمع اثنان باسمي تفاهما في الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر. تلك هي العجيبة الاولى

«ورأيتهم تتناتشهم ارباب كثيرة. فخلقت لهم ربًّا واحداً. وذلك الرب أنا. أنا هو الوزن والميزان والدين والديّان، وأنا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل افكارهم وكل نياتهم. اما اربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير. تلك هي العجيبة الثانية

«ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك. ويطرقون شتى الابواب. فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا. والى باب واحد هو أنا. أنا هو الطريق والمحجّة. أنا هو المدخل والمخرج. تلك هي العجيبة الثالثة

«وساكنتُ الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا يساكن راعي اغنامهم. وابن اميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم. وقسهم لا يشارب زانيتهم. وسمعتهم يتبرمون بذلك ويطلبون المساواة. فوضعت على اعناقهم نيراً واحداً، وذلك النير أنا. أنا هو النير والجرار والحارث. تحت نيري يمشي السلطان بجانب الراعي. وابن الاميرة بجانب ابن الجارية. والقس بجانب الزانية. تلك هي العجيبة الرابعة

«ودخلت قلوب الناس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحَبّ في الرمانة. والفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة. فأطلقوا الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس

هذا المقال فصل من كتاب «جبران خليل جبران — حياته موته، ادبه، فنه» الذي وضعه ميخائيل نعيمه وينتظر صدوره قريباً

والحجّاب وظلت قلوبهم تصرخ اليَّ باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة أضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حرّرت قلوبهم من قلوبهم . وتلك هي العجيبة الخامسة

« ومشيت في الأرض فوجدت ان الناس قد تقاسموها بالفتر والقيراط . واقاموا لقسماتهم حدوداً . واقاموا السيف حارساً لحدودهم . فلا يتعدى جارٌ حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة تخوم مملكة اخرى الاَّ بقصد الغزو . فأقمت للناس عبَّارة تصل الحدود بالحدود وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبَّارة أنا . أنا هو العابر والعبَّارة . أمرُّ حيث السيف لايجسر ان يلمع . واعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع . تلك هي العجيبة السادسة

« اما العجيبة العجيبة فهي اني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة . فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا اجناساً . وامة واحدة وكانوا أمماً . بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لاني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحداً وكذلك كساءهم ومأواهم

« انا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين انهم بشربها يشربون كل اصناف التراب والمعادن والنبات والحيوان والاقذار التي مرّت بها . كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون بهِ طعاماً وشراباً وكساءً ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى أين يأوون . اليكم هذا المثل :

« في الليلة البارحة باعت امرأة اشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تلك تدعى في قاموس الناس بغيًّا ، وفي شرعهم آفة ، وفي ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والاتقياء . وفي هـذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخوراً للكنيسة وقدَّمت البعض تزكية الى الكاهن . اما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحاً لربه . واما التزكية فابتاع بها لحم ضأن وأكل منهُ واطعم عياله . او تحسبون ان ذلك الكاهن ، عند ما احرق البخور لربه ، احرق نزيز جرح في قلب شجرة عطرة ؟ الحق اقول لكم انهُ لم يحرق لربه سوى نزيز جرح في قلب بغيّ . أم تظنون انهُ اكل وعياله لحم ضأن ؟ الحق اقول لكم انهُ لم يأكل وعياله سوى لحم بغيّ ولم يشرب سوى دم بغيّ . واي الامرين اصعب : ان يؤاكل الكاهن البغيّ ويشاربها ام ان يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحماً واحداً ودماً واحداً ؟

« اليكم مثلاً آخر : امس دخل لص على ارملة عجوز كان قد سمع انها تحمل في عنقها كيساً من الفلوس . فارداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموساً بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذي ربحه منه ابتاع بهِ ثوباً من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته راتباً للقاضي . والقاضي حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضي اكثر براءة من اللص ؟ الحق اقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دماً بريئاً . اما القاضي فشربه

« اجل . لقد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم انساناً واحداً من حيث لايدرون . وقد اجترحت في سبيل إسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء اشقياء واصواتهم ما تزال تصرخ اليَّ — اعطنا السعادة اعطنا السعادة ! فها انا عازم ان آتيهم بعجيبة جديدة

« لقد بنيت لهم في سالف الاحقاب مدناً كثيرة . اما الآن فبخاطري ان ابني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطي هذه المدينة آذاناً تسمع بها كل لغات الناس . وعيوناً تبصر بها كل اشكالهم واجناسهم . وسأجعل احشاءها اوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار انفس انفاسها فلا ترتوي . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشي فيها الله الناس وشيطانهم جنباً الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم في مجاري جحيمهم . ويجاور المعبد الخمارةَ وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكىء المدرسة والسجن على بساط واحد

وسأحقن سكان هذه المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيَصِلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم في كل ساعة مايتلهون به عن التفكير في بواعث الحزن والالم وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي . يكفرون بأربابهم اما بي فلا يكفرون . ويهربون من ارواحهم اما مني فلا يهربون . بل اليَّ في كل امر يفزعون . اذا حمَّلتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون : خفف من احمالنا . بل يقولون : زدنا من احمالك . وسيضيق بهم سطح الارض فيتخذون في جوفها انفاقاً . ويشيدون في الجو حصوناً عالية وابراجاً شامخة . وسأجعل اذنابهم طعاماً لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاماً لاذنابهم . فيأكل بعضهم بعضاً من حيث لايعلمون

« ها انا قد بحت لكم بما في خاطري . وعليكم ان تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها في الحال وباشروا بالعمل وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل ان يبرح هذا المكان . وانا معكم حتى نهاية الازمان »

ما ختم الفلس خطابه حتى قام من بين الحضور كائن مجنَّح في عنقه غلّ من الذهب . وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه ابناؤه العشرون — توأمين فتوأمين — وفي عنق كل منهم غلٌّ من ذهب . وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا امام العرش خرّوا ساجدين ، وعفّروا جباههم قائلين :

« نقسم بوجه الفلس وقفاه اننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه »

فقال الجالس على العرش :

« ايها الخيال ! لقد احسنتَ النطق والنية . ليكن في مدينتي العتيدة لكل فنّ من فنونك اثر »

ثم تقدَّم شيخ جللته هيبته اجيال كثيرة . ويداه في اصفاد من الفضة . وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه اولاده المحسون توأمين فتوأمين وبدا كل منهم في اصفاد من الفضة وعلى عينيه قناع من فضة ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال واولاده . فقال الجالس على العرش :

« ايها الفكر ! لقد احسنت النطق والنية : ليكن في مدينتي العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر »

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . وحبا نحو العرش على عكازتين . وحبا وراءهُ على عكازاتهم اولاده الثمانية والتسعون — توأمين فتوأمين . وعلى عيني كل منهم نظارتان كبيرتان . ورجلاهُ مكبلتان بسلسلة من نحاس . ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

« ايها العقل ! لقد احسنت النطق والنية . ليكن على كل باب من ابواب مدينتي العتيدة نظارتان كالتي على عينيك وعيون اولادك »

واخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلاَّت كثيرة فبانت كأنها القنفذ . وقالت ما قاله الذين سبقوها . فاجابها الجالس على العرش

« ايها القلب ! لقد احسنت النطق والنية . قرَّ عيناً وانعم بالاً . ففي مدينتي العتيدة ستجد منفذاً لكل مسلَّة من مسلاَّتك »

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » والوزير الجالس عن يساره واسمهُ « المكر » وقال لهما :

« اليوم يومكما . انطلقا الى العالم الجديد حيث القبيلة الحمراء التي تملك الجزيرة المدعوة مانهاتان وابتاعاها منها بابخس ما يمكنكما »

وكاد الفلس يحل مجلسهُ عند ما انتصبت فجأة امامه فتاة عريانة تقلّب في يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد ادهشتهُ الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها . وقال متلعثماً من شدة دهشته

« من اين جئتِ ايتها الفتاة ؟ »

« كنت هنا من قبل ان تكونوا »

« هذا مستحيل . ومن تكونين ؟ »

« انا الحياة »

« وهذا مستحيل والحياة في قبضتي . وماذا تبغين ؟ »

« سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها »

« وهذا ابعد من المستحيل . فليس يعرف بيتَ السعادة والسبيلَ اليه الاّ انا . انا هو السبيل والهادي . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التي في يدك ؟ »

« السعـادة »

« وهذا مستحيل المستحيل فالسعادة في مدينتي العتيدة التي شرعت اليوم في بنائها . ام انتِ تمزحين ؟ »

« بل انا في جدّ »

« ان في جدّك مزحاً يستفز ضحكي . لـكن الكرة التي تقلبينهـا في يديك جميـلة فهل تبيعينها ؟ »

« السعادة لا تباع ولا تشرى »

« هذا ضربٌ من الجنون . اذ ليس في مملكتي ماليس يباع ويشرى . واذا سلّمنا بجنونك وقلنا ان السعادة لا تباع ولا تشرى . فكيف لمن يطلبها ان يحصل عليها ؟ »

« مَن قَبِلَني كما انا نال الجوهرة التي في يدي . مجاناً آخذ ومجاناً اعطي »

« يا لك من داهية . افلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال السعادة من يدك ؟ »

« ازل عن عرشك وانزع نيرك عن اعناق الناس ودعهم يعطون مجاناً ما يأخذونه مجاناً »

« يا لك من ماهرة وقحة . لا تخجلين حتى من ان تقفي امامي ولا كساء عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهرة . واسكبوا في فمها رصاصاً . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم . وآتوني بالجوهرة من يديها الاثيمتين »

فبادر الحراس الى الفتاة وانتزعوا الجوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش . . وما كادوا يسترون الفتاة برداء من ارديتهم حتى التفت الفلس الى الجوهرة في يده واذا بها حجر اسود . والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء . فصاح مقهقهاً

« انها لمشعوذة كبيرة . اسحقوا رأسها ثم دعونا منها . وانصرفوا كل الى عمله . واياكم ان تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم . انطلقوا بسلام »

وكان كما امر الفلس . فابتاع اعوانهُ جزيرة مانهاتان بثمن يوازي الاربعة والعشرين دولاراً . وراحوا يبنون نيويورك مدينتهم العتيدة . وما يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون . ويهدمون ويشيدون . وبين انقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن السعادة يفتشون

***

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله في قلوبكم » انزجّ بين تلك الملايين جبران خليل جبران

الزراعة والحضارة

كيف نشأت زراعة الذرة وأين

وسائل البحث الزراعي التاريخي

﴿ طرائق التحقيق والبحث ﴾ لتاريخ الذرة ، ونشوء زراعتها ، شأن خطير في نظر المؤرخ الفيلسوف لا يقل عن شأنهما في نظر علماء الزراعة والنبات ، وذلك لان الذرة من الحبوب الزراعية التي مكنت الانسان من التحضر . وطريق العالِم في تحقيق أُصل النبات هي ان يجمع ما يستطيع جمعهُ من الحقائق المعروفة . فيوفق بينها ثم يبني حكمه عليها . واذا اعوزته الادلة الصريحة فكثيراً ما يلجأ الى ما يلجأ اليه القضاة احياناً فينظر في القرائن . واذا كثرت القرائن التي تدل على صحة الحكم زاد ثبوته ، اذ يبعد ان تتفق قرائن كثيرة في دلالتها على صحة شيء ما لم يكن ذلك الشيء صحيحاً او قريباً كل القرب من الصحة . واذا بدا له — اي للعالِم — من القرائن ما لا يلتئم مع غيره وجّه عنايته اليه وتعمق في البحث فيه حتى يتبين سبب هذا الاختلاف ، وغالباً ما يكون حل السرّ ، مرتبطاً بمعرفة اسباب التناقض بين الحقائق المعروفة

واذا اراد نباتي ان يعرف الموطن الاصلي لجنس من النبات التفت اولاً الى النوع البرّي منه وبحث عن الاماكن التي ينمو فيها ، وقلما تخطيء طريقته هذه ، ولكن من اجناس النبات ما لا ينمو بريًّا ، فيُسَدُّ هذا الباب في وجهه ، فيعمد عندئذٍ الى طريقة اخرى وهي ان يراقب النبات في نموه ونشوء اعضائه ، ويقابل بينه وبين غيره ، لعله يعثر على جنس يقرب منه ولو كان حبل القرابة طويلاً . او قد يطرق في بحثهِ ، طريقة المقابلة بين بقاياه المتحجرة والنظر فيما يطلق عليه من الاسماء في اللغات المختلفة لان من ينقل نباتاً من بلاد الى اخرى لم يعرَف فيها من قبل ، ينقل اسمه كذلك ، ولا يعتدُّ بهذا الامر ولا يبنى عليه حكم الاَّ اذا امكن تأييده بقرائن اخرى

هذه هي السبل التي سوف نشير اليها في البحث عن أُصل الذرة

﴿ اختلاف الاسماء ﴾ يرجح ان الذرة لا تنمو برية ولو وجد منها نوع بري لما خفي عن عيون الباحثين ، لاسيما وانها من اجناس النبات المشهورة . وهذا مما جعل تعيين موطنها الاصلي صعباً . وقد ذهب كثيرون الى انها نقلت من اميركا الى سائر البلدان وخالفهم آخرون فقالوا انها كانت تزرع في العالم القديم قبل الكشف عن العالم الجديد ، مستندين في ذلك الى بعض الادلة التاريخية . واسم الذرة الشائع في الولايات المتحدة الاميركية مايز Maize وهو مأخوذ عن اصل هندي ، الاَّ انهُ

لم يشع الا بعد سنة ١٥٧٠ وتعرف الذرة في اوربا بأسماء تشعر بأن اصلها من البلدان الشرقية . فالانكليز يسمونها القمح الهندي Indian Corn والفرنسيون يسمونها القمح التركي blé de Turquie وتعرف في مصر بالذرة الشامية . لكن الذرة ليست قمحاً ولا هي هندية او تركية او شامية، والنسبة الى البلدان لا تكون صحيحة دائماً . فالديك الذي يسمى في مصر بالديك الرومي يسمى في لبنان الديك الحبشي وفي انكلترا بالتركي وفي فرنسا بالهندي . وقد قال احد العلماء — واسمه ده كنتول — ان الذرة كانت تعرف بالقمح الروماني في مقاطعتي اللورين والقوج وبالقمح الصقلي في مقاطعة تسكانا بايطاليا وبالقمح الهندي في صقلية وبالقمح الاسباني في مقاطعة البيرنيه والترك ينسبونها الى مصر

﴿ هل الاصل شرقي ﴾ ولم يرد للذرة اسم في السنسكريتية ولا في العبرانية ولم يعثر لها على أثر في النقوش والكتابات المصرية ، على ما يعلم . وقد وجد أحدهم سنبلة منها في طيبة ولكن لاشك في انها وصلت الى تلك المقبرة في الازمنة المتأخرة إذ لا يعقل ان يكون المصريون استعملوا الذرة وعرفوها ثم اغفلوها في نقوشهم . ومن الثابت انها لم تعرف في اوربا قديماً ، ولكن البعض كان يظن انه أتي بها من الشرق في القرون الوسطى ومن القائلين بذلك عالم يدعى بونافوس وهو من اكبر من كتب في هذا الموضوع في اوائل القرن التاسع عشر ثم تابعه نفر كبير وكانوا قد اعتمدوا على وثيقة تؤيد رأيهم ولكن ظهر بعدئذٍ أن الوثيقة ملفقة في العصور الحديثة. فلم يبق للقائلين بالاصل الشرقي ، من دليل يعتمدون عليه ، إلا صورة في مخطوط صيني خط ما بين سنتي ١٥٧٨ و ١٥٩٧ وتمثل تلك الصورة نباتاً يقرب من الذرة وقد كتب في أسفلها اسم الذرة في الصينية لكن البرتغاليين أتوا الصين سنة ١٥١٦ أي قبل كتابة هذا الكتاب بنحو نصف قرن ولا يبعد أن يكونوا هم الذين أوصلوا الذرة اليها، ومما يؤيد ذلك انه لم يرد لها ذكر في كتابات الصينيين الذين لم يغفلوا ذكر شيء فيها

﴿ أصلها اميركي ﴾ فسكوت الشرقيين عن ذكر الذرة في كتاباتهم القديمة ، دليل واضح على انها من اصل غير شرقي وقد انتشرت زراعتها بعد اكتشاف أميركا بسرعة غريبة ولو كانت في الشرق قبل أن يؤتى بها من اميركا لوجب ان يعرف نفعها ويعتنى بزراعتها قبل ذلك التاريخ بزمن طويل

وليس من ينكر ان الذرة كانت تزرع في اميركا زرعاً واسع النطاق عندما كشف الاوربيون تلك البلاد وكانت اهم المحاصيل التي يعتمد عليها هنود اميركا ولها اسماء في كل لغاتهم ويستدل على قدمها وشأنها العظيم عندهم من ادخالها في اكثر شعائرهم الدينية . وقد وجد شيء كثير منها في قبور الهنود الاميركيين ، وفي هيا كل المعبودات في المكسيك ، كما وجدت الحنطة (القمح) والشعير في القبور المصرية القديمة . ويجب ان لا يفهم مما تقدم ان الاميركيين بدأوا بزراعتها لما بدأ المصريون بزراعة الحنطة والشعير ، فان عصر التمدن في المكسيك وبيرو متأخر عن عصر التمدن المصري القديم . الا ان انتشار زراعتها في نواحٍ كثيرة من اميركا وكثرة انواعها المستعملة في الزراعة تبعث على الظن انها عرفت منذ زمن طويل ، وقد عثر داروين على متحجرات منها ممتزجة بالصدف على شاطىء من

شواطىء بيرو بأميركا الجنوبية وقد ارتفع ذلك الشاطىء الآن ٨٥ قدماً عن شط البحر

﴿اين موطنها في اميركا﴾ يظهر مما تقدم ان موطن الذرة الاصلي هو اميركا. ولكن اي اقسام اميركا هو ذلك الموطن ؟

يعرف من طبائع هذا النبات انهُ يجود في البلدان الحارة فيجب ان نبحث عنهُ في حالتهِ البرية في سهول الاقسام الحارة ونلتمسهُ في السهول لان النبات الذي لا يعمر الاّ سنة واحدة لا ينمو في الحراج والغابات. وقد كفانا علماء النبات عناء البحث الكثير إذ قد مضى عليهم اكثر من ٣٠٠ سنة رادوا فيها السهول جميعاً ولم يدعوا نباتاً الاّ وصفوه وشرحوا طبائعهُ ولم يعثروا على نبات بري من الذرة الاّ انهم عثروا على نبات يقرب منها في المكسيك وغواتيمالا (اميركا المتوسطة) وهو النبات المعروف باسم (تيوزنت teosinte) فترجح ان سهول المكسيك وغواتيمالا هي موطن الذرة الاول

والذرة انواع كثيرة تعد بالمئات والبعض منها يختلف عن البعض الآخر، اكثر مما يختلف التيوزنت عن انواعها القريبة منهُ ، وعلماء النبات يجعلون التيوزنت من جنس نباتي مستقل عن جنس الذرة ، ولكن ذلك لا يمنع ان يكون الجنسان نبتا من اصل واحد ، لا يختلف عنهما او عن كل منهما، الاّ اختلافاً يسيراً . واكثر انواع الذرة تكون الحبوب فيه عارية من الغلاف والاستغناء عن الغلاف درجة من درجات ارتقائها ، فاذا لقحت الانواع الخالية من الغلاف من بعض انواع الحبوب ذوات الغلاف أتى النسل مغلّف الحبوب ، قريباً من التيوزنت ، لا يفرق عنه إلاّ في وجوه قليلة . ويمكن تلقيح الذرة بالتيوزنت،والتيوزنت بالذرة فيأتي النسل قويًّا منتجاً ، وهو من الدلائل على صلة النسب بين الجنسين . وثمة وجوه شبه اخرى بين الذرة، والتيوزنت لا مكان للتبسط فيها هنا وكلها تثبت وتؤيد صلة القرابة بين الذرة والتيوزنت

﴿صورة التطور العامة﴾ فاذا جمعت كل هذه الحقائق وغيرها وضمت بعضها الى بعض ، امكننا الرجوع بتصورنا ، نطوي الوف السنين ، الى الزمن الذي كانت فيه الذرة تنمو في سهول المكسيك وغواتيمالا وغيرها من بلدان اميركا الوسطى. وكانت سوقها اذ ذاك طويلة يزيد ارتفاعها على ارتفاع اكثر انواع الفصيلة النجيلية ، وتحمل حبوباً صغيرة في رؤوس اغصانها

ثم تكيفت ، ازهارها بمرور العصور ، فأصبح بعضها يحمل البيوض ، وبعضها يحمل اللقاح ثم ظهر نوع قصرت اغصانه كثيراً ونمت اوراقه وتكيفت حتى احاطت بالحبوب ، ووَقتها من الطيور وبعض الحيوانات . فراق منظر هذا النبات بعض هنود اميركا ، وثبت لهم نفعه فاعتنوا بهِ، ومن ذلك الوقت بدأت زراعة الذرة واخذت انواعها تتكاثر حتى اصبحت تعد بالمئات . ولا شك ان الاميركيين الاصليين اظهروا من العقل والفطنة ، في انتخاب انواع الذرة ، اكثر مما اظهروا في تجارتهم بها مع الاوربيين الذين نزلوا بلادهم اولاً ، اذ كانوا يبيعونها اكداساً مقابل ما لا قيمة له من الخرز والودع وقطع الزجاج

[تلخيص بحث للاستاذ ايست بجامعة هارفرد]

بين الحيوان والنبات

للامير مصطفى الشهابي

لي صديق عكف على الحيوانات فتوغل في مدارسة خَلْقها وطبائعها ومنافعها ومضارها حتى اذا هضم منها ما لا يستهان به من المعلومات صار صديقاً لها يكثر من ذكرها ويشيد بفوائدها في كل المجالس . وكان يعلم انني اميل الى النباتات وانني لا اعدل بها شيئاً من الاحياء السائرة فكان يتعمد ذمها امامي ليستفزني الى مناظرته . لكنني كنت اتجنب منازلتهُ واتحاشى مقارعته ، حتى كان يوم من الايام واذا بي اراه في المخبر وقد دخل عليَّ دامراً لا مستأذناً فوجدني حانياً على بعض الازهار اتفحص عن مواقع أجزائها واتقصاها . وحانت منهُ التفاتة الى احدى زوايا المخبر فرأى على الارض جماجم بعض الخيل والانعام وعظامها وقد علاها الغبار لفرط اهمالها ، فما كان منهُ الاَّ ان انفجر بحديث طويل يدل على ما يكنّهُ صدره من الحفيظة والموجدة قال :

ان امرك مع دوحة النباتات عجب . اراك تُعنى بأشجارها وتشغف بأزهارها وتستلذ اثمارها وتستخفك خيارها لكنك تتناسى شرارها . هلاَّ ذكرت ان جميع الجراثيم القتالة التي يسمونها مكروبات تنتسب الى رتبة الأُشنة الزرقاء فهي اذن من النبات لا من الحيوان ، وان معظم امراض الزرع والشجر مصدرها فطور دقاق مجهرية تستولي على مزروعاتك ومغروساتك فتفسدها وتبيدها وهذه الفطور هي ايضاً من النبات لا من الحيوان . وربما كان عملها هذا اي فتكها بابناء جلدتها اشد واضر من فتك الحيوان بالحيوان . ثم انظر الى الاعشاب السامة ما اضرها كالشوكران واليبروح والعنصل والظيّان والزؤان وغيرها ، واضر منها تلك المخدرات المذهلات الذاهبات بحسك والطائحات بلبك كالافيون والحشيش والكوكائين والنكوتين ، دع التي لا يدخل منها ذرة في جوفك حتى تبعث بك حثيثاً الى حيث استقر اجدادك في العالم الثاني كسم الاستركنين واضرابه من المواد النباتية المخيفة . واذا لانت ملامس بعض النباتات اليس لبعضها شوك طالما آذى الناس في عيونهم وايديهم وارجلهم ؟ واذا فتكت بعض الحيوانات ببعض افتنسى بعض الطفيليات من النباتات التي لا تعيش الاَّ من طلّ مضيفها اي نسغه كالكَشُوث والذؤنون والدبق واشباهها ؟

وبعد ان بلع الصديق ريقه قال :

لا سبيل الى الموازنة بين فوائد الحيوان وفوائد النبات . وهاك الحمار مثلاً : يتهمه الناس بالغباوة مع انه خير للمرء من بعض ابناء جنسه المتشحين بالذكاء . اتدري اننا نركبه ونحمله اثقالنا

من ايام حقبة الحجر المصقول في فجر الانسانية الى يومنا هذا وهو على جورنا صابر يقنع بالقليل من الطعام ويقوم بواجبه خير قيام لقاء قليل العلف الذي يُعلفه . وهذه الصافنات الجياد من الخيل العراب شدَّ ما يبدو على محياها من سيماء النبل وجلال العتق . وما احقر السيارة امام عربة يقودها زوج من الجياد عليهما الاعنة المذهبة وهما يختالان كعروسين او يشتدان عدواً رافعي الرأس شائلي الذنب ضاربي الارض بقوائم كمقامع من حديد . والعز على متون الخيل . وما ظفر الظافرون في الفتوحات الاَّ بالجياد السريعة في جريها المروَّضة على الكرّ والفرّ في عجاج الحروب ورهج الملاحم؛

وما عيشة الناس في الفلوات بغير الابل . ولولاها لزالت البداوة وفقد الانتفاع بالصحاري والمغاور . لحمها لذيذ ووبرها ناعم ولبنها حلو ملين للمعدة مطهر للمعى وجلدها صالح لصنع النعال والقُرَب العظام وظهورها تحمل الاحمال الثقال ، وهي آية الصحراء التي لا تعد مناقبها ولا تذكر مثالبها . ومن ذا الذي لا يعجب بالعنز التي يقتات بلبنها الفقير المعدم دون ان يطمع من مال الغني بفلس ، وبالنعجة التي نجزُّ صوفها ونشرب حليبها ونأكل لحمها طعاماً شهيًّا . وبالبقر الذي نحرث بهِ الارض ونأكل منهُ اللحم ونصنع من لبنه الزبدة والجبن

وأراك تملأ الدنيا صياحاً من اضرار الحشرات . لكنك لا تذكر بخيرٍ دودة القز عندما تمتع طرفك بأثواب الحرير التي ترفل بها فواتن النساء وانت تردد بيت ابي الطيب المتنبي

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

او بيت المنخل اليشكري

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

ولقد سهيت عن فوائد النحل وشهده وحشرة القرمز واصباغها والحشرات الناقلات اللقاح الى مياسم الازهار

ولماذا لا تتحدث عن الفراش وتزاويقها والطير وتغاريدها وصيد البر والبحر وما في اقتناصه من لذة . وهل عاش اجدادك الاقدمون الاَّ من الصيد قبل ان يمدوا الى النباتات يداً

ولما رأيت صاحبنا قد استرسل في حديثهِ ورأيتهُ مندفعاً فيهِ اندفاع الودق الهطال او السيل الجرَّار وربما انقضت الساعات دون ان يقف أسكتُّه صائحاً : على رسلك يا أخي . هوّن عليك الامر قليلاً ودع مجالاً لغيرك يتكلم . لقد آمنت ببعض ما ذكرته وكفرت ببعض . فالمكروبات هي من النباتات كما قلت . لكن دقائق الدود وغلاظها كلها من الحيوان وفتكها بأعضاء الانسان كبير . والذي يسمعك تتكلم عن الحشرات وعن منافع بعضها يظن انك قد محيت بذلك اضرارها العظيمة وفظائعها الجسيمة حتى كدت تنسينا ارجل الجراد وغاراتها ودودة القطن وويلاتها وحشرات المنّ وآفاتها وذبابة الفواكه وضرباتها وقتَّع الاشجار وفتكاتها وعثَّة الالبسة وجساتها وسوسة الخشب ونخراتها . وكأني بك اذا ما تركتك وشأنك ستشهيني منظر القملة وتحبب اليَّ رائحة البقة وتذهلني

عن لسعة البعوضة وتنسيني إلحاح الذباب على الناس وتجعلني أسر لسروره وأقول مع عنترة العبسي « هزجاً يحك ذراعه بذراعه » الى آخر البيت المشهور . ولعلك لا يؤثر فيك لدغ الثعابين ولسع أم اربع واربعين . وستقول عما قريب ان الزنابير والعقارب لا حمات لها وان جميع هذه المخلوقات المخيفة هي آية الله في ارضه رونقاً وبهاء وبهجة واشراقاً . . . .

ومن العجيب انك تذكر بعض النباتات الطفيلية وعددها حقير لا يؤبه له وتنسى ان معظم الحيوانات لا تعيش الاّ من لحم الحيوان . فكبار السمك تلتهم صغارها ، والجوارح من الطير تفتك ببغاثها ، وسباع الحيوان يفترس بعضها بعضاً ، والدنيئة منها تسطو على خشاش الارض ، ومن الحشرات ما هو مسلط على حشرات اخرى وهكذا تتقاتل الحيوانات وتتفانى وهي في ذلك كالانسان بحروبه الهمجية واعماله البربرية . اما النباتات فمنها الحنطة والارز والذرة وسائر الحبوب التي تقتات بها منذ آلاف من السنين . ومنها البقول التي لا يضاهيها شيء بخفتها في المعـدة . ومنها الفواكه اللذيذة والتوابل والافاويه وما يستخرج منه السكر والنشاء وما تعصر منهُ الزيوت المختلفة . وماذا يعدل العنب وابنة العنب التي قال فيها الشاعر الكافر « هات التي هي يوم الحشر اوزار » . ولولاها أ كان يكون ابو نواس وخمرياته . وما هو قوت أهم الحيوانات الدواجن التي تبـاهي بهـا . أليس هو الكلأ وسائر ما تنبته الطبيعة في المروج الطبيعية او يستنبته الفلاح في المروج الصنعية . ثم انظر الى الحراج واخشابها وتخيل فوائدها التي لا حدّ لهـا في معظم الصناعات البشرية حتى قال احدهم انه لم يهتد الى صناعة من الصناعات الاّ وهي في حاجة الى الخشب . ومن المعلوم ان الاخشاب تستعمل في صناعة الورق وعود الثقاب والفحم وفي بناء البيوت وفي تدفئة الغرف وفي رصف الشوارع وفي صنع الاعمـدة والعوارض والعربات واقلام الرصاص والعصي وقبضات المظلات والخزانات والمنصات والكراسي والسلال الخ . ويستعمل لحاء بعض الشجر لاستخراج الدباغ منها كما يستخرج الفلين من احد انواع البلوط

وأي شيء اجمـل في العين من زهرة ندية يروقك منظرها او ريحانة عطرة تنعشك رائحتها . واي بيت من البيوت الكبيرة او الحقيرة يخلو من حـديقة للزهر او من حوض او من زهرة في أصيص . ولا شك انك عليم بضروب العطور وبالمياه العطرة . ولا تجهل ان ادقها في الانف واغلاها ثمناً تلك التي تقطر من بعض الازهار والرياحين كالورد والبنفسج والياسمين والليلك والعنبر وخيري البر والبغيثران وزهر الفصيلة البرتقالية وغيرها كثير ، دع ما يأتينا من البلاد الحارة كالبخور والجاوى واللبنى وامثالها من المنعشات

واذا انتقلنا الى النباتات الطبية ألسنا نرى فيها المسكّنات والمعرّقات والمسهّلات والقابضات والمشهّيات والهضومات والمنبّهات والمقيّئات وطاردات الدود من البطن . واذا ما اعترتك الحمى فجعات جسمك يرتعد واسنانك تصطك فهل من دواء سوى خشب الكينا وما يهيأ منهُ . وقد

أسرفت يا صاح بذكر مثالب المكروبات الضارة ونسيت ان هنالك الخمائر التي لا غنى عنها في صنع الخبز والجبن والخمر وامثالها . ونسيت ايضاً ان من المكروبات ما يستعمل مصلاً يحقن به الاصحاء اتقاء للامراض . وذكرت حشرة القرمز ولم تذكر نباتات الصباغ كالفوة والنيلة والحناء والعصفر . واطنبت بالصوف والوبر ولم تطنب بالقطن والكتان وهو لباس سواد الشعوب . وهذه سيارتك واقفة امام داري فهل من سبيل الى سيرها الاَّ بالمطاط في دواليبها والاَّ بالبنزين يدفعها وهو من النفط والنفط من بقايا اشجار جيولوجية قديمة

وعبثاً حاول صاحبي ان يسكتني فلم اسكت حتى قرع الباب علينا زائر . واذا به صديقنا العلامة الدكتور امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان فاحتكمنا اليهِ لان علمه بالنبات كعلمه بالحيوان . فلم يشأ ان يحكم بيننا بل قال لا لزوم الى المفاضلة . فللنبات منافع ومضار وللحيوان منافع ومضار والامر جلي لا يحتاج الى مهذار . . . .

زهر يتفتح ليلا

يذهب بعضهم الى ان ما في الطبيعة من جمال الازهار وشذا عطرها ، انما أبدعتهُ الطبيعة لتكفي حسَّ الجمال في الانسان . وهو قول شعريٌّ اكثر منهُ علمي ، لان بدائع الالوان وروائح العطور في أزهار النبات واوراقهِ ، متصلة صلة وثيقة بنشوئهِ وتطورهِ وتلقيحهِ واخلاف النسل فيهِ . فاذا أصرَّ اصحابنا على رأيهم الشعري فلنذكر لهم نباتاً من فصيلة الصبير ، لا يتفتح زهرهُ ولا يعبق نشرهُ الاَّ في الليل . فزهر هذا الضرب من الصبير ، يبدأ في التفتح عند المساء ، ولا يأتي عليهِ الصباح الاَّ وقد انطبقت اكمامه ، وتهدَّلت تيجانها ، لا حيوية فيها ولا عطر ولا جمال . ولكنها تكون في خلال ذلك قد حققت الغرض الذي انشأتها الحياة لتحقيقهِ . ذلك ان بعض اصناف الفراش يكون قد زارها في الليل ، منجذباً بعطرها ، فيتنقل من زهرة الى اخرى ، فيكون في خلال تنقله وسيلة الطبيعة لاحداث التلقيح . ويعرف هذا النبات باسم Cereus اي الليّن ، لان لهُ سوقاً طويلة دقيقة سهلة الالتواءِ يمتد فيها من أعلى الى اسفل اضلاع مقعّرة ، فيها على فترات متساوية شوك قاسٍ . وهذا النبات اما معترش يتسلق الأشجار او يمتدُّ على سطح الارض . اما قطر الزهرة من أزهاره فقدم وقد يبلغ اربع عشرة بوصة . ولكنك اذا رأيت البرعم في النهار لم تستطع ان تتصوَّر ، ما ينطوي عليهِ من الجمال عند تفتحهِ في الليل . فلون اوراق الكأس بني قاتم من الخارج ولكنهُ اصفر زاهٍ من الداخل . وكأن الطبيعة اختارت هذا اللون الاصفر، لكي تزيد البهاء في بياض التاج . ويصحب هذا البهاء العذريَّ ، عطر لطيف يفوح ليلاً فيجذب الفراش الى الأزهار من مكان بعيد . والنبات متوطن في جزائر الهند الغربية ، ويرى في مستنبتات الازهار في انكلترا

احمد زكي باشا

في ذمة الله أبي وشيخي

بقلم بشر فارس

— العالم —

قدمت من باريس الى مصر — في فصل الصيف سنة ١٩٣٠ — أطلب طائفة من المستندات إتماماً لرسالتي « العرض عند عرب الجاهلية » . فسرعان ما كتبت الى احمد زكي استضيء بمشكاته . ولما مثلت بين يديهِ قرأت عليهِ خطة رسالتي فناقشني في بعض نواحيها . والغريب انهُ ناظرني في مسائل فلسفية محضة لا ترجع الى العرب في شيء

خرجت من عند احمد زكي منشرح الصدر ، ذلك اني ادركت اني ظفرت بأستاذ ثقة . ومما زاد في انشراح صدري ان الرجل — رحمه الله — مال إليَّ وأنس بي وحملني على ان أسير في عملي اذ جعلني اطمئن اليهِ بل أثق بنفسي

منذ ذلك اليوم حتى عودتي الى باريس — أي زهاء شهر — ظللت اختلف الى احمد زكي اقرأ في داره كتباً مطبوعة ومنسوخات كان يجلبها اليَّ من خزانته او من دار الكتب المصرية . وكان يعلمني كيف اطالع هذه المنسوخات واتصفح تلك الكتب . ثم اني لما قفلت الى مصر في السنة الماضية ما فتئت اعتمد على احمد زكي وارجع اليهِ فيما اقرأ وا كتب

كان احمد زكي راسخ القدم في الفنون العربية : عالماً بفقه اللغة وقواعدها ، بالتفسير ومذاهبه ، بالفقه ودقائقه ، بالتاريخ ونوادره ، بالجغرافيا وشواردها ، بتراجم الرجال المبرزين . وكان — فوق هذا — متضلعاً من اللغة الفرنسية ، مطلعاً على أدبها القديم والجديد ، وكان يقرأ الاسبانية والانكليزية ، وكان يأسف على جهله الألمانية ، وطالما قال لي : تعلم الالمانية ان اردت ان تتمكن من فن الاستشراق

ولم يكن علم احمد زكي مقصوراً على شؤون العرب واللغات ، بل كان ينبسط على الفلسفة والتاريخ العام والجغرافيا العامة والقانون والاقتصاد السياسي

هـذا ، وقد يظن الناس ان سعة الاطلاع كانت خاصية احمد زكي . والذي عندي ان خاصيته كانت بين البصيرة الخطّافة والذاكرة المكينة . ثم انهُ كان يفضل سائر العلماء باستعمال الجزازات fiches ، وهي طريقة علمية اخذها عن الفرنجة : فكنتَ ترى في داره خزانات يملأها جزازات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن او الباب الذي ترجع اليهِ . وهذا ما يبين لنا كيف كان يأتي احمد زكي بالحجج القاطعة والاستشهادات الصحيحة في اسرع من ارتداد الطرف . وكيفما كانت الحال فان احمد زكي كان قوي الحجة ، طلق البديهة . وقد رأيته — غير مرة — يكتب مقالاً كاملاً في جلسة واحدة . وكان يؤثر الكتابة عند الفجر

واظنّ المناظرة الفن الذي مهر فيهِ احمد زكي . وانه لا يخفى عليّ ان خصومه في العلم كانوا يخافونه لثباته وعارضته ، ولربما خافوه للذعه . والحق ان قلم احمد زكي كان ينحرف الحين بعد الحين عن الهدوء فيهيج ، الاَّ ان هيجانه لم يشذّ قط عن ادب المناظرة ، وجلّ ما يقال فيهِ — اذن — انهُ كان متهزلاً ساخراً . واني أشهد ان احمد زكي لم يعمد الى التهزل والسخرية الاَّ ليدفع سقطة خصومه ويشلّ مكابرتهم

***

ومن فضائل احمد زكي العلمية انهُ كان حرّ الفكر ، كثير التحري والتثبت ، منقاداً للحق . وكل هذه صفات العالم الحق

أما حرية فكره فانهُ لم يقل ولم يكتب الاَّ ما رسخ في ذهنه . ثم انهُ ما تملَّق احداً من الناس . والمعلوم انهُ كان كثير الخصوم والاعداء لصراحته وصدقهِ . (ووالله لو صانع لحَلَّ في مقدمة المجمع العربي المصري !) واكبر دليل على حرية فكره انهُ فسَّر طائفة من الآيات الكريمة مستنداً الى عقله فأقبل عليه العلماء والفقهاء يحاجّونه ولم يظفروا منهُ بشيء

واما تحريه وتثبته فقد عرف المُقرّبون اليهِ كيف كان يطيل النظر في الكتب العُمَد ويوازن بينها ابتغاء الوصول الى الحقيقة ، وكثيراً ما كان يثبت المظانّ فلا يرسل الكلام ارسالاً كمثل غيره من علمائنا

واما انقياده للحق فقد اجتمع ذات مساء عندي بالاستاذ زكي المهندس المدرس بدار العلوم . فدارت بينهما مناظرة حول استعمال « لا » مع « كاد » . فقال احمد زكي : تقول العرب « يكاد لا يفعل » وقال الاستاذ المهندس : بل تقول « لا يكاد يفعل » . فثبت احمد زكي عند رأيه ، وبقي الاستاذ المهندس على قوله ، حتى انصرفا جميعاً . ولما كانت الساعة الخامسة صباحاً ايقظني جرس (التلفون) ، واذا احمد زكي يصيح : ان الاستاذ على صواب ، ولكن أجهل عنوانه ، فأخبره لساعتك اني قضيت ليلتي في التنقيب والتصفح حتى أصبت الدليل على قوله — في القرآن — « أم انا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين — سورة الزخرف »

ومما يؤسف عليه ان احمد زكي باشا بذل حياته العلمية في كتابة المقالات . فاذا نظرنا الى تآليفه لم نصب الاّ كتباً ضئيلة او محاضرات او رحلات او ترجمات وكم قلت له يا باشا توّج حياتك بمؤلف ضخم لا يقدر على اخراجه الاّ انت . فما زلت به وما زال بهِ خلصاؤه ومريدوه حتى دعاني يوماً فقال لي : يا بنيّ اني نويت ان اؤلف معجماً مختصراً سهل المتناول على شاكلة معجم Larousse الفرنسي مع لحَق ادرج فيهِ اسماء الاعيان والبلدان . فصفقت لتلك النية . فقال لي الباشا : اني ارغب اليك ان تعاونني على تأليف ذلك المعجم ، وليكن عملك موقوفاً على تهذيب المعاجم العربية بحيث تطرح الزوائد والشواهد وتقصر الشرح على الالفاظ الحية التي بنا حاجة اليها سواء كانت علمية او عملية ، ثم اراني بعض جزازات كان قد هيأها على سبيل المثال . فاتفقنا على ان نشرع في تأليف المعجم بعد اشهر معدودات ، وقد اوصاني احمد زكي ان اجعل الامر بيني وبينه . وهأنذا اذيعه اليوم

***

ومن مباحث احمد زكي الاخيرة انهُ كان يشتغل باثبات خارطة الجزيرة ولا سيما اليمن . وقد اطلعني على رسم اولي لهذه الخارطة ، واخبرني انهُ بعث الى الحكومة اليمنية يسألها عن اشياء وانهُ راحل الى تلك البلاد ليحقق مولد النبي

ومن اعماله الاخيرة انهُ صحح طائفة من تجارب كتاب « موافقات الحديث » ، ذلك الكتاب الذي يطبعه الآن البروفسور (فنسنك) في (هولندا) . وكان احمد زكي يرسل تلك التجارب بالبريد الجوي على الغالب

ومن آثاره في خزاناتنا تلك الكتب النفيسة التي صححها وطبعها وعلّق عليها ، واليك مثلاً « كتاب التاج » . ولربما ظفر بكتاب فريد يحلم العلماء بهِ فلم يدخر وسعاً في اقتنائه وطبعه الطبع الذي لا يترك غاية وراءه (دونك « كتاب الاصنام » لابن الكلبي) او تصويره تصويراً محكماً (اليك « كتاب الامتاع والمؤانسة »)

ومن آثاره على السنتنا واقلامنا الفاظ ولدها واسماء رجال وبلدان احياها احياء .. اما هذه الاسماء فقد ظلّ يجاهد في سبيلها في الصحف ولا سيما « الاهرام » . واما تلك الالفاظ فقد برى لها قلمه . ومنها لفظة « السيارة » . واني اقف عندها لان « الباشا » حدثني عما عانى من اجلها قال : كتبت فيما مضى من الزمان اعرض لفظة « السيارة » بدلاً من لفظة « اوتوموبيل » . فسفّهني لفيف من الادباء ، على رأسهم المويلحي وظهروا عليّ . الاّ اني كنت في ذلك العهد صاحب السر في مجلس الوزراء ، فوقعت لائحة « النقل » ذات يوم بين يدي ، فجعلت لفظة « السيارة » مكان لفظة « اتوموبيل » حيث اصبتها ، ثم دخلت على رئيس الوزراء ، فوقّعها على وجهها ، وهكذا شاعت لفظة « السيارة »

وعلى الجملة ، ان احمد زكي كان العالم الذي يقف حياته على العلم ويتلف ماله في سبيله : ترجم وألف وكتب وخرّج التلاميذ وعاون العلماء وجمع الكتب ثم بذلها للخلق . وما أظن احداً من الشرقيين لهذا العهد ظفر بالصيت الذي ظفر به احمد زكي . ولعلَّ بعض خصومه يذهبون الى ان صيته انما رفع على حبهِ للعرب ودعايته لهم ودفاعه عنهم ، فاعلموا ان الرجل كان ابعد صيتاً عند الافرنج على تحديهِ لهم وتشيعه للعرب وتعصبه للشرق والدليل على ذلك ان مكانته عند المستشرقين رفيعة جدًّا ، ولقد اتفق لي وأنا اطلب العلم في « السوربون » ان اسمع غير واحد من اولئك القوم يثني على احمد زكي ويعترف لهُ بالعلم الغزير ، ولولا ان يكون الامر هكذا ما قصده البروفسور (فنسنك) ولما قال فيهِ استاذي البروفسور (دومامبين) ما قال في المقدمة التي عملها لكتابي المذكور في مستهل هذا المقال

— الرجل —

لازمت احمد زكي سنة ونصف سنة . فكان رحمه الله اباً لي وشيخاً وصديقاً في آن

ان خلق احمد زكي [١] خلق عربي كريم حتى الائتلاف أبيّ (لا يطأطيء ولا يلتمس شيئاً) — سمح النفس (لا ينصب عداوة لمن يخالفهُ في عقيدة) — وفيّ (لم يخفر ذمة ولم يخن صديقاً) — عصبي المزاج (سريع الغضب ، سريع الرضى) — مقدام (وانما كانت شجاعته في الرأي) — ميال الى النضال (وانما كان يبارز بالقلم واللسان) — ثابت الرأي (لا ينقاد لامر عن هوى) — لطيف المحاضرة ، ظريف البادرة ، حلو الحديث

بيد ان هزَّة الشباب ابرز ما في خلق احمد زكي

كان — رحمه الله — وثاباً متحركاً ، لا يقعد عن الكتابة والقراءة ، ولا عن الجولان ، فتارةً تراه في داره ممسكاً بكتاب او قابضاً على قلم ، واخرى في سيارتهِ ، واخرى عند صديق لهُ ، واخرى في دار علم او محفل قومي

الاَّ انهُ لم يتخلف عن داره بعد العشاء . وكان يفد اليهِ خلصاؤه في تلك الساعة ، فيتعشون معه ويلاعبونهُ « الدومينو » او يساقطونهُ الوان الحديث . وكم مرة قلت لصديقي الفاضل الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني : هذا الظلام قد خيَّم على مصر ، اين نمضي ؟ فينظر كلانا الى الآخر ، واذا نحن نسير الى « شيخ العروبة » اندفاعاً وهل تنبسط النفس الاّ بين يدي صديق يصافيك الود وتخالصه الاجلال !

(١) اني في هذا المقال ما ازال اقول احمد زكي من دون ان اضيف الى هذين الاسمين لقب « الباشا » أو « شيخ العروبة » لان الرجل — رحمه الله — كان يقول لي اذا رمال الي يفخر بنفسه او يتوعد خصماً : انظر الى احمد زكي — او : سترى ما يصنع احمد زكي

خليل شيبوب

الغريبة

مكحولة العينين ذات لمى ... احوى وثغر رائق الشنب
البدر يطلع من ترائبها ... والشمس صفحة خدها الذهبي
وبزين لبتها بجوهره ... نوط كنظم السبعة الشهب
فكأن نور الدر زاد سنا ... وجه بنور الحسن منتقب
وكأن زنديها بياضهما ... عاجٌ زها في قالب عجب
جلست الى رجلٍ يحدثها ... في محفلٍ بجموعهِ لجب
تصغي اليهِ وهو منشغل ... معها ببعض الاكل والشرب
وجلست في سهوي حيالهما ... لاهي النواظر غير مرتقب
متفرداً بين الجموع بما ... عندي من الحسرات والكرب
لكنها اخذت تخالسني ... نظراتها عفواً بلا سبب
فتدير نحوي الوجه في لهفٍ ... وتدير عني الوجه في ادب
تصغي له وتكاد تبسم لي ... في جرأة طوراً وفي رهب
وتمدُّ الحاظاً قد اخترقت ... بالسحر ما في القلب من حجب
ماذا تريد ولست اعرفها ... حتى اسلم — وهو لم يجب
ان الذي جلست تحدثهُ ... يبدو محبًّا والمحب ابي
تجني عليهِ اذ تخالسني ... نظراتها فأراه وهو غبي
فعلى مَ تدنيه لتبعده ... وعلى مَ ترضيه على غضب
وعلى مَ تغريني وما عرفت ... اصلي ولا فصلي ولا حسبي
ما راقني ان يستباح لها ... حلمي وان يُلهي ويُعبث بي
لكنها بقيت تخالسني ... نظراتها وتجدُّ في لعب
وصديقها عن ذاك في شغل ... يصغي لما في الحفل من صخب
فشعرت اني قد فقدت هدى ... نفسي واني جد مضطرب
وتزيد في غزلي ومشغلتي ... سيان في صدق وفي كذب
حتى تركت لها المكان ومن ... فيه ورحت ولم ارح تعبي

يا بنت ساحك الالـه على ما هجت في صدري من اللهب
ايقظت في قلبي لواعجه ودعوته عرضاً فلم يجب
عجباً لصبر القلب عنك ولي قلب على حب الجمال ربي
حوَّاء ما انتسبت لآدم في عدنٍ بغير الحسن من نسب
فأقرَّه دون الخلود لنا وكذا ورثناه على الحقب
ما كنت اجهل ناظريك وقد متَّا اليَّ بكل ما سبب
لـكن تعارضت الطريق بنا حتى تباعد كل مقترب
فاذا الحياة مضلة واذا معنى الخيانة جدُّ منقلب

***

كم عدتُ مرتقباً هناك وكم حاولت لقياها فلم اصب
هي طفرة عفو الحياة اتت منهوبة لشقاء منتهب
بل نظرة كالبرق قد ومضت آب الدجى والبرق لم يؤب
يا من جهلت ومن عرفت ومن ودّت تفرّج همٍّ مكتئب
ذنبي مراعاة الحقوق وان هي اوردتني مورد العطب
وأمانة للناسَ توجبني اغفال حقٍ غير مكتسب
لـكن حسنك انت ربتهُ والحسن فوق العرض والطلب
خالقتهُ جهلاً فأوقفني في العمر بين الويل والحرب
ان كنت غبتِ الدهر عن نظري فجمال ذاك الوجه لم يغب
وأظل اذكر ناظريك وما غزلاه من سحر ومن عجب
والـكحل في عينيك مبتسماً والثغر احوى زائق الشنب
والنوط والدرّ النظيم به والمعصمين وخدّك الذهبي
فيقيم اشجاني ويقعدها يوم لقيتك فيه عن كثب
اني تعذبني وتسلبني رشدي فرشدي اي مستلب
ذكرى فتاة حاولت صـلةً بفتى نخاب بها ولم تخب
جهل لعمرك لا يسوّغهُ دفع الخيانة عن اذل غبي
هذي الغريبة ربما شعرت في العمر اني جدّ مغترب

صلة الكندي بعصره

تمهيد — بيئة الكندي — الفلسفة والكلام — الحركة العلمية بوجه عام

لمحمد متولي

تمهيد

أما أن الصلة وثيقة بين الشخص وبين العصر الذي يعيش فيه ، فهذا ما لن نحاول أن نحصّنهُ بالدليل ، لانهُ ، أولاً ،شديد الظهور فلا يحتاج الى تفصيلٍ وتدليلٍ ، ولأنك ، ثانياً ، سوف ترى أن الكندي، فيلسوف العرب كما يسمونهُ ، كان صورة واضحة لزمانهِ ، بحيث لو تقدم وجوده قرنين ، أو لو تأخر ، إذن لكان شيئاً آخر غير الذي سنعرفه

بلى ! ينفخ الزمان في الشخص من روحه ، ويفيض عليهِ من نوره ، فتكون شخصيته مشعة مع ما لهُ من استعداد وكفاية ، ومع ما لزمانه من قوة وإشراق

وإذ نريد دراسة عصر الكندي لنتعرّف الصلة بينهما ، فقد لزم أن نتغلغل في الماضي حتى نشرف على العراق في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثاني الهجري الى ما حول منتصف القرن الثالث ، فنرى كيف كانت بيئة فيلسوفنا ، ثم نحاول أن نقف على شيءٍ من حال الفلسفة والكلام هناك ، ونحاول أن نتقصّى مدى الحركة العلمية بوجه عام

— ١ —

ونحن اذا كنا في العراق ، كان علينا ان نتنقل بين الكوفة والبصرة وبغداد . فالرواة يحدّثوننا ان الكندي قضى حياته في البصرة وبغداد . وأنا سأبين لك أنهُ ، كذلك ، عاش في الكوفة زمناً ما

والكوفة والبصرة مدينتان أنشأهما العرب في صدر الاسلام لتكونا قاعدتين حربيتين . وبغداد بناها المنصور وكانت مقرّاً للخلافة . فأنت ترى ان هـذه المدن الثلاث قامت على أنقاض الحضارات البابلية والأشورية والفارسية واليونانية ، وغيرها من الحضارات التي تناوبت الازدهار على ضفاف دجلة والفرات . فلما سكن العرب العراق على هذا النحو ، وخالطوا اهله من الاعاجم ، كان لهم حظهم من غناه . وكان لهم حظهم من ثقافة أهله الذين قاموا بأكبر نصيب في الحركات الفكرية مع من استقدمهم الخلفاء من علماء الامصار [1]

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩

والكوفة والبصرة كانتا الى هذا ميداناً لتطاحن المسلمين على الامامة ومثاراً لخلافاتهم الكلامية منذ حروب علي ومعاوية . وبغداد ما كان أعلى مكانها وهي حاضرة المسلمين يختلف اليها العلماء ليس من الكوفة والبصرة فقط ، بل ، أيضاً ، من الشام وفارس والهند وغيرها

واذن فقد تعددت العوامل التي تجعل في هذه البيئة تطوّراً فكريًّا . والتطور الفكري يكون في جوّ ملائم لطبيعته كي يستطيع ان يعيش وينمو ، فكيف كانت نزعة القوم ؟

لقد يبدو انهُ كانت هناك نزعة ترمي الى اصطناع العقل في بعض المسائل . فالخليفة المنصور كان يدعو الى الرأي في شدة فأمر فضرب مالك بن أنس ، ثم استقدم أبا حنيفة من الكوفة الى بغداد إعلاءً لشأن فقهاء العراق واعزازاً لقوله بالرأي [١] . والخليفة المنصور أيضاً هو الذي كان يبكي لموت عمرو بن عبيد المعتزلي فيقول « كلكم طالب صعيد غير عمرو بن عبيد » [٢]

والمأمون والمعتصم كانا معتزلين يقولان بخلق القرآن ويتشددان في إذاعة رأيهما فينكلان بمن يعارضهما ، فلم يكن نصيب احمد بن حنبل عند المعتصم خيراً من نصيب مالك عند المنصور [٣]

وكان المتوكل من اهل السنة وقد وُشي لهُ بالكندي فصادر مكتبتهُ زمناً . ونحن لا نعلم هل كانت هذه الوشاية تتصل بكون الكندي معتزليًّا أم تتصل بشيءٍ آخر . وعلى اي حال فنحن نستطيع ان نقول ان فيلسوف العرب نعم بحريتهِ الفكرية طول حياتهِ ، لان غضبة المتوكل لم تكن طويلة بحيث تعطل عليهِ حريتهُ تعطيلاً مؤثراً

— ٢ —

ويحدّثنا صاحب « الملل والنحل » فيقول « ورونق علم الكلام ابتداؤه فن الخلفاء العباسية هارون والمأمون والمعتصم والمتوكل » [٤] ونحن نحب ان نستبين ما دعا الى نشاط المتكلمين وبهاء الكلام فنجد ظاهرتين قويتين

اما الاولى فهي آثار أصحاب الاديان القديمة الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ، سواءٌ من اعتنق الاسلام ومن بقي على دينه منهم ، فهؤلاء أثاروا مسائل كانت مثارة في أديانهم من قبل ، وكانوا سبباً في ان تسربت الى المتكلمين تعاليم غريبة عن الاسلام — والقول بالقدر من أمهات المسائل التي شغلت أصحاب الاديان جميعاً ، وفكرة التجسيم عند المجسمة من الشيعة قريبة منها عند الثنوية. وما يقول بهِ أبو عيسى الوراق الرافضي في استكراهه لقتل الحي هو بعينه ما نجده في مذهب ماني [٥]

وأما الظاهرة الثانية فهي ما حصلهُ العرب من حكمة الاوائل عن طريق العقل فيذكرون أن عبد الله بن المقفع (١٤٣ هـ) ترجم بعض منطق أرسطو وفورفوريوس [٦] ويذكر ان يوحنا بن

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٧١—٧٢ (٢) الملل والنحل ص ٣٤ (٣) مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ج ٢ ص ٣٨ (٤) الملل والنحل ص ٣٤ (٥) الانتصار للخياط (مقدمة الناشر) ص ٥٤ — ٥٦
(٦) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٨

البطريق والحجاج بن مطر (عاش ٢١٤ هـ) وقسطا بن لوقا البعلبكي (عاش ٢٤٠ هـ) وعبد المسيح ابن ناعمه الحمصي (عاش ٢٢٠ هـ) وحنين بن اسحاق (٢٦٠ هـ) يذكرون ان هؤلاء تعاونوا مع غيرهم في نقل كتب ارسطو وأفلاطون وبعض الفلاسفة الآخرين [(١)]

وهاتان الظاهرتان قويتا فمالتا بالعقول الى نحو جديد فاذا نحن أمام ما استجدّ في الكلام بما احدثهُ المعتزلة وبما حاربهم بهِ اهل السنة وغيرهم ، مما نجده عند ابن قتيبه في « تأويل مختلف الحديث» وعند الاشعري في « مقالات الاسلاميين » وعند سواهما من اصحاب الفرق الاخرى

والكندي لم يكن بعيداً عن حركة النقل ولا كان بمعزل عن تلك الحرب الكلامية . فهو لم يأل جهداً في معرفة فيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطو [(٢)] وهو قد اشترك في مناقشة المسائل التي تناولها معاصروه امثال العلاف (٢٢٦ هـ) والنظام وابن النجار وابن المعتمر وثمامة بن أشرس والجاحظ (٢٥٥ هـ) وهشام بن الحكم ومن اليهم

فأبو الهذيل العلاف ، كان يقول « ان الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته » ويقول الشهرستاني ان ابا الهذيل « انما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاتهُ — اي ذات الله — واحدة لا كثرة فيها بوجه » [(٣)]

وكان ابو الهذيل يقول ايضاً ان « الاستطاعة يُحتاج اليها قبل الفعل فاذا وجد الفعل لم يكن بالانسان اليها حاجة بوجه من الوجوه وقد يجوز وقوع العجز في الوقت الثاني فيكون مجامعاً للفعل ويكون عجزاً عن فعل لان العجز — عنده — لا يكون عجزاً عن موجود فيكون الفعل واقعاً بقدرة معدومة» [(٤)]

وقال ابراهيم بن سيار النظام « ان الانسان في الحقيقة هو النفس والروح والبدن آلتها وقالبها » وقال « ان الروح جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقالب بأجزائهِ مداخلة المائية في الورد والدهنية في السمسم والسمنية في اللبن ... والروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهي مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل » [(٥)]

وقال النظام أيضاً « ان كل ما جاوز محل القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالى بايجاب الخلقة. اي ان الله تعالى طبع الحجر طبعاً وخلقه خلقة اذا دفعته اندفع واذا بلغت قوة الدفع مبلغها عاد الحجر الى مكانه طبعاً» [(٦)] . ومن آثار النظام كذلك انهُ «وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ» [(٧)] وأنهُ انبرى للمنانية فسفههم في قولهم في النور والظلمة وفي التناهي [(٨)]

وقال أبو الحسين بن النجار « ان الاستطاعة لا يجوز ان تتقدم الفعل وان العون من الله يحدث في حال الفعل مع الفعل وهو الاستطاعة وان الاستطاعة الواحدة لا يفعل بها فعلان وان لكل فعل استطاعة

(١) عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٩—٣٨٣ وتاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٢) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث (٣) الملل والنحل ص ٣٤ (٤) مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٢٢٢ (٥) الملل والنحل ص ٣٨ (٦) الملل والنحل ص ٣٨ (٧) الملل والنحل ص ٣٨ (٨) الانتصار ص ٣٠—٣٤

تحدث معه اذا حدث وان الاستطاعة لا تبقى وان في وجودها وجود الفعل وفي عدمها عدم الفعل»[1]

وبشر بن المعتمر تكلم — كأصحابه — في الاستطاعة فقال إنها « سلامة البنية وصحة الجوارح وتخليها من الآفات . وقال لا أقول بها في الحالة الاولى ولا في الحالة الثانية . ولكني أقول الانسان يفعل والفعل لا يكون الاَّ في الحالة الثانية »[2]

وقال ثمامة بن أشرس ان الاستطاعة هي « السلامة وصحة الجوارح من الآفات» وهي قبل الفعل[3]

وذهب الجاحظ ـ كالفلاسفة ـ الى نفي الصفات عن الله والى اثبات ان القدر خير وشره من العبد . وهو إذ يصف الله بالارادة فانه يعني « انهُ لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز ان يغلب ويقهر »[4]

ويحدثنا ابو الحسين الخياط فيذكر ان الجاحظ أبلى في دفاعه المجيد عن النبوة بكتابته في تثبيتها[5]

وقال هشام بن الحكم الشيعي « ان الله جسم محدود عريض عميق طويل . طوله مثل عرضهِ . وعرضه مثل عمقه . نور ساطع . له قدر من الاقدار بمعنى ان له مقداراً في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزهُ »[6] وقال « ان مكانه هو العرش وانهُ مماس للعرش وان العرش قد حواه وحده »[7] وقال « ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبههُ شيء» ويروى انهُ قال « هو سبعة اشبار بشبر نفسه وانهُ في مكان مخصوص وجهة مخصوصة وانهُ يتحرك وحركته فعله وليست من مكان الى مكان » ثم قال « هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة »[8]

وهشام يقول عن الاستطاعة انها « كل ما لا يكون الفعل الاَّ بهِ كالآلات والجوارح والوقت والمكان»[9]

فاذا تأملنا الكندي في ضوء هذه الامثال التي ضربناها وجدنا انهُ قد كتب في الاستطاعة وزمان كونها وفي تثبيت النبوة وفي قول من زعم أن جزءًا لا يتجزأ وفي التجسيد وفي قول من ادعى أن الاشياء الطبيعية تفعل فعلاً واحداً بإيجاب الخلقة وفي الرد على المنانية والثنوية[10] وأنهُ كان يقول بمذهب المعتزلة في صفات الله[11]

— ٣ —

على ان شخصية الكندي بلغت من التركيب انها تكاد تمثل كل ما كان في عصره تمثيلاً صادقاً فقد اهتمَّ العرب إذ ذاك بنقل علوم جديدة من لغات مختلفة وظهرت الوان من التطور في نواحٍ اخرى فكان للكندي أثر في كل هذا

والمنصور اول من اهتمَّ بالترجمة فنهض بعلوم النجوم نهضة واسعة لانهُ كان يستعين بها في قضاء أموره فقرَّب اليه نوبخت العالم باقترانات الكواكب والحوادث، وقرَّب ابنه أبا سهل . وكانت لابراهيم الفزاري وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي، كانت لهم جميعاً حظوة عند المنصور . وقد

(١) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٧٠ (٢) الملل والنحل ص ٤٥ (٣) الملل والنحل ص ٤٩ (٤) الملل والنحل ص ٥٢ (٥) الانتصار ص ٢٢ و ١٥٥ (٦) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩٧ (٧) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٠ (٨) الملل والنحل ص ١٤١ (٩) الملل والنحل ص ١٤١ (١٠) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث من هذه الرسالة (١١) راجع الفصل الرابع منها

ترجم له اولهم كتاب السند هند الكبير في حركات الكواكب وبقي هذا الكتاب عمدة للنجوم حتى ايام المأمون. ويذكرون ان كتاب اقليدس ترجم للمنصور ايضاً بسبب حاجة النجوم الى العلم بالهندسة[1]

وسواء كان المنصور قد استدعى جورجيس بن بختيشوع لعلته او لسبب آخر ، فهو قد استدعاه فحضر مع بعض تلاميذه وكرّمهم الخليفة فكان لهم أثر كبير في النهضة الطبية بما ألفوهُ وبما ترجموهُ عن اللغة اليونانية من كتب الطب

واهتمّ الرشيد بالترجمة بعد المنصور غير انهُ وجّه اكثر عنايته الى نقل الكتب الطبية التي عثر عليها في انقره وعمورية . ويقولون ان يحيى بن خالد البرمكي عُني بترجمة المجسطي في ذلك الوقت[2]

ولكن هذا الذي كان في ايام المنصور والرشيد لم يكن الاّ تدرّجاً معقولاً لتلك النهضة الشاملة التي اتسم بها عصر المأمون وما بعده فان الترجمة في هذا العصر قد تناولت امهات الكتب من لغات كثيرة وتناولت اكثر فروع المعرفة

ويروون ان المأمون كان يقوّم الكتاب المنقول بوزنهِ ذهباً . وهذا ان يكن بعيد الحصول من ناحية ، فهو يدل ، من ناحية اخرى ، على مقدار عنايته بنقل الكتب . ويدل على تهافت المترجمين على النقل ثم تهافت الناس على القراءة والدرس — وهناك حنين بن اسحاق الذي كان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية وقسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره الحرّاني (٢٢١ هـ — ٢٨٨) وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ويحيى بن البطريق الذي كان يعرف اللاتينية ويوحنا بن البطريق ويوحنا ابن ماسويه الذي عُني بنقل الكتب الطبية . اولئك بعض الذين كانوا ينقلون الكتب عن اليونانية والسريانية واللاتينية بينما كان غيرهم ينقل عن الفارسية والهندية والنبطية[3]

فاذا تلمسنا أثر هذه الحركة في الكندي فاننا نبلغ حقيقة كونه منجماً وفلكيّاً ورياضيّاً وطبيباً مما هو واضح في بيان مؤلفاته

وكان للحياة الادبية نصيبها من نشاط العرب في هذه الفترة من تاريخهم فكان من الشعراء بشار (حول ١٦٨ هـ) وابو نواس (حول ١٩٨ هـ) وابو العتاهية (حول ٢١٣ هـ) وابو تمام (حول ٢٣٠ هـ) وكان من الادباء الجاحظ والمبرد وابن قتيبة (حول ٢٧٠ هـ) والاصمعي (حول ٢١٧ هـ) وابو عبيدة (حول ٢٢٠ هـ) وغير هؤلاءِ واولئك من اعلام الادب والشعر

وهذه الناحية إلاّ تكن مستحدثة في حياة العرب فقد جدّ فيها لون من الكتابة لم يكن معهوداً فامتزاج العرب بغيرهم ونقل العلوم والفنون من اللغات الاخرى ونمو الفلسفة والكلام ، كل هذه كانت سبباً في ان كسبت اللغة العربية ثروة من الالفاظ الطبية والاصطلاحات الفلسفية ومن غيرها من الكلمات المعرّبة الكثيرة[4]

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٩ — ١٤٠ (٣) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٩ — ٣٩٣ وتاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٤) عصر المأمون ج ١ ص ١٦٥

ثم ان معالجة الفنون والفلسفة كانت داعية الى اسلوب ضروري لها ، هو الاسلوب العلمي السهل القائم على الحجة القوية والبرهان المبين

وصلة الكندي بهذه الحياة الأدبية ظاهرة في أسلوبه العلمي الذي عالج به ما عالج من العلوم والفنون والفلسفة وفيما يرويه لنا ابن خلكان من ان الكندي كان يسمع أبا تمام وهو يلقي إحدى قصائده في حضرة احمد بن المعتصم وكان آخر هذه القصيدة قوله :

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إياس

فلما سمعهُ قال « الامير فوق من وصفت » فقال أبو تمام على البديهة :

لا تنكروا ضربي لهُ من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس[1]

فهل لا نجد في هذا ما يدل على ان الكندي كان على اتصال بالحياة الادبية بحيث يذوق آثارها وبحيث يستطيع ان يأخذ شيئاً على شاعر كبير كأبي تمام

ثم انهُ كان من دواعي البيئة ان نشأ علم النحو ونضج في العراق .وهذا لانهُ كان ملتقى الشعوب الاسلامية المختلفة حيث عاش الاعاجم بين العرب وتعلموا لغتهم ودرسوا الاسلام.وحسبك سيبويه (حول ١٨٨ ه) وتلميذه الاخفش (٢١٥ه) ثم الكسائي (حول ١٨٣ ه) وتلميذاه المبرد والفراء (٢٠٧ ه) حسبك سكان العراق هؤلاء لتقول بهِ موطناً للنحو ولتقول ان النحو بلغ الغاية في اواخر القرن الثاني الهجري واوائل القرن الثالث [2]

وانت قد تعجب اذا قلت لك ان الكندي الفيلسوف كان يتصل بالنحو والنحويين ولكن هذا هو الواقع فالجرجاني يروي عن ابن الانباري انهُ قال « ركب الكندي المتفلسف الى ابي العباس وقال لهُ : اني لأجد في كلام العرب حشواً . فقال له ابو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم . ثم يقولون : إن عبد الله قائم. ثم يقولون ان عبد الله لقائم. فالالفاظ متكررة والمعنى واحد» ويروي الجرجاني ردّ أبي العباس على هذا :[3]

***

والآن ، وقد عرضت عليك صلة الكندي بعصره بجملة ، فهل لا ترى أحدها صورة واضحة للآخر ؟ لقد رأيت — إذن فقل : انهُ لكذلك

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٥٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٧٤ — ٧٦ وفجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٢٦

الشباب والإشباب[1]

والتعمير[2] والشيخوخة

للدكتور شوكت موفّق الشطّي

الاستاذ بمعهد الطب العربي في دمشق

يبصر الوليد النور ويستهل[3] فتقام الافراح في دار أبويه ويهشّ ساكنوه وتكثر التهاني والزيارات فرحاً بقدومه ترضعهُ امه لبنها فتعطيه بذلك أعز ما لديها وهو دمها راضيةً هاشةً ثم يدب[4] ويثغر[5] وهو ما زال طفلاً ساذجاً لا يميز بين الجمر والتمر ويأخذ بعد ذلك بالنمو والترعرع فيشتد ويسير مرحاً ثم يصير يافعاً فراهقاً حتى اذا ما اجتمعت قوته واحتلم عاد حزوراً فاذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ ثم يصبح شابًّا في شرخ الشباب وذلك في عشرين سنة ثم تستقر حالته وتكاد تكون ثابتة مدة عشرين سنة اخرى لولا ان بعض الوهن يعتريها

والانسان في هذا الدور قوي الجسم ، صحيح البنية ، نشيط ثم يأخذ بالتدني ويزداد ذلك شيئاً فشيئاً فيهن نشاط عضلاته وتعود مشيته بطيئة وتنحني قامته ويحدودب ظهره وتخور قواه ويبطئ عمل اجهزته وتصبح اعضاؤه كسلى وينتزع الكلس من عظامه فتسقط اسنانه ويشتعل الشيب في رأسه ويتناثر شعره ويجف جلده ويتحسف ، لا يقوى على النهوض هذا ان لم يك مقعداً ، لا يستطيع ان يمسك ريقه لانهُ ماج يسيل لعابه كِبراً وهرماً اذا جاع، لا تقوى يداه المرتعشتان على ايصال الطعام او الشراب الى فمه بسهولة بل ينصبُّ ما في الملعقة او الآنية على لحيته وثوبه، يضعف حسه وشعوره ويخبل عقله . صورة تهلع لها قلوب من داسوا عتبة العقد السابع من العمر وترتعد لها فرائص من استوفوا السبعين لانها تمثل الانسان بأجلى مظاهر الضعف واهنَ الجسد والعقل مستقفاً[6] في زاوية الغرفة معتزلاً العالم وحيداً حزيناً

فلو تبصرنا في حالة الانسان في اول عمره ومنتهاه لرأينا انهُ بدأ حياته مقعداً لا يستطيع الحركة وانتهى عمره وهو كذلك غير انَّ بعد سكونه في الصغر دبًّا وحركةً ومشياً ، وبعد قُعادِهِ[7] في

(١) تأويل rajeunissement من أشب يشب. لم يرد ذكر هذه الكلمة بهذا المعنى في كتب اللغة على ان الحريري صاحب المقامات قد ذكرها في المقامة البكرية فقال « والضجيع الذي يشب ولا يشيب » اي يجعلك شاباً ولا يشيبك

(٢) من عمره الله اى ابقاه زمنا طويلاً وقد جاء في القرآن الكريم — «ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب» .. (٣) الاستهلال اول بكاء الصبي وفي الحديث « الصبي اذا ولد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخاً »

(٤) الدب او مشي الطفل (٥) أثغر الصبي نبتت اسنانه (٦) استقف الشيخ اذا ضمر وانحنى وانضم ومنه قيل كبر حتى كأنه قفة (٧) القعاد : الداء الذي يقعد واُقعد الرجل لم يقدر على النهوض

الكبر رمساً ولحداً ، ترافق السذاجة والبساطة كل عمل يأتي به وهو طفل وتصحب السماجة سكناته وحركاته وهو شيخ ، لا يميز في صغره الضار من النافع ولكنهُ مع ذلك وديع لطيف يُنظَر بعين الرضى الى كل ما يبدو منه ، ولا يفرق في كبره بين الغث والسمين الا ان عين الغضب تظهر مساويه، يخدَمُ في طفولته بحنو وأمل ويقوم افراد العيلة في قعاده بواجبها نحوه وكثيراً ما يشوب ذلك الضجر والملل فالامل معقود عليه في صغره وليس الامر كذلك في كبره وقد نعتت هذا السن بأنها ارذل العمر وقد جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مُضغة مُخلَّقة وغير مخلقة لِنُبيّن لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكُمْ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العُمُر لكي لا يَعْلَمَ من بعد علمٍ شيئاً [١] »

ان هذه النتيجة المؤلمة التي يؤول اليها حال الانسان وهذه الحالة المحزنة التي يبلغها جعلت لهُ ذكرى الصبا سلوة وسيرة الشباب عزاءً وعوده حلماً ولذلك اكثر شعراء العرب من وصف الشباب فبكوه وأوجسوا خيفة من الشيب فهجوه واليك بعض اقوالهم قال أبو تمام :

غَدا الشيب مُختَطًّا بفودي خطَّةً سبيل الردى منها الى النفس مَهْيَعُ
هو الزَّور يُجفى والمُعاشِر يُجتَوى وذو الإِلف يُقلى والجديد يُرَقَّعُ
له منظر في العين أبيض ناصع ولكنهُ في القلب اسود اسفَعُ

وقال محمود الورَّاق :

بَكَيْتُ لقرب الاجل وبُعْد فوات الأَمَلْ
وافق لشيب طرَا بعَقْب شباب رَحَلْ
شبَابٌ كأن لم تكُنْ وشيب كأن لم يزَلْ
طوى صاحب صاحباً كذاك اختلاف الدُّوَلْ

وكان ينشد ابو العتاهية شعره الآتي ودموعه تسيل على خديه

لهفي على وَرَق الشباب وغُصونهِ الخُضْر الرطابِ
ذهب الشباب وبانَ عني م غيرَ مُنتَظر الإيابِ
فلأَبكيَنَّ على الشَّبَا ب وطيب أيام التصابي
فلأَبكينَّ من البلى ولأَبكينَّ من الخضابِ
إني لآملُ ان أُخلَّدَ م والمنية في طلابي

ومن ابلغ الاقوال في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب قول ابي حازم الباهلي :

لا تكذبنَّ فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيوم واحد بَدَلُ

(١) سورة الحج آية ٥ .

شرْخَ الشباب لقد ابقيت لي اسفاً ما جدَّ ذكرك الا جدَّ لي شكلُ

وأحسن منه على رأي اللغوي الاديب الامام ابي هلال العسكري قول منصور النمري

ماتنقضي حسرةٌ مني ولا جزع اذا ذكرت شباباً ليس يرْتجعُ
بان الشبابُ ففاتني بشرَّته [1] صروفُ دهر وأيام لنا خُدعُ
ما كنت اوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبعُ

وقد سئل ابو العتاهية اي شعر قلتهُ اجود واعجب اليك قال قولي :

ان الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وفي قول أبي العتاهية « روائح الجنة في الشباب » على رأي الجاحظ معنى لمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته الاّ القلوب وتعجز عن ترجمته الالسنة الاَّ بعد التطويل وادامة الفكر الجليل والتفكر الجزيل وخير المعاني ما كان الى القلب اسرع من اللسان

وبكى شاعرنا ابو العتاهية الشباب بقوله المشهور

عريت من الشباب وكان غضّاً كما يعرى من الورق القضيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

غير ان الحلم الذي تغنى بهِ ابو العتاهية بقوله «ألا ليت الشباب يعود يوماً» صار حقيقة واصبح رد قوة الشباب ممكناً

جَـدَّ الانسان منذ خُلق في اجتناب الموت ولكنهُ رأى استحالة الوصول الى مطلبه ونظر في حالته التي ينقلب اليها فألفى الموت خيراً منها كما قال الشاعر زَبّان بن سيَّار الفزازي

اذا المرء قاسى الدهرَ وابيضَّ رأسهُ وثُلِّمَ تثليمَ الاناء جوانبه
فللموت خير من حياة خسيسة تُباعده طوراً وطوراً تقاربه

بُحث لذلك في اسباب العتيّ وسعى الى تحاشيه بوسائل مختلفة كالتمائم والتعاويذ والأكسيرات والمستحضرات والوصفات المتنوعة وقد اشتهر امر كل منها وراج مدة من الزمن وما لبثت تلك الوسائل ان عادت نسياً منسيًّا لأنها لم تحقق الغاية ولم تنل الأرب

لجأ الأنسان في الأعصر السابقة الى طريقة ما زلنا نشاهد اثرها اليوم وقد اوصى بها الطبيب الشهير « سيدنهام » في مذكراته اذ قال ما من وسيلة توقظ العافية في مريض مضنك انجع من العناصر المتصاعدة من انفاس شاب قوي وسليم واشار بتنويم الشبان الأصحاء في غرف المرضى

ليس هذا الرأي من مبتكرات سيدنهام فقد قال به من قبل ابقراط وقد روي ايضاً ان الملك المقدس داوود لما أثر فيه العمر وبرد جسمه وضعف واعي امره نطس الاطباء تشاور خدمه فقرروا البحث عن فتاة عذراء تدفىء الملك فعثروا على الفتاة الجميلة ابيكايل فصرفت عنايتها لخدمته فاصطلح حاله

(١) شرة الشباب : نشاطه في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وفي الاغاني (بلذته)

وقد شاعت هذه البدعة مدة من الزمن وهنالك من الأقوال الكثيرة ما يدل على ذيوعها حتى اليوم منها المثل الشامي «لاتقترن من عجوز فتمتص ماء الحياة منك ولاتزوج ابنتك شيخاً فيمتص مائيتها»

وروي عن امير المؤمنين علي بن طالب رضي الله تعالى عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليجوّد الغذاء ويتمشى بعد العشاء ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء ودخول الحمام على البطنة من شرّ الداء واكل القديد اليابس معين على الفناء ومجامعة العجوز تهدم اعمار الاحياء . واشار المتنبي الى الاستشفاء بروائح الفتيات في شعره فقال

وفتّانة العين قتّالة الهوى اذا نفحت شيخاً روائحها شبّا

وضع كوهاوزن (Cohausen) سنة ١٧٤٢ كتيباً تناول فيه تأثير انفاس الفتيان والفتيات في تحسين صحة الشيوخ فعمت هذه البدعة ووجد بعض الشيوخ في هذه السنة الطريفة ضالتهم المنشودة فاستنّوا بها . ويروي لنا التاريخ بعض من اشتهروا بطول البقاء وربما كان لهذه البدعة شأن في إشبابهم منهم حيان بن قيس وقد تزوج ثلاثة اهلين فتيات ولا شك كما يستدل من شعره

لبست اناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد اناس اناسا

ثلاثة اهلين افنيتهم وكان الاله هو المستاسا

ويدل قوله الآتي على عمره وانهُ ما زال قويًّا

ومن يك سائلاً عني فأني من الفتيان ايام الخُنان [١]

اتت مائةٌ لعام ولدت فيه وعشرٌ بعد ذاك وحجتان

فقد ابقت خطوب الدهر مني كما ابقت من السيف اليماني

وقد بقيت اسنانه ترف[٢] حتى مات وفي النهاية وكأن فاه البرَدُ وذكر ابن قتيبه انهُ عمَّر مائتين وعشرين سنة ومات باصبهان وما ذلك بمنكر لانهُ قال لعمر رضي الله تعالى عنه انهُ افنى ثلاثة قرون وكل قرن ستون سنة فهذه مائة وثمانون سنة ثم عمر بعده فكث بعد قتل عمر الى خلافة عثمان وعلي ومعاوية ويزيد

ويروي لنا التاريخ ان غوته قد عشق في سنته الثانية والثمانين ماريان يونغ التي كانت في العقد الثاني من عمرها وان طوماس بار دعاه ملك الانكليز في سنته المائة والثانية والثلاثين وكان تزوج في السنة المائة والتاسعة عشرة وبتر البرخت الذي عاش مائة وثلاث وعشرين سنة تزوج في سنته الثمانين ورزق سبعة اولاد وجورج دوغلاس عاش مائة وعشرين سنة وسبعة اشهر وتزوج في الخامسة والثمانين ورزق ثمانية اولاد وولد ابنه الاخير اذ كان عمره مائة وثلاث سنوات وهيريانوس وقد عاش مائة وخمس عشرة سنة . ومَن منا لم يسمع باسم زارو اغا التركي الذي مات حديثاً عن عمر يزيد على المائة والعشرين سنة وقد اقترن من ست فتيات وكان يلاكم وهو شيخ حفيده الشاب

(١) زمن الخنان كان في عهد المنذر بن ماء السماء (٢) ترف اسنانه اي تبرق وتتلألأ

ومن غريب الصدف ان ما من شيخ ممن ذكرنا اسماءهم الاّ وقد تأهل مراراً عديدة وكانت عرائسه فتيات

ويزعم كوهاوزن ان الهواء يدخل رئة الفتاة فيتضرج فيها بعناصر نافعة فتزفره حاملاً خواص غريبة تهب الشيخ النشاط وان الشيخ اذا مكث في مكان حيث يحيط به عدد من الفتيان والفتيات استنشق هواء ممتلئاً فتوة منشطاً للشيخ

اننا لو بحثنا في هذه الوسيلة واستنرنا بنور العلم الحاضر لوجدناها مستندة الى اسس اوهى من خيط العنكبوت لان الهواء الذي يزفره الانسان اشيخاً كان ام شاباً وعجوزاً ام فتاة يحمل عناصر ضارة لا نافعة . غير ان الكشوف الحديثة تفاجئنا بين الفينة والفينة بكل ما هو غريب ولا يبعد ان ينبه منظر الفتوة والشباب غدد الشيخ الصم فيجعلها تفرز بعد ان نضب افرازها وقد ثبت ان للرسل (هورمون) شأناً كبيراً في الشيخوخة . وهل لا يغزر سيلان اللعاب في فمنا اذا شممنا رائحة طعم ذكي او نظرنا الى طعام شهي ؟ على ان من الوسائل المتخذة اليوم في تجديد الشباب ما يتناسب والطريقة المذكورة . وقد قلنا في مقال سابق نشر في هذه المجلة الغراء [1] ان العلم كالتاريخ يعيد في بعض الاحيان نفسه مع الاحتفاظ بالتناسب بين شتى العصور

ويزعم دعاة هذه الطرائق الحديثة ان حقن الشيوخ بخلاصة الاجنة وبدماء الفتيان خير وسيلة لمكافحة العجز الشيخي . وتستند الفكرتان القديمة والحديثة الى اساس واحد وهو الاستشفاء بالفتوة

خيل الى كوهاوزن وقد وضع كتابه قبل عهد لافوازيه ان الهواء عنصر مركب كالدم يفسد اذا خالطتهُ مواد ضارة ويصلح اذا امتزج بعناصر نافعة ومن العناصر النافعة فيهِ انفاس الفتيان والفتيات

ولا يخفى ان مستنبطي الطرائق يثبتون دعواهم بالاختبار والمشاهدات ولم يقصر كوهاوزن عنهم في ذلك فقد ابان ان معلمي الولدان اطول عمراً من غيرهم لانهم يتنفسون هواءً مشبعاً بريح الفتوّة والصبا . وقد عرف كوهاوزن نساء بلغن من الكبر عتيّاً عدن نشيطات اقوياء اثر اقترانهن من ازواج في شرخ الشباب وميعة الصبا وشاهد دوالف [2] اشبّوا اثر اقترانهم بفتيات منهم (ليتسيسوس) وقد تزوج وهو ابن ثمانين سنة بفتاة لها من العمر خمسة وعشرون ربيعاً فمرض في بادئ الأمر ثم عاد قويّاً نشيطاً لذلك اقترح بعض المختبرين حينها ان يُستخرج من انفاس الفتيان والفتيات الكسير للحياة وذلك بأن يتنفس عدد كبير منهم في غرفة محكمة فيها ثقب متصل بوعاء فيهِ ماء فتتصاعد العناصر النافعة من الانفاس فتجري في الثقب وتنحل في الماء وقد سموا هذا الماء المضرج بريح الصبا وانفاس الفتيان ماء الحياة فباعوهُ بأثمان باهظة

قيل بهذه الآراء في عهد غابر لم تكن العلوم فيهِ متقدمة هذا التقدم المدهش الذي نرى اثره اليوم اما الآن فقد اعدت الدول مختبرات للعلماء يشتغل فيها عدد كبير من الباحثين . وقد اخذ

(١) المقتطف عدد فبراير ١٩٣٤ صفحة ١٤٩ (٢) جمع دالف والدالف الشيخ البطيء المشية لثقله

هؤلاء بالبحث عن الشيخوخة تلك القضية المعقدة التي لم تنل قسطها من البحث والتي ما زالت غامضة لم يعرف كنهها ولم يسبر غورها تماماً مع ان الرغبة في الخلود والخشية من الموت رافقتا الانسان منذ الأزل واذا سئم الشيخ الحياة فليس ذلك طلباً للموت ولكن ضجراً من الضعف كما يقول شاعرنا الكبير المتنبي

واذا الشيخ قال أفٍّ فما مـــل حياة وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى

يسأل العلماء عن الاسباب الداعية الى اختلاف عمر المخلوقات فمنها ما كانت حياتهُ قصيرة لا تزيد عن سنة كبعض انواع النبات ومنها ما يعيش زمناً طويلاً كالأرز الخالد ومن الحيوان ما يعمر ساعات محدودة ومنهُ ما يبقى حيًّا ثلاثة عصور . وما هذه الأسباب الا امرار استصعب العلماء البحث فيها لكشف القناع عنها على اختلافهم فاجتنب الحيويون التنقيب عنها زاعمين ان الشيخوخة حادثة خلقية وتركوا التقصي فيها للأطباء ولم يفحص عنها المختبرون من الاطباء لأنها حالة ليست مرضية وشغلهم معالجة المرض ولم يعرها الفسيولوجيون ما تستحقهُ من الاهتمام لأنهم يرون انها حالة طبيعية والتنقيب عنها معقد وامعن الفلاسفة فيها فكتبوا عنها ما سوّلت لهم انفسهم ولم تك ابحاثهم مثمرة فقد اعتادوا الاكتفاء باعطاء الرأي في الغالب ، على ان هذه القضية العويصة لا تحل بنظرية فلسفية وفرضية خيالية ولابدّ من الاختبار وليس ذلك رأيهم

ينسب علماء هذا العصر الشيخوخة الى اسباب عدة فيقول مشنيكوف انها انسمام بانتقاض الاختمارات المعوية الذاتية وان للبلعمات الكبيرة نصيباً كبيراً في تكوين نسيج ضام يسيطر على الاعضاء فيشيخها ولا تنطبق هذه الفرضية على جميع المخلوقات لأن كثيراً منها محروم من الجهاز الهضمي والبلعمات مع انها تشيخ وتموت . ولو نقّبنا عن هذا الرأي في كتب اطباء العرب لرأينا له اثراً اذ يقول ابن سينا في قانونه حين البحث عن اسباب الشيخوخة وضرورة الموت : « اما الاسباب الخارجة فمثل الهواء المحلل والمعفن وأما الاسباب الباطنة فمثل الحرارة الغريزية التي فينا المحللة لرطوباتنا والحرارة الغريبة المتولدة فينا عن اغذيتنا وغيرها المتعفنة وهذه الاسباب كلها متعاونة على تجفيفنا » ثم يقول « وكلما اخذ التجفيف في الزيادة أخذت الحرارة في النقصان فعرض دائماً عجز مستمر الى الامعان وعجز عن استبدال الرطوبة » الى ان يقول فيزداد التجفيف من وجهين احدهما لتناقص لحوق المادة والآخر لتناقص الرطوبة في نفسها بتحليل الحرارة فيزداد ضعف الحرارة لاستيلاء اليبوسة على جوهر الاعضاء ونقصان الرطوبة الغريزية التي هي كالمادة وكالدهن للسراج لان السراج له رطوبتان ماء ودهن يقوم بأحدهما وينطفيء بالآخر كذلك الحرارة الغريزية تقوم بالرطوبة الغريزية وتختنق بالغريبة وازدياد الرطوبة الغريبة التي هي عن ضعف الهضم والتي هي كالرطوبة المائية للسراج فاذا تمَّ الجفاف طفئت الحرارة وكان الموت الطبيعي »

يستنتج مما سبق ان ابن سينا يعتقد ان للحرارة الغريبة المتولدة فينا عن اغذيتنا ولضعف

الهضم تأثيراً كبيراً في الشيخوخة والموت الطبيعي ويرى ان خير وسيلة لمكافحة الشيخوخة هي منع العفونة وحماية الرطوبة الطبيعية واجتناب الرطوبة الغريبة التي هي عن ضعف الهضم

فينسب مشنيكوف الشيخوخة الى الانسمام الذاتي وضعف انبوب الهضم ويعزو ابن سينا ايضاً الموت والشيخوخة الى العفونة والمواد الغريبة الناتجة عن ضعف الهضم وهي ليست الاّ الاختمارات المعوية التي بحث عنها مشنيكوف

ويرى فورنوف ان الشيخوخة تنشأ من اختلال التوازن بين الخلايا الضامة والخلايا النبيلة فتى اشتعلت هذه الفوضى في الجسد سار الانسان الى الموت لأن الخلايا الضامة تكوّن وسادة تضطجع عليها الخلايا الجوهرية او تضم بعضها الى بعض وتغذيها فلا ضرر منها البتة بل هي نافعة نفعاً كبيراً مازالت لاتتجاوز الحد الذي وضعته لها الطبيعة وهي شديدة الضرر متى تجاوزت حدها وطغت فخنقت الخلايا النبيلة لأنها لاتستطيع القيام بما تقوم بهِ تلك . وقلما تبدو هذه الفوضى في الحداثة لأنها مظهر من مظاهر الشيخوخة بل هي الشيخوخة نفسها . ويزعم غيره ان تعب الخلايا وتقاد قواها الحيوية الكامنة وعدم توالدها او بطوءه من الأسباب الداعية الى الشيخوخة

ويعتقد الأزليون ومنهم اهل الكتاب ان الحياة والموت والشباب والشيخوخة حادثات كتبت منذ الأزل وان حفظ النوع يقضي بزوال الشيوخ ليحل محلهم الشبان

ويدعي بعضهم ومنهم لوميار وماراغليانو ان الشيخوخة والموت وغيرها من مظاهر الحياة حادثات لها صلة كبيرة بالقانون العام الذي يرأس الحالات الغرائية . والواقع ان التدني الشيخوخي ولا سيما في الأنسان والحيوانات العليا ينتج من عوامل عديدة يمكن جمعها في زمرتين

١ — العوامل الباطنية : وهي عوامل ذات صلة بالأمم [1] تنظم الحد الأعظم من عمر كل منها فتجعل حياة بعض انواع النبات قصيرة لاتزيد عن فصل واحد وحياة بعضها مديدة كأنها خالدة ولم يتوصل العلم حتى الآن الى وسيلة تبدل مدة هذا الدور الحيوي الخاص بكل امة

٢ — العوامل الخارجية : وهي كثيرة ومختلفة تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها الانسان وباختلاف عمله وطوره قد تقصر عمره وتقوده الى الشيخوخة المبتسرة وقد تعينه على بلوغ اعلى درجات التعمير . ويمكن تنظيمها باتباع القواعد الصحية وبجعل البيئة التي يعيش المرء فيها صالحة

واخيراً حذار ايها الشيخ القارىء لمقالتي ان تغتر بما مرَّ فتلجأ الى طريقة الاستشفاء بالفتوة ولا يخدعنك فيها سهولتها واستحسانك لها وتذكر المثل الطبي القائل «الغادة الشابة والطعام النفيس معولان يحفران قبر الشيخ »

---

(١) جمع امة تأويل espèces بدلا من انواع والامة جنس كل حيوان وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤيد هذا المعنى : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم » سورة الانعام آية ٣٨

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
الاستاذ بمعهد التربية وكلية اصول الدين

النزعات الموروثة

يطلق المصطلح الافرنجي Innate Tendencies على جميع نزعات الانسان وقواه التي تنتقل اليه من النوع الانساني عامة بطريق الوراثة فتدفعه الى القيام بأعمال معينة — تختلف ثبوتاً ومرونة بحسب مرتبة النزعة الخاصة من سلم التطوُّر الانساني — من دون سابق خبرة او ارشاد او تعلم. وهي تتدرَّج من الجمود التام والثبوت على حال واحدة لا تتبدل ولا تتغير كحركة اغماض الجفن فجأة عند تحرك شيء ما بسرعة نحو العين، الى القابلية للتغيير والتبديل والتهذيب نوعاً ما بالخبرة والذكاء كغرائز الهرب من الخطر وقتال العدو، وأخيراً الى اكبر قسط من المرونة والتعديل كاللعب والتقليد. وكان علماء النفس في اوربا وامريكا الى عهد قريب جدًّا يخلطون بين انواع هذه النزعات خلطاً لا حدَّ لهُ ويذهب كل منهم في تفسيرها وتسميتها ما شاء ان يذهب

أما الآن بعد ان دالت دولة التداعيين Associationists والمسلكيين Behaviourists والآليين Mechanistics وانتصرت مدرسة وليم ما كدويل الهورمية Hormic او الغائية Purposive فقد تحددت المعاني وانتظم التقسيم وصارت النزعات الموروثة تنقسم الى ثلاث طوائف رئيسية — اولاها وأبسطها تركيباً طائفة الأفعال المنعكسة (او المعكوسة) Reflex actions وتتضمن الردود او التلبيات او الاستجابات reactions التي يقوم بها عضو واحد من اعضاء البدن لا البدن كلهُ بطريقة آلية ثابتة لا تتغير في جوهرها مع الزمن والخبرة كلما وجد مؤثر طبيعي خاص، وقد يشعر بها الانسان شعوراً واضحاً او غامضاً او لا يشعر بها على الاطلاق وقت حدوثها. ولكن لا يصحبها انفعال او لون وجداني خاص بها ولا تخضع لارادة الانسان ولا لتفكيره ومنها تغير اتساع حدقة العين عند التعرض للنور والظلام، والعطس عند وجود جسم غريب يلامس غشاء الانف، واغماض الجفن عند وجود شيء يفاجيء العين. وكل ما يحصل فيها من التعديل هو مجرد ارتباط الفعل المنعكس بمؤثر آخر غير المؤثر الطبيعي يكون قد صحبه عدة مرات كسيلان لعاب الكلب عند سماعه

رنين الجرس اذا تكرر قرع هـذا الجرس كلما وجد الطعام امام الـكلب . أما الفعل ذاته او التلبية للمؤثر فلا تتغير في الحالتين وتسمى في هذه الحالة افعـال منعكسـة معدلة او محوّلة او شرطيـة Conditioned

والطائفة الثانية هي طائفة الغرائز Instincts وقد عرّفها ما كدوجل « بالنزعة البـدنية النفسية (او السيكولوجية الفيزيقية Psycho-physical) الموروثة التي تدفع الكائن الحي الى ادراك موقف او مؤثر طبيعي معين (او مجرد الشعور بوجوده والانتباه لهُ) . والشعور بانفعال نفساني خاص على أثر هذا الادراك . ثم النزوع او التصرف تصرّفاً خاصًّا للوصول الى غرض خاص او على الأقل الشعور بوجود دافع نفساني لهذا التصرف ولو لم يتم . وهذه النزعات يتعين ان تكون عامة مشتركة بين الانسان والحيوان وان اختلفت مظاهرها وألوانها . فلا بد اذن من توافر هذه الشروط الاربعة في كل استعداد او نزعة موروثة حتى يصح اعتبارها غريزة . وعلى هـذا الاعتبار صارت الغرائز الاساسية هي مجموعة غرائز حفظ الذات كالبحث عن الطعام بصرف النظر عن طرق هذا البحث ، والمسكن والوقاية وغيرها من الغرائز الفردية كالهرب من المخاطر والمقاتلة والنفور والجمع والغرائز الاجتماعية كالتسلط والخنوع والاستطلاع والتجمع وغيرها لان كلاًّ من هذه الغرائز لهُ مؤثرات طبيعية محدودة وتحدث في النفس انفعالات محدودة واضحة كالخوف والغضب والحنو وغيرها.وهي كذلك تدفع الانسان الى القيام بأعمال خاصة توصله الى غرض خاص محدود يختلف في كل غريزة عن الاخرى وفوق هذا كلهِ فهي عامة عند الانسان والحيوان ومهما تبدلت المؤثرات الطبيعية بغيرها مما يتصل بها او يماثلها او يحل محلها ومهما تعدلت أساليب التصرف وتغيرت مظاهر السلوك بالخبرة والذكاء والبيئة فالانفعال باق على ما هو عليه لا يتغير . ولا يتبدل والغرض الطبيعي الذي ترمي الغريزة الى تحقيقه عن طريق النزوع كذلك موجود في جوهره وان اختلف وارتقى وسما في مظهره

والطـائفة الثالثـة — تتناول النزعات الموروثة الراقية غير المحدودة المتنوعة الجوانب التي لايثيرها مؤثر خاص بعينه ولا ترمي الى غرض خاص بعينه . واظهر ما فيها انهُ لا يصحب كلاًّ منها انفعال خاص يميزها عن غيرها كما هي الحال في الغرائز وان شعر معها الانسان بالارتياح عند تمام النزوع واشباعه او القلق والالم عند تعطيله والوقوف في سبيله او ثارت في نفسه عدة انفعالات . ولذلك تسمى بالنزعات الموروثة العامة او غير النوعية General or Non - specific Tendencies ومن اهمها الاستهواء Suggestion ومشاركة الغير في حالته الوجدانية Sympathy والتقليد Imitation والتعويض Compensation واللعب.وسنتحدث عن كل من هذه النزعات في شيء من التفصيل فيما بعد

***

هذا في المصطلحات الافرنجية اما في المؤلفات العربية فلا يزال الـكتّاب والمؤلفون يخلطون

بين هذه الطوائف الثلاث فضلاً عن الخلاف في تسمية النزعة الواحدة مع تحديد مداها واغراضها

فتجد المرحوم الشيخ شريف يقول (ص ٤٢) بواعث غريزية صرفة يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور ولا يتأثر منهُ بالكلية . ويقصد هنا منع وجود الانفعال . وفي (ص ٤٣) حركات غريزية غير مشعور بالغرض منها البتة او الشعور بهِ خفي جداً كحركات الاجفان (وهذا فعل منعكس) واطلق على الغرائز في بعض المواقف بالقوة الطبيعية (ص ٣٤) الغرائز وغيرها مما ليست نفسية محضة ولا فكرية صرفة تدخل تحت القوة الطبيعية

***

ولا يزال الكثيرمن الكتاب والمؤلفين يخلطون بين انواع النزعات الموروثة فيسمون الارتضاع (مص الثدي) غريزة وهو فعل منعكس معقد واللعب والتقليد غرائز ناهجين نهج القدماء من علماء النفس امثال باين وسلي وهي نزعات عامة غير نوعية كما بينا سابقاً وبعضهم يعتبر الحب والكراهية غرائز وهي عواطف

فتجد الاستاذ حامد عبد القادر في صفحة ٧٥ (في علم النفس الجزء الاول) يتكلم عن غرائز بناء الاعشاش او البيوت والغناء عند الطيور والدكتور علي عبد الواحد في مقاله عن الغرائز (العدد الاول من صحيفة دار العلوم) يذكر غريزة الجراحة عند بعض الطيور وغيرها من الاسماء الغريبة الذي تذكرنا بنزعة التقسيم والتبويب المتطرفة التي استولت على العلماء في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحاضر فجعلتهم يعتبرون كل مظهر من مظاهر السلوك الانساني غريزة كاملة مستقلة بذاتها ويعطونها اسماً خاصاً حتى بلغ عدد اسماء الغرائز التي وردت في مؤلفاتهم مائتين وخمسين وضع منها ثورندايك وحده اربعين . ولقد اراحنا مكدوجل من هذا الهوس فأصبحنا نعتبر هذه الغرائز الخاصة بجنس واحد من اجناس الكائنات الحية مظاهر والوان لغريزة واحدة عامة عند الانسان والحيوان فالهرب مثلاً هو اسم الغريزة او النزعة العامة عند الكائنات الحية اما التلون عند الحرباء والتماوت عند بعض الزحافات الصحراوية فألوان خاصة لغريزة الهرب وليست هي غرائز مستقلة تعطى لها اسماء خاصة بها

واعتبر الاستاذ حامد في صفحة ٧٦ التعبير عما في النفس وحب الجمال وكذلك حب الثناء (ص ٨٥) غرائز ولا نعرف واحداً من علماء النفس المحدثين المعتبرين قال بهذا وقال بأن التأثر للحالة الوجدانية للغير غريزة وهو نزعة عامة . ونسب الاستاذ الابراشي في الفصل الذي كتبه عن النزعات العامة في نفس الكتاب (ص ٨٩) الى العلامة ماكدوجل انه يعتبر نزعة التدين والمنافسة والتعبير عن النفس نزعات عامة تتمم مع الاستهواء والمشاركة الوجدانية واللعب والتعويض مجموعة النزعات العامة غير النوعية وهو لم يقل بغير الاربعة السابقة

اما الاستاذ قنديل فقد جمع في صفحة ١٦١ في الجزء الاول من كتابه اصول علم النفس عدة تعاريف متضاربة متناقضة للغرائز في نظر مدارس علم النفس المختلفة وعطفها جميعاً عطفاً يجعل القارىء يعتقد ان هذه التعاريف كلها مترادفة ومقبولة . ثم تتبع تقسيم ماكدوجل للغرائز ولكنهُ ذكر معها غريزة الاستغاثة ونحن لم نسمع بها عن ماكدوجل او غيره من العلماء

اسماء الغرائز الاساسية

سنذكر الآن الترجمة التي نرتاح اليها لاسماء الغرائز الاساسية بحسب تقسيم ماكدوجل : —

١ — Flight : غريزة الهرب (من الخطر او المخاطر او الاشياء الخطرة) اما الخوف فهو اسم انفعالها

٢— Fighting, Combative : غريزة المقاتلة او القتال وانفعالها الغضب _Pugnacity المشاكسة (او حب الخصام : قنديل)

٣ — Repulsion النفور او النبذ وانفعالها الاشمئزاز او التقزز (للامور المادية كالمذوقات العفنة والروائح الكريهة)

٤ — Self-assertion اثبات الذات والتسلط والسيطرة جميعها ترجمات مقبولة اما الظهور او حب الظهور او الرآسة فلا نرتاح اليها لانها درجات او نواحي خاصة للغريزة

٥ — Self-abasement الخنوع لانها تعبر تماماً عن المصطلح الانجليزي وفيها معنى الشعور بضعة الشأن وتليها في الافضلية كلمة الخضوع اما غريزة الانقياد فلا نرضاها لانها تدخلها في النزعات العامة وخصوصاً الاستهواء

٦ — Gregarious غريزة التجمع ولا نرضى البتة بكلمة الاجتماع (قنديل) لان كل انسان كما يقول ماكدوجل يميل بغريزته الى مجرد التجمع والوجود مع بني جنسه او على مقربة منهم ولو لم تربطه بهم رابطة او مصلحة او حتى لغة للتفاهم اي انه Sociable ولكنه لا يتعين بالضرورة ان يكون عضواً في جماعة منتظمة لها مصالح او اغراض معينة society حتى يكون Social فالغريزة اذن تدفع الى مجرد التجمع لا الى الاجتماع الذي هو ارقى مراتب التجمع وأرفعها . خصوصاً وان هذه الغريزة موجودة ايضاً عند الحيوان وهو ليس اجتماعيًّا وان كان يتجمع مع غيره

٧ — Curiosity الاطلاع او الاستطلاع — اما محبة الاستطلاع (قنديل ص ٢١٠) وحب الاطلاع (حامد ص ٨٥) وحب الاستطلاع (عند غيرهما) وكذلك حب الاقتناء وحب الظهور الخ لا نرضاها مطلقاً لان كلمة حب ومحبة تنقلها من مرتبة الغرائز طفرة واحدة الى مرتبة العواطف وشتان بين مجرد النزعة او الغريزة وبين الحب والمحبة

عبقرية محيطة

ليو ناردو دافنشي

لاديب عباسي

عصور الانتقال الحاسمة هي احفل عصور التاريخ بالمتناقضات وأملاها بالاضداد . في مثل هذه العصور يقترن الكفر العنيد بالايمان الوطيد ، ويجاور الاخلاص للعلم الدجلَ والتغرير ، ويواطن التعصب الذميم والحرج في التفكير الحرية المطلقة في النظر والتقدير . وعصر النهضة الذي يقع حوالي سنة ١٥٤٦ من ابرز العصور في هذه الخصائص وأقواها تمثيلاً عليها . ففيه ابيحت حرية التفكير وفيه استبيحت هذه الحرية . كان فيه العلم الراجح وكان فيه الجهل الفاضح . ساد فيهِ الالحاد الجريء ، وساد فيهِ ايمان العجائز . كان فيهِ حمق الجمهور وجموده ، وكان فيه تساهل العلم وسعة المعرفة . وغالى فيهِ قوم في تمجيد القديم والجمود عليهِ والافاضة بذكره واغرق قوم آخرون في تحدي القدماء وقديمهم والزراية عليهم وعلى ارثهم الذي ورّثوا . كان فيه الحب العذري والهوى الافلاطوني ، وكان فيه الحب الدنس والهوى الاثيم يتمثلان في قصص بوكاشيو وما يروى عن آل بورجيا من حب الاب لابنته والاخ لاخته

وتعليل ذلك — في رأينا — هو ان هذه العصور تجيء زاخرة مفعمة ، وتحل غالباً حلولاً مفاجئاً دون تمهيد طويل او سبق انذار ، فتحدث ما لا بدّ ان تحدث من ارتجاج في العقائد واضطراب في الاخلاق واحتراب بين الافكار في الفئة اللينة المطاوعة ، وتحدث ما لا بدّ ان تحدث من صلف وعناد بين الفئة الجامدة المحافظة التي تزيد محافظة وجموداً كلما ازدادت موجة التجديد في الازدخار وامعن تيارها في الهجوم . وتظل هذه الفئة على موقفها من الجمود ريثما تعمل الموجة عملها ويفعل التيار فعله من زعزعةٍ لاركان وتقويض لبنيان في عقائد هذه الفئة واخلاقها

وليو ناردو الذي نترجم له في هذه الصفحات يمثل لنا في شخصه معظم نواحي العصر الايجابية ابلغ تمثيل . ولا يمثلها بالوقوف منها موقف المرآة من المرئيات تنعكس عنهُ صور النهضة واشكالها وترتسم فيهِ دون ان يكون له اثر في ازجائها وازخار تيارها . انما هو يمثلها في انهُ كان رائداً من روّادها الاولين وعاملاً من اقوى العاملين على تقويض صرح القديم واقامة الجديد على انقاضهِ قويًّا ثابت الاساس . وهذا لم يكن بالكثير على ليو ناردو ، وهو في ذلك العقل الجبار والعبقرية النادرة والاكمال الذهني المحيط . ولعلّ التاريخ لا يحفظ لنا اسماً كاسم ليو ناردو من حيث الاحاطة

والشمول مع العمق في التفكير والاجادة في نواحي العلم والفن الى حدود العبقرية والاعجاز . يذكر لنا التاريخ اسمين غير اسم ليوناردو — ارسطو وغوته . ولكن يقيننا انهُ لا ارسطو ولا غوته بلغا مبلغ ليوناردو عمقاً واحاطة في ناحيتي العلم والفن . فالاول كانت اجادتهُ في ناحيتي العلم والفلسفة والثاني تركزت عبقريته في ناحية الفن ، وان كان له نظر صائب في بعض مسائل العلم . وهذا يفسر الى حدٍّ لماذا ظلَّ اسم ليوناردو عصوراً ادلَّ على الاستحالة منهُ على الامكان وألحق بالخرافة منهُ بالواقع . ويفسر لنا ايضاً لماذا احيطت شخصية ليوناردو بالشكوك والظنون رغم نصوع هذه الشخصية ووضوحها . فقد اتهم بالسحر ، وهو عدو السحر الاكبر . ورُمي بالكفر ، وكانت آخر كلماته على فراش الموت في ذكر الله والفزع اليهِ . وروّج عنه انهُ يسمّ الاشجار ويدس بأثمارها الى الناس ليرى هل انتقل فعل السم الى الثمر ، وهو الذي تدركه الرأفة بالطائر الحبيس ، فيبتاعهُ ليطلق جناحه ويهبه الحرية الغالية

وليس في هذه الخصومة بين الجمهور وليوناردو خروج على القاعدة العامة التي يجري عليها التاريخ في معاملة الممتازين والعباقرة . فالعبقري دائماً مثار للارتياب وهدف للوقيعة وغرض يرمى لحماقة الجمهور وانانيته ، يشعر هذا الجمهور بالحطة والصغار وضآلة القدر اذ يقيسون اقدارهم الى قدره فيحاولون ان ينزلوه الى مستواهم الذي يضطربون فيهِ . ذلك لانهم لا يستطيعون الدنو من مستواه ليساووه ويشعروا معه بشيء من وحدة الحال والتقارب ويخفقون غالباً في محاولاتهم هذه فيلفونهُ في ضبابة من الريب ويجللونهُ بغمامة من الشكوك . ولِمَ لا يحقد الجمهور على ليوناردو وهو القائل فيه وفي متعلميه :

« ديدان كتب وعبّاد لارسطو (لاحظ هذا !) ، غربان في اثواب طواويس واصداء تردد ما يقوله الغير ، ينتحلون لانفسهم زينـة ليست لهم ، ثم لا يريدون ان يتركوا لي جنى يدي الذي جنيت . ان بين مستوحي الطبيعة ومقلدي القدماء فرق ما بين الجسم وصورته في المرآة . انني لا استطيع ان استشهد ، ولا احب ان استشهد بأقوال القدماء ، انما استشهد بما هو اصدق من الكتب والاقوال — استشهد بالاختبار والتجربة : « الاستاذ لكل استاذ »[1]

اضف الى ما تقدَّم من عوامل المباعدة بين ليوناردو وابناء عصره انهُ كان يقوم بتجارب واختبارات علمية كانت تظهره في نظر معاصريه بمظهر العابث الذي يقتل الوقت ويهدر الزمن في غير طائل . فقد رُوي انهُ كان ذات يوم يجرب تجربة كيماوية في مختبره . وفيما هو مهموك في عمله شاهد الخادم تهرول وبيدها « دلو » من الماء تهمُّ بسكبهِ على المنضدة . ولولا ان امتدَّت يد ليوناردو بسرعة البرق الى الفتاة ، لكانت افسدت عليهِ وعلى العالم عمل سنين واغرقت كل ما تكدَّس على المنضدة من رسوم واشكال وصور ومخطوطات لا تقوَّم بمال ولا تقدر بثمن . ولما سألها ليوناردو

(١) القطع المحصورة بين اقواس مترجمة عن كتاب « حياة ليوناردو » لمرجفسكي

فيما همّت ان تصنع اجابت : رأيت كأنّ النار تلتهم المنضدة فبادرت اخمدها بدلو من الماء . فضحك عندها ليوناردو وصرف الفتاة صرفاً جميلاً بعد ان ابان لها ان ما رأت لم يكن بنار ، وانهُ انما كان يلهو ، وان ما شاهدتهُ وخالتهُ ناراً لم يكن الاّ دخاناً متصاعداً لبعض المساحيق الخاصة

وزاد في المباعدة ما بين ليوناردو ومعاصريهِ ايضاً ان كانت لهُ صفات جسمانية مميّزة اشتركت مع صفاتهِ العقلية البارزة في إفراده من بين هؤلاءِ المعاصرين إفراداً قويًّا واضحاً . فقد روي انهُ كان لفرط قواهُ الجسدية يعمد الى نعل الفرس ويلويهِ كما تلوى قطعة من الرصاص . ويروي التاريخ مؤكداً انهُ كان يرسم ويصوّر بكلتا يديهِ في اجادة متعادلة اليدين . ثم كان ليوناردو يكتب بيسراه وبشكل لا يستطيع امرؤٌ معهُ قراءة خطهِ الاّ معكوساً في مرآة . وكان معاصروهُ يتخذون ذلك حجة يؤيدون بها ظنونهم في انعكاف ليوناردو على السحر والشعوذة اذ ما حاجته الى هذا الاسلوب من الكتابة لولا ان ثمّ اموراً يودُّ ان يصعّب على الجمهور اكتشافها ومعرفة كنهها

هذا ما كان ليوناردو في نظر معاصريهِ ، ولكن مَن كان ليوناردو في نظر الحقيقة ؟ ليوناردو في نظر الحقيقة والانصاف رائد العصر الحديث وبشير التجديد والابداع في العلم والفن . درس مظاهر الحياة من الحياة ذاتها وليس من بطون الكتب . وكان دقيق الحس قوي الملاحظة في هذه الدراسة يقيم الدليل على آرائهِ ونظرياتهِ بالتجارب يقوم بها والاختبارات يجريها في مختبره الخاص بدل ان يعمد الى الخيال يستوحيه والقدماء يستلهمهم فيما يرى ويقدّر . وهو في رأي بعض العلماء مؤسس علم الجيولوجيا الحديث ، فكان بمكنتهِ ان يعيّن عمر المتحجرات من النظر الى عدد طبقاتها المتراكمة التي تدل كل طبقة منها على عدد من السنين . وبمثل هذا الاسلوب كان يقدّر اعمار الاشجار ايضاً . فكان يجذ جذع الشجرة جذّاً افقيًّا فيعرف من عدد حلقاته المتراكزة عمر هذه الشجرة وليوناردو نباتي من الطراز الاول . وقد كانت لديهِ مجموعة نباتية جيدة . ولعلّهُ كان اول من حاول ان يدرس فعل السموم في النباتات والاشجار . وهذا مصدر ما كان يشيعهُ الناس من انهُ كان يسمّم الناس باثمار تغذّت بالسم وهي لا تزال على اشجارها . ودرس ليوناردو الجسم البشري دراسة العالم المحقق ، فشرّح الاجسام ليعرف علاقة كل عضو بوظيفته وانتهى من هذا التشريح الى حقائق خطيرة . فكان مما انتهى اليهِ ان تصلّب الشرايين سبب من اسباب الشيخوخة والفناء وان درهم وقاية خير من قنطار علاج . ومن هنا كانت قلة ثقتهِ بالاطباء في عصره ، وقد قال ينصح صديقاً في مرضهِ : نصيحتي لك ان لا تفكر في كيف تنال الشفاء : انما انصحك ان تبتعد عن الاطباء ، وبقدر ما تبتعد عنهم تنال الشفاء

وهذا الاتجاه العلمي المحض من ليوناردو صيّرهُ حرباً على المشعوذين واصحاب الدجل . ادعى احد هؤلاءِ انهُ يستطيع ان يحوّل المعادن الخسيسة ذهباً فاستدعاه امير المدينة وطلب اليهِ ان يجري تجاربه امامه . وقام الدجال بتجربته وخرجت فعلاً قطعة من الذهب اثارت رؤيتها دهشة الجميع واطماعهم

الاّ ليوناردو الذي اخذ الدجال من يده وسار به ناحية وهمس في اذنه ان لا يُعيدها والاّ اضطرّ الى فضيحته . ولما كابر الدجال وابى الاعتراف بالتدجيل اضطرّ ليوناردو الى التفسير وابان له ُان قطعة الذهب التي خرجت كانت موضوعة في تجويف في اسفل العصا التي كان يحرّك بها السائل المصهور على النار ، واراها للجمهور وانهُ حينما احترقت السدادة التي كانت تسدّ على قطعة الذهب سقطت هذه القطعة فتناولها على انها خرجت من السائل بعلمه وفنه . ولم يُحر الدجال عندها جواباً ووعد بان لا يُعيدها

وليوناردو واضع قانون متوازي القوى المعروف والذاهب الى ان المادة في ابسط حالاتها ذات خصائص متشابهة لجميع العناصر . وهو اول من فكر في الطيران على اسلوب علمي محض . وقد فحصت مخطوطاتهُ التي تبلغ ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) صفحة فوجد قسم منها حافلاً برسوم لأجهزة معقدة أعدها ليوناردو ليحاول على أساسها الطيران . ولكن لم يكن يرضَ ولا عن واحدٍ من هذه الاجهزة والرسوم . وقد انشأ ليوناردو واحداً من هذه الاجهزة بشكل الخفّاش ، ولكنه لم يطمئن اليهِ وكان يشعر ان ثمة صعاباً علمية وفنية لم يتغلب عليها بعد . الاّ ان معاونه الملحاح أصرّ على تجريب الجهاز رغم معارضته الشديدة وتحذيره اياه من سوء العقبى . غير ان هذا المعاون أصرّ الاّ تجريباً للجهاز . ولم يسع ليوناردو ازاء فضوله والحاحه الشديد الاّ اجابته الى طلبه . فاعتلى صاحبنا بالجهاز ربوة عالية وهوى مع الجهاز الى اسفل . وكان ما قدّر ليوناردو وسقط صاحبه سقطة كادت تطير معها روحه . ولم يحاول ليوناردو بعدها ان يبني جهازاً آخر للطيران الاّ أن هذا لم يكن ليزحزحه عن اعتقاده الثابت بأن الانسان يستطيع ان يطير ، بل هو لا شكّ طائر يوماً من الايام نأى ذلك اليوم أم دنا ، وذلك حينما تكتمل معرفته بالطبيعيات والرياضيات . وهو يقول متنبئاً ، وقد وقف على شاهق يشاهد تحليق الطيور في إعجاب كالعبادة

« سوف توجد الجنحان . وليكن غيري موجدها اذا لم استطعها أنا . لا فرق عندي في ذلك .
سوف يطير الانسان ! ان الروح لا يكذب ولا يمين . ان اولئك المجنحين سوف يكونون صنو الآلهة .
سوف يُقلع ذلك الطائر الأول العظيم . وليتمجد الى الأبد العش الذي يدرج منهُ ذلك الطائر ! »

وليس ما أسلفنا ذكره من حقائق الاّ معبراً بعض التعبير عما حفلت بهِ مخطوطات ليوناردو من علم صائب وابتكار صادق يضعه في مصاف رجالات العلم الحديث طريقة في البحث وجلداً في التتبع والتنقيب مما جعله أسبق لعصره بنحو اربعة قرون . وهذا ما حمل عالماً وفيلسوفاً رصيناً مثل هفلوك السن على القول — بعد ان درس مخطوطات ليوناردو — بأن ليوناردو مؤسس علم الهندسة الحديث وعلم الجيولوجيا والتشريح وأنهُ علم من أعلام البحث الصائب والعلم النافع

على أن شهرة ليوناردو المستفيضة واسمهُ الذائع لم يكونا من ناحية العلم انما جاءا عن طريق فنه الخالد — الفن الذي رفعهُ الى أعلى عليين وأحله أسمى ذرى المجد ومراتب الخلود . ويكفي المتحف من متاحف الفن شهرة واجتذاباً لحجاج الفن ان يضمّ لوحة من لوحات ليوناردو الخالدة .

اما صورة العشاء الرباني — اعظم اعمـال ليوناردو الفنية — فهي في نظر ارباب الفن أعظم عمل فني لفنان قديم او حـديث . . . . وليست شهرة ليوناردو منحصرة في الفن بالتصوير ، بل هو نحات في الطراز الاول من النحاتين وموسيقي بارع وكاتب مبدع في الفوج الاول من كتّـاب النهضة . والذي يدهش حقًّـا ان يبلغ ليوناردو جد الاعجاز وانقطاع النظير من الابداع في نواحي الفن وبعض نواحي العلم ، ثم لايتطرّق الوهن الى عمل من اعماله الفنية . ولعلّ هذا ان ليوناردو، رغم توزيع ميوله وبسط جهوده . ظلّ يقبل على جميع اعماله الفنية والعلمية دقيقها وجليلها اقبالاً يكاد يبلغ حد الذهول . فهو اذا ذهب احد الامسية الى الرواق الذي كان يخلّد على جداره صورة العشاء الرباني نسي العالم ونسي وجوده ولم يبق امامهُ الاّ صورة العشاء الرباني . وهو اذا اجرى في يوم آخر تجربة من تجاربه العديدة في النبات او الكيمياء كانت هذه التجربة كل ما يهمهُ من شؤون هذا العالم . واذا انصرف الى صنع درع تلبسها اكاديمية المصورين (الخيالية ؟!) في ميلان نسي ان في العالم شيئاً لهُ خطر وقيمة غير هذا العمل التافه . وهكذا كان ليوناردو يقبل على جميع اعماله اقبال العابد وينقطع اليها انقطاع العاشق . فكان هـذا مضافاً الى عبقريته النادرة سبباً في خروج اكثر آثاره في هذه الرتبة من السمو والابداع . هذا الى انهُ كان يقف من فنه وعلمه موقف المحاسبة الشديدة والنقد الصارم . فلم يكن يفتنه عمل من اعماله عن اجتلاء مواطن الضعف ونواحي النقص فيها ، فيعمل على ازالتها واستكمالها . ولعلّ هذا كان في اول الاسباب في بقاء كثير من أعمال ليوناردو الفنية والعلمية مبتورة ناقصة

ولم يكن ليوناردو يسير في فنه بحسب الالهام والوحي فقط شأن كثير من الفنانين ، بل كان فضلاً عن استيحائه الألهام والعبقرية يسير على هدًى من العلم والمعرفة ويرصد للجانب النظري من فنه شطراً ليس باليسير من وقته وجهوده ، ولهذا الغرض درس دراسة جيدة علم التشريح وعلم الالوان والظلال فجاءت صوره وتماثيله من اصدق الصور والتماثيل في تقريب الفن من الحياة . وقد كان يقول :

« الالوان الواضحة تأسر الرعاع . ولـكن الفنان الذي اخلص لفنه لا يخضع لنزوات الرعاع ، انما هو يجب ان يرضخ لنخبته المختارة الممتازة فقط . والذي يفخر بهِ الفنان ويصبو اليه ليس الألوان البراقة اللامعة انما هو ان يكوّن من الضوء ما يشبه المعجزة . ان الضوء والظل يجعلان السطوح المستوية مستديرة . فالذي يحتقر الظلال في التصوير يشبه الثرثار الذي يضحي بالمعنى في سبيل الكلمات الجوفاء الرنانة »

هذه صورة مصغرة لليوناردو العالم الفنان . وفي فصل آخر صورة اخرى لليوناردو الانسان

بعض المصادر التي رجعنا اليها في هذا الفصل :

1 — Men of Art : Thomas Craven
2 — LeonardoDa Vinci : Siren
3 — دائرة المعارف البريطانية
4 — Lives of the Painters : Vasari

التعقيم واصلاح النسل

في ١٩ يونيو الماضي بعث مراسل « الصحافة المشتركة » البرليني برقية الى نيويورك قال فيها ان محكمة التعقيم النازية بينت في تقريرها الاول الذي نشر في ذلك اليوم ان ٣٢٥ رجلا وامرأة من سكان برلين عملت لهم عمليات التعقيم خدمة للاجيال المقبلة . من هؤلاء ١٤٣ تقدموا بملء اختيارهم لعمل هذه العملية التي تحول دون اخلافهم نسلا ، ولكن من دون ان تترك اي اثر آخر في حياتهم الجنسية . وان معظم الذين عملت لهم هذه العملية كانوا من الرجال

في ٢ يناير سنة ١٩٣٤ بدأ الالمان ينفذون القانون القاضي بتعقيم المصابين من الالمان بأمراض وراثية مثل ضعف العقل الخلقي[1] والسرسام[2] والجنون التهيجي الانقباضي[3] والصرع الوراثي[4] ونقاز هنتنغتن[5] (داء الرقص) والكمه (العمى) الوراثي والصمم الوراثي وادمان المسكرات . ويؤخذ من انباء المانيا انهُ ينتظر تعقيم ٤٠٠ الف الماني مصابين بهذه الامراض او ما هو من قبيلها والغرض من ذلك تطهير الآريين من الالمان من كل شائبة تشوبهم

وقد كان سن هذا القانون باعثاً على احتدام المناقشة في موضوع تحسين النسل بالتعقيم ، فسألنا القراء عن حقيقة التعقيم وكيف يختلف عن الخصي ، وما اثره في حياة الانسان المعقم بوجه عام ، وفي حياته الجنسية بوجه خاص ، واي الناس يجب ان تعمل لهم عملية التعقيم ، وفي اي البلدان تمارس هذه العملية ، وهل هي عملية الجة وتنطوي على خطر ام لا ؟

يقدر علماء الولايات المتحدة الاميركية، ان نحو ٢٥ مليوناً من الشعب الاميركي مصابون بأحد الامراض والعاهات المذكورة في صدر هذا المقال فلا يصلحون للقيام بما يفرضهُ عليهم المجتمع من تبعات ، او لا تواتيهم احوال البيئة الاقتصادية على ذلك . فمتوسط المرضى في مستشفيات الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣١ كان ٣٩٦ر٧٧٥ اما عدد المرضى في مستشفيات الحكومة الخاصة بالامراض العقلية فبلغ في آخر سنة ١٩٣٠ نحو ٧٢٤ الفاً فزاد هذا العدد في تلك السنة عن عدد السنة السابقة بنحو ١٢ الفاً . من هؤلاء ٦٤٢٥٣ مصابون بضعف العقل والصرع . وكان في سجون الولايات سنة ١٩٣٠ نحو ١١٧ الف سجين . وفي سجون الحكومة المتحدة ١٤٤٧٣ سجيناً . وبلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا في اميركا سنة ١٩٣١ نحو ٧١ الفاً . ثم ان الحكومة الاميركية تميل الى الاعتقاد بأن عدد مدمني المخدرات في بلادها سنة ١٩٣١ كان مائة الف مدمن . والاحصاء

(١) hereditary feeble-mindedness (٢) Schizophrenia (٣) manic-depressive insanity
(٤) hereditary epilepsy (٥) Huntington's chorea

الاميركي العام لسنة ١٩٣٠ يدل على ان عدد البكم في اميركا سنة ١٩٣٠ كان ٦٣٤٨٩ ابكم وعدد الصم ٥٧٠٨٤ اصم وفي البلاد علاوة على ما تقدم نحو عشرة ملايين متعطل عن العمل، والراجح ان خمسة ملايين منهم لن يتسنى لهم وجود عمل في المستقبل كائناً تحسن الاحوال الاقتصادية ما كان . فالقول بأن في الولايات المتحدة الاميركية نحو ٢٥ مليوناً من الناس لا يصلحون للقيام بما يفرضه عليهم المجتمع من التبعات — او لا تواتيهم البيئة الاقتصادية على ذلك — ليس فيه غلوّ ولا اغراق

ويذهب بعض المتطرفين من دعاة تحسين النسل في اميركا امثال وِجَم Wiggam وهنتنغتن Huntington وستودرد Stoddard الى ان الناس المصابين بأمراض او عاهات من هذا القبيل خطر على الجنس البشري . فهم يعتقدون ان هؤلاء الناس يورثون امراضهم وعاهاتهم ، وان الحضارة التي بنيت بأرواح الانبياء وعقول العباقرة ، انما تخلَّف ، لاقزام الجسم والعقل والروح . ويضيفون الى وجوب تعقيم اصحاب الامراض والعاهات الوراثية التي تقدم ذكرها ، وجوب الحيلولة بين بعض المجرمين واخلاف النسل

وهناك طائفة اخرى من دعاة تحسين النسل، تذهب الى ان الخطَر ليس من الشدَّة بحيث يصوره وجَم وهنتنغتن وستودرد . فهم يقولون ان اصحاب الامراض والعاهات المذكورة لا يزداد عددهم اكثر مما كان يزداد في الماضي ، وان زيادة عددهم في دفاتر الاحصاء ، ليست الا زيادة ظاهرة ، سببها شدة العناية الآن بفحصهم وتشخيص امراضهم وعاهاتهم والتبليغ عنها وتدوينها . ثم يتمادون فيقولون ان الحضارة الميكانيكية بحاجة الى امثال هؤلاء ليقوموا بالاعمال الآلية التي لا تحتاج الى قدح زناد الفكر

***

وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اسبق الامم الى سن قوانين تقضي بتعقيم المصابين بأمراض وراثية . ففي سنة ١٩٠٧ سنَّت ولاية انديانا اول قانون من هذا القبيل ، وكانت ولاية مشيغن قد حاولت سنّ مثل هذا القانون سنة ١٨٩٧ فرفض مشروعه في مجلسها النيابي . وفي اميركا الآن سبع وعشرون ولاية من ثمانٍ واربعين ولاية سُنَّت فيها هذه القوانين ويبلغ عدد الذين عملت لهم عمليات التعقيم ودونت اسماؤهم ١٧٨٩٨ شخصاً وهناك مَن عملت لهم هذه العملية ورفضوا تدوين اسمائهم خشية بعض العقد القضائية

وتبعت الولايات المتحدة الاميركية في هذا ، ولاية البرتا — وهي احدى ولايات كندا — سنة ١٩٢٨ وبلادا الدنمارك وفنلندا ومقاطعة ڤو Vaud في سويسرا سنة ١٩٢٩ وولاية فيراكروز بالمكسيك سنة ١٩٣٢ والمانيا سنة ١٩٣٣

هذه هي الحكومات التي اصدرت تشريعاً بهذا المعنى . ولكن حكومات انكلترا والنروج والسويد وغرب استراليا ، تعنى الآن بدراسة الموضوع توطئة للتشريع فيه

وكانت بعض المحاكم الاميركية قد حكمت بأن هذه القوانين غير دستورية ، لما كانت طريقة التعقيم محصورة في الخصي في الرجل او في ما يقابله في المرأة . فلما استنبطت طريقة جذّ الأسهر (القناة المنوية) Vasectomy في الرجل وجذّ قرن الرحم في المرأة salpingzectomy زال اعتراض المحاكم

وعملية جذّ الاسهر عملية صغيرة بسيطة تقوم على جذّ القناتين المنويتين وربطهما فيمتنع بذلك افراز النطف المنوية . اما عملية جذّ قرن الرحم فأخطر من عملية جذّ الاسهر ويحتاج فيها الى شق البطن وجذّ قناتي المبيضين وربطهما حتى يمتنع وصول البيضة من المبيض الى الرحم . والعملية الاولى تتم في نحو ١٥ دقيقة وألمها قليل والنقه منها لا يستغرق الاّ بضعة أيام من دون ان يحول بين الرجل وقيامه بعمله اليومي . اما العملية الثانية فتقتضي استعمال مخدّر عام وشق البطن فهي من قبيل عملية استئصال الزائدة الدودية . ولا بدّ للمرأة من ان تبقى في المستشفى تحت اشراف الطبيب والممرضة مدة عشرة أيام . ولكنهما — اي العمليتان — على كل حال لا تؤثران اي تأثير غير طبيعي في حياة الرجل والمرأة من الناحية الجنسية . فحيض المرأة مثلاً لا يتأثر بها . ولكن اذا تقدم رجل وزوجته للتعقيم من تلقاء نفسيهما فالاطباء الاميركيون يفضلون ان تعمل العملية للرجل ، لانها اسهل وتكفل تحقيق الغرض منها

***

يظهر من مقالات متتابعة في هذا الموضوع نشرتها مجلة السينتفك اميركان ، ان علماء تحسين النسل (اليوجنيين) مجمعون على ان المتوكلين — مثل المتعطلين عن العمل والصم والكمه — ومقترفي الآثام — امثال المتشردين والمجرمين — والمنحطين امثال العهّار الصاديين Sadists ومدمني المخدرات — والملوّثين — امثال المصابين بالدرن والزهري — يجب ان لا يخضعوا لقانون التعقيم رغماً عنهم لان اصاباتهم هذه مكتسبة في الغالب لا متوارثة . ولكن هناك طائفتان من الناس اولاها طائفة المصابين بأمراض عقلية مثل المجانين ، والثانية طائفة ضعاف العقول مثل المعتوهين والبله . وقد اختلف العلماء في اسباب اصاباتهم

ومما لا ريب فيه ان الوصول الى رأي قاطع في الموضوع لا مندحة عنهُ لكل مشروع غرضهُ تحسين النسل عن طريق التعقيم

رأي الدكتور ادولف لورنتز

الجرّاح النمسوي المشهور

أؤمن بالتعقيم لان الواجب على الطب ان يمنع المرض ، والتعقيم وسيلة من وسائل منع المرض العقلي وغيره . واعتقد ان التعقيم يجب ان يشمل جميع اصابات الامراض العقلية ، والاصابات الوراثية من مدمني السكر والمجرمين وضعاف الاخلاق . والامل ان تصيب هذه الطريقة في المانيا نجاحاً والراجح انها تصيبه . فتنتشر بعدئذ في جميع الامم كوسيلة للتخلص من حثالة الانسانية

فمعظم علماءِ تحسين النسل متفقون على ان الامراض العقلية مكتسبة اكثر منها متوارثة ولكن كثرتهم تذهب الى ان الضعف العقلي متوارث اكثر منهُ مكتسب . والامر الذي يجعل الحكم في هذا الموضوع متعذراً انك قد تجد أبله مولوداً من أب وأم سويين ولكنهما يحملان في عقود كروموسوماتهما عيوب الضعف العقلي . فالخطر على المجتمع في حالة كهذه ليس الأبله — لأن الابله لبلههِ قلما يخلف نسلاً لاعراض النساء عنهُ — بل الوالدان السليمان في الظاهر

اما احصاء العمليات في اميركا فيدلُّ على ان عمليات التعقيم لا تماشي الرأي العلمي السائد في في هذا الموضوع . ففي ١٥ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية ، عملت ٩٢٦٠ عملية تعقيم اجبارية منها ٦٢٤٦ عملية لاشخاص مصابين بالجنون Insanity و ٢٩٣٨ عملية لاشخاص مصابين بضعف العقل و ٥٥ عملية لاشخاص مصابين بالصرع و ١٦ عملية لمجرمين و ٥ عمليات لاشخاص مصابين باضطراب الاعصاب . فيبدو من هذا الإحصاء ان العمليات التي عملت لاناس مصابين بالجنون هي ضعف العمليات التي عملت لاناس مصابين بضعف العقل ، مع ان علماءَ تحسين النسل مجمعون او يكادون ، على ان ضعف العقل اكثر انتقالاً بالوراثة من الجنون

***

وقبل ان نختم هـذا المقال نريد ان نذكر الطريقة التي تجري عليها حكومة ولاية كاليفورنيا في تطبيق قانون التعقيم . فقانون التعقيم الكاليفورني ، يجعل عملية التعقيم اجبارية للمجانين وضعاف العقول الذين في منشآت الحكومة مثل السجون ومستشفيات الأمراض العقلية . فاذا ظهر لمدير القسم الطبي في أحد هـذه المنشآت ان تعقيم احد هؤلاءِ مرغوب فيهِ ، حماية لهُ وللمجتمع وللذريات المقبلة ، قدَّم تقريراً في الموضوع الى القسم الصحي في حكومة الولاية ومدير قسم المنشآت كالسجون والملاجيء ، فاذا حكما بوجوب العملية وجب ذلك . ولكن في الواقع يستشار اقرب اقرباء المريض اولاً ويطلب اليهِ ان يعلن قبوله كتابةً . وقد اثبت الاختبار ان اقرباء المريض كانوا في الغالب يرحبون اشد الترحيب بالعملية ، بل كثيراً ما كانوا هم البادئين في الحث على عملها . فطريقة تنفيذ القانون الكاليفورني يجمع جمعاً عمليًّا بين عنصري الاجبار والاختيار

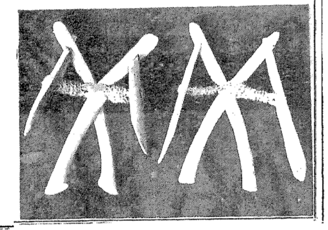
وعنصر الاجبار في هذه القوانين ، اصبح مبدأً قانونيًّا معترفاً بهِ في اميركا . ففي سنة ١٩٢٧ نظرت المحكمة الاميركية العليا في حكم محكمة بولاية فرجينيا فقررت ان للولاية ان تنص على مبدإ الاجبار في احوال معينة . وكتب الحكمَ القاضي الاميركيُّ المشهور اوليفر وندل هومز فقال « يكفينا ثلاثة اجيال من البله » ثم قال ان احداً لا ينازع في حق دولة من الدول ان تبذل حياة ابنائها الممتازين عقلاً وحيوية ، في الحرب، فمن المستغرب ان ينازع في حقها ان تطلب في ايام السلم من ابنائها المنحطين تضحية صغيرة في سبيل حماية الذريات المقبلة



نماذج فأس ومدراتين في متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي . والاصل بدار تحف القاهرة
[تصوير الدكتور حسن كمال]



الصف العلوي : محراثان مصريان قديمان بمتحف فؤاد الاول الزراعي والاصل بدار تحف القاهرة وقد ورد وصفهما في المقال
الصف السفلي : فلاح مصري قديم يستعمل فأساً في الحقل .
متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي — تصوير الدكتور حسن كمال



نماذج فؤوس مصرية قديمة في متحف فؤاد الاول ال[illegible]ي والاصل بدار تحف القاهرة
[تصوير الدكتور حسن كمال]

الادوات الزراعية الفرعونية

الشادوف — الفأس — المحراث — المنجل — المدراه

للدكتور حسن كمال

﴿ الشادوف ﴾ — كثيراً ما تشاهد بالمقابر رسوم لترع توزع مياه الفيضان على الحقول وذلك بحضور السيد الذي يركب وقتئذٍ قارباً صغيراً مصنوعاً من سوق البردى . وما اكثر النقوش التي تمثل السفن النيلية ناقلة محصول الاراضي وكذلك الحيوانات على اختلاف انواعها من الحقول واليها . وعند ما يزول الفيضان يعمد الفلاح الى حراثة ارضه الرخوة التربة بالمحراث الذي تجره ثيران كما هي العادة الآن . وتمتد الترع من اقاصي الاراضي جنوباً الى نهايتها شمالاً . ومن هذه الترع تتفرع قنوات صغيرة لتوزيع المياه على اجزاء الحقول بالتساوي وفقاً لما تتطلب جغرافية الارض وتربتها

ومعلوم ان فيضان النيل يبدأ عادة في نهاية شهر مايو او بعد ذلك بقليل . وفي منتصف شهر يونيو يكون الفيضان بلغ درجة محسوسة وحينئذٍ تشاهد مياه النيل ضاربة الى الاحمرار نتيجة مزجها بالغِرْيَن الآتي من بلاد الحبشة . وبعد زوال الفيضان يخضرُّ لون المياه النيلية . واعتقد القوم وقتئذٍ في عدم صلاحيتها للشرب فكانوا يخزنون مياه الفيضان في الزلع الكبيرة لشربها زمن التحاريق . قال ارستيديس Aristides ان مصر هي الامة الفردة التي يخزن اهلها المياه ويحفظونها زمناً معيناً كما يفعل غيرها بالنبيذ

وفي اوائل شهر اغسطس تطلق المياه في الترع من النيل فتغمر الحياض . ولما كانت الاقاليم المجاورة للصحراء هي اوطأ الاقاليم منسوباً كانت المياه تغمرها اولاً بخلاف الاراضي القريبة من النيل فانها مرتفعة نسبيًّا ولذلك كانت تغمر اخيراً . وهذا الامر يشاهد فقط في الصعيد اما في الوجه البحري فان اراضيه تقع في مستوى واحد تقريباً . لذلك كانت الدلتا تغمر كلها وقت الفيضان بالمياه ما عدا المدن والقرى لان مستواها اعلى بكثير من مستوى الاراضي المجاورة . وكلما ارتفع منسوب الفيضان وغمرت المياه الاراضي زاد اهتمام القوم بنجاة بهائمهم التي في الاراضي المنخفضة كما هو مشاهد بمقابر بني حسن . وهذا المجهود وهذه العناية يتجسَّمان تماماً اذا ما انقطع جسر وفاضت مياه النهر فجأة واغرقت الاراضي المجاورة . وفي هذه الاحوال يشاهد القوم

واضعين ملابسهم على رؤوسهم وجاذبين اغنامهم وبهائمهم من المياه وواضعيها في السفن . وهناك مناظر اخرى يُرى فيها القوم يشدون الثيران وهي عائمة في المياه الى اقرب اكمة . واذا كان هناك زرع يمكن الانتفاع به بعد اقتلاعه عمد القوم الى ذلك وشحنوه في القوارب

والمعروف ان القطر المصري كان منذ عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠—٢٢٧٠ ق. م.) يروى بالحياض . وهذه كان يصرف اليها ماء النيل بواسطة ترع كبيرة تحت اشراف المدير او الحاكم المحلي (راجع مقبرة رخمارا حائط A و B لوحة ١١ و ١٤ و ١٥) الذي لا يسمح بارسال الماء الا بعد ما يبلغ ارتفاعاً خاصاً . وكانت المياه تصرف الى الجهات بمنتهى الحكمة والعدل وفق ما تقتضيه طبيعة ارضها ونوع زراعتها . وعند ما يهبط مستوى مياه النيل تغلق الفتحات الرئيسية لمنع تسرب المياه الى النيل بسرعة حتى تكتسب الارض اكثر ما يمكن من الغرين

اما الاراضي المرتفعة التي لا تصلها مياه النيل وقت الفيضان او التي تصلها بصعوبة فكانت تروى بواسطة الشواديف التي تصب مياهها في ترع او قنوات صغيرة موصلة الى الجهات المذكورة ويرجع استعمال الشادوف في القطر المصري الى الزمن السابق لعهد الفراعنة . ويظن البعض انه وجد مرسوماً على جدار بمقبرة بمدينة الكاب (راجع جرين وكويبل في كتاب هيركونبوليس طبعة ١٩٠٢ ج ٢ لوحة ٧٤ و ٧٥) . وقدر بعضهم مقدار المياه الممكن رفعها بهذه الآلة في الساعة الواحدة بما يتباين من ١٦٥٠ الى ٣٤٠٠ لتر (راجع كتاب Barois و Ringelmann عن الزراعة الريفية Essai d'hist. du genie rural ج ١ ص ٢٠٤) وهناك عدة طرق لري الحدائق منها تخزين المياه في حوض كبير وسط الحديقة ثم ارسال المياه منه بواسطة ميازيب صغيرة الى اجزاء الحديقة المختلفة . ومنها ايضاً نقل المياه بواسطة آنيتين معلقتين في طرفي قضيب خشبي يحمل على الكتفين الى النبات المطلوب ريه (راجع كتاب البرشة للاستاذ نيوبري لوحة ٢٦)

ويشاهد استعمال الشادوف بوضوح في جدار مقبرة (ابوي) التي يرجع تاريخها الى زمن رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق. م.) وقد ورد وصفها في المجلد الخامس من سلسلة كتب بعثة العاديات الفرنسية المطبوع عام ١٨٩٤ ص ٦٠٤—٦١٢ . اما صاحب هذه المقبرة فكان حفاراً في خدمة المعبود آمون بطيبة الغربية — وفي هذه المقبرة رسمٌ لمدخل منزل هذا الموظف ويتكوّن من سلم ذي ست درجات يصل الى المدخل الرئيسي ذي العمد المتوّجة بباقة براعيم اللوطس والبردى . وتحت الاشجار يشاهد شادوفان لري الحديقة . والاشجار المذكورة تحمل ثماراً متباينة كالجميز والبرتقال ؟ وغيرها . وكل شادوف مكوّن من قضيب خشبي مثبت في ثلثه الاوسط على جدار وينتهي طرفهُ المؤخر بكتلة طينية . اما الطرف الامامي فينتهي بحبل طويل يحمل دلواً من الجلد له يدان . والفلاح في كل حالة يقبض على الحبل بيديه . وبذلك يمكنهُ ان يؤدي حركة الملء والتفريغ باستمرار وهو واقف من دون ان ينالهُ تعب . وذلك بحركة الموازنة بين الثقلين

بطرفي القضيب . وهناك شادوفان آخران مقابلان للسابقين . وعلى ذلك تكون حديقة ابوى المذكورة فسيحة لانها تطلبت شواديف اربعة أنفار للقيام بريها

وعلى أثر زوال الفيضان السنوي عن الاراضي تشاهد أعشاب نامية وأيضاً بعض النباتات الوحشية آخذة في الظهور في عدة جهات من الحقول . كذلك تلاحظ أحجار قذفتها مياه النيل وقت غمرها الاراضي . لذلك تجد الفلاح المصري من أقدم العصور يهتم باستئصال هذه الاعشاب والنباتات وازالة الاحجار من حقله قبل الشروع في زرعه . واذا لاحظنا ان تعداد القطر المصري كان يقرب في عهد الفراعنة من الستة ملايين نسمة وان القطر كان يورّد لممالك البحر الأبيض المتوسط القمح الكثير امكننا ان نستنتج شدة عناية المصريين بتحويل اراضي الوادي الى حقول زراعية

وتشاهد في مقبرة (نخت) بالاقصر مناظر لفلاح يستأصل بفأس خشبية النباتات النابتة على حافة النهر كما أورد (لبسيوس) في الدنكمال ج ٢ لوحة ١٠٧ من زاوية المتين رسماً لفلاح قديم يبعد الاحجار عن طريق المحراث بواسطة عصاة طويلة

﴿ الفأس ﴾ حافظ الخط الهيرغليفي على رسم الفأس القديمة كحرف هجائي مركب مدى التاريخ . واستعمل المصريون في عهد الاسر الاولى الفؤوس في الفلاحة والهدم . وكانوا اذا قرر أحد ملوكهم تشييد معبد قبض على فأس واشترك في العمل . ومنذ مبدأ التاريخ المصري القديم (٣٤٠٠ ق.م) حتى العهد الصاوي (٦٦٣—٥٢٥ ق. م) كانت الفأس تتركب من قطعتين خشبيتين غير متساويتي الطول . وكانت احدى هاتين القطعتين تستعمل يداً وهي مستقيمة واقصر من القطعة الاخرى المستعملة أداةً للحفر . ويختلف طول القطعتين طبعاً باختلاف طول صاحبهما . لكن متوسط طول اليد يبلغ خمسين سنتمتراً . ومتوسط طول الحد سبعين سنتمتراً . ويلاحظ في الحدّ انهُ مقوّس قليلا وانه تارة مدبّب واخرى مفرطح وطوراً مفرطح ومشعب في آن واحد

ويثبت الحد في اليد بالحفر الخشبي او بوثاق او قضبان خشبية . وقد اتضح ان الفؤوس صنعت من المعدن منذ عهد الاسرة الخامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م) (راجع كتاب العدد والاسلحة للاستاذ بتري لوحة ١٩ رسم ١٣) . وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) وبالاخص بمقبرة (نخت) و (اوسركاسنب) و (شامته) يظهر ان الفؤوس كانت تصنع من المعدن واستمرّ القوم يستعملون الفأس الخشبية طول مدة التاريخ القديم وزودوا بها تماثيلهم الصغيرة التي كانوا يضعونها مع موتاهم لعمل الفلاحة اللازمة لهم في الدار الآخرة . وفي عهد الامبراطورية الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) غير البناؤون والنجارون شكل الفأس فجعلوا احياناً القطعتين متساويتين طولاً واحياناً جعلوا اليد اطول من السلاح . والفأس المدببة كانت تستعمل في حفر الاراضي الصلبة . اما المفرطحة فكانت تستعمل في حفر الارض الرطبة وتنظيف الترع

وقد سبق ان اوردنا رسماً لأحد ملوك مصر الاول يحتفل بحفر قناة مستعملاً الفأس الخشبية المدببة (عن كوبيل هيرا كونبوليس ج ١ لوحة ٢٦) . وهناك لوح اردوازي يرجع تاريخه الى اكثر من ٣٤٠٠ ق.م وقد نُقِش عليه ملك مصر مرموزاً له بحيوانات وألوية مختلفة قابضاً على فأس يهدم بها قلاع الاعداء . واورد الاستاذ بتري رسماً في كتابهِ عن المقابر الملكية للاسرة الاولى جزء أول لفأس يظهر منها انها خشبية ويشاهد فيها تساوي اليد والحد طولاً وتثبيتهما احدهما في الآخر بطريقة الحفر وبقضيب خشبي. وهذا القضيب كان يستبدل احياناً بوثاق. واورد ولكنسون في كتابه عن عادات قدماء المصريين واخلاقهم ج ٢ ص ٢٥٢ رسماً لفأسين خشبيتين تستعملان لحفر الأرض الرطبة سلاحهما مصنوع على شكل الجرفة وهو اطول من اليد ومثبت بالحفر الخشبي وبوثاق وهذا الاخير يطوّق احد الاسلحة ويخترق الآخر . والفؤوس الخشبية الواردة بالدنكمايلر ج ٢ لوحة ١٢٧ التي يرجع تاريخها الى الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٩٠ ق . م) يشاهد فيهـا قصر اليد وتقوّس السلاح الواضح ودبدبة نهايته وتثبيته في اليد بوثاق . وورد بمقبرة تحت بالاقصر رسم لفأس كانت تستعمل لاستئصال الاعشاب وهي خشبية مقوّسة اليد في موضعين وهي اطول من السلاح . وقد اوردت للقارىء رسوماً لعدة فؤوس محفوظة بدار تحف القـاهرة وعمل منهـا نماذج لمتحف فؤاد الاول الزراعي لما كنت قائماً بانشاء قسم الزراعة المصرية القديمة هناك. وعددها خمسة يشاهد فيها تباين طول اليد والسلاح وطرق تثبيت الاثنين في بعضهما واستعمال الحبل وثاقاً واحياناً القضيب الخشبي بدله . اما طريقة استعمال هذه الفؤوس فقد وردت في كثير من المقابر مرسومة بوضوح. وقد سبق ان اوردت رسماً لتمثال لفلاح مصري قديم قابضاً على فأسهِ ورجلاهُ غائرتان في الطين وهو قائم بعملية حفر الارض

﴿ المحراث ﴾ واصلاً فأس كبيرة . وقد نسب المصريون الى معبودهم (ازوريس) طريقـة استعمال المحراث في الفلاحة . ولا يبعد ان المحراث كان يجرّ في باديء الامر بالعمال دون الثيران لبساطتهِ وخفتهِ وقتئذٍ . واول ما ظهر المحراث في شكلهِ المعروف كان بجهة ميدوم (أسرة ثالثـة ٢٧٨٠ ــ ٢٧٢٠ ق.م) (راجع كتاب بتري عن ميدوم لوحة ١٨) وهناك لوحظ أنهُ يجر بواسطة الثيران

اما كيفية اشتقاق المحراث من الفأس فتتلخص فيما يلي : زيد في طول يد الفأس حتى بلغت الثلاثة امتار تقريباً وصار (نافاً) واستعيض مِن الوثاق تدريجاً بوصلات خشبية في نفس الموضع . فنتج عن ذلك ان السلاح صار اقصر كثيراً من الناف

وللتمكن من ارسال سلاح المحراث في باطن الارض صنع لهُ يدان يضغط بهما الفلاح . وهاتان اليدان تتغيران باستمرار على مدى التاريخ في شكلهما وارتفاعهما ومقدار ميلهما وطريقة وصلهما مع الناف . وقد يستغنى عن احداهما ويكتفى بواحدة. وتقدمت صناعة المحاريث منذ عهد المملكة الوسطى (٢١٠٠ ــ ١٧٠٠ ق . م) فصار السلاح ضخماً وثقيلاً . ولا يبعد انهُ كان يصنع وقتئذٍ من حجر

الظرّ او المعدن لكن لم نتأكد للآن من تاريخ العهد الذي ظهرت فيهِ صناعة المحاريث المعدنية بالقطر المصري كما اننا لم نتأكد من نوع المعدن وهل كان حديداً او برنزاً

وفي عهد الامبراطورية الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) ازداد اليدان طولاً ووصلتا بعدة قضبان خشبية وزاد ثقل المحراث فصار قادراً على الغور الى مسافة أبعد في جوف الارض بسهولة اما النـاف فينتهي اماماً بقضيب خشبي مستعرض يثبت في قرون الثيران بوثاق . وقد اوردت للقارىء هنا صورتين لمحراثين صغيرين محفوظين بدار تحف القاهرة . وقد عمل انموذجان لهما عند ما انشأت قسم الزراعة المصرية القديمة بمتحف فؤاد الاول الزراعي وهما يمثلان نوعي المحراث الخفيف الذي يتولى استعماله رجل واحد والثقيل الذي يتطلب استعماله رجلين . والانموذجان يمثلان بوضوح عملية الحرث التي لم يعترها تبديل ولا تغيير منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة الى الآن

واوردت ايضاً رسماً لمحراث وجد منقوشاً على آثار بسقارة يرجع تاريخهُ الى عهد الامبراطورية الحديثة وهو يمثل النوع الثقيل الطويل اليدين الصلب التركيب وقد بلغ اليدان خاصرة الفلاح القائم بعملية الحرث . وهذا النقش عمل منهُ ايضاً انموذج واودع متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي بالجيزة

واورد الاستاذ بتري في كتابه عن ميدوم رسماً لمحراث خشبي خفيف من الاسرة الثالثة (٢٧٨٠ — ٢٧٢٠ ق.م.) لهُ يدان يضغط بهما الفلاح لارسال السلاح في جوف الارض والسلاح مثبت بقضيب خشبي كي لا ينفصل وقت الحرث . واورد الاستاذ نيوبري في كتابه عن البرشة ج ١ لوحة ٣١ رسماً لمحراث من الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق.م) لهُ يدان تكوّنان مع السلاح زاوية تقرب من ٩٠° . واليدان مثبتتان احداهما في الاخرى بوثاق مستعرض. اما السلاح فثبت بحبل مع اليدين وباقي المحراث بوثاق وينتهي بحدّ مدبّب يظهر من شكله انه معدني المادة . واورد الاستاذ روزليني في مذكراته ج ٢ لوحة ٣٢ رسماً لمحراث طويل السلاح مرتفع اليدين تنتهيان بتقوّس افقي بهيئة مقبضين . ويظهر عليه انه معدني السلاح وان يديه ونافه مثبتان فيه . واورد الاستاذان تيلور وجريفث في كتابهما عن بقرة باحرى لوحة ٣ رسوم لمحراث من الاسرة الثانية عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق.م.) من مدينة الكاب نافهُ مثبت في سلاحه بقضيب خشبي . ولهُ يد واحدة طويلة تستعمل للتوجيه والضغط عند اللزوم

﴿ المنجل ﴾ ذكر المسيو ده مرجان في (Recherches I ص ١٣٢) انه يستحيل التمييز بين مناجل العصر الحجري ومناشيرهِ . والمعروف ان المنـاشير في العهد الاول كانت تستعمل في قطع الاخشاب والعظام ثم استعملت بعد ذلك في الحصاد . وقد عثر الاستاذ بتري (راجع كتابه عن كاهون وجوروب والهوارة لوحة ٧ شكل ٢٧ ولوحة ٩) على منجل من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق م.) لهُ حدّ مسنّن مصنوع من الظرّ ومنزّل في دائر خشبي

ويستعمل المنجل في الخط الهيرغليفي كحرف مركب ، لكن كتّاب العصور الاولى لا تميز في

كتاباتهم اجزاءه بوضوح ولا حتى المواد المصنوعة منها. اما نقوش ميدوم الملونة (الاسرة الثالثة ٢٧٨٠ — ٢٧٢٠ ق . م.) فتظهر بوضوح اجزاء المنجل . فيلاحظ ان اليد وبعض السلاح ملونان بلون اخضر . اما السلاح المصنوع من الظرّ فملوّن بلون ابيض ويُرى بارزاً من الجزء الكاسي له واستمرت هذه الآلة ترسم بهذه الصفة في الخط الهيروغليفي في عهد الاسرة الخامسة (مقبرة تي) والاسرة الثانية عشر (مقابر بني حسن) . اما النقوش التي يرجع تاريخها الى العهد الاخير فلم يوضّح بها بالدقة اجزاء هذه الآلة حتى تعذر معرفة اليد من السلاح بالتأكيد (الدنكمايلر ج ٢—٩) ولا يمكن الحكم بالضبط على العهد الذي ظهر فيه المنجل المعدني بمصر . وثمة في دار تحف اللوفر منجل بحد حديدي . اما المنجل المعدني المحفوظ الآن بدار تحف (جيميه) بباريس فقد عثر عليه بالدير البحري وهو مكوّن من حد حديدي ويد مصنوعة من خشب الجميز (راجع كتاب الزراعة المصرية القديمة لهارتمان ص ٨٣)

وتتلخص طريقة استعمال المنجل فيما يلي : يقبض الفلاح على جملة من سيقان القمح ويقطعها اسفل السنابل بمنجل بيده اليسرى . وهذه الطريقة بقيت مرعية على مدى تاريخ مصر القديم

ورسم المنجل الوارد في الخط الهيروغليفي من عهد الاسرة الاولى (حوالي ٣٠٠٠ ق . م .) غير واضح الاجزاء (راجع كتاب المقابر الملكية للاسرة الاولى للاستاذ بتري جزء ١ لوحة ٢٥ شكل ٥٣—٥٦ وج ٢ لوحة ٢٠ و٢٤)

وتختلف رسوم المناجل القديمة على مدى العصور في اجزائها المتباينة . فالسلاح يكون احياناً ماضياً وطوراً مسنناً . ومرة مستقيماً وأخرى مقوّساً . ودرجة الزاوية التي بين السلاح ويد المنجل غير ثابتة الانفراج

﴿ المدراة ﴾ — في دار تحف القاهرة قطعتان خشبيتان يقبض على كل منهما بيد وتقربان احداها من الاخرى فينتج من ذلك مسطح تقذف بواسطته الحبوب الى اعلى ثم تفصل اليدان فتسقط الحبوب الى الارض ويقذف الهواء القش والقاذورات بعيداً كما هي الحال الآن . وهذه القطع الخشبية عمل مثلها لمتحف فؤاد الاول الزراعي لما قمت بانشاء قسم الزراعة القديمة فيه وهي مصورة في الشكل المرفق بهذه المقالة. وهناك مدراة طويلة اليد مشعبة النهاية كالمستعملة الآن كانت تستعمل ايضاً من عهد المملكة القديمة كما هو واضح في لوحة من قبر بدار تحف القاهرة

﴿ البلطة ﴾ — اخذت البلطة تتحسن تدريجاً في الزمن السابق للعهد الحجري وفي العهد الحجري ايضاً حتى عهد الاسر الاولى حيث ذكر المسيو ده مرجان رسماً لبلطة على اسطوانات العرابة سلاحها الحجري منزل في يد خشبية [١] . وكان السلاح حينذاك مثبتاً في اليد بواسطة ثقب صغير اسفل السلاح [٢] . وهذه الثقوب تشاهد كثيراً في بلط وادي النيل والقصد منها تثبيت السلاح

(1) De Morgan Recherches t II p 244 fig: (2) Même Oeuvre. t II p 75

في اليد وزيادة في هذا التثبيت ومنعاً لكسر اليد استعان القوم على تثبيت هذين الجزئين بواسطة اوثقة جلدية. ويلاحظ في البلطة الحاملة لاسم الملك تحوتمس الثالث ان سلاحها مصنوع من البرنز على الشكل المتبع في الأسرتين الأوليين وكانت تستعمل في اوقات العبادة على روح هذا الملك العظيم فقط[1]

وفي زمن الاسرة الثالثة ظهر رسم البلطة في الخط الهيرغليفي بشكل يتبين منهُ ان السلاح كان يصنع من المعدن (النحاس او البرنز) كما يستدل عليهِ من اللون الاصفر او الرمادي الضارب الى الخضرة[2]

وفي عهد الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بلغت صناعة البلط حد الكمال من حيث تثبيت السلاح في اليد. فالبلط التي عثر عليها جهة رفح[3] تتكوَّن من سلاح مستدير تقريباً وطرفاه (أو طرف واحد احياناً) ينتهي بخطاف وبين هاتين الطرفين تشاهد عدة ثقوب (اربعة أو خمسة) لوضع اوتاد خشبية فيها لتثبيت اليد

ومنذ الاسر الاولى حتى العهد الصاوي استعمل الحَطَّاب البلطة ذات الحد المستدير (بتاح حوتب ج ١ لوحة ٣. البرشة ج ١ لوحة ١٣) واليد المستقيمة او المقوّسة يسيراً وذلك وقت قطع الاشجار في اثناء تهيئة الحقول للفلاحة

﴿ المدية ﴾ — ان اقدم المدى المصرية هي المصنوعة من حجر الظرّ. وقد اعتنى القوم بصناعة هذه الآلة كثيراً. فكانوا بعد ما يقطعون من الحجر القطعة المراد صنعها مدية يبدأون في نحت الحد القاطع على عدة دفعات حتى يصير ماضياً جهد الطاقة (راجع كتاب تقادة والبلاص للاستاذين بتري وكويبل ١٨٩٦ لوحة ٧٦). ثم كسا القوم الجزء الآخر من المدية بالمعادن كالنحاس وجعلوا منه يداً لهذا السلاح[4]. والخط الهيرغليفي في مبدئه يظهر المدية كاملة التركيب. فعلى شاهد قبر (جابيوسوكارى) رسم لاشارة هيرغليفية تمثل مدية ذات يد خشبية او معدنية[5].

وفي مقبرة بتاح حوتب (ج ١ لوحة ١٣ رقم ٢٧٣) يشاهد رسم للمدية المصرية القديمة ذات اليد الخشبية. واخيراً عثر على مدية من هذا النوع (راجع كتاب الآلات والاسلحة لبترى ١٩١٧ لوحة ٢٤ رقم ٣٥، ٣٦). لكن بالرغم من كل هذه التحسينات بقيت المدية الحجرية مستعملة على الدوام في الحفلات الدينية

﴿ ادوات اخرى ﴾ وهناك ادوات اخرى كان يستعملها الفلاح في معيشتهِ كالامشاط التي كان يفصل بها خيوط الكتان والمطارق والمدراة البسيطة والمشعبة والمكنسة المصنوعة من القش والغربال والعصي وغير ذلك. (وجميع هذه الادوات ذكرتها Jane Ellen Harrison في مجلة The Journal of Hellenic Studies ج ٢٤ سنة ١٩٠٤ ص ٢٤١ — ٢٥٤)

(1) Maspero. Hist. Ancienne t I p. 60 fig. — Birch Cat. of Collect. of Egyp. Antiq. at Alnwick Castle London 1880 pl. B No 1482
(2) Medum pl. 10, 13, 14. (3) Petrie Gizeh & Rifeh 1907 pl. 3 No 108-113
(4) Capart Les debuts de l'art en Egypte p 68 fig.
(5) Weill, Les orig. de l'Egypte pharaon. p 247

استدراك على معجم الحيوان

وبحث علمي طريف

بقلم الفريق امين باشا المعلوف

— ٤ —

لما نشرت معجم الحيوان سنة ١٩٠٨ وما بعدها ثم في طبعتهِ الأخيرة سنة ١٩٣٢ كنت اكتب للخاصة الذين يعرفون شيئاً عن هـذا العلم . ثم رأيت الآن ان اشرح اموراً ظننتها واضحة في أول الامر فاذا هي غامضة على بعضهم منها ما يلي فقد قلت في الصفحة ٩٣ ما يأتي :

فصيلة السعالي Pongiidae

قرود شبيهة بالانسان منها الغورلّى اي الغول والبعَّام والسعلاة والشِق . انظر ص ١٩ و ٢١ و ١١٥ من هذا المعجم . انتهى

وقولي هذا المعجم يراد بهِ معجم الحيوان . أما سبب تسميتي لهذه الفصيلة باسمها العلمي هذا فعن الكتاب الآتي وقد ذكرته بين أسانيدي وهو من أحدث الكتب وأوسعها في المقدَّمات وهي الرتبة العليا من رتب الحيوان والكتاب هو

Elliot, A. Daniel. A Review of the Primates, New York 1912

فقد جاء ذكر هذه الفصيلة بهذا الاسم في المجلد الثالث ص ١٨١ وفي الحاشية ما ترجمتهُ :

« لما كان نموذج القرود المعروفة باسم سيميا هو قرد المغرب فان سيمييدا لا يمكن ان يتخذ اسماً لفصيلة القرود العظيمة . ولما كانت كلمة بُنجو اقدم اسم جنسي اقترح لهذا الحيوان فانهُ ينبغي اتخاذه اسماً للفصيلة لذلك كانت كلمة بنجييدا الاسم الصواب » . انتهى والترجمة حرفية

ثم بحث الدكتور اليوت في ص ١٧٢ في قرد المغرب وناقش العلماء في صحة هذه التسمية مما لا حاجة الى الاسهاب فيهِ . ولا يخفى ان اسم الفصيلة Family مأخوذ من اسم الجنس النموذجي لذلك يقال فصيلة البشر من « هومو » اللاتينية اي الانسان في آخرها لاحقة من أصل يوناني فتصير هوميفيدا وترجمتها ابناء الناس اي البشر وهذه اللاحقة معناها في الاصل ابن كما قال اليونان جفنيد وعباسيد اي ابن جفنة وابن العباس وعند المحدثين فيليبذس وقسطنطينيذس ابن فيليب

وابن قسطنطين وعند العرب في اسماء الحيوان ابن كقولهم ابن آوى وابن عرس والجمع بنات على ما هو مشهور . وهـذا الاستعمال اصطلاح حديث جرى عليه العلماء وهو في الاصل قديم في اليونانية كما تقدم في قولهم ابن جفنة وابن العباس فيجب ان يكون الاصطلاح العربي كما هو عند العلماء اي يؤخذ الاسم الجنسي وتصاغ الفصيلة منهُ فيقال فصيلة البشر وفصيلة السراعيب وفصيلة الابل وفصيلة الايائل وفصيلة الدعاسيق من اسم الجنس وهو الانسان والبعير والايّل والدعسوقة على الطيء والنشر ومثل ذلك فصيلة السنانير وفصيلة الكلاب وهلمّ جرًّا . اي ان الفصيلة ينبغي ان تكون باسم الجنس النموذجي او اقدم جنس وضعه علماء الحيوان فان أقدم جنس من هـذه الفصيلة اي بنجبيدا هو الجنس المعروف باسم بنجو فيكون من الطبيعي ان تسمى هذه الفصيلة باسم بنجبيدا كما اثبت الدكتور اليوت. ثم ان بعض العلماء منهم ليناوس سموا هذا القرد باسم سيميا ومعناه القرد وسمـوا هذا القرد عينه سيميا ساتيرس اي القرد ساتيرس ومعنى ساتيرس كما بينت في معجم الحيوان ص١٥ وما بعدها السعير او السعلاة وكان الهاً عبده اسلافنا ففضلت السعلاة أي جريت على تسمية العلماء ومن شاء زيادة ايضاح في ذلك فليراجع ما كتبه بلنيوس وما جاء في اساطير اليونان عن ساتيرس وما كتبه علماء التوراة في كلمة ساتيرس لانهُ كان الهاً عبده الساميون . فلو كان اسم هـذا القرد عفريتاً لكانت القاعدة ان تسمى الفصيلة فصيلة العفاريت ولو كان ملاكاً فصيلة الملائكة اي ان الفصيلة يجب ان تسمى باسم هذا القرد عينه لا باسم قرد آخر

***

هذا وقد ثبت اخيراً ان علماء الحيوان قد اخذوا برأي الدكتور اليوت اي بعد مضي عشرين سنة او اقل من ذلك فقد اطلعت على كتاب في اللبونات جمعه الميجر فلَوَر لجمعية الحيوان البريطانية وهو عضو فيها والكتاب آخر كتاب تعتمد عليه الجمعية في اسماء الحيوان وهو مطبوع سنة ١٩٣٠ اي انهُ احدث من كل كتاب آخر في تصنيف الحيوان والأسماء المعتمدة في بريطانية واميركة وقد جاء فيهِ ذكر هذه الفصيلة بهذا الاسم العلمي اي بنجبيدا ونبذ الاسم القديم اي سيميبيدا مع الاشارة اليهِ بين قوسين في قوله ان بنجبيدا هو سيميبيدا عند بعض المؤلفين اي ان جمعية الحيوان البريطانية اتبعت في ذلك تسمية الدكتور اليوت الاميركي فالعلماء لا يبالون بصغار الامور كما يفعل بعض المشارقة في ايامنا فلا يقول الواحد منهم مثلاً هذه كلمة وضعها كوفي او بصري او عربي او فارسي او عراقي او سوري او مصري وينبغي ان ارفضها او اغير فيها بعض التغيير او أتحذلق فيها بعض الحذلقة لان واضعها ليس من قومي بل يقولون كما قال النبي الكريم اطلبوا العلم ولو بالصين الى آخر الحـديث . فالميجر فلور الانكليزي وعلى شدة تعصب الانكليز لقومهم قبل التسمية التي وضعها الدكتور اليوت الاميركي اللعين وقبلتها جمعيته البريطانية الانكليزية لانها صواب

ومما يسرني ان صديقي الاستاذ اسمعيل مظهر جرى على مذهب كبار العلماء فنبذ كلمة قسم لانها خطأ وكان يقولها قبلاً وقبل كلمة قبيلة وكان قبلاً يقول القبيل لان القبيلة اصلح او لعلهُ اصابه ما اصابني فجمع القبيل على قُبُل فانصرف ذهنه الى المفرد ونقيضهِ كما انصرف ذهن صفي الدين الحلي فنظم فيه شعراً اي صفي الدين يعده ارباب الفن من جيد الشعر . واملي كبير ان الصديق المحقق يقبل اصطلاحات اخرى متى وجدها صواباً فيكون عمله هذا قدوة نحتذيها

***

انتهت المداعبة الى اجل . قلت وقد اخطأت في الشقوق وجعلتها في معجم الحيوان من فصيلة السعالي وكان يجب اخراجها وجعلها فصيلة على حدة كما فعل الميجر فلور في كتاب اللبونات المشار اليه والميجر فلور كما لايخفى كان مديراً لحدائق الحيوان في مصر وهو مواليدي مشهور كذلك ابوه قبله . اما الفصيلة التي وضع فيها الشقوق فهي الفصيلة الآتية

فصيلة الطافرات في الشجر وهي الشقوق او الجبابين Hylobatidae. The Gibbons.
والواحد جبّـون

الطافرات في الشجر فصيلة من مرتبة اى ردف رتبة البشريات وهي اي الفصيلة تشمل الشقوق على أنواعها والكلمة يونانية الاصل في صيغة لاتينية ومعناها الماشيات في الشجر وربما كان قولنا الطافرات في الشجر اصلح منها لانها اكثر ما ترى في الشجر تطفر فيه من غصن الى آخر . اما قولي الشِـق بمعنى الجبّـون فقد ذكرته في معجم الحيوان ص ١٥ وذكرت السبب الذي دفعني الى تسميته بهذا الاسم . وقد قلت البشريات ترجمة لكلمة انتروبويديا كما قال الاستاذ اسمعيل مظهر لا كما كنت اقول قبلاً لان البشريات اصلح

وايضاحاً لما تقدم أقول :

رتبة المقدّمات Primates

هي رتبة من طائفة اللبونات تشمل مرتبتين البشريات والشبحيات

مرتبة او ردف رتبة البشريات وهي تشمل البشر وجميع القرود Anthropoidea

مرتبة او ردف رتبة الشبحيات وهي تشمل الهوابر على أنواعها Lemuroidea

اما أشباه البشر ففصيلتان وقد تقدم ذكرهما فهاتان الفصيلتان يقال لهما الاشباه او اشباه البشر فلو خصصنا الفصيلة الواحدة بالاشباه فماذا نسمي الفصيلة الثانية . هذه هي المسألة الدقيقة لذلك أرى ان خير الامور هو اتباع العلماء في تصنيف الحيوان لاننا اذا تصرفنا في التصنيف فان المسألة تصير فوضى او نزيدها عرقلة

العنصر الثالث والتسعون

كشف طبيعي خطير

تختلف العناصر في وزنها الذري (Atomic weight) من الايدروجين (وزنه الذري واحد) الى الاورانيوم (وزنهُ الذري ٢٣٨) وتختلف كذلك في خواصها الطبيعية والكيمائية . فبعضها غازي كالاكسجين والايدروجين والنتروجين والكلور وبعضها سائل في الاحوال العادية كالزئبق والبروم ، والباقي جامد كالذهب والفضة والكربون والفصفور . بعض المعادن صلب قاسٍ كالبلاتين والاريديوم وبعضها لين كالصوديوم والبوتاسيوم . الليثيوم معدن خفيف يطفو على سطح الماء مع ان الاسميوم معدن يفوق وزنه النوعي specific gravity وزن الماء النوعي اثنين وعشرين ضعفاً ونصف ضعف . ثم ان هذه العناصر تختلف لوناً . فالنحاس احمر والذهب اصفر واليود رماديٌّ قاتم والفصفور ابيض . وبعض الفلزات كالنيكل يصقل حتى يخطف البصر بلمعانه ، وبعضها يمكن صقلهُ ولكنه يظل مكمَّداً فلا يلمع . الذهب لا يكمدُّ عند تعريضه للهواء وأما الحديد فيصدأ وأما اليود فيتصعد . وبعض هذه العناصر يتحد بذرة واحدة من الاكسجين وبعضها بذرتين وبعضها بثلاث ذرات . ومنها طائفة قليلة كالبوتاسيوم والفلور شديدة الفعل يصعب تناولها بالانامل ومنها عناصر لا يطرأ عليها تغيير ما طال الزمن . تبايُن في الصفات والخواص يحيّر اللب ! ولكن العناصر مع ذلك لا تخرج عن كونها اثنين وتسعين عنصراً ، من الايدروجين ورقمه الذري atomic number واحد الى الاورانيوم ورقمه الذري اثنان وتسعون

فما هو السرُّ في ترتيب العناصر ترتيباً عدديًّا صاعداً من ١ الى ٩٢ يتفق وتدرجها في الوزن ؟ ظل هذا السؤال من دون جواب ، حتى قام موزلي قبيل الحرب بمباحثه الخالدة ، فبيَّن الصلة بين هذه الارقام الذرية وعدد الكهارب في كل ذرة من الذرات او بالحري بعدد الكهارب حول كل نواة منها

فقد كانت الذرة في نظر علماء عصره ، مبنية من نواة حولها كهارب . وكانت النواة في رأيهم مبنية من كهارب وبروتونات ، ولكن عدد البروتونات فيها يفوق عدد الكهارب اي ان عدد الشحنات الموجبة في النواة يفوق عدد الشحنات السالبة . واذن فلا بدَّ ان يكون حول النواة عدد من الكهارب يقابل عدد البروتونات الفائض في النواة

وعلى ذلك كانت ذرة الايدروجين — وهو أبسط العناصر وأخفّها — مبنية من نواة فيها بروتون واحد وحولها كهرب واحد . والهليوم يلي الايدروجين . ورقم الهليوم الذري ٢ فما الصلة بين هذا الرقم وبناء ذرته . ان النواة في ذرة الهليوم مبنية من اربعة بروتونات وكهربين . اي ان الشحنات الموجبة فيها تزيد شحنتين على الشحنات السالبة . واذن فالذرة تحتاج الى كهربين حول النواة لتعديل فعل البروتونين . واذن فرقم الهليوم الذري يتفق وعدد الكهارب التي حول النواة . اما الاورانيوم فهو أثقل العناصر وعددهُ بينها ٩٢ ورقمهُ الذري ٩٢ كذلك . فهل ثمة صلة بين رقمهِ الذريّ وعدد

الكهارب حول نواته كالصلة بين رقم الهليوم الذري والكهربين اللذين حول نواته ؟ ان نواة ذرة الاورانيوم مبنية من ٢٣٨ بروتوناً و ١٤٦ كهرباً فعدد البروتونات الذي يفيض على عدد الكهارب في نواة الاورانيوم ٩٢ بروتوناً فهي تحتاج الى ٩٢ كهرباً لتعديلها واذن فرقم الاورانيوم الذرّي متفق وعدد الكهارب حول نواته . وقد تغيَّر الآن النظر في بناء النواة ، ولكن ذلك لم يغيّر الصلة بين الرقم الذرّي وعدد الالكترونات التي حول النواة في كل ذرّة من كل عنصر

هذا البناء يعلل فعل الاشعاع . ان ذرات العناصر الثقيلة غير مستقرّة البناء فتنحلُّ الى ذرات عناصر أخف منها وفي خلال انحلالها تطلق نواها بعض الدقائق . فالاورانيوم يتحوّل مثلاً الى راديوم . والراديوم يتحوّل الى رصاص فتنطلق منهُ في خلال هذا التحول دقائق الفا (وهي نوى عنصر الهليوم) ودقائق بيتا (وهي كهارب) واشعة غما (وهي من قبيل الاشعة السينية) ولكنها أشدُّ اختراقاً منها للمواد

أفلا يوجد عنصر أثقل من الاورانيوم ؟ أي ألا يمكن ان يكون عدد العناصر اكبر من ٩٢ عنصراً ؟ كان الرأي انهُ لا يمكن ان يوجد عنصر أثقل من الاورانيوم لانهُ اذا وجد انحلَّ لساعتهِ ، إذ لا بدَّ ان تكون ذرتهُ أقلُّ استقراراً في بنائها من ذرة الاورانيوم . ولكن المباحث النظرية التي قام بها جينز وادنغتن وغيرهما حملتهم على القول بأنهُ اذا لم تكن الاحوال على الأرض مواتية لوجود عنصر أثقل من الاورانيوم فالراجح ان في قلب النجوم عناصر مشعة لا يقابل بها الاورانيوم والراديوم وقد ذهب ادنغتن الى ان عدد العناصر هو ١٣٦ عنصراً على الاكثر

وفي اوائل هذه السنة كشف الاستاذ جوليو الفرنسي وقرينتهُ (وهي ابنة مدام كوري) ان في الامكان احداث اشعاع وقتي في بعض العناصر غير المشعة باطلاق هليومات (اي نوى ذرات الهليوم) عليها فأطلقا هذه الهليومات على عناصر البور والمغنيسيوم والالومنيوم فنشأ منها اشكال مشعة — ولكن اشعاعها وقتيّ — من عناصر النتروجين والسلكون والفصفور . وما لبثت مباحث جوليو وقرينتهِ حتى تأيدت نتائجها بنتائج التجارب التي أجريت في جامعتي كمبردج وكاليفورنيا . ولكن الباحثين في انكلترا استعملوا البروتونات بدلاً من الهليومات وفي كاليفورنيا استعملوا الدوتونات (نوى الايدروجين الثقيل) وكان الغالب في تجارب هؤلاء العلماء ان اطلقوا مقذوفاتهم على بعض العناصر الخفيفة . ولكن فرمي — وهو عالم ايطالي شاب في الثانية والثلاثين من عمره — أطلق النوترونات على العناصر الثقيلة ومنها الاورانيوم أثقل العناصر على الاطلاق ، فتكوّن لديهِ عنصر اثقل من الاورانيوم دعاه بعضهم « سوبر اورانيوم » — اى فوق الاورانيوم — واطلق عليهِ غيرهم « العنصر الثالث والتسعين » والظاهر ان النوترون الذي يطلق على الاورانيوم ينقسم الى قسمين عند اصطدامهِ بالذرّة فيندمج البروتون بنواة الذرّة فيزداد وزنها الى ٩٣ وينطلق كهربهُ ولكن هذا العنصر غير مستقر كما يتوقَّع فلا يكاد يتكوّن حتى ينحلّ

اخونا سليم

لما توفي شاهين بك مكاريوس سنة ١٩١٠ نعاهُ الدكتور صرُّوف — رحمة الله عليهما — في المقطم بعنوان « اخونا شاهين » فقال : — « اصبحنا نحن الثلثة اصحاب هذه الجريدة اشبه الناس في اعتبار الجمهور بالشخص الواحد ، منا بثلاثة اشخاص . فكم من كتاب يأتينا كلَّ يومٍ معنوناً باسم « الدكتور صرُّوف نمر » او باسم « نمر مكاريوس » كأنَّ لا فرق في اعتبار الكاتب بين يعقوب صرُّوف ، وفارس نمر ، وشاهين مكاريوس . وكثيرون من الذين يفرقون بيننا ويعلمون اننا ثلثة لا واحد ، يحسبوننا ثلثة اخوة ابناء اب واحد وام واحدة ويظهرون من العجب والدهشة ما لا يوصف ، كلما علموا اننا ثلثة رفقاءِ لا قرابة بينهم ولا نسب . . . »

تآخى الآباء وتآزروا ، فلا عجب في ان يمتدَّ أثر تآخيهم وتآزرهم الى الابناءِ ومن يلي الابناء من الاهلين مع ان الاسر الثلاث ما تزال حتى الساعة لا يربط بينها رابطة نسب . وكذلك نرى اليوم وقد قضى الموت علينا بنعيِّ سليم مكاريوس الى قرَّاءِ المقتطف ، ان ادل كلام على مكانتهِ في نفوسنا ، وحسرتنا على فقدهِ ، هو قولنا : « أخونا سليم »

***

نشأ سليم مكاريوس في بيت علم وفضل واجتهاد فطمح من صباه الى التشبه بأساطين العلم وكان له من ذكائه النادر ونشاطه العجيب ما بعث فيهِ الرغبة وأحيا فيهِ الامل فطلب العلم في مدارس بيروت ومصر ونبغ بين اقرانهِ فكان أنجب طلبة جامعة بيروت الاميركية الى العام الذي أتمَّ فيهِ دروسه فيها . وعلق الفلسفة وأحب بحوثها حبًّا جمًّا وأحاط بمذاهبها ولا سيما الحديث منها وآثر من هذه فلسفة هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي فكان يعرف اصولها وفروعها معرفة تامة فلما زار صاحبها في داره في مدينة بريطن بانكلترا وحادثه ولم يكن قد جاوز الحادية والعشرين دهش الفيلسوف لسعة علمه وصحة مداركه وامتلاكه لناصية الانكليزية وأعجب بهذا الشاب الشرقي الأسمر اللون فلما فارقه الفقيد ليذهب الى لندن وباريس اعطاه كتباً من كتب التعريف والتوصية الى جماعة من خيرة اعضاء نادي الاثينيوم وهو ندوة العلماء والكتَّاب بلندن فتوصل من هناك الى معرفة طائفة من كبار رجال العلم والصحافة كالبرنس كروبتكين والمستر سدني وب (اللورد باسفلد الآن) وقرينته والسر راي لنكستر والطبيب السر لودر برنتن والسر ميخائيل فوستر الفسيولوجي وشارل جيد العالِم الاقتصادي الفرنسيّ وغيرهم

ودرس الحقوق في مدرسة الحقوق الفرنسية واجتاز امتحاناتها السنوية في فرنسا بنجاح عظيم

فلما اراد اجتياز امتحان المعادلة كان بين ممتحنيه المرحوم رشدي باشا فطرح عليهِ سؤالاً عاديًّا فأجابه الفقيد عليه وقال لرشدي باشا لماذا لا تتفضل بأسئلة أصعب من هذا السؤال السهل فدهش رشدي باشا وابتدره بأسئلة عويصة فكانت اجوبته عليها في منتهى الاحكام ومن ذلك الحين اتخذه صديقاً وقدمه الى المرحومة قرينته الاولى . ولقي مثل هذه العناية من السر ملكُم مكرايث المستشار القضائي في ذلك الحين ففتح له أبواب مكتبته يطالع فيها ما يشاء ويأخذ منها ما يشاء

وبعد ما اشتغل بالمحاماة مدة رغب عنها الى الصحافة وقد نشأ في وسط صحافي فانضم الى قلم تحرير المقطم ثم عين مكاتباً في مصر لجريدة الديلي مايل فظل يكاتبها نحو عشرين سنة ودعته ادارتها الى ان ينتظم في هيئة تحريرها بلندن فلبى الدعوة ، وقدر لورد نورثكلف صاحب الديلي مايل كفاءته واخلاقه فانزله منزلة رفيعة من الاعتبار وبلغ من دالة الفقيد عليهِ انهُ كان يستعمل مكتب اللورد الخاص كأنهُ مكتبهُ بل فعل ما لم يتفق مثله في ادارة جريدة كبيرة فانهُ كتب مرة مقالة عن « كسوف الشمس » وبعد ما دارت آلات الطباعة مدة خطر له ان يبدل عبارة في المقالة وينقل توقيعه من اسفل المقالة الى اعلاها فنزل الى مكان المطابع وأمر بوقف الطبع وبدل العبارة واقتضى ذلك تبديل الصفحات التي هي فيها ونشأ عن العمل ان تأخر توزيع الجريدة في شمال انكلترا . ونمي الخبر الى اللورد نورثكليف فأرسل اوامر مشددة بمعاقبة من يعد مسؤولاً عن الحادث حتى ابلغه رئيس التحرير ان الآلات وقفت « بأمر مكاريوس » فعدل عن العقوبات ولكنهُ افهم الفقيد ان ما صنعه محظور لم يسبق له مثيل ولا يجوز ان يعاد . ولم يستقلّ من مكاتبة الديلي ميل الا في مطلع الثورة المصرية لانهُ اختلف وهيئة تحريرها في الرأي

وعرف هناك اللورد روذرمير شقيق نورثكليف ثم اللورد بيفربروك صاحب الديلي اكسبرس وكانا يزورانه في منزله عند زيارتهما لمصر ويرحبان به في لندن ويعدانه من اصدقائهما

***

ولما كان في لندن حينئذ زارها الوفد البرلماني العثماني برئاسة طلعت باشا الصدر الاعظم الاسبق وكان حينئذٍ رئيساً لمجلس المبعوثان فطاف بهم الفقيد على ادارات الصحف وانشأ لهم اتصالاً بهيئات سياسية وعلمية وادبية واقتصادية واعجب طلعت باشا بمقدرته ونفوذه فعرض عليه ان يتقلد منصب مستشار للسفارة العثمانية في لندن فاعتذر الفقيد عن القبول بحجة انهُ يؤثر العمل الصحافي على سواه. ثم زار استانبول بعد ذلك وكان طلعت باشا قد قلد وزارة الداخلية فاحسن استقباله وكان يأخذه معه الى الباب العالي وقد اشتبك ذراعاهما واعاد طلعت باشا في استانبول ما عرضه عليهِ في لندن فأبى قبوله معتذراً وشاكراً. ومن الزعماء الذين توطدت صلة الصداقة بينهُ وبينهم المستر مكدونلد عرفهُ في مطلع حياته السياسية ولقيهُ لما زار مصر سنة ١٩٢١ وشرب الشاي عنده ولما زار الفقيد لندن في صيف ١٩٢٩ دعاه المستر مكدونلد الى زيارتهِ في داره في ١٠ دوننج ستريت [البقية في باب الاخبار العلمية]

احدث معجزات الصوت

الاصوات الحادة النبرات تحلل السوائل وتقتل البكتيريا وتسلق البيض سلقاً خفيفاً وتهدم المباني الضخمة وتشل الافاعي بالانغام المنتظمة

نقلاً عن مجلة العلم العام الاميركية : ترجمها عوض جندي

جاء من امريكا انهُ قد تمَّ اطلاق مدفع ضخم من المدافع الحربية الساحلية ٧١ طلقة في ميدان من ميادين التجارب الحربية ، طوله اربعة اميال ، حيث نُصبت عدة ميكروفونات على ابعاد يسيرة بعضها عن بعض . وكان ذلك الميدان مجهزاً عند القيام بالتجربة ، بفلم متحرك ، يطبع عليهِ بطريقة اوتوماتيكية ، عند كل طلقة ، خط متمعج يبيّن سرعة موجة صوت المدفع في الثانية الواحدة . وكانت الميكروفونات متصلة باجهزة مركزية دقيقة جداً تقدّر الزمن تقديراً صادقاً . وقد قسّمت فيها الثانية الواحدة الى ١٠٠٠ جزءٍ . فاسفرت التجربة عن تمكن الدكتور ديتون مِلَر ، الاستاذ بمدرسة العلوم التطبيقية في كليڤلند بولاية اوهيو ، من جمع المعلومات التي تذرَّع بها الى تحديد سرعة الصوت في الثانية الواحدة تحديداً صحيحاً . وبعد ما حسب حساباً لعوامل الحرارة والرطوبة والضغط الجوي واتجاهات الارياح وسرعتها استدلَّ على ان سرعة الصوت المضبوطة في الهواء ١٠٨٧٫١٣ من القدم في الثانية وكانت قبل تختلف من ١٠٨٥ قدماً الى ١٠٨٩ قدماً في حساب العلماء

ويتوقع العليمون ان هذا المقياس الصحيح لسرعة الصوت سوف يفيد فوائد جليلة في كثير من ميادين العلم . ذلك لأنهم اصبحوا يستخدمون الصوت خدمات شتى تبعث على الدهشة . فترى ربابنة السفن مثلاً يتلمسون طرق مراكبهم ، عند انتشار الضباب الكثيف ، بوساطة جهاز يسجل الاصداء الخافتة التي ترتد من اجسام في طريقهم ، يحجبها الضباب عن انظارهم وكذلك يتسنى للخبراء الحربيين معرفة مواقع الطيارات الخفية المحلقة في اجواء بلادهم ، وتعيين مواقع مدافع الاعداء القاصية بوساطة جهاز دقيق يسمى (محلل الصوت)

ثم ان الاجهزة المستعملة لسَبْر اعماق البحار تمكن السفن المستخدَمة لعملية المساحة البحرية من رسم خرائط الجبال والاودية الغائرة في اليم على عمق الوف من الاقدام . ويتضح من تجارب جربت في كاليفورنيا من عهد قريب ان امواج الصوت الوثّابة قد ترشد الطيارين الذين يضلّون طرقهم الى مبلغ ارتفاعهم الصحيح عن سطح الارض . وتقوم امواج الصوت في معامل الكيمياء بسلق البيض وكيّ الاصابع وتطهير اللبن مما يشوبهُ من الجراثيم وبتغيير المواد الكيميائية وغيرها من الغرائب

وقد عرض منذ عهد قريب الدكتور بيرس استاذ الطبيعة (كرسي رمفورد) في جامعة هرڤرد

جهازاً يجعل « الاصوات الصامتة » مسموعة كأنها قصف الرعد . وهو جهاز حساس جدًّا يفخم صوت اشتعال ثقاب تفخيماً شديداً جدًّا فيصيره كأنهُ قعقعة عجلة في مركبة ثقيلة ، ويصير شخشخة قصاصة الورق كأنها دويٌّ مدفع رشاش ، ويجعل انفاس طائفة من الناس الصامتين تدوي كقطيع من الافيال المجفلة ، حتى خشخشة النسيج في ثوب قشيب ، يتاح تفخيمها فتسمع في اطراف الحجرة التي يجتازها اللابس . ويتسنى التذرع بكشاف من هذا النوع الى التقاط الاشارات الواردة على الملتقط من عمق عشرة اميال في الماءِ ، لان سرعة اختراق الصوت للماءِ تفوق سرعة اختراقه للهواءِ اربعة اضعاف . ويمكن استخدام هذا الجهاز ايضاً في اثناءِ الحرب لارسال الاشارات لانهُ يلتقط الامواج الصوتية الدقيقة جدًّا ولاسيما السريعة التذبذب التي لا تستطيع الآذان البشرية سماعها

اما خبراء مختبر « بل » التليفوني ، فقد عرضوا على مؤتمر المعهد الامريكي للمهندسين الكهربائيين ظواهر صوتية مدهشة ، فركبوا طائفة من الميكروفونات ومفخمات الاصوات اللاسلكية ولكل منها دائرة كهربائية خاصة فاستطاعوا ان يولدوا موسيقى ذات « ثلاثة أبعاد » واذاعوا الاصوات المطبوعة على اسلوب المتكلم من بطنهِ . ذلك ان النظارة وهم جلوس في الغرفة سمعوا ازيز طيارة محلقة فوق رؤوسهم فأشرأبوا اليها وشاهدوا دهشين مبوقاً يتمشى على مسرح بينما كانت الحان بوقه تنبعث من الموضع الذي كان واقفاً فيهِ ، ثم رأوا راقصاً يرقص متجهاً الى جهة واحدة ووقع اقدامه يسمع في الجهة الاخرى

وعرض من بضع سنين في انكلترا طائفة من الجرذان المغنية فتحمَّس لرؤيتها فريق من المشاهدين واعتقد الفريق الآخر أنها تدجيل فلم يكترثوا لها . وأسفر البحث عن كون الفريق الذي اعتقد أن الامر خداع ، ان افراده لم يستطيعوا سماع الاصوات الحادة التي كانت تصدر من الجرذان وهي تشدو بعضها مع بعض . والواقع ان آذاننا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً عظيماً في قدرتها على التقاط الالحان ، وان أخفت صوت نسمعه مؤلف من زهاءِ ٤٠ موجة في الثانية . وان أعلى صوت نسمعه مؤلف من ٤٠٠٠٠ موجة . وان طبقة الصوت تتوقف على عدد موجاته ، وارتفاعه يتوقف على اطوال موجاته . واما سبب سماعنا طنين النحلة الطنانة حينما تحرك أجنحتها ، وكوننا لا نسمع شيئاً عند ما يحرك امرؤ ذراعيه ، فلأن الانسان لا يستطيع تحريك ذراعيه بمثل السرعة التي تحرك بها النحلة اجنحتها فتولد موجات في كل ثانية تحدث صوتاً مسموعاً

وقد أعلن السير « فرنسيس غالتون » العالم البيولوجي البريطاني المشهور (١٨٢٢ — ١٩١١) أن السنانير أحدُّ الحيوانات سمعاً لأخفت الاصوات ، وعزا ذلك الى أجيالها التي عركها الدهر في صيد الفئران في الدجى فأضطرتها الحياة الى ارهاف وسائل السمع . ومن ادوات التجارب التي اشتهر بها عصا كانت تعرف باسم « صفارة غالتون » وهي عصا ذات مقبض تُثَبَّتُ فيه محجرة من الصمغ المرن تُركَّبُ في رأسها صفارة صغيرة . وجعل غالتون يطوف كل يوم في حديقة الحيوانات في لندن متوكئاً على تلك العصا وكان يقف هنيهة عند حظيرة كل طائفة من الحيوانات ثم يدني العصا من

الحيوانات ضاغطاً مقبضها ، مراقباً كل حيوان يرهف اذنيه لسماع اللحن الحاد النبرات . وكان غالتون إذا لقي كلباً في طريقه ، صفر خلفه بعصاه ، فكانت الكلاب الصغيرة تلتفت اليه ؛ واما الكبيرة فلم تحفل بالصفارة لعجزها عن سماعها

وفي احد المختبرات العلمية في كليفورنيا تذرَّع العلماء بمصابيح غاز النيون الكشافة ، الى استنباط حقائق اخرى خاصة بتغريد الطيور البرية ، فيرى المرء هاتيك المصابيح الكهربائية « تصور بالنور » اغاريد تلك الطيور وما فيها من الامواج الصوتية . والجهاز المستعمل لتلك الغاية من صنع الدكتور ملتن ميتفسل رئيس دائرة السيكولوجيا في جامعة كليفورنيا . وبيان ذلك انهُ يمكن احداث تقلبات في شدة استضاءة غاز النيون بواسطة صدح الطيور المحبوسة في الاقفاص فتنطبع تلك التقلبات على قرص دوَّار (كاسطوانة الجراموفون) بوساطة مجرى من النقط تمثل صورة الاغرودة ، فاستدل من تلك المباحث على مبلغ تفوق الطيور على الانسان في مدى الالحان

وجاء من جامعة جونز هوبكنز نبأ استنباط بديع خاص بالاصوات المرتفعة الطبقات اذ تحقق الدكتور هبرد Hubbard انهُ يستطيع تحليل السوائل المجهولة التركيب في معمل التحليل الكيميائي بامرار امواج صوتية سريعة التذبذب لان لكل مادة من المواد المعروفة ميزة في توصيل الامواج بسرعة خاصة تختلف عن سرعة غيرها كل الاختلاف . فاذا مرَّت الامواج في محلول ما بسرعة معينة ، استطاع المحلل الكيميائي معرفة كنه ذلك السائل والوقوف على عناصر تركيبه وتحديد مقدار كل عنصر منها ، وادرك أنقي هو أم مزيج

وتجلت للباحثين حقيقة اخرى وهي استخدام امواج الصوت في تحليل اللبن اذ اعلن كل من الدكتور ليزلي تشمبرز والاستاذ نيوتن جاينز من اساتذة جامعة تكساس المسيحية ، انه اذا مرَّ الحليب في قمع مثبت فيه انبوب من النيكل يخترقهُ عند مزور الحليب فيه صوت حاد ، قتلت امواج ذلك الصوت ما قد يوجد فيه من البكتريا وذلك بنسبة تتراوح بين ٨٠ في المائة ومائة في المائة حتى بعض الميكروبات التي لا تؤثر فيها البسترة (تطهير اللبن بطريقة باستير) تقتلها تلك الامواج

واعلن الدكتوران تشمبرز وفلوسدورف من اساتيذ جامعة بنسلفانيا انهما استطاعا تضهيب[1] بيضة دون رفع درجة حرارتها . لأن الصوت الحاد يولد تأثيرات كيميائية « تفاعلات » تجمد پروتين البيضة . ثم انهما تذرعا ببوق من ابواق الغواصات ، ذوات الامواج الصوتية الثاقبة التي تستعمل لتبادل الاشارات في اغوار البحر ، فتيسر لهما توليد غاز الاسيتلين من الزيوت النباتية واستخراج سكَّر العنب من سكر القصب وتحويل خلات الاتيل الى حامض خليك ، بتوجيه صوت ذلك البوق اليها . وتفسير ذلك اللغز العلمي ان الامواج الصوتية تعجل بطريقة خفية ، سير الجزيئات في المواد التي تعالج بتلك الوسيلة ، فتحدث فيها تفاعلات كيميائية ذاتية

(١) ضهب البيضة — سلقها سلقاً خفيفاً من ضهب الشيء تضهيباً شواه على حجارة محماة وشواه ولم يبالغ في نضجه — الفيروزبادي

وطالما اعلن العلماء ان امواج الصوت تدك الابنية المتينة وهذا حقيقي ، ولكنه عسير جداً. لانك اذا توخيت ذلك وجب عليك تسخير ٣٠ مليوناً من المبوّقين لينفخوا في الصور بأقصى جهدهم لكي يولدوا ما يعادل قوة حصان بخاري واحد من الصوت . وعلى هذا الاساس يرى احد العلماء الامريكيين انه يتاح صدع صرح الامبيرستيت [١] ثم هدمه، متى استطعت توليد اللحن الصائب لذلك ، وواظبت عليه زمناً طويلاً موفور الضخامة . وهذا هو التعليل الذي يعلل به العلماء دائماً حادث سقوط اسوار أريحا من تبويق رجال جدعون

ومن هذا القبيل ما حدث في مصنع من مصانع احدى الاقاليم الشرقية بالولايات المتحدة من عهد قريب . وذلك انه كان في المصنع مروحة كبيرة تمتص الهواء من داخله ثم تدفعه في مدخنة من الآجرّ لتجديده . وكانت المدخنة بمثابة جزء متمم للجهاز المتحكم في هواء المصنع . فاذا اديرت المروحة دوراناً سريعاً ، أثرت في المدخنة تأثيراً شديداً يعرضها للتداعي فالانهيار . فخيل الى المهندسين ان العيب في المحرك الكهربائي ، فوضعوه فوق قاعدة صلبة من البرقاء [٢] فلم تنقطع الذبذبة بل ظلت على حالها . وحينئذ ضاق ارباب المصنع ذرعاً بالمدخنة فاستعانوا على تثبيتها بخبير من خبراء الصوت فجاء وفحص الجهاز ، فتبين له ان المروحة متى دارت ، دفعت كل ريشة من ريشها موجة من الهواء في المدخنة . فاذا دارت المروحة بأقصى سرعتها اصبحت تلك الامواج الهوائية بمثابة امواج صوتية تخفق خفقاناً مطرداً فتشتد ذبذبة المدخنة اكثر فأكثر حتى تكاد تنقاض . ثم استصوب معالجتها بتخفيف سرعة المروحة قليلاً فضؤل الخفقان وزال الخطر

ووقع في مدينة دترويت حادث صناعي كان يلابسه لغز من الالغاز العلمية حلّه علم الصوت ، وذلك ان مصنعاً من مصانع السيارات ، عرض ذات يوم نموذجاً جديداً من مركباته ، فكانت تلك المركبة اذا سارت بسرعة معينة ، ولدت صوتاً اشبه بطنين شنيع . فظنهُ مهندسو المصنع ناشئاً من تروسها ، فقاموا بفحصها فلم يعثروا على اي عيب صناعي فيها واتفق ان كان احدهم من هواة علم الصوت ، فأدرك ان لذلك الطنين نبرة معينة تعادل ١٨٠ موجة في الثانية . وشاهد ايضاً ان السرعة التي تولد الطنين تجعل العجلتين الخلفيتين تدوران دورتين فقط في الثانية . فأحصى العقد المانعة الانزلاق فاذا هي تسعون عقدة في كل طوق من اطواق العجلات (المصنوعة من الصمغ المرن) فاذا دارت العجلة دورتين في الثانية ولّدت ١٨٠ هزة وهي التي يؤلف منها الطنين فاستبدلوا الاطواق بصنف آخر، فانقطع ذلك الصوت الشنيع

واسفر استخدام الصدى عن استنباط مقياس جديد لقياس ارتفاع الطيارات في الجو بوساطة

---

(١) اعلى مباني العالم (٢) الابرق والبرقاء — الخرسانة — غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة — الفيروزابادي — وقد أقرني على استعمال هذا اللفظ الدكتور معلوف باشا وقال انه مستعمل في العراق . انظر مقالنا (الطبيعة رائد المخترعين) في مقتطف فبراير الماضي

الصوت فيمكن الطيار معرفة مبلغ علوه عن الارض ، وهو مثل المقياس الصوتي الذي يدل الملاحين على بعدهم عن قعر اليم . ومخترع هذا الجهاز هو الدكتور (ليود لساسو) احد علماء جامعة كليفورنيا . وقد جرَّبه من عهد قريب بقرب لوس انجليس حيث حلَّق في بلون من بلونات الاستكشاف حتى بلغ ارتفاعه ٧٠٠ قدم عن سطح الارض وحينئذ ضغط زرًّا كهربائيًّا مسلطاً على بوق كهربائي فانبعث منهُ صوت مرتفع النبرة فاق دوي المحركات ووصل الى سطح الارض في هنيهة ثم عاد الى البلون حيث التقطه ميكروفون منتخب منظم لالتقاط الاصوات الفريدة النبرة ، فلم يلبث الجهاز حتى حول الزمن المستغرَق الى اقدام ، دلت الطيار على مقدار ارتفاعه عن الارض

وقد قوبلت مقاييس الارتفاعات التي قيست بهذا الجهاز ، بما قيس بغيره من الآلات المعروفة فاختلفت عنها اختلافاً يسيراً ، لا يعدو قدماً واحدة في كل ٧٠٠ قدم . ودلت التجارب التي جربت فيما بعد ، ان ذلك الجهاز يكاد يستطيع التقاط الصدى في اثناء نزول المطر وتخييم الضباب بسهولة كما يلتقطها في الجو الصحو . وبناءً على ما تقدم تقوم هذه الآلة الجديدة بايضاح ارتفاع الطيار عن الارض التي يحلق فوقها ، لا عن نقطة قيامه فحسب ، بعكس المقاييس العادية . ومن ثم يرجى منهُ خير جزيل في الطيران الذي يحصل على غير هدى . ولم يبق أمام مخترعه الاَّ عقبة واحدة يرجو تذليلها وهي تأثير الاشجار والغابات في اخفات الاصوات ومنع صداها . ويتوقع الخبراء لهذا المقياس الجديد وامثاله فوائد شتى ، ولكنهم يرون انها سوف تصبح بلا فائدة ، حينما تخترع الطيارات السريعة التي تسبق الصوت ! ! والمعروف ان طيارات السباق قد تمكنت من قطع ٤٢٠ ميلاً في الساعة ، فلا يبعد ان تزيد سرعتها ٣٠٠ ميل اخرى فتصل الى ٧٢٠ ميلاً في الساعة وهي المسافة المساوية لسرعة الصوت

وعرض المستر (تشستر ريس) احد مهندسي شركة الكهرباء العامة في اميركا في فصل الصيف الماضي جهازاً آخر ، مما تستخدم فيه امواج الصوت بمثابة مساعد للملاحة ، وهو كناية عن آلة تعين الموضع بوساطة الصوت اذ تلتقط اصداء الصوت من الزوارق والعوامات واحواض السفن وقد تمكن بها المخترع من ارشاد زورق موطري وسقه ١٧ طنًّا الى السير في الضباب الكثيف في بوغاز لونج ايلند . واتيح له ايضاً الاهتداء الى البواخر التي كانت تبعد عنه نصف ميل ، والكشف عن الزورقات التي كانت سائرة بالمقاذيف على بعد ٨٠٠ قدم منهُ في الضباب . ولذلك يؤتى بثلاثة ميجافونات[1] وتوضع على دعامة صغيرة فوق السطح الاعلى للمركب على شكل مثلث فيصدر من احد الميجافونات صفير حاد يتجه اتجاهاً مستقيماً ، فاذا صادف شيئاً في طريقهِ انعكس الصوت عنه ، وكان الوقت الذي يستغرقهُ الصوت في اثناء انعكاسهِ ، والجهة التي ينعكس منها الصدى ، دليلين على المسافة والموقع اللذين فيهما نقطة الخطر . واعلى صوت سمعهُ العالم حتى اليوم ، هو انفجار بركان

(١) الميجافون ضرب من ابواق الكلام

« كراكاتوى » في جزائر الهند الشرقية الهولندية ، الذي حدث سنة ١٨٨٣ وسمع صداه كأنهُ قنبلة ضخمة صدمت الجو صـدمة شديدة جعلت الامواج الهوائية تؤثر في الباروجرافات [١] تأثيراً دام مشاهداً طول الزمن الذي استغرقتهُ ثلاث سياحات متوالية حول الـكرة الارضية

وقد اتيح للعلماء حديثاً اختراع اجهزة تدل على الصوت وتطبع ارتفاع الاصوات العادية بوحدات تسمى decibels فاستدلوا بها على ان هزيم محرك الطيارة اشد من ازيز مصنع المراجل واستعمل المستر ريموند ديتمارز المشرف على قسم الحيوانات الثديية والزواحف في حديقة الحيوانات في نيويورك ميكروفونات ومفخمات للصوت حساسة جداً واخذ يصغي للاصوات المنبعثة من قرية الارضة فتسنى له بجهازه الدقيق التقاط اللغط الناشيء من حركاتها في طرقاتها

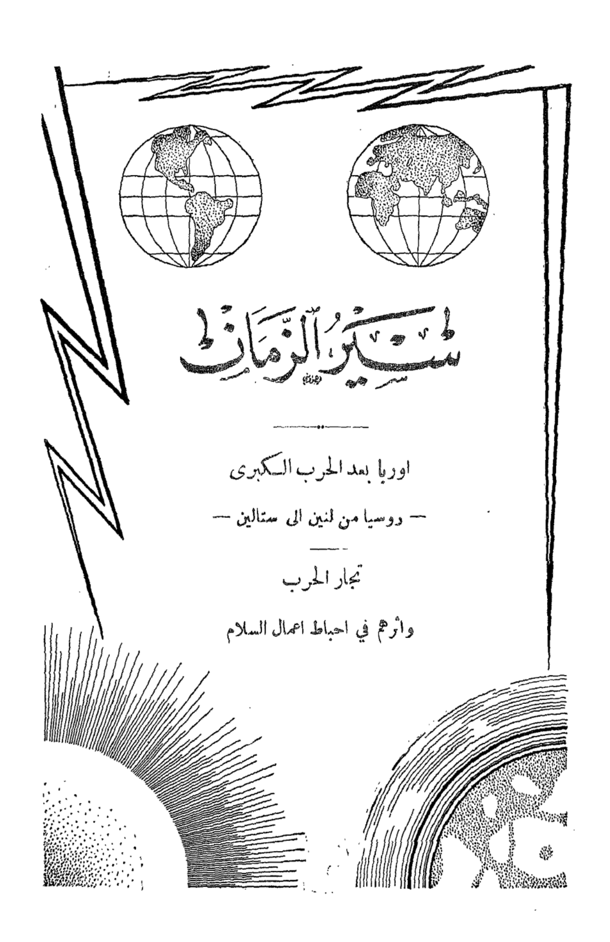
وحدث مثل ذلك في تجربة اخرى في دار الافاعي بالحديقة نفسها حيث قام المستر ديتمارز بتجربة تحرّى بها تحقق تأثير الموسيقى في الثعابين فجاء بقيثارة شرقية من صنع الهند واخذ يعزف بها خلف حظيرة الصل المصري المعروف بالناشر (حية الحواة) وهو المعروف هناك بالملك الناشر لضخامتهِ اذ يبلغ طوله ١٣ قدماً فجعل الصل يثب في الهواء عند ما سمع النغمة الاولى من نغمات القيثارة . وما لبث عند سماعه لحناً حاداً ان ترنح ترنحاً ضئيلاً وارتمد عنقه ثم سقط على الارض كأنهُ ميت وبقي على تلك الحال عدة ثوانٍ ثم استأنف الوثوب في الهواء

اما تأثير الموسيقى المسكنة والاصوات الجشة في انفعالات البشر ، فمشهورة . وقد اظهرت المباحث الحديثة مبلغ ما يحدث في الدماغ والمعدة عند ما يطرق اذني المرء صوتٌ جشٌ . ودلت الآلات الصوتية الحساسة انهُ اذا انفجر كيس من الورق قريباً من اذن امرىءٍ ، ارتفع الضغط في دماغه اربعة اضعاف الضغط الطبيعي . وثبت ايضاً في تجربة اخرى ان عمل المعدة الطبيعي يتعطل ثلثه من جراء اي صوت عنيف مزعج

اما الاصوات التي لا نستطيع سماعها على الاطلاق فقد تؤثر ايضاً تأثيراً ضاراً في اجسامنا كما ثبت ذلك في تجربة مدهشة قام بها الباحثون اذ استخدموا تياراً كهربائياً قوياً متناوباً فجعلوا طبقاً من البلور الصخري وضع في قعر باطية زجاجية كبيرة مملوءة ماء ، ينبض نبضات سريعة جداً بلغت تموجاتها ٦٠٠٠٠٠ في الثانية وحينئذٍ بدت للمشاهدين مناظر غريبة اذ اخذت الاعشاب العائمة في ذلك الماء تتفتت والسمك والضفادع [٢] تهلك كأنها اصيبت بآفة ذريعة خفية وهي متأهبة للسباحة . وكذلك شعر الناس الذين غمسوا اصابعهم في الماء نفسه بآلام حادة جعلتهم يرفعون اصابعهم حالاً . ثم جيء بخيط طويل من الزجاج فوضع طرفه بين الاصابع ووضع طرفه الآخر في الماء فاكتوى الجلد كما يكويه سلك محمى لدرجة الاحمرار

(١) الباروجراف : بارومتر تنطبع فيه انطباعاً اوتوماتيكيا تقلبات الضغط الجوي

(٢) راجع فصل « غرائب امواج الصوت » في كتاب « فتوحات العلم الحديث » صفحة ١٨٩


سير الزمان
اوربا بعد الحرب الكبرى
— روسيا من لنين الى ستالين —
تجار الحرب
واثرهم في احباط اعمال السلام

روسيا بعد القيصر[1]

من لنين الى ستالين

لم يلقَ البلاشفة عناءً كبيراً في تقلُّد ازمة السلطان . فكادت ثورتهم في نوفمبر ١٩١٧ ان تكون ثورة بلا دم . وتسنى لهم ان يصدوا شبح الجوع ، صدًّا وقتيًّا بمصادرة الطعام . وعقدوا الصلح مع المانيا في برست ليتوفسك . ولكن المشكلات المعقدة كانت لا تزال امامهم ويجب ابداع حلول لها . كيف ينشئون نظاماً شيوعيًّا في بلاد سكانها نحو ١٥٠ مليوناً موزعين في مساحة تقدر بنحو ثمانية او تسعة ملايين من الاميال المربعة ويتكلمون اثنتين وستين لغة مختلفة ؟

كان سقوط القيصر ايذاناً بنشوب حرب اهلية . ولكن لو كان اعداء لنين وصحبهِ ، محصورين في الروس المقاومين للشيوعية لهان الامر قليلاً على اصحاب النظام الجديد . غير ان الحلفاء كانوا قد عزموا ان يبذلوا ما في وسعهم لنزع السلطان من الحزب الذي حمل روسيا على عقد الصلح مع المانيا فأيدوا الروس البيض (المقاومين للبلاشفة وهؤلاء يعرفون بالروس الحمر) بالمال وفي ربيع سنة ١٩١٨ تناهى الى لنين في بتروغراد ان فرقاً من جيوش الحلفاء والروس البيض كانت تجمع قواها على حدود روسيا لمناصبة البلاشفة العداء

كان الاميرال كولشاك في الشرق يقود جيشاً من الروس البيض ويحاول ان ينشيء حكومة روسية معادية للبلاشفة في سبيريا . وكان اليابانيون يؤيدونهُ ويشدُّون ازره . بل علاوة على ذلك كان ثمة جيش تشكوسلوفاكي مؤلف من ٤٠ الف جندي يحاول الاتصال به . وكان التشكوسلوفاكيون من ابناء امبراطورية النمسا والمجر ، فرأوا في الحرب الكبرى فرصة سانحة للفوز باستقلالهم . وكان بعض رجال هذا الجيش قد فرَّ الى روسيا ليحارب في صفوف جيشها . وبعضهم كان في صفوف الجيش النمسوي فأسرهم الروس بملء ارادتهم . فلما وقع الانقلاب الروسي ، كان جميع التشكوسلوفاكيين المقيمين في روسيا ، قد نظموا فرقة كبيرة تعرف بالفرقة التشكوسلوفاكية ، وكان البلاشفة قد سمحوا باعادتهم الى بلادهم عن طريق سيبيريا وأميركا ولكنهم اشتبكوا على ما يقال بفريق من مسرَّحي الاسرى الالمان والنمسويين فصدرت الاوامر اليهم بالقاء اسلحتهم . فرفضوا وتمردوا على الاوامر فحاول الروس تفريقهم. اما الذين كانوا منهم الى شرق جبال الاورال فتمكنوا من الاجتماع والاتحاد. وأما الذين كانوا الى غرب الاورال فحاربوا حرب اليائس المستميت حتى تمكن معظمهم من الاجتماع

(١) راجع فصل الثورة « الروسية » في هذه السلسلة — مقتطف يناير سنة ١٩٣٤ صفحة ٦٥

برفاقهم . فاستبشر الاميرال كولشاك بفلول جيش مستميت يحارب بهِ الروس الحمر

وكانت الحالة في الجنوب تبعث على اليأس ، في نفس غير راسخة العزم . ولكن لنين امتاز بعزمه الحديدي ، وارادته التي لا تقهر . ذلك ان قوزاق مقاطعة الدون كانوا قد اتحدوا وانشأوا حكومة ، غرضها مقاومة اية حكومة تحاول ان تنتزع منهم الاملاك التي ما زالوا يتوارثونها من مئات السنين . وفي غرب القوقاس ، قام قائد يدعي دنيكين فجمع جيشاً وحارب به البلاشفة في شتاء سنة ١٩١٨ الى صيف ١٩١٩ وكان في قبضة يده اهم مدن روسيا الجنوبية . وكان دنيكين كالاميرال كولشاك يتناول مدداً ماليًّا وعسكريًّا من الحلفاء . ففرنسا كانت قد بعثت بفرقة من جيشها الى مدينة اودسا ، والانكليز ارسلوا طائفة من سفنهم الحربية الى باطوم وباكو

اما في غرب روسيا ، فكان الالمان قد أيدوا فريقاً من شعب اوقرانيا ، فأنشأ حكومة مقاومة للشيوعية . وفي بولونيا ، كان الجنرال بلسودسكي ، على رأس حركة قومية عنيفة بلغت في فتوحاتها مدينة كيف . وفي الشمال كان الانكليز قد انزلوا شراذم عسكرية في مدينة أركنجل ، وكانت بوارجهم رابضة في خليج فنلندا . وكان الانكليز يؤيدون في عملهم هذا قائداً يدعى يودنتش أعدَّ خطة لمهاجمة بتروغراد ، في ربيع سنة ١٩١٩ بجيش من الروس البيض والاستونيين والبريطانيين . فلما عرفت في بتروغراد أنباء هذه الخطة ، حدث فيها ذعرٌ أو ما هو من قبيل الذعر . فسكان المدينة كانوا يعلمون انهم لا يستطيعون المقاومة فجعل الشعب يستعدُّ لاستقبال الفاتحين . حتى لنين نفسهُ كان قد ضيَّع كل أمل في الفوز . وكان في نيته ان يخلي بتروغراد وينقل الحكومة الى موسكو . ولكن تروتسكي اقنعهُ بالصبر ، وبعث بشاب شيوعي من سكان جورجيا — يدعى ستالين — ليجمع جيشاً من عمال المصانع ففاز بحشد مجموعة بائسة من الرجال . وقد وصفهم الجنرال كراسنوف ، وهم مسوقون الى الدفاع عن بتروغراد فقال : «صفر الوجوه ، يعلو جباههم تقطيب ، غائرو الحدود والعيون ، ضيقو الاكتاف ، مرتدون سراويلات طويلة ، وأحذية كبيرة . . . »

ولكن جيش ستالين وتروتسكي القى الرعب في قلب يودنتش ، فتراجع قليلاً ينتظر المدد الانكليزي . ولكن المدد الانكليزي لم يصل وكذلك انقذت بتروغراد الحمراء

هنا انقلب التيار . ففي الشرق تعذَّر على كولشاك ان يجمع بين فرق التشكوسلوفاكيين وجيشه فتمكن الشيوعيون من هزيمتهم ، كل فريق منهم على حدة . وفي الجنوب تلقى ستالين من لنين امراً بانشاء فرقة من الفرسان الحمر ، فأنشأها وردَّ بها الجنرال دنيكين الى البحر ، فلم يبق من جيش دنيكين الاَّ شرذمة في القريم بقيادة الجنرال فرنجل . ولكن الجيش البولوني ظلَّ خطراً يهدد البولشفية . فردَّ الخطر في اكتوبر سنة ١٩٢٠ لما عقدت روسيا الصلح مع بولونيا ، وخرجت ظافرة ، بعد ثلاث سنوات من الحرب والنزاع

وقد يتعذر على الباحث ان يعلل ظفرها . والغالب ان الباعث الاول على ظفر البولشفيك انما

كان تفرُّق الكلمة في صفوف أعدائهم . فقد قال المؤرخ الانكليزي ستيفن غرايهم في كتابهِ عن ستالين ما معناه : كان لا بدَّ من انتصار البيض ولكن رأيهم السياسي كان موزَّعاً . فما كانوا يعلمون في سبيل من يحاربون ، أفي سبيل جمهورية دستورية او في سبيل القيصرية . . . . وزادت البلبلة في مجالسهم بوجود وكلاء انكليز وفرنسيين . وجلُّ عناية هؤلاءِ كانت موجهة الى الاعمال المالية الكبيرة لا الى روسيا . اما اعمال الارتكاب والفساد في جيوشهم فكادت تكون علنية . والواقع ان حديث المقاومة للثورة البولشفية حديث يثير الاشفاق على القائمين بها»

وكان يقابل هذا في صفوف البلاشفة اتحاد كلّ الاتحاد ، وحماسة كلّ الحماسة ، في سبيل فكرة عظيمة ، وغاية يرنون اليها ، ألا وهي روسيا الشيوعية . فعوَّضهم ذلك شيئاً مما كان يعوزهم من النظام والمؤونة والملابس . ان حكايات انتصاراتهم في هذه الحروب ، لمن أمجاد هذا الجيل من الروسيين . وقصص بعض الابطال الذين استشهدوا في معاركها ، اصبحت أشبه بالاساطير التي تروى عن أبطال القدماءِ

ثم ان جانباً كبيراً من ظفر روسيا في هذه الحروب ، يرتدُّ الى شخصية زعيم البلاشفة الحربي — ليون تروتسكي — فقد قضى تروتسكي سنوات هذه الحروب (١٩١٨ — ١٩٢٠) في القطار متنقلاً من مكان الى مكان ، ومن ميدان الى آخر . كان تحت إمرتهِ ، في ميادين الحروب المختلفة ستةعشر جيشاً روسيًّا ، وكان عليهِ ان يبقى على صلة بها جميعاً للاشراف على خططها واعمالها ، وليكون صلة بينها وبين الحكومة البلشفية الجديدة . فكنت تراه يوماً في بتروغراد وآخر في سامراءِ ففي سمولنسك ففي كيف ففي كرونستاد . ولا تنسَ ان روسيا المترامية الاطراف كانت تحارب في الشرق وفي الغرب ، في الشمال وفي الجنوب فكان تروتسكي في ناحية يجيءُ الجيشَ المحارب بضباط يتولون قيادتهِ ، وفي ناحية اخرى يوزع الاحذية والملابس ، وفي ثالثة الخرائط والخطط ، وفي رابعة يحوّل الاسرى من الروس البيض الى فرق عسكرية في الجيش الاحمر بعد ان يلهب نفوسهم بخطبهِ النارية . وفي خلال كل ذلك كان على اتصال تلفوني دائم بالعاصمة . وكذلك كان وصول قطاره الى أقصى الميادين ايذاناً باتصال الجيش في ذلك الميدان بالجيش الاحمر قاطبة في سائر الميادين . ويقال أنهُ قطع في خلال تلك السنوات مسافة لا تقل عن مائة الف ميل او قد تزيد

ولكن العامل الأكبر في فوز روسيا ، كانت شخصية لنين لأن جميع اعمال الحكومة كان مرجعها اليهِ

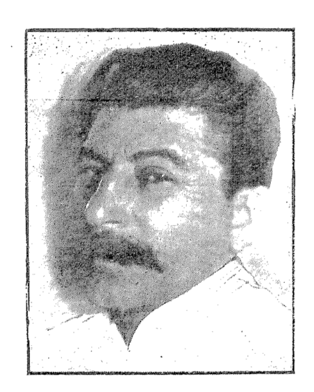
وكان انتهاءُ الحرب ، ايذاناً للزعيم لنين بمواجهة أعقد المشكلات . ففي خلال الحرب ، كان حكمهُ قائماً على اساس من دكتاتورية عسكرية شيوعية ، فكل ما تحتاج اليهِ الدولة من المؤن والذخائر ، كانت تصادره . بل كانت الحكومة تتناول المواد الخام من المنتج وتوزع عليهِ — على قدرٍ — الخبز والملابس والاحذية . فكان هذا النظام قريباً بعض القرب من المثال الذي بنيت عليهِ

جمهورية أفلاطون . ولكن الفلاحين لم يقتنعوا بأن يعملوا عملاً لا يجنون منهُ ربحاً ما . وكانوا علاوة على ذلك يلومون الحكومة ، كلما اضطرب أمرٌ من أمورهم او اختلَّ شأن من شؤون حياتهم . ففي السنتين اللتين تلتا الحرب الاهلية أصيبت روسيا بجفاف أضرَّ ضرراً بالغاً بمحصول سنة ١٩٢١ فمات ملايين من الفلاحين جوعاً . فرأى لنين ببصيرتهِ النافذة ، ان الفلاحين لا بدَّ ان يحجموا عن الزرع لمحصول السنة التالية ، الاَّ اذا أرضاهم بعض الارضاءِ . وكانت الطريقة الفردة لحملهم على الزرع ، وعدهم بجانبٍ من الربح . ولكن ذلك يعني التخلي عن بعض المبادىء الشيوعية الاساسية ، والارتداد الى أصول الحكم الذي قضى عليهِ لنين وصحبهُ

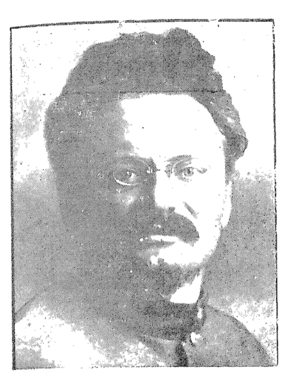
وكذلك وجد لنين نفسهُ في مأزق . أيتخلى عن مبادىء حزبهِ ، او يتمسَّك بها وهو مقتنع بأن تمسكه يعني امتناع الزرَّاع عن الزرع ؟ ومما يدلُّك على جرأة لنين انهُ فضَّل الاول ، وهو يعلم ان ذلك الى حين ، فأعلن خطة اقتصادية جديدة تعرف بهذا الاسم عند الافرنج ويرمز اليها عادة عند الانكليز بالحروف اللاتينية الثلاثة .N. E. P أي New Economic Policy وبمقتضى هذه الخطة اذن للفلاحين في ان يحتفظوا بمحصولهم ، وان يبيعوه في الاسواق بأنفسهم ، وفرض طبعاً على المحصول ضريبة تجبيها الحكومة . ولكنهُ سلَّم بمبدإ الملك الخاص ، وهو ما يتنافى مع مبادىء الشيوعية . اما الشيوعيون المستقيمو الرأي فرأوا في خطة لنين الجديدة قضاءً على الشيوعية ، وكان تروتسكي في مقدمتهم . الاَّ ان لنين كان يعلم ان هذه الخطة هي الطريقة الفردة لاجتناب الموت جوعاً . فلما كانت سنة ١٩٢٤ وقد نسي الناس الجوع وشبحهُ ، شرع لنين يتراجع رويداً رويداً على الخطة الاقتصادية الجديدة ، واخذ ينشىء تدريجاً ، الشيوعية الخالصة من شوائب الملك الخاص . فشجع الفلاحين على ادماج حقولهم الصغيرة في حقول كبيرة ، يكون ملكها مشتركاً بينهم . وأغراهم بعد ذلك بتوزيع الارباح المشتركة في المزارع المندمجة على أصحابها . أما في المدن فكانت الدولة مسيطرة على المصانع ، لان أصحابها ما كانوا يستطيعون انشاءها او العمل فيها الاَّ باعتمادات تفتح لهم في البنوك . والبنوك كانت ملك الدولة . وكذلك تحوَّلت القوى الاقتصادية في روسيا رويداً رويداً الى الخضوع لسيطرة الحكومة، فأصبح الدولة الروسية دولة اشتراكية ، نظراً وفعلاً

وبعد ما فاز لنين بحلّ المشكلتين الحربية والاقتصادية ، واجه المشكلة السياسية . هنا أمة عدد أبنائها نحو ١٥٠ مليوناً يتكلمون نحو ٦٢ لغة ، فكيف ينشىء منها دولة اشتراكية مندمجة بالمعنى السياسي ! فكان ردُّ لنين : حكومات سوفيتية (مجالس عمال) مستقلة استقلالاً ذاتيًّا ، وللحزب الشيوعي الروسي ، الاشراف والسيطرة عليها

فعهد في كل قرية وكل مدينة ، الى مجلس سوفيتي في الاشراف على حكومتها المحلية . وفرض على كل مجلس سوفيتي في القرى والمدن ان يبعث بممثليهِ الى المجلس السوفيتي الخاص بالمقاطعة ، ومجالس المقاطعات تبعث بمندوبيها الى مجلس الولايات ، ومجالس الولايات تبعث بمندوبيها الى مجلس



تروتسكي



ستالين

لتفينوف وزير خارجية روسيا (يسار القارىء) والسنيور موسوليني

السوفيت الأعلى للجمهورية. وقسّم البلاد الى ست جمهوريات — هي جمهورية روسيا وجمهورية روسيا البيضاء، وجمهورية اوقرانيا، وجمهورية عبر القوقاس (وهي مؤلفة من جورجيا وارمينيا وازيفيان) وجمهورية أزبك وجمهورية التركمان. من هذه الجمهوريات الست ينتخب اتحاد الجمهوريات السوفيتية، وهو ما يعرف اليوم عادة باسم روسيا عند ما نقول مثلاً ان لتفينوف وزير خارجية روسيا — ويرمز لروسيا عادة بالحروف التالية U. S. S. R. فكل جمهورية من هذه الجمهوريات تبعث بممثليها الى مؤتمر اتحاد السوفيت الاعلى، والمؤتمر ينتخب لجنة لتصريف شؤون الاتحاد، تعرف باللجنة المركزية للقومسارين. ولتفينوف في هذه اللجنة قومسير الشؤون الخارجية

ولولا الحزب الشيوعي وسيطرته على المجالس السوفيتية من ادناها الى اعلاها، لتفرق شملها ولغلبت عليها الثرثرة. والحزب الشيوعي فريق مختار من الرجال والنساء قد لا يزيد عدد اعضائه على المليون كثيراً. وهم يتصفون بالحماسة لنظامهم الجديد وبمعرفة مبادئه وأساليبه، وخاضعون لنظام دقيق ازمته في ايدي لجنة الحزب المركزية. وكذلك يتاح للجنة الحزب المركزية ان تسيطر على اعمال كل مجلس سوفيتي في روسيا فتصدر المجالس قرارات في الشؤون المختلفة بحسب التعليمات الواردة اليها من هذه اللجنة. ولنين نفسه لم يكن رئيساً لاتحاد جمهوريات السوفيت بل سكرتيراً عامّاً للحزب الشيوعي، وهذا المنصب جعله دكتاتور روسيا، وقد خلفهُ ستالين فيه بعد موته

تمّ وضع دستور اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية في سنة ١٩٢٣ ولكن الجهد الذي بذلهُ لنين في معالجة مشكلات روسيا الكبرى من ناحية الفلسفة الشيوعية، كان فوق طاقة الجسم البشري وكان في سنة ١٩٢٢ قد اصيب بشلل موضعي فلما أتم وضع الدستور الجديد، كان جسمه قد اقوى فتوفي في يناير سنة ١٩٢٤ ولكن روسيا كادت لا تصدق ان لنين قد مات. كان قد مضى عليه ست سنوات وهو حاكمها المطلق. بل هو الذي انشأها على المثال الجديد، وأفرغها في هذا القالب الفذ. انقذها من القيصر ومن الدول المركزية ومن دول الحلفاء، ومن الموت جوعاً ومن التفرقة والانحلال السياسي. كان الروسيون يصغون الى خطبه باجلال ويقرأون كتاباته باحترام. كان لنين بطل جيل بأسره من الروس. فكيف يموت هذا الرجل؟!

***

نظر شيوعيو روسيا بعين الاحتقار والامتهان الى الدول الاوربية وهي تحاول ان ترمّ حضارتها بعد ما كادت الحرب الكبرى ان تأتي عليها. فالنزعة الوطنية التي اكتسحت اوربا الوسطى لم تكن في رأيهم الا عذراً لظلم الاقليات وتوطئة لحروب وطنية مقبلة. والنزعة الامبريالستية التي سادت بريطانيا وفرنسا كانت عندهم، وسيلة للاستبداد بالشعوب المتأخرة وتمهيداً لحروب امبريالستية قادمة. والنظام الاقتصادي القائم على المزاحمة والمنافسة لم يكن الا اسلوباً من اساليب تجميع الثروة في ايدي الطبقة العليا من المجتمع الاوربي والاستبداد بالعمال. اما في اتحاد جمهوريات روسيا

السوفيتية فكانت جميع القوميات والطبقات متساوية في الحقوق . فليس ثمة طبقة تستبد بطبقة لان جميع الروس كانوا طبقة واحدة ، ذلك ان جميع الروس كانوا عمالاً

ولكن هذه النظرة لم تعن ان الشيوعيين حلوا جميع مشكلاتهم . بل الواقع انهم كانوا في مطلع الكفاح لحلها . وكان لنين قد عين الاغراض التي يتجه اليها الحزب الشيوعي الروسي ، وخص بالذكر منها غرضين : اما الاول فتنظيم اتحاد جمهوريات روسيا السوفيتية ، حتى يرتفع مستوى المعيشة فينعم كل واحد من السكان البالغين ١٦٠ مليوناً ، بالرغد والرخاء . وأما الآخر فهو نشر التعاليم الشيوعية حتى تعم الثورة الشيوعية انحاء العالم

فايُّ غرض من هذين الغرضين يقدّم على الآخر ؟ هذا هو السؤال على قول هملت . فكان رأي تروتسكي ، ان الشيوعية ، دولية في نزعتها ، واذاً فالواجب على الشيوعيين الروس ان يبذلوا ما في وسعهم لاحداث الثورة العالمية . وكان شعاره شعار الاشتراكيين القديم : « يا عمال العالم اتحدوا » . غير ان لنين كان يعتقد ان الغرض المقدَّم ، انما هو تنظيم روسيا على اساس اشتراكي . فاذا تمَّ ذلك امكن الاهتمام بالغرض الآخر واصبح تحقيقه اهون منالاً . فاذا حاول الروس احداث الثورة العالمية قبل تنظيم بلادهم ، لم يكن من شأن الشيوعية الاّ احداث فوضى عالمية . وكذلك قرر لنين ان ينصرف عن السعي لاحداث الثورة العالمية ، الى العناية بتحقيق سياستهِ الاقتصادية الجديدة فأعاد الى الحياة الاقتصادية الروسية ، شيئاً من نزعة المنافسة الرأسمالية في الصناعة والتجارة ، لئلاَّ ينفر منهُ جماعات الفلاحين المحافظين

فلما توفي لنين في سنة ١٩٢٤ اعيد النظر في السؤال نفسهِ : اتقدم الثورة العالمية على تنظيم روسيا الاقتصادي او تسير روسيا بحسب الخطة التي وضعها لنين قبيل وفاته ؟ وكان المرجح ان يخلف تروتسكي زعيمه لنين . ولكن زعماء الحزب الشيوعي الروسي ، كانوا قد اخذوا يشكون في صلاح تروتسكي لمنصب الزعيم ، لشدة معارضته في خطة لنين هذه ، ولقوة ايمانهم بها . وكان كمنيف وزينونيف من اتباع لنين وأيدهم في ذلك سكرتير لنين المعروف باسم ستالين . فتمكن هؤلاء الثلاثة من اخراج تروتسكي من الحظيرة المختارة في الحزب الشيوعي . وتسلموا هم مقاليد الامور . ولكن حكم الثلاثة لم يدم طويلاً . فقد كان كمنيف وزينوفيف من رجال الثورة والشغب المتمرسين بأساليبهما . ولكن الحزب الشيوعي حينئذ كان لا يحتاج الى امثالهم من الرجال ، بل كان في حاجة اشد الى رجال يحسنون الادارة والتنظيم . فما لبث ستالين حتى اسقطهم من مكانتهم وأصبح هو وحده يحكم الحزب الشيوعي ، بل وروسيا كما فعل لنين حكماً دكتاتورياً

كان ستالين ، مجهولاً عند سواد الروسيين ، عند ما تسلم مقاليد الحكم ، بل وكان من قبل يعرف في صفوف الحزب الشيوعي باسم « سكرتير لنين الصامت » . ولكنه في الواقع كان قد بذل احسن سني حياته ، من مطلع القرن العشرين ، في سبيل الشيوعية

وهو ليس روسي المولد . بل مسقط رأسه ولاية جورجيا في القوقاس . ولد سنة ١٨٧٩ من صانع احذية يدعى دوجاشفيلي ، وكل جل رجاء والده ، ان يصبح ابنه قسيساً . ولكنهُ قبل ان يدرك العشرين من العمر ، ادركه كتاب ماركس فقرأه . وفي سنة ١٩٠٣ التقى بلنين فتم اعتناقه المذهب الشيوعي . وبدلاً من ان يصبح قسيساً مسيحيًّا ، اصبح مبشراً بالشيوعية . فمضت عليهِ سنوات ، وهو يعمل في هذه السبيل في مدينة تفليس ، في صمت وهدوءٍ . وقبض عليهِ ما لا يقل عن خمس عشر مرة فنفي او سجن . وكان في كل مرة يفر من السجن او من المنفى . فاطلق عليه لنين لقب « الرجل الصلب » — ومن هنا اللقب الذي اشتهر به اي « ستالين » . فلما كان شهر يونيو سنة ١٩١٧ سنحت له فرصة للظهور . وكان الحزب الشيوعي في حاجة ماسة الى المال . فعلم ستالين ان مبلغاً كبيراً من المال — مقداره ٢٤٠ الف روبل — على وشك ان ينقل الى بنك في تفليس . وان اوراق النقد سوف تكون في كيس يحمله الصراف وتحرس مركبته سيارة بوليس وزمرة من فرسان القوزاق . فلم تكد العربة تخرج من المحطة يحيط بها الحرس ، حتى انفجرت قنبلة تحتها ، فانقذف الصراف من العربة ، واطلقت الخيل العنان ، واضطرب الحرس واختلط الحابل بالنابل ، وفاز رجال ستالين بالمال

عند ذلك اصبح ستالين محل ثقة الزعيم لنين . وهو من ناحيتهِ ايّد زعيمه بوجوب الاعتماد على العنف في اغتصاب مقاليد الحكم . وسار وراءه في انقلاب اكتوبر سنة ١٩١٧ . وفي خلال الحرب الاهلية كان لنين يعهد اليهِ في ادق الامور . ولما هدّدت جنود الروس البيض مدينة تسارِتْسِن ، نظم ستالين شؤون الدفاع عنها . فصمدت في وجوه المحاصرين . وظل فيها يثير روح الحماسة ويتولى اسباب النظام حتى استدعاه تروتسكي غيرة منه على ما يقال . وقد كان الدفاع عن هذه المدينة من عجائب افعال البولشفيك في الحرب الاهلية . لذلك اطلق عليها بعد انتهاءِ الحرب اسم ستالنغراد نسبة الى ستالين ، منظم الدفاع عنها . وفي سنة ١٩١٩ بعث بستالين لمقاومة الاميرال كولشاك في سيبيريا . فلما هدد يودنتش مدينة بتروغراد استدعاه لنين الى مركز القيادة العامة . ثم لما هاجم الجنرال دنيكين المنطقة الصناعية في حوض الدونتز ، ارسل ستالين للدفاع عنها ، فنظم فرقة من الفرسان الحمر ، واكتشف جنديًّا عبقريًّا لقيادتها يدعى بودني ، فطرد دنيكين من تلك المقاطعة ولكنهُ استشهد بعيد ذلك فأصبح اسمهُ علماً من أعلام الوطنية الجديدة ونسج حولهُ خرافات سداها ولحمتها أحاديث البطولة والشجاعة والاستشهاد

وفي سنة ١٩٢٢ خلا منصب السكرتير للحزب الشيوعي فعرضهُ لنين على تروتسكي فرفضهُ ولكن ستالين قبلهُ لانهُ ادرك ان هذا المنصب يقرّبهُ من لنين السكرتير العام ، ويمكنهُ من القبض على اعنة الحكم متى سقطت من يدي الزعيم . وقد كان ما توقع

تجار الحرب

اصحاب مصانع الاسلحة خطر على السلام

منذ ما وضعت الحرب اوزارها وانظار الشعوب ترنو الى ما وعدهم بهِ رجال السياسة من ان الغرض من الحرب الكبرى انما هو القضاء على الحروب او بكلام الرئيس ولسن الغرض منها « ضمان سلامة العالم للحياة الدمقراطية» . لذلك توالت المحادثات في موضوع نزع السلاح وخفضه وتحديده من مؤتمر وشنطن البحري (سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢) الى مؤتمر نزع السلاح الذي اصبح في عرف الناس جميعاً مؤتمراً للتسلح . في خلال هذه السنين ، اذ كان الوزراء ودعاة السلام يتحدثون في نزع السلاح في عواصم الدنيا الكبرى ، في وشنطن ولندن وباريس وروما وطوكيو ، كانت مصانع السلاح ، تصنع المدافع والدبابات والطيارات والدروع والقنابل والغازات الخانقة والكمامات الواقية منها ، بل ان اصحاب هذه المصانع ، كثيراً ما روَّجوا اشاعات الحروب ، ونشروا الدعايات القائمة على أنباء مختلقة في صحف اشتروها بالمال ، لكي يثيروا المخاوف في صدور الناس ، ويحملوا الحكومات المتنافسة على شراء الاسلحة والذخائر واعدادها لليوم العصيب . هؤلاء هم تجار الحرب، الذين يثرون من تأجيج نيرانها ، فلا يتورعون عن أية وسيلة في سبيل تأجيجها

***

ولعلَّ المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح وهو الداعية الجوالة للسلام في عواصم اوربا، من أدرى الناس بما يصنعهُ هؤلاء التجار . فمن عهد قريب،اذ كان هندرسن يعد حقائبه ليسافر الى باريس فالى جنيف ، ليسعى مساعيه الصادقة في سبيل نزع السلاح ، والتوفيق بين وجهات النظر المختلفة ، وقف اثنان من مواطنيه في جماعة من حملة الاسهم في شركتيهما ، فألقيا خطبتين نزلتا كصاعقتين على رأس هندرسن فثبطتا من عزمهِ وفلَّتا من نشاطهِ ، لانهُ ادرك حينئذٍ أن قوى عظيمة تعمل من وراء ستار على احباط المساعي العظيمة التي يبذلها . هذان الرجلان هما السر روبرت هدفيلدز رئيس شركة هدفيلدز لمتد والسر هربرت لورنس رئيس مجلس ادارة شركة فكرز وكلتا الشركتين من اكبر شركات صنع السلاح في بريطانيا

فالسر روبرت هيدفلدز، قال في التقرير الذي قدمهُ للمساهمين عن الارباح التي ينتظر توزيعها :

« ولحسن الحظ اتجهت الاحوال اتجاهاً طيباً بعد وقوع الازمة العالمية، واننا لشاكرون للنعم التي حبينا بها . بل ان شكرنا لأعظم ، للنعم التي نتوقعها » ثم قال : —

« من عهد قريب صنعت شركة هدفيلدز قنبلة قطرها ١٥ بوصة ووزنها طن ..... فلما اطلقت على درع معينة اخترقتها مزيلة في اختراقها ما وزنه ٧٣٥ رطلاً من الصلب القاسي ، وظلت بعد

اختراقها للدرع حائزة لسرعة مكنتها من الانطلاق مسافة تسعة اميال . هذه القنبلة تضع في ايدي المهاجمين قوة عظيمة لا توصف » . اما زميله السر هربرت لورنس فقد اعلن في خطبته ان الشركة ربحت في السنة السابقة ما يزيد على نصف مليون من الجنيهات ، وان مجلس الادارة ينوي ان يوزع ارباحاً قدرها ٤ في المائة . ثم قال ان من بواعث سروره ورضاه ، ان الطلبات على الاسلحة من شركة فكرز التي يرأس مجلس ادارتها قد زادت زيادة كبيرة في تلك السنة

﴿ سوق السلاح ﴾ وقد اتسعت سوق الاسلحة والذخائر الحربية اتساعاً عظيماً ، بعد التقدم العظيم الذي طرأ على ادوات الحرب وأساليبها من الوجهة الصناعية والعلمية . فالجندي الكامل العدة في العصر الحديث ، ليس الاّ معملاً علميًّا متحركاً ، ورغماً عن خطب رجال السياسة ، في سنة ١٩١٩ على اثر انتهاء الحرب ، وتسليمهم جميعاً بان الاحتفاظ بالقوى المسلحة في المستوى الذي كانت فيه لا بدّ ان يسفر عن نشوب حرب اخرى ، نرى جيوش اليوم وهي اوفر عدة ، وأشد بطشاً من جيوش سنة ١٩١٩ . ومع ان عدد الرجال في الجيوش ما يزال عنصراً خطيراً في تنظيم كل جيش ، الاّ اننا نرى ان التقدم العلمي والصناعي في صناعة الاسلحة الهجومية والدفاعية قد حوّل مركز الثقل في تنظيم الجيوش من الرجال الى الاسلحة . ويقدر ما ينفق على جيوش الامم وأساطيلها الجوية والبحرية كل سنة بنحو الف مليون جنيه . من هذا المبلغ ١٥ في المائة من ميزانيات الجيوش و ٥٠ في المائة من ميزانيات الأساطيل، ينفق على الاسلحة والذخائر المختلفة

هذه الجيوش المجهزة باحدث وسائل الحرب ، هي الميدان الذي يتجه اليه أصحاب مصانع السلاح لترويج بضائعهم ومصنوعاتهم . واليك التقدير التقريبي التالي للجيوش الاوربية

	عدد الرجال		عدد الرجال
فرنسا	٧١٧٧٥٠	يوجوسلافيا	٢١١٥٩٢
بلجيكا	٨٠٣٨٤	رومانيا	٢٤٠٥٠١
بولونيا	٢٦٥٩٨٠	ايطاليا	٤١٤٨٥٩
تشكوسلوفاكيا	١٥١٤٣٥	روسيا	٥٦٢٠٠٠

أما المانيا فجيشها النظامي بحسب معاهدة فرساي يبلغ مائة الف جندي، ومن وراء هؤلاء الآن مليونان ونصف مليون من فرق الهجوم وفريق كبير منهم بحسب اعتراف قوّادهم قد اتخذ رويداً رويداً شكلاً عسكريًّا . وهذه الارقام لا تشتمل على نحو ٣٥ مليون جندي من الجيوش الاحتياطية المدربة في بلدان اوربا المختلفة التي تقتضي اعداد المعدات لها وخزنها حتى يمكن استعمالها يوم تنشب الحرب . والمعدات تتباين من المدافع والقنابل الى الرشاشات والدبابات الى قنابل الغاز والكمامات الواقية منها . وهذه جميعها تصنعها مصانع الاسلحة وتبيعها للدول

﴿ النفقات البحرية ﴾ أما النفقات البحرية ، في الدول البحرية الكبرى ، فعظيمة جداً .

فنفقات بريطانيا البحرية قد زادت من ٥١ مليوناً من الجنيهات في سنة ١٩٣١ الى ٥٥ مليوناً ونصف مليون في سنة ١٩٣٤ . وميزانية اليابان البحرية قد زادت من ٢٢٧ مليون ين في سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ الى نحو ٤٨٨ مليون في سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥ وينتظر ان تبلغ ٦٠٠ مليون ين في سنة ١٩٣٦ أما نفقات الولايات المتحدة البحرية فقد قدرت بنحو ٦٧ مليون جنيه لسنة ١٩٣٤ وبنحو ٩٥ مليون جنيه لسنة ١٩٣٥ ومائة مليون جنيه لسنة ١٩٣٦

ولما كانت هـذه الاموال تنفق على ما يقال في سبيل الدفاع ، وحماية مصالح الدول التي تنفقها، فمن المعقول ان تتوقع من الحكومات ان يكون لها مصانعها الخاصة لصنع الاسلحة المختلفة ، كما تحتفظ كل دولة بحقها في ضرب النقود . ولكن الواقع ان الحكومات المختلفة ، تعتمد في الغالب على مصانع الاسلحة التابعة لشركات خاصة، وتسمح لهذه الشركات في ان تبحث عن أسواق لمصنوعاتها ، عند ما تستطيع ان تنتج منها علاوة على ما تحتاج اليه حكومتها ، حتى تبقى هذه المصانع مستعدَّة لتجهيز حكومة بلادها بما تحتاج اليه عند نشوب الحرب . وهنا نجد مفارقة عجيبة في صناعة السلاح . البوارج ، والطيارات ، والدبابات ، والرشاشات ، والقذائف ، والقنابل ، والغازات — جميع هذه الاسلحة رمز للنزعة القومية الشديدة . ولكن أصحاب المعامل التي تصنعها لا يؤمنون الاَّ بالنزعة الدولية ، لأنهم يريدون ان يبيعوا أسلحتهم الى اكبر عدد من الدول ، سواء أكانت صديقة لبلادهم ام خصماً لها . ومع ذلك نجد انَّ لاصحاب هذه المصانع كلمة خفية ، ولكنها كلمة مسموعة، في المجامع التي تقرَّر فيها الخطط العليا التي تجري عليها دولهم في السياسة العالمية

﴿ مصانع الاسلحة الشهيرة ﴾ ليست أسماء هذه المصانع مشهورة شهرة وزراء الخارجية الذين يلقون الخطب الرنانة في وجوب خفض السلاح والتعاون لمنع الحرب والتضافر على رفع مستوى الحياة الانسانية بتعزيز السلام وتوفير اسباب العمل لبنيها ، ولكن اثر هـذه الاسماء قد لا يقل عن اثر وزراء الخارجية اصحاب الخطب الرنانة !

والواقع ان عدد المصانع المسيطرة على تجارة الاسلحة قليل قد لا يعدو اصابع اليد الواحدة وفي مقدمتها جميعاً شركة فكرز البريطانية ، ولهذه الشركة فروع كثيرة واغلب ما تخرجه من الاسلحة تبيعه للحكومة البريطانية ولكنها لا تمتنع عن تلبية طلبات الحكومات الاجنبية وهي مثل جميع مصانع الاسلحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحكومة البريطانية ورئيس مجلس ادارتها الآن كان ضابطاً كبيراً من ضباط الجيش البريطاني . ومن الشركات المتصلة بها او التي من قبيلها شركة «أمبريال كميكلز » التي تخصصت في ادوات الحرب الكيمائية ، علاوة على صنع الاسمدة

أما في فرنسا،فثمة اتحاد لصناع الاسلحة يعرف باسم «كوميته ده فورج» ورئيس مجلس ادارته رجل يدعى فرنسوي وندل وهو من اصحاب النفوذ العظيم في دوائر السياسة الفرنسية . وأهم شركة داخلة في هذا الاتحاد شركة «شنيدر كروزو» التي تبيع اسلحتها لحكومة فرنسا وسائر بلدان العالم

وقد قضت معاهدة فرساي ان تفكك المانيا معامل الاسلحة فيها كمعامل كروب وسيمنز . ولكن يقال الآن — وقد اعترفت الحكومة الالمانية بذلك ضمناً في مذكرتها بتاريخ (١٦ ابريل سنة ١٩٣٤ للحكومة البريطانية) — بأنها ماضية في التسلح . والاحصائيات التجارية تدل على ان المانيا تصدر أسلحة وذخائر ، وتستورد المعادن المختلفة وبعض الادوات اللازمة في صناعة الاسلحة

وأهم معمل للاسلحة في اوربا الوسطى قائم في تشكوسلوفاكيا ويعرف باسم معمل سكودا وله فروع مختلفة في مدن مختلفة في رومانيا وبولونيا ، وهو خاضع لمعمل شنيدر كروزو الفرنسي . وهذه الظاهرة اي ظاهرة اتحاد معامل الاسلحة الدولية من اغرب الظاهرات في هذه الصناعة التي يقال فيها ان غرضها الأول انما هو اعداد معدات الدفاع عن البلاد التي يكون المعمل فيها ، بل لقد قيل ان لشركة شنيدر كروزو حصة كبيرة في اتحاد الماني لصنع السلاح

هذا في اوربا — فكرز وشنيدر كروزو وسكودا في المقدمة — اما في الشرق الاقصى فصانع متسوي في اليابان اهمها : وهذه المصانع مشتركة او متحدة بمصانع فكرز الانجليزية . ومع ان في ايطاليا وبلجيكا مصانع للاسلحة، الاّ أنها لا تبلغ في مقامها الدولي مقام المصانع التي ذكرناها

اما في الولايات المتحدة الاميركية فلست تجد كذلك شركات ضخمة لصنع الاسلحة من مقام فكرز ولكن ٩٥ في المائة من معدات الجيش الاميركي تصنع في مصانع شركة بيت لحم (اي مفارقة في اطلاق اسم بيت لحم حيث ولد عيسى على شركة لصنع السلاح !) وشركة دوبون . وهذه الاخيرة اختصت بالاسلحة الكيمائية

﴿ المصانع والعداوات القومية ﴾ من يطلع على البرقيات التي تنشرها الصحف العربية كل يوم ، يدرك مبلغ العنف والحدة في العداوات القومية في اوربا ، ولكن اصحاب مصانع الاساحة لا يأبهون لذلك كثيراً ، فانهم يبيعون اصدقاء بلادهم كما يبيعون اعداءها . وثمة في تجارة الاسلحة شيء لا تراه في غيرها ، فزيادة الطلب على احدى الشركات ، لا يعني ان الشركات الاخرى تحرم منه ، بل ان الزيادة تشمل جميع الشركات على السواء ، بل تكون باعثاً على توسيع نطاق الطلب لان الدولة الواحدة التي توصي بصنع قدر من الاسلحة في احد المعامل ، لا تلبث ان ترى مزاحمتها وقد اوصت على قدر اكبر منها في معمل آخر . واذا استنبطت شركة من الشركات وسيلة حربية جديدة تسرع جميع الامم الى شرائها لكي لا تحرم من ميزاتها ، فلا تلبث ان تستنبط شركة اخرى ، وسيلة جديدة لمقاومتها، فتقبل جميع الدول التي اشترت الاسلحة الاولى على شراء الاسلحة الجديدة . وهذه الحقيقة في تجارة الاسلحة ، افضت الى التعاون بين شركات الاسلحة في مختلف الاقطار ، ومن هذا التعاون تنشأ المخاطر التي تهدد السلام . ذلك ان مصانع السلاح يهمها ، ان تنشىء جوًّا من الريبة والخوف يحمل الدول على التسلح

وكانت جمعية الامم قد عينت لجنة سنة ١٩٢١ للبحث في هذا الموضوع فألحت على صنّاع

الاسلحة باللوم الشديد ، وقالت ان ممثليها عمدوا الى خلق إشاعات الحرب ، ورشوا موظفي الحكومات، وأذاعوا بيانات مختلقة عن الاستعداد البحري والبري والجوي في دول مختلفة ، وحاولوا التأثير في الرأي العام بواسطة الصحف — كل ذلك لكي يحملوا الدول على التنافس في التسلح لان هذا التنافس سبيلهم الى الثروة والسلطان . ولذلك يقول السر روبرت هد فيلدز ، ان شركته يجب ان تكون عظيمة الشكر لما حبيت به من النعم . والنعم في نظره طبعاً ، هي زيادة الطلب على المدافع والبنادق والقنابل وسائر الاسلحة التي تصنعها شركته

﴿ السلام ومندوبو مصانع السلاح ﴾ نشرت احدى الصحف في اوائل الصيف انهُ بينما كان جو الاستعداد لاستئناف مؤتمر نزع السلاح رائقاً راجت اشاعة ، أخذت جنيف فجأة ، مؤداها ان الدول قررت فض المؤتمر من دون ان تحاول الخروج من المأزق الذي بلغتهُ المفاوضات . فاضطربت جنيف لذلك ، واضطربت معها الدوائر الدولية العالمية ولكن الدول اسرعت الى تكذيب الاشاعة وكان المسيو بارتو وزير خارجية فرنسا من أصرحهم في تكذيبها

وليست هذه الاشاعة بالاشاعة الاولى التي تقلق مؤتمراً لنزع السلاح أو خفضهِ . ففي سنة ١٩٢٧ لما اجتمع المؤتمر البحري في جنيف استأجرت مصانع السلاح الاميركية رجلاً يدعى شيرر Scherrae ليذهب الى جنيف مراقباً بالنيابة عنها ، والواقع ان عمله كان محاولة احباط المؤتمر بكل ما يستطيعهُ من الوسائل ، كالتأثير في بعض المندوبين الذين يستطيع الاتصال بهم ، وخلق اشاعات تؤثر في الرأي العام الاميركي من جهة ، وفي الرأي العام الدولي من جهة اخرى . ولولا اختلاف شيرر بعدئذٍ مع الشركات التي ندبتهُ على قيمة الاتعاب التي طلبها لما فضحت المسألة . وليست المصانع الاميركية الوحدة بين مصانع السلاح الكبرى التي تستخدم امثال شيرر ، فقد كتب المستر فيليب نويل بايكر ، سكرتير رئيس مؤتمر نزع السلاح في هذا الصدد ما مؤداه : —

« قضيت معظم ايامي في خلال الستة الشهور الاولى من سنة ١٩٣٢ في أروقة مؤتمر نزع السلاح وما مضى علينا اسبوع واحد في تلك الفترة ، حتى سمعنا باشاعة تتناقلها الالسن ، مؤداها ان الدول قد قررت حل المؤتمر او تأجيله ، وهؤلاء المروجون بارعون كل البراعة في خلق الاشاعات لانهم يحسنون ربطها بتطور المفاوضات ، حتى يسبغوا عليها ظلاً من الحقيقة . وكانت كل اشاعة منها ، تذاع وفي عبارات اذاعتها ، اقوال خفية تشير الى ان ناقليها يملكون من الاخبار السرية ما لاتتسنى معرفتهُ لجميع الناس . فكان الناس — والمندوبون في المؤتمر ناس — يعتقدون حقاً ، ان الوقت لم يحن بعد للبحث في نقص السلاح او خفضهِ دع عنك نزعه ، وكانت هذه الاشاعات في الغالب على اقواها وا كثرها ، لما كانت المفاوضات سائرة سيراً حسناً

« كنت أسمع هذه الاشاعات في أروقة المجلس ، وأنا عالم حق العلم — (أليس هو سكرتير رئيس المؤتمر) — ان الدول لم تكن تفكر في حل المؤتمر أو تأجيله بوجه من الوجوه، فخرجت الى النتيجة التالية

وهي ان هذه الاشاعات تختلَق اختلاقاً ولست أملك الدليل على رأيي هذا ، وقد لا أملكه حتى يطلع علينا حادث آخر من قبيل حادث شيرر ومصانع السلاح الاميركية. ولكنني اعتقدت حينئذ وما ازال أعتقد الآن ، ان لمصانع السلاح وكلاء يستأجرون خاصة لاضعاف الروح المعنوية في المؤتمر ، بخلق الاشاعات على المنوال المتقدم ، وايهام الناس والصحافة والمندوبين أنفسهم بأن نجاح المؤتمر متعذر

«بل انني أعرف أناساً في مقامات رسمية يذهبون الى ابعد من هذا فهم يعتقدن ان مغامرة اليابان في منشوريا وحربها مع الصين في سنة ١٩٣١ أقرّت في دوائر اليابان العسكرية بعد اتفاقها مع صناع الاسلحة في أوربا وان تاريخ تلك المغامرة العسكرية رتب خصيصاً حتى يجيء في وقت تكون فيه جمعية الامم قد صدمت صدمة عنيفة عند اجتماع مؤتمر نزع السلاح . ولا أريد ان احمل تبعة هذا الاعتقاد ، وانما هنالك من الحقائق ما يحول دون اهماله كل الاهمال . فان عداوة العسكريين اليابانيين ، وصناع الاسلحة الاوربيين للمؤتمر تشير من وجوه مختلفة الى هذه العلاقة وتوضحها . فعندنا اولاً الطلبات الكثيرة للسلاح التي طلبتها اليابان من مصانع السلاح الاوربية، وثانياً السهولة التي دبر بها المال لتسديد ثمن هذه الطلبات بعقد قروض اوربية خاصة لها ، وثالثاً التأييد الذي تناله اليابان في الصحف المتصلة بمصانع السلاح حتى في البلدان التي تطلب صحافتها تأييد جمعية الامم وتعزيزها — ان الادلة متوافرة على ان ذلك الاعتقاد الغريب له ما يستند اليه »

بل هنالك ماهو أغرب من هذه الحكاية . زاد انتاج مصانع السلاح ، زيادة كبيرة بعد قيام هتلر في المانيا ، وتقلده لأزمة الحكم فيها . وليس هذا بالامر الغريب فهتلر قد نفخ في أمته روح الكرامة الغاضبة ، ونزوعاً الى المساواة في سبيل تلك الكرامة . فالناس في اوربا يحسون قلقاً ، مهد السبيل الى المضيّ في التسلح . وانما يهمنا في هذا المقام ، أن نذكر ، ان مديري شركة سكودا — وهو مصنع سلاح كبير في تشكوسلوفاكيا متصل بمصنع شنيدر كروزو بفرنسا — اكتتبوا بمبالغ من المال لتأييد حركة هتلر قبل تقلده الحكم ، مع ان هتلر كان حينئذ صريحاً في أنه يدعو الى تنقيح المعاهدات التي تدافع عنها فرنسا وتشكوسلوفاكيا بكل قواهما . والسر في موقف سكودا وشنيدر ، ان قيام هتلر يبعث القلق في أوربا على سلامة كل أمة فتعمد الى التسلُّح للدفاع عن كيانها . وهذا هو سبيل الربح لهذين المعملين . بل ان ملكي صناعة الحديد والصلب في المانيا — أي تسن Thyssen وكروب Kruppe — اكتتبا كذلك بمبالغ لتأييد الهر هتلر قبل تقلده لمنصب المستشار ، مع أن هتلر كان لا يخفي حينئذٍ أنه ينوي أن يجعل جميع الصناعات ملكاً للامة . أي أنه كان ينوي أن يجرد تسن وكروب من مصنعيهما

واذا أنت طالعت الصحافة الاوربية ، وهذه الحقائق الاساسية عالقة بذهنك ، تبينت كثيراً من الفضائح التي قد تند عنك في القراءة العادية . فانت تقرأ مثلاً في مجلة «هدوي» الانكليزية عدد مايو سنة ١٩٣٤ العبارة التالية : — « والواقع أن واحداً على الاقل من أصحاب الصحف التي تعادي جمعية

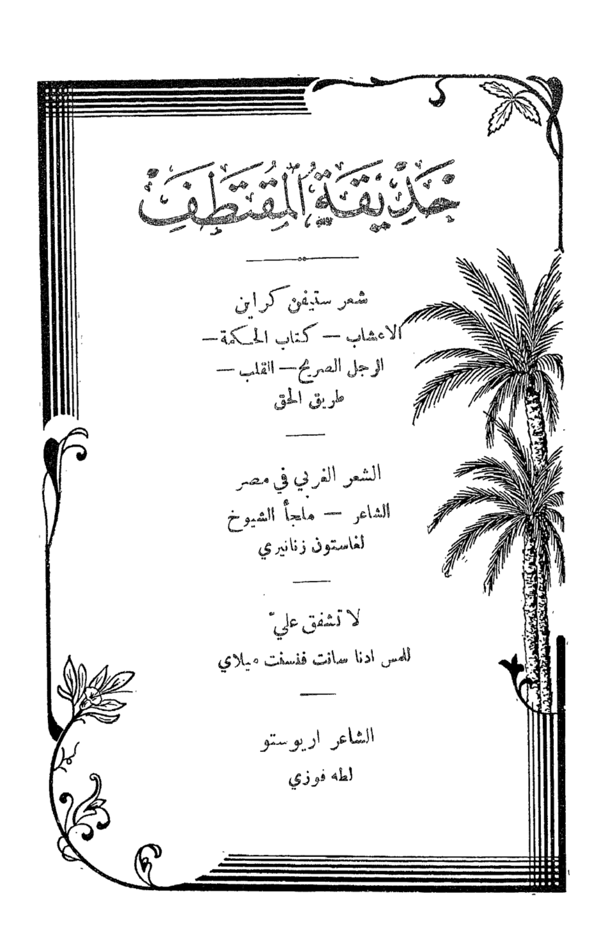
الامم أعنف المعاداة يملك ألوفاً من الاسهم في شركة من الشركات التي تصنع الطيارات الحربية »

اقرن هذه العبارة بما تراه مثبتاً في صحيفة الديلي ميل من الدعوة الى تقوية سلاح الطيران البريطاني او تقوية سلاح الطيران الفرنسي ، تدرك ان المقصود هو روذرمير نفسه . ففي ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٣ قالت الدايلي ميل ان بريطانيا تحتاج الى سلاح جوي اقوى عشرة اضعاف من سلاحها الحالي . وفي الشهر نفسه قالت بتوقيع روذرمير نفسه ان بريطانيا تحتاج الى خمسة آلاف طيارة اذا شاءت الاَّ تبقى تحت رحمة جاراتها. وفي ديسمبر قالت ان فرنسا القوية ضمان للسلام واذن فيجب ان يتألف سلاحها الجوي من ٢٠ الف طيارة . وبعد هذا يسهل على القارىء ان يصل الى النتيجة الصحيحة عن الصلة بين هذه الدعاية وما يملكه صاحبها من الوف الاسهم في شركة الطيران الحربي

بل هناك ما هو انكى من هذا كله ، لانه مصبوغ بصبغة رسمية . ذلك ان جمعية الامم كانت قد وجهت الى الحكومات اسئلة تتعلق بتنظيم صناعة السلاح في بلادها . فجاء في اجابة الحكومة البريطانية : « ان مصانع السلاح الكبيرة كشركة فكرز ارمسترونج ، تقف جانباً من وقتها فقط على صنع الاسلحة ، واما الباقي فموقوف على مصنوعات لا صلة لها بالسلاح » . هذا جواب رسمي من الحكومة البريطانية. ولكن رئيس تلك الشركة نفسه السر هربرت لورنس قال في خطبة له لحملة اسهم شركته : — « اننا نجتهد ان نوسع نطاق اعمالنا الاخرى . . الاّ ان شركة فكرز ارمسترونج تعتمد في حياتها على صنع السلاح »

وقد جاءتنا ونحن نكتب هذا الفصل بعض نتائج التحقيق الذي تجريه لجنة عينها مجلس الشيوخ الاميركي، في فضائح صنّاع الاسلحة وتجارها ، فاذا كلُّ ما فيها مؤيد لمجمل ما تقدَّم . خذ مثلاً على ذلك شركة اميركية اسمها Electric Boat Co. متفقة مع شركة فكرز ، فقد دفعت هذه الشركة للسر باسيل زهاروف ١٥٠ الف جنيه من سنة ١٩١٩ الى ١٩٣٠ عمولة على طلبات السلاح التي جاءها بها من حكومة اسبانيا . ولما كانت شركة رغز Riggs تحاول ان تبيع مدافعها للحكومة التركية ، بعثت وزارة البحرية الاميركية بالطراد راليه الى استانبول ، لكي يتاح للترك التفرُّج على مدافعهِ وهي من صنع شركة رغز. وسمح لضابط من الضباط العاملين في الجيش الاميركي ان يصبح مستشاراً فنيًّا لحكومة كولومبيا فوضع في مكتب شركة رغز تقريراً يشير فيهِ على حكومة كولومبيا بشراءِ مقدار كبير من الذخيرة التي تصنعها تلك الشركة. وفي سنة ١٩٢٩ لما كان الجفاء مستحكماً بين بيرو وشيلي اتفقت شركة فكرز وشركة Electric Boat الاميركية على ان تبيع الاولى الاسلحة لشيلي والثانية لبيرو ثم تتقاسمان الأرباح وكتب مندوب هذه الشركة في بيرو يقول انهُ يسعى لكي يعيَّن مندوباً لحكومتهِ في مؤتمر نزع السلاح وغرضهُ حماية مصالح صناع السلاح والذخيرة

هذه نواح من فضائح اصحاب المصالح في صناعة السلاح ، وهم يحاولون ان يحبطوا كل مؤتمر لنزع السلاح او خفضه ، ويعرقلوا كل مسعى



حديقة المقتطف

شعر ستيفن كراين

الاعشاب — كتاب الحكمة —

الرجل الصريح — القلب —

طريق الحق

الشعر الغربي في مصر

الشاعر — ملجأ الشيوخ

لغاستون زنانيري

لا تشفق عليّ

للمس ادنا سانت فنسنت ميلاي

الشاعر اريوستو

لطه فوزي

شعر ستيفن كراين

[القطع التالية مختارة من شعر اديب يدعى ستيفن كراين مرَّ على مسرح الادب الاميركي مرور الشهاب اذ ولد سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٩٠٠ ولكنه ترك في القصة والاقصوصة والشعر الغنائي آثاراً رائعة]

الاعشاب

وقفت طائفة من الاعشاب في السماء امام العزة

فقالت العزة لها : ماذا فعلت ؟

فتهافتت جميعاً — الاّ واحدة منها — على تعديد مآثرها في الحياة .

اما العشبة الصغيرة فانتحت مكاناً وراءهنَّ وعليها آثار الحياء .

فالتفتت العزة اليها وقالت : وانت ماذا فعلت ؟

فقالت : رباه ان الذكرى المحية .

واذا كان لي في حياتي حسنات فقد نسيتها .

عندئذ تجلت العزة في كل ابهتها ونهضت

عن العرش وقالت : يا افضل الاعشاب !

كتاب الحكمة

التقيت بسيد يَحمِلُ في يديه كتاب الحكمة

فقلت يا سيدي ، دعني اطالع فيهِ

فقال : ايها الطفل — ولكنني قاطعتهُ قائلاً :

يا سيدي : لا تظنن انني طفل ،

لانني اعي كثيراً مما تنطوي عليهِ صفحات الكتاب في يديك

نعم ، واعرف كثيراً منها . فابتسم الرجل وفتح

الكتاب ونشر صفحاته امامي . فاذا بي — فجأة — قد كُفِفتُ

الرجل الصريح

خرج الرجل الصريح وجعل يخاطب الرياح
ولما تلفّتَ حواليه وجد نفسهُ في بلاد غريبة

خرج الرجل الصريح وجعل يخاطب النجوم
فبهرهُ نورها الاصفر الساطع

فالتفت اليهِ سائرٌ حكيمٌ وقال :
ايها الاحمق الصالح . ان جميع اعمالك حمق وجنون

فصاح فيهِ الرجل الصريح قائلاً « انك كثير الصراحة »
ولما هوت عصاته عن رأس محدثهِ كانت قطعتين

القلب

رأيت في الصحراءِ كائناً ، عارياً ، وحشيًّا
متربعاً على الارض ، وممسكاً قلبهُ بيديهِ
وهو ينهشهُ

قلت : ألذيذٌ ايها الصديق . قال :
انهُ مرٌّ . مرٌّ . ولكنني استطيبهُ
لانهُ مرٌّ ، ولأنهُ قلبي !

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق
اخذه العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيه
فقال : ارى ان احداً لم يسر عليه من زمن طويل !
ثم تبين ان كل عشبة سكين حادّ ، فتمتم :
« لا بدَّ ان يكون هنالك طرق اخرى » !

الشعر الغربي

في مصر

صح عزمنا بعد ما نقلنا طائفة مختارة من الشعر الغربي ان ننقل مختارات من قصائد الشعراء المصريين والاجانب الذين ينظمون الشعر الغربي في مصر . وقد بدأنا بقصيدتين بليغتين للشاعر المصري المجيد خيري نشرتا في العدد الماضي . وفي هـذا العدد ترجمة قصيدتين فرنسيتين عامرتين للشاعر فاستون زنانيري

الشاعر

بيدٍ ترعدها الحمى ، كان يخطُّ كلمات تدعمها كلمات ، وتليها كلمات ، وبينما هو يكدُّ ويدأبُ سمع في قرارة نفسهِ صوتاً يهتف بهِ قائلاً :

انا الوهم فائق الوصف ، الذي لا يتسنى التعبير عنهُ ، غير العابىء بشرائع الحقيقة ، اسكب في القلوبُ جاذبيات نجواي ، واضع فيها سحرَ صفـوي الخفي ، الذي لا تدركه عينٌ ، انا مثيل موجةِ البحرِ ، الصخبةِ المضطربة ، التي تبتلع الغوّاص ، الساعي دون كللٍ ولا تمهّـلٍ ، للحصول على ضياء الفضة النقية البراقة ، المشعة في مستقرِّ اللجج ، كأنها الأمل البعيد المدى ، الذي لا يتسنى ادراكهُ ، ولا الوصول اليهِ

افتحُ آفاقاً ذات ضوء ونورٍ ، يكادان يهزءان بحلول الليل ، ويتركان وراءهما ، بعد تلاشيهما ، سراباً تـكفي لحظةٌ واحدةٌ ، لـكي تعـفو اثره ، وتلاشي معالمهُ

فالسمك في البحر ، والطير في الفضاءِ ، واللذة في الحبِّ ، والبريقُ في العيونِ ، والنـظـرُ التائهُ في لانهاية السماوات . . . جميعُ هذه الاشياءِ البديعة تضمحلُّ دون ان تتركَ أثراً

ولـكن ذلك الهاتفَ ، قُـوطِـع في همسهِ بصوتِ السكوتِ ، وبحركةٍ خفيفةٍ في الظلام ، تُـشبهُ النـفـثـةَ التي تمرُّ بقربِ العقلِ ، فنهضَ الشاعرُ من مكانهِ

وكانت الغرفةُ قد سادها غـبش المساءِ . ورأى الليل يـتسلّـلُ الى غرفته . فأظلَمَ كلُّ ما فيها ، وعاد لا يُـبصر شيئاً

ملجأ الشيوخ

لا يَضيرهم ان تُغشي عيونهم سحابةُ الكآبة والحزن ، وان يجرُّوا تحت اشعة الشمس الدافئة ، اعضاءهم المتخدّرة اليابسة . . لا يضيرهم ان تكون قبضات ايديهم خُلُواً من كل حب وحنان ، وان تكون وجوههم منقبضة تحوطها الرزانة ، وجباههم معتّمة تغشاها الظلمةُ والحلوكة

لا يضيرهم ان تكون السماء مشعّةً بالأنوار ، وان تكون اشجارُ الخمائل يانعةً مزهرةً . . لا يضيرهم ان تحنو قلوبهم على تذكارات الماضي ، وان يقبل الليل اليهم بذكرى ، تعيد لهم ما سلف من حياتهم الهانئة السعيدة

لا يضيرهم ان يصبح الاملُ حلماً لذيذاً ، وان يكون الليل المقبل غير ذي صباح . . لا يضيرهم ان تضحي حياتهم نهاراً ، ينقضي تاركاً في القلب أسفَ الصباح وغصّتهُ

لا يضيرهم كل هذا ، فقد عرفوا نهايتهم ، وهم ينظرونها بهدوءٍ وسكينة ، ينتظرون حلُولَها بصمتٍ وسكونٍ ، دون ان يأتي اليهم من يزودهم في ملجأهم الاخير ، ولا من يقبل ليزوّدهم النظرةَ الاخيرة وهم على فراش الموت

[نقلها جورج نيقولاوس]

لا تشفق عليَّ

للمس أدنا سانت فنسنت ميلاي — شاعرة أميركية معاصرة —

لا تشفق عليَّ لان نور النهار، عند الغروب، عاد لا يتماوج في الفضاء
لا تشفق عليَّ لزوال الوان الجمال من الحقل والغابة باختلاف الفصول
لا تشفق عليَّ لنقصان القمر ، ولا لجزر البحر
ولا لانَّ شهوة الانسان تخبو بسرعة
ولا لانك عدتَ لا تلقي عليَّ نظرة الحب.
لقد عرفت كلَّ هذا . ليس الحب اكثر من الزهرة التي تلفحها الريح
ولا اكثر من المدّ يغسل الشاطيء فينثر عليهِ صرعى العواصف .

بل اشفق عليَّ لان القلب بطيءٌ في ادراك ما يراهُ العقل في كل لفتةٍ



لودفيك آريوستو
شاعر ايطالي يقال انهُ تأثر بألف ليلة وليلة

لودفيك آريوستو

[شاعر ايطالي تأثر بألف ليلة وليلة]

في اليوم السادس من شهر يونيه من العام الماضي احتفل الايطاليون في مشارق الارض ومغاربها بمرور اربعمائة عام على وفاة شاعرهم القصصي الكبير لودفيك آريوستو مؤلف قصة « اورلاندو فوريوزو » الخالدة . وكان اكبر هـذه الاحتفالات واعظمها شأناً ذلك المهرجان العظيم النادر المثال الذى اقامته مدينة « فرارا » Ferrara مسقط رأس الشاعر وقد قام بتنظيمه نفر من كبار رجالات تلك المدينة وعلى رأسهم السنيور ايتالو بالبو وزير الطيران الايطالي سابقاً . ويهمنا نحن الشرقيين ان نعرف شيئاً عن هـذا الشاعر الفذ وعن قصته الطريفة التي ادعى كثير من الكتّاب الافرنج ان قصة الف ليلة وليلة العربية انما هي مأخوذة منها لوجود شبه كبير بين القصتين مع ان هناك من الكتّاب الايطاليين انفسهم من يقول بغير هذا القول. فقد القى المستشرق الكبير الدكتور لويجي رينالدي في عام ١٩٢٠ محاضرة نفيسة عن المدنية العربية في الغرب بمدينة القاهرة كان لها وقع عظيم في نفوس الشرقيين عامة والمسلمين بنوع خاص ونشرتها مجلة المقتطف في حينها وقد جاء فيها ما يأتي بالحرف الواحد :

«انظر الى قصة « اورلاندو فوريوزو » تجد انها مأخوذة كلها من كتاب الف ليلة وليلة الشهير الذي احتوى على قصص عربية وفارسية وهندية غريبة وانك لتجد فيهما الاسلوب واحداً والمغزى واحداً ولا سيما تلك النقطة التي تدور حولها جميع هـذه القصص وهي زعمهم بأنه ليس في العالم امرأة عفيفة

«وبيننا كثيرون يعتقدون ان العرب هم الذين عرّبوا كتاب«اورلاندو فوريوزو» ولكن هذا محض افتراء ولقد تكلم في هذه النقطة المؤرخ الشهير آماري Amari فقال «اقول ان سرقة وقعت لكتاب الف ليلة وليلة ذلك ان قصص اريوستو وحوادث استولفو وجوكوندا كلها مقلدة من اولها الى آخرها او بالاحرى منقولة من قصص الف ليلة وليلة ما عدا تغيير بسيط في بعض الاسماء وفي بعض الظروف القليلة الاهمية »

ولكن هـذا على فرض التسليم بصحته لا ينقص من قيمة قصص آريوستو ولا يفقدها شيئاً من جمالها وسلاستها وروعتها لان هـذه القصص انما هي من بدائع الشعر الايطالي التي خلدت وستخلد على كرّ الزمن ومرور الايام

اما لودفيك آريوستو فقد كانت ولادته في اليوم السادس من شهر سبتمبر سنة ١٤٧١ بمدينة ريجيو دميليا Reggio d'Emilia وكان ابوه رجلاً من اشراف « فرارا » وكان قائداً لقلعة « ريجيو » من لدن الدوق هرقل الاول واما امه « داريا مالاجوتزي » فكانت احدى نبيلات مدينة ريجيو

تلقى آريوستو تعليمه الاول في مدينة فرارا حيث انتقلت اسرته ولم يبلغ الثانية عشرة من عمره ولم يكن كثير الميل الى التعلم على ان امياله جميعها كانت متجهة نحو التمثيل المسرحي الذي نبغ فيه الى حد كبير حتى انهُ في سنة ١٤٩٣ استدعاه هرقل الاول الى مدينة بافيا Pavia للتمثيل في حضرة لودفيك المورو. وعلاوة على اشتغاله بالتمثيل كان يميل الى قرض الشعر ولقد نظم في ايام شبابه قصة « تسبي Tisbe » التي قام بتمثيلها هو واخوته واخواته وكان موضع اعجاب المتفرجين لمبتدعاتهِ الشعرية التي زانت القصة اكمل زينة

ولقد تحدث آريوستو حديثاً مستفيضاً في قصيدته الهجائية السادسة التي وجهها الى « بيترو بمبو » عن تعليمه وعن غرامه بالشعر. فقد حاول والده عبثاً حملهُ على دراسة الكتب والتعليقات الشهيرة لانه كان حتى سن العشرين يكاد يجهل اللاتينية وكان يجد صعوبة كبيرة في مطالعة قصة فدرو Fedro ولكن اباه عاد واطلق له الحرية في ممارسة المهنة التي كان يهيم بها وكان من حسن حظه ان تتلمذ على عالم كبير من علماء اللاتينية واليونانية هو « جريجوريو دا سپوليتو » وكان ذلك لمدة قصيرة لان هذا الرجل الاديب سرعان ما استدعي الى ميلانو للتعليم في بلاط سفورزسكا Sforzesca لما ناله من الشهرة الواسعة

مضى آريوستو بعد ذلك في دراسة اللاتينية وحده دون معلم فقرأ مؤلفات فرجيل وهوراس وتيبولو وكاتولو واعجب بها كل الاعجاب ولقد بلغ من اتقانه اللغة اللاتينية ان نظم بها بعض اشعار لا تقل جودة ومتانة عن اشعار اشهر شعرائها الانسانيين المعروفين

ولقد كان فقده لاستاذه المحترم ثم فقده لوالده في سنة ١٥٠٠ في الوقت الذي فقد فيهِ ابن عمهِ العزيز باندولفو، من بواعث حزنهِ الشديد فاضطرَّ الى حمل عبء الاسرة وهي مؤلفة من الام واربعة اولاد وخمس بنات لان ما ورثهُ عن ابيهِ لم يكن ليسد حاجاتها وكان عليهِ ان يعلم اخوته واخواته ولكن هذا لم يكن ليمنعهُ لحظة واحدة من قرض الشعر الذي كان يقبل عليهِ بحماسة لانهُ كان يرى فيهِ سلواهُ الوحيدة في غمار هذه الهموم والآلام

اضطرَّ اريوستو اذ ذاك ان يلتمس منصباً في بلاط آل دستي Deste فانتظم في خدمة الكردينال ايپولينو ولم يكن عمله يحول دون نظم الشعر فكتب كثيراً من القصائد الرائعة

بقي في خدمة الكردينال اكثر من خمس عشرة سنة بمرتب لم يكن كبيراً مع انهُ كانت توكل اليهِ في بعض الاحيان مسائل غاية في الخطورة تدل على ما حازهُ من الثقة كما كان يرسل في سفارات لم تكن دائماً قليلة الخطر كان ينتقل من اجلها الى مانتوفا وميلانو وبولونيا وفلورنسه وفي اغلب الاحيان الى مدينة روما وكان يطلب اليهِ ان يكتب بعض الروايات الهزلية فكانت اولاها قصة كاساريا Cassaria التي مثلت في سنة ١٥٠٨ وقصة الوكلاء Suppositi في سنة ١٥٠٩ ثم قصة الساحر Il Negromante والتنفس والطلبة وهي قصة التي بلغ فيها نصفها واكملها من بعده اخوه جبرائيل La Lena آريوستو ثم القصة المدرسية La Scolastica وكانت القصتان الاوليان مكتوبتين في مبدأ الامر بالنثر ولكنهُ عاد ووضعهما شعراً وكانتا اولى الروايات الهزلية في الادب الايطالي وكانت جميع رواياته على نسق روايات Trenzio ترنزيو و Plauto پلاوطو

وفي الفترة التي مضت بين سنة ١٥١٣ وسنة ١٥٣١ نظم اريوستو سبع قصائد هجائية تحدث فيها عن عصره وعمن عاصره من الرجال وعن بلاط روما وعن البابا ليون العاشر وعن مدينة جارافانيانا وبلاط فرّارا والدوق الفونسو والكردينال ايپولينو وعن عادات النساء وعيوب الرجال وقبل كل شيءٍ تحدث باسهاب عن نفسه وعن اميالهِ وعن سوء حظه وعن جملة حياته وكان حديثهُ حديث رجل مخلص مستقيم ولكنهُ ضعيف الارادة قد خلا من الاطماع لا يهتم بالانعامات ولا بالرتب ويقتنع بان يعيش حرًّا بين جدران داره بين كتبه واوراقه تحوطه عناية زوجته وحبها . ولقد روى لنا الشاعر في قصيدتهِ الهجائية الاولى التي وجهها في سنة ١٥١٧ الى السيد جالاسو آريوستو انهُ كان مريضاً وكان يشكو السعال ولذلك اعتذر عن الذهاب في سفارة الى مدينة بودا في هنغاريا في سنة ١٥١٧ وكان يكفي هذا الرفض الذي كان العذر فيهِ واضحاً لكي يحرم الشاعر من عطف الكردينال ويقال من خدمتهِ

بعد ذلك عطف عليهِ الدوق الفونسو الذي اراد ان يصلح من خطإِ الكردينال والحقه بخدمتهِ واعطاه مرتباً لا بأس بهِ وكان اريوستو يشكو دائماً حظهُ الذي كان يضطره لان يعيش على اكتاف الغير على انهُ كان مغتبطاً ببقائهِ في خدمة الدوق لانهُ كان يندر ان يبتعد عن موطنه وكان هذا يتيح له فرصة المطالعة والدرس وتصحيح

الشعر الذي لم يكن ينقطع يوماً واحداً عن العمل على تجويده

كانت علاقات الصداقة بين الشاعر وآل مدسيس قديمة ولذلك لم يكد يظهر كتاب « فوريوزو » حتى منح البابا حق الطبع للمؤلف وامتدح الكتاب وذكر صداقة آريوستو الثابتة والمستمرة لاسرته. ونستطيع ان نقرأ شيئاً عن ذلك في مرثية لجوليانو دي مدسيس الذي ذهب ضحية مؤامرة المهووسين في سنة ١٤٧٨

اوعز اليهِ اصدقاؤه ان يسافر الى روما لمقابلة البابا وبعد الحاح نفرٍ منهم سافر الى روما واستقبل فيها استقبال الغزاة والفاتحين قال فيه « ان البابا نزل عن كرسيه المقدس ومد اليَّ يديهِ مصافحاً » ثم بقي آريوستو في روما فترة من الزمن ضيفاً على الفاتيكان وكان يأمل الحصول على مرتب من بلاط البابا ولكن لما لم تتحقق هذه الامنية عاد ثانية الى (فرارا) حيث كتب قصيدته الهجائية الثالثة التي وجهها الى ابن خاله هانيبال مالاجوتزي واشار فيها الى رحلته الى روما قائلاً « انهُ رأى ثروة عظيمة تختفي من امام عينيه دون ان يأسف عليها »

ولما عاد الى بلاط الدوق الفونسو لم يكن لديهِ ما كان يتمتع بهِ من الطمأنينة فيما مضى ولم يكن عمله في البلاط ليساعده حتى من وجهة النظر الاقتصادية لانهُ بسبب الحرب التي كانت ناشبة بين الكردينال دستي والبابا اوقف صرف راتبه فجعله يشكو قائلاً انهُ اذا لم يُدفع اليهِ المتأخر له فانهُ سيضطر الى البحث عن طريقة اخرى لصرف هذا المتأخر

وفي سنة ١٥٢٢ ارسل الى مدينة جارفانيانا ليصلح بين احزابها المتخاصمة ولكي يلزم اهلها باحترام القانون فذهب اليها والحسرة تملأ فؤاده لفراق بيته ولكنه لما كان يأمل ان يصلح فيها من احواله الاقتصادية بقي حوالي ثلاث سنوات من سنة ١٥٢٢ الى سنة ١٥٢٥ نجح في خلالها في تهدئة المنطقة التي لم تكن تخضع لسلطان السلطات المدنية

بقي في هذه المدينة بضع سنوات اخرى ولي فيها القضاء بعيداً عن بلاده حتى سئمها ورغب في العودة الى حياة المنزل الهادئة فطلب ان ينقل الى منصب آخر ولقد اقترح بعضهم على الدوق ان يرسله سفيراً لدى بلاط البابا الجديد لانهُ كان الشخص الوحيد الذي يصلح اكثر ممن عداه لمثل هذا المنصب نظراً لصداقته بآل مدسيس ولكنه لم يعرب عن رغبتهِ في قبولها — مع انهُ لم يرفضها — محتجًّا بأنهُ لم ينل شيئاً من البابا السابق ولا ينتظر ان يحصل لآل دستي على شيء من هذه الاسرة. ولكنهُ لم يصرح بأن بقاءه بعيداً عن داره كان يسبب له كثيراً من المتاعب والآلام . وفي سنة ١٥٢٦

اشترى منزلاً صغيراً في مدينة فرارا يقع في شارع ميراسولي Mirasole واخذ في تجميله وادخال كثير من وجوه التحسين عليه ووضع لوحة على بابه كتب عليها باللغة اللاتينية «ان بيتي صغير ولكنه يكفيني وليس لاحد عليه سلطان وهو في نفس الوقت ليس قبيحاً واهم شيء عندي انني حصلت عليه بكدي وعرق جبيني»

وبعد وفاته اضاف ابنه فرجينيو الى اللوحة هذه العبارة : « ليبارك الآله بيت آل اريوستو كما باركتهُ آلهة الشعر »

ولقد اضيفت الى هذا المنزل الصغير حديقة لم تكن انيقة حتى لقد تجرَّأ احد اصحابه ان يقول له «ما بالك قد استطعت انشاء ابيات من الشعر غاية في الجمال دون ان تستطيع ان توجد عمليًّا واحداً منها» ولكنهُ اجاب بأنه لا يستطيع ان يوجد حديقة جميلة بنقود قليلة

قضى الشاعر سنين سعيدة في هذا المسكن الصغير مع صديقته الكسندرا ابنة السيد فرانشسكو بينوتشي التي كانت زوجة للشاعر الفراري النبيل تيتو ليوناردو ستروتسي Strozzi والتي تزوج منها في آخر سني حياته وربما كان ذلك في سنة ١٥٣٠ مع انها كانت تصرح له بأنها لا تريد ملاءة ولا خاتماً تقيد بهما حريتها

وفي سنة ١٥٣١ ربط له الدوق الفونسو داڤالو مركيز ڤاستو مرتباً سنويًّا قدره مائة دوقية غير المساعدات الاخرى التي كان يحصل عليها من الدوق اركولي دستي ولما حل الفونسو ولده محله قدم له مساعدات اخرى سهلت له اسباب الحياة

في هدوء تلك الدار التي تمتع فيها بالحب والعناية التي كانت تحوطه بهما امرأته بينوتشي Bennucci اشتغل بجد وبهمة لا تعرفان الكلل في نظم قصائده الهجائية وفي اعادة طبع قصته العظيمة بعد ان ادخل عليها كثيراً من التعديل والتنقيح في سنة ١٥٣٢. عند ذلك بدأت تظهر عليه علامات المرض والسقم والح عليه مرض السل الذي لا يرحم ثمانية اشهر كاملة فارق بعدها الحياة في ليلة ٦ يونيه سنة ١٥٣٣ ودفنت جثته في كنيسة القديس بنيدتو San Benedetto القديمة وبعد اربعين سنة من موته شيد له احد اشراف فرارا مقبرة اثرية فخمة وفي ١٦١٢ اقام له احد حفاده الذي كان يحمل اسمه ولقبه مقبرة اجمل وافخم من الاولى ونقل اليها جثمانه في احتفال مهيب ثم في سنة ١٨٠١ نقل جثمانه مرة اخرى الى سراي المدارس بأمر الجنرال ميوليس Miollis

أعطي آريوستو بسطة في الجسم وكان متناسب الاعضاء قوي البنية ذا شكل حسن ومنظر نبيل مهيب وكان طيب الشمائل حلو الحديث حاضر البديهة مما جعل حديثه مقبولاً

لدى الطبقات العالية التي كانت تحب مجلسه والتي كان يبهرها بمواهبهِ النادرة وهي صفات قلما اجتمعت في شخص متعلم اعتاد مخالطة العظماء والكبراء. على انهُ كان يفضل الحياة المنزلية على حياة البلاط بما فيها من مسرات واحتفالات ومظاهر وافراح وكان يقول « اريد الهدوء فهو عندي خير من الحياة والغنى »

كان الدرس والشعر يفضلان لديه كل ماسواهما من الاعمال وفضلاً عما أُوتيه من دماثة في الخلق فقد كان طيب القلب ميالاً الى الحب احب بلدته كما احب بيته وزوجته كما احب اميره الذي كان يفخر بحبه ويتفانى في الاخلاص له

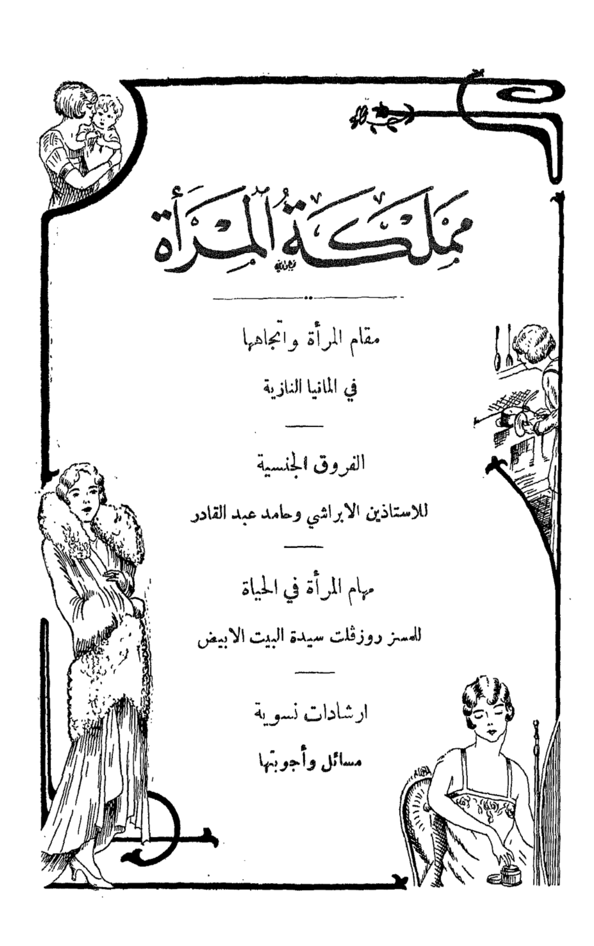
كان آريوستو دائماً مشغولاً بكتاباته الادبية وبمؤلفاته حتى في الساعات التي لا يكون فيها على مكتبه لدرجة انها كانت تصيّرهُ مذهولاً شتيت الفكر . وعلى ذكر هذا يروي ولده فرجينيو انَّ اباه خرج في صباح يوم من ايام الصيف من كابري Capri للتنزه فما زال سائراً يوماً كاملاً حتى وصل الى فرارا دون ان يشعر انه ينتعل خفين او انه كان يسير وقال عنه ايضاً انهُ كان يأكل بسرعةٍ دون ان يميز اصناف الطعام الذي يتناوله

كان آريوستو يحب اصدقاءه ويحترمهم ويعظمهم ويعترف بجميل من كانوا يساعدونهُ ويعاونونهُ كما كان يحب سادته الذين سرد لنا اسماءهم في آخر النشودة من اناشيد قصتهِ « فوريوزو » بعد ان تغنى في الانشودة الثالثة منها بنسب آل دستي

ولعل احب شيء لدى آريوستو كانت الحرية التي كان يهيم بها ويشيد بذكرها في قصائده ولو انهُ لم تتح له الفرص للتمتع بها يوماً من الايام فهو يضعها قبل كل شيء ويضحي في سبيلها بمنصبهِ وبصداقتهِ للعظماء وحتى بحبهِ لانهُ كان يخشى ان يتزوج من المرأة التي احبها لئلاَّ يقيد حريته بزواجهِ . وبعد الحرية كان كل غرامهِ متجهاً الى الشعر لانهُ كان يرى فيهِ اكبر عزاء لنفسهِ وكان يوحى اليهِ بانبل المشاعر والاحساسات

وفي مقال آخر سنتكلم عن قصة « اورلاندو فوريوزو » التي صادفت نجاحاً عجيباً والتي لا تزال الى يومنا هذا موضع اعجاب المتأدبين والتي بلغ من عظمتها وتعلق الناس بها ان كان لها كثير من المقلدين بينهم الكونت فنشترو بروسانتيني دا فرارا الذي كتب قصة « انجليكا العاشقة » ولودفيك دولتي الذي وضع قصة «ساكربيانتي » و« محاولات اورلاندو » ثم بيترو آرتيني في رسائله عن مارفيزا ودموع انجيليكا واستولفيدى وغيرهم ولم تكن جميع هذه الاَّ محاولات غير مجدية لان فن لودفيك اريوستو كان فنّاً لا يمكن تقليده ولا الاتيان بمثله

طه فوزي



مملكة المرأة

مقام المرأة واتجاهها

في المانيا النازية

الفروق الجنسية

للاستاذين الابراشي وحامد عبد القادر

مهام المرأة في الحياة

للمسز روزفلت سيدة البيت الابيض

ارشادات نسوية

مسائل وأجوبتها

مقام المرأة واتجاهها

في المانيا النازية

كتب الفرد روزنبرج ، في مؤلفهِ الكبير « روح القرن العشرين » العبارة التالية :— «الرجل المتأنث والمرأة المترجلة ، دليلان على الانحطاط السياسي والثقافي . فنتيجة السيطرة النسائية على حياة اميركا ظاهرة في انحطاط مستوى الثقافة في تلك الامة » . وعنده ان ادوار الانحلال في المانيا، وبوجه خاص في الفترة التي انقضت بين هزيمة المانيا سنة ١٩١٨ وبلوغ النهضة الوطنية الاشتراكية مقام الحكم سنة ١٩٣٣ اقتضت نشوء الرجل المتأنث والمرأة المترجلة فيها

والهر روزنبرج هو الرجل الذي عيَّنهُ هتلر اميناً على التعليم الروحي والفلسفي في المانيا ، ورسالة المرأة في رأيهِ — وهو شبيه بالرسمي — ان تحتفظ بالسلالة نقية من اية شائبة تشوبها

ولما كانت الحركة الوطنية الاشتراكية تبغي انشاء سلالة نقية عديدة ، فهي تقتضي من المرأة الالمانية خضوعاً لمقتضيات الاسرة والدار ، وتأييداً لسياسة الحزب . وشعار هذه الحركة ، من ناحيتها النسوية ، « العودة الى البيتِ » . وثمة وسيلتان يتوسل بهما الزعماء لجعل هذا الشعار مما يحلو في عيون النساء . فهم ينددون بالحركة النسوية ، التي انتشرت قبل الحرب وافضت بعيدها الى منح النساء جميع حقوق الرجل في دستور فيمار سنة ١٩١٩، ويقولون انها افضت بهنَّ الى المناداة بالسلام كائناً ثمنهُ ما كان ، وجعلتهنَّ لا يعبأنَ بالتقاليد . فالمحاولة التي قصد بها الى تمهيد طريق الاستقلال للمرأة ، قوَّت فيهنَّ حب الذات والايثار، وقذفتهنَّ الى الشوارع . ثم ان التحرر الصحيح في نظرهم، هو تحرر المرأة من واجب الارتزاق، فالزعيمة النسوية النازية الدكتورة صوفيا رابي Rabe تقول : « اننا نطلب تحرر المرأة من قيود الارتزاق ، لا تحرر المرأة من الرجل »

اما قول هتلر فلا يختلف عن قولها كثيراً . ففي توجيهه النداء الى كل الماني للدفاع عن حرية الامة قال : — ليس ثمة كفاح للرجل ، ليس هو كفاحاً للمرأة . وليس ثمة كفاح للمرأة ، ليس هو كفاحاً للرجل . اننا لا نعترف بحقوقٍ للرجل وبحقوق للمرأة . اننا لا نعترف الاَّ بحقوق واحدة للجنسين. نعترف بحق هو في الوقت نفسهِ واجب ، حق الحياة والعمل والكفاح معاً في سبيل الامة»

ومع ان زعماء النازي يحاولون ان يثنوا المرأة عن اي عمل الاَّ العمل البيتي، ولا يشجعونها الاَّ على الزواج واخلاف النسل، لكنهم في الوقت عينهِ، لا يمنعونها رسميًّا من الانتظام في الحرف والاعمال المختلفة، الاَّ القضاء والادارة الحكومية والجيش . وحجتهم في منعها من الانتظام في سلك القضاء والادارة الحكومية ميل المرأة الى اللين. ولذلك ترى ان النازي لم يبعثوا بنائبة واحدة الى الريخستاج مع ان النائبات في الريخستاج في العهود السابقة بلغنَ احياناً تسعاً وكان لهنَّ شأن غير يسير في التشريع

وقد نظمت الآن جميع الجمعيات النسوية في المانيا في جمعية واحدة تدعى «دويتش فراون ورك» يقال ان عدد اعضائها يختلف من ثمانية ملايين الى عشرة ملايين . ورغبة في تنسيق اعمالهن ، اخضعت هذه الجمعية الى جمعية نسائية نازية عدد اعضائها من اربعة ملايين الى خمسة ملايين

وعلى رأس هذا النظام سيدة تدعى فرو شولتس كلنك . فهي زعيمة هاتين الجمعيتين، وزعيمة قسم العمل النسائي وممثلة الجمعيات النسائية الالمانية في جمعية الصليب الاحمر الالماني . قالت كاتبة اميركية : ولما ذهبت الى احدى السيدات اللواتي تعاونها في عملها وسألتها هل سيرة الفرو كلنك سيرة حافلة قالت تلك السيدة « انها والدة اربعة اولاد . فما حاجتها بعد ذلك الى سيرة حافلة ؟ »

ان عمل المرأة في رأي النازي اخلاف جنود المستقبل . وقد ضمَّ عدد حديث العهد من المجلة النازية الرسمية الخاصة بالنساء ، مقالاً يبيّن نواحي عمل المرأة . ففي ناحية واحدة من عملها عليها ان تربي الاولاد على اصول الثقافة العسكرية . يضاف الى ذلك تنشئتهم على فضيلة البساطة الاسبرطية، وتنمية قوة المقاومة الروحية فيهم ، لانها تحميهم من الامم الاجنبية . حتى النساء العوانس واللواتي يمارسن عملاً فنيًّا يستطعن ان يؤدين نصيبهنَّ التثقيفي ، بالعمل في الجمعيات الدينية والعسكرية

والمسلّم بهِ في المانيا الآن ، ان اقل عدد من الاولاد يجب ان تنجبهُ المرأة النازية هو اربعة اولاد . وقد لاحظ بعض الكتّاب الاجانب في المانيا ، انهُ اذا زاد عدد الاولاد في الاسرة الواحدة الى خمسةٍ او ستةٍ منح الوالد وساماً يرتديهِ ويباهي بهِ . لان الدولة النازية تشجع على الزواج بتمهيد العقبات المالية لمن يبغي الزواج ولا يستطيعهُ ، ثم انها تتبع ذلك بمنح امتيازات مالية وغيرها لمن يكون كثير الانجاب . ومع ان دستور ڤيمار نصَّ على وجوب العناية بالامّ ، الاَّ ان المانيا النازية تفاخر بان الام موضوع عناية خاصة منها . فعيادات الامومة في المانيا تحاول ان تتصل باكبر عدد من الامهات . وثمة معرض نقّال يعرف باسم معرض « الام والطفل » يتنقل في الريف ، ويسدي الى الامهات الارشاد الصحي والنصح الخاص بالتناسل

ثم ان النساء النازيّات ، يقاومنَ مذهب تعليم المرأة تعليماً عالياً . وعندهنَّ ان جميع النساء اللواتي انتظمنَ في الجامعات في الفترة بين ١٩١٨ — ١٩٣٣ انما فعلنَ ذلك تقليداً ومجاراة . فكان عملهنَّ هذا باعثاً من بواعث تعقيد مشكلة التعطل عن العمل التي يعانيها خريجو الجامعات . فاذا سألت : «ولكن الا يمكن ان يكون بين اولئك اللاتي انتظمنَ في الجامعات ، نساء على جانب عظيم من الذكاء» اتاك الجواب الغريب : لا ريب في ذلك ، ولكن مبدأ الزعامة عندنا يمكن الزعماء من تبيُّن النساء المتفوقات واختيارهنَّ ومنحهنَّ امتيازات خاصة، تفتح امامهنَّ آفاق البحث والارتقاء العلمي

ان اذكى النساء ، في نظر المرأة النازية ، يجب ان تتوجه عنايتها الى اخلاف النسل ، اكثر مما توجهها الى ممارسة ذكائها . والظاهر أن عدد النساء في الجامعات الالمانية في المستقبل ، سوف لا يزيد عن نسبة ١٠ في المائة من مجموع الطلاب . لذلك يجب أن يكون اختيارهنَّ دقيقاً كل الدقة

وطريقة الاختيار هي انتخاب المتفوقات عقلاً وذكاءً من النساء اللواتي عرفنَ بامكان الاعتماد عليهنّ من الناحية السياسية ، فيسمح لهنّ بالانتظام في سلك الجامعات . وعلى الفتيات قبل بدء حياتهنّ الجامعية ان يشتغلنَ ستة اشهر في « معسكرات العمل » حيث تتعلم الفتيات اعمال البيت ، فيعدهن تمرينهنّ فيها ليتقلدن زعامة الحركة الالمانية التي شعارها « العودة الى الارض » . فاذا زاد المواليد في المانيا كما يتوقع زعماؤها ، اقتضى ذلك توسعها ، اما شرقاً (على ما يرى هتلر في كتابه « كفاحي » ولكن هذا متعذر الآن بسبب معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء التي عقدت بين المانيا وبولونيا لمدة عشر سنوات) او في المستعمرات الالمانية القديمة بعد استردادها او استرداد بعضها ، وعندئذٍ يكون لهؤلاء النساء الشأن الاكبر ، في استعمار الاراضي الجديدة

وقد قلّ في المانيا شأن النساء اللواتي يبالغنَ في الانفاق على الملابس ووسائل التجمل ، حتى لتجد ممثلة مشهورة من ممثلات الصور المتحركة مثل « بريدجت هلم » تقول لمن يقابلها من رجال الصحافة ، مشيرة الى لباسها : لا يمكنك ان تعلم انني كوكب سينميٌّ ! وقد عني رجال النازي في اول عهدهم بدعوة النساء الى الاستغناء عن وسائل التطرية والتجمُّل والتبرُّج فصار الوجه الذي لا تغطيه المساحيق ، موضعاً للاستحسان

اما النساء اللواتي تلقينَ العلم العالي ، فقد سدَّت في وجوههنّ ابواب الرزق او كادت ، لان موقفهنّ نحو الزواج واخلاف النسل ، مما لا يروق زعماء النازي . فالمدرّسات اللواتي كنّ يدرّسنَ الفرق العالية في مدارس البنات ، قد حلّ محلّها في الغالب مدرّسون ، او عهد اليهنّ في تدريس فرق الصغيرات ، يدلك على ذلك ان مدرّسة الرياضة في مدرسة بنورنجيا ، اضطرّت الى التخلّي عن تدريس المسائل الرياضية اللذيذة والاكتفاء بتدريس : (اثنين زائد اثنين يساوي اربعة)

ثم ان الطبيبات لا ينلنَ من اولي الامر اي تشجيع على المضي في ممارسة صناعتهنّ

اما موظفات الحكومة فكنّ قلائل في العهد السابق ، وكان جلهنّ من اليهود والاشتراكيين فهؤلاء فصلنَ من وظائفهنّ طبعاً ، وحلَّ رجالٌ محلهنّ

وكان الظنُّ في بدء العهد الهتلري ان الكواتب على المكتاب (تيب ريتر) في الشركات والبنوك سوف يستغنى عنهن ليحلّ الرجال محلهن . ولكن اصحاب هذه الاعمال ومديريها رفضوا الاستغناء عنهنّ . وكذلك البائعات في المخازن الكبيرة . اما العاملات في المصانع فقد استغني عنهن بوجهٍ عام ، بيد ان الدكتور لاي Ley زعيم « جبهة العمل » قال ان ذلك يجب الاّ يكون اطلاقاً لانهُ من العبث الاستغناء عن النساء في اعمال يجدنها اكثر من الرجال

فالاتجاهُ العام في المانيا النازية ، هو حصر عمل النساء في البيت وخدمته واخلاف النسل والاستعداد بالتمرين لاستعمار الاراضي الزراعية مع رجالهنّ ، والاعراض جهد الطاقة عن التعليم العالي والاعمال التي يستطيع الرجل ان يتولاّها

الفروق الجنسية

بين الرجل والمرأة

فصل من كتاب « علم النفس » الجزء الثالث

تأليف محمد عطية الابراشي وحامد عبد القادر

ان الرجل لا يختلف عن المرأة من حيث كونه فرداً له مزاجه وطباعه وسجاياه الخاصة فحسب، ولكنهُ يختلف عنها أيضاً من حيث كونه رجلاً ، كما انها تختلف عنه من حيث كونها امرأة ، إذ ان الاختلافات الجنسية والجثمانية الهامة المشاهدة بين الرجل والمرأة تعد موازية لاختلافات عقلية ليست بأقل منها أهمية . والمعقول ان يكون لهـذه الاختلافات الجنسية العقلية آثار في السلوك . وان التاريخ الانساني يبرهن لنا على ان وظائف المرأة لم تكن في يوم من الايام مثل وظائف الرجل في الحياة ، وان قانون الرقي المستمر الذي يعمل عمله في الحياة الانسانية يبرهن لنا على ان الرقي لا يمكن ان يكون الا بتوزيع الاعمال ، وتخصص كل من الجنسين لأعمال خاصة ، وعلى ان التخصص في الاعمال والوظائف يتبعه على مر الزمن تغير ظاهر في التكوين الجثماني

وليس لنا ان ننتظر التقارب والتشابه الشديد بين الجنسين الا اذا كنا ننتظر ان نقترب من الحياة الساذجة الاولى ، فمن المشاهد ان اختلاف الجنسين ليس من الظهور بين الامم المتوحشة التي هي بمعزل عن الحضارة كما هو بين الامم المتمدينة

ولا تزال الحوادث التاريخية تبرهن لنا على ان مساواة المرأة بالرجل في الاعمال والوظائف تؤدي الى انقلاب اجتماعي . وقد يؤدي هـذا الانقلاب الى ثورة عنيفة ضد النظم والقوانين الاجتماعية لا يعلم الا الله تعالى مصيرها

وليس هنا موضع الكلام على هذه الثورة ، ولا البحث فيما يكنه لنا المستقبل ، ولكننا نريد ان نقول ان المشاهدات والتجارب قد برهنت على ان المرأة ليست كالرجل في الاستعدادات الجسمية ، ولا في المواهب العقلية ، ولا في النزعات الخلقية

وأهم ما بينهما من فروق : —

﴿ ١ — ان المرأة تنظر الى العالم متأثرة بوجدانها اكثر من الرجل ﴾ فمزاجها اقرب ما يكون الى المزاج الانفعالي ، ويشتد تأثرها بجمال الاشياء وتناسبها مع بيئاتها ، وتقل عنايتها بالافكار المجردة ، واذا حاولت التعميم والوصول الى قواعد كلية فانها لا تعنى بالتحليل والتدقيق والبحث العميق ، وهذا هو السبب في انها تميل الى التسرع في الحكم والخطأ في التطبيق

وكراهة التحليل المنطقي العميق الذي يصل بهِ الرجل الى القوانين العلمية الصحيحة يعد من اهم ما تمتاز بهِ المرأة عند الرجل

﴿ ٢ — ان المرأة عملية اكثر منها فلسفية ﴾ أما الرجل فيميل الى النظر ، ويجنح الى التفلسف والتدبر والتفكير في العواقب فاذا رأى خطراً محدقاً بهِ فكر في طرق تجنبه وهو هادئ الفكر وربما اعتراه ألم او ضجر وقد يثور أو يغضب او يسب ويلعن اذا لم يصل الى نتيجة مرضية ، اما المرأة فانها تبكي وتصيح وتولول في وجه الخطر ، وقد يعتريها اضطراب يمنعها من التفكير والتروي

والرجل ينظر الى دواخل الاشياء وبواطنها ، ويعتد بقيمها الذاتية الحقيقية وحقائقها الواقعية ، ولا يغتر بظواهرها ، اما المرأة فتغرها الظواهر ، وتعجب بحسن المنظر وان ساء المخبر ، فالجواهر الزائفة ، الحسنة الشكل ، المنسجمة الصوغ تقع لديها موقعاً حسناً — وان كانت قليلة القيمة في ذاتها

﴿ ٣ — ان الرجل مستعد بطبيعته وقواه الجسمية الى الزعامة والقيادة ﴾ لقدرته على التصرف في المواقف الحرجة ، وعلى الابتكار للخروج من المآزق بسرعة ، اما المرأة فانها لا تبلغ منزلة الرجل في ذلك ، وان كانت تفوقه في الصبر والجلد ، والقدرة على المقاومة ، والسرعة في التنفيذ ، ولذا يقال ان الرجل اكثر استعداداً للتشريع والابتداع ، اما المرأة فأكثر استعداداً للتنفيذ ، ومن ثمَّ كانت الأغلبية الغالبة من القادة والمشرعين والمبتدعين من الرجال ، ولم يعرف عن امرأة انها برزت في عالم العلم،[1] او ابتكرت آلة قيمة ، وهي بصبرها ، وقوة وجدانها وحنوها ، وشفقتها ، مستعدة استعداداً طبيعيًّا لأن تكون أمًّا ، وطبيبة وممرضة ، وسلوة للرجل اذا حلَّت بهِ النكبات ، او استولت عليهِ الهموم ، او تحكمت فيهِ الامراض

وان هذه الاختلافات والفروق التي بين الرجل والمرأة لتظهر واضحة جلية بعد النمو والكبر ، أما في عهد الطفولة فان هذه الفروق تكون يسيرة غامضة ؛ فالذكر والانثى لا يكادان يختلفان عند الولادة ، وبعد ذلك تأخذ فروق ما في الظهور ، فأنت اذا رأيت طفلة صغيرة سنها اربع سنوات لا تشك في أنها بنت صغيرة بمعنى الكلمة واذا رأيت طفلاً صغيراً في هذه السن علمت انهُ غلام صغير بمعنى الكلمة أيضاً . والبنت في العادة تسبق الغلام في القدرة على الكلام ، وقلما تصاب باضطراب في اعضاء التكلم ، ومعنى ذلك ان المراكز العصبية والخيوط العصبية الوصلية المرتبطة بالتكلم تنمو في الطفلة قبل نموها في الطفل

ويلاحظ ان لعبها يختلف في النوع والاسلوب عن لعب الطفل سواء ألعبت وحدها ام مع غيرها فلعبها ينقصهُ النشاط في الحركة ، وسعة النطاق التي تلاحظ في لعب الغلام . وهي تصل الى مرتبة اللعب التقليدي قبل الطفل ، وتبقى في هذه المرحلة مدة اطول منهُ . ومن المشاهد انها تولع حتى في عهد الطفولة الاولى باللعب بالدمى ومعاملتها معاملة الاطفال ، فتلبسها ملابسها ، وتحملها الى مراقدها

(١) المقتطف : ألا تستثنى مدام كوري على الاقل ؟

وتحاول إطعامها ، كما انها تحنو على الحيوانات الداجنة وتطعمها كلما سنحت لها الفرصة ، اي انها تحاكي امها في اداء وظيفتها ، كأن طبيعتها تملي عليها انها ستصير يوماً ما من الامهات

والبنت تفوق الغلام في إظهار شعورها بحدة ، فهي تضحك وتبكي بصوت مرتفع ، وتظهر تأثرها ببيئتها بسرعة وشدة ، ولكنها تميل الى الانكماش والانزواء والمقاومة السلبية إذا أغضبها أحد ، في حين ان الطفل يحتد ويقاوم مقاومة ايجابية عند الغضب

والبنات لسنَ كالبنين عند حصول نزاع فيما بينهنَّ ، فهنَّ يشكونَ ويبكينَ ويسببنَ ، في حين ان البنين يتقاتلون ويتضاربون ، ويهاجم بعضهم بعضاً مهاجمة فعلية ، كأنَّ طبيعتهم تملي عليهم انهم سيصيرون رجالاً مسئولين عن الدفاع عن انفسهم وعن ذويهم

والنزاع لا يحسم بين البنات بصفة نهائية ، ولكن آثاره تبقى مدة طويلة ، وقد يسعى بعضهنَّ في الكيد والدس لبعض . ولكن البنين كثيراً ما يتصالحون ويتصافون بعد انتهاء التشاجر

وفي الغالب يتلوَّن التنافس بين البنات بألوان سيئة ، وأخلاق مكروهة ، كالحقد والكراهة وحمل الضغينة ، لا سيما ضد من كانت منهنَّ موضع التفات وعناية من بعض الاقارب او الاصدقاء

وتظهر الفروق التي بين الجنسين من الناحية الادراكية في المواد التي تحتاج الى بحث فكري واستنباط وابتكار ، فالبنات يساوين البنين بل يفقنهم في السنين الاولى من سني الدراسة التي يكون التعليم فيها محصوراً في دائرة المحسوسات ، إذ انهنَّ يستظهرنَ المعلومات بسهولة ، ويعنينَ بالنظافة ، والنظام ، والدقة في عمل التمرينات التي يعملنها ، ويقدرنَ الجمال تقديراً تامًّا ، ولذا يولعنَ بالادب قبل ان يولع بهِ البنون ، ويجدنَ الكتابة الانشائية في اول الامر ، لاعتمادهنَّ على محاكاة ما قرأنَ في كتب الادب ، او على ما كتبه لهنَّ الاساتذة . وهذا يظهر بنوع خاص في القصص ، فالحكاية التي ينشئها الغلام تكون في الغالب مفككة الاوصال ، أما الفتاة فتنسج حكايتها نسجاً محكماً مترابط الاجزاء كامل العناصر ، وتسير بالقارىء الى نقطة الموضوع الهامة سيراً منسجماً

ولذلك نرى ان الغلمان يكذبون ، ولكن كذبهم يظهر ، لانهم لا يجيدون التلفيق . اما البنات فيفقنهم على العموم في اجادة هذا الفن . وقد دلت التجارب على ان كذب البنات اكثر من كذب البنين ، وان كذبهنَّ يتأثر في الغالب بنزعات واغراض شخصية ، فقلما تكذب البنت لانقاذ غيرها . أما الولد فكثيراً ما يفعل ذلك . والحق ان الغلام المربَّى تربية حسنة لا يكذب مطلقاً الاَّ لهذا الغرض ، فالأولاد تنقصهم المهارة ، والتظاهر بمظهر المتأكد عند الكذب ، اما كذب البنات فمنمق ملطف ، مفرغٌ بصيغة توهم السامع ان ما قيل هو الحق الصراح . وهذا نوع من المهارة اللغوية ، وهو أساس الفرق بين الرجال والنساء في وصف الحوادث الخارجية ، وتقدير الأعمال ، فالحق عند الرجال ما كان مطابقاً للواقع — بصرف النظر عن شكله أو صيغته . اما النساء فالذي يظهر أنهنَّ يخدعنَ بالشكل الظاهري ، وبالصيغة ، والانسجام ، والزخارف

وقد اثبتت التجارب التي قام بها كثير من العلماء في ظروف مختلفة ان البنين يفوقون البنات — في ادوار التعليم الراقي — في العلوم والرياضيات ، وان البنات يفقن البنين في الفنون كالرسم والتصوير والموسيقى والادب وتعلم اللغات

وقد بحثت اللجنة الاستشارية بوزارة المعارف الانجليزية سنة ١٩٢٢ الفروق التي بين البنين والبنات من هذه الناحية ، مستندة في ذلك الى الدرجات التي حصل عليها كل منهما في امتحانات كيمبردج المحلية فتبين لها :

« ان الدرجات التي حصل عليها البنون كانت اعلى في الرياضة — ومنها الحساب ، وفي الطبيعة ، والكيمياء ، واللغة اللاتينية ، وكذلك في الجغرافية الطبيعية

وان البنات فقن البنين في اللغة الانجليزية ، والتاريخ الانجليزي ، وعلم النبات ، والجغرافية ، واللغة الفرنسية كتابة ومحادثة ، وكذلك في الرسم والتصوير »

وهذه الفروق راجعة الى الفرق الاساسي الذي لخصهُ مسيو لافت بقوله : « نستطيع ان نقول على وجه العموم : ان المرأة على ما يظهر تتأثر بالحقيقة الحسية الواقعية اكثر مما تتأثر وتعني بالفكرة العامة ، واننا معشر الرجال نعني بالعلاقة بين الاشياء اكثر مما نعني بالاشياء ذاتها ، وان عقل المرأة يتعلق بالحسيات اكثر من عقل الرجال الذي يسبح في عالم المعقولات اكثر من عقل النساء »

وقد وجد تيرمان [1] ان الكتب التي يميل البنون الى قراءتها وهم في الحادية عشرة : هي كتب المغامرات ، والاقاصيص المشتملة على مفاجآت غريبة ، وكتب الميكانيكا والطيران والكهرباء ، وكتب الاختراع والكشف ، وكتب العلوم الطبيعية وغيرها

***

اما البنات فيملن في تلك السن الى القراءة في كتب العشق ، وفي كتب القصص المتعلقة بالحياة المنزلية والمدرسية ، وفي الكتب المتعلقة بحياة الحيوان والنبات والازهار او بفلاحة البساتين ، ولا تملن الى الكتب العلمية او الميكانيكية

وقد وجد تيرمان ايضاً ان البنين في الرابعة عشرة يميلون كثيراً الى قراءة المجلات ، ويحبون القراءة عن الرياضة البدنية وعشاقها ، ويزداد شغفهم بكتب الميكانيكا ، وبتراجم الرجال ، وكتب الاسفار ، وحكايات الغابات والادغال

ويميل البنات في هذا السن الى القراءة في المجلات ايضاً ، ويشتد ولعهنَّ بالاقاصيص الغرامية والشعر ، ولا يحفلن كثيراً بحكايات المغامرات ، ولا بكتب الاطفال

وقد اختبر « جوردان » عدداً من البنين والبنات ليعرف انواع الكتب التي يحب مطالعتها كل فريق فوصل الى النتيجة المبينة في الجدول الآتي

(1) Terman. See. The Psychology of Adolescence, by F. D. Brooks P. 295—297

المادة	النسبة المئوية من ١٢ — ١٣ سنة		النسبة المئوية من ١٤ — ١٦ سنة		النسبة المئوية من ١٧ — ١٨ سنة	
	بنون	بنات	بنون	بنات	بنون	بنات
حكايات خرافية عن الكبار	١١ر٧	٣٤ر٦	١٣ر٩	٤٨ر٣	٢٤ر٦	٥٦ر٩
حكايات خرافية عن الصغار	٣ر١	٣٨ر٥	٢ر٥	١٧ر٣	١ر٩	٩ر٧
كتب المغامرات	٦٢ر١	١٩ر٧	٦٣ر٣	٢٥ر٤	٥٢ر٨	٢٧ر١
كتب التراجم	٣ر١	ر٦	٢ر٣	ر٨	١ر٣	١
كتب التاريخ	٢ر٣	—	ر٥	—	ر١	—
كتب الشعر	ر٥	—	١ر٢	١ر٦	٣	٢ر٦
كتب العلوم	—	—	ر١	ر١	ر١	١
كتب الاسفار	—	—	ر١	—	ر١	—
كتب المعلومات العامة	ر٥	ر٢	ر٦	—	ر٦	—
كتب المزاح	٩ر٩	٢ر٥	٧ر٣	٣ر٣	٨ر٥	١ر٩
كتب فنون مختلفة	ر٣	ر٤	ر١	—	ر١	—
لا يولعون بشيء خاص	٦ر٥	٣ر٥	٨ر١	٣ر٢	٨ر٩	١ر٧
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ولا يجولنَّ بخاطر القارىء الكريم ان معنى هـذه التفرقة استصغار شأن المرأة او الحط من كرامتها ، اذ ان التفرقة لا تستدعي الحط من الكرامة وصفات المرأة الخاصة لم تنشأ عن تأخرها في سلم الترقي ، ولكنها نتائج طبيعية للاتجاه العام المستمر نحو التخصص وتوزيع الاعمال

يقول فوييه : « ان المرأة لم تتأخر عن الرجل بل انها سارت معهُ جنباً لجنب ، ولكن تقدمها دائماً الى الغاية التي ترغمها طبيعتها على السير نحوها »

ويقول جيمز ولتون :[1] « ان قياس قوة المرأة الفكرية بقوة الرجل قياس باطل ، وان استنباط ان الرجل اعلى منزلة من المرأة من عجزها عن التفكير الفلسفي استنباط كاذب . نعم ان تقدير الرجل للقوانين والاحكام العامة شيء ، وتقدير المرأة للامثلة والنماذج الحسية المادية شيء آخر ، ولكنا لا نستطيع ان نقول ان هذا اقل منزلة من ذلك ، فكل منهما ضروري في الحياة ، والمرأة باتجاهها الى ناحيتها الخاصة تكمل الرجل في اتجاههِ الى ناحيته ، كما انهُ باتجاهه الخاص يكمل المرأة في اتجاهها فكل منهما مكمل للآخر »

« فليست المسألة مسألة تفضيل الرجل على المرأة ، ولكنها مسألة بيان اختلاف كل عن الآخر

(1) See : The Psychology of Education, P. 131—132

في الصفات الجسمية والعقلية ولذا نعد عبثاً كل محاولة عملية يقوم بهما المجتمع ، وكل منهج تسير عليه الامة يكون الغرض منهُ جعل المرأة مثل الرجل في قواه العقلية ، لانها تكون حينئذٍ محاولة ضالة ، ومنهجاً مبنيًّا على اساس سيكولوجي واهٍ لا يلبث ان ينهار »

ويهمنا كثيراً ان نلفت نظر القارىء الى ان هذا البحث يفضي بنا الى نتيجة عملية لا نزاع في صحتها هي : انهُ ليس من الحزم في شيء ان نرغم البنت على ان تسير مع الولد جنباً لجنب في ادوار التعليم ، او ان نجعل المناهج التي نسير عليها في تعليم البنين مثل التي نسير عليها في تعليم البنات ، فلكل ميول واستعدادات ، ولكل وظيفة خاصة في الحياة تنتظره . فلنعد كلا لوظيفته خير اعداد متبعين في ذلك ما تمليه علينا الطبيعة البشرية ، وما يرشدنا اليه القانون الالهي الاعلى ، الذي يأبى الاَّ ان يكون الرجل رجلاً ، والمرأة امرأة

اننا ان خالفنا تلك الطبيعة البشرية ، وخرجنا على ذلك الناموس الالهي فاننا نعرض ابناءنا لاخطار اجتماعية ربما لا يستطيعون مقاومتها ، ونقع في اخطاء تعليمية قد لا نستطيع إصلاحها

سر النوم وقرب حله

علاج للارق والامراض العصبية

يعمل نفر من علماء مستشفى الامراض العقلية في هوايتشرتش بلندن ويبذلون همة عظيمة لحل لغز يعد من اهم الاسرار الطبيعية وهو لغز النوم لكشف الحجاب عن سره وهم يأملون انهُ لا يمضي طويل حتى يستطيع الطبيب جاب النوم الطبيعي الى المريض الذي يعالجه اذا برَّح بهِ الارق مع الداء ولا سيما اذا كان من المصابين بالنورستينيا فيخلص بذلك الوفاً من الذين يموتون كل سنة لان الارق ينهك قواهم او يساعد امراضهم على الفتك بهم

والمبدأ الذي اتخذوه اساساً لبحثهم هو ان الغدد النخامية التي في قاعدة الدماغ تفرز شكلاً من اشكال البرومين وان سبب النوم اطلاق البرومين لسريانه مع الدم

وقد وصف طبيب معروف في مستشفى تشارنغ كروس معنى هذا الاكتشاف لعالم الطب فقال : ان خلو النوم ثماني ساعات من الاحلام والتقطع المزعج يعود بأعظم فائدة على المرضى والمصابين بالارق . فلذلك يعد هذا الاكتشاف اعظم نعمة على البشرية لان المريض او المؤرق الذي ينام نوم العافية بلا تقطع ينسى كل شيء في نومه فيزول المه كما يفعل السحر فاذا صحا من نومه والألم على حاله في ساعات يقظته امل ان ينام نوماً هادئاً في الليلة التالية وهذا مما يساعده على التغلب على الداء لانه ينبهه تنبيهاً معنويًّا اذا صرفنا النظر عن التأثير الطبيعي ويسبغ عليه شجاعة لمحاربة الداء

ان النوم اعظم لغز في العالم ولا يعلم احد سببه الحقيقي فاذا تمكن اولئك الباحثون من ان يقولوا لنا ما هو كان لهم فضل عظيم على الطب وعلى النوع الانساني

مهام المرأة في الحياة

للمسز روزفلت

سيدة البيت الابيض

نشرت المسز فرنكلين روزفلت قرينة المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة هـذا المقال في احدى الصحف الاميركية وهو ينطوي على كثير من الاختبارات والآراء النافعة فلخصناه فيما يلي:

صرت جدة. واريد الآن ان اذيع اني بلغت الخمسين من عمري من دون ان اشعر بذلك واذا قدر لي ان اعيش السنين السبعين التي تمنحنا اياها التوراة فاكون قد طويت الآن من عمري ثلثيه

اسمع كثيرين وكثيرات يلقون عليَّ السؤالين الآتيين :—

لماذا تظهرين يا مسز روزفلت بمظهر الشباب ولماذا لا تزالين تنهضين باعباء اعمالك كأنك في مقتبل العمر مع انك اصبحت جدة ؟

ان هذين السؤالين يثيران فيَّ عاطفة الاعجاب ولما كنت لا ازال اشعر انني في نضارة الشباب لم يخطر لي قط ان اسأل هل اخذ دبيب الشيخوخة يدب اليَّ او هل يهددني الوهن

لا اشعر باني شيخة وهذا لا يمنعني من النفور من الذين يصرون على التصرف تصرف الشبان مع ان شبيبتهم قد ولت من عهد بعيد ولذلك احاول غير مرة ان اتذكر باني ادركت سن الكهولة ولا اسمح لنفسي او لاولادي او لاصدقائي ان ينسوا هذا الامر. ومع كل ذلك فلا اشعر البتة باني «شيخة»

وقد صرت من عهد بعيد اشعر بوجوب تمتع الانسان بالحياة والتمرس بشتى الشؤون الخطيرة التي تعرض له في حياته فان اكتفاءه بالاهتمام بالامور التي يراها عند متناوله والتي قضت عليهِ الاحوال بالتأمل فيها يحكي بسخافته. جلوسه على كرسي وتأمله في الورق الملصق على جدران الغرفة بدلاً من النافذة فيجب علينا ان نوسع دائرة افق حياتنا ونتذرع بما يتسنى لنا من الذرائع لفهم حياة قريبنا ونكثر من الاصدقاء في مختلف الاوساط ونطلع على ما يشغل خواطر الناس ويستهويهم

اعرف سيدة تجاوزت السبعين من عمرها وارتاح كثيراً الى محادثتها وتشعر ابنتي بمثل ما اشعر بهِ من الارتياح الى معاشرة تلك السيدة العجوز ففي صحبتها تزول فوارق السن بيننا ولا نضطر الى التحفظ من القاء الكلام على عواهنهِ فكأن تلك السيدة الكريمة قد اكتشفت سر الشبيبة الدائمة وما ذلك السر سوى شبيبة الفكر فكم من الذين يشيخون مع بقاء اعضائهم على مرونتها في الحركة ينفرون من معاشرة الشبيبة . لقد صدئت اداة التفكير عندهم واحاطت بها الاوهام فلا قيمة عندهم الاَّ للمبادىء التي كانت شائعة في شبيبتهم واصبحت اذهانهم عاجزة عن تمثيل المبادىء الجديدة لانهم لم يعرفوا كيف يدربونها على معالجة الجديد فهؤلاء يشيخون قبل وصولهم الى سن الشيخوخة

وهذا ما جعلني ادرك سبب عدم تفاهم الوالدين والاولاد . ولا تقضي علينا الحال بان نهتم بترويح خواطر الفتيان والفتيات العائشين معنا بمثل اهتمامنا بترويح خواطرنا

وما عرفت واسطة لبلوغ الشيخوخة قبل الآن كترك سوانا يعمل لنا كل شيء . فالناشئة الجديدة تعدنا — من دون اطالة التفكير في ذلك — في مصاف العجائز او الضعيفي البنية لتوهمهم اننا نعجز عن عمل ما يعملونه لنا. وما نقوله عن الجسم يمكننا ان نقوله عن الفكر وقد لا يتيسر لنا في شيخوختنا تجنب الامراض التي تلم بجسمنا ولكننا اذا فكرنا تفكيراً جديًّا في ذلك مشينا منتصبي القامة الى القبر وانا موقنة ان نشاط الفكر المنوع هو افضل علاج لادواء الجسم

كنت أعرف من سنوات سيدة طاعنة في السن نحيلة الجسم لطيفة المعاشرة فذهبتُ وسيدة في مقتبل الشباب لزيارتها ذات يوم وبعد ما قضينا زيارتنا ورجعنا قالت لي السيدة الشابة هنيئاً لك بمقامك في مدينة تستطيعين كلما شئت ان تزوري فيها مثل هذه السيدة الفاضلة التي يسري حديثها الهمّ عن الفؤاد

والحق يقال ان صديقتي العجوز كانت تنسى نفسها وتظهر بمظهر اللطف والرقة والعطف والجودة والذكاء والتساهل وقد اقتبست تلك الخلال من التجارب وكانت تتفنن في طرق ابواب الموضوعات فتلجها ذاهبة فيها كل مذهب. ويحسن بالنساء الآيسين ان بقاءهنَّ على نضارتهنَّ منوط بحسن صحتهنَّ فيجب على كل منهنَّ ان تنظم اساليب معيشتها بتعيين ساعات النوم ومقدار الغذاء وانواعه ومواعيد التنزه وترويح الخاطر من دون اذاعة ذلك على رؤوس الاشهاد

وما اكثر النساء اللواتي يعنينَ بتربية اولادهنَّ ويهملنَ العناية بانفسهنَّ فالالعاب الرياضية تعد من خصائص المرأة العصرية وهي تشمل رياضة الجسم ورياضة الفكر . ولا ينبغي للمرأة ان تنبذ هذه الرياضة مع تقدمها في العمر فلعبة الجولف مثلاً تلائم المرأة التي هي في الستين من عمرها ملاءمتها للفتاة التي لا تزيد سنها على ثماني عشرة سنة . واذا كانت المرأة قد تعودت ركوب الخيل في العشرين من عمرها فلا مسوغ للعدول عن ذلك حينما تبلغ الثمانين ولكن لا بد لها حينذاك من الاعتدال

أما مهمة المرأة الجوهرية فهي ان تجعل حياتها وحياة الذين تحبهم والذين لها صلة بهم على جانب عظيم من الهناءة والراحة ومن الواجب عليها ان تجعل الحياة محبوبة وذات معنى

فالمرأة التي تعود بالفكر الى الذكريات الماضية تغتبط بان يكون لها الفضل على والديها وزوجها واولادها بجعل روض حياتهم خصباً وجعل شمس البهجة تشرق فيه

واذا شاءت المرأة ان تجعل الذين يحيطون بها راتعين في بحبوحة الهناءة كان امامها مجال واسع للعمل والتفكير ولا يبقى لها وقت لجمود جسمها وقلبها وفكرها . والمرأة الطاعنة في السن لا تخلو حياتها من الفائدة أبداً . أجل انه لا سبيل لها الى المجاهرة بمثل ما كانت تجاهر به من الحب في ابان شبيبتها ولكنها تشتد فيها قوة الفهم والادراك والشعور والحنان مما يساعد الذين تحبهم على المعيشة وفقاً لما تمليه عليهم عواطفهم من دون ان تضطرهم الى العمل بمشيئتها

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

ديمتري بك خلاط

بقلم نقولا شكري

كل ما هو خير وقوة في الطبيعة يستحيل في الغالب الى مزايا وصفات سامية في الانسان . كذلك استحال اخلاف النورماندين الذين انحدروا الى غرب اوربا من ملاَّحين وغزاة الى تجار ومستعمرين بسطوا جناح سيطرتهم على جزء من العالم لا تغيب عنه الشمس

ومن الممكن ان يقال ايضاً عن طبيعة الشرقي انها بمقدار ما تختزن من الخير منذ القديم لا تزال تهب الشرقيين مزايا وصفات يندر ان توجد في غيرهم . ولم تكن رمال الصحراء في بوادي الحجاز تخلو من هذه المزية فان العرب قد استحالوا من رجال اكفاء الى فاتحين وحكَّام

وكأنما يعد من تقاليد الشرق ان يكون الشرقي تاجراً وفي الوقت نفسه أديباً او عالماً واسع الاطلاع او بالعكس مشتغلاً بالعلم وفي مزاجه حب العمل والتوسع في الرزق بوسائل تنم على ذكائه واتصاله القوي بالطبيعة عن طريق المعاملات المادية

ولقد سبق ان كتبنا عن شرقي كبير من العصاميين الذين استحال فيهم خير الطبيعة الشرقية الى مزايا وصفات سامية ونعني بذلك كبير تجار الخشب الكاتب الباحث أسعد باسيلي

ونود ان نقوي هذا المثل في نفوس النشء بوصف شخصية اخرى من هذا الصنف من الرجال الذين كان اساس نجاحهم يرجع رأساً الى الفطرة . شاعر وتاجر من الطراز الاول لا تزال حياته واعماله مثلاً يستحق ان يقتدى به هو حضرة صاحب العزة العالم العامل ديمتري بك خلاط

قلنا ان خير ما في الطبيعة يستحيل بالعصاميين الى مزايا ومواهب سامية ولعلَّ اصدق صورة لذلك تتمثل في ديمتري بك خلاط

بدأ حياته بالاشتغال بالادب والعلم وهي وظيفة لا تزال نعدها من الوظائف الكمالية ولكن يغيب عنا دائماً انها من تقاليد الفطرة الشرقية التي كأنها تأبى ان تقطع شوطاً في سبيل النبوغ والنجاح قبل ان تدل على مواهبها السامية أما في العلم او في الادب . وقد كان نبوغه في التجارة والاعمال المادية الصرفة بعد ان اشتهر اسمه كشاعر وكأديب . وكانت كبريات المجلات العربية قد

فتحت لكتاباته صفحاتها فانتج كثيراً من قبل ان يحقق بذكائه ذلك النجاح العظيم الذي وفق اليه في الاعمال التجارية . ولم يكن من الممكن لرجل دلَّ على مواهبه السامية في الادب ان يؤدي مهمته الكبيرة في الاعمال المادية من دون ان يحقق معجزة تميزه وتشير الى فضله وقد كانت العادة المتبعة لعهده ان التجار يستوردون بضائعهم من الاسواق الكبيرة في اوربا ولكن دمتري بك خلاط التاجر خالف هذه السنَّة بذكائه وجعل يستورد هـذه البضائع عينها من مواردها الاصلية فخلق لنفسه خطوطاً تجارية جديدة ساعدت كثيراً على نجاحه . ويجب ان نعترف بأن النجاح الكبير في التجارة ليس بالمهمة الميسورة ولكن دمتري بك خلاط امتاز فضلاً عن مواهبه بالجرأة وهي رأس مال التاجر وربما كانت جرأته هي اساس اتساع معاملاته عند ما اختار ان يكون من رجال الاعمال . وهي تلك الجرأة نفسها التي جعلت منه في بادىء الامر أي قبل هجرته الى مصر كاتباً حرّ الفكر لا يطيق الصبر على الافتئات والازدراء بالحقوق . فقد يذكر لدمتري بك خلاط الاديب تلك المقالات الرنانة القوية التي ثار بها على رجال الحكومة في بيروت وطرابلس الشام وقت ان كان الشاعر الرقيق والاديب السليم الذوق والافكار . وقد استحال ذلك الشاعر عند ما بدت له وجوه النقص التي يكابدها الجمهور الى صحافي جريء لا يهاب تهديداً ولا وعيداً في سبيل نصرة الحق فأفضت حملاته الى قيام النزاع بينه وبعض أهله . بل لقد أفضت الى هجرانه لموطنه وهبوطه مصر حيث صار من رجال الاعمال البارزين

ولم تكن هجرته سبباً في ظهور مواهبه وفطرته الشعرية فقد اشتهر بهذه المواهب وتلك الفطرة وهو بعد فتى في موطنه طرابلس الشام وكان يملأ بمقالاته وشعره اعمدة « الجنان » و« الجنة » اللتين كان يصدرهما المرحوم المعلم سليم البستاني فقد خص الاولى بالادب والثانية بالسياسة وربما كان من المستظرف ان نذكر لهذه المناسبة محاولة قامت بها الجنان وقتئذٍ في تعريب قصة « سرفانتس » المشهورة بأسماء عربية . وهي محاولة تدل على اخلاص ذلك الجيل من الادباء في جهودهم . ولم يكن شاعرنا وقتئذٍ ينقصه ذلك الاخلاص في اعماله الادبية . بل لقد كان اخلاصه مقروناً بالجرأة وحرية الفكر فكان الى جانب شاعريته وأدبه خطيباً قوي النفس اتفق انه في سنة ١٨٨٩ القى خطاباً في تاريخ التمدن الانساني على غرار خطاب جان جاك روسو في الاختلاف بين حالات الناس « عدم مساواة الناس » ونشر الخطاب في صحيفة الاهرام فكان له أثره العظيم الذي ادى الى تعرفه بتلاميذ جمال الدين الافغاني ولاسيما امير بلغاء ذلك العصر وسيد خطبائهم ونعني به أديب بك اسحق وكان وقتئذٍ يدير جريدة مصر ويحررها . ونحن نعلم مقام اديب بك اسحق وفضله وأثره العظيم الذي خلفه في ادباء العصر الاخير فجعل دمتري بك — وكان لا يزال شاباً مملوءاً حماسة يعمر قلبه الاخلاص والوطنية والشعور القومي — يكتب المقالات والرسائل في جريدة مصر . ولاشك في ان الذين يحفظون ذكرى اديب بك اسحق يغبطون دمتري بك خلاط على الحقبة التي نعم بها بصداقة خطيب عصره

صاحب جريدة مصر . ولاشك ان هذه العلاقة وغيرها لم تكن بلا تأثير في شاعر ناشيء قد ادّخر له الزمن القيام بجهود ادبية ومادية من الطراز الاول

وفي الحقيقة ان ديمتري بك خلاط جعل يباري بقلمه واتخذ من جريدتي مصر والاهرام ميداناً لاظهار مواهبه وبلاغته فنشر في الاخيرة رواية «عزة النفس» ضمنها افكاره الحرة عن دياجي الاستبداد التي كانت مخيمة وقتئذٍ على افق الشرق وكان ذلك قبيل سنة ١٨٨٢ وكذلك شهد ديمتري بك خلاط خير عصر من عصور الادب في مصر ، هو ذلك العصر الذي اشتهر بالاسماء الخالدة التي تستحق تمجيدنا واعترافنا بالجميل ، عصر جمال الدين الافغاني ومحمد عبده واديب اسحق وعبد الله نديم وابراهيم اليازجي وغيرهم من الذين اقاموا قواعد هذه النهضة وبنوا للاخلاف ذلك الهيكل العظيم الذي نمجده الى اليوم

وفي ذلك العصر الذي امتاز بتحرره من القيود عاش ديمتري بك خلاط . ولا شك ان ارتباطه بالعلاقات الادبية مع عظماء ذلك العصر قد وهب لتفكيره كثيراً من الحرية والروح العملي الذي هو اساس الانتاج . ولما كان ديمتري بك خلاط قد هبط مصر قبيل الثورة العرابية وشهد حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٢ لم يكن من الممكن ان يشذ عن الحالة التي سادت مصر في ذاك الوقت ، فانهُ عقب خمود تلك الحركة استأنف الناس في مصر اعمالهم وكان ذلك بقوة وجهد عظيمين كما يكون عادة عقب الفترات التي تشل فيها حركة الاعمال فاختار ان يقف كل جهوده على توسيع دائرة اعماله التجارية وكان لا بد ان تعينهُ مواهبه وذكاؤه الفطري على النجاح فكان اول ما فكر فيه كما قلنا استيراد انواع من البضائع من مصادرها وعيونها على خلاف ما يفعل سائر التجار ولم يستنفد العمل التجاري مع ذلك جهوده فقد كان يسترق الوقت للاطلاع والتأليف ولم يترك وقتاً يفلت منهُ دون ان يقيد رسالة او ينظم قصيدة وكان من حظهِ وحظ الادب وقتئذٍ ان قدم استاذه وصديقه العلامة الدكتور يعقوب صرُّوف مع رفيقه الدكتور فارس نمر فنقلا الى القاهرة ادارة المقتطف وانشأا بالاشتراك مع المغفور له شاهين بك مكاريوس جريدة المقطم فظلَّ من ذلك الحين يوالي المقطم والمقتطف بمقالاته وقصائده . ونذكر انهُ في سنة ١٨٨٨ نشر في المقتطف قصيدة سماها « القصيدة الهندية » وهي من بدائع الشعر العصري ومن خير ما نظمه شاعرنا منها قوله : —

أراكِ في يقظة من لوعة الألم	إني شبيهك مكلوم فعي كلمي
أصغي ولا تعجبي مما اصبت به	اني سعيت الى حتفي على قدمي
وقد حصدت ثمار الوجد يانعة	لما زرعت بذور الضر والنقم
وهكذا الذنب مشفوع بنقمته	وصاحب البرّ لن يشقى ولم يضم

وقد نشرت هذه القصيدة في خير صحف العلم والادب في الشرق العربي وفي مصر حيث امتازت الاكثرية بتذوق الشعر الجيد وتقديره . نقول انه بلغ من استحسان القراء لهذه القصيدة ان المقتطف اعاد نشرها كاملةً بعد سنوات

ومثل ديمتري بك خلاط الرجل الذي كان حب الاطلاع قد استحوذ على ذهنه ، وكان شغفه بالجديد والطريف مزية لمواهبه كشاعر عصري وأديب ملم باللغات الحية ينقل عنها مختارات الرسائل بذوق سليم ومقدرة فائقة — كان من الطبيعي ان تحمله مهمته كتاجر الى القيام برحلة واسعة في انحاء اوربا فجعل زيارته لمعرض باريس الذي اقيم سنة ١٨٩٠ وسيلة لتحقيق هذه الرحلة التي اطلع فيها على مراكز الصناعة والتجارة في العالم المتمدن وقيد ملاحظاته كتاجر واسع المعاملات او كأديب دقيق الملاحظة ميال بفطرته الى الطريف من الاشياء فجاب اوربا غرباً وشرقاً وزار متاحفها والاوساط الكبيرة ورافقته في تلك الرحلة زوجته الفاضلة وهي من السيدات المستنيرات تجيد مع لغتها العربية الانجليزية والفرنسية وتحسن الكلام بالايطالية واليونانية والالمانية . ونعلم ان والدها المرحوم وهبة الله كرم عني بتثقيفها عناية كبيرة ونعتقد ان من النعم الكبرى ان تكون الزوجة مستنيرة تشارك زوجها إفكاره وطباعه وتعينه في جهوده كذلك كانت مدام ديمتري بك خلاط وقد جمعت الى هذه الاستنارة اخلاقاً سامية وتواضعاً كبيراً ولا تزال تساعد زوجها في اعماله وتقيد ما يمليه عليها بعد ان حال الداء الذي اصابه في عينيه عن ادائه لهذه المهمة

ولما عاد من رحلته وضع كتابه النفيس الذي اسماه « السمير في السفر » وضمنه ملاحظاته ومشاهداته وظهرت في ذلك الكتاب مواهب الشاعر والاديب الاريب في تصوير المدن والناس ووصف العادات ولولا ان اصيب منذ سنوات بداء كان يوشك ان يودي بحياته وكتب له الشفاء منه لما انقطعت اعماله الادبية الجليلة التي كانت نواة مجده ونجاحه الكبيرين في ميدان الاعمال

ولقد زرت ديمتري بك اخيراً في منزله وسرني ما شاهدته في فردوسه الارضي كما يسميه وحسب هذه التسمية دليلاً كبيراً على حب الشاعر التاجر لمغناه الذي تتولاه سيدة من انبل العقيلات وافضلهن خلقاً فانشدني ابياتاً فكهة شكا بها الداء الذي اصابه في عينيه « كتراكت » وحجب النور عنهما ضمنها مصراعاً من شعر لبيد قال : —

ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال اهلي ماذا تأكل في غد
اكبيبة ام سمكة مشوية	ام لون أرز بالفراخ مزود
ام هل تروم السير في سيارة	تطأ الثرى في خفة كالهدهد
ومنها : — كلاً . فما من لذة مذ مقلتي	حرمت قراءة كل سفر جيد
حسي ضباب بالعيون مخيم	في كل آن بالظلام مهددي

وانشدني قصيدة اخرى عن الحرية قال — :

جاءت مقنعة بالحلم زائرة	تشق صدر الدجى في طلعة الفجر
فقلت يامهجتي طال البعاد فهل	يبقى الحجاب على محياك والنحر
هلاً تميطينه قالت أتضمن لي	رؤيا الرقيب فيدري كامن السر

ومنها :— تورعت من هوى المحبوب في زرد يرد سهم العدى بالذل والكسر
والحب ليس جميلاً الاَّ صادفه قولاً وفعلاً شريف القصد والفكر
ومنها :— بالله يا معشر العشاق فانشدوا وقلبوا الرأي بين الحلم والصبر
فهل تظنون قلبي كرة صنعت للعبة الناس بين الكر والفر
ومنها :— هل حالة القفص المصنوع من ذهب لنفسنا فرج من خيفة الحصر

وبقي ديمتري بك خلاط ينهض بأعماله التجارية خير نهوض من دون ان ينقطع عن الاشتغال بالكتابة والشعر. وفي سنة ١٩٢٠ نقلت جرائد سوريا قصيدته اللبنانية التي نشرها في المقطم يؤيد بها رأي اللبنانيين في ضم مدن صيدا وبيروت وطرابلس الى لبنان بعد انفصالها عنه سنة ١٨٦٠ وكانت منه بمنزلة القلب من الجسم فأفضى السعي الى ان رفعت الدولة المنتدبة ذلك الجور عن لبنان واعادته الى حدوده القديمة واطلقت عليه اسم لبنان الكبير

وكذلك كان شاعرنا الجليل موفقاً الى القيام بجهود مثمرة في دائرة السياسة كتوفيقه في الشعر والادب

وفي غضون ذلك كان تقدير صفات ديمتري بك خلاط من جميع الذين عرفوه وعرفوا فضله ومواهبه فانعم عليه سنة ١٩١٧ برتبة البكوية تقديراً لمكانته وكان من قبل قد اشترك في عضوية بعض الشركات والجمعيات لاسيا مجلس ادارة البورصة ومجلس ادارة شركة الملح والصودا والجمعية الخيرية للسوريين الارثوذكس وهو الذي تولى تصفية البورصة من المساهمين وكان وقتئذ قد احرز مكانته العظيمة في الدائرة التجارية مقدار ما ذاعت شهرته كاديب وشاعر. وفي سنة ١٩٢٦ انعمت عليه الحكومة البلجيكية بنشان رفيع تقديراً لمكانته وجهوده في سبيل شركة ترام الاسكندرية والرمل

***

هذه الحياة الكبيرة الحافلة بالاعمال والانتاج القيم التي جعلت من ديمتري بك خلاط تاجراً عظيم المكانة تستحق ان نسوقها لشباب هذا العصر لكي يقتدوا بها فان الاعمال المادية لا تعوق ابداً الاشتغال بالتفكير المنتج ولا تحول دون الانتاج في الادب. لقد رأينا كيف أن شاعرنا كان يقوم بتوسيع علاقاته ومعاملاته التجارية دون ان يمنعه ذلك من الاشتهار في الادب والشعر. ولا بد من معرفة الصفات التي امتازت بها شخصية ديمتري بك خلاط فهو رغم اشتغاله بالاعمال التجارية التي رفعت مكانته قد اشتهر بميوله الانسانية وتواضعه وهدوء نفسه

وديمتري بك قد بلغ اليوم حدود السبعين ولا يزال على عهده من الصراحة والجرأة وتلك الدقة التي الفها في تنظيم حياته واعماله. ولعلَّ ذلك اظهر صفاته وهي الصفات التي كوَّنت عناصر نجاحه. وهو رغم الصبغة الاوربية التي استحوذت على حياته بداعي الضرورات الاجتماعية فان هذه الحياة في جوهرها تمثل الاحتفاظ بالتقاليد الشرقية



عصر التبسيط والتعميم(١)

فتوحات العلم الحديث

في هذا العصر حاجة دائمة الى تبسيط العلوم والمعارف وتعميمها ، لانهُ عصر الجمهور وعصر الاخصاء

فالجمهور لا يفهم التفصيلات العلمية والدقائق الفنية ، ولا طاقة له بدرس المشكلات وحل الغوامض ولكنهُ يعيش في عصر كثرت فيهِ المخترعات التي يستفيد منها ولا بدَّ له من السؤال عن سببها ، ولا بدَّ له من جواب سهل صحيح يغنيه ما استطاع ويتيح له ان يعيش في زمانه كما يعيش البصير المدرك لما حوله . فكتب التبسيط العلمي تسد هذه الحاجة وتحقق وجود الانسان في عصره ، لانهُ بغير المعرفة التي يستمدها من تلك الكتب يعاني غربة عن الزمن شرًّا من الغربة عن الوطن ، ونعم الكتاب الكتاب يضع الحياة في مستقرها ويرد العقل الانساني الى زمانهِ ومكانهِ

وهنالك من العلماءِ السبَّاقين من يفهم الدقائق المفصلة في علمهِ ولا يتسع وقته لفهم المبادىء المجملة في العلوم الاخرى فقد يبلغ من اتساع الطب والهندسة وعلوم الطبيعة ان يكون الفرق بين طبيب في فرع من الطب وزميل له في فرع آخر كالفرق بين الطبيب عامة والمهندس عامة ، من حيث الاحاطة باجزاء العلم وأبوابه ،فليست الحاجة الى التبسيط والتعميم مقصورة على جمهرة العامة والسواد دون الخاصة من فطاحل العلماء ، بل هي حاجة يدعو اليها فرط العلم وقلة الحظ منهُ في آن واحد ، إذ ليس يجمل بالقانوني الضليع أن يصغى الى حديث عن « المذيع » الذي يسمعهُ باذنيه كأنهُ يصغى الى رطانة او طلاسم ،وليس يجمل بالعالم الزراعي ان يصغى الى حديث عن السماء وشموسها وسياراتها كأنهُ لا يرفع بصره من الارض التي يزرعها، وانما يجمل بكل عالم ان يستوفي علمه ولا يجهل الضروري من العلوم كافة ، وهو في هذا يلتقي بجمهرة السواد في الحاجة الى مراجع التبسيط والتعميم

---

(١) « فتوحات العلم الحديث » اسم الكتاب الذي اصدرته مجلة المقتطف في اوائل سبتمبر ليكون هدية الى مشتركيها بدلا من عددي اغسطس وسبتمبر سنة ١٩٣٤ — صفحاته ٣٣٦ صفحة قطع المقتطف . وهذا هو المقال الذي تفضل فكتبه فيه الاستاذ عباس محمود العقاد ونشره في الصفحة الادبية من جريدة الجهاد وقد نقلناه باذن منه

وقد نشأت في اوربا شركات كبرى لنشر الاصول العلمية والفلسفية والادبية في قالب سهل التناول مفيد لجميع الطبقات ، فاصبح في مقدور كل قارىء ان يطلع على اغرب الحقائق العلمية والعقلية مفسرة ميسرة في رسائل صغيرة حسنة التمهيد والتقسيم تعطيه ما يغنيه وتريحه مما يشكل عليه . والى جانبي — وانا اكتب هذا — عشرات من العجالات تصدرها شركة ارنست بن في مختلف المعارف الانسانية وقد عهدت في كتابة كل عجالة منها الى حجة عليم بتلك المعرفة، وهأنذا أتناول عشراً منها بغير ترتيب مقصود ، فاذا العجالة الثامنة عشرة في تاريخ الهند ، والتاسعة عشرة في الاسلام ، والعشرون في عهد الاصلاح ، والحادية والعشرون في الصحافة ، والثانية والعشرون في السكك الحديدية ، والثالثة والعشرون في المصورين الانجليز بالالوان المائية ، والرابعة والعشرون في فلاسفة العالم العظام ، والخامسة والعشرون في الحرب على اليابسة ، والسادسة والعشرون في رؤساء الوزارات الانجليز ، والسابعة والعشرون في علم الجريمة ، والثامنة والعشرون في القصة الفرنسية ، وقس على ذلك تنوع المعارف واتساع الافق وكثرة الموضوعات ، فاذا فرغت من قراءة الرسالة ولم نستوف كل ما تتوق اليه من شرح وتفصيل فأنت واجد في الصفحة الاخيرة منها سجلاً باسماء الكتب المطولة يحصي لك اهم المراجع واحقها بالاعتماد ويدع لك ان تختار منها ما تشاء للتوسع والاستقصاء

ونحن احوج من الاوربيين الى امثال هذه العجالات او الى تبسيط المعارف وتعميمها وتشويق القراء اليها . ولهذا نرحب كل الترحيب بالسفر الجديد الذي اصدره الاستاذ الباحث فؤاد صرّوف محرر « المقتطف » ونعني به « فتوحات العلم الحديث » فانه سفر حافل بالبسائط الجليلة يدور البحث فيه على نحو ستين موضوعاً من المعارف الانسانية التي تدخل في علم الاجتماع والعمران او علم الفلك والسماوات او علم الطبيعة وألغازها او علم الطب او علم الحياة وما بين ذلك من مباحث يمتزج فيها العلم والفلسفة والتقرير بالتقدير ، وقد افتتحه الاستاذ بكلمة مقتبسة من «هربرت هوفر» رئيس الولايات المتحدة السابق يقول فيها : « ان علماءنا ومستنبطينا اغلى الممتلكات القومية التي نملكها . كل مبلغ من المال مهما يعظم ضئيل ازاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الابداع والتفاني والمثابرة على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا به الى البيوت فينشروا فيها اسباب الصحة والراحة والرفاهة ، اننا لا نستطيع ان نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل ارباح البنوك في جميع ارجاء المعمورة »

وهذه كلمة بديهية ولكنها ضرورية من رئيس جمهورية يخاطب الناس عامة ، فان الغريب في نظرنا ان توضع « ارباح البنوك » موضع المقابلة والموازنة لفتوح العقول ، ولكن ربما كان في الدنيا ملايين يستغربون ان توضع فتوح العقول موضع المقابلة والموازنة لارباح البنوك في جميع ارجاء المعمورة ، فهؤلاء يحتاجون الى تلك الكلمة من رئيس حكومة يعنى بالمعيشة قبل عنايته بالتفكير . وتحضرنا لهذه المناسبة كلمة الشاعر الالماني الاسرائيلي هنريك هيني التي يقول فيها على طريقته

في مزج التهكم بالجد : ان ابناء اسرائيل تركوا هيكل سليمان يحترق بما فيه من الحلى والجواهر والتحف النوادر ولم يستنقذوا منهُ الاَّ الكتاب . . . أليس هذا حجة على فضل الكتاب من « آل خبرة » بالاموال والنفائس ! !

وسيرى الذين يطلعون على «فتوحات العلم الحديث» انه امتع من قصة واولى بالقراءة من كتاب تسلية ، فهو اشبه بدليل الآثار الذي يتفقده السائح كل لحظة ولا يستمتع بسياحته أو يستفيد منها بغير الرجوع اليه ، وكذلك هذا الكتاب عند من يرى عجائب الكون وألغاز العلم في العصر الحاضر فهو دليل يريه واضحاً ممتعاً ما كان يراه غامضاً مغلقاً لايتصل بالعقل ولا بالشعور ، وان انساناً يعيش في عصرنا ولا يشعر بالحاجة الى استطلاع هذه العجائب والالغاز لهو أغرب من سائح يزور الاهرام وابواب الملوك وقصر أنس الوجود ولا دليل معه ولا اطلاع على التاريخ

***

قال الاستاذ فؤاد صرُّوف في مقدمته على مقام العلم في الحضارة : « كثيراً ما نسيءُ فهم الفرق بين البحث الصناعي العملي والبحث العلمي المجرد ، ان البحث الصناعي بطبيعته يتجه الى حل مسألة خاصة تعترض سبيل الصناع في عملهم ؛ فاذا توصل الباحث الى حل المشكل الذي امامه قضى لبانته من البحث وحول جهده الى غيره جاعلاً همه في كل عمله الوصول الى غاية معينة . اما البحث العلمي فغايته توسيع نطاق المعرفة بكشف نواميس الطبيعة والحياة ، وبعض هذه المباحث قد يعود — وكثيراً ما يعود — على الصناعات بفائدة اكبر واعم من المباحث الصناعية الضيقة النطاق التي يقصد منها حل مشكلة خاصة . فالبحث الصناعي قد يكون وسيلة لاتقان جزء خاص من المحرّك الكهربائي او المصباح الكهربائي ولكن البحث العلمي المجرد الذي كشف لنا ناموساً واحداً من نواميس الكهربائية جعل كل المحركات وكل المولدات الكهربائية في حيز الامكان ، ولولا كشفه لما كانت هي على الاطلاق»

وقد صدق الاستاذ في ملاحظته العلمية الفلسفية . فان الواجب الاول على طلاب الخير للانسانية ان يغرسوا في النفوس حب الاستطلاع لانه يدل على سعة الحياة والشوق الى المزيد منها ، ثم تجيء الصناعات والفوائد المعيشية مما يكشفه المستطلعون ويبدعهُ المخترعون ، فحب الاستطلاع كفيل بأن يمتعنا بالحياة والشعور ، ويزوّدنا بالمنافع والصناعات ، وليس الفرق بين امة رفيعة وأمة وضيعة الاَّ الفرق في حب الاستطلاع الذي يؤدي الى اقتحام الجديد من الابواب وفتح المغلق من الاسرار ، وأول ما يبدو من علامات ارتفاع الامة ان تتصرف في معاشها تصرف المؤمنين بهذه الحقيقة . اما الامم التي لا يطمح فيها الانسان الى شرف المعرفة الاَّ اذا نقدوه الثمن سلفاً من الفوائد المحسوسة فبينها وبين التقدم والارتفاع شوط بعيد

عباس محمود العقاد

ما قلّ ودلّ

تأليف احمد الصاوي محمد — مجلدان صفحاتهما ٤٧٨ — قطع صغير — مطبعة دار الكتب

ينعم بعض الناس ، بموهبة النظرة السريعة الخاطفة ، يستجلون بها غامضاً من الغوامض ، او ينفذون بها الى كنه عمل من الاعمال او نفس من النفوس ، او يرون بها في حادث عبرة لا يراها الغير ، او يصيبون نكتة قد تجيء هي والعبرة سواء . والصاوي أحد هؤلاءِ . بل انهُ علاوة على ذلك كاتب رسّام ، يرسم بالكلمات المشاهد والحوادث احياناً ، وخلجات النفس او همسات الضمير او العِبرَ المستخرجة من كل ذلك احياناً اخرى ، وهو الغالب . فهو اذا رأى في الشارع فتاة تسير مرفوعة الرأس معتزّة بجمالها مزهوّة زهواً يكاد يبلغ حدّ الصلف كأنها تتحدّى النساء وتكيد للرجال لم يكتفِ بقوله انها مسرفة وانها معتدّة بنفسها ، بل نظر اليها نظرة عاطفية فأسند اعتدادها بنفسها الى « ان قلبها لا يزال خالياً ، فهي تسير شاعرة باستقلالها ، تقطع الطريق رافعة الرأس لانها ترى من حولها القيود والاغلال . . . . أنا افهم هذا الجبين المرفوع . . . . انهُ رمز التحرّر من عبودية الجيل ، ولكنهُ رمز لا يطول مداه ، فان الرجل يتربص بهِ . . . . » وفي هذا التعليل كثير من الشعر

او قد تأتيهِ رسالة يستفتى فيها في موضوع عاطفيّ خاص وهو في الوقت عينهِ اجتماعي عام . أين تضع قلبها ؟ فيردُّ وفي قوله حكمة خالصة : « نعم يا سيدتي لها حق الحبّ والحياة على شريطة ان تعرف اين تضع قلبها ، صحيح ان هذا القلب ملكها ولكن ليس للمالك ان يلقي برأس مالهِ كلهِ في البحر ويجلس بعد ذلك على الشاطىء يندب سوء المآل ، بل ان المال الضائع قد يعوَّض اما القلب المنكسر فهيهات ان يجبَر . والفتاة المصرية يا سيدتي . قلما تعرف كيف تحب ، لانهُ لاسبيل لها الى اختبار النفوس ، فهي لا تكاد تحبُّ الاّ الوجوه ، والوجوه كثيراً ما تكون خادعة »

واغلب ما يراه في شؤون المرأة المصرية ونهضتها ومكانتها الاجتماعية، متسم بسمة الجرأة والحكمة. وقد تكون اقوالهُ هذه في نظر الذين خبروا الحياة في الاوساط الاوربية او في اوربا نفسها ، كلاماً معاداً، ولكن هؤلاءِ ينسون ، ان « نسبية » اينشتين ، ليست محصورة في الرياضة العليا والطبيعة

ولهُ كذلك في الاجتماع المصري نظرات ينقد بها ما يراه فيهِ من مواطن الضعف ، في بعض العادات والتقاليد ، ولكن ذلك لا يحول دون تمجيد ما يراه جديراً بالتمجيد، مستعيناً عليهِ بأقوال الحكماء وعِبر التاريخ . بل انك لتقع احياناً على مقطعات في صفحاتهِ هذه ، تنم على شاعرية صاحبها مع اننا لا نعلم انهُ نظم او حاول نظم الشعر

ولقد أنصف الاستاذ انطون الجميّل بك في تقديرهِ هذا الكتاب اذ قال في مقدمتهِ: « بعض مقالات « ما قلّ ودلّ » وليد الحوادث اليومية العابرة ، يذهب معها وينطوي بطيّها ، والبعض الآخر يتناول موضوعات اجتماعية وخلقية وقومية ثابتة لا تضيع بهجتها ولا تبلى جدّتها » . فالذين يطلبون

من الصاوي التعمق في كل موضوع يتناولهُ ، ينسون انهُ صحافيٌّ ، يكفيهِ في التعليق على حوادث يومهِ ، ما تمليهِ عليهِ البداهة التي صقلها الاختبار وحفزها حب الخير ، فيدل على مواضع للبحث والتنقيب والتبسط ، يعالجها المتفرغون لذلك . ولا يصحُّ ان نختم هـذه العجالة في كتاب « ما قلَّ ودلَّ » من غير ان نشير ، الى ان الصاوي — مشتركاً مع مطبعة دار الكتب المصرية — جدير بأعظم الثناء ، على عنايته العظيمة بالناحيـة الفنية من طبع كتابهِ . فالحجم الذي اختاره ، والرسوم التي زان صفحاتهِ بها ، والغلاف البسيط الرزين القوي الذي غلفهُ بهِ ، كل ذلك يجب ان يصبح مثلا للمؤلفين والناشرين يحتذونهُ . فانهُ اثبت ان في إمكان المطبعة العربية، اخراج كتب متقنة الطبع تبهج رؤيتها العين والنفس، وكم من كتاب نفيس كانت بليتهُ في سخف ورقهِ وسقم طبعهِ

تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني

حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ الى سنة ١٦٣٥

صفحاته ٤٥٠ بالقطع المتوسط وثمنه ١٣٥ قرشاً سورياً في الخارج

الف هذا الكتاب حضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو مجمع اللغة العربية الملكي بمصر وعضو المجمعين العاميين في دمشق وبيروت فجاء حافلاً بالمعلومات التاريخية الطريفة والبيانات المفيدة التي كان اكثرها مجهولاً لدى المشتغلين بالتاريخ . ويحتوي هذا الكتاب على خلاصة وجيزة لتاريخ لبنـان في زمن الفتح العثماني استطرد منهُ المؤلف الى الكلام عن نسب الاسرة المعنية وعن نشأة فخر الدين الثاني المعني وعن توليه حكم لبنان وعن سفره الى ايطاليا لاجئاً الى حكومتها ثم رجوعه الى بلاده وعودته الى تسلم زمام الحكم وتوسيعه نطاق امارته حتى طرابلس وحلب وفلسطين ودمشق وما تلا ذلك من حرب الدولة العثمانية له والقبض عليهِ وعلى اسرتهِ وارسالهم الى الاستانة وقتله واولاده فيها

وفي الكتاب مباحث وافية عن اعمال المعنّي العمرانية وعن علاقاته بفرنسا وايطاليا ومعاهداته معهما وعن البعثات الدينية الاجنبية وتاريخها في الشام . وعن عادات الامير واخلاقه وعائلته مع رسوم شمسية نادرة . وقد رجع مؤلفهُ الفاضل الى كثير من المصادر التاريخية الايطالية والفرنسية والتركية والروسية والالمانية والمخطوطات العربية التي لم تنشر فجاء وافياً بالمقصود يمثل الحياة العامة في لبنان اصدق تمثيل في تلك الحقبة ولا يستغنى عنهُ الذين يعنون بالعلوم التاريخية ويحرصون على دراسة حالة لبنان في تلك العصور وما بلغهُ من تقدم وعمران على يد اميره المعني

واعترافنا بفائدة الكتاب وتنويهنا بخطورة شأنه من الجهتين التاريخية والعلمية لا يمنعاننا من تذكير حضرة مؤلفهِ الفاضل بملاحظة بسيطة تختص « بالشكل » لا « بالموضوع » . وهي كثرة الحواشي وتعددها في ذيل صفحاته حتى يكاد القارىء يضل في تيهها الواسع فينصرف عن تلاوة المتن مع انهُ لو ادمج معظمها في متنهِ ما دامت متصلة بالموضوع او لو افرد لها صفحات خاصة وضعت كملاحق يرجع اليها القارىء المتبحر لخففت بعض العناء عنهُ ولعلهُ يأخذ بها في الطبعة الثانية ان شاء الله

مفتاح كنوز السنّة

وضعه بالانجليزية الاستاذ فنسنك وترجمه الاستاذ «محمد فؤاد عبد الباقي»
نشرته «لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية» مطبعة مصر سنة ١٣٥٣هـ سنة ١٩٣٤م

كتب الاستاذ العالم الجليل السيد محمد رشيد رضا المقدمة الاولى لهذا الكتاب ، والمقدمة الثانية كتبها المحدث البارع الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر ونحن ننشر هنا جزءًا من هذه المقدمة النفيسة ليفي بالغرض في تعريف القراء بهذا الكتاب : قال

هذا الكتاب جعله مؤلفه فهرساً لثلاثة عشر كتاباً من امهات كتب الحديث وهي : مسند الامام احمد بن حنبل ، صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، سنن الدارمي ، سنن ابي داود السجستاني سنن الترمذي ، سنن النسائي ، سنن ابن ماجه ، وهذه الثمانية هي اصول السنّة ، ومصادرها الصحيحة الموثوق بها ، ويندر ان يكون حديث صحيح خارجاً عنها ليس موجوداً في احدها

ثم موطأ الامام مالك ومسند ابي داود الطيالسي ، وهما من اقدم الكتب المؤلفة في الحديث ، فان مالكاً والطيالسي من علماء القرن الثاني الهجري ، وان كان الطيالسيُّ تأخرت وفاته الى اول القرن الثالث (سنة ٢٠٤)

ثم سيرة ابن هشام المتوفي سنة ٢١٨ هجرية ، وهي اختصار وتهذيب لاول كتاب ألف في السيرة ، وهو كتاب محمد بن اسحق رئيس اهل المغازي المتوفي سنة ١٥١ هجرية

ثم كتاب المغازي للامام محمد بن عمر الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧

ثم اعظم كتاب جمع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وهو كتاب (الطبقات الكبيرة) للامام الحافظ الثقة محمد ابن سعد المتوفي سنة ٢٣٠ وهو تلميذ الواقدي وكاتبه

والكتاب الرابع عشر: المسند المنسوب للامام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المتوفي شهيداً سنة ١٢٢ . وهذا الكتاب عمدة في الفقه عند علماء الزيدية من الشيعة ، ولو صحت نسبته الى الامام زيد عليه السلام لكان اقدم كتاب موجود من كتب الائمة المتقدمين ، الاّ ان الراوي لهُ عن زيد رجل لا يوثق بشيء من روايته عند أئمة الحديث ، وهو ابو خالد عمرو بن خالد الواسطي ، رماه العلماء بالكذب في الرواية ، قال الامام احمد بن حنبل في شأنهِ : « كذاب ، يروي عن زيد بن علي عن آبائه احاديث موضوعة »

وقد رتب الاستاذ ونسنك كتابه على المعاني والمسائل العلمية والاعلام التاريخية ، وقسم كل معنى او ترجمة الى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك . ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم . واجتهد في جمع ما يتعلق بكل مسألة من الاحاديث والآثار الواردة في هذه الكتب ، ولكني في مطالعتي وجدت انهُ لم يستقرِ كل الاستقراء ، وهذا مرجعه الى صعوبة العمل الذي قام به عن غير مثال يحتذى

واعتمد في مسند الطيالسي على طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢١ هجرية ، وفي مسند زيد على طبعة ميلانو سنة ١٩١٩ ميلادية ، والاحاديث في الكتابين لها ارقام متتابعة ، فأشار الى ارقامها فيهما

واعتمد في مسند احمد على طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هجرية ، وفي طبقات ابن سعد على طبعة ليدن سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٨ ميلادية ، وفي سيرة ابن هشام على طبعة غوتنغن سنة ١٨٥٩ — ١٨٦٠ ميلادية . وفي مغازي الواقدي على ترجمتها المطبوعة في برلين سنة ١٨٨٢ ميلادية . واشار الى ارقام الصحف في كل منها

ولكثرة الطبعات في سائر الكتب — وهي الكتب الستة والموطأ والدارمي — اعتمد على ارقام ابتدعها لكل واحد منها باصطلاح له أبان عنه في مقدمة كتابه ، وذلك انهُ قسم كلاً منها ما عدا صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك — الى كتب (او مجموعات للابواب) وكل كتاب الى الابواب التي ذكرها مؤلفه فيه ، وجعل لكل كتاب منها رقماً متتابعاً ، ثم لكل باب من كتاب رقماً متتابعاً ايضاً ، واشار الى مواضع الاحاديث بأرقام الكتب والابواب ، الاَّ في كتاب التفسير من صحيح البخاري وهو المرقوم برقم (٦٥) ومن صحيح مسلم ، وهو برقم (٥٤) ، ومن سنن الترمذي ، وهو برقم (٤٤) فاعتمد على عدد سور القرآن ، واشار الى كل سورة برقمها في موضعها من المصحف

واما صحيح البخاري فان طبعة ليدن فيها ارقام الكتب والابواب من عمل مصححها

وأما صحيح مسلم فانه ليس فيه تراجم للابواب من عمل مؤلفه ، بل التراجم التي كتبت على حاشيته من وضع الشرَّاح الذين جاءوا بعده ، واهمهم الامام النووي رحمه الله . ويوجد في صحيح مسلم كثير من المتابعات ، وهي الاسانيد التي يروي بها حديثاً تأكيداً للاسناد الاول الذي رواه به ، فالراوي الثاني يتابع الراوي الذي ذكر قبله في روايته ويؤيده . فرأى الاستاذ ونسنك ان يعتبر الاحاديث الاصول في الابواب ويدع الاشارة الى المتابعات ، ورقَّم الاحاديث الاصول في كل كتاب من كتب صحيح مسلم بأرقام متتابعة يشير اليها في كتابه

واما موطأ مالك فان الاستاذ ونسنك قسمه الى كتب ، لانهُ لم يكن مقسماً تقسيماً واضحاً ، ثمَّ وضع ارقاماً متتابعة للكتب وللاحاديث فقط ، وترك ما لا يحتوي الاَّ على آراء مالك وغيره من الائمة ، لانها ليست من مقاصد هذا الفهرس

والطبعات التي اعتمد عليها في تقسيم الكتب والابواب الثمانية هي : البخاري طبعة ليدن سنة ١٨٦٢—١٨٦٨ و ١٩٠٧—١٩٠٨ ، ومسلم طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ ، وابو داود طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ ، والترمذي طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ ، والنسائي طبعة القاهرة سنة ١٣١٢ ، وابن ماجه طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ ، والدارمي طبعة دهلي سنة ١٣٣٧ ، والموطأ طبعة القاهرة سنة ١٢٧٩

وقد وضع الاخ محمد فؤاد عبد الباقي افندي جداول مفصلة للكتب والابواب والاحاديث في كل كتاب من هذه الثمانية ، لتكون مرشداً للقارىء يستعين بها على البحث عما يريد من الاحاديث

« وانا انصح لكل من يقتني هذا الكتاب النفيس ان يعنى بدراسة اصطلاحه في تقسيم الكتب والابواب والاحاديث في الكتب الثمانية ، ثم يضع ارقام الكتب والابواب ، والاحاديث على النسخ التي لديه منها ، وبذلك يسهل عليه البحث عن اي حديث يحتاج اليهِ ، بأيسر الطرق واسرعها دلالة »

ولعلَّ نشر هذا الكتاب بلغتنا العربية الشريفة يكون سبباً في اقبال المتعلمين من جميع الطبقات على الاشتغال بالسنَّة النبوية ، وعلى الاستفادة من كتب الحديث ، وهي كنوز العلم والحكمة ، التي اعرض عنها اكثر الناس . اما جهلاً بفائدتها ، واما عجزاً عن المراجعة فيها عند الحاجة

هذا وقد عني الصديق فؤاد افندي بالدقة في الترجمة اتم عناية ، فانهُ لم يترجم معنىً من المعاني حتى رجع الى الاحاديث في مصادرها التي أشار اليها المؤلف ، وعبّر عنها بالعبارة الصحيحة التي تدل عليها الاحاديث ، ولذلك مكث في ترجمته اربع سنين ، ثم لم يضن على طبعه بالمال ، فاختار له ارقى المطابع في القاهرة . وهي (مطبعة مصر) ، وانتقى اجود انواع الورق ، فأبرز الكتاب كاملاً

« ملوك الطوائف ، ونظرات في تاريخ الاسلام »

تأليف دوزي (المستشرق) وترجمه الاستاذ كامل كيلاني . نشرته مكتبة عيسى الحلبي وشركاه سنة ١٣٥١ و١٩٣٤

دوزي — مستشرق معدود في الطبقة الاولى من الاعاجم الذين صرفوا قلوبهم الى دراسة العربية وما فيها من الكتب . و « بعد » فقد كتبنا في مقتطف مارس سنة ١٩٣٣ ان الأمة العربية ابتليت ببليتين : أولاها ، انهُ لم ينتدب أحد من اهل هذه اللغة الى التنقيب عن آثار الامة العربية التي طويت في أرضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك ، والاخرى : انهُ لم يخفَّ احد الى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفي من أساليب العرب واحوالها وعاداتها في الاجتماع والادب واللغة حتى جاءنا في هذا العصر أصحاب الألسنة الاعجمية من دول اوربا بأقوالهم في تاريخنا وأدبنا وديننا بالكلام الجيد تارةً والفهم الملتوي والتعليل الفاسد تارةً اخرى

فهذا الكتاب الذي ترجمهُ الاستاذ كامل كيلاني وتنصَّل من الاثم فيه بقوله « اذا كان العلامة فخر الدين الرازي يقول في مقدمته لشرح «الاشارات» لابن سينا : «ان التقرير غير الردّ» والتفسير غير النقد » فما أجدرنا ان نقول « والترجمة غير النقد » نقول هذا الكتاب قسمان الاول ما كتبهُ دوزي عن ملوك الطوائف والآخر فصول من كلام دوزي في تاريخ الاسلام . والاول أهونهما خطراً وأقلهما خطأً والآخر ما هو الاَّ تركيب فاسد قد اجتمع لهذا المستشرق من (استخراج) فاسد من كتب التاريخ الاسلامي وغيرها وترقى فيها بالخديعة الكتابية الى تأليف كلام يشبه التحقيق العلمي وما هو منه في شيء . وهذه عادة هذه الفئة من المستشرقين الذين يتعرضون لتاريخ الاسلام ورجاله ، لا يتورعون عن عرض آرائهم في اسواق الكتب ثم لا يبالون الاَّ بالنسج الذي نسجوه غير ناظرين الى الحقيقة العلمية

ولقد قرأت هـذا الكتاب ووقفت على ما فيه من مواضع الخطإ وأحصيت عليه الآراء التي ترفق في عرضها وأخذ يلوكها مرة ثم مرة مجمجماً غير مصرّح ، وكنت على عزيمة تبيانها للقارىء ولكني رأيت ان ذلك مما يستنفد معنا في هذا الباب من المجلة صفحات كثيرة ، ثم وجدت أن الاستاذ « محمد امين هلال » قد سبقني وكتب في جريدة البلاغ مقالات دقيقة اطلعت على الرابعة والخامسة منها ، وقد وقف فيها عند ما وقفت عليهِ ودافع كلام هذا المستشرق بالحجة الصحيحة ، وأوثر ان انقل الى القارىء هنا جزءًا من كلمة الاستاذ « محمـد امين هلال » التي نشرت في بلاغ (الثلاثاء ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ — ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٤) لما فيها من الفائدة

«يظهر ان اتهام رجال العرب الفاتحين — خصوصاً في الدولة الاموية — بالوثنية والحنين الى عهودها كان صدًى لما كان يشيعه اعداء الاسلام من انهُ دين وثني وان المسلمين جماعة من الوثنيين تغلبوا على الارض المقدسة ونفوا منها كل فضيلة واخلاص ولقد رأينا هذه الاقوال الكاذبة ينشرها دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة إبان الحروب الصليبية فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم ان اعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة ومجاملة

« ونحن اذا تخيرنا من بين خلفاء الامويين الذين يتهمهم العلامة دوزي ببغض الاسلام ابغض هؤلاء الخلفاء وابعدهم عن قلوب المسلمين وهو يزيد بن معاوية مثلاً نجده كان يعمل للاسلام ويأمر قواده بذلك فقد حـدثنا التاريخ ان عقبة بن نافع عامل يزيد لما فتح بلاد البربر وسار الى السوس الاقصى حتى وصل الى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطي) قال « يا رب لولا هـذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك» وانه لما سار الى (تهوذا) ورآه الروم في قلة طمعوا فيهِ فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام ثم تكاثروا عليه وقتلوه

«ورأينا قتيبة بن مسلم عامل الحجاج بن يوسف «المشهور بغطرسته وقسوته» يخطب في الناس ويقول لهم : ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد لكم المال استفاضة والعدو قمعاً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله احسن الثواب واعظم الذخر عنده فقال « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الاَّ كتب لهم بهِ عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الاَّ كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون *) ثم اخبر عمن قتل في سبيله انهُ حي يرزق فقال (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون *) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا انفسكم على اقصى اثر وأمض ألم وإياي والهوينا !

«وقتيبة هذا هو الذي تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب ودعاه الى بلاده وكذلك

فعل ملك كفتان وأنصف له من ملك آخرون وشومان وكتب اليهِ الحجاج يقول : اذا غزوت فكن مقدم الناس واذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم ، حتى فتح بلاداً واسعة نشر فيها الاسلام فأخرجت العظماء من كتّاب المسلمين وفقهائهم ومحدّثيهم وعلمائهم.

«وهذا أشرس بن عبد الله السلمي عامل هشام بن عبد الملك على خراسان ارسل لاول عهده الى اهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الى الاسلام وحين كتب اليهِ امير سمرقند انهم لم يسلموا الاّ تعوذاً من الجزية قال له من اختتن واقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فأرفع خراجه . وقد روى عن يوسف بن عمر عامل هشام على العراق انهُ مع اسرافه في العقوبة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه واهله — وكان يصلي الصبح ولا يكلم احداً حتى يصلي الضحى . ولقد كتب عمر بن عبد العزيز الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب

«هذا قل من كثر من موقف خلفاء الامويين وعمالهم ازاء الاسلام وعملهم على نشره والترويج له في غير عنف ولا شطط ، أفبعد هذا يقول عنهم قائل « ان تلك الاقلية العربية التي اضطرت الى الاسلام اضطراراً واكرهت على الدخول في هــذا الدين اكراهاً ، عرفت كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضت ثمن ذلك الفوز مضاعفاً وشفت غلة صدورها المكتومة» اهـ

هذا وكنا نراه لزاماً على مترجم الكتاب الاستاذ كيلاني ان يتعرض لهذه المواضع ولا يتنصل منها ، نعم نحن نقول معه ان الترجمة غير النقد ، ولكن ذلك صحيح حين يترجم للعلماء دون غيرهم أما حين يظن في كتاب مترجم انهُ مما يقع في ايدي الناشئين ، فلا . . . . إن أبناءنا في المدارس المصرية من ثانوية وعالية لا يعرفون عن مثل عمــرو بن العاص الاّ انهُ فتح مصر ، وعن عمر بن عبد العزيز انهُ كان خليفة وعن فلان وفلان مثل هذا او اقل فكيف نترك مثل هذه الآراء الفاسدة غذاءَ ألباب الذين يريدون من ابنائنا ان يقرأوا كتاباً سهلاً داني الثمرة ، وهم لا يعلمون من التاريخ دقائقه ولا من الاسلام الاّ كلمات حفظوها لا تبلغ بهم درجة من العلم فيهِ . والمترجم الذي يقول في مقدمة كتابة للقراء اني قد آثرت نقل هذه الفصول من دوزي « لتبيان وجهة تفكير عالم اوربي كبير ، وهي — وان خالفت آراءنا احياناً في بعض مناحيها — جديرة ان تقرأ بعناية فائقة » الذي يقول هذا يجب عليهِ ان ينقد المغالطات والمفاسد بعناية فائقة كذلك في زمن قد اجتمعت فيهِ على التاريخ الاسلاميّ عناصر الفساد والافساد من كل ناحية . بل في زمن نحن نتهيأ فيهِ لاعادة المجد الضائع والحق المغتصب بفقه ما كان عليهِ اسلافنا فقهاً صحيحاً لا يميل الى الخرافة ولا يشطّ مع التقليد والتورط والفساد. اقول هذا وانا اشكر المترجم على ما اضافهُ الى قليل علمنا عن آراء هذه الفئة المستشرقة التي نفعت العربية نفعاً كبيراً بحفظ كتبها ونشرها حين اضاعتها ابناؤها وعموا وصمّوا ثم عموا وصموا ولولا رحمة الله بمن نشأ فينا واحيا بعض مجد العربية لغمرتنا الموجة الطاغية التي وقانا الله بعض شرّها ***

الروافد

نظم شكر الله الجر — صفحاته ٩٦ — مطبعة الاندلس الجديدة — ريو د. جانيرو برازيل

يقول الشاعر في مقدمة ديوانه « هذه مجموعة قصائد تمخضت بها النفس في حوادث مختلفة وهي كما يراها القارىء ليست بجملتها من الشعر الوطني المفرقع الذي يستشوق السامع فتعقد له مجالس السمر عند القوم » ... ثم يقول في ختام كلمته « واني وان اصابت هذه المجموعة وشلاً مما نوهت بهِ فلا يعني انني راضٍ عنها كل الرضا بل احب اليَّ منها مجموعة اعدها الآن للنشر تحت اسم « الغمائم » ربما كانت أُرى وآثر من الوجهة المعنوية لدى جماعة المفكرين الاولى يعنون بالشعر من حيث عمقه وجدته وتعدد صوره واصباغه » . وقد تصفحنا هذه المجموعة الشائقة فوجدنا شاعراً جزل اللفظ حسن الاداء بارع التصوير ولولا بعض ألفاظ تنبو بها قوافي بعض القصائد مثل

واسكب رحيقك في النفو   س مطيباً أنفاس كارع

لخلا الديوان من المآخذ . ولقد أبان الشاعر في مقدمتهِ عن اتجاه شاعريته الى الناحية الانسانية واعتذر عن شعره الوطنيّ ونحن وان كنا نوافق الشاعر على قيمة الشعر ونعتز بهذا الغرض الانساني النبيل الذي يرمي اليهِ الادب العربي الحديث فانا ايضاً نقدر الشعر الوطنيّ ونقول اننا في حاجة اليهِ على الاقل لتخليد تاريخ نهضاتنا والاشادة بامجاد حاضرنا والتغني بالمستقبل المرموق وحفز ابنائنا الى المجد . وخلا هذا فاننا نوقن ان الشعب البريطاني مدين بمتانة جوانبه الاخلاقية ونبل اغراضه وقوته وعظمته الى ادب شكسبير . ولولا هذا الميراث الحي الذي يجري في دم الامبراطورية من ادبه الخالد لما وجدت صيحات كبلنج الوطنية مجيباً لصداها ولا محتفلاً بسماعها

وبعد فان « الروافد » ديوان لم يخل من شعر الطبيعة والانسان والوجدان وأنت تنهل من رحيق هذا الشعر في قصائد « على متون الامواج » و « شواطىء الاندلس » و « قطرة كأس » وغيرها . وفي الديوان قصائد حسان يجدر بكل اديب شرقيّ ان يقرأها فانها صدى لآلام هذا الشرق واحلامه ***

الثورة العربية الكبرى

أنجزت مطبعة عيسى الحلبي وشركائه بمصر طبع كتاب الثورة العربية الكبرى للباحث المحقق الاستاذ امين سعيد فصدر اليوم في ثلاثة مجلدات عدد صفحاتها ١٤٠٠ صفحة بالقطع الكبير فيها ثلاث خارطات و ١٥٠ صورة . والكتاب الجديد مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن اي من ١٩٠٨ الى ١٩٣٤ والجزء الاول منهُ خاص بأخبار النهضة العربية من ظهورها حتى دخول الجيش العربي الى سورية في ختام الحرب العظمى سنة ١٩١٨ وانشاء الدولة الفيصلية في الشام فهو تاريخ مسهب لنضال العرب والترك . اما الجزء الثاني منه فخاص بالنضال بين العرب من جهة والفرنسيين والانكليز من جهة اخرى وينطوي على اخبار الدولة الفيصلية في دمشق من قيامها حتى زوالها مقروناً بتاريخ الثورة العربية في العراق وما تلاها من قيام الدولة الجديدة في بغداد . والجزء الثالث خاص بتاريخ

أمارة شرقي الأردن وقضية فلسطين وقد بسطها المؤلف بسطاً وافياً وعززها بأخبار سقوط الدولة الهاشمية في الحجاز وما تقدمها من سعي الانكليز لتصفية عهودهم مع الحسين وما تلاها من حوادث ثم تاريخ الحركة الوطنية في سورية من سنة ١٩٢٠ حتى اليوم. وفي الكتاب ما لا يقل عن ٥٠٠ وثيقة سياسية وجانب كبير من معلوماته مما لم ينشر قبل فلا يستغني عنه باحث ولا كاتب ولا عربي يهمه الاطلاع على تاريخ قومه ونهضتهم فهو في الواقع تاريخ العرب القومي والسياسي في العصر الحديث

﴿ الاصلاح ﴾ مجلة ادبية اقتصادية تصويرية جامعة . لصاحبها الدكتور جورج صوايا وقد أصدرت عدداً فخماً ممتازاً يضم بين دفتيه كثيراً من المباحث العلمية والمقالات والأشعار البليغة منها قصيدة الخمر والحب والشباب للشاعر المبدع فرحات ووداع قنديل وهي قصيدة عصماء رائعة للشاعر القروي المعروف

﴿ الارلزيانة ﴾ مأساة تمثيلية ذات ثلاثة فصول تأليف الكاتب الافرنسي الشهير الفونس دوده وتعريب الدكتور جورج صوايا صاحب مجلة الاصلاح في بونس ايرس (الارجنتين)

﴿ في سبيل الحرية ﴾ بقلم الاستاذ الياس قنصل وهي خلاصة رواية تمثيلية للكاتب الشهير فرنسوى كوبيه جرت حوادثها في احدى مقاطعات ايطاليا في القرن الخامس عشر طبعت في المطبعة السورية اللبنانية في بونس ايرس (الارجنتين)

﴿ القراءة الفريدة ﴾ الجزء الرابع للمدارس الابتدائية للاستاذ شريف النشاشيبي وهي تضم رسائل بديعة وامثال لطيفة وقصص قصيرة جامعة وحكايات على ألسن الحيوانات ناطقة ونوادر يلذ سماعها — طبعت بمطبعة المعارف بمصر

﴿ مثلنا الأعلى ﴾ رواية تمثيلية وضعها عبد الحميد عباس وهذبها الاستاذ اكرم زعيتر وهي تشمل كثيراً من المبادىء القومية والخلقية التي يجب ان يدين بها الطالب العراقي طبعت بمطبعة الحكومة ببغداد

﴿ ايزيس ﴾ قصة تمثيلية يدور محورها حول رجوع الروح وضعها الاستاذ محمد زكي صالح ، طبعت بمطبعة النظام بمصر

﴿ همام او في عاصمة الاحقاف ﴾ رواية شعرية تمثيلية للاديب علي احمد باكير ويرجع ناظم هذه الدرامة جهل شعبه الحضرمي الى جهل المرأة فهو يريدها متعلمة كشقيقاتها الشرقيات طبعت في المطبعة السلفية بمصر

﴿ الحسناء العربية اريتب بنت اسحق ﴾ رواية تمثيلية تاريخية اخلاقية ذات ثلاثة فصول بقلم الاستاذ فريد شاهين ابي فاضل منشىء مجلة الرياض يتجلى فيها دهاء معاوية وشهامة الحسين ووفاء المرأة العربية طبعت في مطبعة الرياض بانطلياس — لبنان

﴿ دلال ﴾ رواية تاريخية في عهد الأمير بشير الكبير بقلم الاديب كميل قرألى تصف الامير وحاشيته ورجال لبنان في عصره وعادات أهله وفتح الجيش اللبناني لمدينة دمشق سنة ١٨١٠ ولقلعة سانور في نابلس سنة ١٨٢٩ . طبعت في مطبعة « المجلة البطريركية » في بيت شباب — لبنان

باب الاخبار العلمية

كرة الاعماق وريادة الاغوار

نشرت الصحف في اواسط الصيف صورة الكرة العظيمة، التي استعملها الدكتور بيب الاميركي والمستر اوتس بارتن، ليغوصا بها الى اعماقٍ لم يبلغها انسان من قبل. وتعرف هذه الكرة باسم باثيسفير Bathysphere اي «كرة الاعماق» ولعلَّ هذا افضل اسم يطلق عليها باللغة العربية

هذه الكرة مبنية من الصلب وزنتها نحو ٥٥٠٠ رطل، وقطرها اربع اقدام وتسع بوصات وثخانة جدرانها بوصة ونصف بوصة، ولها ثلاث فتحات قطر كلٍّ منها ثماني بوصات وقد وضع فيها وضعاً محكماً الواحٌ من زجاج البلور الصخري (الكوارتز) بعد صهره وتجميده، وسماكة كلّ لوح اربع بوصات وقطره خمس بوصات

الغرض من هذه الكرة ان تكون وسيلةً للباحث العلمي، تمكنهُ من بلوغ اعماقٍ لا يستطيع الانسان ان يبلغها لشدة ضغط الماءِ وبردهِ في الغالب وعجز الغائص عن ان يلبث وقتاً ما يمكنهُ من اجراء المشاهدات العلمية على الاسماك التي تقطن هناك. فهذه الكرة تتسع لرجلين، يجلسان فيها ثم تقفل اقفالاً محكماً وتدلَّى رويداً رويداً ثم تستقرُّ عند عمق مطلوب، فينظر الباحث من خلال الواح البلور الصخري، وهي صافية كلَّ الصفاءِ، ويشاهد اشكال الاسماك والوانها، ويستطيع الآخر، ان يصوّرها، باليد او بآلة فتوغرافية يتصل بها مصباح كشاف

قلنا ان الكرة مقفلة اقفالاً محكماً، حتى لا تنفذ اليها قطرة ماءٍ واحدة، فكيف يتنفس الرجلان داخلها؟ انها في الواقع تشتمل على جهاز للتنفس، مؤلف من حوضين يحتويان على الاكسجين اللازم للتنفس، وللجهاز صمَّام يخرج لترين من الاكسجين الى فضاءِ الكرة الداخلي كلَّ دقيقة. ومقدار الاكسجين الذي في الحوضين يكفي رجلين مدى ثماني ساعات وقبل الغوص يوضع فوق الحوضين طبقان على احدهما مركَّب من الجير والصوديوم لامتصاص اكسيد الكربون الثاني الذي يزفرهُ الرجلان، وعلى الآخر كلوريد الكلسيوم لامتصاص الرطوبة. وهناك مراوح لتحريك الهواءِ

فهذه الوسائل تكفل للغائصين اسباب الراحة الجسدية. وقد غاص «بيب» واحد اعوانه غير مرة فلم يستشعرا في خلال غوصهما اي ضيق ناجم عن قلة الاكسجين او كثرة الرطوبة وثاني اكسيد الكربون في الهواءِ

اما في محاولتهما الاخيرة فقد بلغا الى عمق ٢٥١٠ اقدام، على مقربة من جزيرة نونسلش

وهي احدى جزائر برمودا ، ففاق العمق الذي بلغهُ في السنة الماضية وهو ٢٢٠٠ قدم

ولا يخفى ان الاقدام على الغوص بكرة من هذا القبيل مغامرة تنطوي على خطر عظيم . لذلك جربت كرة الاعماق قبل نزول بيب وبارتن بها لمعرفة مقدار الضغط عليها عند اعماق مختلفة وهل تستطيع ان تتحمل هذا الضغط فثبت ان الضغط على كل بوصة مربعة منها يبلغ ٦٥٢٫٧ الرطل عند عمق ربع ميل اي ان مجموع الضغط على الكرة كلها، كان عند هذا العمق ٣٦٣٦٦ طنّاً . ولكنها تحمّلت هذا الضغط ، فلم تتحطم الواح الكوارتز في عيونها ولا نفذت اليها قطرة ماء

والكرة عند غوصها تظل متصلة بالسفينة التي تدلّى منها ، بسلك تلفون ، وسلك للاضاءة الكهربائية . والحبل الذي تدلّى به طوله ٣٠٠٠ قدم وهو من الصلب وثخنهُ سبعة أثمان البوصة ويقوى على حمل ٢٩ طنّاً . ومن ادواتهما مصباح كشّاف يوجّه من احدى عيون الكرة لاستكشاف الاغوار القاتمة وما فيها من الاحياء

بلون كشاف

يحمل مذيعاً لاسلكيّاً

استنبط الدكتور ارثر كمطن استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو طريقة جديدة لاستكشاف احوال الجو في الطبقة الطخرورية stratosphere ذلك انهُ صنع بلونات صغيرة لا يزيد وزن البلون منها على ١٦ رطلاً وقطرها على ١٥ قدماً يطلقها في الجو صُعُداً فترتفع الى اعالي الطبقة الطخرورية من تلقاء ذاتها . وجهزها بأداة لاسلكية عجيبة ، وصلها بمقياس للحرارة ومقياس لضغط الهواء ومقياس لقوة الاشعة الكونية . وهذا الاداة انبوب لاسلكي متذبذب يرسل اشارات لاسلكية بأمواج طول الموجة منها عشرون متراً . فاذا حدث تغيُّر في ضغط الهواء ، بحسب ما يدونه مقياس الضغط (البارومتر) أثر ذلك في طول الموجة التي يطلقها الانبوب اللاسلكي ، فيعرف بذلك علو البلون . ثم ان الانبوب متصل بأداة دقيقة هي متصلة بدورها بمقياس الحرارة . فاذا تغيرت حرارة الجو ، دُوّن ذلك في مقياس الحرارة وأثر في الاداة المتصلة بالانبوب اللاسلكي. وهذا الاداة فيها عجلة كعجلة الساعة تختلف سرعة دورانها باختلاف الحرارة . فاذا بطؤت سرعة العجلة او اذا اسرعت ، زادت المسافة بين فترات اطلاق الامواج من الانبوب اللاسلكي . وهذا يفسَّر في المحطة الارضية فيعرف منهُ حرارة الجو على ارتفاع معين . ثم ان قوة الاشعة الكونية تؤثر في مقياس خاص بها ، وهذا بدورهِ يؤثر تأثيراً خاصّاً في الامواج اللاسلكية يمكن فهمهُ على الارض

ولا يخفى ان نوعاً من هذه البلونات كان قد استعمل قبلاً في استكشاف طبقة الجو العليا ، وكان كل بلون منها يجهز بآلات تدوّن من تلقاء نفسها اعلى درجات الحرارة واخف درجات الضغط وقوة الاشعة الكونية . ثم اذا هبط البلون الى الارض اخذت هذه الآلات وقرئ ما كان مدوّناً فيها . وهي طريقة لا بأس بها وانما يؤخذ عليها انهُ لا يمكن استعمالها الاّ

في البلدان المزدحمة بالسكان . لانهُ من المتعذر ان تعلم اين يقع البلون عند هبوطه . فالعلماء يعتمدون على معاونة الناس لهم ، في العثور عليه وارساله الى المحطة التي اطلقتهُ وفقاً لبيان ملصق عليهِ . فاذا كانت المنطقة قليلة السكان ، تعذَّر وجود البلون اذا سقط في قفر . اما البلون الجديد فلا حاجة بالعالم اليهِ ، بعد تدوين الرسائل اللاسلكية التي يبعثها في عنان الفضاء ، وسواء اهبط في قفر ام في منطقة مأهولة . فانهُ يؤدي مهمتهُ وهو في الفضاء ، ونفقات بنائهِ واطلاقهِ يسيرة ، فلا يعبأ باسترداده او فقده

عجيبة في بيضة

اخذ العالم الفرنسي الاستاذ جلينك Jellinck بيضة نيئة ووضعها بين لوحي مكثف كهربائي Condenser ووصل اللوحين بمذيع لاسلكي قصير الامواج ، مستعملاً قوة كهربائية قدرها الف وط وموجة طولها ثلاثة امتار . فاخترقت الامواج البيضة . وبعد خمس دقائق اخذ البيضة وكسرها ، فوجد محَّها (صفارها) قد تجمد ، واما زلالها فلم يتأثر بالامواج التي اخترقه لأن قوامه من قبيل قوام الهلام . ثم ثبت عند فحص حرارة المح والزلال ، ان حرارة الاول لا تعدو ١٤٠ درجة بميزان فارنهيت (اي ٦٠ درجة مئوية) حالة ان حرارة الثاني بلغت ١٧٦ درجة بميزان فارنهيت (اي ٨٠ درجة مئوية) . ولم يكن الغرض من هذه التجربة الكشف عن شيء يبعث الدهشة ، بل كانت تجربة من سلسلة من التجارب غرضها معرفة اثر الامواج اللاسلكية القصيرة في المواد العضوية المختلفة . وقد جربت تجربة من هذا القبيل بعين ثور فثبت ان عدسة العين البلورية لم تتأثر كثيراً بالامواج ، ولكن نسج العين الاخرى تأثرت بها تأثراً عظيماً . ويرى الاستاذ جلينك ان درس اثر الاشعة اللاسلكية القصيرة في النسج المختلفة وما تولدهُ فيها من الحرارة لا بدَّ منهُ لضبط استعمال هذه الاشعة في الطب

سياحة زجاجة

في عشرين ابريل سنة ١٩٢٧ كتب الضابط بارستو الاميركي في السفينة الاميركية هاهيرا ورقة ووضعها في زجاجة وسدَّ الزجاجة سدًّا محكماً والقاها في البحر بين جزائر برمودا وشواطىء الولايات المتحدة الجنوبية . فتقاذفتها تيارات المحيط الاطلنطي سبع سنوات الى ان قذفتها من عهد قريب على شواطىء ولاية تكساس وتقدَّر المسافة التي قطعتها في خلال هذه المدة بنحو ٨٠٠٠ ميل

الاشعة التي فوق البنفسجي

يختلف اثر هذه الاشعة في قتل خلايا النبات باختلاف طول امواجها . ذلك ان الاستاذ فلورنس ماير Meier احد علماء المعهد السمثصوني الاميركي اخذ لوحة مستطيلة من الزجاج وغشاها بطبقة من الفطر البحري سمكها سمك خلية واحدة ، ثم وضعها في تيار من الاشعة التي فوق البنفسجي ، بعد ما حلَّها بموشور الى مناطق كل منطقة منها تحتوي على اشعة يختلف طولها عن طول الاشعة في المنطقة التالية او

السابقة . وعدد هذه المناطق ثمان . فوجدت ان الخلايا المعرّضة لاشعة منطقة منها اسرع تلفاً من الاخرى مع ان الخلايا واحدة . والأشعة من مختلف الاطوال تميت الخلايا ولكنها تختلف في سرعة الفعل

النحاس المشع

نشرت مجلة نايتشر العلمية ان الدكتور وستكوت Westcot والدكتور بيرج Bjerge من علماء معهد كافندش بجامعة كمبردج اطلقا النوترونات على النحاس فأصبح عنصراً مشعًّا والنحاس المشع ينحلّ كما ينحلّ الراديوم وهو عنصر مشع بطبيعتهِ ولكن الفرق بين النحاس المشع والراديوم ، ان الراديوم يفقد نصف وزنهِ بالاشعاع في مدة ١٦٠٠ سنة واما النحاس المشع فيفقد نصف قوتهِ على الاشعاع في ست ساعات . ولكنهُ على كل حال يفوق العناصر الاخرى التي حولت الى عناصر مشعة باطلاق قذائف عليها، لان معظم هذه العناصر يفقد كل قوتهِ على الاشعاع في بضع دقائق

اشعة غما والايدروجين الثقيل

يعلم قرّاء المقتطف ان للايدروجين نظيراً يدعى في الولايات المتحدة الاميركية دوتيريوم ونواة تدعى دوتوناً ، ويدعى في انكلترا دبلوجين ونواة تدعى دبلوناً ، وهو يختلف عن الايدروجين في خواصه الطبيعية وفي مقدمتها وزنهُ الذري فانهُ ضعف الوزن الذرّي للايدروجين المألوف . وقد عني الاستاذ شدِك (مكتشف النترون) والدكتور غولدهابر Goldhaber باطلاق اشعة غما من طاقة ٢٦٢٠٠٠٠ فولط على الدبلونات فحلّ كل دبلون منها الى ذرة ايدروجين مألوف ونوترون . فكأن الدبلون مؤلف من بروتون ونوترون . والنوترون مركَّب في نظر العلماءِ من بروتون والكترون قريب احدهما من الآخر . وهذا القرب بين الالكترون والبروتون، في النوترون، هو الفارق بين النوترون وذرّة الايدروجين المألوف ، لانها هي الاخرى مؤلفة كذلك من الكترون وبروتون ولكن احدهما بعيد عن الآخر بعداً نسبيًّا . ولما كانت الطاقة التي تربط بين الدقائق التي يتركب منهُ الدبلون كبيرة وجب استعمال اشعة غمَّا وهي اسرع ما ينطلق من الراديوم من الاشعة واعظمها طاقة

شهاب يرى في النهار

في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم ١٤ سبتمبر ١٩٣٤ شوهد في انكلترا شهاب مرق في الفضاء كالسهم الناري . وقد وصفهُ المستر كلن من موظفي مرصد غرينتش فقال انهُ خرج بعد الظهر لتدوين قراءات الترمومترات وكان الجو ازرق صافياً فاسترعى نظره جسم لامع كالصاروخ ، له نواة لامعة ووراءه خط مضيء . وظلت رؤيتهُ مستطاعة مدة ثانيتين او ثلاث ثوان . ثم اختفى كأنهُ انشق الى جسمين لامعين، ولكن المستر كلن لم يسمع فرقعة الانشقاق وقد رآه غير واحد من سكان جنوب انكلترا

العنصر الثالث والتسعون

يرى عالمان من علماء جامعة شيكاغو ان العنصر الذي اطلق عليهِ اسم «العنصر الثالث والتسعين» (راجع مقال «العنصر الثالث والتسعون» في هذا الجزء صفحة ١٩٥) قد لا يكون عنصراً جديداً كما ظُنَّ اولاً بل يرجحان انهُ نظير للعنصر الحادي والتسعين

حرب المكروبات

ان التقدم العجيب الذي تمَّ في ميدان الطيران، قد قلب قواعد الحرب التي جرى عليها كبار القوّاد والفاتحين من هنيبال الى الاسكندر الى نبوليون الى جوفر وفوش وهندنبرج. ذلك ان القيادات العليا في الجيوش الكبيرة اصبحت ترمي الى اضعاف الروح المعنوية في جيوش الاعداء بتدبير الخطط لالقاء القنابل من الجوّ على مراكز الصناعة التي تجهز الجيوش بما يلزمها من وسائل الكفاح، وعلى المدن الآمنة الآهلة بالسكان وراء خطوط القتال. وقد لا تقتصر هذه القنابل، على المواد المتفجرة، تدمّر الدور وتحوّلها الى انقاض، بل قد تحتوي على غازات كيمائية تفعل في الجلد او في العيون او في الاثاث فتعطل عن العمل، او تسقي ناشقيها كأس الردى

وقد تفنن الكيمائيون في صنع الغازات المختلفة من هذا القبيل، واستنباط الكمامات الواقية حتى اجمع الثقات ان امة من الامم لا تستطيع ان تتقي اغارة الاعداء عليها من الجوّ، الاَّ اذا تمرن شيبها وشبانها واطفالها ذكوراً واناثاً على استعمال هذه الكمامات، وجهز كلٌّ منهم بكمامة منها تفي بالغرض. ومما يدلُّ على احتمال حدوث ما هو من هذا القبيل، ان الخزائن الجديدة التي بنيت لبنك ده فرانس تحت الارض، ابتدع لها المهندسون الفرنسيون طرقاً عجيبة لاتقاء الغاز الخانق الذي قد يتغلغل حتى يتصل بها. والراجح ان هذه الوسيلة طبقت على المعاقل التي بنتها فرنسا على حدودها الشرقية. لذلك اجمع الثقات على ان الطيران الحربي خطر يهدّد الحضارة بالانقراض، واذا كان للطيارات الحربية ان تلقي قنابل تحتوي على الغازات المختلفة فما يمنعها ان تلقي قنابل تحتوي على مكروبات مميتة

هذا الاحتمال هز الدوائر العالمية في شهر يوليو الماضي، على اثر مقالة نشرها المستر وكهام ستيد محرر التيمس سابقاً في مجلة القرن التاسع عشر. وستيد رجل متزن رزين والمجلة التي نشرت مقالته ذات مكانة عالمية لا تغامر بها في سبيل مقالة تستثير النفوس

قال المستر ستيد، انه حصل من مصادر غير يهودية على وثائق خطيرة لا يرتاب في صحتها وهذه الوثائق صادرة على ما يقال من مصلحة في وزارة الحربية الالمانية تعرف باسم (لوفت—غاز — انجريف) اي «هجوم الهواء والغاز» وهي في شكل رسائل تبودلت بين المصلحة المذكورة وبعض خبرائها ووكلائها والمصانع المعنية بالطيران والحرب الكيمائية

بسطت في هذه الوثائق تجارب بدأت سنة ١٩٣١ — اي نحو سنة كاملة قبلما تقلد هتلر أزمة الحكم في بلاده — غرضها درس أفضل الوسائل لالقاء السوائل المحتوية على مواد كيميائية او مكروبات من الجو على مدائن الاعداء

ولكن أهم ما جاء في مقالة المستر ستيد ان رجال هذه المصلحة من وزارة الحربية الالمانية اختاروا مكروباً اسمه العلمي « ميكركوكوس بروديجيوسس » لا يسبب مرضاً ما ويستعمل في دراسة الطب في التمثيل والاختبار . وانهم بعد ما اختاروا هذا المكروب ، جربوا تجارب بهِ في لندن وباريس غرضها الوقوف على كيفية ازدراع هذا المكروب في مزدرعات خاصة لذلك توضع عند مداخل قطارات الانفاق ، حتى اذا اطلق في الجو ، وهبطت بعض عمائره الى الارض لصق بعضها بهذه المزدرعات ، فتتكاثر وتنتشر في الهواء فيستنشقها الناس .

طبعاً ان تجربة التجارب بهذا المكروب لا تسفر عن خطر يتعرض له سكان العاصمتين المذكورتين الآن ولكن اذا صحت هذه الوثائق فان التجارب المذكورة لا بدَّ ان تكشف للمجربين ، الوسائل التي يستطيعون الجري عليها اذا نشبت الحرب ، في اطلاق مكروبات ليست مثل هذا المكروب في عدم ضررها . وقد جربت تجارب في سنة ١٩٣٣ لالقاء السوائل المحتوية على هذا المكروب من طيارات على ارتفاعات مختلفة تتباين من ٥٠٠ متر الى الف متر ، لمعرفة أصلح ارتفاع لالقاء السوائل منه . وتقول الوثائق ان هذه التجارب اسفرت عن نتائج تبعث على الرضا .

وقد جاء في وثيقة تاريخها يوليو سنة ١٩٣٢ ما مؤداه ان المعاقل العظيمة التي بنتها فرنسا على حدودها الشرقية تجعل كل هجوم عليها من المشاة او المدفعية عبثاً ، واذن لم يبق الاَّ استعمال سلاح الجو لشن الحرب من دون رحمة او شفقة على المراكز العسكرية والصناعية بل على الاهلين في المدن الكبيرة

وثمة وثيقة اخرى تاريخها ا اكتوبر ١٩٣٣ تحتوي على خطط للهجوم بالغاز على مدن مختلفة في فرنسا منها متز وستراسبورج وبلفور وفردون وضواحي باريس ومرسيليا وطولون وليون وهافر وغيرها . وليس الغرض من هذا المقال البحث في صحة هذه الوثائق . فقد انبأتنا البرقيات العامة ان الدوائر المسؤولة انكرت صحتها ولكن الامر الذي لا جدال فيه أن ليس ثمة ما يمنع القيام بهذه التجارب ، من جانب المانيا او جانب غيرها من الدول . ويقول كاتب في الابزرفر ان لا ريب في ان هذا الفرع في الاستعداد الحربي ، ينال الآن عناية خاصة مثل سائر الفروع . واطلاق الغاز والمكروبات على الطريقة المتقدمة يمكن ان يتم بواسطة الطيارات الحربية والمدنية على السواء

الهيموفيليا او النزف الوراثي

كانت الهيموفيليا او داء النزف الوراثي سبباً في وفاة الامير غونزالو نجل الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا سابقاً . والغريب في هذا الداء انهُ وراثي في الذكور دون الاناث ، لذلك لما حدثت حادثة الاصطدام اصيب الامير غونزالو وشقيقتهُ برضوض ، فتوفي هو متأثراً بها لانها احدثت فيهِ نزيفاً داخلياً لم يستطع وقفهُ ولكنها لم تصب هي بنزيف مثلهِ ، فنجت . واعجب من هذا ان النساء تنقل هذا الداء دون الذكور . لذلك نهى الملك الفونسو ابنتيهِ في سنة ١٩٣١ عن الزواج لئلاَّ تنقلا هذا الداء الى اولادهما

وليست اسرة بوربون — التي منها الملك الفونسو — بالاسرة المالكة الوحيدة المصابة بهذا الداء الوبيل . بل اسرة رومانوف كانت مصابة بهِ كذلك . فالقيصر نقولا الثاني وولي عهدهِ كانا مصابين بهِ ، ويقال انهُ نقل اليها من اسرة هبسبرج ، وكثيراً ما يعرف هـذا الداءِ باسم « لعنة آل هبسبرج » . ولقد تعذَّر حتى الآن الكشف عن طريقة لمنعهِ او علاجـهِ ، ولكن الدكتور برتش Birch احد اساتذة كلية الطب بجامعة وسكنصن الاميركية ، يظن ان حقن احد هرمونات الانثى في الذكر قد يفيد في علاجهِ وهو يجرب التجارب الآن لامتحان هذا الرأي

جو الزهرة

يؤخذ من المباحث الفلكية الحديثة ان في جو الزهرة قدراً كبيراً من ثاني اكسيد الكربون

كان الدكتور ادمز والدكتور دنهام Dunham من علماء مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا قد اثبتا في سنة ١٩٣٢ ان جو الزهرة يحتوي على ثاني اكسيد الكربون ، ولكنهما لم يستطيعا ان يعينا مقداره حينئذ ، لانهما ما كانا يعرفان مقدار النور الذي يمتصهُ هذا الغاز عند مرور النور فيهِ . بيد ان الدكتور ارثر آدل احد علماء جامعة مشيغن كتب الى المجلة الطبيعية يقول انهُ عني بدراسة موضوع امتصاص ثاني اكسيد الكربون للضوء فوصل الى نتائج مكنتهُ من تقدير ما يوجد من هذه المادة في جو الزهرة . فقدَّر ان الطبقات العليا من جوّ الزهرة فيها مقدار من ثاني اكسيد الكربون يفوق عشرة آلاف ضعف مقدار ما نجده منهُ في جو الارض بكامله . ولما كان الدكتور آدل عالماً طبيعيًّا فانهُ لم يتعدَّ حدود التقدير الى التكهن بعلاقة هذا المقدار الكبير من ثاني اكسيد الكربون بالحياة على سطح الزهرة

اخونا سليم

[تابع الصفحة ١٩٨]

وكان الفقيد محدّثاً بارعاً قوي الحجة واسع الرواية ونذكر اننا ذهبنا في صحبتهِ يوماً لزيارة لورد بيفربروك ، فجلسنا نتجاذب اطراف الحديث وبدأ الفقيد يقصُّ على بيفربروك قصة زيارتهِ للفيلسوف سبنسر ، وبيفربروك مأخوذ بطرافة الحديث . وتبيَّن سليم شغف مضيفهِ ، فجعل يتوقف في الحديث ، كأَنهُ اتى عليـهِ ، فكان اللورد وصحبهُ يستزيدونهُ ولا يسلمون باي ايجاز في روايتهِ . اما زهدهُ في حطام الدنيا ، ومروءَتهُ ، واقبالهُ على نجدة من يطلب نجدتهُ ، فكانت مضرب الامثال . كان حرًّا يأبى الضيم ويمقت الجور ، فكان اذا عرف مظلوماً ، لا يقرُّ له قرار ، حتى يكشف غمتهُ . وعني بباعة المقطم فانشأ لهم مدرسةً علّمهم فيها القراءة والكتابة ، وكان يعنى بصحتهم وصحة اهلهم ويدفع عنهم نفقات الاطباءِ والعلاج بماله الخاص ، ولا ينثني عن تزويدهم بالنصائح وحثهم على البعد عن المنكرات

وكان الى ذلك اديباً ، نظم بالانكليزية شعراً حكميًّا بليغاً ، ووعى من تاريخ الادب الانكليزي وآثار شكسبير بوجهٍ خاص شيئاً كثيراً ، حتى كان من النادر ان يخطىء امرؤٌ في سرد بيت شعر من روايات شكسبير المشهورة الَّا وردَّهُ سليم الى الصواب . رحمهُ الله وتغمدنا بذكر مناقبهِ

الجزء الثانى من المجلد الخامس والثمانين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصريه لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة المانى (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله (للامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠ الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠ تاييس « « « «)
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروحة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨ النبي (« « «
٥ آلهة الارض (« « «



صورة تمثال لأبي القاسم الفردوسي

انظر صفحة ٢٧٧

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٤ — ٢٣ رجب سنة ١٣٥٣

العمل وطول العمر

الصلة بين عمل الانسان ومدى حياته

تمهيد

العمل الذي يعملهُ الانسان والاحوال التي يعمل فيها والاجور التي يتقاضاها عليهِ ، تعيّن ظروف معيشتهِ ومعيشة اهلهِ الذين يعولهم ، كالبيت الذي يسكنونهُ والملابس التي يرتدونها والطعام الذي يغتذون بهِ واوقات الراحة وضروب الرياضة التي يتمتعون بها . فعمل الانسان يكاد يكون اهمّ العوامل في صحتهِ ومدى حياتهِ . خذ مثلاً على ذلك القسيس الانكليزي او الاميركيّ ، فانهُ يتوقّع بحسب ما دلّت عليهِ جداول الاحصاءِ ، ان يبلغ من العمر عتيًّا وهو ممتّع بصحة جيدة ونشاط ذهني ، ما كانا لينالا لهُ لو اختار عملاً آخر في الحياة . ويليهِ في ذلك المعلم واصحاب المهن الحرّة والكتابية بوجهٍ عام . ويقابلهم في الطرف الآخر من الجدول المعدّنون ومن اليهم من العمال . فمدى عمر هؤُلاءِ قصير بوجهٍ عام ، ومتوسط الوفيات بينهم يفوق متوسطها العام ضعفين او ثلاثة اضعاف

على ان الصلة بين عمل الانسان ومدى حياتهِ ، ليست صلةً محدودةً كصلة العلّة بالمعلول . فالتعمير والتمتع بالصحة الجيدة في الشيخوخة او الاصابة بالحوادث العارضة قبل الوفاة ، تتوقف على عوامل مختلفة متفاوتة في تأثيرها ، علاوة على عامل العمل الذي نقوم بهِ . فثمة القوة الجسمية التي نرثها والبيئة التي ننشأ ونترعرع فيها واحوال الاسرة ونصيبها من الثروة . فاذا كان دخل الاسرة يسيراً وجب عليها ان تكتفي باليسير من الطعام ، والخفيف من الملابس ، وغير الصحي من المساكن .

والعمال من الطبقات الفقيرة يمضون في العمل ، بعد ان تصبح حالتهم الصحية تقتضي الراحة والعلاج وذلك خشيةً منهم ان ينقطع ايرادهم بانقطاعهم عن العمل . ولذلك نرى انهُ ليس بالامر اليسير على الباحث ان يعيّن مدى تأثير العمل نفسه في امراض الناس وطول اعمارهم ومعدل وفياتهم من ناحية ، ومدى تأثير احوالهم المعاشية في ذلك كلهِ من ناحية اخرى

ولكن لا ينكر احد ان احوال المعيشة ترتبط في الغالب بنوع العمل الذي يمارسهُ الانسان . انما يتعذر على الباحث ان يفرد كلاًّ من هذه العوامل العامة على حدة ويخصّهُ بنصيبهِ من الاثر في صحة الانسان ومدى عمرهِ . الآن دراسة جداول الاحصاءِ في شركات التأمين على الحياة ، تثبت ان لهذهِ العوامل غير المباشرة اثراً لا يمارَى فيهِ

ففي احصاءات الشركات الاميركية يقسم حاملو عقود التأمين الى فريقين عامّين . الاول وجلّ افرادهِ من الذين يرتزقون بالعمل في المصانع والمناجم والنقل بالسكك الحديدية والسيارات العامة والترامواياي وغير ذلك . واجورهم قليلة في الغالب واحوال معيشتهم ضيّقة . اما الفريق الثاني فاجورهم اكبر واعمالهم اقلُّ خطراً واحوال معيشتهم ميسَّرة بوجهٍ عام او هي الى السعة والترف . وجلُّهم منصرف الى العمل في المهن الحرّة او التجارة وينتظم في سلكهم العمّال الزراعيون والميكانيكيون . فاذا قابلنا « توقُّع الحياة » (Life expectancy) في الفريق الاول بما يقابلهُ في الفريق الثاني ، وجدنا ان افراد الفريق الثاني يتوقعون حياة اطول من حياة افراد الفريق الاول . فحامل عقد التأمين في الفريق الثاني ينتظر وهو في سن العشرين ان يعيش حتى يبلغ التاسعة والستين . اما حامل عقد التأمين من الفريق الاول فلا ينتظر ان يعيش بعد السنة الثانية والستين أي ان مدى حياتهِ يقلُّ سبع سنوات عند مدى حياة الآخر . وهذا سببهُ في الغالب الاحوال المعاشية الناشئة عن عملهِ وطبيعة العمل نفسهِ . والمقصود هنا بطول الحياة او « توقع الحياة » المتوسط لطائفة كبيرة من الناس

ودراسة الاحصاءات الرسمية الانكليزية تؤيد هذه النتائج

الاعمال الحرّة والكتابية

القسوس والمعلمون — فالموضوع من اية الناحيتين نظرت اليهِ ، تخرج من بحثك فيهِ بنتيجة عامة هو ان الرجال والنساء الذين يمارسون المهن الحرّة او الاعمال التجارية والكتابية في المنشآت والشركات ، يفوق توقعهم للحياة ، توقُّعَ عمال المناجم والمصانع ومن اليهم ، وذلك لان احوال معيشتهم اسهل ، ولان طبيعة الاعمال التي يمارسونها اخفُّ وطأة على صحة الانسان

فالاحصاءات التي تشمل مدى طويلاً من الزمان ، تثبت ان معدل الوفيات بين القسوس البروتستانت ، منخفض جدًّا ، لا يبلغ نصف متوسط الوفيات بين العمال بوجهٍ عام . ويزيد متوسط الوفيات بين القسوس الكاثوليك على متوسط اخوانهم البروتستانت ، ولكن الاحصاءات

البريطانية ، تدلُّ على ان متوسط وفياتهم ، يظلُّ مع ذلك ،اقلَّ كثيراً من المتوسط العام. ويؤخذ من هذه الاحصاءات ان الانتحار يكاد يكون غير معروف في هذه الفئة من الناس كباعث من بواعث الوفاة — وهو المنتظر طبعاً — وان الوفيات بالسرطان اقلُّ بينهم منها في اية فئة اخرى من اصحاب المهن الاخرى التي تناولها البحث

ثم ان المعلمين فئة اخرى من فئات المشتغلين ، التي متوسط وفياتها قليل جدًّا . بل انهُ يكاد يكون اقل من متوسط الوفيات في اي فريق آخر من الناس ما عدا القسوس . وان نسبة الاصابة بينهم بالعوارض accidents اقلّ من نسبة هـذه الاصابات في سائر مستخدمي الحكومة في مدينة نيويورك . وقد كان الظنُّ ان متوسط الوفيات بالسل بين المعلمين كبير اي انهُ فوق المتوسط العام . ولكنهُ على الضد من ذلك اقل من المتوسط قلة لا بأس بها، وان أهمّ الاسباب في تعطيلهم عن العمل كان الانفلونزا والتهاب الشعب الرئوية والامراض العصبية . على ان الباحث لم يتمكن من ان يثبت ان الاصابات الكثيرة بينهم بالنورستينيا ، ناجمةٌ مباشرة ، عن عمل التعليم . ومما لا ريب فيهِ ان عمل التعليم ، يرهق الاعصاب ، ولكن ذلك لا يكفي لعزو كثرة اصابات النورستينيا بين المعلمين الى عمل التعليم . يؤيد هذا ان طائفة كبيرة من المشتغلات بالاعمال الكتابية ، ظهرت بينهنَّ اصابات النورستينيا بالقدر الذي ظهرت فيهِ في طائفة المعلمين — وجلُّ طائفة المعلمين من النساء كما لا يخفى .

والاحصاءات الانكليزية تبين ان معدّل الوفيات بين المعلمين اقلّ كثيراً من المتوسط العام

﴿ الاطباء والممرضات ﴾ — ويزيد متوسط الوفيات بين الاطبـاء على متوسطها بين القسوس والمعلمين . بل ان متوسط عمرهم لا يزيد على المتوسط العام ، اكثر من سنة واحدة . وهذا يبعث على الدهشة ، لان الاطباء كطائفة مختارة من الناس ، اقوى أجساماً وانقذ ذكاءً وأعلى مقاماً اجتماعيًّا من سواد الناس . ولكن عدم الانتظام في ساعات عملهم ، ووجوب استعدادهم لتلبية ما يطلب منهم في الحوادث والعوارض ، في أية ساعة من ساعات الليل او النهار ، وتعرُّضهم لمختلف الاجواءِ من حر وبرد وجفاف ومطر — وخاصة اذا كانوا من اطباء الارياف — يعدّل الميزات الاولى التي يمتازون بها. واكثر بواعث الوفيات بينهم، الانفلونزا والالتهاب الرئوي . بل يمكننا ان نحسب هذين المرضين مما يتصل خاصة بصناعة الطب ، لان الطبيب كثير التعرض لهما في خلال تأديتهِ عملهُ اليومي . ويلي هذين المرضين في اطباءِ اميركا مرض القلب وداءُ البول السكري . بل ان الاحصاءات الاميركية تبين كذلك ان معدّل حوادث الانتحار بينهم أعلى قليلاً من المتوسط العام . ولكن معدّل حوادث الانتحار بين اطباءِ انكلترا ووبلس ، يبلغ ضعفي المعدل العام . اما وفيات اطباء الاسنان فأقلُّ من وفيات الاطباءِ واكثر من وفيات طائفة المشتغلين بالاعمال الحرة والاعمال الكتابية

يقابل ذلك ان وفيات الممرّضات قليلة . ولعلّ ذلك سببهُ ان الممرضات في الغالب عوانس ، والمعروف ان معدّل وفيات العوانس قليل . بل لقد يكون معدل وفيات الممرضات اقل من معدّل

وفيات العوانس بوجهٍ عام . وقد تناول الكتّاب الاوربيون موضوع وفيات الممرضات وتعرضهنَّ للعدوى بالسل لتمريضهنَّ المصابين بهِ . ولكن اصحاب الرأي في اميركا مختلفون في ذلك، لان طائفة من المنشآت التي يعالج فيها المسلولون تعتمد على ممرضات مسلولات . ولكن الرأي العام السائد ان صناعة التمريض لا تعرض الممرضات للعدوى لتوفيرها وسائل الوقاية في المستشفيات والمصحات الكبيرة. وعلى كلٍّ، يؤخذ من بعض المباحث التي اجريت في هذا الصدد ، ان معدّل الوفيات بالسلّ بين الممرضات يزيد ٣٣ في المائة ، عن معدلهِ في جماعة عامة من النساءِ في العمر نفسهِ

العمال واخطار اعمالهم

من الجليّ ان اصحاب الاعمال الحرة والمشتغلين بالاعمال الكتابية لا يتعرضون لاخطار خاصة تتصل بطبيعة عملهم ، كالعوارض التي يتعرض لهم عمّال المصانع ، او استنشاق غبار يضرُّ بالرئتين ، اوغازات سامة ، او العمل في احوال مرهقــة من البرد او الحر او الرطوبة او غير ذلك . فهنــاك طوائف كثيرة من العمال لا تنعم بما ينعم بهِ القسوس والمعلمون والاطباء والممرضات وموظفو الحكومات والشركات والمصارف ، لأنهم يتعرضون لأحد هــذه العوامل او لطائفة منها ، فتضعف صحتهم وتقصر مدى حياتهم

﴿ العوارض الصناعية ﴾ — واهم المخاطر التي يتعرضون لها، هي العوارض accidents التي تحدث في المصانع . ففي الولايات المتحدة يموت كلّ سنة ٢٤ الفاً من الناس بهذه العوارض الآتية . وتحدث عوارض اخرى على درجات متفاوتة من الخطر ، بحيث تمنع المصابين عن القيام باعمالهم مدداً تقصر او تطول بحسب شدة الاصابة وخفتها . فاذا قدر عدد ايام العمل الذي تخسره المعامل في اميركا بسبب هذه الحوادث المختلفة بلغ نحو ٣٠٠ مليون يوم عمل فكأن هذه الحوادث تبقي مليون عامل عاجزين عن العمل، على مدار السنة . وتقدر الخسارة الناجمة عن هــذه الحوادث في اجور العمال ، بنحو مائتي مليون جنيه . ويضاف اليها ما ينفق على معالجة هؤلاء المصابين ، وما يستنزل من اجرة العامل بعد شفائهِ ، لنقص كفاءتهِ بعد الحادث عنها قبله . ويلي ذلك ان نحو ثلاثة آلاف عامل من كل مليون عامل يعملون في المناجم ، يموتون بعوارض تحدث لهم في خلال قيامهم بعمل التعدين . وحوادث السكك الحديدية المختلفة التي تقع لعمالها البالغين مليوناً وثلاثة ارباع المليون ، تقضي على ١٥٠٠ عامل كل سنة . وكذلك يموت كثيرون من الحطابين بما يقع عليهم من الانقاض الكبيرة ، ومن البنائين وسوّاقي السيارات وغيرهم بحوادث ناجمة عن طبيعة اعمالهم

وقد حاول اصحاب هذه الاعمال على حدةٍ وباشتراك مع الحكومة ، اصلاح الحال ومع ذلك لا تزال الحال تبعث على التبرم . فمتوسط الذين يقتلون في حوادث مناجم الفحم ، يفوق متوسط الوفيات بين الكتبة والموظفين عشرة اضعاف. وتوقّع الحياة بين معدني الفحم ، في سن العشرين ينقص عشر سنوات عن توقع الحياة عند عامة الناس . اي اذا توقعنا انا وأنت — ونحن في سن

العشرين — ان نعيش حتى نبلغ الخمسين ، فعدَّن الفحم لا يتوقع ان يعيش بعد الاربعين . ومن قبيل عمل المعدنين ، اعمال اخرى يستهدف اصحابها للموت بما اطلق عليه اسم العوارض الصناعية Industrial accidents

﴿ الطيران ﴾ — وقد بلغ من شدة المخاطر التي يتعرض لها الطيارون ان رفضت شركات التأمين في البدء تأمينهم على حياتهم، او جعلت اقساط التأمين عالية ، اعلى جداً من الاقساط العادية في التأمين على الحياة . ولما كثر عدد الناس الذي اتخذوا الطيران صناعة لهم ، او وسيلة عادية للانتقال عنيت شركات التأمين بتحديد مدى الخطر على الحياة الذي يتعرض له الانسان في خلال الطيران . فحسبت بعض الشركات حساباً على اساس وفاة عشرة طيارين في كل الف طيار ، وزادت القسط السنوي على تأمين قدره الف ريال ، عشرة ريالات ايضاً . ثم ثبت ان هذا المبلغ لا يكفي في تأمين سائقي الطيارات على حياتهم . والمقرَّر الآن ، ان سواقي الطيارات النظاميين يختلف متوسط وفياتهم في السنة من ٢٥ الى ٥٠ في الالف . حتى اذا كان الرقم الاقل ، اقرب الى الصواب كان متوسط وفياتهم اربع اضعاف متوسط الوفيات في جماعة عامة من الرجال في عمرهم . وقد ثبت ايضاً ان الخطر الذي يتعرض له المسافر بالطيارة على خطوط نظامية معترف بها لا يذكر ، ولذلك لا يزاد القسط السنوي على تأمينه

وقد حاول اولو الامر في الولايات المتحدة الاميركية ، ابتداع وسائل كثيرة لتوقي هذه العوارض ونتائجها ، فنقص متوسط الذين يقتلون من موظفي سكك الحديد ، من ١ : ٣٥٧ سنة ١٨٨٩ الى ١ : ١١٣٦ في سنة ١٩٢٨ . ونقصت كذلك الحوادث في مصانع الحديد والصلب وخفت شدتها ، وقل ما تضيعه على العمال من ايام العمل . ولكن النتائج بوجه عام ليست مما يصح السكوت عليه ، بل انها لا تبعث على الرضا . وذلك في الغالب ، للتبدُّل الدائم في اساليب الصناعات المختلفة . فقد تستنبط اليوم طريقة لتوقي خطرٍ من الاخطار في احد الاعمال الصناعية فيتبدل اسلوب العمل في الغد ، ويأتيك بخطر جديد ، لا تجديك في اتقائه الطريقة القديمة

﴿ الغبار ﴾ — اما الغبار فيلي العوارض الصناعية ، خطراً على حياة العمال . فغبار الصخور يحتوي على قدر كبير من السلكا ، وهو كثير الضرر ، يقصر اعمار طائفة كبيرة من العمال في صناعات مختلفة كقطع الاحجار ، واستخراج تبر المعادن المختلفة من الصخور ، واستخراج صخري الاردواز والغرانيت من محاجرها ، وصقل الجرانيت وغير ذلك من الاعمال المماثلة لها . والواقع ان متوسط الوفيات بين هذه الطائفة من العمال ، هو اعلى متوسط عرف في شركات التأمين ، لان العمل يجمع في بعض الاحيان بين التعرُّض للعوارض ، واستنشاق هذا الغبار الضارّ في آنٍ واحد ، كما يقع في تعدين الذهب والفضة والنحاس ، وبوجه خاص في تعدين الرصاص والزنك . فمتوسط الوفيات بينهم يُربي ثلاثة اضعاف او اكثر على المتوسط العام . وتوقُّع الحياة لاحدهم وهو في العشرين ينقص من ١٣ الى ١٤ سنة عن «توقع الحياة» العام . اي اذا كان توقع الحياة لموظف بنك في العشرين من عمره ،

ثلاثين سنة ، فتوقع الحياة لاحد هؤلاءِ العمال لا يزيد على ١٧ او ١٨ سنة . وقد اثبتت الاحصاءات البريطانية ، ان أعلى معدل للوفيات ، هو معدل الوفيات بين معدني القصدير والنحاس ، المعرضين لغبار الصخور الصلدة التي يقطعونها . فمعدل الوفيات بين هؤلاءِ المعدنين يفوق اربعة أضعاف معدل الوفيات العام ، ومعدل الوفيات بالسل بينهم يفوق ١٢ ضعفاً المعدل العام للوفيات بالسل

والسل الرئوي داءٌ كثير الانتشار بين هـذه الطائفة من العمال ، فكأن دقائق الغبار ، تنفذ الى نُسج الرئتين ، فتحدث احتكاكاً ميكانيكيًّا — او كيمائيًّا على ما يرجح الآن — يعقبهُ تحجّر في النسيج ، يجعل الرئة هدفاً صالحاً لعمل باشلّس الدرن . وقد اثبت بحث اجري بين قاطعي الغرانيت في ولاية فرمونت الاميركية ، ان متوسط الوفيات بالسل بينهم ، يفوق عشرة اضعاف متوسط الوفيات بالسل في الولاية عامًّا . والظاهر ان الآلات التي تستعمل الهواءَ المضغوط التي يعتمد عليها الآن، تثير الغبار الحافل بدقائق السلكا، اكثر من الآلات اليدوية القديمة ، وهذا يعلّل ما ظهر من زيادة في حوادث السل الرئوي . وقد ثبت ان هناك انواع اخرى من الغبار عدا غبار الصخور ، يصحب ما يرى في بعض طوائف الناس من ارتفاع متوسط الوفيات ، مثل الحلاّقين وصنّاع الاثاث والنجارين والخبازين وعمال مصانع الغزل والنسج ومصانع الاحذية او التبغ . ولكن متوسط الوفيات بين هؤلاءِ ، لا يبلغ في حالة من الاحوال ، ما يبلغهُ في عمال المحاجر وما اليها

وهنــاك نوع من الغبـار ، يظهر انهُ يقي من الخطر ، بدلاً من ان يعرّض الحيـاة لهُ . فمن المشهور في جميع انحاء العالم ، ان متوسط الوفيات بالسل بين معدّني الفحم اقل من معدل الوفيات بهِ بين الذكور بوجهٍ عام . فمتوسط الوفيات بالسل الرئوي في انكلترا ووِيلس بين سنة ١٩٢١— ١٩٢٣ كان ينقص ٢٥ في المائة في الذكور الذي يتباين عمرهم من ٢٠ سنة الى ٦٥ ، عن متوسط جميع الذكور بين هذين السنين . وما يصحُّ على معدني الفحم يكاد ينطبق كذلك على عمال مصانع الاسمنت . وقد ذهب بعضهم ، الى ان غبار الجير كغبار الفحم ، لهُ اثر في الرئتين ، يقي من السلّ . ولكن ذلك لم يثبت ثبوتاً علميًّا بعد . ولا ريب في ان البحث العلميّ الطبي على اساس المناعة التي يتمتع بها معدنو الفحم وعمال مصانع الاسمنت ، يسفر عن خير عظيم

﴿ السموم والغازات السامة ﴾ — ان امتصاص بعض المواد السامّة ، مثل الرصاص والزئبق والفصفور والنحاس والزرنيخ والبنزول واكسيد الكربون الاول وغيرها من المواد المستعملة في الصناعات المختلفة ، هو الباعث المباشر لمرض بعض عمال هـذه الصناعات وموت بعضٍ آخر . ومن قبيل هذه السموم ، الاشعة السينية ، التي يتعرّض لها الاطباءُ والممرضات في بعض المصحات والمستشفيات ومعامل البحث العلمي . كذلك العمال الذين يشتغلون في صنع موانىء الساعات المضيئة ، يتعرضون للاصابة بما يعرف باسم « التسمّم الراديومي » . ومن المتعذر الآن معرفة مدى الاصابة بالسموم المختلفة الناشئة عن طبيعة العمل، لغموض الاعراض في هذه الاصابات من حيث صلتها بالعمل

نفسه ، حتى ليصعب على جمهور الممارسين من الاطباء تبينها وتشخيصها ولذلك يهمل التبليغ عن بعضها مع ان القوانين تقتضي بذلك . ولكن بعض الولايات انشأ من عهد قريب قوانين لتعويض العمال الذين يصابون بامراض ناشئة من عملهم ، فينتظر ان تفضي هذه القوانين الى معرفة اتم بهذه الناحية من علاقة العمل بالصحة وطول العمر

ومع قلة المعلومات التي تمكن الباحث من تعيين اثر السموم الصناعية في معدل الوفيات ، تقرر شركات التأمين الاميركية ، ان معدل وفيات الدهانين ، المعرضين دائماً للرصاص — لانهُ يدخل في تركيب طائفة كبيرة من اصناف الدهان — أعلى من المعدل العام ، وان اثنين في المائة من وفياتهم سببها التسمم بالرصاص . اما في انكلترا ، فالتسمم بالرصاص ، يسبب وفاة كثيرين من البرادين . والمشتغلون بصهر القصدير ، يتعرضون لدخان اكسيد الزنك (القصدير) فيصابون بداء يعرف «بداء صاهري القصدير» واليه يردُّ وفاة كثيرين منهم بامراض الجهاز الهضمي والسلّ والتهاب الرئة . ولا ريب في ان الغبار يشترك مع هذه الادخنة في الاصابات التي سبق ذكرها

﴿التعرُّض لاختلاف الحرارة﴾ — تقضي بعض الاعمال ، على القائمين بها ، ان ينتقلوا فجأة من مكان دافيءٍ شديد الدفء الى مكان بارد شديد البرد . ومن هؤلاء المشتغلون بمصانع الحديد والصلب والخزف والزجاج ، وغرف الآلات البخارية في السفن . فهؤلاءِ العمال معرَّضون لأمراض الجهاز التنفسي ، ومعدل الوفيات بينهم ، بالتهاب الرئة ، عالٍ جدًّا . والواقع ان الوفيات بهذا الداءِ بين العمال في مصانع صبّ الحديد ، اعلى منهُ في أية فئة اخرى من العمال . اما العمال في مصانع النسيج ، حيث يتعرضون للحرارة والرطوبة معاً ، فيصابون بعلل لا يمكن تحديدها وانما يبدو أثرها في ارتفاع معدل الوفيات بينهم . ومنهم من ينحصر عمله في اعمال يطلق فيها البخار من احواض وصناديق ، فيتعرضون للروماتزم المزمن او لالتهاب شعب الرئتين المزمن او لاضطراب في الدورة الدموية

﴿التعب والاجهاد﴾ — لقد اثبت الدكتور ريموند برل فساد القول بأن العمل لا يقتل احداً . فأثبت من درسهِ لتقرير مصلحة الاحصاءِ ، ان الاجهاد الجسماني ، يقصر حياة الرجل بعد الاربعين من العمر . قال : من المعروف ان حياة العبيد في السفن الحربية الرومانية والعمال في مصانع الصين ، وعمال مزارع الارز في جاوى ، قصيرة لكثرة ما ينفقونهُ من الطاقة في اعمالهم . فثمة صلة معينة في معدل وفيات الذين اربوا على الاربعين من العمر ، ومقدار الطاقة التي ينفقونها في اعمالهم . وقد ثبت من بحث ٢٢ الف عامل في مصانع الحديد بانكلترا ، ان الامراض اكثر تفشياً بين طوائف العمال الذين يقتضي عملهم منهم انفاق قدر كبير من الطاقة في جوٍ حارّ ، منها بين الذين عملهم اسهل والجوّ الذي يعملون فيهِ اقل حرارة . وثبت من بحث آخر ان تعب القلب الناشيء عن الاجهاد في العمل كثير بين الجنود والحمّالين والمعدنين والحدادين . ولا يخفى ان الفتق من الاصابات التي تكثر بين رافعي الاحمال الثقيلة

مراحل الحياة عبر الزمان[1]

للسر جيمز جينز

كشف علماء الطبيعة من عهد قريب عن طريقة تمكنهم من تبيُّن الصفحات المتوالية في كتاب الارض وتعيين تواريخها تعييناً على جانبٍ من الدقة يسترعي النظر ولا يمضُ

فقد رأى كل قارىء لهذه الكلمات ساعة من تلك الساعات التي تتألق في الظلام الحالك فيستدلُّ صاحبها بهذا التألق على مواقع عقاربها . ولكن البحث الوافي في هذه الآلات الدقيقة . يثبت لنا ان تألقها ليس فعلاً مستمراً، بل هو سلسلة من الانفجارات المتوالية توالياً سريعاً فيظهر التألق كأنهُ مستمر .وكل انفجار سببهُ تلاشي ذرة من ذرات الراديوم ، او بالحري تحوُّلها.لأن ذرة الراديوم لا تتلاشى فعلاً ، ولكنها تتحوَّل على مرِّ الزمان الى صنف خاص من الرصاص، يدلُّ عليها

والغريب ان تحوُّل الراديوم الى رصاص ، يمضي على وتيرة واحدة وبسرعة واحدة ، ولذلك يستطيع العالم ان يقيسهُ في مخبرهِ . فاذا استطعنا ان نعرف مقدار ما على عقارب الساعة من الراديوم والرصاص الناشىء عن تحوُّل الراديوم مكنتنا معرفة سرعة التحوُّل في الراديوم الى رصاص، من قياس عمر الساعة . وكذلك نستطيع ان نقيس عمر صخور الارض ، بالاسلوب نفسهِ

فأننا اذا اخذنا شرائح من صخري الميكا والتورمالين ، ونظرنا اليهما بالمكرسكوب ، رأينا فيهما احياناً نوعاً من الهالات هو عبارة عن حلقات متراكزة وفي مركز الهالة ذريرة من مادة مشعة، تنحلُّ او تتحوَّل ، بسرعة معيَّنة ، على مثال تحوُّل الراديوم في ميناء الساعة . وقد تكون هذه المادة مبنية من عنصر الاورانيوم او عنصر الثوريوم او منهما معاً . فحلقات الهالة ناشئة عن انحلال هذه المادة المشعة

وفي مستطاع العلماءِ ان يحدثوا هالات من هذا القبيل في المخبر ، مؤلفة من حلقات متراكزة ، فيمكنهم ذلك من فهم اسرار حدوثها في الصخرين المذكورين اوغيرهما من الصخور

وقد ثبت من امثال هـذه التجارب ، ان لون الهالات ، يشتدُّ قتاماً ، بمضي الزمان ، ولذلك يستطيع العالم احياناً ان يقدِّر عمر الصخر من لون الهالات التي يتبينها فيهِ

بيد ان هناك صخوراً ، تحتوي على عنصر الاورانيوم او الثوريوم ، ولكن لا تبدو فيها

---

(١) ملخص فصل من كتاب جديد للسر جيمز جينز العالم الانكليزي عنوانه : « عبر الزمان والمكان »

ظاهرات الحالات هذه ، فعند ذلك يعمد العالم الى التحليل الكيمائي ؟ ليعرف مبلغ ما طرأ عليها من التحوُّل . وهذا يمكنهُ من تقدير عمر الصخر ، كما يمكنهُ تقدير عمر الساعة من تحليل الراديوم الذي في ميناءِ أرقامها

فقد ثبت من تحليل بعض الصخور في كندا [1] انها تجمدت من نحو ١٢٣٠ مليون سنة . وثمة صخور في جهاتٍ اخرى اقدم من ذلك واطول عمراً ، ولكنها ليست اقدم كثيراً من صخور كندا ، ولا يمكن تعيين عمرها ، بمثل الدقة التي عُيّن بها عمر تلك. ولذلك يصحُّ ان تقول ان صخور «البغمتيت» بكندا هي الصفحة الاولى في كتاب الارض التي يمكن تعيين تاريخ دقيق لها

في هذه الصفحة من الكتاب ، نقرأ ان الارض كان لها من ١٢٣٠مليون سنة ، قشرة جامدة ، تجري عليها الانهار ، فتجرف في جريانها فتات الصخور الى البحار . بل ان الصفحات التي قبل هذه الصفحة — أو الطبقات التي تحت هذه الطبقة — تبين لنا ، فعلي التبرُّد والتجمد ، ولكننا لا نستطيع ان نعرف ما استغرقهُ هذان الفعلان من الزمن والمرجح انهما استغرقا ملايين من السنين. ولذلك يرجح علماء العصر ان عمر الارض قد لا يقلُّ كثيراً عن ١٥٠٠ مليون سنة . ولا يمكن ان يزيد على ١٥٠٠ مليون سنة كثيراً،والاَّ لكانت المواد المشعة فيها ، قد خمدت بعد انقضاءِ اشعاعها ، ولما اتيح لنا نحن ان نرى ظاهرة الاشعاع الطبيعي . والراجح ان سكان الارض بعد ملايين الملايين من السنين لن يعرفوا ما هي. فاذا كانت المواد المشعة تمضي في اشعاعها وتحوُّلها على وتيرة واحدة فعمر الارض نفسها قد لا يزيد على ٣٤٠٠ مليون سنة ، والراجح انهُ أقل من ذلك كثيراً

فبين هذين الحدين — ٣٤٠٠ مليون سنة و ١٥٠٠ مليون — يقع عمر الارض [2] . فاذا اقتصرنا في تقديرنا على الارقام « المدوَّرة » قلنا ان عمر الارض يبلغ نحو ٢٠٠٠ مليون سنة ، فهو مائة الف مرة اطول من مدى التاريخ المدوَّن ومليون مرة اطول من العهد المسيحي

وقد يتعذر على ذهن الانسان ، ادراك ما في هذه الارقام من المغازي . ولعلَّ ايسر طريقة لتصوُّر ذلك ان نأخذ كتاباً يشتمل على ٥٠٠ صفحة ، تحتوي كل صفحة منهُ على ٣٣٠ كلمة ، ومتوسط الحروف في كل كلمة ستة حروف . فاذا كان هذا الكتاب يمثل عمر الارض ، فالكلمة الاخيرة فيهِ تمثل عهد التاريخ المدوَّن ، والحرف الاخير فيها يمثل العصر المسيحي . في مدى هذا الحرف الاخير ، قامت الامبراطورية الرومانية ودالت وانتشرت المسيحية في مختلف بقاع الارض وتحوَّلت دول اوربا من البلدان الهمجية التي وصفها قيصر الى ما هي عليه الآن . (وبزغ في الحجاز نجم الدين الاسلامي وامتدت فتوحات المسلمين من الحجاز الى اوربا شمالاً فغرباً ، ومن الحجاز الى

(١) تعرف هذه الصخور باسم Pagmatite (٢) بعيد كتابة هذا المقال قرأنا آخر تقدير لعمر الارض فاذا هو ١٧٢٥ مليون سنة

اوربا عن طريق شمال افريقيا). في مدى هذا الحرف الصغير، ولد ومات ستون جيلاً من الناس. اما مدى حياتي وحياتك ايها القارىء، فقد لا تفوز بممثل لها في هذا الكتاب بأكثر من نقطة صغيرة

فاذا شئنا ان نقرأ في هذا الكتاب ما سبق الكلمة الاخيرة (اي ما سبق عهد التاريخ المدوَّن) وجب ان تكون قشرة الارض كتابَنا، الذي نقرأ، وما فيها من طبقات الصخور والتراب. وجانب كبير من الصفحات في كتاب القشرة الارضية قد جعَّد وتكسر بمرور الزمن عليهِ، ولكنَّ الصفحات لا تزال في الغالب مرتبة بحسب تواليها الزمني، وبعضها يحمل في طياته هناك وهنا، ما ينبيء عن تاريخه

فلنتصوَّر اننا بسطنا هذه الصفحات المجعَّدة فماذا نقرأ فيها ؟

قبل الفي مليون سنة كانت الارض لا تزال خالية من الحياة، آخذة في التبرُّد والتجمد والاستقرار، ومضت على ذلك نحو مائة مليون سنة . ثم نقلب صفحة أو صفحة من الاحداث الجولوجية، في ذلك العهد السحيق، الى ان نقع في الصفحات التي تاريخها يرجع الى حوالي ١٢٣٠ مليون على طمي يحتوي على آثار الكربون . ويرى بعض الجولوجيين في ذلك بعض الدليل الاستنتاجي على ان البحار كانت تحتوي على طائفة من الاشكال الحية البسيطة . ثم نمضي في تقليب الصفحات فلا نقرأ فيها، في الغالب الاَّ عن احداث جولوجية، حتى نصل الى الصفحات الخاصة بالمدة التي بين ١٠٠٠ مليون سنة و ٥٠٠ مليون سنة فنجد بقايا حفريات في الصخور، يرى فيها الجولوجي بقايا الاحياء في ابسط مظاهرها . ثم حوالي المدة التي تقع قبل ٤٠٠ مليون سنة، نجد الحياة وقد كثرت اشكالها وتعقد بناء هذه الاشكال . بل اننا نجد بقايا ديدانٍ وحيوانات بحرية هلامية تعرف بقناديل البحر، وهي لا تختلف كبير اختلاف عن اشكالها المعهودة الآن

ثم تنقضي ملايين السنين، فاذا فتحنا عندها صفحات في كتاب الارض وجدنا حفرياتٍ تشبه شبهاً كبيراً بعض نباتات العصر الحديث . نحسبها نباتات ولكنها لم تكن نباتات لانها كانت تعيش في اغوار البحر، وكانت اشبه بما يعرف بشقائق البحر او نجوم البحر . ولكن بعد ذلك اخذت الحياة تغزو اليابسة وفي آثار هذا العصر نرى حفريات الاعشاب الاولى والنباتات الشبيهة بالسراخس

فلما كثر النبات على اليابسة اتخذت الارض تدريجاً شكلها الحالي . فجذور النبات تثبّت دقائق التراب، وتنشيء تربة مستقرَّة صالحة للزراعة . ثم ان بعض الحيوان يغتذي بالنبات، والبعض الآخر يغتذي بطوائف الحيوان الاول

كان هذا مفتتح العصر الذي سيطرت فيهِ الزحافات الضخمة على الارض . ومن اشهر هذه الزحافات حيوان يدعى Dimetrodon Gigas وقد كان عظاءة لاحمة (Carnivorous) ضخمة الجثة، عاشت قبل ٢٥٠ مليون من السنين . ومن العجيب ان بعض الاشكال البسيطة التي ظهرت في ذلك العهد، او قبيله، كالديدان وقناديل البحر واصناف الاسفنج، ما تزال باقية الى عصرنا هذا لم يطرأ عليها تغيير كبير، حالة ان الاشكال المعقدة التركيب التي ظهرت حينئذٍ تحوَّلت تحوُّلاً كبيراً

واذ نتقدم في تقليب صفحات الكتاب نجد صفحات كتب عليها الجولوجيون اسم «الدور البرمي» او « الدور الترياسي » وكتب عليها علماء الطبيعة « ٢٠٠ مليون سنة ». في هذه الصفحات نقرأ عن احداث جولوجية ، جعدت قشرة الارض وبدلت من شكل سطحها . ففي نصف الكرة الشمالي نقرأ عن جفاف بعض البحار ومنها المحيط الاطلنطي والمحيط الهندي وتحولها الى يابسة ، ونعلم ان جانباً فقط من المحيط الهادىء ظل مغموراً بالماء . اما في نصف الكرة الجنوبي ، فيقول الجولوجيون ان الارض المعروفة باسم غوندوانا Gondwana برزت فوق سطح الارض وشغلت الفسحة الممتدة من شرق اميركا الجنوبية الى افريقية فاستراليا

ويرينا الجولوجيون كذلك شقوقاً في الصخور محشودة بمحفريات السمك كأنها العرم (السردين) في العلب ، فكأن هذه الاسماك قضت آخر ايامها حيث توجد قطرات الماء الاخيرة قبل تبخرها

***

فلما انحسرت المياه عن ساحات شاسعة على سطح الكرة الارضية ، وضاق مسطح البحار الذي تتبخر المياه منهُ ، وقلت الامطار تحول جانب كبير من اليابسة الى صحراوات . في هذه الصفحة من كتاب الارض نقرأ أن بحار اوربا الشمالية ظلت تتقلص حتى أصبحت بحيرات ملحة ، وازدادت ملوحتها بازدياد الجفاف ، ثم جفت تاركة رواسب من الملح على نحو ما نجده الآن في مقاطعتي تشثير وساتفوردوشير بانكلترا . فلما بدأ الجفاف في الزوال ، لم تظهر اشكال كثيرة من الاحياء التي كانت معروفة قبله ، فكأن الجفاف لاشاها ، ولم يبق منها الا ما استطاع ان يلائم ملاءمة سريعة بينهُ وبين الاحوال الجديدة . ومن هذه الحيوانات زحاف Cacops aspidophorus استطاع ان يعيش على اليابسة بعد جفاف البحار

ويلي ذلك صفحات خاصة بالدور الجوري Jurassic وتاريخها يرتد الى عهد يمتد من ١٥٠ مليون الى مائة مليون سنة قبل عصرنا . في هـذا العصر ، عادت الرطوبة الى الهواء ، وعاد المطر ينهمل على سطح الارض ، واصبحت الارض من جديد صالحة للاحياء . في هـذا العصر ، نشاهد الزحافات التي تخطت عهد الجفاف ، بعضها يعيش في البحر وبعضها على اليابسة ، وبعضها قد غزا الهواء . لاننا في الحفريات الخاصة بهذا العصر نقع على آثار اول الحيوانات المجنحة وقد كان لها في بدء امرها أسنان في مناقيرها . ولكن معظم الحيوانات في هذا العهد كان غير صالح لتنازع البقاء في الغالب لضخامته وعجزه عن الكر والفر

فمن الحيوانات التي عاشت في اميركا قبل حوالي الف مليون سنة حيوان يدعى Triceratops وهو نموذج للحيوانات التي كانت تعتمد على دروعها الدفاعية في الكفاح . فقد كان لهُ ثلاثة قرون طول كل منها بضع اقدام ، فكان عليهِ اذا هوجم ان يقف « وظهره الى الجدار » منتظراً عدوه المهاجم ان يتمزق على قرونهِ . وكان حيواناً ضخماً طوله نحو عشرين قدماً وعلوه نحو تسع قدام .

وكان لا يزال زحافاً في بعض خصائصه وكانت اناثه بيوضاً . ولما كانت طرق الهجوم والدفاع لا تزال بدائية فان هذه الحيوانات لم تكن في حاجة الى كثير من الذكاء ولذلك تجد ان جمجمة هذا الحيوان كان طولها ست أقدام ولكن دماغه كان لا يفوق دماغ الهريرة في حجمهِ

ومن هذه الحيوانات العجيبة الزحاف المجنّح Pterodactyl وقد كانت المسافة بين اطراف جناحيهِ نحو ١٨ قدماً . ولكن اجنحته كانت اضعف من ان تشيل جسمهُ الضخم في الهواء ، وارجله اضعف من ان تحملهُ على الارض . ويصورهُ لنا العلماء جاثماً على رأس صخرة او اكمة ، ثم اذا بهِ فجأةً يلقي بنفسهِ في الهواءِ ، فيسبح فيهِ بفعل تياراتهِ ، على نحو طيران السابحات في الهواءِ الآن gliders فينقضُّ على فريستهِ ثم يعود ادراجه ، متثاقلاً الى رأس الصخرة . فكأن حياتهُ كانت محاولة مستمرة ان يتعلم الطيران من دون ان يصيب قسطاً كبيراً من النجاح

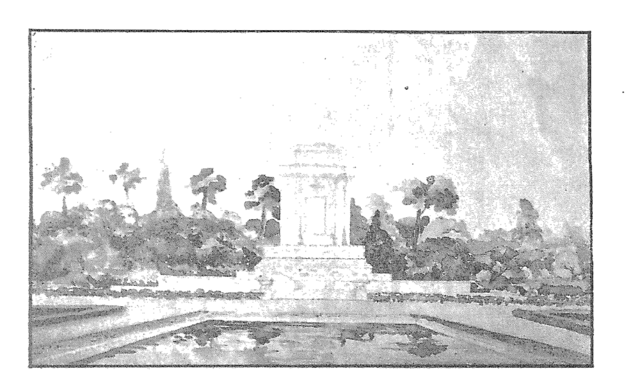
اما الحيوان المعروف باسم diplodocus فكان من اضخم الحيوانات التي ظهرت على الارض . كان علوهُ نحو ٣٠ قدماً فوق سطح الارض ، ولذلك يرجح ان وزنهُ كان يختلف من ٤٠ طناً الى ٥٠ طنًّا . وقد بلغ من ضخامة جثته ان ارجله كانت تعجز عن حمله ، لذلك فضّل ان يعيش في البطائح (المستنقعات) حيث كانت عنقهُ الطويلة المستدقة تمكنهُ من تناول غذائهِ . والواقع انهُ كان يحتاج الى قوة رفع الماءِ لكي يستطيع تحريك جثتهِ الضخمة

لذلك قلنا ان هذه الحيوانات واشباهها كانت غير صالحة لمعترك البقاء ، فأخلت مكانها لحيوانات اخف حركةً وألمع ذكاءً

فاذا قلبنا صفحة هذا العهد بعد انقراض هذه الحيوانات انفتحت امامنا صفحة الحيوانات الثديية (اللبونة) وهي في صفاتها العامة تشبه الثدييات المعاصرة . فالحيوان المعروف باسم Arsinoitherium كان يعيش في مصر من نحو ٢٥ مليون سنة . كان اصغر من جبابرة العهد السابق ، ولكنهُ كان مع ذلك في حجم الكركدن او الفيل الصغير . ومنهُ نشأ الفيل الحديث . وكان هناك نوع الببر ، وهو حيوان اصغر من سلف الفيل ، شرس الطباع ، حاد الناب كان يقطن آسيا واوربا من نحو عشرة ملايين سنة . وكان في حجمهِ مثل الببر الكبير او الاسد الكبير ، وكان له في فكيه نابان طويلان حادّان ولكنهما كانا يعوقانهِ عن اطباق فكيه ، والعلماء يعجبون كيف لم يمت هذا الحيوان جوعاً لعجزه عن اطباق فكيه ومضغ طعامه

***

وفي خلال المليون السنة الاخيرة ، نشأ الانسان من بعض الثدييات الشبيهة بالقردة . ان مدة مليون سنة ، تبدو طويلة جدًّا عند مقابلتها بمدى حياة احدنا على الارض ولكنها بالقياس الى عمر الارض ليست الاّ لحظة خاطفة . ومع ذلك ترقى الانسان في هذه اللحظة ، فسيطر رويداً رويداً على الحيوانات التي كان يصطادها وبوجه خاص لما تعلم الكلام من نحو ١٠٠ الف سنة



صورة تمثل التصميم الذي وضعهُ احد المهندسين لقبر الفردوسي

الفردوسي وشاهنامته

وعظيم تأثيره في التاريخ واللغة والأدب الفارسي

رأيت ان اتقدم بنصيبي الى قراء العربية وادبائها الكرام من الافضاء ببيان عن الشاعر الايراني العظيم الفردوسي وشاهنامته في الوقت الذي تقام فيه الحفلات وتعقد المؤتمرات الادبية ويحتفل العلم والادب والانسانية بمرور الف عام على ذكراه القدسية . واری قبل الخوض في بيانٍ عن ذلك الشاعر الخالد وقبل مواجهتنا الموضوع ان أطوّف بالقارىء قليلاً في عوالم اللغة الفارسية وآدابها وتاريخها . ان اللغة الفارسية الحاضرة ناشئة الى حد ما عن اللغة البهلوية التي ترجع الى اللسان الفارسي القديم المسمى (آريا) او الفارسي الباستاني ، وقد انشعبت هذه من اللغة(الآرية) الأصلية ، ولذلك تجد الدولة الفارسية تعرف باسم (ايران) اشتقاقاً من الكلمة الاصلية (آريان) حيث ان لفظة « يان » هي علامة الجمع بمثابة الياء والنون في جموع اللغة العربية ، اما لفظ فارس فهو محرف في التعريب عن كلمة (پارس) الباقية بحالتها الراهنة في بعض اللغات الآرية الحاضرة . اما في اللغة الفرنسية فيسمونها (پرسان) وهي كلمة مخففة عن كلمة پارسيان وكذا يسمى پرس المخففة عن پارس

وقد ظلت اللغة البهلوية محافظة على صبغتها في الخط والقراءة الى ما بعد الاسلام بقرنين او ثلاثة قرون وعنها نقل مابقي من تاريخ الايرانيين وآدابها الى اللغة العربية ثم اصبحت بعد ذلك الى القرن الخامس لغة دينية عند الزردشتيين مقصورة على جماعة الموبذ والموبذان كهنة زردشت وكذلك من تعلمها من علماء الاسلام كابن سينا والبيروني وابن المقفع وغيرهم وبذلك عاشت هذه اللغة بعيدة عن متناول العامة. اما اسلوب طريقة الخط في هذه اللغة فقد بقي الى اواخر القرن الأول بعد الاسلام وتشهد بذلك مسكوكات من النقود كان التعامل جارياً بها عند العرب منذ الجاهلية وقد نقلت كتابة الدواوين بها من الفارسية في عصر عبد الملك الى العربية واهمل الخط البهلوي وشغل مكانه الخط الفارسي الحاضر الا ان اللغة الفارسية بوجهٍ عام بقيت في ميدان الخطابة والكلام الى ان عادت ثانياً ميداناً للعلم والادب بعد الاسلام

﴿ الشعر الفارسي ﴾ الشعر الفارسي قديم على ما يظهر حيث كانت الموسيقى فنًّا تلازم الحضارة الايرانية في سلمها وفي حروبها ومعلوم ان الموسيقى تلازم الشعر وتلازمها في سائر خطواتها فلا بد ان يكون لهم مقطوعات تساير انغامها وكلمات موزونة تجاري اوزانها وفي عهد الساسانيين كما ذكر في تاريخ الادب الايراني لبعض الادباء المعاصرين كان للموسيقى وزير خاص ووجد في ذلك العصر أعاظم المغنيين وفي مقدمتهم باربد نكيسا بامشاد فان اردشير مؤسس الدولة الساسانية قسم رجال الدولة الى ثلاث طبقات ممتازة كان الموسيقيون إحداها حتى بلغت عنايته بذلك مما حدثوا عن تقسيم النغمات الموسيقية

على ايام الاسابيع وعلى فصول السنة واواخر الشهور واختلاف الليل والنهار وبقيت بعض المصطلحات الموسيقية الى مابعد الاسلام في كتب الموسيقى والادب واللغة وجرت بذلك السنة الشعراء في الاسلام ومن قرأ رسالة الفارابي في الموسيقى والمحاسن والاضداد للجاحظ وجد بعض مصطلحات موسيقية فارسية قديمة مثل زيرا افكند نهفت زير كشيده توروز ومن هذا الرقي الموسيقي على اختلاف العصور يتبين لنا ان الشعر كان ملازماً للموسيقى وان لم تكن له الاوزان الخاصة الجارية ولكن على كل حال كان يرتكز على اوزان اخرى يمكن تطبيقها على النغمات الموسيقية التي كان لها القدم الراسخة في مرافق الدولة الايرانية ومما يدل على ثبوت الشعر الفارسي ما نقل في شرح ادب الكاتب لبطليوسي ان طليحة الاسدى من اشراف العرب اتى الى بلاط كسرى خسرو پرويز في مهرجان العيد فرأى مغنياً ينشد اشعاراً عربية فلما ترجمت لكسرى لم ترقه واخذ مُغنٍ فارسي يرجع غناءه فطرب الملك وتناول الراح. ومما يدل على علم الايرانيين بالشعر واهتمامهم به ماروى ابن قتيبة في كتاب الشعراء ان كسرى انوشروان سمع بأن الاعشى ينشد هذا البيت

ارقت وما هذا السهاد المؤرق   وما لي من سقم وما لي معشق

فقال انوشروان ، ما يقول هذا العربي ؟ ورغب في ترجمة البيت فلما فهم قال اذا لم يكن عاشقاً ولا مريضاً مع سهاده فلا بد ان يكون لصاً

وقد بيّن ابن المقفع في مقدمة كليلة ودمنة ان في اليوم الذي جاء فيه برزويه بكليلة ودمنة امر باقامة حفل احتفاء ببرزويه وكتابه وكلف الشعراء والخطباء ان يتحدثوا عن مزايا اليوم وفي هذا دلالة على ان الشعر كان ذائعاً بين الايرانيين قبل الاسلام. اما مبدأ حياة الشعر في العصر الاسلامي فقد اختلفت الآراء في اول شاعر فقيل انهُ ابو العباس المروزي وقيل انهُ ابو حفص احوص السعدي السمرقندي وقيل انهُ حنظله باد غيسى وليس في الوقت ولا موضوع المقال متسع لتحقيق ذلك

ومما لا خلاف عليه ان اول شاعر بكل معنى هذه الكلمة ، والذي رُويت وحفظت عنهُ اشعار جيدة بقيت في عيون القصائد هو الرودكي الذي نظم كليلة ودمنة وكان مغنياً بارعاً مكثراً من نظم الشعر وكان كفيف البصر ولم يمض على بدء الشعر الفارسي الاّ بضع قرون حتى نبغ شعراء ضربوا اعظم الامثال في مضمار التخيل والتفكير وفي براعة الاداء والتصوير وخلدوا في صحيفة الادب الفارسي قصائدهم ومقطوعاتهم التي شهد العالم بعظمتها وسمو مكانتها وفي مقدمتهم الشاعر العظيم حكيم ابو القاسم الفردوسي الذي كان من اكبر العوامل في نهضة اللغة الفارسية وآدابها الحديثة واسترداد مكانتها العالمية بين الآداب واللغات الحية

﴿ الشاهنامه وعظيم تأثيرها في اللغة والآداب الفارسية ﴾ الشاهنامه هي المرجع المهم في التاريخ والادب الفارسي لجميع الادباء والمؤرخين ، مرجعٌ سهل على المتأخرين سبيل الشعر وهو كنز اللغة الفارسية وقاموسها الرحيب فليس هو كتاباً تاريخياً يشتملُ على ذكر الملوك

والابطال وقضايا ايران وحوادثها الماضية فحسب بل هو محتوٍ على اغلب فنون الادب ففيه حكمة وغزل واخلاق، كما ان فيه قصص الحروب والابطال وجميع نواحي العواطف الانسانية من حب وهيام

على ان ملحمة الشاهنامة لا تكتفي من الحوادث بسردها فقط ولكنها تربط العلل بمعلولاتها والآثار بمؤثراتها وتشير الى اسباب الطبيعة في سائر القضايا وتتحدث عن الخصائص الاجتماعية ولا تكاد تبدأ بقصة او تختمها حتى تتوجها بالعبرة وتحذر من الاغترار بالدنيا والركون اليها وتقرنها بما يلائمها من النصائح المناسبة لوقائعها المشاكلة لحوادثها وكل هذه القصص ذات الاحداث الرائعة والقضايا المتسلسلة والحقائق العالية والافكار الرحيبة يجليها في اوضح مجاريها ويخرجها في اصدق صورها فتجد القصة مكتوبة منظومة وتحس بها كأنها واقعة مشاهدة تراها رأي العين وتتحقق من مناظرها وابطالها كأنك تعيش معهم وتحيا بينهم في اسلوب قريب ايضاً تتعشقهُ كل نفس ويستمرئه كل ذوق وهذا ما جعل الشاهنامة نشيد الخاصة والعامة على السواء واتخذ أنيس المحافل فهو يبعث كوامن العواطف والاحساسات ويحمل النفس على التحلي بالشجاعة وركوب الاخطار وقوة العزيمة والاصطبار على نوائب الايام

وقد اجمع علماء الشرق والغرب على رأي واحد تجاه الشاهنامه هو اعتبارها أدباً عالميًّا وشعراً في اسمى طبقة لم يتوجه اليه احد بنقد ينال من سمائها عدا البروفسور براون في مؤلفه فقد ذكر في مؤلفه في الادب الفارسي ان الشاهنامه ليست في المستوى العظيم من الشعر ثم انهُ لا يجحد مكانتها في اللغة والادب والتاريخ . على ان مستر براون هو الذي انفرد بهذا الشذوذ وهذا التفرد الغريب في نقده ، ولكنَّ اجماع علماء الامم وادباء العالم مع تباين الاذواق والنزعات على تقديرها والحفاوة بها هو اعظم ردٍّ على نقد المستر براون واكبر برهان على القيمة التي حازها الفردوسي وليس يضائره بعد ذلك شذوذ فرد وانفراد رأي. على ان كل شعب اعلم بادبه وخصائص الشعر فيه واقدر على التمييز بين الغث والثمين فان ألحانه الفنية تقتضي امتزاجاً تامًّا بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ونشأت فيها تلك الصور الادبية وليس من شك في ان مثل براون يعوزه الاتصال الكافي بالفرس من جهات عديدة . فمع احترام رأيهِ فان هذا الرأي خارج عن الصواب ولاسيما اذا لاحظنا ان شعراء عديدين حاولوا تقليد الفردوسي ونظموا الحوادث والملاحم فما بلغوا شأوه ولاظفروا من محاكاتهِ بطائر ونحن لا ندعي ان كل بيت في الشاهنامه هو بيت القصيد فان سفراً جامعاً مثل هذا الكتاب فيما حوى من حوادث وقصص واسعة الاطراف لا تخلو ان تكون بعض اشعاره خيراً من بعض واعتراف الشعراءِ انفسهم وهم اولى الناس بتقدير فنّهم ، فيهِ غناء عن الدفاع عن مقام حرمتها

وهذه ترجمة بعض نوابغ الشعراء في حق الفردوسي . يقول حكيم الانوري ما ترجمتهُ :

مرحباً بشاعر الفردوسي في مقامه النوراني الرفيع فما كان الفردوسي استاذاً ونحن تلاميذه بل كان الله الشعر ونحن عبيده . ثم يقول ابن يمين : ان الطابع الذي نقشهُ الفردوسي على دنانير الكلام لم يتح لشاعر فارسي انهُ كلام هبط من الثريا الى الثرى فصاعد الفردوسي ورفعهُ من الثرى الى الثريا

يقول النظامي : الفردوسي هو الشاعر التاريخي والعالم الطوسي هو الذي زين بالشعر وجه الكلام كما يزين بالحلى وجه العروس

ثم قال السعدي ما اجمل اقوال الفردوسي الطاهر الاصل فلتهبط شآبيب الرحمة على ترابهِ الطاهر

﴿ ترجمة من الشاهنامه ﴾ لعلَّ اكثر ما يهتم له الاديب معرفة رأي هذا الرجل العظيم في الحياة وها هي ترجمة بعض كلماته الحكمية والاخلاقية التي تتضمن رأيهُ فيها ايضاً

ماذا تريد من الحياة الطويلة المدى وهي مقفلة الاسرار والغيوب فانها تربّيك اولاً بشهد اللذات ولا تسمعك الأارق النغمات فتظنها قد بذلت لك كل حبها وهي لا تعبس في وجهك فأنت بها فرحٌ تبذل لها ودائع قلبك واسرار نفسك ثم تلعب معك دوراً بعد ذلك يترك قلبك دامياً هكذا هذه الحياة المنقضية فلا تبذر فيها الاَّ بذور الخير

تعال بنا ، لا نودع هذه الحياة بسوء ، ولنكن مجدين في ان ننال منها يد الخير ، لاشيء من الخير والشر يبقى ابديًّا ، فاجمل بنا ان يكون الخير هو الذكرى بعدنا ، ان كنز الدنانير وقصور الذهب لن تكون لك بنافعة ولكن الكلام هو الذكرى الباقية فلا تظنن الكلام امراً هيناً

ان افريدون فرّخ ماكان ملكاً ولا كان مخلوقاً من مسك وعنبر
ولكن بالعدل والجود وجد هذه الذكرى فكن جواداً عادلاً تكون انت افريدون

***

اني أحب من الحياة زاويةً اجد واجتهد فيها لجمع زادي لا تؤذي نملة تجر الحبة الى قراها
فان لها روحاً والروح حلو لذيذ انه لحجري القلب اسوده من تكون نملة منه في ضيق

***

أيتها الحياة كلك وهم وانتفاخ لا يكون العاقل بافعالك طروباً اذا نظرت الى افعالك
لا أجد فيها الاَّ خيالاً وما أحسن الذي يجعل الذكر الجميل فيك اثراً سواءٌ أعبداً كان أو ملكاً

***

لا تركن الى هذه الحياة ولا تأمن بسرائرها فان لها في كل حين طرازاً من اللعب جديداً
ترفع واحداً من مجرى الاسماك الى مسرى القمر وتخفض الآخر من السماء الى الهاوية

***

ان الحياة عبرة وحكمة فلماذا يكون نصيبك فيها الغفلة لقد اكثرت تشاغلك بالحياة وحرصك عليها
حتى مضى اصحابك عنك وبقيت وحدك في تشاغلك

***

انظر يميناً ويساراً ولا أعرف اول الدهر من آخره هذا يعمل سوءًا فتأتيه الحياة عفواً ذلولاً
وآخر يعمل الخير محضاً فلا يلقى منها الاَّ كدراً لا تؤذ روحاً ولا تغضب منك قلباً
فان هذا الدهر ليس ابديًّا كما انهُ ليس صالحاً كان كذلك وسيمضي هكذا
هكذا يصنع هذا الفلك الهرم يأخذ من الرضيع ثدى أمه

[بقلم مرتضى الحسيني الفاضلي الايراني] [البقية في باب الاخبار العلمية]

التطفل في الاحياء

للامير مصطفى الشهابي

رحم الله طفيلاً الكوفي فلقد خلد اسمهُ في كتب الادب ومعاجم اللغة بفرط نهمه وشدة حرصه على لذيذ المآكل ، واستسهاله غشيان الولائم دون ان يدعى اليها ، حتى ظنَّ بعضهم انهُ اول من اتى هذه الفعلة الخبيثة ، وحتى نسي الناس الوَرْش وهو التطفل والوارشين وهم الطفيليون . وطفيل هذا ليس بأول من دَمَر على الولائم ليصيب من طعامها ؛ ولا بأول من دَمَق على المشارب ليوغل في شرابها . وكل حي على هذه الارض طفيلي ابن طفيلي شاء ام ابى الا اذا استطاع ان يعيش في عزلة عن الناس وعن الحيوان وعن النبات وهو ما لا تأذن بهِ عيشته على هذه الكرة الارضية .

وربَّ طفيلي يفيد اكثر مما يستفيد كاسحق الموصلي الشهير اذ يحكون انهُ دخل بلا اذن على جمع فيهم قينة تضرب على عود فلم ترقهُ حالة او تارة فاقترح اصلاحها فتبرَّم الحضَّار وقالوا له طفيلي وتقترح وهو المثل المعروف ، لكن الموصلي اسمعهم بعدها ما اقامهم واقعدهم حتى جنَّ جنونهم فكانت صفقتهم هي الرابحة . وقد يورد التطفل صاحبه موارد التلف كقصة ذاك الذي رأى جماعة يسيرون او يُساقون بهم في الطريق فظنهم ذاهبين الى وليمة فاندسَّ بينهم فاذا بهم يقادون الى القتل . ولم يفلت صاحبنا من السيف والنطع الا بعد لأْي

ولكن ليس جميع الطفيليين على هذا لأن الطفيلي في غالب الحالات يأخذ منك اكثر مما يعطيك وهو اذا قصر همه على اشباع بطنه او ارواء غليله من فضلات زادك او شرابك كان امره اهون من ان يعتدَّ بهِ او ان يؤبه له . غير ان هنالك الوارشين على مالك كالمرابين وسماسرة السوء واللصوص من التجار ولا سيما بعض الاجانب منهم ، والوارشين على علمك وأدبك وآثار قلمك ينقلون خيارها وينتحلون منها ويتحلون بها وانفك راغم ، والوارشين على بلادك يتمتعون بخيراتها ويسعدون في جناتها ويسخرون السفلة من ابناء جلدتك في استصفاء دمائها وسرقة اعلاقها . ولا حد يا صاح لاعمال الوارشين من ابناء آدم فنهم من لا يقل عملهم عن عمل التينيا وهي الدودة العريضة اذ تستقر في امعائك تشاطرك كل ما تهوي بهِ على فك ، او عمل الدودة التي تستولي على عضلك ، او عمل الديدان الاسطوانية او المعقوفة عند ما تتكاثر في دقاق امعائك وتمتص زادك ودمك ، او عمل الجراثيم التي لا عداد لها وهي تنمو في انحاء جسمك وتتكاثر بسرعة البرق فتولد فيك الامراض التي تعرفها ، وربما قضت عليك وقذفت بك الى العالم الثاني في ايام او في ساعات معدودات ما لم تكن جلداً منيع الجانب عليها بوسائل الكفاح ، ففي هذه الحال ربما افلتَّ من براثنها كما تفلت من براثن الطفيليين من ابناء آدم اذا تحليت بالصفات التي ذكرتها وكنتَ جديراً بالبقاء

ولا يذهبنَّ بك الظن الى ان الانسان والحيوان منفردان بهذه الاعمال الشائنة ، ففي دوحة النبات

انواع كثيرة تقوم افرادها بأعمال التطفل على مختلف اشكالها . فمن هذه الاعمال ما لا ضرر فيهِ كأن تطلب بعض النباتات المعترشة شجرة او سلكاً او حائطاً او عصى تصعد عليها لتقترب من اشعة الشمس ومن خالقها العلي الاعلى . وهذه النباتات كبيرة العدد يعرف القراء كثير منها كالمليون المعترش وصنوف من القرع واللوبياء والجلبان العطر وحشيشة الدينار وشب الليل والكرمة وغيرها. ويكون لها اسلاك تسمى عطفات او حوالق تعتمد بها دعامتها وتسير لغايتها صُعُداً الى العلاء فلا هي تضر بمضيفها ولا هي تبخل على الانسان بأزهارها المنعشة او بأوراقها الجميلة او بأثمارها اللذيذة

ويا ليت كل الطفيليات كانت كهذه اذن لسهل امرها وهان شأنها ولما استحقت هذا الاسم القبيح. ولكن هنالك نباتات متسلقة ثقيلة الظل شديدة الوطأة على الشجرة المضيافة ، كالبلاب مثلاً فهو اذا التفَّ على شجرة تشبث بكل شق دقيق من اغصانها وسوقها كأنهُ يخاف ان تفلت منهُ فيصبح مقعداً . وتراه ينمو على تلك الشجرة ويلتصق بها حبًّا وشغفاً دون ان يمتص شيئاً من نسغها ، بل يكسوها بأغصانه وأوراقه ويمنع عنها الشمس والهواء فتستجير من ثقالته بالفلاح صاحب الارض فان اجارها سلمت والاَّ عاشت هزيلة او هلكت مع الهالكين . وكم في الناس من ثقلاء كالبلاب اذا انت لم توصد دارك دونهم قتلوا وقتك وضيقوا انفاسك وأثاروا اعصابك وقصروا عمرك

وليست هذه النباتات طفيليات حقيقية لانها وان نزلت بابناء جلدتها ضيوفاً ثقيلة الظل فهي لا تستطعمها ولا تستقي منها. وثمة ما هو اشد منها فظاعة كالكشوث الذي يسميه الشاميون والمصريون «الهالوك» فهو ينمو على بعض البقول وعلى الورد ونبات السياج وغيرها ويلتف عليها بأغصانه الخيطية وينشب فيها ممصات دقاقاً ولا ينفك يمتص نسغها ويغتذي بهِ حتى تهزل وتبيد . وكالجعفيل والذُّؤنون اذ ينشبان اظفارها في جذور ما يصادفانه من الزروع فيغتذيان من نسغها ويعيشان برغد من دم الغير بلا مشقة ولا عناء . وكنبات الهدالة او الدبق فلكم شاهدناه على اشجار اللوز زاهياً ينعم بطلّ (نسغ) هذه الشجرة وهو اسعد خلق الله حالاً . فهل جال بخاطره انه يعيش من دم هذه الشجرة المباركة. وهب انهُ ادرك فظاعة عمله افتراهُ يرتدع عن الاضرار بها وهو لا يستطيع ان يعيش الاَّ من زاد الآخرين وكل هذه الطفيليات لا تعد شيئاً مذكوراً اذا قيست ببعض فطور مجهرية تتكاثر في نسج بعض الزروع والاشجار وتولد فيها امراضاً شديدة الوطأة لا تقل عن الامراض التي تحدثها الجراثيم بالانسان. ومن هذه الفطور تلك التي تولد صدأ الحبوب واسوداد الزروع وتعفن الكرمة وغيرها من الامراض التي تعد بالمئات

وبعد ارأيت ان الحياة جلاد وجهاد ، وان كل حي طفيلي ابن طفيلي على اختلاف وطأته . وهل لك ان تفسر لنا لماذا جعلت الاحياء على هذا الشكل ولماذا لا تعيش بهناءة ما لم تتكالب على الرزق وما لم تتفانَ وراء متع الحياة وما لم يُبدْ بعضها بعضاً في الدقيق والجليل من الشؤون ؟ هذه امور دقت عن متناول الفهم . ويقولون ان فيها حكمة لا يدركها الاَّ الذين انقشعت الغشاوة عن بصائرهم. فهل انت من هؤلاء النفر الملهمين لتكشف لنا القناع عن احاجي هذا الوجود العجيب ؟

فكرة جديدة ولكنها قديمة

الحيوان في عصر الآلة

خطبة رجل من فجر التاريخ

الاختراع من الصفات التي يتميّز بها هذا العصر . ولكن العصر الذي اخترعت فيه الكتابة والعجلات والإبر ، واستنبط الصفر والقمح والنقد كان من اعظم العصور اثراً في التاريخ ، لان تلك المخترعات والمستنبطات وغيرها كانت اوثق صلة باصول التحضّر واركان العمران من المصابيح والسيارات ومناقب الحديد ومجعّدات الشعور ومطريات الجلود ومذيعات الانباء

خذ مثلاً على ذلك الرجل الذي «اخترع» البقرة . فقد يصعب علينا الآن ان نتصور بيتاً ليس فيه زجاجة لبن حليب . ولكن في العصور المتغلغلة في جوف القدم ، كان اصعب على الانسان ان يتصوَّر بيتاً فيه لبن حليب ، دع عنك الزجاجة . فقد كان اسهل على الرجل ان يقدم الى زوجه باقة من الزنابق على ان يأتيها بوعاءٍ من اللبن . وليس ذلك لقلّة اللبن ولكن لتعذّر الحصول عليه . فقد كان يملأ ضروع طائفة من الحيوانات ولكنها كانت برية شرسة فلا يحاول رجل ان ينتزع منها لبنها الاَّ ويصاب بأذى

عندها ولد عبقريٌّ — عبقري جرّب التجارب بالحيوانات كما نجربها نحن بالمواد الكيمائية . وفي ذات مساء طرأ على فكره خاطر عجيب قوامهُ الحصول على اللبن الذي يطلبهُ عند بابهِ كلَّ صباح

كان تحقيق هذا الخاطر من اعسر الامور . أيُّ الحيوانات اصلح ما يكون لهذا العمل ؟ ففي بعض نواحي الارض كان بعض الناس قد جرَّب الحيوان المعروف بالكسلان الذهبي . وهو حيوان قبيح الخلقة ، كانوا يحفظونهُ في الكهوف ويحلبونهُ عند الامكان . ولو انهم نجحوا في تجربتهم هذه لحلَّ الكسلان في الراجح محل البقر في مروجنا وصور مصورينا وقصائد شعرائنا-

غير ان الكسلان كان لا يصلح لهذا . فهو يصاب في الصيف بامراض جلدية ، ويشخر في الليل ، وفي لبنهِ طعم كريه كأن فيهِ اثراً من السمك . ولو انحصر الاعتراض عليهِ في الوجوه المتقدمة لهان الامر . ولكن الكسلان كان غير مزواج بل كان يكتفي بزوج واحدة . والتقيُّد بزوج واحدة في الحيوانات الزراعية ، ليس في مصلحة الفلاّح . فلما تبيَّن الاقدمون ان كلَّ كسلانة لا بدَّ لها من زوج خاصّ بها ، انصرفوا عن محاولة تربية هذه الحيوانات للفوز باللبن الذي تدرُّهُ اناثها

عند ذلك التفت العبقريُّ الى حيوانٍ نغلٍ ، لا يبدو على ظاهرهِ انهُ اصلح لهذا الغرض من الكسلان المنبوذ . كان شرساً ، صلب القرون ، يجفل لأهون الاسباب ، بعيداً في شكلهِ وطبائعهِ

عن البقرة كما هي الآن ، بُعد تبر الحديد عن احدى المدرّعات . ولكن ذلك العبقري رأى فيهِ بعين الخيال ، حيواناً يصحُّ ان يكون « الآلة » التي ينشدها لتجهزهُ باللبن امام دارهِ كلَّ صباح

هزىءَ بهِ الناس ودعوهُ خيالياً لا يقيم للواقع وزناً . كيف يستطيع ان يصيد هـذا الحيوان الشرس النفور ؟ ان البحث عن التبر في الارض ، معقول لان التبر لا ينتقل من مكان الى مكان . اما صيد هذا الحيوان حياً ثم تأنيسه واستدرار لبنهِ ، فعمل من وراء القدرة البشرية . انهُ يرفس وينطح ولا يستقرُّ لهُ قرار . ومع ذلك فجلُّ اعتمادنا اليوم في اللبن الذي نشربهُ صغاراً وكباراً ، ونأكلهُ جبناً مختلف الالوان ، وندخلهُ في صناعات لاحصر لها ، انما يستدرُّ من البقرة التي «اخترعها» ذلك العبقري

وما لبث مفكّر آخر حتى « اخترع » الدجاجة . ذلك انهُ لم يكتفِ بالبحث عن البيض الصغار في الحراج ، فاختار طائفة من الطير الخفر الجبان ، واقنعهُ بالتربية والعناية بهجر الحراج وسكنى القِنان . و « اخترع » غيرهُ في آسيا الجمل للنقل وآخر الحصان للعدو والانتقال السريع

قابل بين هذه المخترعات ومخترعاتنا نحن ! ان مخترعاتنا ولا ريب زادت في رفاهتنا ، ولكنها في الوقت نفسه زادت في متاعبنا . ولو انهُ اتيح لأحد هؤلاءِ المخترعين القدامى ، ان يزور الارض الآن لأخذ بالعجائب التي اجترحنا . ولأخذ كذلك بالجهد المضني المحتَّم علينـا الآن . فاذا تملّى قليلاً من هذا المشهد الذي يدهشهُ ويحيّره التفت وقال : انني لا أستطيع ان افهم كيف ترضخون لهذا وامامكم مملكة الحيوان . فلماذا لا تختارون منها حيوانات منوّعة ، فتروّضونها على القيام بأكبر جانب من العمل المحتوم عليكم ؟ انني لا أفهم لماذا تحصرون هذه الاعمال في الرجال . ومن الحيوان اصناف كثيرة يمكن تعويدها ان تقوم بها ؟

فتأنس قليلاً الى ملاحظة الرجل . ويأنس هو منك هذا الايناس فيمضي في قولهِ :

« ... ولست ادري ... بل لعلّنا كنا في العصور السابقة ابرع منكم واوسع حيلة . خذ مثلاً على ذلك الضأن . فأنها بعد اختراعنا لها شبَّت عن الطوق في الطبائع المطلوبة منها وكثرة تناسلها وزيادة ما تتطلبهُ من الخدمة منا . ولكننا لم نلِنْ لها ، ولا رضينا بها اسياداً ونحن عبيداً ، «فاخترعنا» كلب الرعاة ليرعاها ويحرسها

«ولكنني لا أفهمكم . تدّعون انكم احرارٌ من قيود التحزُّب لفكرة سابقة وتضحكون من اسلافكم الذين رفضوا ان يقبلوا البخار مسيّراً لعربات الانتقال بدلاً من الخيل . فأضحك من دعواكم هذه . لأنهُ اذا جاءَ رجل وقال لكم لماذا لا تستعملون الدببة بدلاً من الرجال في تعدين مناجمكم ضحكتم منهُ وهزأتم بما يقول . ولكن اذا كان لنا في تلك العصور القديمة ان نأخذ الخيل البرّية الشرسة ، ونروّضها حتى تتخلّى عن بعض طبائعها الشرسة كالرفس والعضّ والنفار ، فنحولها الى حيوانات مطواعة تحمل اعباءنا وتطيع اشارتنا — اذا كان لنا ذلك في العصور القديمة فاحرِ بكم ان تحوّلوا الدبَّ الى حيوان يعدّن الفحم من دون صعوبة كبيرة

« انني اسلّم بانكم لاتستطيعون ان تستعملوه في التعدين كما هو الآن . ولكن انظروا اليهِ نظركم الى الصلصال في يد الخزّاف . فهو حيوان في عقلهِ ذكاء ، وفي عضلاتهِ قوة . ويستطيع ان يستعمل مخالبه كما يستعمل الانسان يديهِ . انكم لتستطيعون ان تخلقوا منهُ بالتناسل حيواناً ابرع في استعمال يديهِ من الدبّ الحاضر . وهذا اكثر مما وجدناه في الحيوان الذي خلقنا منهُ البقرة في عهدنا البعيد

« وانما يظهر ان آخر ما تتجه اليهِ انظاركم هو استعمال الحيوان . فاذا وجد احد روّادكم نوعاً جديداً من الحيوان عاد بنموذج منهُ الى حديقة من حدائق الحيوانات ، او جاء بجلده الى بيته او احدى المتحفات . ولو انكم جريتم في استعمال المعادن على هذه الخطة ، لاكتفيتم بتعليقها على الجدران او عرضها في المتحفات او تصويرها بالفوتغراف

« ومما يحيرني عنايتكم الشديدة بالجوامد ، وانصرافكم عن الاحياء

« للمخترعين ثلاثة ميادين — ميدان الجوامد — وميدان النبات — وميدان الحيوان . فلماذا لا « تخترعون » حيوانات جديدة . فأنتم بحاجة كبيرة الى ما تستطيعون اختراعهُ في هذا الميدان الثالث من ميادين الاختراع ؟

« بل مما يزيد حيرتي ، رضاكم عند القيام بالعمل المضني ، من دون ان يسعى احد لالغائهِ او الاستغناء عنه ، بالقائهِ على عواتق الحيوانات التي تخترع لهذا الغرض خاصةً . ان مخترعيكم يتحدثون بالغاء العمل ، او تقليله . فما هو السبيل الذي يسلكونه الى تحقيق غرضهم ؟ يخترعون آلات جديدة ، تدير من تلقاء نفسها الآلات القديمة ، والآلات الجديدة يعهد في ادارتها الى الرجال او النساء . فلماذا يجب عليهم ان يخترعوا آلات لا يديرها الاَّ الناس ؟ لماذا لا يحاولون ان يخترعوا آلات يمكن ان تديرها الحيوانات ؟ او لماذا لا تحاولون ان تخترعوا حيوانات جديدة تصلح لادارة آلاتكم ؟ ولو انكم عشتم في العصر الذي استنبطت فيهِ العجلات ، لما خطر على بالكم — بناء على تصرفكم الآن — ان تستعملوا الخيل لجرّ العربات ، بل لجررتموها بأنفسكم ولظللتم تجرّونها قروناً حتى يستنبط البخار فيغنيكم عن جرّها على الاطلاق . ولكننا نحن اخترعنا الجياد قبل العربة ، وكذلك البغال والثيران والحمير . فخوّلنا العربة ذات العجلات نعمةً للناس ، لا لعنة . ان مئات من انواع الحيوان تصلح للاستعمال في آلاتكم ، بالتمرين والترويض والانتخاب التناسلي . ان تطبيع الجياد البرية يستغرق بضعة أسابيع ، ولكن تطبيع الأطفال يستغرق سنين طوالاً . وليس ثمة أي خوف ، من ان ينقلب الحيوان المطبّع فلا يقوم بالعمل الذي تعوّده وتمرّن عليهِ . ولابدَّ ان يجيء يوم يهزأ فيهِ حفدتكم من اسرافكم في اطلاق الحرية للحيوانات القوية الصبورة ، تنفق وقتها جزافاً في المراج والبطائح والسهول وانتم تعملون حتى كدتم ان تأتوا على نفوسكم بالعمل المضجر المضني ثم تتذمرون من مصيركم » !

كذلك ختم القادمُ من فجر التاريخ خطبتهُ في ابناء العصر الحاضر

اذا اخذنا باقتراح ذلك الخطيب البليغ ، رأينا انقلاباً كبيراً قد أتى على مناجمنا ومصانعنا . بل رأينا قبل هذا انقلاباً عظيماً في حروبنا . فالحروب اول ما تتأثر بالمخترعات الجديدة . فاذا تعلم الناس ان يستعملوا الحيوانات في إعداد الجيوش ، فقدت الحرب ، بعض فظائعها التي يأباها الانسان . كان امراء الهند في العهد السابق للانكليز هناك يستعملون الفيلة في الحرب . فلماذا لا ننشيء فرقاً من النمورة ، تتخصص في الهجوم على الخنادق ، واسراباً من النسور لالقاء القنابل من الجو . فالمسألة مسألة تمرين، ونحن لانستطيع ان نحكم الآ بعد ان نجرّب !

او خذ مثلاً آخر . فقد ألَّف العالم الاقتصادي البلجيكي — لاسيليري La Sellerie — كتاباً قال فيهِ : ان ملايين من الأفدنة الصالحة لرعي الماشية في الاقطار الباردة الشمالية، لا تصلح لذلك من الوجهة الاقتصادية ، لأن الأبقار مثلا تحتاج الى حظائر مدفأة ، وان ما يقتضيهِ بناء هذه الحظائر وتدفئتها من النفقة ، يجعل العمل من الناحية المالية عملاً خاسراً . ولكن هذا المؤلف لم يلقِ باله الى طريقةٍ عمد اليها الانسان في فجر التاريخ . ذلك انهُ ليس من المحتوم علينا ان نربي الابقار في المناطق الشمالية الباردة لانالابقار من اصل استوائي ويتعذّر عليها تحمل البرد الشديد في تلك الاصقاع. ولكن لماذا لانبحث نوع آخر من الماشية يستطيع ان يتحمَّل البرد . ولعلَّ افضل هذه الحيوانات التي تصلح لمثل هذا الغرض هو ثور المسك . لا ريب في ان ثروة طائلة تدرُّ على الرجل او الجماعة التي تستطيع ان تلائم ثور المسك لاحوال المعيشة هناك فيسهل تكثيره فيها . ولحم ثور المسك لحم جيد ، لايفوقه لحم البقر ، وصوفهُ ناعم كالكشمير ولا يتقلص عند الغسل . ومع ذلك فانسان هذا العصر لا يفكر ، الاَّ في الصعوبات التي تقوم في وجههِ من هذه الناحية . فيقول ان ثور المسك لم يؤنس . وهو على كونهِ حيواناً بريًّا ليس على الاطلاق حيواناً شديد الشراسة

اننا نجرب التجارب بتبر المعادن والمركبات الكيمائية ، مع ان التجربة بحيوان ثور المسك ، تنطوي على لذة وفائدة انطواء التجارب الكيمائية على الاقل

وما قولك في بعض المراعي الافريقية . ففي هذه المراعي حيوان برّي يعرف بالايلند . تأنيسه سهل وطعم لحمه لذيذ . ولكن الناس لم يروا فيهِ الاّ حيواناً للصيد . فابادوه او كادوا من منطقة واسعة مساحتها تبلغ مئات الالوف من الافدنة . ثم جاءوا بالابقار والثيران لتعيش هناك فباءت تجربتهم بالخيبة والخسارة . لأن هذه الحيوانات لم تستطع الثبوت في وجوه ذباب تسه تسه

واذا صحَّ ما توقعه منا سلفنا العظيم ،واستعملنابعض الحيوانات لادارة بعض الآلات ،وجب علينا ان نستنبط وسيلة للتفاهم معها . وهــذا امر ميسور اذا عرفنا كيف نعالجهُ . فبدلاً من ان نحاول تعليم الحيوانات النطق يجب علينا — ونحن بارعون في أصول اللغات واساليبها — ان نفهم لغاتها هي ، فنحاكيها فيها ونفهمها ما نريد

هذه لمحة خاطفة من نواحي هــذا الموضوع الفتَّان نسوقها للتفكهة والاعتبار في آنٍ واحد

القضاء في السودان

لخليل الخوري
القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء الجنائي : تتمة[1]

مما يلاحظ ان ترتيب الجرائم في القانون السوداني قد توخيت فيه البساطة القصوى ففاز الشارع السوداني فوزاً باهراً بتوضيح ابواب القانون وترتيبها ترتيباً منطقياً جامعاً مانعاً خالياً من الارتباك والتقييد والاغلاق . وابوابه ثمانية وعشرون باباً وهي — مقدمة تبحث في سريان القانون على الاشخاص والاماكن — ايضاحات عامة وتعريفات — والمسؤولية الجنائية وتشمل حق الدفاع عن الارواح والاموال والشرف — والعقوبات — والافعال المشتركة —والتحريض— والشروع في ارتكاب الجرائم — والمؤامرة الجنائية — والجرائم ضد الحكومة — والفتنة — والجرائم المتعلقة بالقوات العسكرية —والجرائم ضد الراحة العمومية—وجرائم الموظفين والجرائم ضدهم— والازدراء بسلطة الموظفين القانونية — وشهادة الزور والجرائم المتعلقة باقامة العدل العام — وجرائم النقود المسكوكة والنقد والورق — وجرائم الطوابع الرسمية — والجرائم المتعلقة بالاوزان والمقاييس والمكاييل — والجرائم الماسة بالصحة العمومية والامن والراحة والحشمة والادب — وجرائم القسوة على الحيوانات والجرائم المتعلقة بالدين — والجرائم الماسة بالجسم الانساني وتشمل الجرائم الماسة بالحياة وبتسبيب اسقاط الحوامل واضرار الجنين وتعريض الاطفال للاخطار ومعاملتهم بالقسوة واخفاء الولادات والاذى والاعاقة والاعتقال بدون حق والقوة الجنائية والتهجم والخطف والتشغيل الجبري والاغتصاب والجرائم المخالفة للطبيعة الواقعة على الشخص وهتك العرض — والجرائم الواقعة على المال وتشمل السرقة والسلب والنهب والسطو والامتلاك الجنائي بدون حق وخيانة الامانة وتسلم المال المسروق والاحتيال اي النصب والاساءة اي اضرار الاموال والتعدي الجنائي — والجرائم المتعلقة بالمستندات وبعلامات الملكية وبعلامات اخرى — والاخلال الجنائي بعقود الخدمة — والجرائم المتعلقة بالزواج والزنا بالمحارم—والقذف —والارهاب والسبوالتكدير الجنائي والسكر . ومما امتاز به قانون العقوبات السوداني الامثلة المحسوسة التي يضعها في آخر المواد الصعبة وهذه الامثلة بمثابة شرح عملي للمواد واليك مثالاً واحداً على هذا تستدل منهُ على قيمة هذا الشرح للمحاكم ولرجال القضاء

---

(١) راجع مقتطف يوليو ١٩٣٤ صفحة ٧٤

المادة ٨١ — اذا اشترك جملة من الاشخاص في ارتكاب فعل جنائي فيجوز ان يكونوا مرتكبين جرائم مختلفة بواسطة ذلك الفعل

مثال — هجم عمرو على زيد في ظروف تهييج شديد تجعل قتله لزيد قتلاً جنائيًّا لا يبلغ القتل العمد فعاون بكر عمرواً على قتل زيد بدون تهييج وهو اي بكر في نفسه ضغن على زيد ويقصد قتله ففي هذه الحالة يعتبر بكر مرتكباً القتل العمد وعمرو مرتكباً فقط القتل الجنائي الذي لا يبلغ القتل العمد وان كانا قد اشتركا كلاهما في تسبيب موت زيد

وينتج عن هذا ان عمرواً قد يعاقب بالحبس سنة مثلاً فقط وان بكراً قد يعاقب بالاعدام

﴿ تشكيل المحاكم الجنائية ﴾ — المحاكم الجنائية السودانية خمس درجات — المحكمة الكبرى والمحكمة الصغرى ومحكمة القاضي من الدرجة الاولى ومحكمة القاضي من الدرجة الثانية ومحكمة القاضي من الدرجة الثالثة — وتشكل كل من المحكمتين الكبرى والصغرى من ثلاثة قضاة وهاتان المحكمتان لهما اختصاص بالحكم في الجرائم الكبرى كما سيبين . والمحاكم الثلاث الاخرى مؤسسة على نظام القاضي المنفرد والقضاة الجنائيون من ثلاث درجات كما هي الحال في القضاء المدني ويعتبر مدير المديرية ونائب المدير وقاضي المحكمة العليا المدنية وقاضي المديرية المدني والقاضي الجزئي المدني من الدرجة الاولى قضاة جنائيين من الدرجة الاولى بحكم وظائفهم وكذلك يعتبر المفتش ومساعد المفتش والقاضي الجزئي المدني من الدرجة الثانية قضاة جنائيين من الدرجة الثانية ويعتبر القاضي الجزئي المدني من الدرجة الثالثة والمأمور ووكيل المأمور قضاة جنائيين من الدرجة الثالثة . وقد يدهش القارىء اذا قلت له انهُ لا يوجد في السودان في الواقع محاكم جنائية متفرغة للنظر في القضايا الجنائية فالموظفون الذين يمارسون القضاء الجنائي السوداني هم الحكام الاداريون او متولو السلطة التنفيذية اي المدير ونائبه ووكيله والمفتش ومساعده والمأمور ووكيله والقضاة المدنيون فهؤلاء فوق اعمالهم الادارية والقضائية المدنية وعلاوة عليها ينظرون في القضايا الجنائية ويحكمون فيها بحسب ما خولهم القانون . كما انهُ لا توجد محكمة كبرى او محكمة صغرى جنائية ثابتة بل تشكل هاتان المحكمتان عند الاقتضاء من ثلاثة قضاة من القضاة المدنيين ومن الحكام الاداريين الذين هم قضاة بحكم وظائفهم — والقضاء الجنائي هو في الواقع تحت اشراف مديري المديريات أي هم الذين يشكلون المحاكم وهم الذين يوزعون الأعمال والمدير يرأس بنفسه المحكمة الكبرى او يرأسها قاضٍ من الدرجة الاولى يندبهُ المدير ويشترط ان يكون واحد على الاقل من قضاة المحكمة الكبرى الثلاثة قاضياً من الدرجة الاولى اما المحكمة الصغرى فيشترط ان يكون احد قضاتها من الدرجة الثانية — وكما سبق لا توجد في السودان محكمة مخصوصة للقضاء الجنائي وحده الاَّ في مديرية الخرطوم حيث وجد ولا يزال يوجد حتى الآن محكمة جنائية منفردة للقضاء الجنائي يجلس فيها قاضٍ من الدرجة الاولى منفرد وهو الذي يرأس المحكمة الكبرى والمحكمة الصغرى عند الاقتضاء — اما اختصاص هذه المحاكم الخمس فمعرفته على غاية من السهولة

والبساطة فقد ذيل قانون التحقيق الجنائي بعدة جداول او قوائم او بيانات فالجدول الاول منها ذو ست خانات الخانة الاولى ذكرت تحتها نمرة المادة من قانون العقوبات والخانة الثانية ذكرت فيها خلاصة الجريمة المنصوص عنها بالمادة والخانة الثالثة عنوانها « هل يجوز للبوليس القبض بدون أمر أم لا » والخانة الرابعة عنوانها «هل يجوز في اول الامر اصدار امر قبض ام ورقة حضور» والخانة الخامسة عنوانها «العقوبة» والخانة السادسة عنوانها «المحكمة ذات الاختصاص الادنى التي تحكم في الجريمة» فتى رفعت القضية كان من السهل جداً بمراجعة هذا الجدول معرفة المحكمة المختصة وقد ذكرت المحكمة ذات الاختصاص الادنى اي اصغر محكمة يجوز لها الحكم في الجريمة وهذا لا يمنع محكمة اكبر من النظر والحكم في الجريمة

وكما انهُ لا يوجد في السودان محكمة جنائية مخصوصة فكذلك لا يوجد ما يسمونه في مصر محكمة نقض وابرام او ما يسمونه في سوريا ولبنان محكمة تمييز (ولفظة تمييز هذه لفظة اخذها الاتراك عن اللغة العربية كما اخذوا كثيراً غيرها فعبثوا بها وبغيرها وأخرجوها عن معانيها الأصلية ثم عاد العرب واسترجعوها معبوثاً بها) — ولا محكمة استئناف خاصة وانما يستأنف بعض احكام القضاة المنفردين واحكام المحكمة الصغرى الى المدير وتستأنف احكام المحاكم الكبرى الى الحاكم العام وسواء استؤنفت احكام المحاكم الصغرى والكبرى ام لم تستأنف فينبغي رفعها الى المدير او الى الحاكم العام لنقضها او لابرامها او لتعديلها على ان للحاكم العام طلب اية قضية جنائية لمراجعتها ومستشار الحاكم العام في المسائل الجنائية هو رئيس القضاء فترسل الأحكام الى الحاكم العام عن طريق رئيس القضاء

ويتولى في السودان ضباط البوليس اعمال التحري في الجرائم ثم يحيلونها الى القضاة الذين يتولون التحقيق وبعد ذلك تحال الى المحكمة المختصة وليس في السودان نيابة كما في مصر والذي يقوم بأعمال النيابة هو المحامي العام الملحق بالمصلحة القضائية والذي هو بمثابة قلم القضايا العام للحكومة السودانية او هو في الواقع مستشار الحكومة القضائي ولا يشبه النائب العام في مصر او المدعي العام في غير مصر على ان المادة ٢١١ من قانون التحقيق الجنائي السوداني تنص على انهُ يجوز ان يتولى الادعاء المحامي العام او اي شخص يعينه المحامي العام لينوب عنهُ او اي شخص يعينه المدير او المفتش او المشتكي او محام معين من قبل المشتكي

ومما يلاحظ ان التقادم او سقوط العقوبة او سقوط الحق باقامة الدعوى العمومية لا وجود لهُ في السودان فليس في قانون التحقيق الجنائي نص على سقوط اية عقوبات ولا على سقوط الحق باقامة الدعوى العمومية وما دام لم يوضع نص كهذا تبقى العقوبات قائمة ويبقى الحق باقامة الدعوى قائماً

وفي القضاء السوداني توسع في الجرائم التي يجوز الصلح فيها وقد ذيل قانون التحقيق بجدول حصرت فيه الجرائم التي يجوز الصلح فيها وذكر الاشخاص الذين تجوز لهم المصالحة وعدد هذه

الجرائم تسعٌ وعشرون منها إحداث الاذى والتهجم والتعدي الجنائي والتعدي المنزلي والاخلال الجنائي بعقد الخدمة والزنا واغواء المرأة المتزوجة او خطفها او حجزها والقذف والسب وامتهان شرف المرأة بالاشارات او الالفاظ

وفي القضاء السوداني نظام العفو وهو غير العفو المنوط بالحاكم العام عن المحكوم عليهم وهذا العفو يعرضهُ المدير او المحكمة او قاضي التحقيق في الجرائم المختص بالحكم فيها المحكمة الكبرى او الصغرى او الجرائم التي عقوبتها الحبس الذي اقصى مدتهُ سبع سنين ، على المجرم بشرط ان يفشي افشاءً تامًّا وصحيحاً جميع الظروف التي يعلمها والتي تتعلق بالجريمة وارتباط كل شخص أضرَّ بها سواءٌ كان فاعلاً اصليًّا او محرّضاً فاذا قام بتعهده بافشاء كل ما يعلم ولم يكذب ولم يخفِ امراً ذا شأن عفي عنهُ عفواً تامًّا . اما اذا لم يقم بتعهدهِ فاخفى عمداً أمراً جوهريًّا او أدى شهادة كاذبة جازت محاكمته عن الجريمة التي عرض عليهِ العفو من أجلها

وفي السودان نصوص خاصة للوقاية والحماية قبل وقوع الجرائم فيصح للقاضي اذا بلغهُ ان شخصاً ما يحتمل ان يرتكب اخلالاً بالامن او اقلاقاً بالراحة العمومية ان يستحضرهُ ويجبرهُ على تأدية تعهد بكفالة او بغير كفالة بحفظ الامن الخ . ولهُ ان يفعل مثل ذلك لمن عرف عنهُ انهُ معتاد ارتكاب الجرائم او هو خطر الى حدّ يجعل تركه طليقاً بدون ضمان تهديداً للهيئة العمومية . ولهُ في بعض الاحوال اذا رأى ان ثمة ما يدعو الى الخوف من ارتكاب اخلال بالامن الخ وانهُ لايمكن ان يمنع ذلك الاّ بالقبض العاجل على شخص ما ان يأمر بالقبض عليهِ ويطلب منه تعهداً بالمحافظة على الامن — والقاضي لا يحق لهُ طلب التعهد الاّ بعد التحقيق عن صحة ما بلغهُ

ومن الجرائم ما تحصل المحاكمة فيها بصورة ايجازية وهي مبينة في ذيل قانون التحقيق في جدول خاص . وفي المحاكمات الايجازية لا تدوَّن شهادة الشهود ولا تحرر ورقة اتهام وانما يدوَّن باختصار نمرة المحاكمة واسم المتهم واسم المشتكي والجريمة وتاريخ ارتكابها ومكانهُ وتاريخ الشكوى او التبليغ واسماء الشهود ورد المتهم نعم أم لا والحكم بأسباب موجزة . وهذه الاحكام لاتستأنف وانما يجوز التظلم منها الى المدير الذي لهُ ان يؤيدها اذا رآها موافقة للقانون او ينقضها اذا رآها مخالفة لهُ وهو في هذه الحالة يفعل ما تفعله محكمة النقض والابرام

هذا ما رأيت ذكره عن القضاء الجنائي في السودان وسواء من جهة الجرائم والعقوبات او من جهة نظام المحاكم فما لا شك فيهِ ان القضاء الجنائي السوداني يمتاز عن غيره مما هو قائم في سائر الاقطار المجاورة بوضوح مواده وترتيبها ترتيباً مبنيًّا على المنطق والعقل وببساطة تشكيل السلطات القائمة على تنفيذه وكل ذلك يؤدي في الجملة الى سرعة الفصل في القضايا الجنائية وكلما تشعبت مصالح العباد في السودان بالتطور تبينت مزايا هذا النظام السهل وقدّرت الحكمة الفائقة من وضعه بالطرق التي وضع فيها

فناء المادة بتشعع الطاقة

بقلم نقولا الحداد

فيما كنت اقرأ الكتاب القيم Astronomy and Cosmogony للعالم الكبير السير جايمز جينز رأيت رأيهُ في فناء المادة بتشعع الطاقة Radiation of Energy لا يتفق تمام الاتفاق مع نظرية تكوّن (بناء) الذرة من بروتونات Protons ومن كهارب Electrons تدور حولها — هذه النظرية التي لا يزال علماء اليوم وهو من جملتهم مجمعين عليها. والسر جايمز جينز ممتاز بسعة علمهِ ودقة نظرهِ الفلسفي ووضوح افكارهِ في كتاباتهِ الرائقة بحيث لا يبهم فكر منها على القارىء المطّلع. ولهُ نظريات ومكتشفات علمية تجعلهُ في صف كبار علماء التاريخ وفلاسفتهِ

وهو في كتبهِ شارح نظرية البروتون والكهرب شرحاً وافياً لا يدع غموضاً ولا لبساً في فهمها وشروحهُ تتفق مع ما قرأتهُ لغيرهِ من العلماء في شرحها وتقرير الرأي الارجح فيها بعد غربلتها وتنقيحها واعتبار اي تنقيح آخر[1] مما ظهر ضعيفاً لا يعتمد عليهِ الى ان يظهر من الملاحظات والاختبارات العملية ما يؤيده . وقضيتا بناء الذرة Atom ومصير المادة تلوحان في بال كل دارس ومطالع في ايامنا هذه التي تثقف فيها عدد كبير من الناشئة تثقفاً علميًّا . ولذلك اعتقد ان بسطهما باسلوب واضح يلذ لقراء المقتطف وشرحهما يظهر ما لاحظته من الشك في التطابق بينهما

تكوُّن الذرة او بناؤُها

يجمل بيان هذه النظرية هكذا : — كانت الذرة Atom الكيماوية حتى اوائل هذا القرن تعد اصغر وحدة للمادة غير قابلة التجزئة . والجزيء Molecule يؤلف من ذرات مختلفة في الوزن الذري اصغرها واخفها ذرة الهيدروجين التي تعدُّ الوزنة الاولى اي ان وزنها واحد عدًّا واثقلها ذرة الاورانيوم ووزنها ٢٣٨ مرة كوزن الهيدروجين . والتفاعل الكيماوي يحدث بتبادل الجزيئات ذراتها او باتحاد جزيء بجزيء آخر او بجزيئات اخرى اتحاداً كيماويًّا . وهذه الذرات لا تختلف في الوزن فقط بل تختلف في خواصها الكيماوية ايضاً . والمعروف منها الى الآن ٩٢ صنفاً (عنصراً) وربما اكتشف في المستقبل غيرها ايضاً . وانما في الشمس والنجوم الاخرى ذرات ليست موجودة في ارضنا ومعظمها اثقل جدًّا من الاورانيوم الذي هو اثقل عناصرنا والذي اشتق راديوم مدام كوري منهُ ومن اسرته البولونيوم والثوريوم والاورانيوم . هذا كان معتقد العلماء حتى اواخر القرن الماضي وفي اوائل هذا القرن بعد ظهور الراديوم ودرسهِ جيداً ظهر ان الذرة وان كانت ابسط اجزاء المادة

---

(١) اشارة الى ما علم حديثاً عن دخول النوترون والبوزيترون في بناء نواة الذرة

او وحدتها التي لا تتجزأ كيماويًّا — ظهر انها تقبل التجزئة كهربائيًّا. فهي مؤلفة من صنفين من الدقائق: الصنف الاول البروتون وهو ذو شحنة كهربائية موجبة او ايجابية والثاني الكهرب (الكترون) وهو ذو شحنة سالبة اوسلبية. واصناف الذرات الاثنان والتسعون تختلف بعضها عن بعض بعدد ما في كل منها من البروتونات والكهارب. يفهم هذا جيداً اذا شرحنا كيفية وجود هذه البروتونات والكهارب في الذرة

ذرة الهيدروجين مؤلفة من بروتون واحد فقط وكهرب واحد فقط يدور حول البروتون. وبعد الهيدروجين تكون الذرَّة مؤلفة من اكثر من بروتون وكهرب. ووزنها الذري يدل على ما فيها من البروتونات. فالاكسجين مثلاً وزنهُ الذري ١٦ ففيهِ ١٦ بروتوناً والاورانيوم وزنهُ الذري ٢٣٨ ففيه ٢٣٨ بروتوناً. ولا اعتبار لوزن الكهرب لانهُ جزء من ١٨٤٠ من وزن البروتون مع انهما يكادان يتساويان في الحجم. وبروتونات الذرة متجمعة في وسطها ومجموعها تسمى نواةً. والكهارب بعدد البروتونات في الذرة بعضها متحد ببروتوناتها وبعضها بعيد عنها يدور حول النواة. فحجم الذرة ليس حجم نواتها (مجموعة البروتونات) بل يشمل اقصى افلاك الكهارب التي تدور حول النواة والفراغ الذي بين الكهارب والنواة ليس بالحقيقة فراغاً مطلقاً بل يشغله جو كهرطيسي موجيّ

ولزيادة الايضاح نقول بعبارة اخرى ان لكل بروتون كهرباً يقابله بالشحنة الكهربائية. فاذا كان الكهرب متحداً مع بروتونهِ اي داخلاً في بناء النواة، نعبر عن اتحادهما بالزواج. فنقول البروتون متزوج كهربهُ وحينئذٍ يكونان متنافيين كهربائيًّا Neutral اي ان سلبية هذا نفت ايجابية ذاك فلا شحنة هناك. وفي الكتب المدرسية العربية يعبرون عن هذا التنافي بلفظ «تعادل» Neutrality. وقد يكون البروتون اعزب خاطباً اي ان كهربه غير متحد بهِ بل هو بعيد يدور حول النواة (مجموعة البروتونات) كسيار يدور حول الشمس حسب سنة الجاذبية تماماً. ويستفاد مما تقدم ان بعض الكهارب متحدة ببروتوناتها (مزوجة) وبعضها بعيدة عنها (مخطوبة) وحينئذٍ تكون النواة برمتها ذات شحنات ايجابية بعدد ما فيها من البروتونات العزباء. وذات شحنات سلبية بعدد ما فيها من الكهارب السيارة المخطوبة. وانما الذرة المشتملة على الجميع تعتبر متعادلة Neutral وفي احوال لا يسع المقام تفصيلها تكون الذرة ناقصة كهرباً او اكثر وتسمى Ion وسلخ الكهرب منها يسمى Ionizution في هذه الحالة تعتبر الذرة ايجابية الشحنة لان ايجابيتها تزيد على سلبيتها. ولزيادة الايضاح نضرب الامثلة التالية:

ذرة الهيليوم تحتوي على ٤ بروتونات اثنان منها متزوجان كهربيهما والاثنان الآخران اعزبان خاطبان لان كهربيهما بعيدان يدوران في فلك حول النواة (مجموعة البروتونات الاربعة). لذلك وزن الهليوم الذري ٤ ورقمهُ في جدول العناصر الذري ٢ لان كهاربه السيارة ٢ وذرة الصوديوم تشتمل على ٢٣ بروتوناً منها ١٢ مزوجة كهاربها و ١١ عزباء كهاربها تدور حول النواة. لذلك وزنها الذري ٢٣ ورقمها في الجدول المذكور ١١. وذرة الاورانيوم تشتمل على ٢٣٨ بروتوناً (كعدد وزنها الذري) منها ١٤٦ متزوجة كهاربها والبقية ٩٢ عزباء كهاربها تدور حول النواة و٩٢ هو رقمها في الجدول. والاورانيوم

آخر عنصر فيه[٢]. وهنا قد يسأل القارىء كيف تدور الكهارب العديدة حول النواة . والجواب انها تدور في أفلاك كما تدور السيارات في افلاك حول الشمس بعضها ضمن بعض كفلك عطارد ضمن فلك الزهرة. وهذا ضمن فلك الارض الخ ولكن الفرق بين النظام الشمسي والنظام الذري أن كل فلك في النظام الشمسي يشغله سيار واحد فقط . فلا ترى سيارين في فلك واحد حتى ولا في فلكين على بعد واحد من الشمس ولو متقاطعين . ولكن في النظام الذري ترى ان الكهربين الاولين الاقربين الى النواة يشغلان فلكاً واحداً متقابلين (وربما كانا يشغلان فلكين على بعد واحد متقاطعين) ثم تلي فلكيهما منطقة ذات ثمانية أفلاك على بعد واحد من المركز ولا بدَّ من تقاطعها) ثم منطقة ثالثة فرابعة مثلها وبعد ذلك منطقة ذات ١٨ واخرى ذات ٢٨ فلكاً الخ . وتصوير افلاك الكهارب على هذا النحو يفسر درجات الالفة الكيماوية Valencey التي يفهمها الكيماويون جيداً . ومن رام التوسع في هذا البحث فليطالعه في الكتاب القيم Introduction to Modern Physics by F. K. Richtmyer الفصل الحادي عشر ولا سيما صفحات ٤١٨ وما بعدها . ولا محل هنا للتوسع في هذا الموضوع لانهُ خارج عن دائرة بحثنا . وانما لا بدَّ من بيان نقطة ذات شأن وهي ان الكهارب غير مقيدة بالافلاك بل يمكن ان يثب الكهرب الواحد من فلك الى فلك اقرب للنواة او أبعد عنها بحسب حشر الطاقة فيها او اشعاعها لها. فاذا طرأ على الذرة ما حشر فيها كماً (Quantum) من الطاقة تباعد الكهرب من فلك الى فلك وراءه . وكل كهرب سيار يسير على هذا النمط فتتعاقب الكهارب على الافلاك هكذا

واذا طرأ ما الزم الذرة ان تشع كمَّاً من الطاقة وثب الكهرب الى فلك ضمن فلكه . وسائر الكهارب تحذو حذوه بالتتابع . فاضافة طاقة الى الذرة تضخم حجمها (اللهمَّ حيث لاضغط) بحيث تتباعد الكهارب عن النواة الى افلاك قصية عنها . واذا قضي على النواة ان تشع كمَّات من الطاقات تقلصت الذرة الى ان تعود الى حجمها الطبيعي . ولا محل هنا لبيان الطوارىء التي تطرأ على الذرة لحشر طاقة فيها او لاشعاعها اياها . لان هذا الموضوع متشعب الاطراف لا يمكن ان يشرح في مقال او بضع مقالات . فما ألمعنا اليهِ منهُ كافٍ لغرضنا في هذا المقال

كيفية اضمحلال الذرة

تقدم القول ان البروتون المتزوج كهربهُ لا يحسب ذا شحنة كهربائية لا موجبة ولا سالبة لان شحنة كل من الزوجين نفت الاخرى فهما متعادلان Neutral . ولكن البروتون الذي لا يزال اعزب ولكنه خاطب كهرباً دائراً حول النواة (التي فيها البروتون المذكور نفسه) يعد موجب الكهربائية وكهربهُ الدائر حوله يعد سلبي الشحنة . وكلٌّ منهما يجذب الآخر . وانما الذرة برمتها تعد متعادلة الشحنتين . ولما كان البروتون اثقل مادة من الكهرب ١٨٤٠ مرة فلا يحسب حساب لجذب الكهرب له كما انهُ لا يحسب حساب لجذب الارض للشمس (الا نظرياً) لصغرها بالنسبة الى

(١) انظر كتاب السير جايمز جينز The Universe Around Us صفحة ١٤٧

عظمة الشمس . لذلك بقوة جاذبية البروتون للكهرب يدور الكهرب حول مركز الذرة الذي تمثله النواة بسرعة مطابقة لناموس المسارعة الجاذبي هكذا م = $\frac{س^٢}{ش}$ أي المسارعة = $\frac{\text{مربع السرعة}}{\text{البعد عن المركز}}$

فكلما انحشرت الطاقة في جو الذرة (الكهرطيسي) اي تخزنت فيه قلت مسارعة الكهرب فيبتعد بحسب هذا الناموس عن المركز . ولكن اذا جعلت الذرة تشع كمّات Quanta من الطاقة نشطت حركة الجوّ المذكور فيتسارع الكهرب . ولنفرض الآن ان ذرة كذرة الهيدروجين وجدت في ظرف طارىء يقضي عليها ان تشع طاقتها التي في جوها الى ان تفرغ منها كلها تماماً فبحسب هذا القانون يعجل الكهرب متسارعاً في دورانه الى ان يهبط الى بروتونه كما يهبط الحجر الى الارض وحينئذ يضمحلان معاً — البروتون والكهرب — يضمحلان اذ يتحولان الى طاقة متشععة

يقول السير جايمز جينز في صفحة ١٣٦ من كتابه الذي اشرت اليه في صدر هذا المقال . ولا يهمنا ان كان هذا الاضمحلال يحدث في الحال او بسلسلة تحوّلات (من حال الى حال) تستغرق وقتاً طويلاً او قصيراً . ويحتمل جداً انها لا تحدث بسرعة بل على التوالي كأنها تذوب ذوباناً لا كما يذوب الثلج بحرارة من الخارج بل كما يذوب الراديوم بتفكك في داخله

وفيما ان هذا التشعُّع الناتج من اضمحلال البروتون والكهرب صادر من داخل النجم كالشمس مثلاً ينحشر في ذرات اخرى في سبيله ثم تشعه منها — ينحشر ويُشَعّ مراراً لا يحصى عددها ، تشعه الواحدة الى الاخرى الى ان يخرج من سطح النجم وينطلق في الفضاء . ويظن ان الاشعة الكونية Cosmic Rays التي لا تزال لغزاً للعلماء هي ذرات مندثرة من سُدُم واجرام قصية يكثر فيها الاشعاع للسبب الآتي ذكرهُ : واضمحلال الذرات على هذا النحو هو اطلاق لمقادير عظيمة من الطاقة . وانما قلة الذرات المندثرة يكفل للنجم العمر الطويل . معدل هذا الاضمحلال في الشمس مثلاً ذرة واحدة في ١٠^١٧ (اي واحد الى يساره ١٧ صفراً او ١٠ مضروبة بنفسها ١٧ مرة) من الذرات

مثل هذا الاضمحلال لا يحدث الاَّ في الذرات الثقيلة جداً كالراديوم والاورانيوم والثوريوم التي تكثر فيها البروتونات والكهارب فتكون اقل استقراراً من الخفيفة او اكثر تقلقلاً فتندثر منها بعض بروتوناتها وكهاربها على نحو ما تقدم وصفهُ . وفي اعماق الشمس من العناصر التي لا وجود لها في ارضنا ما يبلغ ثقلها اضعاف اضعاف ثقل الاورانيوم الذي هو أثقل عناصر ارضنا . وفي تلك العناصر يحدث اندثار البروتونات والكهارب على نحو الاندثار الذي يحدث في الراديوم واسرته . وفي اجرام اخرى من العناصر ما هو اثقل جداً من عناصر الشمس الثقيلة . وكلما كان العنصر ثقيلاً كانت ذرته عرضة للتفكك واندثار بعض بروتوناتها

تعارض النظريتين

هذا هو مجمل نظرية السير جايمز جينز في فناء الذرة او المادة . فالنقطة التي في هذه النظرية

تتعارض مع نظرية تكوُّن الذرة هكذا : — اذا كان سقوط الكهرب الى بروتونه (بحيث تفني شحنة الواحد شحنة الآخر) يفضي الى اضمحلال الاثنين معاً في لمعة او لمعات تشعُّع فلماذا لا يضمحل البروتون المتزوج كهربه في النواة (مجموعة البروتونات) ؟ ما الذي ابقى على حياته وحياة كهربهِ بعد فناء شحنتيهما او انطلاقها امواجاً في الجو الذري الكهرطيسي ؟ . لم اجد في شرح جينز ولا شرح غيره ممن قتلوا هـذا الموضوع بحثاً ما يستخرج منهُ بيان لهذا التناقض بين النظريتين . وبعد تفكيري في هذه المسألة لاحت لي فكرة تصالح بين النظريتين ولا تتعارض مع سلسلة بناء الذرة

مما زعمه اقطاب العلم بشأن بناء الذرة ان كل ذرة او نظام (مجموعة) ذرات او مجموعة مجموعات انما هي في حركة دورانية على الدوام بمقتضى سنة الجاذبية العامة . فالبروتون يدور على نفسهِ كما تدور الشمس على محورها والارض كذلك . والنواة (مجموعة البروتونات) تدور على نفسها ايضاً . والكهرب فيما هو يدور حول النواة يدور على نفسهِ ايضاً دورة محورية (١) . والفوتون (٢) احد الوحدات الصغرى النهائية ، التي ينحل اليها الكهرب والبروتون تدور على نفسها وهي مندفعة في الفضاء تشعاً

وما دام البروتون يدور على نفسهِ فلا يمكن ان يكون كهربهُ المتحد بهِ (في رأيهم) متحداً بهِ حقيقة لأن دوران البروتون على نفسهِ يحدث جواً كهرطيسياً حوله ولو على بعد قليل بسرعة تتناسب مع سرعة البروتون فالكهرب الذي حسبوه متزوجاً بروتونه لا يزال يدور حوله كأنهُ وبروتونه نظام مستقل في داخليته . ولكنهُ مشترك بنظام عام هو نظام النواة كلهِ . وأما الكهرب المطلق الذي لم يتزوج بروتونه فلا يدور حول بروتونه وحده بل يدور حول النواة (مجموعة البروتونات كلها) . هذا هو الفرق بين الكهربين : (الكهرب الزوج والكهرب الحر المخطوب)

فكأن النواة ليست مجموعة بروتونات «مكبوسة» بعضها مع بعض كتلة واحدة بل هي مجموعة انظمة في اول درجة من النظام . وانما يقوم ضد هذه النظرية امر يتراءى انه مفسد لها وهو ان كهارب البروتونات المتزوجة كلها سلبية اي من جنس واحد في الشحنة الكهربائية فتتدافع بعضها مع بعض وهو امر ليس من مصلحة النواة اذ يجعلها مقلقة عرضة للتفكك لاقل ضغط يكف عنها . على ان هذا الامر هو في الظاهر معارض للنظرية ولكنهُ بالحقيقة يؤيد كيفية اضمحلال البروتون وكهربه لان الذرات التي هي عرضة للاضمحلال هي الذرات الثقيلة المقلقلة لانها عديدة البروتونات المتزوجة — لأن كهاربها قريبة لها جداً والضغط يسبب بطء دورانها ، وبالتالي بطء دوران كهاربها حولها . فلأي طارىء من الطوارىء تقع هذه عليها ويحدث التنافي في الشحنة فالاضمحلال الذي شرحه السير جايمز جينز كما لخصته عنه . وسبب الضغط عليها وجودها في اعماق الجرم لثقلها . ناهيك عن ان تنافر كهاربها النواتية (التي مع بروتوناتها في النواة) يسبب تقلقلها ويسهل تفككها

(١) الكهرب ينحل الى ١٠٠٠٠ فوتون والبروتون=١٨٤٠ كهرباً اذن = ١٨٤٠٠٠٠٠ (٢) فوتون انظر صفحة ١٥٣ الى ١٦١ من كتاب جينز The New Background of Science

داعي الحياة

يخفق القلبان ، بل تهفو الشفاه | منذ ان ضمتك في شوق يداه
منذ ان رنَّ صداها قبلة | نهلت منها وعلّت شفتاه
وارتوت روحاكما بل ظمئت | برحيق القبلات المشتهاه
بل رحيق الخلد قد طاب جناه | وسرى فيه حلاه وشذاه

***

يخفق القلبان ، بل تهفو الشفاه | حين يلقى ناظريك ناظراه
حينما يستعر الحبُّ جوًى | يكتوي القلبان من حر لظاه
فيرجّى كل ثغر قُبلة | هي بردٌ للحنايا والشفاه
مثلما يطلب ريًّا ظامئ | ينظر الماء ولا يبلغ فاه

***

يخفق القلبان بل تهفو الشفاه | كلما بشَّر بالحب الهُداه
كلما نادى المنادي حَيَّ هلاً | يقطف المحروم ما طاب جناه
ما لمحرومَيْن لم يستمعا ؟ | ذلك الصوت الذي دوّى صداه
ايه هيَّا ، فلنُجب داعي الشفاه | فهو داعي الحب او داعي الحياه

سيد قطب

وراء كمامة الغاز

[هذا المقال ملخص فصل للكاتب الانكليزي بفرلي نكلز في كتابه « المشهور » « Cry Havoc » وهو الكتاب الذي عالج فيه موضوع الدعاية للحرب والسلام وصناعة الاسلحة ومؤتمرات نزع السلاح بأسلوب يقرب دقائق هذه المباحث من اذهان العامة]

كان الوقت بعيد الظهيرة ، والجو قاتم مربدّ ، لما مررتُ في طريقي الى زيارة شركة «أنتي غاز لمتد» وهو اسم مستعار لشركة حقيقية — ومعنى الاسم شركة مقاومة الغاز

سرت على قدمي لقتل الوقت لان الميعاد لم يأزف ، ولان مقر الشركة على ضفة التاميز الاخرى ، وأنا أحب ان اجتاز جسور لندن على الاقدام. ولبثت قليلاً على جسر وستمنستر ، وحدقت في النهر، فرأيت جريانه اليوم اسرع من جريانه العادي ، وكانت الطيور تحوم فوقه ، تشيل وتحط ، والزوارق البخارية تصفر وتنفخ وترسل دخانها في الفضاء. حتى هنا لست اجد سلاماً !

ثم تابعت سيري . . . وأخيراً وصلت الى نافذة شركة (انتي غاز لميتد) . فوقفت وحدقت . وانني لارتاب في هل فكر مئات الالوف من المارة بأن هذه النافذة تستحق التحديق فيها . لانها لا تسترعي النظر . . . بل لمن السهل ان تحسبها نافذة لمكتب قديم من مكاتب المحاماة . وكان زجاج الجانب الاسفل من النافذة غبشاً غير شفاف . والاشياء المعروضة فيه قليلة وتنبو عنها العين . هوذا اداة لاطفاء النار ، وجهاز للتنفس ، وشيء ثالث لم أتبينه . انك لا تجد في هذه النافذة ما يدلّ على ان في هذه الدار ، الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة !

ماذا ... ماذا تقول ... الوسائل الوحدة للوقاية ..! ولكن اين الجيش ؟ اين سلاح الطيران ؟ انما اثبتنا لك ايها القارىء العزيز ، انهُ رغماً عن جيش حديث مستعد ، وسلاح طيران عزيز كفء ، لا تستطيع اية مدينة ان تدافع عن نفسها الدفاع الوافي في عصر الطيران ، واذن فهي معرضة ، لقنابل الغاز تنثر فوقها وتنشر غشاء من الغاز ، يخنق ويميت

سلمت بذلك ؟ ولكن ماذا تقول في كمامات الغاز ، الكمامات التي استنبطت لتقي من الغاز القتال؟

ان هذه الشركة على ما اعلم ، هي الشركة الانكليزية الوحدة التي تصنع كمامات الغازات ، صنعاً واسع النطاق . اذن يصح قولي السابق ، رغم اعتراضك ايها القارىء الكريم ، بأن في هذه الدار الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة

فلندخل هذه الدار آمنين لنرى ما يصنع فيها لوقايتنا

قرعت نافذة مكتب الاستعلامات ففتحه شاب بسام ، فأعربت له عن رغبتي فقال مرحباً — من هنا يا سيدي — فصعدنا سلماً ضيقة ، ضئيلة النور ، ودخل بي الى غرفة صغيرة ، تفتح نافذتها ، على صحن خلفي للدار ، فتحسُّ اذا نظرت اليهِ بان الدار مكتب محام قديم محافظ . ولكنني رأيت بعد قليل شيئاً بدَّد وهمي

ذلك اني رأيت في خزانة زجاجية لعباً ، وقد لبست جميعها كمامات الغاز ؟

فاعجبت بالفكرة . وقلت في نفسي ، ان افضل هدية لعيد الميلاد ، هي ان تشتري كل والدة لعبة لابسة كمامة غاز وتهديها الى ابنها ! وتصورت عندئذٍ الوفاً من اصابع الاطفال الغضة في بيوت انكلترا تتناول هذه الكمامات وتضعها على وجوه لعبها المحبوبة . وعند التحديق في الخزانة ، عرفت ان هذه الاشخاص ليست لعباً على الاطلاق ، وانما هي ، امثلة صنعت خاصة ، للتمثيل على استعمال الكمامة ، فبعضها للحرب ، وبعضها للمناجم

عند ذلك فتح الباب وسير بي الى مكتب الرجل الذي عهد اليهِ في ان يطوف بي في ارجاء المعمل. فلندعهُ « المستر اكس » وانا في نقلي ما رأيتهُ في هذا المعمل لا احس بتأنيب الضمير الذي احسست به عندما كتبت عن مصانع السلاح . ففي المرة الاولى كنت جاسوساً يريد ان يبيح للعالم اسرار هؤلاء الناس الذين يجنون الربح من الاتجار بوسائل الحرب ، ولكن هذه الشركة مقاومة للسلاح الذي يقصد بهِ الى تقتيل الناس وإزهاق ارواحهم . بيد ان بين مصانع السلاح وبين هذا المصنع المقاوم لفعل السلاح ، شبهاً اساسيًّا . ذلك ان معامل السلاح تبيع سلاحها لابناء وطنها ولاعداء وطنها ، على السواء — فشعار اصحاب مصانع السلاح « اقتلوا من تشاؤون ما زلتم تشترون سلاحكم منا » . وشعار مصنع الكمامات هذا « خلصوا من تشاؤون ما زلتم تشترون كماماتكم منا »

واذ نحن مارون في دهليز قاتم رأيت كومة عالية من اقراص معدنية فقلت للمستر اكس ما هذا ؟

قال — اجزاء كمامات واقية من الغاز ؟

قلت — ولكن هذه الكومة كبيرة جدًّا

قال — عددها اربعون الفاً

قلت — أصحيح ما تقول ؟ انهُ يسرّني ، ان يبقى في انكلترا اربعون الفاً بعد الحرب الكبرى ، لانهم استعملوا هذه الكمامات

قال — في انكلترا ؟ ولكن هذه الكمامات صادرة الى تركيا !

ما اعجب الجشع الانساني ! لنفرض ان انكلترا اضطرت ان تحارب في الشرق الادنى ، فيحاول طياروها ، ان يدمروا مدينة تركية ، فيتقي اهل المدينة فعل الغاز الانكليزي بكمامات انكليزية ، ويحاولون ان يسقطوا ، الطيارات الانكليزية بمدافع انكليزية !

واذ أنا أفكر ، في هذا ، توقف المستر اكس ، فاذا نحن امام الكمامات نفسها لا امام اجزائها ،

وهي من اشنع ما تقع عليهِ العين ، وابعدها شكلاً عن الطبيعة والحياة ... وكانت هذه الكمامات معلقة ، صفاً فوق صف . ثم التفت اليَّ وقال — وهذه الكمامات صادرة الى حكومة اجنبية اخرى !

قلت للمستر اكس : من الممكن ان تغطَّى مدينة لندن ذات يوم بغشاء من الغاز

قال : ذلك ممكن ... على الاقل

قلت : وهل يمكنُ ان يجهز كل رجل وكل سيدة وكل طفل بكمامة واقية من الغاز ؟

فتوقف قليلاً ... وفي توقفهِ حسبت انهُ يفكر فيما كنت افكر فيهِ من ناحيتي ، لانك اذا وجهت هذا السؤال وانت تعني ما تقول ، كان الجواب عنهُ في طيات السؤال نفسه . تصور الاطفال والمجانين والمرضى في المستشفيات ، وعمال النقل — تصور مدينة كبيرة يحصى سكانها بالملايين ، وقد لبس جميع ابنائها هذه الكمامات ٢٤ ساعة ! والراجح ان الرجل كان يفكر في هذا فقال :

— نحن نستطيع ان نصنع اربعين مليون كمامة ، ونبيع الكمامة الواحدة بخمسة وعشرين قرشاً

قلت : أتستطيعون حقيقة ان تصنعوا اربعين مليوناً . قال : نستطيع ذلك ونجني منهُ ربحاً

قلت : وماذا تفعل بعائلتك . قال : اول شيء افعله ، هو ان ابني غرفة في داري لا ينفذ الغاز اليها

قلت : وكيف تصنع ذلك ؟ كيف تتنفس ؟

قال الرجل : اتريد ان ترى كيف تمتحن كمامات الغازات التي نصنعها ؟ فقلت : يهمني ذلك

فنزلنا سلالم خشبية ضيقة ، ومضينا في ممر قاتم واجتزنا غرفة رمادية ، وخرجنا الى صحن خلفي على جانب من القذارة . شممت رائحة لاذعة حريفة متصاعدة من جوانب الصحن . وكان أمامنا ، غرفة سوداء ، تتسع لاثني عشر رجلاً ، وكان لها ثلاث نوافذ غام زجاجها ، بما تقلص عليهِ من رطوبة الهواء . وكان في أرضها ثلاثة ثقوب سُدَّت بالفلين . وشاع في جوانبها رائحة كريهة كأنها متصاعدة من جثة نتنة

واذ انا احدق في هذه الغرفة ، سمعت سعالاً ورائي ، فالتفت فرأيت ثلاثة رجال ، قد صفوا صفّاً واحداً للتفتيش . كان اثنان منهم كهلين ، وقد لبسا حزامين عجيبي الشكل أظنهما كمامتي اكسجين من النوع الذي يستعمله المهندسون ، عند حفر الانفاق . أما الثالث فكان فتى في التاسعة عشرة من العمر . وكان هو الذي سعل السعال الذي نبهني اليهم . وكان يحمل كمامة الغاز التي توردها هذه الشركة الى وزارة الحربية

استرعى هذا الفتى نظري ، لانني رأيته يرتجف من رأسه الى أخمصيه . ولماذا يرتجف ؟ فالجو ليس بارداً ، بل هو معتدل كل الاعتدال . ما حكايته ؟ وكأنه كان على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يستطع ان يقول ، لأن صاحبي المستر اكس صفق بيديهِ وأصدر الأمر بلبس الكمامات

فلبس الرجال الثلاثة كماماتهم . ان يدي الفتى لا تزالان ترتجفان ، حتى كاد يعجز عن ربط سيور الكمامة على قذالهِ

وعند ذلك فتح باب وخرج رجل مرتدياً معطفاً أبيض ، ودخل الغرفة القائمة ، وادخل فيها دائرة كهربائية ، فقفزت بضع شرارات في الظلام بين قطبيها ، وخرج هو من الغرفة مهرولاً ، وبعد دقيقة ، رأينا غماماً من الغاز الاصفر ، قد بدأ يخرج من الباب ، بعد ما ملأ جو الغرفة

فقال المستر اكس ، هذا الغاز ليس من أشدّ الغازات سمًّا ، ولكن اذا استنشقت منهُ مقداراً كبيراً سقطت في الحال عاجزاً ، بيد ان تأثير الغاز الذي من هذا القبيل نفسيٌّ على الاكثر ، ويجب ان نعوّد الناس ان يستعملوا هذه الكمامات

وفكرت في التأثير النفسي ، فتذكرت الشاب المرتجف ، وكان قد دخل الغرفة التي يملأ جوها هذا الغاز الاصفر

ثم فتح الباب ، وخرج الرجال يتعثرون وأزالوا الكمامات عن وجوههم ، فاذا وجه الفتى ممتقع كأنهُ فاقد الحياة ، فتقدمت نحوه وقلت هل لي ان أرى كمامتك ؟

قال : أتريد ان تدخل الغرفة ؟

قلت : نعم ، لأرى ما هو هذا التأثير النفسي !

قال : طيب . ولكنني لم ار منهُ ما يشجع . قلت : ليس ثمة خطر ما من الدخول ؟ قال : لا . ليس ثمة أي خطر .. إنما كنت افكر في ثيابك ، فقد تتشبع بتلك الرائحة الكريهة

فقلت ان رائحة ملابسي لا تهمّ .. اخذت الكمامة من الشاب وكان عليها من الداخل قطرات عرق تصببت من جبينهِ . فوضعتها على وجهي وربطت قيودها على وسطي وقذالي وعندئذٍ احسست اني بعيد عن العالم . يفصل بيني وبينهُ حجاب صفيق ... حتى التنفس كان عسراً ، كأنك تستنشق هواء من عالم آخر

دخلت الغرفة ، واذا العالم في نظري كالكابوس يتملكك ، في الليل يثقل تنفسك ، ولا تدري كيف الخلاص منهُ . ولم يكن ذلك الاحساس ناشئاً عن الخوف ، لان الدخول الى هذه الغرفة ، والكمامة على وجهك لا يعرّضك لأي خطر ، وإنما كان ذلك فعل التأثير النفسي ، الذي أشار اليه صاحبنا المستر اكس ، ورأيت أثره على وجه صاحبنا الفتى المرتجف الممتقع . ذلك انك تحس انك فقدت كل حيلة ، فكأنك حيوان تحيط به النيران ولا يدري اين المفر

***

والآن أغمض أيها القارىء عينيك وتصور سيدة جميلة تحبها ، وقد لبست احدى هذه الكمامات ، تصور ان والدتك او ابنتك او زوجك قد لبست إحداها ، فهي لا تستطيع ان تتكلم إذ تلبسها ، ولا تستطيع انت ان تخاطبها اذا لبس كلٌّ منكما كمامة ، بل لقد تنفر منها اذ تراها في هذا القناع المخيف

ثم قل بربك كيف تستطيع امة بأسرها ، ان تتقنع ، بهذه الكمامات وتمضي في حياتها تحت هذا التأثير النفسي ، منتظرة العدو يلقي عليها الغاز من القضاء ؟ !

تأسيس* القاهرة

بقلم الكابتن كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية

K. A. C. Creswell

ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

منشأ الدولة الفاطمية — قيامها بالقيروان — الاسباب الفلكية لغزو مصر — جوهر قائد الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمي يغزو مصر — سقوط الفسطاط — تأسيس القاهرة — اسوارها وأبوابها

﴿ منشأ الدولة الفاطمية ﴾ يرجع الفاطميون [1] نسبهم الى عبيد الله المهدي الذي يدّعون انهُ اخو الامام الثاني عشر الذي اختفى بسرّ من رأى . وهناك اقوال [2] اخرى في نسبهم يقرر احدها انهُ كان ابناً لاحد الأئمة المختفين الذين خلفوا الامام السابع بعد موته في رياسة المذهب الشيعي ، على انهُ بالرغم من الدراسة المستفيضة والاستقصاء الذي قام بهِ دي جويه De Goeje لتحقيق هـذه المسألة الهامة فان بكر Becker وريتماير Reitmeyer يتفقان في أن منشأ هذه الدولة لا يزال يحوطه الغموض والخفاء

ويرجع اعداء الفاطميين نسبهم الى ميمون القداح وكان طبيباً للعيون ثم اسس فرقة من غلاة الشيعة وتوفي سنة ٨٧٥ م فخلفهُ ابنه عبدالله في نشر تعاليمه ، وجعل البيعة والانخراط في سلك هذا المذهب على سبع درجات ، وادعى انهُ امام من اسرة محمد بن جعفر الصادق . واشتهر امره في الاهواز فاصبح حتماً عليهِ ان يفر الى مكان آخر فذهب الى البصرة ومنها الى سلميه حيث ولد له ابنه احمد وخلف احمد اباه بعد موته فارسل احد دعاته [3] الى العراق فتقابل الداعي مع حمدان بن الاشعث

---

(١) سموا كذلك كما روى جامع التواريخ لانهم يعتمدون في سلطتهم الروحية والزمنية على شرف نسبهم وانهم من نسل فاطمة بنت الرسول انظر Browne

Literary History of Persia II, p 195

(٢) لمناقشة هذه المسألة انظر Quatremère

Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fâtimides, Journal Asiatique, 3e série t II P. 97 ff

(٣) كانت رتبة الداعي في نظام البيعة عند الشيعة هي الخامسة حيث كان الانخراط في سلك هذا المذهب على سبع درجات يتنقل فيها المؤمن حتى يصل الى هذه الدرجة . انظر مقالة Carra de Vaux عن كلمة داع بدائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ٨٩٥ .

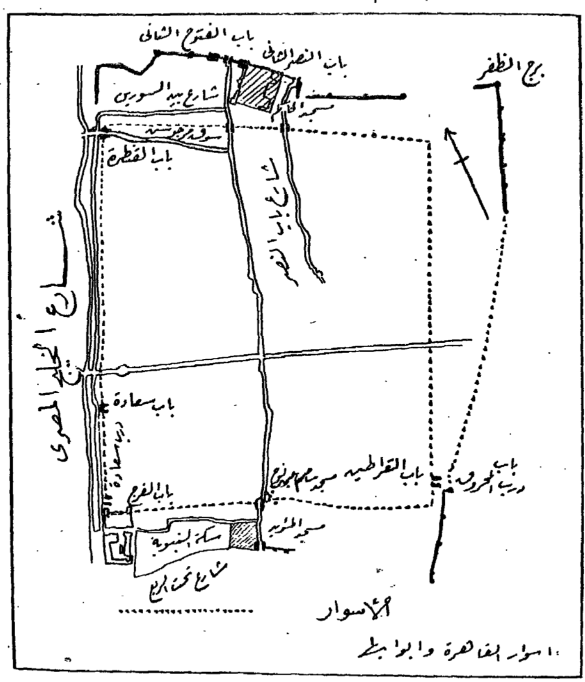
الذي كان معروفاً باسم قرمط فقبل دعوته واسس دولة القرامطة الذين كان ظهورهم مقدمة لظهور الفاطميين . وكان لاحمد ولدان حسين ومحمد المعروف بابي الشلعلع . فخلف حسين اباه ، وبعد وفاته لم يخلفه ابنه سعيد ، بل اخوه ابو الشلعلع الذي ارسل اثنين من الدعاة الى المغرب . هما ابو عبدالله واخوه ابو العباس فاقاما بين البربر واستطاعا في فترة يسيرة ان يجمعا حولهما كثيراً من الاتباع والمريدين من رجال البربر المساحين وان يحرزا انتصارات باهرة على زيادة الله ، آخر امراء الاغالبة الذي طرد من ملكه في سنة ٩٠٩ م . وكان للحسين ولد يدعى سعيد رباه عمه ابو الشلعلع واشتهر امره في سلميه (على بعد ١٥ ميلاً شرقي حماه) بعد وفاة عمه ولكنهُ اضطر بعد ذلك الى الفرار الى مراكش عن طريق مصر . وكاد يقبض عليهِ بها ولكنهُ بالرغم من نجاته في مصر ، فقد وقع في قبضة رجال الحكومة في سجلمسه ولم تنقذه من ايديهم الاَّ قوات ابي عبدالله المظفرة . ولقد لقيه ابو عبدالله بكل خضوع معلناً طاعته وانهُ المهدي المنتظر وفي ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ (يناير سنة ٩١٠) خطب باسمهِ في مسجد القيروان ولقب بأمير المؤمنين عبيدالله المهدي

الاَّ ان اباعبدالله سرعان ما وجد ان الخليفة قد اهمل شأنه فداخله الحقد ، وبدأ يثير الشكوك في صحة امامة المهدي مدعياً انهُ لا بد لهُ ان يأتي بالمعجزات ليبرهن على صدق دعواه . ولكن المهدي ادرك الخطر الذي كان يحف بهِ فقضى عليهِ قبل ان يستفحل امره بان دسَّ على ابي عبد الله من قتله وبذلك خلا له الجو فحكم خمسة وعشرين عاماً امتدت فيها سلطته من فاس الى حدود مصر التي ارسل لغزوها ثلاث حملات في سنوات ٣٠١ هـ (٩١٣ م) و٣٠٢ هـ (٩١٤ م) و٣٠٦ هـ (٩١٨ م) . وفي ذي القعدة ٣٠٣ هـ (٧ مايو ٩١٦) اسس المهدية وتوفي بها في ربيع الاول سنة ٣٢٢ وكان يقيم في رقاده على بعد اربعة اميال من القيروان وقد توفي بها . فخلفهُ ابنهُ ابو القاسم ، ولقب بالقائم ، وارسل جيشاً الى مصر ففتح الجيش الاسكندرية الاَّ انهُ اضطرَّ الى الارتداد امام قوات اخي الاخشيد وهزم هزيمة منكرة اثناء ارتداده

وتوفي ابو القاسم في ١٣ شوال ٣٣٤ هـ (١٨ مايو ٩٤٦ م) بعد ان حكم اثنتي عشرة سنة . فتولى بعده المنصور الذي اسس المنصورية في ٣٣٧ هـ (٩٤٨—٩٤٩م) وهي الضاحية الملكية الرابعة التي بنيت بجوار القيروان

واستمرَّ في الحكم حتى وافتهُ المنية في شوال ٣٤١ هـ فخلفهُ ابنه المعز وهو في الرابعة والعشرين من عمره . وكان المعز على جانب كبير من العلم والتهذيب والنشاط . وقد استطاع بمؤازرة وزيره وكبير قواده ، جوهر الصقلي ، ان يعيد النظام والامن الى جميع انحاء مملكته وكان ذلك تمهيداً لفتح مصر ، وكانت الامنية الكبرى التي كان يصبو المعز لتحقيقها والتي من اجلها شرع يجمع الاموال حتى تجمع لديه منها اربعة وعشرون مليون دينار كما قضى سنتين في حفر الآبار واقامة المنازل في الطريق الى الاسكندرية لينزل فيها الجند في اثناء مسيرهم اليها

﴿ الاسباب الفلكية لغزو مصر ﴾ يرى دي‌جويه أن الذي دفع المعز الى التفكير في غزو مصر هو التقاء المشتري بزحل في برج الحمل في سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) وليدعم رأيه هذا أتى بكثير من الامثلة لايضـاح ما كان لعلم التنجيم من الشأن الكبير في الحيـاة اليومية في الشرق في العصور



[نشر هذا البحث اولا في جريدة الاهرام الغراء وقد نقلناه عنها باذن من رئيس تحريرها]

الوسطى ، وخاصة بين الفاطميين وذكر كتب عبيدالله المهدي في التنجيم والعلوم الخفية [1] التي سرقت منهُ بالقرب من طاحونة حين كان فارًّا في افريقية والتي استردها القائم في اثناء حملته على مصر التي باءت

(١) العلوم الخفية — هي الكيمياء والتنجيم والسحر

هي الاخرى بالفشل ويقال ان هذه الكتب كانت تحتوي على النبوءة التي كانت ذائعة في ذلك الوقت وهي ان حكم العرب لبلاد المغرب سينتهي أمده بانتهاء القرن الثالث الهجري

ويقرر دي جويه ان هـذه النبوءة بلا شك ذات صلة بالتقـاء زحل بالمشتري في برج الحمـل سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) وهي السنة التي شهدت فعلاً سقوط الأغالبة وظهور أمر الفاطميين وبدء حكمهم في القيروان . ومن المعروف ان الفاطميين كانوا ينتظرون ان يبدأ عهد جديد هو عهد الدين الحق ، وان يكون ذلك مقترناً بتغيرات فلكية تحدث ٣١٦ هـ (٩٢٨ م)

ويرى دي جويه أيضاً ان قيام الدولة الفاطمية في ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) قد جعل المعزّ لتضلعه في التنجيم يختارسنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧م) لاعداد حملته على مصر لاسباب فلكية أيضاً اذ يلتقي في هذا العام زحل بالمشتري في برج الحمل . وهذا يذكرنا بما فعله هولاكو خان اذ كان في أوج مجده ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ومع ذلك لم يجرؤ على غزو بغداد الاّ بعد أن أكد له النجاح والنصر منجمه الشهير الطوسي

* * *

﴿ غزو مصر ﴾ ونتيجة للاضطراب الداخلي والمجاعة التي حدثت بسبب انخفاض النيل والطاعون الذي أعقب ذلك ، أصبحت مصر عرضة للغزاة الفاتحين . وكان المعزّ يعلم تمام العلم حالة البلاد حيثُ أطلعه عليها يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر منها وكان في اول أمره مقرَّباً من كافور الاخشيدي فأصدر المعزّ أوامره بحشد الجيوش . فتجمع له مائة الف رجل، أمّر عليهم جوهر القائد ، وجهزهم بالمعدات الكافية وارسل معهم المؤونة والعدد وآلات القتال وكل ما يحتاج اليه هذا الجيش الجرار على ظهور الدواب وسار الجيش من القيروان في ١٤ ربيع الاول سنة ٣٥٨ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل الى الجيزة في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) وعبر النهر وسحق الجيوش التي أعدت لقتاله على الشاطىء الشرقي للنيل . فسلمت المدينة وسار الجيش الفاطمي المظفر في مدينة الفسطاط حاملاً لواء النصر، وعسكر في السهل الرملي الواقع الى الشمال[1] وكان يحدّ هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج[2] وكان الخليج عبارة عن قناة تخرج من النيل شمالي الفسطاط وتمرّ بمدينة هليوبوليس القديمة وتتصل في النهاية بالبحر الاحمر عند السويس. وكان هذا السهل خالياً من البناء الاّ بضعة مبان تتعلق بحدائق كافور وديراً مسيحيًّا يسمى دير العظام وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصناً صغيراً يسمى قصر الشوك . ولا يزال اسم هذا القصر باقياً للآن يطلق على أحد احياء العاصمة

* * *

﴿ تأسيس القاهرة ﴾ وفي مساء ذلك اليوم اختط جوهر موقع القصر الذي قرر ان يستقبل

(١) هذه البقعة الآن مغطاة بالمنازل او باكوام من التراب ولا يرى بها الرمل حتى نصل الى العباسية . ومع ذلك فأن عمليات الحفر والكشف في منطقة برج الظفر (وهو يقع في الزاوية الشمالية الشرقية لسور صلاح الدين) قد اظهرت ان هناك نوعاً من الرمل الاصفر الناعم على عمق سبعة امتار تحت مستوى السطح الحالي للارض وعليها ترتكز اسس بناء برج الظفر (٢) يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب الى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج .وقد ردم هذا الجزء في اواخر القرن التاسع عشر ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري

فيه المعز . وحينما أتى اعيان الفسطاط في الصباح التالي لتهنئته وجدوا ان أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سوراً خارجيًّا من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعة ١٢٠٠ باردة . وذكر المقريزي [١] انهُ كان لا يزال يوجد الى عصره قسم كبير من هــذا السور كان يقع خلف سور صــلاح الدين بنحو ٥٠ ذراعاً بين باب البرقية ودرب بطوط ثم هدم في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) . وقد أبدى المقريزي دهشته من حجم الطوب المستعمل في هذا البناء وذكر ان طول الطوبة ذراع [٢] وعرضها ⅔ ذراع . وان هذا السور كان سمكه كافياً لان يمر فوقهُ فارسان جنباً الى جنب

ومن الغريب ان ياقوت ذكر ما يشبه ذلك في وصفه سمــك جدران قصر المهدية وهي العاصمة الاولى للفاطميين . والسبب في جعل الاسوار والحصون سميكة بهـذا الشكل هو تمكين الرجال الذين كلفوا الدفاع عنها من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لأن يتسورها الاعداء او يهاجموها بأية طريقة اخرى . وقد كان المتبع منذ عهد الرومان ان ينشيء المحاصرون أبراجاً من الخشب متحركة تزيد في ارتفاعها عن الاسوار المراد مهاجمتها

وكانت هذه الابراج اذا أتي بها قرب الاسوار استطاع المحاصرون أن يهدوا أعالي هذه الاسوار والاستحكامات وامكنهم باستخدام الكباري المتحركة انزال بعض رجال الجيش المحاصر للاشتراك في الهجوم والاستيلاء على الحصن فاذا لم تكن هــذه الاستحكامات سميكة سمكاً كافياً لم يستطع المحاصرون ان يقاوموا صفًّا واحداً من الرجال يهاجم الحصن هجمة موفقة . وكان الغرض من بناء هــذا السور هو ان يحيط بقصري الخليفة ودواوين الحكومة ومساكن الحامية . وكانت هناك مبانٍ اخرى كثيرة كبيت المــال ودار سك النقود والمكتبة وضريح الخليفة ودار الاسلحة والاصطبلات . . . . . . الخ . واوضح ابن دقاق الغرض الذي رمى اليه جوهر . فقال انهُ بنى القصور لمولاه حتى يكون هو واعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . كما كانت (فيما بعد) عادة الملوك من ابناء عبد المؤمن فقد فعلوا كذلك في مراكش وتلمسان وأماكن اخرى

وقد سميت هذه المدينة في اول الامر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز . وقد أثار هذا التوافق بين الاسمــين دهشة العلامة كاي Kay

---

(١) جاء في المقريزي جزء ٢ صحيفة ٢٠٥ طبع مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ما يأتي :—
« السور الاول كان من لبن وضعه جوهر القائد على مناخه الذي نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن فأداره على القصر والجامع ... وقد ادركت من هذا السور اللبن قطعاً وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط هدمها شخص من الناس في سنة ٨٠٣ هـ فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه في زمننا حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع . وعرض جدار السور عدة اذرع يسع ان يمر به فارسان . وكان بعيداً عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو خمسين ذراعاً وما احسب انه بقي الآن من هذا السور اللبن شيء »

(٢) يرى فان برشم Van Berchem ان الذراع الذي يذكره المقريزي في خططه هو الذراع البلدي وهو وحدة المقاييس المصرية وطوله ٥٧٫٨ سنتمتر . وبناء على ذلك يكون حجم اللبن المستعمل ٥٨ سم × ٣٨٫٥ سم للبنة الواحدة ونحن نؤيد فان برشم في ذلك لان المقريزي يقرر ان طول الضلع الجنوبي لجامع عمرو يبلغ ١٩٠ ذراعاً فعلى هذا الحساب نجد هذا الضلع يساوي ١٠٩٫٨٢ متراً . ولما كان طوله الحقيقي من الداخل يبلغ ١٠٩٫٢٠ متراً فيكون تقــدير طول الذراع البلدي بـ ٥٧٫٨ سم تقديراً صحيحاً

الذي لحظ ان انشاء مدينة منعزلة ومحصنة بهذا الشكل كان خاضعاً للسنة التي استنّها البلاط الفاطمي من قبل وان المنصورية ولو انها لم تكن نواة لمدينة جديدة ولا حلت محل مدينة القيروان القديمة فان العاصمة القديمة كانت بلا شك النموذج الذي انشئت على مثاله مدينة القاهرة

ومن الجلي كما لحظ ذلك ريتاير أن جوهر لا بدَّ كانت لديه أوامر من الخليفة بأن ينشىء مدينة تكون علاقتها بالفسطاط كعلاقة المنصورية بالقيروان . ويلاحظ لهذه المناسبة ما ذكره البكري من ان بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على احدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح وقد اطلق هذان الاسمان على بابين من ابواب سور مدينة القاهرة التي تذكرنا في كثير من مظاهرها بتنظيم المدينة الصينية والمدينة التترية والمدينة المحرمة في بكين التي أسسها قبلاي خان بعد ذلك بثلاثة قرون . ويرى كاي انهُ لا يوجد ما يدل على انجوهراً او سيده كان في نيته ان يؤسس مدينة جديدة بالمعنى العادي المعروف لهذه الكلمة او كان يقدر ما حدث بعد ذلك بمعنى انهُ ما كان يخطر ببال احدهما انسكان تلك المدينة الثلاثية المكونة من الفسطاط والعسكر والقطائع سيجاورون بالتدريج بيت الخليفة وانهُ بعد انقضى صلاح الدين الايوبي على هذه الاسرة سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١م) سيبلغون السور ويبنون المساجد والمباني الخاصة على انقاض قصورها التي سارع اليها الخراب . والى ذلك الوقت لم يكن يسمح لأي فرد باجتياز اسوار مدينة القاهرة الا اذا كان من جند الحامية او من كبار موظفي الدولة . اما عن اختيار موقعها فيقول المقريزي انجوهراً اراد ان تكون حصناً قائماً بين القرامطة وبين مدينة مصر لحمايتها من هجماتهم[1] . وفي عهد دولة كالدولة الفاطمية التي قامت على الدعاوى الدينية والروحانيات والتي يؤمن خلفاؤها بالعلوم الخفية فان عملاً هامًّا مثل انشاء مدينة لا يمكن ان يتم الا بمساعدة المنجمين . ولذلك اصدر جوهر اوامره بجمعهم وطلب اليهم ان يختاروا طالعاً سعيداً لتأسيس المدينة حتى لا يتعرض الفاطميون لان يسلبها منهم متغلب

حفرت الخنادق لبناء اسس الاسوار والجدران وثبتت فيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها اجراس حتى اذا حانت الساعة المحددة ارسل المنجمون الاشارة الخاصة بالبدء في العمل . وامر العمال ان يقفوا على تمام الاهبة لالقاء الاحجار والمونة الموضوعة في متناول ايديهم في الخنادق المحفورة عند ما تصدر لهم الاشارة بذلك . ولكن قبل ان تحين الساعة المقررة وقع غراب على الحبال الممدودة فدقت الاجراس ، فظن العمال ان المنجمين قد اعطوا الاشارة وبدءوا في العمل

وكان في هذه اللحظة كوكب المريخ في الاوج وكانوا يسمون هذا الكوكب قاهر الفلك فاعتبروا هذا شؤماً ويظهر من رواية المقريزي المضطربة ان المدينة الجديدة اطلق عليها اولاً اسم

---

(١) (قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله معد فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدي المدينة وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفه بحرمه وخواصه الى ان انقرضت الدولة الفاطمية الخ) مقريزي جزء ٢ ص١٥٧ (... وسكنها الملوك ... الى يومنا هذا فصارت القاهرة مدينة سكنى بعد ما كانت حصناً يعتقل به ودار خلافة يلتجأ اليها) مقريزي جزء ٢ ص ١٥٧

المنصورية[1] وهو الاسم الذي كان يطلق على المدينة التي اسسها الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله خارج مدينة القيروان . ويقول المقريزي ان المدينة الجديدة لم تعرف باسم القاهرة الاّ بعد اربع سنوات حين حضر المعز الى مصر ورأى من قراءته الخاصة للطالع في هذه التسمية فألاً حسناً اذ ان اسمها مشتق من القهر والنصر ويقول ايضاً انهم بنوا السور من الطوب وسموا المدينة المنصورية حتى قدم المعز بعد ذلك بأربع سنوات (٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ١١ يونيه ٩٧٣م) فغير اسمها وجعله القاهرة. الاّ ان المقريزي بعد ذلك بسبعة اسطر يروي قصة المنجمين بطريقة تجعلنا نظن ان اسم القاهرة اطلق على هذه المدينة منذ بدء تأسيسها [2] . ويرجع الفضل للعلامة رافيس Ravaisse في جلاء هذه النقطة التي لم يفطن اليها «لين بول» Lane Poole في كتابه تاريخ مصر History of Egypt p. 103 وقد اخذ بيكر برأي رافيس في المقال الذي انشأه بدائرة المعارف الاسلامية عن القاهرة

وقد سلم جميع الكتاب الذين عالجوا موضوع انشاء القاهرة بقصة المنجمين والغراب ولم يشكوا في صحتها . ويظهر انهُ غاب عن ملاحظتهم ان هناك قصة شديدة الشبه بهذه ذكرها المسعودي المتوفى (٩٤٣ م) في روايته الخرافية عن انشاء الاسكندر مدينة الاسكندرية

فقد روى ان العمال وقفوا بأمر الاسكندر في الخطوط التي حددت لانشاء المدينة وان الاوتاد دقت في الارض على مسافات في هذه الخطوط وربط بها خيط ثبت آخره بعمود من الرخام امام خيمة الملك .وعلقت بهذا الخيط اجراس وانتظر العمال اعطاء الاشارة اليهم وحين سمع العمال الاشارة باشروا جميعاً العمل في وقت واحد في اقامة اسس المدينة وكان الاسكندر يؤمل بهذه الوسيلة ان يكون واثقاً من انشاء المدينة في ساعة يسودها حسن الطالع ولكن مع الاسف حين حان اليوم والساعة المحددة شعر بثقل في رأسه ونام فوقع غراب على الحبل فدقت الاجراس وبدأ العمال في العمل . فلما استيقظ الاسكندر وعرف ما حدث قال لقد اردت شيئاً واراد الله آخر .ومن ذلك يظهر ان القصة التي رواها المقريزي كانت شائعة ومعروفة قبل انشاء القاهرة بستة وعشرين عاماً .وذلك يحول دون قبولنا رواية المقريزي الاّ بكثير من التحفظ.واني ارى ان ما سبق يجعلنا على حق حين نعتبرها خرافة من الخرافات

[تنشر تتمة هذا البحث النفيس في مقتطف دسمبر القادم] .

---

(١)— (...وقصد جوهر الى مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله ابي تميم معد واستقرت به الدار واختط القصر واصبح المصريون يهنئو نه فوجدوه قد حفر الاساس في الليل فأدار السور اللبن وسماها المنصورية . الى ان قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها فسماها القاهرة) مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٤

(٢)— (...ويقال في سبب تسميتها ان القائد جوهراً لما اراد بناءها احضر المنجمين وعرفهم انه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند وامرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً فاختاروا طالعاً لوضع الاساس وطالعاً لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمين حبل فيه اجراس وقالوا للعمال . اذا تحركت الاجراس فارموا ما بايديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق ان غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال ان المنجمين قد حركوها فألقوا ما بايديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة واقتضى نظرهم انها لا تزال تحت القهر) مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٤

لباب النسبية مبسّطاً

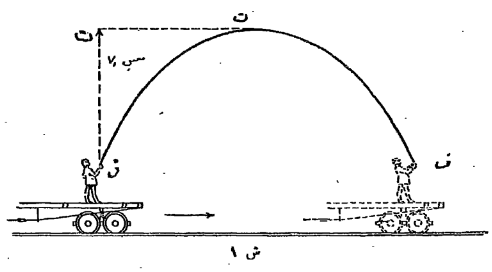
تعريفها وقسماها — مقامها في العلوم الطبيعية

لحنا خباز

زيد في قطار سريع ، يقطع تسعين كيلو متراً في الساعة . رمى كرة الى الجو فصعدت الى علو ٦٤ قدماً ، ثم عادت راجعة الى اسفل . فأين تقع ؟ أوراءه ؟ ام امامهُ ؟ ام فوقه ؟

انها تقع فوقه ، لانها اكتسبت من سرعة القطار استمراراً ، لا تنزعه منها قوة الدفع السمتي من يد زيد . ولكن كيف رآها زيد ومن معه في القطار ؟ وكيف رآها عمرو ومن معه في الطريق ؟

رآها زيد ورفاقه قد صعدت وهبطت في خط سمتي . أما عمرو وصحبهُ فرأوها قد سارت في قوس دائرة كما ترى في شكل ١



ش ١

فأي الفريقين هو المصيب ؟ ازيد ام عمرو ؟ تقول النسبية ان كليهما مصيب. هذه الحالة تمثل لنا نظرتين . الاولى نظرة العلماني تبدو من زيد . والثانية نظرة النسبية تبدو من عمرو . هي صورة بسيطة ترينا موقفاً من مواقف النسبية ، التي تحسب الخط المستقيم محدباً . وبحق تفعل ذلك . فالنسبية خطوة الى الامام في تفسير ظاهرات الكون . بها حوّل اينشتين قواعد غليليو ونيوتن ، كما حوّل كوبرنيقوس قواعد بطلميوس . وكما حوّل دلتون ولافوازييه قواعد الكيمياء القديمة . وكما جدّد ليل في علم الجيولوجيا . وداروِن في البيولوجيا

وجاءت نظرية اينشتين متممة مسعى ميكلصن ومورلي الرامي الى اثبات حركة الارض في الاثير

بواسطة سير النور . وبالرغم من تكراره مراراً بين سنة ١٨٨٢ — سنة ١٩٠٥ — ١٩٢٥ لم يمكن ظهور اي اثر لحركة الارض في الأثير . فهل الأرض ساكنة ؟ او ان الأثير لا وجود له ؟ لا هذا ولا ذاك . فما هو اذاً تعليل الأمر ؟ لماذا لم يمكن اثبات حركة الارض بهذا الامتحان ؟

ذهب العلماء في تعليله مذاهب شتى . منها ان الأثير الملامس سطح الكرة يشترك معها في حركتها في شكل تيار . فلا يمكن ادراك حركتها فيه . ومنها ان المادة تتقلص في اتجاه حركتها . قاله فتزجرالد الارلندي . وقد ابان لورنتز الهولاندي مقدار التقلص بالحسابات الرياضية وهو $\frac{1}{200\ 000\ 000}$ من قطر الارض

اما اينشتين فيقول ان التقلص ظاهري لا واقع . وخلاصة نظريته ان لا حركة مطلقة في الكون . ولا سكون مطلق كذلك

فالمادة بأجمعها من اكبر كتلة كابط الجوزاء ، الى القوطون وهو جزء واحد من عشرة آلاف جزء من الكهرب ، اقول ان جميع هذه الاجسام متحركة حركة نسبية احدها الى الآخر

وقد قسم اينشتين النسبية الى قسمين : — ١ً النسبية الخاصة . وموضوعها الحركة القياسية غير الدورانية . وقد اعلن هذه النظرية سنة ١٩٠٥ :— ٢ً النسبية العامة وهي تبحث في جميع الحركات قياسية ومتفاوتة ودورانية . وقد اعلن هذه سنة ١٩١٥

النسبية الخاصة

اوضحها اينشتين في كتاب «نظرية النسبية الخاصة والعامة»(١) ويمكن تلخيص كلامه في ما يأتي :

زيد في قطار يسير سيراً قياسيًّا بالنسبة الى عمرو في المحطة . وهنالك غراب طائر في الجو فوق القطار . فطيران الغراب حادثة طبيعية ، شهدها أثنان ، احدهما ساكن ، والآخر متحرك بالنسبة اليهِ في خط مستقيم غير دوراني . قال اينشتين : نواميس الظاهرة الطبيعية هي هي سواء قيستْ بدليل (هيكل اسناد) م او مَ المتحرك حركة « نسبية » الى م قياسية :

وقد اوضح ذلك هري شمدت في كتابه النسبية والكون ٦٦ — ٨٥ Relativity & The Universe

وهذه صورة قاعدة النسبية الخاصة فيها : جميع الظاهرت ، ليس الميكانيكية فقط ، بل ايضاً الكهربائية والمغنطيسية والبصرية ، تحدث في نمط واحد سواء اعتبرت بدليلات ساكنة ، او بدليلات متحركة حركة نسبية الى الساكنة حركة قياسية غيردورانية :

فمن ذلك : ان سرعة النور في الفضاء ثابتة السرعة لكل مراقب ، ومستقلة عن حركة مصدرها وناظرها : اي لا فرق بين ان يكون مبعث النور متحركاً او ناظره او كلاهما . ولذلك لا يمكن اثبات حركة الارض في الاثير بواسطة سير النور ، او بغيره من الظاهرات الكهربائية والمغنطيسية والميكانيكية

(١) Relativity, The Specific & General Theory : فصل خامس ص ١٢—١٥

وبعبارة اخرى ان العلم الطبيعي عاجز عن اثبات الحركة المطلقة . جاء في كتاب النسبية والكون ص ٧٠ — ٨٥ ذكر نتائج النسبية الخاصة

١ً : لا يمكن تأكيد التعاصر (التواقت) في حادثتين . فقد يراهما مراقب في وسط من الاوساط انهما قد حدثتا معاً في وقت واحد . ولكن مراقباً آخر في وسط متحرك يراهما متواليتين

٢ً : الفترة الزمانية بين حادثتين معلومتين ، قد يرد في طولها حكمان متباينان يعني ان الزمان نسبي لا مطلق

٣ً : الفترة المكانية بين حادثتين معلومتين يحكم على طولها احكام مختلفة باختلاف هيا كل الاسناد Co-ordinates : او الدليلات . يعني ان المسافة نسبية

٤ً : الحجم نسبي لا مطلق . وذلك يتعارض ومبدأ نيوتن القائل بثبوت المادة

٥ً : الشكل نسبي . فالدائرة في عين زيد مع هيكل اسناد واحد ، قد تكون اهليليجاً في عين عمرو مع هيكل اسناد آخر . والمربع في نظر هذا قد يكون مستطيلاً قائم الزوايا في عين ذاك

نسبية الزمان[1] : اذا كان هنالك ساعتان من معمل واحد ومن تركيب واحد ومزايا واحدة في كل شيء ولكن احداهما في جيب كاتب على كرسيه ، والاخرى في جيب طيار يقطع ٦٠٠ كيلو متر في الساعة. فان الاولى تسبق الثانية سرعة وكلما زادت سرعة الوسط بطؤت حركة الساعة ، وحركة المعدة ونبض القلب — وعلى ذلك قد يولد اثنان في ساعة واحدة ويموتان في ساعة واحدة . ومع ذلك يكون احدهما قد عاش سبعين سنة والآخر قد عاش سنة واحدة لان الاول عاش في ارضنا . والآخر في جرم سريع الحركة جداً بالنسبة الى حركة ارضنا والمفروض ان سرعتـه ١٦١٠٠٠ ميل في الثـانية . فسنة هنالك تعدل سبعين سنة في ارضنا

القطار متحرك ——————
متر على القطار
مكانه على الارض ثابت ——————
متر على الارض
كما يراه انسان على الارض ——————
متر على القطار
القطار ساكن ——————
متر على الارض
الارض متحركة ——————
متر على الارض

(ش ٢)

نسبية الحجم : انظر (ش ٢) فان المتر الواحد يظهر لك في حال اسراعه نصف متر

النسبية العامة

وموضوعها الحركة من حيث هي قياسية او دورانية او لولبية او غير ذلك

(١) انظر ٣٨ من كتاب ادنتن The Nature of the Physical World

بسط الكلام فيها الاستاذ اينشتين في كتابهِ المذكور آنفاً ص ٥٩ — ١٠٥ وتمهيداً لها اوجه نظر القارىء الى : « الابعاد الاربعة »

ان فضاء نيوتن هو فضاء اقليدسي ، ثلاثي الابعاد ، طول وعرض وعمق. على هذا جرى العلماء من ايام اقليدس الى ١٩٠٥ لما ابرز منكوفسكي رأيهُ في عالمنا . يقول اينشتين ان المادة ساكنة في جو اقليدسي ، لا تؤلف عالماً . لان ليس عالمنا عالم جمود واستقرار ، بل هو عالم حادثة ، فلا تكفي الابعاد الثلاثة لتعيين الحادثة ، بل تلزم اضافة بعد رابع اليها هو الزمان

فالجراف تسبلين وهو طائر من فريدركسهافن الى نيويورك بطريق روسيا فسيبيريا فاليابان فالباسيفيك ، لا يمكن تعيين موقعه دون ذكر الزمان ، فلا يفيد قولنا ان الجراف تسبلين هو في طول كذا وعرض كذا وارتفاع كذا ، ما لم نقل « في وقت كذا » . لانهُ في كل ثانية يشغل حيزاً يختلف عما قبله

قال منكوفسكي ان الزمان وحده ، او المكان وحده ، او المادة وحدها ، وهم وخيال ، ما لم تجتمع الثلاثة معاً . (كتاب النسبية والكون ص ٩٨)

ويقول اينشتين : عالمنا امتداد زماني مكاني . وفضاء اقليدس ليس عالماً لانهُ ثلاثي الابعاد . فالعالم في عرف منكوفسكي : مشهد الظاهرة : ولا تكون الظاهرة دون زمان ، كما انها لا تكون دون مكان . وكلام اينشتين هذا يوافق رأي « كنت » الفيلسوف الالماني العظيم ، الذي يرى ان المكان والزمان ملابستان لا يمكن فهم شيء في عالم المادة من دونهما فعالمنا زماني مكاني رباعي الابعاد (ط : ع : س : ز) وهي احرف ترمز الى الطول والعرض والسمك والزمان على الترتيب

بدأ اينشتين الكلام في النسبة العامة في الفصل الثامن عشر من كتابه . قال : لقد كان مبدأ النسبية الخاصة محور ابحاثنا السالفة . وفحواه ان « كل حركة هي نسبية » وسواء اتخذنا المحطة او القطار المتحرك حركة نسبية موقفاً لنا ، فالنواميس العامة هي هي بحكم الاختبار ، المبني على هيكل اسناد غليلي ، ساكناً او متحركاً حركة قياسية . ولا يشمل الاجسام المتحركة حركات منوعة . كما نعني بالنسبية العامة . وفي هذه نواميس الظاهرات الطبيعية هي هي سواء قيست بدليل اسناد م او مَ المتحرك نسبيًّا « ايّة حركة اينما كان »

وبعبارة اخرى : جميع الاجسام ساكنة الدليلات (هيا كل الاسناد Co-ordinates) او متحركتها « اي نوع من الحركة » هي صالحة لوصف الظاهرات الطبيعية (اي لتأليف النواميس الطبيعية العامة مهما يكن نوع حركتها) وتلا ذلك كلامه في الفصل ١٩ في منطقة الجذب gravitational field وهنا يصدم نيوتن صدمة عنيفة . بأن الجاذبية والاستمرار سيّان . قال : افلتنا حجراً من يدنا فسقط على الارض . ولماذا ؟ الجواب العادي عن هذه المسألة هو : ان الارض جذبته : ولكن الطبيعيات الحديثة تصوغ الجواب في صورة اخرى . لان درس الظاهرات الكهرطيسية درساً دقيقاً اثبت لنا

استحالة الفعل عن بعد دون واسطة توصل أثر الفاعل الى المفعول به . فاذا جذب الحديد مغنطيساً دون اتصاله به فلا نقول اذ ذاك بالفعل عن بعد . بل نرى مع فارادي ان المغنطيس ينشيء حوله شيئاً طبيعيًّا ندعوه المنطقة المغنطيسية : magnetic field : فيجذب الحديد ضمن حدود هذه المنطقة . على هذا النحو نحسب تأثيرات الجاذبية . فان الكرة الارضية تنشيء حولها منطقة جذب . وضمن حدود تلك المنطقة تفعل في الحجر ، الذي رأيناه يهبط الى سطح الارض . ونعلم بالاختبار ان ذلك الجذب ينقص كلما بعدت المادة عن الارض (بدليل خفة الوزن كلما علونا)

على ان فعل الجاذبية في منطقتها يخالف فعل الكهربائية في منطقتها ، ويخالف كذلك فعل المغنطيسية في منطقتها ، وذلك في انهُ يحدث حركة متسارعة — كما في الاجسام الساقطة . ولا يتوقف ذلك على حجم المادة الساقطة ولا على نوعها . فجميع الاجسام تسقط بسرعة واحدة على سطح الارض . كتلة الحديد كقصاصة الورق حيث لا هواء يؤثر في هبوط الورقة مثلاً

فالجاذبية والاستمرار سيان . وقد مثل على ذلك في الفصل العشرين بمثل الصندوق الهائل . قال ما خلاصته : —

لنفرض ان الفضاء خالٍ من الاجرام . فلا شموس ، ولا سيارات ، ولا اقمار ، ولا ولا . . . ليس هنالك الاّ صندوق هائل في عرض الفضاء ، في سقفه حلقة كبيرة معلقة بحبل ، لا يراها الذين هم في الصندوق . حيث لا اجرام هنالك فليس ثمة جذب يهبط بالمواد الى اسفل نحو المركز . فتبقى الاشياء في الصندوق حيث وضعناها في منتصفه او فوق ذلك . ولا تهبط الى ارضه ولا تميل الى احدى الجهات الاربع ضمن الصندوق

ولكن في ذات يوم جذبت قوة عالية الصندوق بواسطة الحبل المربوط بالحلقة . فارتفع الصندوق مقسوراً . اما الاشياء التي ضمنه فظلت حيث هي . فلما ارتفع الصندوق صدمت ارضه تلك الاشياء . فنقول انها قد هبطت ، لاننا لم نشعر بحركة ارتفاع الصندوق ، بل شعرنا بهبوط الاشياء على ارضه وقد نعلل تلك الظاهرة بتعليل مألوف عندنا وهو : ان قوة خافية تحت الصندوق جذبت الاشياء التي فيهِ الى اسفل

وسواء كان الصندوق قد جذب الى فوق بالحبل ، او ان الاشياء قد جذبت الى اسفل بقوة خافية ، على الحالين ان الاشياء لاذت بأرض الصندوق . ولا مزية لاحد التفسيرين على اخيهِ . فالاستمرار والجاذبية سيان : (طبيعيات عامة : ص ٦٨٥)

***

على هذا النحو يمكن تجريد مبدأ النسبية فيشمل كل الحركات في الكون . وعليه فالمنطقة الجاذبية ظاهرة لا غير . يلي ذلك تبيان اينشتين عجز النسبية الميكانيكية والنسبية الخاصة عن تفسير الكون ، واحتياجنا الى النسبية العامة . وهو موضوع الفصل ٢١ . قال : —

يتلخص ناموس الميكانيكا الكلاسيكية بهذا النص — تستمر الذرات المادية المتباعدة سائرة في خطوط مستقيمة، او تبقى ساكنة : وقد ابنا ان ذلك يصح في وسط ساكن، او سائر سيراً قياسيًّا. فاذا اختلفت الاقيسة باختلاف الاوساط تخلف هذا الحكم . فاذا راقبنا تلك الذرات من وسط سريع الحركة تشعر انهُ ساكن ، ظهرت لنا تلك الذرات متحركة لا ساكنة

وقد ذكر هنا مثال الحلل فيها ماء موضوعة على مصابيح الطبخ وهي اكفاء في كل شيء . الاّ ان الماء جعل يتبخر ويغلي في بعض الحلل دون البعض الآخر . ولدى التفحص وجدنا تحت الحلل الساخنة المياه ، شيئاً صاعداً من المصابيح ازرق اللون ، في صورة شعاع . فحسبناه علة غليان الماء . وان لم يسبق لنا مثل ذلك الاختبار . لذلك ارتأى ا . ماش انهُ يجب ان تبنى الميكانيكا على اسس جديدة . تنطبق على قواعد النسبية العامة

مستندات اينشتين في تأييد النسبية العامة ثلاثة :

الاول : انحراف اشعة النور لدى مرورها بجسم في عرض الفضاء وقد ابان بالمعادلات الرياضية ان ذلك الانحراف يجب ان يكون ١٫٧٠ ً وقد اثبت ذلك رصد كسوف الشمس سنة ١٩١٩ . (راجع الكون المتمدد ص ١) . الثاني : تعليل عقدة عطارد (الكون المتمدّد ص ٢٥) . افلاك السيارات حول الشمس اهليليجيات وتكون السيارات في اقرب موقع من الشمس في نقطة خاصة في فلكها لا تتجاوزها ، والشمس في محترقها الاقرب الى السيار . وهذا الحكم نافذ في كل السيارات الاّ عطارد . فان تلك النقطة تنحرف نحو ٤٣ ً في كل قرن . هذه هي عقدة عطارد . وقد حار العلماء في امرها

فلما وضع اينشتين قواعد النسبية العامة ابان بالادلة الراهنة لزوم ذلك الانحراف لوجود شيء في الفضاء يوجبه . الاّ ان مقداره في غير عطارد زهيد جدًّا لا يشعر به . فعلل اينشتين بالنسبية ما كان يحسب عند العلماء من الشواذ

الثالث : حيود الفسحات المظلمة في خطوط فرنهوفر نحو الاحمر . وهذا من ادق مباحث النسبية واعمقها . وهو يتناول الظاهرة البصرية والظاهرة المغنطيسية معاً

***

يصحب التيارَ الكهربائي حتماً فعلٌ مغنطيسيٌّ فلو كان جسم مشحون كهربائية ساكناً فليس هنالك حقل مغنطيسي . ولكن لو راقب ذلك الجسم مراقب في جرم متحرك حركة سريعة جدًّا . وهو يشعر ان موطنه ساكن وان الارض الحاملة الجسم المكهرب هي المتحركة تلك الحركة السريعة جدًّا لشهد الحقل المغنطيسي وشهد معه حيود فسحات فرنهوفر المظلمة نحو الطيف الاحمر . وهذه المستندات الثلاثة اي انحراف الاشعة وتعليل عقدة عطارد وحيود الفسحات المظلمة في خطوط فرنهوفر نحو الاحمر ، جاءت مؤيدة لنظرية اينشتين . والذي اعلمه ان جمهرة العلماء الطبيعيين في كل الدنيا قد قبلوها كقضية راهنة

حمق دعاة التعقيم

[نشرنا في مقتطف اكتوبر الماضي مقالا جمعنا فيه أهم ما يقال في تأييد فكرة « اصلاح النسل بالتعقيم » ووصف العملية الجراحية وآثارها والقوانين التي سنت لهذا الغرض في مختلف بلدان العالم وطريقة تطبيقها في ولاية كاليفورنيا الاميركية . وفي المقال التالي رد على دعاة التعقيم بقلم اغناطيوس كوكس استاذ ادب النفس في جامعة فوردهام الاميركية]

ليس لعاقل ان يعترض على الغرض الذي ترمي اليهِ «حركة اصلاح النسل» Eugenics وهو صحة الذريات المقبلة وهناءتها . ولكن محاولة تحقيق هذا الغرض بوسائل لا تستند الى أساس علمي او أدبي — واذن فهي لا تستند الى أساس شرعي — اي بالتعقيم ، تلقى مقاومة عنيفة من كل من يتدبر الموضوع ويتأمل فيهِ. قال الاستاذ جننغز[1]: لقد اصبح علم الحياة من الموضوعات التي يعنى بها الجمهور ، ولكن حماسة البيولوجي يضعفها ريبةٌ في صحة الاقوال والآراء التي تذاع باسم البيولوجيا . فالحالة تفسح المجال لمن لا ينقد آراءه ولا يمحصها ، ولا يساوره ريب ما في ان علمهُ قد حلَّ مشكلات الانسانية »

فدعاة التعقيم يسعون الى ازالة الذين لا يصلحون للتناسل ، وتخفيف الاعباء التي يلقونها على كواهل المجتمع بتكاثرهم وعدم صلاحهم للنهوض بما يطلبهُ المجتمع منهم . والخطأ الذي يقع فيهِ بعض اليوجنيين انهم يقيسون سلامة السلالة بالمقام الاجتماعي او المقدرة الاقتصادية او درجة التعليم ، ناسين ان المقام الاجتماعي ليس فضيلة ، وان المقدرة الاقتصادية قد تنطوي على الاجرام ، وان التعليم النظامي قد يفضي الى انشاء صلات ليست في الطبقة العليا من النقاء النفسي او النفع العام . فكأن هؤلاء اليوجنيين يخلطون بين التعليم والذكاء . بين النظافة والمعيشة الصالحة . بين الجهل والاجرام. ويؤيدني في قولي هذا ، المستر ريمون برل Pearl مدير البحث البيولوجي في جامعة جنز هبكنز إذ يقول في رسالة لهُ ، ان ليس الغرض منها الحكم على طبقات بأمرها من الناس بعدم صلاحها للتناسل، لاسباب اجتماعية او اقتصادية ، ولا ان يبيّن تضميناً ان طبقة واحدة من الناس — أي طبقة متخرجي الكليات والجامعات — هي الطبقة التي يرغب فيها وفي تناسلها من الناحية اليوجنية

ولكن لا ريب ، في ان هناك أفراداً ، في الطبقات العليا والطبقات السفلى والطبقات المتوسطة من المجتمع ، مصابون بضعف جسماني او عقلي . ويمكن تقسيم هؤلاء الى ستة فِرَق (الاول) فريق المصابين بأمراض معدية كالمسلولين والمصابين بالزهري او بالجذام . (الثاني) فريق المنحطّين أمثال

(١) استاذ علم الحياة في جامعة جنز هبكنز في كتابه (الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي)

العُهّار الصاديين ومدمني المخدرات (الثالث) فريق المذنبين أمثال المتشردين والمجرمين (الرابع) فريق المتوكلين مثل الصمّ والبكم والكمه (الخامس) فريق المصابين بأمراض عقلية (السادس) فريق المصابين بضعف عقلي مثل البُله وضعاف العقول (morons)

فما هي الوسيلة العلمية لازالة هؤلاء المصابين من حيث هم آباء وأمهات يخلفون ذريات مصابة بعلة من العلل المذكورة ؟

علينا اولاً ان نتبين هل هذه العلة وراثية او مكتسبة . والمسلم بهِ عند جمهرة علماء الحياة ، ان الصفات المكتسبة لا تورّث . ولكن الناس الذين ينخرطون في سلك الفرق الاربعة الاولى هم أناس مصابون في الغالب بعلل مكتسبة . والطائفة الكبرى من هذه العلل تمكن معالجتها ، أما بوسائل الطب ، او باقامة أصحابها في منشآت خاصة بهم . أما فيما يتعلق بالاجرام فيرى الاستاذ داڤنبورت مدير قسم التناسل في معهد كارنيجي بوشنطن العاصمة ، « ان القصاص العاجل المؤلم هو خير علاج للمجرم »

فلا يبقى لدينا الآن فريقان هما الفريق الخامس وهو فريق المصابين بأمراض عقلية والفريق السادس وهو فريق المصابين بضعف عقلي

أما فيما يختصّ بالفريق الاول فيرى الاستاذ ميرسُن Myerson — وهو من الثقات في الموضوع — ان قليلاً من الامراض العقلية الكبرى يورّث ، وعند التخصيص يقول ان مرضين فقط من هذه الامراض تتوارثهُ أسر معينة وهما السرسام[1] والجنون التهيجي الانقباضي والثاني أعمهما . بيد ان هذا لا يمنع حدوث اصابات منعزلة بأحد هذين المرضين ، اي لا صلة لها البتة بما تتوارثه أسرةٌ من الاسرة المصابة ، بل ان الاسر التي تتوارث احد هذين المرضين قليلة الذكر ، في تقارير الاطباء والمعاهد الطبية . . . فكأن المرض العقلي ، كالمرض الجسدي ، اما ان يبيد السلالة التي تصاب بهِ ، او تشفى منهُ شفاءً تامًّا [2]

ويرى لندمن Landman ان اسباب الامراض العقلية لا تزال لغزاً او سرًّا مكنوناً [3] . بل ان پول پوپينو — وهو من دعاة التعقيم — يصرّح بأن تناسل المصابين بالامراض العقلية قليل ، وان معدل زواجهم اقلّ من متوسط الزواج العام . وعلاوة على ذلك يحتاج المصابون بالامراض العقلية الى حفظهم في المستشفيات الخاصة بهم لينالوا العناية اللازمة ، وفي هذه الحالة لا فائدة تجنى من تعقيمهم او لا معنى لهُ على الاطلاق

اما افراد الفريق السادس ، اي المصابون بضعف العقل ، فهم الذين يسترعون عناية اليوجنيين

(١) كان يعرف باسم dementia praecox وصار الآن يعرف باسم schizophrenia (دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ ص ٣٨٦ سطر ١٤ (٢) كتاب سيكولوجية الاضطراب العقلي لميرسن ص ١١٦ — ١١٧ (٣) كتاب « تعقيم الانسان » تأليف لندمن صفحة ١٤٦

بوجهٍ خاص ، واليهم يتّجه التشريع الخاص بالتعقيم . ولكن ما نعلمهُ عن انتقال الضعف العقلي بالوراثة ، ليس اكثر مما نعلمهُ عن انتقال الامراض العقلية بالوراثة . فالاستاذ ميرسُن يرى « ان جانباً كبيراً من الضعف العقلي مردّهُ الى البيئة . ان جانباً منهُ وراثي ولكن اصلهُ مجهول ، وقد يكون مثالاً على انحطاط الذكاءِ كما ان العبقرية مثال على تدرجهِ ارتقاءً ». ويقول ميرسن في جانب آخر من كتابهِ : « لقد كُتبت كتب كثيرة عن ضعف العقل ، ادّعى فيها مؤلفوها ان ضعاف العقول هم المجرمون في البلاد والفاسقون ، وان كثرة تناسلهم تجعل كثرة السكان في المستقبل منهم اذا لم يعالجوا بطريقة او اخرى من الطرق المقترحة .... ولكن خبرتي الطويلة بالامراض الجسدية والعقلية ، اثبتت لي ان الاسر التي يضربون بها المثل على ضعف العقل ليست في الحقيقة ضعيفة العقل . حتى اذا سلّمنا بانها ضعيفة العقل ، فانها ليست نموذجاً على ضعاف العقول . وقد بيّنت في غير هذا المكان الخلط الذي يقع فيهِ بعض الكتّاب بحسبانهم قلة الثقافة من قبيل ضعف العقل »

اما موضوع تناسل ضعاف العقول وكثرة ولدهم فلنرجع فيهِ الى تقرير لجنة التعقيم التي عينتها الحكومة البريطانية «وقد نشر في السنة الماضية» فقد جاءَ فيهِ : ان ما يدعى عن خصب المصابين بضعف العقول هو في رأينا من قبيل الاساطير ، ناتج من ان بعض الشواذ عن القاعدة ، تذاع انباؤها في الصحف لاتصالها بحوادث غريبة تنظر فيها المحاكم. وقد درس لندمن ٦٠٥ حادثة من المصابين بضعف العقل في كاليفورنيا فوجد ان ٣٤ في المائة من الرجال و٢٨ في المائة من النساء كانوا في مستشفيات خاصة بالامراض العقلية فتعقيم هؤلاءِ لا معنى له لانهم لن يخلفوا نسلاً الاَّ اذا كان للتعقيم فائدة في معالجة اصابتهم . فالخوف من ان ضعاف العقول ، يقذفون بعدد من النسل يزيد زيادة نسبية على مواليد الطبقات الاخرى ، لا يستند الى دليل ، ولا يثبت عند توجيه نور العلم الكشاف اليهِ

***

ولكن لنفرض اننا نعلم عن امراض العقل ، وضعف العقل اكثر مما نعرف ، ولنضرب صفحاً عن قول لندمن « .... ان التعقيم الانساني كبرنامج اجتماعي يحتاج الى العلم اكثر من حاجتهِ الى التخيّل » . ولنمرّ مرّ الكرام بكلام هوجن حيث يقول : « يجب ان يعترف بان اكثر ما كتب في اليوجنية في طفولة هذا العلم ، متصف بالتعميم العجول ، والمبالغة في غير احتراس» (1)

دعنا من كل هذا ، ولنفرض اننا نعرف على وجه التحقيق اي الصفات الانسانية مكتسب ، وايها وراثي . فلكي نزيل بعض الصفات الوراثية غير المرغوب فيها ، بالتعقيم ، يجب ان نعرف الاسلوب الذي تنتقل بهِ هذه الصفات بالوراثة

فبعض علماء الحياة يسلمون بنظرية عوامل الوراثة gene theory في تفسير توارث الصفات الانسانية

(1) س. ج. هولز « عقدة اليوجينية » ص ١٣٤٠

ونظرية عوامل الوراثة ، درست درساً عملياً في غير الانسان ، وطبقت عليهِ بالقياس فقط تطبيقاً غير تام . والاستاذ جننغز ينبّه على هذا في كتابه(١)

يقول اصحاب نظرية العوامل الوراثية انهُ اذا اجتمعا عاملان وراثيان لصفة خاصة ، احدهما من الاب والآخر من الام ، وكانا سليمين ، او كان احدهما سليماً ومتفوقاً Dominant ، فالشخص الذي يجتمعان فيهِ يكون سليماً . وكثير من الناس من يحمل في مادته التناسلية ، عاملاً معيناً ، معيباً . ولكن العيب لايبدو عليهِ ، لان العامل الذي يقابلهُ او يزاوجه متفوّق وسليم . ولا يبدو العيب في المولود الاّ اذا اجتمع عامل معيب من الوالد بالعامل المعيب الذي يقابله من الوالدة . فالذين يحملون في اجسامهم العاملين الخاصين بصفةٍ ما وكان احدهما معيباً يدعون « الحوامل » على مثال من يحمل ميكروب التيفود، ولا يصاب بها . والمظنون ان في الولايات المتحدة نحو عشرة ملايين من هؤلاء الناس السّلام الاجسام، الذين يحملون في طيّاتها عوامل وراثية معيبة خاصة بضعف العقل . وليس ثمة وسيلة علمية على الاطلاق لمعرفة هؤلاء الناس وتعقيمهم خوفاً من ان تجتمع عواملهم الوراثية — او بعضها — بما يقابلها في ازواجهم فيلدون ضعاف العقول

ويقول جننغز ايضاً في الصفحة ٢٤٢ من كتابه : « اذا حسبنا ان نسبة ضعاف العقول في الامة كنسبة واحد الى الف ، فاننا نحتاج الى ٥٨ جيلاً او من الفين الى ثلاثة آلاف سنة ، لكي نجعلها ١ في ١٠٠٠٠ اذا نحن اعتمدنا في ذلك على منع تناسل ضعاف العقول » . وسبب ذلك ان ضعف العقل يظلُّ يتوارث عن طريق الذين يحملون احد عوامله الوراثية ، وهؤلاء لا نستطيع تبينهم لكي نمنعهم من التناسل بالتعقيم . ويختم جننغز قوله بأن التقدم في انقاذ البشر من ضعف العقل يحتاج الى امرين، الاول طريقة تتبين بها الذين يحملون عوامل ضعف العقل من سلام الاجسام والثاني تبين اي الصفات الانسانية المتوارثة تنشأ عن زوج واحد فقط من العوامل الوراثية. والصعوبة في هذا ان احوال المعيشة السيئة ، قد تحدث اثراً كأثر العوامل الوراثية المعيبة . فقد يصبح الناس مجانين او مجرمين او مسلولين لعيب في عواملهم الوراثية او لعيب في احوال معيشتهم اولعيب في الاثنين

ولكن اذا فرضنا اننا بلغنا كل هذا ، فان مشكلة القائلين بالتعقيم لا تحلُّ . لأن سؤالاً خطيراً يواجههم، وهو كيف نشأت هذه العوامل المعيبة اولاً . وهل اجسام البشر ماضية في توليد عوامل وراثية معيبة ؟ فعلم الحياة قد اثبت ان اشعة اكس ، وبعض الاشعة تولد في الذبان تحولات في عوامل الوراثة . وليس جميع هذا التحوّل مما يجلب الخير . بل بعضهُ مما يضرُّ . افلا يجوز ان تكون اجسام البشر ماضية في توليد عوامل معيبة ، بفعل طائفة من الاسباب والبواعث المعقدة التي لاندركها ؟ ليس عند علماء الحياة جواب عن هذا السؤال . واذا كانت اجسام البشر ماضية في توليد هذه العوامل، فتعقيم المصابين بها، والحاملين لها ، لا يجدي

(١) الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي

التعريف بالكندي

اسمه واسرته — ولادته ونشأته — سيرته ووفاته

لمحمد متولي

١

الكندي هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصبّاح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس وإلى قيس هذا يتوافق ابن النديم والقفطي وابن ابي اصيبعه [1] في ايراد نسب الكندي واليه ايضاً يمكن أن نطمئن الى روايات هؤلاء لانها ثابتة تاريخيًا كما سترى

وابن النديم والقفطي وابن ابي اصيبعة يقولون عن قيس انهُ ابن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلة ابن عدي ولكن صاعداً يخالفهم فيقول ان معاوية ابن خالد بن علي [2]

وصاعد والقفطي وابن أبي أصيبعة يقولون عدي بن ربيعة بن معاوية الاكبر فيذهب ابن النديم الى زيادة جيلين بين ربيعة ومعاوية الاكبر هما زيد بن الهَمَيْسَع

ثم يقول صاعد وابن أبي اصيبعة ان معاوية الأكبر ابن الحارث الاصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر

ويقولون ان الحارث الاكبر بن معاوية بن ثور بينما يذكر النويري [3] ان كندة وهو ثور قد اعقب من فخذين هما ابناه معاوية وأشرس «والعقب من معاوية هذا من ابنيه مُرَتّع وزيد» [4] يذكر هذا النويري ولكننا لا نجدهم يقولون بزيد حفيداً لثور ولا يقولون بمرتّع

ويروى ان ثور بن مرتع بن كندة بن عُفَيْر بن عديّ بن الحارث بن مرة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ولكن ابن النديم يهمل هذه الاجيال العديدة المذكورة بين معاوية الاكبر وزيد ابي أدد وابن خلدون [5] يروي عن ابن

(١) راجع نسب الكندي في ترجمته في الفهرست ص ٢٥٥ وطبقات الامم ص ٥١ وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٠ وعيون الانباء في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٢) هنالك شبه قوي بين رسم « جبلة بن عدى » ورسم «خالد بن علي » فلعل خطأ ناشر كتاب طبقات الامم أو خطأ ناسخه هو أصل هذا الاختلاف (٣) نهاية الارب في فنون الادب ج ٢ ص ٣١٨ (٤) صاعد والقفطي يذكرانه « مرقع » بالقاف بينما من عداهما يقول « مرتع » بالتاء ونلاحظ ان القفطي نقل بعض رواية صاعد عن الكندي كلمة كلمة (٥) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ٢٧٦

سعيدفيهمل اجيالاً عديدة ايضاً ثم يحدثنا ان يشجب بن عبيدالله بن زيد بن كهلان فيزيد عبيدالله هذا كذلك النويري وابن سعيد الحميري[١] يرويان ان مرتعاً ابن معاوية بن كنده فيزيدان معاوية واذا كان ثور هو اول من لقب بكندة وهو ما يكادون يتفقون في روايته[٢] فكيف يقولون ان مرتعاً ابن كندة مع انه اب لثور

ولو ذهبنا نتقصى نسب فيلسوفنا عند رواة آخرين لما وجدنا عندهم ما ينقع غلة وأحسب فيما قدمت من الروايات المتباينة وفيما رأيت من الفوضى الشائعة ما يجعلنا في حل من الشك في نسب الكندي قبل جده قيس وعلى الاخص ونحن نعلم ان كتب الانساب لا تعتمد على اسانيد تاريخية وانها كتبت في عصور متأخرة

***

على انهُ مهما يكن هذا النسب موضوعاً للروايات المختلفة ومهما يكن الشك فيهِ والحرص في الاخذ به واجبين فنحن نستطيع ان نخرج بقول بيّـن من كل الروايات ذلك هو ان الكندي قد تنقل في اصلاب كندة القبيلة العربية الخالصة

واصل كندة في بلاد اليمن ولكن بطوناً منها نزحت في مناسبات الى امصار اخرى حيث نشأت فروع للقبيلة العريقة فيحدثوننا ان الكندي المصري ابا عمر محمداً بن يوسف بن يعقوب النجيبي المؤرخ ينتسب الى كندة[٣] وان كثيراً من المحدثين الكوفيين والبصريين ينتسبون الى كندة ايضاً[٤] ويحدثوننا كذلك ان بطوناً اخرى قد استقرت في الشام[٥] والاندلس[٦] ولكن يعنينا الآن ان نعرف شيئاً عن اسرة الكندي — كيف كانت وكيف نزحت عن مخاليفها في اليمن ، ثم كيف استقرت وكيف كان حالها بين ربوع العراق ؟

فاذا صدقت الروايات كانت الارستقراطية قوية واضحة في يعقوب الكندي وكان هو عريقاً في نسبه أصيلاً — ذكر الالوسي البغدادي عن ابن الكلبي[٧] ان كسرى سأل النعمان بن المنذر « هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة» ؟ فقال النعمان «نعم» قال « فبأي شيء » ؟ قال «من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال رابع — فالبيت من قبيلته فيهِ وتنسب اليهِ » وتقصوا هذا فلم يجدوه في غير آل حذيفة بن بدر وآل ذي الجدين وآل الاشعث بن قيس الكندي

(١) منتخبات في أخبار اليمن ص ٩٤ — ولعل ابن سعيد الحميري هذا غير ابن سعيد الذي يروي عنه ابن خلدون لان هناك خلافاً بين الروايتين (٢) العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٢٧٦ ومنتخبات في أخبار اليمن لابن سعيد الحميري ص ٩٤ والمختصر في تاريخ البشر لابي الفدا ج ١ ص١٠٣ ونهاية الارب للنويري ج ٢ ص٣١٨ وصبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٨ (٣) كتاب الولاة والقضاة لابي عمر محمد بن يوسف الكندي ص ٦ (من مقدمته الانجليزية بقلم «روفن جست ») (٤) راجع طبقات ابن سعد ج ٢ وجزء ٦ وجزء ٧ (٥) راجع طبقات ابن سعد ج ٣ وجزء ٦ وجزء ٧ (٦) العبر لابن خلدون ج٢ ص ٢٧٦ (٧) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ١ ص ٢٨١

والأُشعث بن قيس كان ملكاً على جميع كندة وكان ابوهُ من قبل ملكاً عليها ايضاً وكان معدي كرب بن معاوية جد قيس ملكاً على بني الحارث الاصغر في حضرموت وكذلك كان معاوية ابو معدي كرب ملكاً في حضرموت ثم معاوية بن الحارث الاكبر والحارث الاكبر هذا وابوه ثور كل هؤلاء وهم اجداد قيس كانوا ملوكاً على معدّ في المشقر واليمامة والبحرين (١)

وسطع نور الاسلام فتهافتت عليهِ القلوب ووفد الناس جماعات على النبي يطلبون عنده الحق والهدى وكان ممن توجه اليهِ وفد كندة يقدمه الاشعث بن قيس وحظى ابناء كندة بلقاء النبي في السنة الهجرية العاشرة واسلموا جميعاً وتزوج الاشعث من أم فروة اخت ابي بكر واخّرها الى ان يعود ثم رجع واصحابه الى دياره متزودين بدينهم الجديد

ولما مات النبي ارتدّ ناس عن الاسلام وكان الاشعث من المرتدين تخلصاً من فريضة الزكاة فسيّر ابو بكر الجنود اليهِ وغلبهُ على امره فجيء بهِ الى المدينة موثوق الكتاف وسأل ابو بكر هل يقتله فقال « يا ابا بكر احتسب فيَّ واقلني واقبل اسلامي وردّ عليَّ زوجتي » وهذا ما كان فقد قبل ابو بكر اسلامه واطلقه وردَّ عليهِ زوجته (٢)

وبعد ذلك اصبح الأشعث جنديًّا في صفوف المسلمين فقاتل الروم على نهر اليرموك وقاتل الفرس في القادسية وكان عاملاً لعثمان على ارمينيا واذربيجان (٣) ثم كان تابعاً لعليّ واشترك في موقعة صفين ويقال ان الحسن بن علي تزوج من احدى بناته ولقد سكن الكوفة ومات هناك (٤) وخلف من أم فروة ولداً اسمهُ محمد ونجد محمداً بن الاشعث هذا رئيساً للشرطة في الكوفة يعمل مع واليها عبيد الله الذي انتصر ليزيد الاموي على الحسين بن علي مما يدل على انهُ قد خرج على ولاء ابيهِ لبيت علي ثم نجده ثائراً في وجه المختار في الكوفة ففارًّا الى البصرة وبعد هذا نجده قتيلاً في موقعة حروراء بالقرب من الكوفة سنة ٦٢ هـ (٥) وكان لمحمد بن الاشعث ولد اسمه عبد الرحمن بعثه الحجاج لقتال الثائرين في سجستان فسار اليهم على رأس جيش من الكوفيين والبصريين ولكنهُ صالح الثائرين فعزلهُ الحجاج فاتفق مع رؤساء جيشه وخرجوا عليهِ فجرد الحجاج جيشاً قاتله به فانتصر عبد الرحمن ونزل البصرة فبايعه اهلها سنة ٨١ هـ

ولكن الحجاج استعان بالامداد ورجع الى حرب ابن الاشعث ودام القتال بينهما حتى تغلب الحجاج سنة ٨٣ هـ ففر عبد الرحمن الى سجستان حيث مات فقيل مات بالسل وقيل منتحراً (٦)

ونحن وان كنا لا نعرف الصلة — على التحقيق — بين عبد الرحمن بن الاشعث وبين يعقوب

(١) صاعد والقفطي وابن أبي اصيبعة (٢) العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٥٦ (٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٧٠ ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٢٩٤ (٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٣

(٥) Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes, Bd. I No. 2 (Al-Kindi, von Dr. G. Flugel, 3. 4.)

(٦) مختصر تاريخ البصرة لعلي ظريف الاعظمي ص ٥١ والعبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥٢ وج ٤ ص ١٣٨

الكندي الاّ ان الغالب ان عبد الرحمن اخو اسماعيل بن محمد الاشعث الجد الثالث لفيلسوفنا واذا حاولنا ان نعرف شيئاً عن الجد الثالث او عن ابنهِ عمران فانهُ يخيل اليَّ بعد بحثي اننا لم نظفر بشيء ولكن لا يسعنا الاّ ان نسلم بوجودهما لانهما يكملان سلسلة الاجيال فيوصلاننا الى الصبّاح الجد الاول للكندي ونحن لا نعلم ايضاً من امر الصباح اكثر من انهُ كان ولي الولايات لبني هاشم [1]

اما اسحاق ابو يعقوب الكندي فقد ولّي الكوفة للمهدي والرشيد وكانت ولايته منذ سنة ١٥٩ هـ ولا ندري هل بقي على الكوفة طيلة عهدي هذين الخليفتين ام انهُ كان يتركها في آنٍ ثم يعود اليها في آنٍ آخر لان هذا موضوع خلاف في الروايات التي لدينا وبعض هذه الروايات غامضة [2] وعلى اي حالٍ فاكبر الظن ان ولايته كانت ولاية استكفاء [3] لان الطبري يحدثنا انهُ ولّى النعمان بن جعفر الكندي شرطة الكوفة وولى بعده اخاه يزيد بن جعفر وهذا يدل على ان اسحاق كان موضع ثقة المهدي والرشيد او محل عنايتهما

— ٢ —

والآن وقد مررنا بهذه الاجيال السحيقة الطويلة حتى اشرفنا على يعقوب الكندي فلنحاول ان نعرف عنهُ شيئاً واذا كنا لا نجد ما يغني في اخباره القليلة المنثورة المشوّهة المتكررة فانهُ يمكن ان نستخلص له صورة لها حظ مرضي من جمال الحقيقة

ولقد يكون حسناً ان نتعرف بالكندي في ادوار حياتهِ فنسأل ما مولده وما ميلاده

اما مولده فنقرأ مرة انهُ الكوفة [4] ونقرأ اخرى انهُ البصرة [5] ويقول « كارا ده فو » هو الكوفة او البصرة [6] ولست ادري كيف استطاع الرواة — وكلهم محدثون — ان يعينوا مكان ولادة الكندي ولا ادري كيف استباحوا ان يذكروه مطمئنين مع انا لا نجد القدماء يحدّثوننا بشيء عنهُ يخيَّل اليَّ ان « فنديك » قال ان الكندي ولد في البصرة لان ابن ابي اصيبعة والقفطي رويا — عن ابن جلجل — انهُ كان شريف الاصل بصريًّا . ويخيل اليّ ان الزركلي [7] لم يقل انهُ نشأ في البصرة الاّ لهذا السبب ايضاً . ولا اعرف كيف قدر « بوير » وغيره ان الكوفة كانت مولده ولكن في رواية ابن ابي اصيبعة والقفطي — عن ابن جلجل — شيئاً آخر يستحق التأمل قالا « وكان جده ولّي الولايات لبني هاشم ونزل البصرة وضيعته هناك وانتقل الى بغداد وهنالك تأدب وكان عالماً بالطب والفلسفة » . فهذه الرواية مهما تكن مبهمة فان لها منطقها الذي يدل على ان الكندي

---

(١) ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٢) العبر لابن خلدون ج٣ ص ٣٠٧ و٢١٢ وتاريخ الطبري ج ١ في اخبار سنتي ١٥٩و١٦٠و ج١١ في ذكر ولاة الامصار ايام هارون الرشيد (٣) ولاية الاستكفاء هي التي يفوض الخليفة الامر فيها للوالي فيعين عماله كما يشاء ويكون عام النظر في شئونها (عن جرجي زيدان)
(٤) T. J. De Boer, The History of Philosophy in Islam p. 51 & The Encyc. Britannica, vol. 31 p. 385 (٥) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع لفنديك ص ١٨٢
(٦) Les Penseurs de L'Islam, Vol. 4, p. 3. (٧) قاموس الاعلام ج٣ ص١١٦٧

« نزل البصرة » والمرء لايمكن ان يكون نزيلاً في مولده ومتى بطل انه ولد في البصرة فقد صح انهُ ولد في الكوفة . ويزيدنا ثقة بهذا الرأي ان أبا الكندي كان عاملاً في الكوفة ما يقرب من عشرين عاماً وهو بلا شك لم يُوَلَّ عملاً قبل ان يبلغ الرجولة فيحتمل كثيراً ان يكون قد رزق بالكندي هناك

وأما ميلاده فقد يزيد على مولده غموضاً فلا نعثر عليه عند أحد ولا نعثر حتى على تقديره ونحن بدورنا لا نستطيع ان نقول عنهُ الاَّ انهُ كان بين سنتي ١٥٩ هـ و ١٩٣ هـ وهي الفترة التي قدرنا ان اسحاق أباه كان فيها عاملاً وواليًا على الكوفة وانه كان حول سنة ١٧٠ هـ اذا صحَّ ان فيلسوف العرب كان من المعمرين كما سترى

***

وبعد ذلك كيف نشأ الكندي ؟

هناك مسألة كنت أحب ألاَّ أتعرض لها على الرغم من ان اكثر من واحد ذكرها فلو أنك قرأت بعد الذي قدمته ان الكندي كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ألا يشدهك هذا الكلام ؟

زعم ڤنديك[١] ان الكندي كان نصرانيًّا وقال ظهير الدين البيهقي[٢] ونقل عنه الشهزوري[٣] أنهُ كان يهوديًّا او نصرانيًّا ثم أسلم وتشكك « سلڤستر ده سامي »[٤] في كون دينه الاسلام وكثيرون غير هؤلاء شكوا — أيضاً — في انهُ كان مسلماً او ادَّعوا انهُ لم يكن كذلك

وفي زعم ڤنديك ان تناظراً جرى بين الكندي وعبد الله بن اسماعيل الهاشمي الامير المسلم فكتب عبد الله رسالة الى الكندي يدعوه بها الى الاسلام فردَّ عليهِ هذا يدافع عن المسيحية والواقع ان عبد الله قد ناظر كنديًّا آخر هو عبد المسيح بن اسحاق النصراني الذي كان في بلاط المأمون حول سنة ٢٠٤ هـ[٥]

ورواية البيهقي التي نقلها الشهزوري ليس فيها مايستحق العناية بل هي خبر أرسله صاحبه ارسالاً

ولكن ده سامي يقول اولاً انهُ ليس بين مؤلفات الكندي العديدة واحد يتصل بالاسلام ويقول ثانياً ان الكندي كان يعرف الاغريقية او السريانية وانهُ كان مترجماً معروفاً بينما كان اكثر المترجمين اذ ذاك من المسيحيين ثم يشير ثالثاً الى مخطوط في المكتبة الامبراطورية ويقول ان في هذا المخطوط دفاعاً عن المسيحية وانه مكتوب باللغة العربية ولكن بخطٍّ سرياني واسم مؤلفه يعقوب الكندي

ويظهر ان ده ساسي يعتمد على عقله اكثر من اعتماده على علمه فللكندي رسالة «في ملك العرب وكميته » تدل قضاياها على دراسة صاحبها للقرآن ويدل كلامها على ان مؤلفها مسلم لانهُ يلتزم آداب المسلمين كلما تحدثوا عن مقام نبيهم الرفيع

---

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ١٨٢ (٢) تاريخ الحكماء مخطوط بدار الكتب المصرية) ص١٨

(٣) نزهة الارواح وروضة الافراح (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) ص١٨٣

(٤) Relation de l'Egypte (Notes) p. 487 et 488

(٥) The Encycl. of Islam vol. II. p. 1021 ومعجم للطبوعات ليوسف سركيس ص ١٥٧١

وله رسالة « في اثبات النبوة » واخرى « في علة النوم والرؤيا » ولم يعالج هذين الموضوعين في ذلك الوقت غير المسلمين فيما اعلم . على انهُ ان لم يكن بين مؤلفاته ما يتصل بالاسلام مباشرة فليس فيها ايضاً ما يتصل بغيره من الاديان او بمعنى أدق ما يدل على انهُ لم يكن مسلماً واذا كانت كثرة المترجمين في عهد الكندي مسيحية فما الذي يمنع ان يكون هو من القلة المسلمة وفي النهاية يرد ده ساسي على اعتراضه الثالث فيقرر انهُ ربما كان صاحب مخطوط المكتبة الامبراطورية كندياً آخر لان في مقدمته ان مؤلفه من حاشية المأمون وانهُ مسيحي من كندة ولأن عنوان المخطوط هو « كتاب الكندي اليعقوبي » . وفي فهرست الكتاب السريانيين لعبد يسوع كاتب اسمه الكندي له مؤلف ديني وهذا الكندي عاش حول ٢٨٠ هـ ولا يحتمل ان يكون يعقوب الكندي قد عاش الى ذلك الوقت

ونحن لا يسعنا بعد الذي علمناه عن أسرة الكندي وبعد ان أظهرنا ان أصل الشبهة في أمر دينه كانت لمشابهة اسمه لاسم عبد المسيح بن اسحاق الكندي نحن لا يسعنا بعد هذا الاّ ان نترك قنديك وشأنه هو وأصحابه لنتعرف أين تعلم الكندي ؟ ومن هم أساتذته ؟ وما هي علومهم التي أخذها عنهم ؟

فاذا اخذنا بأنهُ نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد فانهُ يكون قد تعلم فيهما ونحن لا نعرف شيئاً عن نشأته او تعليمه ولكننا نقدر انهما لم يختلفا عن نشأة ابناء المسلمين في ذلك الزمان الذين كانوا يدرسون القرآن ويطلبون العلوم الدينية في صحون الدور وفي حلقات الجوامع فبعد ان حصل قسطاً من هذه الدراسة العادية قصد الى بغداد حيث كانت الحركة العلمية أبهر منها في البصرة عند ما اتسع نطاق الترجمة واشتد المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم . ولقد ساهم الكندي في هذه الحركات الفكرية فترجم ولخّص وشرح وألّف رسائل في الفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى وغيرها

ويمكن ان نقسم أساتذة الكندي الى طائفتين فالطائفة الاولى تتكوّن من اولئك الشيوخ الذين لقنوه القراءة والكتابة ودرس عليهم القرآن وعلوم الدين والكلام ونحن لا نجد سبيلاً الى معرفة أحد من هذه الطائفة اللهمّ الاّ ان نرجح اتصاله بعلماء العراق الذين عاصروه ونذكرهم واحداً واحداً . والطائفة الثانية تتكوّن من اصحاب الكتب التي عرفها العرب حينئذ بعد ان ترجمت او لخصت عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية واصحاب هذه الكتب هم أساتذته الحقيقيون الذين كوّنوه وتميزت شخصيته بطابعهم اكثر من غيرهم واذن فلا بأس من ان نقول ان الكندي تلميذ أرسطو وافلاطون وفيثاغورس وافلوطينوس وبطلميوس ومن اليهم بل نحن نقول هذا مهما يكن قد أساء فهم قراءتهم او قراءة ترجماتهم ومؤلفاته التي وصلنا خبرها ومؤلفاته التي بين أيدينا تدل جميعها على هذا في صراحة ووضوح

أما العلوم التي درسها فيلسوف العرب فقد أصبح لغواً ان نذكرها بعد الذي علمناه من أمر أساتذته وبعد ما ندريه من أنحاء البحث التي سعد هؤلاء بمعاناتها انما نذكر انهُ بلغ غايتهُ من الدرس في ظلال بيت الحكمة

— ٣ —

وفيما نجده من أخبار الكندي نجد انهُ كان حلو الحديث . فالجاحظ[١] يذكر ان سكان بيته كانوا يغفرون له مضايقاته لطيبته « وحسن حديثه » والبيهقي يذكر ايضاً انهُ قال « من لم يتبسط بحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك »

ونجد كذلك في أخباره انهُ كان ينزع نزعة الحكماء فيقول « ان النظر في كتب الحكمة اعتياد النفوس الناطقة » ويقول ان افلاطون قد شبّه الشهوة بالخنزير والقوة الغضبية بالكلب والقوة العقلية بالملك « فمن غلبت عليهِ الشهوة فهو خنزير ومن غلب عليهِ الغضب فهو كلب ومن غلب عليه العقل فهو ملك . . . » واذا كان ملكاً كان قريب النسبة الى الله تعالى . والحكمة والخير والقدرة والعدل والكرم والاحسان من صفات الله « والانسان لا يكون ذا فضل الاَّ بأن تكون هذه الفضائل له وحلّي فيه وحاصلة لديه وغالبة عليه »[٢]

وأحسبه كان يعتد بعقله ويحرص عليه فيقول « لو أفسد احد أحسن اعضائه كان مذموماً وأشرف الاعضاء الدماغ ومنه الحس والحركة وسائر الافعال الشريفة ومستعملو السكر يدخلون الفساد على أدمغتهم ومتى توالى السكر على بدن مرض دماغه واشتد ضعفه وبعد عن القوة الممدّة للافعال الارادية والنفسانية[٣] » وأبو معشر يذكر ان استاذه الكندي لم يشرب الخمر الاَّ أياماً ليداوي بها علة في ركبته ثم يذكر انهُ تركها واصطنع شراب العسل[٤]

وبينما نحن ننعم بهذه السيرة الحميدة يطالعنا القفطي[٥] بأنهُ كان للكندي جار من التجار وكانت الصلة بينهما متوترة ومرض ابن التاجر فطوّف البلدان يستركب الاطباء لولده فلم ينفعوه واخيراً قال له أحدهم « انت في جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلة فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب » فاضطر التاجر ان يستشفع الى الكندي بصاحب له « فثقل عليه في الحضور فأجاب» .بهذا يطالعنا القفطي فيفسد انسجام تلك المعاني الجميلة في نفوسنا ويدعنا نفكر شاخصين... ولكن سرعان ما نستعيد رفاءنا بقول ابن ابي أصيبعة[٦] ان الكندي قال « وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر فليس عن الانفس عوض. وكما يجب ان يقال انهُ كان سبب عافية العليل وبرئه . كذلك فليحذر ان يقال انهُ كان سبب تلفه وموته »

---

(١) كتاب البخلاء ص ٨٤ (٢) نزهة الارواح للشهزوري (٣) نزهة الارواح للشهزوري
(٤) و (٥) راجع ترجمة الكندي في تاريخ الحكماء للقفطي ص٢٤٦ (٦) راجع ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج١ ص٢٠٦

وهل يمكن ان نصدق حكاية القفطي بعد الذي رواه ابن ابي أصيبعة ! ؟ ان الكندي ليفهم واجب الطبيب في القرن التاسع على وجه لا يتسامى اليهِ طبيب القرن العشرين فلا يمكن الاَّ ان ننكر ما حكاه القفطي عن استثقاله في عيادة ابن جاره

ولكن الجاحظ يحدثنا بأن الكندي كان « لا يزال يقول للساكن وربما قال للجار ان في الدار امرأة بها حمل والوَحْمَى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة او لعقة فان النفس يردها اليسير » ويقول انهُ كان في شرط الكندي على السكان « ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونَشْوَار العلوفة والاَّ يخرجوا عظماً ولا يخرجوا كُسَاحة وان يكون له نوى التمر وقشور الرمان ...» ويذهب الجاحظ يقص علينا اخباراً اخرى كثيرة عن بخل الكندي وأنا إذ اقرأ هذه الاخبار لا أجد فيها الاَّ نوعاً من الأدب الانشائي الرائع فهذه الصورة العجيبة لا أظنها تمثل حقيقة من حقائق الحياة بل أخالها صورة رمزية صنعها الجاحظ الاديب واذا كنت قرأت عنده « قصة الكندي » كلها فأنت لا شك قد رأيت فيها صنعة القصَّاص ظاهرة

وقد تكون لحديث الجاحظ قيمة ما ، بعد ان وصف ابن النديم [1] الكندي بالبخل وبعد ما روى ابن ابي اصيبعة [2] — عن ابن بختويه — ان الكندي قال في وصية لابنه « . . . وقول لا يصرف البلا وقول نعم يزيل النعم وسماع الغناء بَرْسَام حادّ لان الانسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت والدينار محموم فان صرفته مات والدرهم محبوس فان أخرجته فرّ والناس سخرة فخذ شيأهم واحفظ شيأك ... » اقول قد تكون بعد هذا قيمة لحديث الجاحظ لانهُ يشف عن حرص على المال والرجل القوي الخلق قد يحرص على المال ليصون بهِ كرامته في هذه الحياة الدنيا أما ذلك البخل المزري الذي يصفه فلا يمكن ان يصدق على الكندي الناشيء في حجر أبيه والي الكوفة وفي ظل أسرته البارزة في السياسة الاسلامية منذ صدر الاسلام والذي يروى عنه انه كان يترجم الكتب ولا يرتزق بالترجمة [3] والذي اتصل بالمأمون ثم بالمعتصم فاختاره هذا لتأديب ابنه الأمير احمد

***

على اننا لا نعرف متى انطفأ سراج الكندي فنحدد نصيب مدينة السلام من فضله لان الروايات في تاريخ وفاته لا تقل اضطراباً عنها في ميلاده فبينا يذكر ده ساسي ان « سيرجنل » يحدد وفاة الكندي سنة ٢٦٧ هـ نجد « أوليرى » [4] يقول بأنها كانت حول سنة ٢٦٠ هـ و « كارا ده ڤو » يرجح أنها

---

(١) راجع ترجمة الكندي في فهرست ابن النديم ص ٢٥٥ (٢) راجع ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ص ٢١٢

(٤) De Lacy O'Leary, Arabic Thought and its Place in History, The article on al-Kindi

حول هذه السنة. ونجد « بوير » يستنتج من احدى رسائل الكندي الفلكية أنهُ عاش حتى سنة ٢٥٧ هـ ثم نجد « ماسينيون » يقول انهُ توفى حول سنة ٢٤٦ هـ [١]

أما سيرجنل فليست لروايته قيمة عندنا لانها لا تستند الى مصدر معين نستطيع ان نقدره ولا نعثر في روايتي اوليرى وكارا ده فو على القياس الذي مهد لها فيهما من تقدير واستنتاج فلا يسعنا الاَّ ان نتركهما

وأما « بوير » فيشير الى رسالة في الفلك للكندي ويذكر انهُ بنى عليها نتيجته واذا كان لم يعين هـذه الرسالة فنحن نستطيع ان نقرر انها « في ملك العرب وكميته » اعتماداً على وصف « بوير » لها واعتماداً على علمنا بما بقي للكندي من الرسائل الفلكية . وفي هذه الرسالة ما يدلُّ على ان الكندي كان يعيش حين فتنة الخليفة المستعين اي سنة ٢٥١ هـ بخلاف ما فهمه بوير وهذا لان موضوع الرسالة هو الاستدلال على الحوادث باقترانات الكواكب فلما كان دور سنة ٢٤٢ هـ عين فيه الكندي فتنة المستعين ووصف حوادث اخرى لم يعينها ثم استمرَّ يذكر ادوار الاقترانات التالية ويصف حوادثها دون ان يعين شيئاً منها على غير عادته في الادوار التي سبقت دور سنة ٢٤٢ هـ مما يدلُّ على انهُ كتب رسالته بعد ان شاهد فتنة المستعين ويدل على ان هذه الفتنة هي آخر الحوادث الجسام التي وقعت في إبان حياته وبهذا ينهار قول ماسينيون بأن الكندي توفى حول سنة ٢٤٦ هـ ويزيده انهياراً ما نقرأه في ابن النديم عن كتاب في مذاهب اهل الهند نسخه الكندي بيده سنة ٢٤٩ هـ [٢]

ولكن كون الكندي قد عاش حتى سنة ٢٥١ هـ لا يحدد وفاته بل يتركنا للتقدير والترجيح فاذا كان حقّاً ان نفطويه النحوي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ تلميذه فهو من المعمرين ورسالته في اعتذاره في موته دون كماله سني الطبيعة التي هي مائة وعشرون سنة التي يذكرها ابن ابي اصيبعة هذه الرسالة تكون صحيحة الدلالة على تعميره غير ان هذا بعيد لانهُ يمكن ان يكون كتب رسالته معتذراً وهو يموت في اية سن ولو كان قد عاش الى ما قبيل السنة المائة والعشرين من عمره لكان قد عاصر الفارابي مما لم يكن منهُ شيء

واذن فليس لنا ان نقول الاَّ ان الكندي مات بعد سنة ٢٥١ هـ ولو نذكر اننا رجَّحنا ان ميلاده كان حول سنة ١٧٠ هـ ونذكر انهُ كان يترجم للمأمون ويؤدب احمد بن المعتصم بين سنة ١٩٨ هـ و ٢٢٧ هـ مما يثبت انهُ كان عالماً ناضجاً في هذه الفترة ولو نأخذ بأنهُ كان من المعمرين اقول لو نأخذ بهذا ونذكر ذلك ثم نتجاوز في التقدير فلن نستطيع ان نقول الاَّ انهُ كان يعيش سنة ٢٥١ هـ ومات بعدها بقليل

(1) Louis Massignon, Receuil de Textes Inédits concernant l'histoire de la Mystique on pays d'Islam, p. 175.

(٢) فهرست ابن النديم ص ٣٤٥

قدم القطن بوادي النيل

للدكتور حسن كمال

معلوم ان القطن هو اهم المحاصيل الزراعية في القطر المصري، والفضل في انتشار زراعته بالشكل الحالي يرجع الى والي مصر المغفور لهُ محمد علي باشا مؤسس الاسرة الملكية ، اما مسألة قدمه في وادي النيل فلا تزال عقدة العقد : وقد نشرت مجلة العاديات المصرية اخيراً (مجلد ٢ ص ٥) مقالاً للمرحوم الاستاذ جريفث والمستر ج . م . كروفوت لخصا فيهِ الحقائق المتعلقة بتاريخ القطن القديم بوادي النيل وشفعا ذلك بنتائج المباحث الحديثة في المنسوجات القديمة التي كشفت في ذلك الوادي . ولما كان هذا الموضوع العلمي الخطير مما يهم مصر رأيت ان ألخصهُ فيما يلي : —

اخبرنا هيردوتوس ان ملابس قدماء المصريين كانت تصنع من الكتان الابيض . وهي حقيقة واضحة في رسوم هؤلاء القوم . اما الأغطية (كالشيلان والبطانيات) فكانت تصنع من الصوف الابيض . واعتاد القوم عدم ادخال الانسجة الصوفية في المعابد او استعمالها في الدفن . واول من ذكر اسم القطن مستعملاً بين كهنة مصر القديمة هو بلنيوس (جزء ١٨) حيث ذكرهُ باسم gossipion ثم قال : ان هذا النبات وقتئذٍ (القرن الاول ب . م .) كان يزرع في الصعيد بالقرب من بلاد العرب . اما هيردوتوس (ج ٣ — ٤٧) (في القرن الخامس ق . م .) فقد ذكر ان الملك أمازيس الذي توفي عام ٥٢٥ ق . م . اهدى لباسين مصنوعين من الكتان والقطن الى (ساموس) و (ليندوس) . وبالرغم من هذا كله فان الأثريين لم يتمكنوا قط من العثور على أقمشة قطنية فرعونية حتى العصور الاخيرة . ويقول البعض ان اللغة القبطية لا تحوي الفاظاً ثابتة لهذا النبات ولا لمصنوعاته . وفي السنين الاخيرة اكتشف الاستاذ ريزنر في جهة مروة بالسودان بعض منسوجات (يرجع تاريخها الى العهد المروي ويقابله العهد الروماني بمصر) فحصها بعض الخبراء وقرروا أنها مصنوعة من القطن . وهذا الاكتشاف شجع الاستاذ جريفث ان يبحث في المادة المصنوعة منها بعض المنسوجات التي عثر عليها في جهة كارانوج (بالقرب من أبريم) وحفظت طائفة كبيرة منها بجامعة بنسلفانيا بفلادلفيا . ولما عُيِّن المستر جان الذي كان امين المتحف بالقاهرة مديراً لمتحف بنسلفانيا المذكور ارسل بعض القطع من هذه المنسوجات القديمة (التي عثر فيها سابقاً على خيوط القطن) الى معهد القطن المسمى باسم شيرلي Shirley بالقرب من مانشستر حيث قام بفحصها الدكتور ترنر Turner وكان قد سبق لهُ فحص المنسوجات الهندية القديمة . وفي ٥ ابريل عام ١٩٣٣ اثبت هذا المعهد ان هذه المنسوجات مصنوعة من القطن البري كالمعروف باسم Gossipium arboreum Soudanensis . ثم ارسل المعهد المذكور بعد ذلك خطاباً بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩٣٣ الى المستر جان قال له فيهِ ان النماذج المذكورة فحصت جميعها بالمكروسكوب وقيست اقطار خيوطها

والسير (جورج وط) صاحب الفضل في تقسيم شجيرات القطن الى عدة انواع (راجع مباحثهُ في سنة ١٩٠٧ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧) وفي اظهار الفروق العديدة والدقيقة بين كل نوع وآخر مما يشهد لهُ بالصبر

والعلم والكفاءة. ولا يغيب عن البال ان تجارة البحر الاحمر كانت راقية في العهد الروماني وان القطن لا يبعد ان يكون قد وصل وادي النيل من الهند عن هذا الطريق. لكن المباحث والمكتشفات الحديثة تشير بما يقرب من التأكيد الى وجود نوع من القطن سوداني الموطن كان يستعمل للنسيج في مصر والنوبة

وهناك دليلان آخران على وجود القطن ومكانتهِ في النوبة في الازمنة الغابرة. الاول خاص بالغارة التي شنها اهالي اكسوم على مروة وابادوا فيها سلطة الاخيرة فقد جاءَ فيها ان الجيش المنتصر اتلف تماثيل معبودات مروة ومخازنهم القمحية والقطنية والقى بها في النهر. وا كسوم في الحبشة. والقطن هناك لا يزال يطلق عليهِ اسم (دود) وهذا اللفظ بعينه هو الوارد في القصة التاريخية القديمة السالفة الذكر التي يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٠ ب.م. اما الدليل التاريخي الثاني فخاص باغارة شمس الدولة أخي صلاح الدين الايوبي على قلعة ابريم عام ١١٧٣ ب. م. في عهد حكومة الغزّ والترك. وقد اسر كثيرين من النوبيين وقتئذٍ ووجد هناك مقداراً من القطن اخذه معهُ الى قوص (ابو صالح)

وهنا يحق لنا ان نسأل عن السبب في وجود القطن المذكور بتلك الحصون. هل كان هناك بقصد غزله ونسجه او لاستعماله في اعمال الوقاية او انهُ كان ضمن المواد التي استولى عليها جنود تلك الحصون اثناء اغارتهم على بلاد النوبة المجاورة؟ وفي عام ١٩١١ ظنَّ المستر (كروفوت) ان من اسباب ثروة مملكة مروة تجارتها في القطن وفي عام ١٩٢٢ — ٢٣ قام الاستاذ ريزنر بحفائر في الجبانة الغربية لمروة وهناك وجد في القبور المتأخرة من العهد المروي (٣٠٠ ق.م — ٣٠٠ ب.م) شيئاً عظيم القدر عند الباحثين والمدققين في تقدم السودان الحديث ألا وهو كثرة استعمال القطن وقتئذ في منسوجات الاهالي» (راجع تقرير الدكتور ريزنر). وقد قامت المسز (كروفوت) بمباحث دقيقة في نسيج هذه المنسوجات وذلك لخبرتها الكبيرة بمصنوعات تلك الجهات. فقالت ما ترجمتهُ «زرت انا وزوجي حفائر تلك السنة بالسودان ورأينا المنسوجات المذكورة فوجدناها سوداء اللون متفحمة وهشَّة للغاية. فتبادر للذهن فحصها بالميكرسكوب وارسلت لذلك نموذجاً الى مدينة الخرطوم. وهناك قام بفحصها المستر (مامي) في مزرعة المباحث الواقعة في شمباط ووجدها مصنوعة من القطن. واستنتج من مباحثه ان القطن المذكور هو من النوع الذي ينمو في البلاد الحارة ذات الطقس الجاف مما يشير الى زراعته في السودان — لكن هذا لا يمنع امكان زراعته في مثل هذه البقاع في الهند والقطن المستعمل في السودان هو من النوع البري او تحت البري الذي يشبه في خواصه القطن الاسيوي اكثر من القطن الاميركي. وعلى ذلك فالقطن الذي نسجت منه المنسوجات المروية المذكورة يكون قد زرع اما في النوبة او استورد من الهند. والمنسوجات المذكورة بعضها املس والبعض الآخر بوبر (كالفوط والبشاكير) وهذه الاخيرة محلاة اطرافها «بالشراريب» كما هي العادة الآن. ويلي ذلك وصف مطول لكيفية نسيج هذه المنسوجات وتعداد خيوطها في السنتمتر المربع وطريقة جعل الوبر فيها، مما يهم اصحاب الغزل والنسج. والرأي الراجح للآن ان القطن المذكور انما زرع ونسج في السودان (مروة) وانهُ لم يستحضر من الهند

معجزات الاغذية الكيمائية

أحدث المباحث في انواع الفيتامين

بتصرف عن مجلة العلم العام : ترجمها عوض جندي

أتمَّ حديثاً عالم نيويوركي بحثاً دام عشرين سنة في أصناف الفيتامين حتى ظفر ببغيته ، فشوهد رافعاً بيمناه كتلة من بلورات بيض هي احد اصناف الفيتامين الصناعي المبلورة . ونعني بهذا العالم المستر (روبرت ر . ويليمز Robert R. Williams) قطب دائرة المباحث الكيمائية في شركة بل التليفونية . وبالبلورات الكيمائية التي فاز بها ، فيتاميناً غذائيًّا متجمداً ، ذا خصائص مدهشة . وقد جربت هذه البلورات في جامعة كولومبيا ، فأذيب جزءٌ منها في الماء ثم شربت منهُ الجرذان البيض التي تمرح في حظائرها . فنمت نموًّا حثيثاً . ويرى المستنبط ان هذا الفيتامين اذا ما مزج بغذاء الاطفال المقرقمين ، اصبحوا عمالقة طوال النجاد ! !

بل قد ثبت ان الفيتامين المكتشف المشار اليهِ غذاءٌ مقوٍّ للاعصاب ، ناجع في علاج التهاباتها وآلامها شافٍ لداء (البري بري) الذي يدهم الاعصاب والقلب في الذين يغتذون بالارز المقشور .

بدأ المستنبط بحثه من عشرين سنة ، كما تقدم القول ، في كوخ من الخيزران في احدى جزائر الفيلبيين حيث شاهد طفلاً مشرفاً على الموت بداء البري بري فأنقذهُ من الهلاك بقطرات قليلة من خلاصة الارز . ومن ثمَّ لم يأل جهداً في السنوات العشرين الماضية في استخلاص ذلك الفيتامين المحيي ، من قشور الارز ، ثم تجميده وصنع مقادير منهُ للعلاج . فجرَّب تجارب شتى في اثناء بحثهِ وجاب نصف الكرة الارضية باحثاً عن ضالتهِ

أضاف الطين الاصواني Fuller's earth[1] الى خلاصة استخلصها من قشور الارز . واطلق على الفيتامين الذي استخلصه بهذه الوسيلة فيتامين B ردف (١) Sub . ذلك ان جزيئات الفيتامين تلتصق بدقائق الطين الاصواني (كما يلتصق الذباب بالورق اللزج المستعمل لصيده) وتبقى لاصقة بهِ في المحلول . حتى كان استخلاصها منها أصعب معضلة عرضت له . فتوسل الى تنقيتها بمئات الوسائل . فأخفق حتى عثر على ضرب من الكينا فصبَّه على المزيج ، فما عتمت ان امتزجت بالسائل حتى طردت جزيئات الفيتامين من حبات الطين الاصواني وحلَّت محلها ، فانطلقت وطفت على المحلول : وبعد ذلك سهل عليهِ تكثيفها وبلورتها

ويلزم لاستخلاص أوقية واحدة من الفيتامين المكثف ، استعمال مقدار كبير جدًّا من قشور الارز

(١) مادة خزفية يتذرع بها الى ترشيح الزيوت

يتفاوت من خمسة اطنان الى عشرة اطنان منها . ومن ست سنوات تمكن كيماويان هولنديان من استفراد الفيتامين B ردف (١) بيد ان وسائلهما لم تستخلص اكثر من نُتدَف قليلة من تلك المادة الثمينة . اما طريقة ويليمز فيسهل بها صنع مقادير كبيرة منهُ قد يكون لها شأن جليل في نتج اطعمة طريفة في المستقبل

ان مطامح جمهور من البحَّاث موجهة الى صنع اطعمة جديدة واغذية محسنة أنقى واكثر تغذية من المأكولات المألوفة . وذلك الفريق بمثابة جيش علمي لا يدَّخر وسعاً ، في استحداث الاغذية اللازمة للناس . وقد تمكن من صنع علب لحفظ الاغذية واختراع وسائل لرزمها أصلح من الوسائل القديمة، واستنبط مقاييس بديعة تدل على مبلغ حداثتها وما تحويه من العناصر المغذية. بل اغرب من ذلك مسحوق يذرُّ على ماء ساخن فيصبح حساءً . وندف بنّ تتسنى اذابتها في الماء البارد او السخن مثل الشاي. ولقد عرفنا معارف جمَّة في الغذاء من ذلك اليوم الذي صاغ فيه الدكتور (كزيمير فنك) الكيماوي البولنـدي في سنة ١٩١٢ لفظ فيتامينات Vitamins للدلالة على العناصر الغريبة الخفية التي في الاغذية . فأصبحنا نسأل : كيف ان فيتامين (A) الذي في الخضراوات ومنتجات الالبان وزيوت السمك يقاوم عدوى الامراض. ولماذا فيتامين (B) الذي يستخرج من الفواكه والخميرة والشرق[1] ينبه شهوة الطعام ويقوي الاعصاب . ولمَ فيتامين (C) الجزيل في البرتقال والطماطم يمنع مرض الاسكربوط . وكيف يمنع الفيتامين (D) المستخرج من اللبن والزبد وزيت كبد السمك البكلاه كساح الاطفال (ضعف أو لين العظام الناشيء من سوء التغذية) وكيف ان فيتامين (E) الذي في القند[2] والخس وأجنة الحنطة ، يحول دون العقم . ولماذا فيتامين (G) المضاد لمرض البلاجرا (البرص الايطالي) ومصدره الخميرة ومح البيض يقي حياة الوف من سكان الاقاليم الجنوبية بالولايات المتحدة . فيجيب العلماء عن تلك الاسئلة قائلين إن الوصول الى سرّ الفيتامين في صون الحياة ، مشكلة من مشكلات العلم . لانهُ ما من انسان ذاق او رأى او سمع او لمس او شمَّ اي صنف من اصناف الفيتامين. وكل ما بلغهُ العلم منها الوقوف على تأثيرات الاغذية المختلفة في الجرذان البيض وغيرها من الحيوانات التي تستخدم للاختبارات في المعامل العلمية . غير اننا اصبحنا نستطيع تفسير ذلك اللغز العلميّ اي العمل الحيوي الذي يؤديه الفيتامين في الجسم وذلك بناءً على ما اذاعهُ معمل المباحث العلمية في احدى الجامعات الاميركية . فقد دلت التجارب التي جربت هناك على وجود علاقة وثيقة بين الفيتامينات والغدد الصم

ومن عهد قريب تمكن الدكتور (اوتار زيغ) العلامة النرويجي ، من تكثيف فيتامين (C) تكثيفاً اشد نجماً من ذي قبل لمكافحة داء الاسكربوط بأن بخّر عصير البرتقال الفج في انبيق خال

(١) الشرق — اللحم الهبر — الاحمر — والشرق من اللحم الاحمر الذي لا دسم له Lean-meat (٢) القند — عسل قصب السكر — العسل الاسود

من الهواء خلوًّا جزئيًّا ثم عالجهُ بمواد كيمائيــة ، فنتج زيت ضارب للصفرة ، تتخلله بلورات شبيهة بالإبر شكلاً . فكانت تلك البلورات هي ضالتهُ المنشودة اي الفيتامين الغذائي العلاجي

ولكن الدكتور ريغ نفسه لم يتيسر له تعليل تلك النتيجة . بل كل ما افصح عنهُ انهُ قد خطا خطوة كبيرة اذ عبَّد السبيل لجعل فيتامين (C) سهل المنال

ولما رحل بعث الاميرال بيرد الى الجنوب ليقيم حقبة طويلة في منطقة القطب الجنوبي ،كان مزوداً بعدة صناديق من عصير البرتقال المكثف حتى اذا طرأ طارىء على رجاله ، عوَّل الرئيس على تلك المادة ليدرأ بها عنهم عادية الاسكربوط

وحبس حديثاً الدكتور (روجر ويليم تروسدايل) في حجرة صغيرة في معمله العلمي بلوس انجيليس (كليفورنيا) طائفة من الجرذان البيض فكانت دائماً تحاول جهد استطاعتها قرض الشبكة السلكية المحيطة بحظيرتها لـكي تفرَّ منها . لانها كانت تشتهي شيئاً ينقصها في اغذيتها الدسمة .وكانت تجاورها حظائر تضم حيوانات جميلة شباعى . وماكانت الجرذان الأُولى محتاجة الى شيءٍ سوى فيتامين (D) وهو العنصر الخفي الذي كان قبلاً يحضَّرُ غالباً من زيت كبد السمك البكلاه .فأثبت الدكتور (تروسدايل) ان تلك العصارة المكثفة المائلة الى الصفرة التي تنتج من العَرَم[1] والتونة ، وهي زيت شمسي فعَّال ايضاً في الصحة ، هي نفسها المادة التي يفتقر اليها الصغار والكبار والجرذان عند تألم عظامهم وحين يفقدون الشهوة للطعام الجيد . وقد أسفرت تجاربه عن اختراع جهاز خاص وضع في مصنع كبير من مصانع الاطرية[2] في كليفورنيا يقطر قطرات من الزيت الفيتاميني على الدقيق حين يمر تحته في خلال تحويله الى إطرية

ويستخرج من كل مائة جالون من زيت السمك اوقية واحدة فقط من خلاصة تروسدايل . ولهذا السبب فهي قوية جدًّا ، لا يستطيع امرؤٌ تناولها محضاً . فاذا مزجت باربعة عشر جالوناً من زيت السمسم (المعروف في القطر المصري باسم السيرج) او بزيت الحنطة، ظلت اغزر فيتاميناً ٦٠ ضعفاً من زيت كبد سمك البكلاه الجيد

وكان لحم التونة الاسمر قبلاً يجعل غذاءً للدواجن ولا يحفظ في العلب الاَّ لحمها الابيض .فغدا زيت لحم التونة الاسمر وزيت العَرَم ، اللذان كانا يستعملان غالباً كعنصر لاذابة الطلاء (البوية) ، مصدراً من المصادر الصحية . واذاعت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة ايضاً نبأ استنباط آخر خاص بفيتامين (D) وهو انهُ بقدر ما يتعرض الدجاج البيوض لضياء الشمس ، يزداد مقدار فيتامين (D) في مح بيضهِ . وثبت انهُ اذا تعرضت بيضة او طائفة من البيض لضوءِ مصباح من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجي ، ربع ساعة زاد مقدار الفيتامين فيها كزيادته عند ما يخلط غذاء الدجاجة بزيت

(١) العرم — قال ابن البيطار العرم هو السمك المعروف عند اهل المغرب بالسردين
(٢) الاطرية — المكرونة

كبد السمك بنسبة ./. ثم ان الحرارة والهواء يتلفان الفيتامين . ويؤيد ذلك حادث مدهش وقع قريباً في احد المصانع الاميركية . وهو ان عصير الطماطم ، الذي كان ذلك المصنع يعصرهُ ويعبئهُ في علب الصفيح ، كان اقل فيتاميناً منهُ في علب المصانع المنافسة لهُ مع ان جميعها كانت تستعمل نوعاً واحداً من الطماطم . وكانت الطماطم عند جنيها مشتملة على انواع الفيتامين ،غيرانها فقدت منها جزءًا عند نقلها من المزرعة الى مصنع التعبئة فلم يعرف اين وقع ذلك . فحل المشكلة احد علماء الكيمياء الصناعية اذ تحقق ان الآلة التي تخفق الطماطم تدفع الهواء في العصير فتشبع الفيتامينات الحساسة بالاكسجين فتتلف . فأحدث العالم تغييراً يسيراً في الآلة ازال به ذلك العيب

وثبت من التجارب التي جربت في احدى الجامعات الاميركية ان فيتامين B فضلاً عما له من الخصائص التي تتحكم في الاعصاب وقابلية الطعام، فهو ذو تأثير خفيٍّ غريب في ذكاء المرء . فالجرذان التي يشمل طعامها ذلك الفيتامين ، تستطيع تخليص نفسها من الورطات التي تقع فيها ، على حين ان الجرذان التي تحرم منها ، تكابد متاعب تعدل ضعفي التي تقاسيها الاولى . ولم يُتح للعلماء الجزم حتى الآن في هل ذلك الفيتامين يؤثر في المادة السنجابية التي في مخ البشر او لا يؤثر البتة

ولما كانت الحيوانات التي تستخدم للمباحث في المعامل الكيمائية مختلفة الاجرام ، وكانت الوسائل التي يتوسل بها الى اتمام تلك المباحث ، متباينة في تحديد مقادير الفيتامينات التي في الاغذية فقد عقد في لندن في شهر يوليه الماضي مؤتمر دولي لتوحيد الوحدات التي تقاس بها الفيتامينات وقوتها وتعميمها في جميع انحاء العالم

وما البحث في الفيتامينات الا فرع واحد من فروع اعمال كتائب مباحث الطعام . اما اعمالها الاخرى الجليلة فاختراع اغذية جديدة وابتداع تحسينات في الاطعمة العتيقة . مثال ذلك اللبن الذي لا يخثر وهو مفيد جداً في تغذية الاطفال. والطريقة التي استنبطت حديثاً تقوم بترشيح الحليب بالزيوليت ، وهو من طائفة السليكات التي تستعمل في صناعة الزجاج وبذلك يزول الكلسيوم الذي هو منشأ تجبُّن الحليب ويزداد مقدار الفيتامينات فيه

وقد اخترع الكيمائيون وسيلة جديدة لتحضير الطعام بالضغط تمكن الاطفال والمرضى من هضم حساء الخضراوات الثخينة puréo[1] القوام اذ تحطم الخلايا النشوية التي في الحساء فتجعلها أسهل هضماً من المعتاد. ثم ندف القهوة التي يمكن غليها كأوراق الشاي او ترشيحها للتثليج بالماء البارد. وقد نجحت تجاربها في المعامل العلمية . وينتظر ظهورها في الاسواق الاميركية . ذلك لانهُ شوهد ان البن حين تحميصه وطحنه بالطرق المألوفة تطير منه غازات تذهب بكثير من رائحته العطرية . فاذا حول البن عند طحنه الى نُدفٍ ملفوفة على هيئة ورق الشاي المبروم ، استطاع العلماء عصر ٩٠ ./.

(١) شوربة من الخضراوات واللحم وغيرها تسلق حتى تصير عجينة ثم تصفى بالمصفاة

من الغازات دون ضياع شذا البن . ونذف القهوة المحفوظة في علب الصفيح التي تملأ بغاز الحامض الكربونيك لدفع الهواء تظل سنتين حافظة لنكهتها كاملة . وقد اتبع معظم مصانع الاغذية الاميركية طريقة تجريد علب الصفيح من الاوكسيجين عند تعبئتها بما يحفظ فيها . واخترعوا لذلك اداة سموها (كشاف الاوكسيجين) توضع في العلب . وهي عبارة عن قصاصة ورق معالجة بمواد كيمائية ، يتغير لونها عند ما يتطرق اليها اقل هواء في باطن العلبة . وبهذه الذريعة يتسنى لمستهلك العلبة التحقق من نضارة الطعام المدخر في العلبة التي يشتريها

ومن سنوات قلائل كانت تنهال على مصانع الاغذية (المدخرة في العلب) الشكاوى من كل حدب وصوب من عملائها متضررين من مسحوق الذرة الذي كان يفسد في العلب فيخرجونهُ منها مبقعاً بقعاً سوداً . فأسفر البحث عن كون دقائق الكبريت المخلوطة بالدقيق تتحد بحديد العلب بعيد اختراقها الطبقة القصديرية المغشاة بها فينجم عنها كبريتور الحديد . فاتبع ارباب المصانع طريقة دهن بواطن العلب بمادة الميناء ، فقضوا على تلك الآفة . اما الآن فتستعمل العلب المدهونة بواطنها بالالومنيوم . واحدث الاساليب لحفظ الطعام،علب من الورق المقوى المشبع بالكبريت ، فالكبريت يقوي العلب ويمنع تولد الفطر في بواطنها عند ما تدخر فيها الثمار والخضراوات

وقد حُلَّ من عهد قريب في المعامل العلمية لغز من الالغاز الخاصة بالاطعمة المحضرة المغشاة بالسكر . فالمعروف ان التثليج السريع الكثير الاستعمال الآن في اميركا يحفظ طعم الفواكه المغشاة بالسكر وشكلها اكثر من التثليج البطيء . وسبب ذلك انهُ اتضح من التجارب ان التثليج البطيء يكوّن بلورات ثلجية كبيرة تقوّض بنـاء خلية الفاكهة فينشأ من ذلك ضياع طعمها ولونها عند ما يذوب الثلج . اما التثليج العاجل فانه ينتج بلورات صغيرة تترك الخلايا وشأنها

وقدكان اختراع المثلجات الطوافة التي تثلج الاشياء حتى درجة ٥٠ تحت الصفر بمقياس فرنهيت ، مسهلاً لارباب البساتين نقل تلك المثلجات السيارة الى بساتينهم وحقولهم لتعبئة الاثمار (في العلب) في أوج لذتها — وتستعمل هذه الوسيلة الآن لتعبئة السمك واللحم

ولما كان من الصعب تحديد الزمن الذي ينضج فيه القَطاني [1] ويصلح للتعبئة فقد عرضت تلك المسألة على بساط البحث فجربت بعض تجارب في معمل علمي ترتب عليها وضع قاعدة لتحديده فيعرّض القطاني لحمّام سخن محتو على ٨٠ ٪ من الكحول . فيذيب الحمّام ما فيها من السكر . ونسبة السكر المذاب الى مقادير النشاء والبروتين والالياف تدل دلالة صحيحة على صلاحية القطاني للتعبئة . اما السمك فان درجة غضاضته تحقق بمقياس مقدار الحامض الضروري لصونهِ من الفساد . فاذا اضيف اليهِ حامض زيادة على ما فيهِ ، استدل على مبلغ انحطاط البروتين فيه . وكلما زادت غضاضة السمك ، اشتد امتصاصه للحامض بسهولة

(١) القطاني ـ الحبوب التي تطبخ كالعدس والحمص والفول واللوبيا والبسلة ومفرده قطنية وقطنية (بكسر القاف وضمها فيهما)

اما الفطر المغذي والبكتيريا ، وما يمتُّ اليها من الاحيــاء الدقيقة الــكيمائية التي تهدد طعم الاغذية والوانها وفوائدها الصحية ، فانها اعظم ما تتجه اليهِ مجهودات الباحثين . فتراهم يستخلصون البرهان ويقتفون آثار الرموز كالعيون والارصاد العلمية التي تتبع آثار المجرمين حتى تمسك بتلابيبهم

ويؤيد قولنا ما يأتي : — حدث في كليفورنيا ان العفن الازرق اخذ يظهر على البرتقال الوارد من أحد مصانع التعبئة في جنوب ذلك الاقليم مع ان صاحب المصنع كان يتخذ جميع الاحتياطات الواجبة لصون برتقالهُ من العدوى . فلما يئس من الوقوف على كنه العــدوى ، استعان بكيماوي صناعي ليحلّ لهُ لغز العفن . فما لبث ذلك الخبير ان اهتدى الى موضع الداء واذا بهِ اعتياد العمال المنوط بهم تعبئة البرتقال بلَّ اصابعهم في برتقالة مشققة معلقة بعمود في المصنع ليتمكنوا بذلك من استفراد الورق الرقيق المستعمل للف البرتقال فانتقلت العدوى من تلك البرتقالة المؤوفة الى الوف من البرتقال السليم . وسرعان ما اقلع العمال عن تلك العادة حتى زالت العدوى

وشرُّ العدوى التي يخشاها خبراء الطعام ويناهضونها ، ما وسعت قواهم ، ينشأ من البــكتيريا التي تولد التسمُّم المنباري[1] . وفي الجهات الموحشة بالولايات المتحدة حدثت من عهد قريب ثلاث اصابات بهذه الآفة، أدَّت الى حتم مراعاة النظافة التامة في المصانع التي تصنع المآكل او تعبئها . واغلب الامراض التي من هذا القبيل تنشأ من الاطعمة المنزلية السيئة التعبئة، لان ارباب المصانع لا يقصرون في اتخاذ الوسائل الواقية من تلوث الاغذية في مصانعهم . ولذلك يجب على ربات البيوت طبخ جميع الخضراوات التي تُكبَّسُ في البيوت قبل ذوقها او اكلها بنصف ساعة على الاقل . ثم اعداد الخضراوات التي من هذا النوع للتعبئة في مواقد طبخ ذات ضغط بخاري لكي يمنعنَ البكتيريا من الوصول اليها

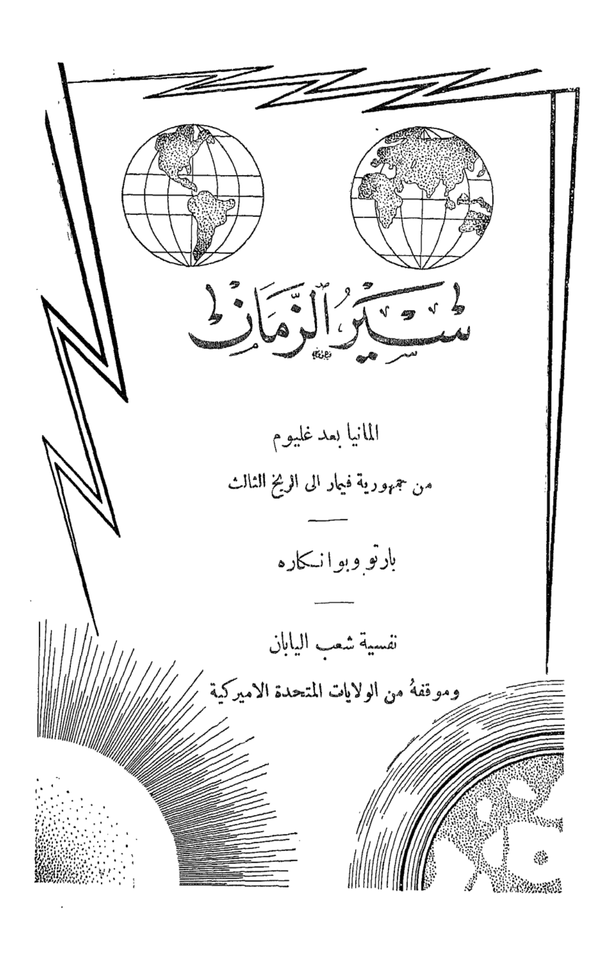
وقد دلَّ انفجار بعض المسكّرات والحلوى الذي حدث قريباً ، على مشكلة مدهشة استرعت انظار الباحثين المخصصين للاطعمة . اذ استدلوا على ان الخميرة التي في الحلوى المغطاة بالشكولاتة كانت تولد ضغطاً داخليًّا في الطبقة الخارجية يخمر المواد كما يخمر العجين سواء بسواء فاذا حفظت الفاكهة المغشاة بالسكر في مكان منخفض الحرارة في المصنع زالت الآفة

وأما الفواكه غير المسكرة ، والدقيق الخالي من النشاء فهي مستحضرات متناقضة تتوخى بها المصانع توفية مطالب الناس الذين يحتاجون الى اطعمة خالية من السكر او النشاء

واغرب مما ذكرناه ، مقترح اقترحه احد اطباء نيويورك ما برح يختبر اختبارات يقصد بها استبدال الاغذية الجامدة بغازات مغذية ! ! معتقداً انهُ سوف يحل زمن يتغذى فيه الملأُ بغذاء على شكل بخار يغنيهم عن المضغ ! !

---

(١) تسمم منباري — البوتيلنيك — حمض يقال بوجوده في المنبار Botulism, botulismus المتعفن وهو سبب تسمم نوعي — (معجم شرف)


سير الزمان
المانيا بعد غليوم
من جمهورية فيمار الى الريخ الثالث
بارتو وبوانكاره
نفسية شعب اليابان
وموقفهُ من الولايات المتحدة الاميركية

المانيا بعد غليوم

من الجمهورية الى الوطنية الاشتراكية

اجتمع ممثلو الحلفاء في فرساي واذ كانوا مكبّين على وضع المعاهدة التي تسحق المانيا وتصمها بوصمة الاجرام بتحميلها تبعة الحرب الكبرى وتجريدها من المستعمرات والسلاح ، كان الشعب الالماني ، او بالحري ممثلوهُ يشتغلون بوضع الاساس الذي تقوم عليهِ المانيا الجديدة . فالجمعية التأسيسية الالمانية ، اجتمعت في ڤيمار في ٦ فبراير سنة ١٩١٩ ، وڤيمار بلدة اقترنت باسم الشاعر الالماني العظيم غوته وامجاد الادب الالماني ، كما اقترنت بلدة ستراتفورد اون اڤون باسم شكسبير وامجاد الادب الانكليزي ومعرّة النعمان باسم شاعرنا الفيلسوف ابي العلاء . فلما اجتمعت الجمعية التأسيسية لقيت سبيلها حافلاً بالعقبات . كانت الحركة الشيوعية قد صدَّت ولكن شأفتها لم تستأصل . وكان زعماء السبارتاكيين لا يزالون يطالبون بتحويل المانيا الى دولة شيوعية . اما دويلات الجنوب في المانيا ، فكانت تثيرها الغيرة من بروسيا ، ولذلك كانت قد وطّنت العزم على ان تحول في الدستور الجديد ، بين بروسيا ومقام السيادة والتفوق في بناء الريخ الثاني . اما حزب الحكومة القائمة فكان بزعامة الهر ايبرت ، وكان مقاوماً للشيوعية — اي للسبارتاكيين — راغباً في تعزيز مكانة بروسيا . ولولا نشر مواد معاهدة فرساي القاصمة للظهر ، لافضى الاختلاف في الرأي بين اعضاء الجمعية التأسيسية الى مأزق لا يعرف كيف الخروج منهُ ، ولكن لما نشرت معاهدة فرساي ، التفّت جميع الاحزاب على اختلاف نزعاتها حول الرئيس ايبرت ومنحتهُ تأييدها وثقتها

تمَّ مشروع الدستور الالماني الجديد ، بعد اربعة اشهر من اجتماع الجمعية التأسيسية اي في يوليو سنة ١٩١٩ وصدر في ١١ اغسطس من السنة نفسها فنصّ على ان المانيا الجديدة يجب ان تكون جمهورية دمقراطية ، لا مكانة خاصة فيها للارستقراطية العسكرية التي بناها بسمارك وعزّزها غليوم الثاني . ولكن الجمهورية ظلّت على أساس اتحادي (فدرالي) اي انها ظلّت مؤلفة من الولايات المستقلة التي تألفت منها الامبراطورية . وانشئ للجمهورية برلمان دعي باسم البرلمان القديم اي الريخستاج على ان ينتخب اعضاؤه من الرجال والنساء بلا تمييز بين الفريقين ، على اساس من التمثيل النسبي . فبدلاً من ان ينتخب الناخبون مرشحين معيّنين لتمثيل دائرتهم الانتخابية الخاصة ، قسمت المانيا من الوجهة الانتخابية الى خمس عشرة دائرة ، ثم يعرض على الناخبين قوائم كاملة تحتوي على مرشحي كل حزب من الاحزاب ، في كلٍ من هذه الدوائر فيقترع الناخب للحزب — اي للقائمة — لا للمرشح

خاص . وكل حزب لهُ حقٌّ في ممثلٍ واحد في الريخستاج لقاءَ كل ٦٠ الف صوت ينالها في الانتخاب. وبعد الانتخاب يستدعي رئيس الجمهورية زعيم الحـزب الذي فاز باكثرية المقاعد النيابية ويعيّنهُ مستشاراً — اي رئيس وزارة — وهذا بدورهِ يختار اعضاءَ وزارته . وهذا التمثيل النسبي اصلح لتمثيل الاقليات من نظام الانتخاب البريطاني . خذ مثلاً مائة دائرة انتخابية في انكلترا . وافرض ان مرشح المحافظين تغلّب في كلٍّ منها على مرشح العمّـال بأكثرية يسيرة ، فعندئذ يكون ممثلو تلك الدوائر من المحافظين . ولكن الاقلية الكبيرة التي اقترعت للمرشحين العمال لا تمثل على الاطلاق . وهذا لا يقع في الانتخاب الالماني بحسب دستور ڤيمار . والشيء في الجمهورية مجلس آخر الى جنب الريخستاج ، يدعى الريخستات ، لتمثيل الولايات التي يتألف منها الريخ ، فهو من قبيل مجلس الشيوخ الاميركي ، وغرضه شبيه بغرض مجلس اللوردات البريطاني ، اي ان يحول دون اي تعجل يبديهِ مجلس النواب في التشريع ، ولكن رأْيهُ استشاريٌّ فقط

اما رئيس الريخ ، فنص المشروع على انتخابهِ لمدة سبع سنوات، وعلى ان يكون رئيساً لا سلطة له في الاحوال العادية ، فاذا عرضت للريخ حال طارئة كفتنة او ثورة حقّ له ان يصبح بمثابة دكتاتور لانهُ منح حق الحكم بمراسيم ، ولكن للبرلمان عند اجتماعه ان ينقضها

اما الوزارة فيجب ان تستقيل عند ما يعرب الريخستاج عن عدم الثقة بها

وفيما عدا ذلك كان دستور ڤيمار مبنيًّا على مثل الثورة الفرنسية ، اي انهُ نصَّ على المساواة وحرية العبادة والرأي والصحافة والاجتماع

ولما تمَّ وضع الدستور ، جاءَ في مجموعهِ نتيجة مساومة وتوفيق بين آراء الاحزاب المختلفة ، فلا المتطرفون من اليمين رضوا عنهُ ولا المتطرفون من اليسار . فحاول الشيوعيين احداث ثورة في الرور سنة ١٩٢٠ وفي ثورنجيا في مارس ١٩٢١ ولكن الحكومة خضدت شوكتهم ، بعد قتال شديد

وكان فريق من متطرفي اليمين، بزعامة رجل يدعى كاپ Kapp والجنرال فون لوتفتز، قد حاول في مارس سنة ١٩٢٠ ان يقلب الحكومة في برلين ، فسار الزعيمان على رأس جيش من المتطوعين وفازا باحتلال برلين ، وفرَّ الرئيس ايبرت وكذلك الوزارة التي يرأسها بَوَر Bauer ، ولكن الحكومة دعت نقابات العمال الى اعلان اضراب عام على كاپ وصحبهِ . فما لبثت الحكومة التي انشأوها في برلين ، حتى تقوّضت اركانها وعاد الرئيس والوزراء الى العاصمة واعنة الحكم في ايديهم . وحاول هتلر في نوفمبر سنة ١٩٢٣ ان يقلب الحكومة في باڤاريا ويتسلّم هو وصحبهُ زمام السلطة في الجنوب وبعد ان يوطّد قدمهُ فيها يسير الى برلين فيحدث في المانيا انقلاباً عامًّا ولكنهُ اخفق في محاولتهِ هذه

نفذت مواد معاهدة فرساي تنفيذاً دقيقاً ، فنسف الاسطول الالماني في سكاپافلو ، وسلمت مقاطعة اوپن ملميدي للبلجيك بعد استفتاء مطبوخ ، ونزعت مقاطعة سيليزيا العليا الغنية بالمعادن والمناجم ، مع ان الاكثرية في الاستفتاء السيليزي كانت في جانب المانيا، وفصلت بروسيا الشرقية عن

سائر الريخ ، بالمجاز البولوني الذي منح لبولونيا ليكون منفذاً لها الى بحر بلطيق عند مدينة دانتزغ التي اقيمت فيها حكومة دولية تحت اشراف جمعية الامم . على ان المعاهدة لم تنفذ تنفيذاً حرفيًّا في ناحية واحدة من نواحيها . ذلك ان المعاهدة قررت محاكمة القيصر غليوم الثاني ولكن غليوم كان قد فرَّ الى هولندا ، ولم يتمكن الحلفاء من اقناع حكومة هولندا بتسليمهِ

وفي خلال ذلك كانت اللجنة التي عينت لتقدير مال التعويض المطلوب من المانيا تقوم بمباحثها فكان تقديرها الاول باعثاً على الدهشة . ذلك انها قررت ان يكون مجموع المال الذي تدفعه المانيا على سبيل التعويض ستة آلاف مليون جنيه ، وان عليها ان تدفع منهُ الف مليون في سنة ١٩٢٠ فلقي هذا التقدير اعتراضاً عنيفاً في المانيا التي افقرتها الحرب والثورة ثم نزع منها اسطولها التجاري واغنى مقاطعاتها الصناعية . وقرر احد الكتَّاب انهُ اذا دفعت المانيا هذا المبلغ بأوراق نقدية ، كل قطعة منها مارك واحد ، كفى هذا الورق لتغشية جسر يمتد من الارض الى القمر . ولكن روح الانتقام كانت لا تزال تملأ صدور الحلفاء . وتوالت المؤتمرات بيد أن مال التعويض المفروض على المانيا لم ينقص في احدها عن مائتي الف مليون مارك ذهب ، فكأن الحرب كانت لا تزال متسعرة النار بين المانيا وحلفائها

اعترضت المانيا واحتجّت وقال زعماؤها ان المانيا مستعدة ان توفّي ما عليها ولكن يجب ان تمنح فسحة من الوقت لتفعل ذلك . وكان لويد جورج اول سياسي من ساسة الحلفاء الذين أدركوا انهُ لا بدَّ من منح المانيا فسحة من الوقت ، والاَّ اصابها الخراب الاقتصادي ، وعند ذلك ينقطع حبل التجارة بين بريطانيا وبينها . ولكن بوانكاره ، خالفهُ في الرأي وقال ان لا ندحة لالمانيا عن ان تدفع المبلغ كاملاً . ولا بدَّ من ان تدفعهُ في الحال او في مدى سنوات قلائل . ذلك ان تجارة فرنسا في المانيا كانت يسيرة لا يؤبه لها . بل ان فرنسا كانت تتوقع من المانيا ان تجهز المال اللازم لتعمير الولايات الفرنسية التي داستها سنابك الالمان وخرَّبتها مدافعهم . وفي سنة ١٩٢٢ بلغ الخلاف في الرأي بين بريطانيا وفرنسا مداه . وكانت المانيا قد توقفت عن دفع الاقساط المفروضة عليها — فأصدر بوانكاره أمره الى الجنود الفرنسية باحتلال مقاطعة الرور

واحتلال مقاطعة الرور ، بين الافعال التي اتتها أية حكومة متمدنة في تاريخ السنوات التي تلت الحرب الكبرى ، يحسب من اشدها استبداداً . فقد ظلَّ جيش فرنسيٌّ مؤلف من عشرة آلاف جندي محتلاً اغنى المقاطعات الالمانية الصناعية من يناير سنة ١٩٢٣ الى يوليو ١٩٢٤ ، وكان في الجيش الفرنسي جنود سود علاوة على الجنود الفرنسيين . وكانت ثكنات المقاطعة لا تتسع لجميع هذه الجنود . ففرض الضباط الفرنسيون على الاسر الالمانية في تلك المقاطعة ان يفتحوا ابواب بيوتهم للجنود السود . وكان هذا الاحتلال أشبه شيءٍ باستمرار الحرب . فقد قتل في خلال تلك المدة ستٌّ وسبعون من الالمان وعشرون من الحلفاءِ . وأُبعد المعارضون من الالمان عن بلادهم . وطرد نحو ١٤٧ الفاً لا تأثم

اقترفوها او ادُّعيت عليهم . وظلَّ نحو عشرة ملايين من السكان عاطلين عن العمل ، فاضطرَّت المانيا في خلال ذلك ان تستورد فحمها من بريطانيا بأسعار شركات الاحتكار

ولم يطل المطال حتى ظهر فساد هذه الخطة . كان هبوط المارك قبل احتلال الرور ينذر بالخطر ولكن تدهوره بعد الاحتلال تحوَّل الى كارثة . فهبط سعر المارك من الف مارك للجنيه الى مليون الى الف مليون . وقد يكون من المتعذَّر وصف الفوضى التي احدثتها هذه الكارثة في حياة الالمان . فالارامل والشيوخ الذين كانوا يعيشون على دخل مبالغ من المال وفَّروها او ورثوها ، اصبحوا وقد تبدَّد رأس المال الذي يعتمدون عليهِ . والموظفون الذين يتناولون مرتبات ، من الحكومة او البيوت المالية والتجارية ، اصبحت مرتباتهم لا تكفي لشراء فنجان من القهوة واللبن ، اما العمال فكانوا يهرعون الى إنفاق اجورهم عند تسلمهم اياها ، لانهم اذا صبروا الى الصباح ، فقد تفقد كل قيمتها . ان ويلات الحرب والثورة كانت أقل من ويلات الالمان في فترة التضخم هذه . ذلك ان المعيشة في المانيا سنة ١٩٢٣ هبطت الى مستوى لم يعهد في اي بلاد اوربية اخرى

***

وفي اكتوبر ادركت الحكومة الالمانية ان البلاد لن تستطيع الصبر على هذه الحال . فبعث بمذكرة الى رئيس لجنة التعويضات تعلن فيها استعدادها للرجوع عن موقف المقاومة السلبية الذي وقفتهُ الامة والحكومة بعد احتلال الرور ، وتطلب تعيين لجنة من الحلفاء لفحص مالية المانيا ، والاشتراك في تنظيمها وتثبيت المارك ، توطئة لتوفية مال التعويض . وكان المستشار الجديد رجلاً يدعى جوستاف شترزمن فأعرب بأفعالهِ عن رغبتهِ في الفوز بمعاونة الحلفاء وصداقتهم . وكذلك فاز في نوفبر سنة ١٩٢٣ بتثبيت المارك . وصرَّح ان «الرنتنمارك» هو وحدة العملة الالمانية الثابتة ، وان الحكومة مستعدة ان تبتاع الماركات بمتوسط الف مليون مارك مقابل رنتنمارك واحد . فكانت نتيجة هذا ان كل المال الذي وفرتهُ الطبقات الوسطى والعالية زال معظمهُ بزوال المارك . واصبحت جماعة «البورجوازي» من العمال . ولكن هذه التضحية افادت في تغيير موقف الحلفاء نحو المانيا . ذلك ان شترزمن اقنعهم بأن المانيا مستعدة لتحقيق العهود التي قطعتها والقيام بالتعهدات المالية التي فرضت عليها

فكان ذلك فاتحة عهد جديد في المانيا . كانت الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٢٣ في المانيا ، فترة مقاومة من ناحية الالمان ، وإصرار من ناحية الحلفاء . واما الفترة التي تلتها (اي ١٩٢٤ — ١٩٣٠) فكانت فترة نهوض المانيا بمعاونة الاموال الانكليزية والاميركية

ففي سنة ١٩٢٤ وضعت لجنة دولية يرأسها الجنرال دوز الاميركي (وتعرف باسمهِ) مشروعاً جديداً للتعويضات الالمانية ، فرض فيهِ على المانيا ان تدفع للحلفاء مقداراً نسبيًّا من دخلها القومي ، جانب منهُ يدفع نقداً بالذهب والجانب الآخر عيناً بالبضائع . ولكي تتمكن من هذا وجب ان ترمَّم صناعتها وتعمَّرها بأموال تقرض لها في اسواق العالم المالية

وكذلك كان مشروع دوز فاتحة عصر انتعاش صناعي عظيم في المانيا . ورأى الالمان شعاعة أمل ، تبرق عند الافق البعيد فانصبّوا على عمل التعمير والانشاء ، بروح لم تعرف في امة مهزومة ، الاّ في فرنسا بعد هزيمتها في الحرب البروسية الفرنسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) وفي روسيا عند عنايتها باتمام مشروع السنوات الخمس . فما جاءت سنة ١٩٢٦ حتى كان انتاجها الصناعي لا يقل كثيراً عن انتاجها قبيل الحرب ، ذلك انهُ لم ينقص عنهُ الاّ ٥ في المائة فقط

ولكن الثمن الذي دفعتهُ كان ثمناً فادحاً من الكدّ والنصب والاكتفاء باليسير من الطعام والراحة . فالطلاّب كان عليهم ان يتموا دروسهم الجامعية في الفترات التي تتخلل الاعمال اليدوية التي فرضت عليهم . والنساء كان عليهن ان يعنينَ بتربية اطفالهنّ في ساعات فراغهنّ من العمل في المصانع . وحتم على الشيوخ ان يتخلوا عن راحة الشيخوخة التي اشتروها عزيزة ، ليبدأُوا العمل من جديد كأنهم شبّان

***

بيد ان الشبيبة التي نشأت بعد الحرب كانت توجه الى نفسها هذا السؤال : وما الفائدة من كل هـذا الجهد والنصب والتقتير ؟ ولماذا يجب على المانيا ان تذلّ وتستعبد اجيالاً من ابنائها لتوفي غرامة حربٍ ، لا شأن للشبيبة في تبعتها ؟ ولماذا يجب ان يضيّعوا جهودهم في تعويضات فرضها عليهم قاهرو آبائهم ؟

وكذلك بذرت بذرة التبرم بمعاهدة فرساي في صدور الشبيبة الالمانية . فلما انتظمت المانيا في جمعية الامم سنة ١٩٢٥ لم يكن انتظامها ذا أثر فعّال في النفوس ، لان الحلفاء ما قبلوا ذلك واقرّوه الاّ بعد تردُّد طويل . ولان المادة ١٣١ من معاهدة فرساي كانت لا تزال قائمة ومؤادها ان تبعة الحرب واقعة على كاهل المانيا وحدها

هذا التبرّم في الروح الالمانية اتجه اتجاهين مختلفين . اما الاول فالاتجاهُ الشيوعي . فقد كان كارل ماركس نبيُّ الشيوعيين المانيًّا من اصل يهوديّ . ومبادىء ماركس كانت بمثابة انجيلٍ للشبان من عمّال المانيا . بل ان الحكومة الجمهورية في برلين ، كانت في قبضة طائفة من اليهود او من يلف لفهم . وبافاريا الكاثوليكية نفسها ، ظلّت في قبضة الشيوعيين ، مدة وجيزة في سنة ١٩١٩ ، الى ان قضى عليهم نوسكه . فتحوُّل المانيا الى الشيوعية لم يكن حينئذٍ امراً مستحيلاً

***

ولكن الشيوعية تعني نزعة دولية بأوسع معانيها ، ومحالفة مع روسيا السوفيتية . والالمان وطنيون لا دوليين في المقام الاول وروسيا خصمهم التاريخي . لذلك اتجهت روح التبرم في نواح من المانيا ، اتجاهاً آخر ، وافرغت في جمعية اخرى ، مبادؤها قومية صحيحة ، مقاومة لليهود وللروس في آنٍ واحد ، ومبنية على تمجيد السلالة الجرمانية وابطالها . هذه الجمعية او هذا الحزب هو صاحب الحركة الموسومة باسم « الحركة الوطنية الاشتراكية » التي زعيمها الهر ادولف هتلر

بارتو وبوانكاره

[رزئت فرنسا في خلال اسبوع واحد (٩ — ١٥ اكتوبر) بفقد رجلين من اكبر رجالها الذي تولوا دفة سياستها في اواخر القرن التاسع عشر وما انقضى من القرن العشرين ، ونقشوا اسماءهم في صفحات تاريخها بمداد من نور ، ورفعوا ذكرها في الخافقين بما جمعوا في شخصياتهم من الوطنية الصادقة والفصاحة الخلابة والالمعية الادبية والبراعة البرلمانية ونقاء الصفحة والجرأة في النضال السياسي. اما الاول فهو لويس بارتو ، لقي حتفه في فاجعة مرسيليا يوم ٩ اكتوبر ١٩٣٤، وأما الثاني فهنري بوانكاره توفي ظهر الاثنين في ١٥ اكتوبر]

لويس بارتو

لعلّ اوربا لم تشهد في العهد الأخير نشاطاً في وزير خارجية كنشاط المسيو بارتو . فمن ساعة تقلده لمنصب وزير خارجية فرنسا في فبراير الماضي الى ساعة مصرعه في مرسيليا مساء الثلثاء ١٩ كتوبر ١٩٣٤ كان أشبه شيء بالحركة الدائمة . ها هوذا في جنيف ، في مؤتمر نزع السلاح ، يناضل عن خطة فرنسا على منبر المؤتمر وفي الاجتماعات الخاصة او في حجر اللجان ، آناً يهاجم وآناً يدافع ، وفي كلامه حدة ولين ، وبلاغة في الحالين . فلما عاد الى باريس استقبل فيها استقبال الأبطال . حتى بريان في اوج عزه كوزير لخارجية فرنسا ، لم يفز من الفرنسيين باستقبال أعظم من الاستقبال الذي فاز بهِ بارتو . ثم ها هوذا يعود الى جنيف للنظر في مسألة استفتاء السار ، فيعقد في اللجنة الخاصة بذلك برآسة البارون الوازي ، اتفاقاً على ميعاد الاستفتاء والضمانات الخاصة بهِ . فاذا فرغ من اجتماعات اللجنة اختلى بلتفينوف قوميسير خارجية روسيا ، يتباحث معهُ في انتظام روسيا في جمعية الأُمم ، او بتوفيق رشدي بك وزير خارجية تركيا يحثه على توثيق الروابط التي تربط فرنسا بتركيا ، او بممثلي دول اوربا الوسطى يحاول ان يحل وإياهم المشكلات الخاصة بوادي الدانوب . بل ها هوذا يزور في خلال الثمانية الاشهر التي انقضتْ عليه في الكاي دورساي عواصم ست دول هي بروكسل وفرسوفيا وبراغ وبوخارست وبلغراد ولندن . وينشيء مشروع ميثاق اوربا الشرقية . ويكتب المذكرات الضافية عن نزع السلاح واستفتاء السار. ويدير بمهارة عظيمة مسألة انضمام روسيا الى جمعية الامم رغم اعتراض طائفة من الدول عليها . وكان عند مصرعه في مرسيليا يستقبل الملك اسكندر اليوغوسلافي ، لتكون مباحثاته معه تمهيداً لزيارته لروما واجتماعه بالسنيور موسوليني في الشهر القادم

فعل كل ذلك وهو في الثانية والسبعين من العمر ؟

كان بارتو عضواً في الأكاديمية الفرنسية . احرز هذا الشرف العظيم بصفة كونه كاتباً ألمعيًّا



المسيو بارتو والملك اسكندر اليوغوسلافي قبيل مصرعهما

لا لأنهُ من كبار رجال السياسة . وفي مقدمة مؤلفاته سيرة ميرابو خطيب الثورة الفرنسية العظيم ، وله كتاب آخر في لامارتين الشاعر والخطيب والسياسي والمؤرخ . وكتب اخرى في بودلير وفرلين الشاعرين ، وراشل الممثلة وغرام رتشرد فغنر الموسيقي،ورسائل الغرام التي كتبها فكتور هوغو . بل كان علاوة على ذلك من كبار نقدة الفن ومن كبار الثقات في الطبعات الاولى النادرة التي صدرت من بعض الآثار الادبية المشهورة حتى لقد قيل عنه انهُ يوم اقترب الالمان من باريس ، وبدأت مدافعها تمطر قنابلها عليها ، وأخذ الباريسيون يجمعون اعلاقهم ليخفوها في حرز حريز ، تأبط بارتو بعض الكتب النفيسة النادرة وخرج يبحث على مكان امين يودعها فيهِ

او انظر اليهِ في مجلس النواب . فقد أثر عنه قوله ان « المنبر مذبح (بالمعنى الديني) الكلمة » واذ ينهض بارتو من مكانه في المجلس ، ويمشي الى المنبر ، تحس في خطواته المتزنة الهادئة ، انهُ يشعر بالتبعة العظيمة الملقاة على عاتق كل من ينوي ان يفوه بكلمة هناك. مضى عليه اربعون سنة وهو يلقي من ذلك المنبر كلمات لها شأن كبير في تقرير مسائل خطيرة . ان الكلمات على اطراف اصابعه ، لانه فصيح ، واللغة تنقاد اليه ،ولكنك تدرك من مشيته الى المنبر وكلماته الاولى التي ينطق بها نوعاً من الرهبة ، لا تستطيع ان تفسرها الا بقوله « يجب على الانسان ان يرهب المنبر لكي ينهض الى مستواه الرفيع» . فاذا زال أثر التردد من كلماته الاولى انطلق في خطابتهِ انطلاق السيل في انسجام وقوة. فهو معروف بين صحبهِ بانهُ من « سحرة » الكلام . صوته فخم رنان . وفي عبارته ايقاع شعري كانهُ استمدّه من طول ملازمته لكبار شعراء فرنسا

وكان الى ذلك محدّثاً بارعاً ، ذلق اللسان، قوي الحجة ، واسع الرواية ، كثير النوادر يأسف لانقضاء العصر الذي كانت فيهِ صالونات السيدات تجمع اصحاب المواهب العقلية فيها فتصطدم العقول بالعقول ويقدح شرر الذكاء. انهُ يأسف لان الرجال اليوم يبيعون افكارهم للجمهور بكذا من السنتيمات لقاء كل كلمة بدلاً من ان يهبوها علناً لمن كان له اذنان للسمع فيسمع

ومع انهُ كان من اولئك الذين يعطونك في الحديث اكثر مما يأخذون منك كان يحسن الاصغاء وهذا من اهم صفات الكريم المثقف من الرجال

***

تقلب في المناصب السياسية فتقلد منصب الوزارة نحو عشر مرات بين الاشغال العامة والمعارف والحربية والحقانية والخارجية بل دعي في شهر مارس سنة ١٩١٣ الى انشاء وزارة فانشأها وصليل السيوف يدوي في الجو الاوربي وكان على فرنسا حينئذٍ ان تفصل في مسألة حيوية لها ، ذلك ان شبح الحرب في اوربا كان قد بدأ يخيم على دوائرها السياسية ويجثم فوق صدور رجالها، فنادى المنادي في فرنسا ان تأهبوا للنضال القادم فوضع مشروع يقضي بزيادة الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي الى ثلاث سنوات وقدم لمجلس النواب فلقي معارضة شديدة من احزاب اليسار . ولكن بارتو تمكن

من اقرار القانون بلباقتهِ المشهورة فنقم عليهِ صحبهُ من الاحزاب الراديكالية كيف يخون مبادئهم وهلل له غيرهم قائلين انهُ منقذ الوطن وان الوطن في اعتباره يسمو على الاحزاب . ولكن خصومه تربصوا لهُ حتى بدت في حكومته ثغرة فنفذوا منها الى اسقاطه تخلفهُ في رئاسة الوزارة المسيو دومرغ رئيس الوزارة الحالي الذي انتظم بارتو في وزارتهِ وزيراً للخارجية

فلما نشبت الحرب الكبرى تذكر الناس القانون الذي سنَّهُ بارتو وحمدوا لهُ بعد نظره لان نشوب الحرب الكبرى لقي فرنسا بفضل هذا القانون متأهبة لخوض معمعة النضال

واشترك بعد الحرب الكبرى في وزارات مختلفة بل تقلد عدا المناصب الوزارية مناصب سياسية في المقام الاول في حياة فرنسا العامة منها منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب ورئيس لجنة التعويضات التي عينها مؤتمر السلام للنظر في مال التعويض الالماني ومثَّل فرنسا مع المسيو بريان في مؤتمر جنوى الاقتصادي واشترك في وزارة بوانكاره التي انقذت الفرنك من التدهور

ان الكاتب ليأسف اشد الأسف عند ما يرى حياة كحياة بارتو الطويلة الحافلة بجلائل الآثار في السياسة والادب تنقضي برصاصة يطلقها مفتون من الفدائيين الذين يستحلون دماء الناس اذ لا ريب ان مصرع بارتو جاءَ في غير اوانه فانه رغماً عن كونه بلغ الثانية والسبعين من العمر كان لا يزال عنصراً فعالاً في سياسة اوربا بل كان ينتظر لها على يديه حل بعض المشكلات التي تقض مضجعها وتقلق خواطر رجالها

ريمون بوانكاره

كان الجيل الحاضر مظهراً للكفاءات العالمية بسبب الحرب العظمى وما تلاها من المشكلات فرأينا اقطاب الدول يحلقون في فضاء الشهرة فنهم من استطاع الاحتفاظ بمقامهِ ومنهم من هوى ومنهم من نسي امره فلا يكاد يذكرهُ الناس. فغليوم وهندنبرج واسكويث ولويدجورج وكلمنصو وبوانكاره وودرو ولسن وجوفر وبيتي وهايج وفوش وفيجان واللنبي ومصطفى كمال ولنين وموسوليني وبهلوي شاه وغاندي وفيصل وغير هؤلاءِ برزوا الى الميدان العالمي وكانوا قبلة انظار البشر ثم اخذوا يتوارون عن العيون وقد مات معظمهم وقلَّ الذين صبرت شهرتهم على فعل الزمان

وقد امتاز ريمون بوانكاره بصفات وسجايا مكنتهُ من النهوض بعبء رآسة الجمهورية بما يقتضيه هذا النهوض من عناية بالحياد بين الاحزاب وعدم التعدي على سلطة الوزارات وهذا مع الاحتفاظ بهيبة المنصب وكرامة الرآسة فلما القيت اليهِ مقاليد الوزارة بعد الحرب ظهر بمظهر آخر وتذرع بحزم نادر النظير حتى انتشل بلاده من وهدة الخراب النقدي والبوار المالي ووقف من المانيا موقفاً كفيلاً بصون سلامة فرنسا وعدم استهدافها في المستقبل القريب لمثل الخطر الذي واجهتهُ في سنة ١٩١٤

وقد اختلف الناس في الحكم على سياسته الالمانية هذه فرأى بعضهم فيها افراطاً في التشديد

لا بد أن يعقبهُ من النفور والامتعاض والاستياء ما يوغر الصدور ويبعث على تحين الفرص لاقتناص ما يسنح منها . وذهب آخرون الى ان بوانكاره كان مخلصاً في عقيدتهِ وانهُ بعد ما اكتوى وأكتوى قومه بنار الحرب صار ادرى من غيره بما يلزم للوقاية وحكم بان هذه الوقاية لا تستوفى الا بتعزز قوة فرنسا العسكرية والمضي في كبح جماح المانيا . وانقسم ساسة الانكليز في هذا الامر فكانوا فريقين

اما الفرنسيون فمعظمهم أيد بوانكاره ولاسيما بعد ما تجلَّت لهم مواهبهُ هذه في رآسة الوزارة. فقد عرفوه رئيساً للجمهورية تقضي عليهِ فروض منصبه بان يلتزم سبلاً معينة ينص عليها دستور البلاد وتقاليد الحكم فيها فلما انطلقت يده في الوزارة بدا وهو في سن الشيخوخة بما دلَّ على ما كمن في نفسهِ من قوة وحزم . وسواء أكان ريمون بوانكاره مصيباً في سياستهِ الخارجية او مخطئاً فان فرنسا لا تنساه ولا تنسى ما بذل في خدمتها وما جنت شجاعته واقدامه وجرأته وشدة تمسكه بمبادئه ونظرياته ولو اتصف ساسة الدول بمثل جرأتهِ لاجتنب العالم كثيراً من مشكلاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان شر ما ابتلي بهِ اقطاب الدول في هذه الايام جنوح عن الصراحة واعراض عن صدق البيان اقتناصاً لاصوات الناخبين او مجاراة لتيارات الاحزاب

***

ولد في ٢٠ اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان والده عالماً جليلاً ومتيورلوجيًّا شهيراً وتلقى علومه في جامعة باريس ودرس المحاماة وعين محرراً قضائيًّا لجريدة فولتير ثم استخدم في وزارة الزراعة وبعد سنة انتخب نائباً عن دائرة الموز واشتهر في مجلس النواب بسعة معارفه في الشؤون الاقتصادية وعين عضواً في لجان الميزانية فوزيراً للمعارف والفنون الجميلة في وزارة ديبوي الاولى في سنة ١٨٩٣ فوزيراً للمالية في وزارة ديبوي الثانية والثالثة سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٨٩٥ وجدد تعيينه وزيراً للمعارف في وزارة ريبو ولكنه خرج من الوزارة في الوزارة الرديكالية التالية غير ان مشروع ضريبة الارث الذي اقترحته هذه الوزارة بني على اقتراحات سابقة لهُ . وانتخب وكيلاً لرآسة مجلس النواب في خريف سنة ١٨٩٥ وجدد انتخابه في السنتين التاليتين رغماً عن معارضة الرديكاليين الشديدة . ثم عين في سنة ١٩٠٦ وزيراً للمالية في وزارة ساريان ولكنه تخلى عن منصبه هذا الى المسيو كايو في السنة نفسها لما الف المسيو كليمنصو وزارته الاولى . وانصرف في خلال السنوات الخمس التالية الى ممارسة صناعة المحاماة علاوة على كونهِ عضواً فعالاً في مجلس الشيوخ. وفي سنة ١٩٠٩ انتخب عضواً في الاكادمية الفرنسية . وفي اول سنة ١٩١٢ سقطت وزارة كايو وعهد اليه في تأليف الوزارة فتولى الرآسة ووزارة الخارجية وكانت وزارته ائتلافاً وطنيًّا وكان همه الاول اتباع سياسة خارجية مقررة. اما في الشؤون الداخلية فكان اصعب ما اعترضه مسألة الاصلاح الانتخابي . واما السياسة الخارجية فكانت الشغل الشاغل لبوانكاره في تلك الايام ففيها حدث حادث اغادير فكان هذا الحادث وسياسة

كايو السابقة مع المانيا من اهم الاسباب التي اقلقت خواطر الفرنسيين فبذل جهده لوضع سياسة خارجية مستقرة ومتصلة الحلقات. ومع انه حافظ على علاقات المجاملة مع المانيا انصرف جُلّ همهِ الى اثبات ان فرنسا لا تنفك عن الولاء والاخلاص لحلفائها وخصومها . وتمكن من عقد معاهدة مع المانيا في ٣ نوفمبر سنة ١٩١١ رسخت فرنسا بواسطتها قدمها في المغرب الاقصى

***

وحدث بعد ذلك حادثٌ كاد يوقع النفور بين فرنسا وايطاليا . فان ايطاليا كانت مشتبكة في سنة ١٩١٢ في الحرب مع تركيا فقبضت بعض البوارج الايطالية على باخرتين فرنسيتين كانتا في طريقهما الى تونس ولكن المسيو بوانكاره حال برزانته وحزمهِ دون وقوع هذا المحظور واعاد العلاقات بين البلادين الشقيقتين الى صفائها السابق . ومما يؤثر لهُ انهُ حاول جهده منع وقوع حرب البلقان الاولى وامتداد نارها الى اوربا ولكن موقف التهديد الذي وقفته المانيا والنمسا بعد ذلك دعاه لان يطلب من البرلمان زيادة الاسطول الفرنسي ثم عزز بمهارته وبعد نظرهِ الاتفاق مع بريطانيا العظمى فكانت نتيجة ذلك انه بات في وسع فرنسا ان تحشد اسطولها كله في البحر المتوسط

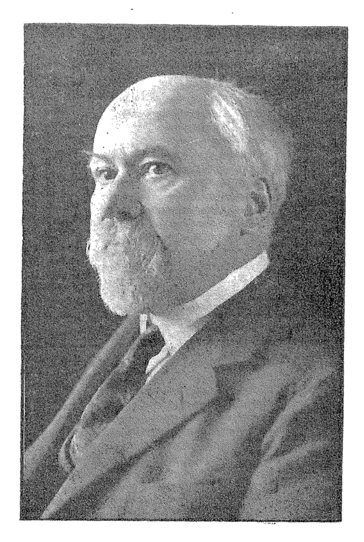
وانتخب في ١٧ يناير سنة ١٩١٤ رئيساً للجمهورية خلفاً للمسيو فاليير وكان اول ما سعى له توثيق علاقات فرنسا بحلفائها فانتقده خصومه في فرنسا والخارج على هذه السياسة ولكنهُ لم يبال بنقدهم بل واصل مساعيه من هذا القبيل ونجح فيها نجاحاً باهراً فقد كان يرى ان خير وسيلة لاتقاء الحرب ان تقف الدول المهددة صفّاً واحداً في وجه الدول التي تهدد سلم اوربا

وفي يوليو سنة ١٩١٤ زار بطرسبرج ووثق عرى المحالفة مع روسيا وبينما هو عائد منها الى فرنسا فوجئ في طريقه بخبر البلاغ النهائي الذي أرسلته النمسا الى سربيا فعجل بالعودة الى باريس وحين وصوله اليها ارسل كتاباً الى الملك جورج الخامس طلب فيه ان تذيع بريطانيا العظمى بياناً صريحاً بأن الاتفاق الودي سيبرهن على متانته في ساحة الحرب اذا اقتضى الامر ذلك. وحجته في مثل هذا البيان هو انهُ يكبح سياسة برلين وفينا ويرد ساستها الى الصواب

وخدم بلاده في اثناء الحرب بكل غيرة وحمية حتى انهُ تناسى احقاده السابقة وما زال يسعى حتى عهد الى المسيو كلنصو خصمه في رآسة الوزارة وكانت ثقته تامة بالفوز النهائي ولم يخامره شك ما في جميع مراحل الحرب وتقلباتها . ولكن الخلاف عاد فدبَّ بينه وبين المسيو كليمنصو في اثناء عقد معاهدة السلم وتجدّدت خصومتهما القديمة حتى اصبحت اشبه بالعداوة

وانتهت رآسة المسيو بوانكاره للجمهورية في سنة ١٩٢٠ اي بعد سبع سنوات خدم فيها فرنسا اصدق خدمة وبعد اعتزاله للرآسة انتخب عضواً في مجلس الشيوخ عن مقاطعة الموز

وفي يناير سنة ١٩٢٢ سقطت وزارة بريان فألّف صاحب الترجمة وزارته الاولى بعد الحرب وتقلد



ريمون پوانكاره

Raymond Poincaré

رآسة الوزارة ووزارة الخارجية وكان من اهم ما سعى الى تحقيقهِ في هذه المرة اكراه المانيا على الوفاء بعهودها من جهة التعويض وانقضت السنة الاولى من وزارته من غير ان يوفق الى الاتفاق مع بريطانيا العظمى في هذا الصدد لتباين آراء رجال الحكومتين . وعقد مؤتمر الحلفاء في لندن في اغسطس وديسمبر سنة ١٩٢٢ ومن غير ان يصل الى نتيجة ما وعقد مؤتمر آخر في باريس في ٢ و ٥ يناير ولكن المسيو بوانكاره رفض الاقتراحات التي عرضها المسيو بونار لو

وفي خلال ذلك قررت لجنة التعويض ما عدا المندوب البريطاني ان المانيا قصرت في القيام بالتزاماتها فيما يتعلق بتسليم الفحم والكوك فاتفق المسيو بوانكاره مع البلجيك على احتلال الرور وكان الغرض الاول من هذا الاحتلال ان يكون وسيلة للمراقبة ولكن لما اشتدت مقاومة الالمان السلبية اقتضى الحال ان يضع الفرنسيون والبلجيكيون يدهم على سكة الحديد ويشغلوها وجعلت مناجم الفحم والحديد ايضاً تحت اشراف فرنسي وبريطاني . وانتهت المقاومة السلبية في الخريف وانتظر بوانكاره ان يعرض الالمان اقتراحاتهم في مسألة التعويض فلم يفعلوا وحينئذ عمل بما اقترحته اميركا وهو ان يعهد الى جماعة من الخبراء في تدبير حل لمشكلة التعويض فأفضى بحثهم الى وضع مشروع داوز غير ان بوانكاره عقد العزم على ان لا يجلو عن الرور الاَّ بعد ان يرتاح الى حسن سير هذا المشروع في مراحل تنفيذه الاولى على الاقل

وواجهتهُ في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة ١٩٢٤ ازمة مالية نشأت من اختلال الميزانية وسير سعر القطع ولقي صعاباً جمة في حمل البرلمان على الموافقة على فرض ضرائب جديدة فتمكن بهذه الوسيلة وبما ابداه من الحزم واصالة الرأي من اصلاح الحالة وتفريج الازمة .ولكن المعارضة اشتدت عليهِ بعد ذلك من جانب الراديكاليين والاشتراكيين وجرت الانتخابات العمومية في مايو ١٩٢٤ ففاز هذان الحزبان بعد ائتلافهما بالاكثرية ولما اعلنت نتيجة الانتخاب قال بوانكاره انهُ يستقيل في اليوم الذي يجتمع فيهِ المجلس الجديد وقد استقال فعلاً في اول يونيو من تلك السنة

وعاد الى مجلس الشيوخ ولم يشترك بعد ذلك في المناقشات السياسية الاَّ غراراً ولكن البلاد وقعت في صيف سنة ١٩٢٦ في ازمة مالية اقامت الشعب الفرنسي واقعدتهُ وعجزت الوزارات التي تعاقبت عن درء خطر هذه الازمة فزادت الحالة ارتباكاً وتعقداً والتفتت الامة الفرنسية حولها عليها تجد من ينقذها من هذه الورطة فلم ترَ سوى بوانكاره وبعد سقوط وزارة بريان وكايو التي عاشت اسابيع معدودة وسقوط وزارة هريو التي لم تعمر سوى بضع ساعات دعا رئيس الجمهورية المسيو بوانكاره لتأليف الوزارة فألفها في يوليو من تلك السنة من الجمهوريين والراديكاليين والاشتراكيين وكان اهم اغراضها تثبيت المالية الفرنسية وتوطيد دعائمها بالسير على خطة وطنية موحدة فاطمأن الرأي العام الى هذه الخطة وخفَّ ما استحوذ عليهِ من الذعر كثيراً .وفي اغسطس دعت الوزارة الجمعية العمومية الوطنية للانعقاد في فرسايل للموافقة على مواد بانشاء مال استهلاك يعمل من تلقاء

نفسه وتخصص لهُ الايرادات من رسوم الارث واحتكار الدخان وغيرها من الايرادات وادماج تلك المواد في صلب الدستور حتى لا تكون عرضة للتغيرات السياسية وتضارب آراء الاحزاب

وفي أقل من ثلاثة أشهر وفق الى رفع سعر الفرنك من ٢٦٤ فرنكاً للجنيه الاسترليني الذهب الى ١٢٤ وقد تمكن من تقرير السعر الاخير في دسمبر سنة ١٩٢٦ وظلّ هذا السعر ثابتاً لم يتغير

وقضى بوانكاره سنة ونصف سنة وهو يواصل المساعي ويبذل الجهود حتى أعاد الموازنة الدقيقة الى الميزانية الفرنسية فتيسر للحكومة المحافظة على سعر الفرنك في حد الرقم الآنف الذكر (١٢٤ فرنكاً للجنيه) ان لم يكن رسميًّا فواقعيًّا

وجرت الانتخابات العمومية في ابريل سنة ١٩٢٨ فكانت اكثرية النواب راضية عن سياسته وفي يونيو من تلك السنة وافق المجلس الجديد ومجلس الشيوخ على قانون بتثبيت الفرنك رسميًّا بسعر ١٢٤ فرنكاً للجنيه الاسترليني فانتهت بذلك ازمة الفرنك وكان نجاح بوانكاره في انهائها أبهر عمل سجل في التاريخ عن سياسة النقد

غير ان الائتلاف بين الجمهوريين من جهة والراديكاليين والاشتراكيين من جهة اخرى لم يعمر طويلاً فانسحب الحزبان الاخيران بمساعي كايو من الصفوف المؤيدة للوزارة وانضما الى صفوف المعارضة لها فخذلت في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٨ ولكن بوانكاره عاد فألف وزارة جديدة في ١٢ منه ولكنها لم تعمر طويلاً . وفي سنة ١٩٣٢ وافق البرلمان الفرنسي على قانون « تقدير الوطن » وهو يقضي بمنح كل رئيس جمهورية سابق يرى مجلس النواب انهُ يستحق تقدير الوطن معاشاً سنويًّا قدره مائتا الف فرنك وقرر في الوقت عينه ان من الرؤساء السابقين الذين يستحقون هذا التقدير المسيو بوانكاره

واعتزل المسيو بوانكاره السياسة ولكنه لم يكن يقعد عما يراه مجحفاً بمصلحة فرنسا بل كان يفاوض رئيس الجمهورية ورجال الوزارة في مثل هذه الامور ويرشدهم الى مواطن الخطأ او الضعف ولاسيما في السياسة الخارجية . وأصيب في السنوات الاخيرة بمرض اقعده عن العمل الاّ عن التأليف

وللمسيو بوانكاره غير مقالاته الكثيرة في الموضوعات القانونية والسياسية والادبية مؤلفات أخرى اشهرها كتابه « في خدمة فرنسا — مذكرات تسع سنوات » وهو يقع في عشرة مجلدات تضمنت وصف سير الحوادث التي كان له نصيب فيها بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٠

***

ومما يؤثر عن اسرة بوانكاره انها انجبت نخبة من رجال العلم والفضل كان في مقدمتهم المرحوم جول هنري بوانكاره ابن عم صاحب الترجمة فقد كان من اكبر علماءِ الرياضيات الذين عرفوا في جميع العصور ومعدوداً في منزلة نيوتن في بحوثهِ الرياضية والطبيعية

نفسية شعب اليابان

[ترقب اميركا شؤون الشرق الاقصى بشيء كثير من العناية والقلق ثم هي لا تني عن تأكيد موقفها هناك وهو انها لا تعترف بمعاهدة او حالة راهنة تمت بوسائل مناقضة لروح عهدة كلوج بريان — عهدة باريس التي تحرم الحرب — وقد شرعت من عهد قريب ، في تجديد اسطولها ، حتى يصبح في المكانة التي تسمح لها به المعاهدات البحرية . فاليابان ازاء ذلك قلقة ، متحدية ، متحيرة ، فما هو موقف الشعب الياباني نحو اميركا ماذا يظنون فيها من الظنون وما يخشونه منها]

﴿ حياة مزدوجة ﴾ ان يابانيّ اليوم يعيش عيشة مزدوجة ، فقدمٌ في الحياة اليابانية القديمة الزاهية الالوان ، حياة الآباء والاجداد المنحصرة ضمن نطاق ضيق من المطامح والمصالح ، وقدم اخرى في حياة القرن العشرين ، حياة السياحة ، والانباء البرقية ، والصناعة الآلية ، والتجارة الدولية ، والاقتصاد الرأسمالي الذي ينزع الى البسطة والتوسع

خذ اية صورة في متناول يدك لوزارة يابانية ، تتبين فيها صحة ما نقول . انك ترى فيها طائفة من مدبري شؤون الامبراطورية في ملابس على احدث الازياء الرسمية الشائعة في اوربا واميركا ، وترى طائفة اخرى في ملابس اجدادهم الاقدمين . فالجنرال اراكي وزير الحربية اليابانية سابقاً وزعيم اليابان العسكري او زعيم الروح العسكرية فيها، يرتدي اللباس العسكري المصنوع من قماش « الكاكي » في مكتبه ، فاذا فاجأه احد الصحافيين او المصورين ، في داره ، رأوا ان اللباس العسكري قد زال ، وحلت محله الملابس الواسعة المتدلية ، الزاهية الالوان ، التي تراها في الصور المأثورة عن اليابان

وما يصح على رجال الدولة وزعماء الامبراطورية من هذا القبيل يصح كذلك ، على شؤون الحياة العادية الصغيرة والتافهة . ففي الدار اليابانية اليوم جناحٌ من الغرف الاجنبية — قد يكون الجناح غرفة واحدة او بضع غرف — يحتوي على موائد وكراسي وطنافس ، كما تراها في نيويورك او باريس ، ولكن بقية البيت يابانية محضة فأرض الغرف مغطاة بحصر ذهبية اللون ، لا تحدث صوتاً ، اذ تمشي عليها ثم هي خالية من الاثاث ، الا من موقد وطبق وبضع وسائد

او خذ رجل المال والتجارة والعمل . فانهُ يقضي نهاره في مكتبه على كرسي دوّار ، بين الآلات الكاتبة والتليفونات ، والفتيات المختزلات ، وقد يتناول طعام الغداء في ناد فخم ، ويستريح قليلاً بعد الغداء بسماع خطبة لاسلكية في موضوع يهمه ، ولكن اذا انقضى عمل النهار عاد الى داره واستحمّ في حمام خشبي فيه الماء الساخن ، والبخار يعقد فوقه غيوماً كالحمام التركيّ ، ثم هو يرتدي الملابس الحريرية الفضفاضة ، ويأكل طعاماً يابانيّاً وهو جالس على الارض الى مائدة لا تعلو اكثر من قدم واحدة عن سطحها . اما بناته اللواتي قضين النهار في مدارسهنّ او اعمالهنّ مرتديات الملابس الرسمية

فيحطنَ به مساء في «كيمونانهن» الفضفاضة الزاهية، يهزجنَ ويضحكنَ وهنَّ يفحنَ شذا الشباب

فالياباني عند ما يعود من مكتبهِ الى دارهِ ، كأنهُ ارجع عقرب الساعة التاريخية ، مائة سنة الى الوراء ، ارتد من الحضارة المادية التي اخذ بها — ولكنه لا يجد فيها راحته — الى حضارة لم يبقَ منها الاَّ بعض هذه الآثار التي يتمتع بها . ولكنه مع ذلك يتمتع بكل ما يستطيع ان يتمتع بهِ ، فالصحيفة التي قرأ فيها صباحاً اسعار بورصات العالم، يقرأ فيها مساء قصةمن عهد الفروسية اليابانية القديمة ، فاذا خرج بأفراد الاسرة الى دور السينما ، وجد أمامه في ناحية أفلام هوليوود أو أفلام اليابان الجديدة التي تقتفي أثر هوليوود ، وفي ناحية أخرى الروايات القديمةحيث لاتدخل البواعث الجنسية على حياة قائمة في صميمها على الاخلاص والامانة . ان الروايات التي من هذا القبيل في اليابان تفوق الروايات الاخرى جميعاً مرتين على الاقل

﴿ الجذب والدفع ﴾ هذه الثنائية او هذا الازدواج في حياة الياباني، حيث يمتزج تياران مختلفان كل الاختلاف، يتمشى في مختلف نواحي الحياة اليابانية ، وتستطيع ان تتبينه ، في موقف اليابان نحو اميركا . قال الكاتب — هيو بياس ونظنه يابانيًّا تعلم في اميركا ويكاتب الصحف الكبرى وعليهِ نعتمد — انهُ كان ماشياً في طوكيو في ليلة من ليالي الخريف ، فسمع اصوات شبان وشابات يتكلمون الانكليزية بغنة اميركية فالتفت دهشاً فألقى بنظره على المطعم المنير ، حيث الصوت الذي استرعاهُ ، فوجد نحو ستين او سبعين من الشبان والشابات ، جلوساً في غرفة ، وقد أزيل من وسطها كل أثاث توطئة للرقص وكانوا جميعهم يابانيين

كان هذا الجمع ، من اليابانيين المولودين في اميركا او الذين تلقوا علومهم هناك ، ثم عادوا الى وطنهم ، فلما حدَّثهم الكاتب ، قالوا له انالآراء الشائعة في الاوساط اليابانية عن الحياة الاميركية مستمدة من مشاهدة الافلام الاميركية ، وهذه لا تمثل الحياة الاميركية الصحيحة ، او هي تمثلها تمثيلاً مشوَّهاً كل التشويه . والطريقة الوحدة لتصحيح هذه الآراء ، هو تدبير سهرة بريئة على الطريقة الاميركية لكي يفهم اليانيون ما يقصد « باللهو » Good Time في اميركا ، فالذين يريدون ان يفهموا اميركا على صحتها ، ليشرفوا سهرتنا

والغريب الذي يبعث على الدهشة ، انهُ في المدة التي كان هؤلاء الشبان يسعون هذا السعي الصالح ، كان في اليابان توجّس شديد من اميركا ، بل ان السياح الاميركيين كانوا يرون عقبات كبيرة في سياحتهم في اليابان ، لان اليابانيين كانوا يظنون كل سائح اميركي جاسوساً يحمل في طيات أثوابهِ الوسائل التي تستبيح أسرار اليابان الحربية . ويقال ان جماعة من السياح ، كانوا يطوفون منطقة جبلية ، فكان البوليس يعترضهم ثم يفرج عنهم ، فطلبوا اخيراً من ادارة البوليس ، ان يرافقهم أحد رجال البوليس ، من منطقة الى المنطقة التي تليها فيسلمهم للشرطي التالي ويقول له انهُ لا غبار عليهم فلا يعترض سبيلهم بعد ذلك

أمر غريب في القرن العشرين ! كان السياح يطلبون عون البوليس ضد قطاع الطرق في البلدان التي فقد فيها الامن . اما في اليابان ، في تلك الفترة ، فاضطرت هذه الطائفة من السياح الاميركيين ان تطلب معونة البوليس ، للحماية من البوليس !!

وأغرب من ذلك القصة التالية : ذلك ان لاحد بنوك نيويورك مكاتب في اليابان . وهذا البنك طلب الى فرعه في اوساكا ان يجمع له بضع صور فتوغرافية لاهم مباني اوساكا يستعملها في مجموعة تبين سعة نطاق الاعمال المالية التي يقوم بها البنك . فاستدعى المدير مصوراً يابانيًّا وطلب منه ان يصور له بناية المحافظة والبورصة وغرفة التجارة وغيرها ، فرأى أحد رجال البوليس المصور وظنّ ان هذه الصور سوف يستعملها سلاح الجو الاميركي ، اذ يهاجم اليابان ويحاول ان يلقي القنابل على اوساكا فقبض عليهِ وحقق معهُ . ولما كان المصور في حدود القانون ، أُخلي سبيله ، ولكن القصة تسربت الى الصحف فهوِّل بها ، وهي بنفسها تبين لك ناحية من نفسية اليابان في موقفها نحو اميركا

***

ان التوجس من التجسس امر طبيعي في بلاد كاليابان . فموظفو الحكومة يراقبون للتثبت من انهم يقومون بأعباء مناصبهم ، والرعية تراقب للتثبت من ان افرادها لا يأتمرون بالحكومة . فاذا جاء اجنبي للسكن في اليابان ، زاره رجل من رجال البوليس فيدون اسمه وجنسه وعمره ومسقط رأسه ورعيته واسماء والديه ووالدي زوجته وفي كل شهر يعود رجل البوليس ولو أقام الاجنبي عشرين سنة في اليابان لكي يتأكد من صحة المعلومات التي دونها، ولكنهُ في زياراته التالية لا يقلق الاجنبي بأسئلته بل يكتفي بسؤال الخادم

أما الذين تطول اقامتهم ، فيتعودون مجيء رجال الشرطة لسؤالهم عن اسمائهم واعمارهم ورعويتهم ومن أين قدموا والى أين هم ذاهبون ، فيردون عليهم بمثل الادب الذي توجه بهِ الاسئلة اليهم ، ويمضون في طريقهم

واما الذين يكونون حديثي العهد بالاقامة في اليابان ، فيحنقهم مثل هذا التصرُّف ، واذا كانوا اميركيين اعتبروه اهانة موجهة الى كرامة دولتهم . فاذا أساء احد الموظفين الصغار ، لجهل بلغة الاميركيين ، جهلَ الاميركيين بلغة اليابان ، جعلت الحبة قبة ، وذهب الاميركي الذي يعتبر نفسه قد أهين ، لا يحمل لليابانيين الا الحفيظة والا الضغينة

وقد يكون توجس اليابانيين من التجسس ، واشتدادهم في الاقتصاص من الذي ثبتت عليهم التهمة ، او في معاملتهم المشبوهين حتى تثبت براءتهم باعثاً على جفاء الصلات بين اليابان واميركا . في مثل هذه الحال يخطر لبعض الموظفين او الزعماء ، ان اميركا تبغي التجسس على اليابان وهو لا يدري ان المرسل او السائح العادي المتجول للتفرج يندر ان يتمكن من جمع الحقائق الحربية في خلال تجوله

ولكن الظاهر ، انهُ اذا أصيبت أمة بداء « التوجس من التجسس » فقدت بوجهٍ عام نظرها السليم ، وحكمها الصائب

اما الاميركيون في اليابان فيصابون بداء مختلف عن داء « التوجس من التجسس » الذي يصاب بهِ اليابانيون . فخوف اليابانيين من تجسس الاميركيين عليهم دائم ، ولكن الاميركيين يفطنون اليه في بعض الاحيان فجأة كأنهم كشفوا شيئاً جديداً خطيراً ، فيروحون يروون الروايات عما أصابهم وأصاب أصدقاءهم منهُ ، ويتخذون من ذلك دليلاً على ان اليابانيين يمقتون الاميركيين. فاذا صدقوا ما يقولون ، فليس أسهل عليهم من ان يعتقدوا ان الحكومة اليابانية من وراء هذا كله ، وانها هي التي تدفع رجال البوليس ليعترضوا سبيل السياح الاميركيين . فيحاولون ان يثيروا الرأي العام على موقف اليابان وسياسة اليابان وعلاقة الحكومة الاميركية باليابان

﴿ لمحة تاريخية ﴾ ظلت علاقات اليابان بأميركا خلال ثلاثين سنة ، بعد ما دخلها الكومندر بيري الاميركي في اواسط القرن التاسع عشر، متصلة بأميركا صلة يفوح منها عطر الصداقة والولاء . ان تلك السنوات تركت في نفوس شبان ذلك العصر — وقد اصبحوا كهولاً وشيوخاً الآن — اعتقاداً عميقاً بأن اميركا دولة تسعى الى الغايات والمثل العليا . لذلك كان الاخلاص قوي الصلة بين اليابانيين والاميركيين . وهذه الصورة الراسخة في أذهان الكهول والشيوخ عامل فعال في تسهيل الأمور اذ تتعقد بينهما ؛ في عصر خرجت فيهِ اليابان من طور الشباب والتلمذ لأميركا وأصبحت دولة قوية لها مطامع الدول القوية ومصالحها

وقد كتب الرئيس فرنكلن روزفلت ، من بضع سنوات مقالاً أثبت فيه ان تغير موقف اليابان نحو اميركا يرجع الى حين احتلت اميركا جزائر الفليبين . عندئذ بدأت الدوائر الحربية والبحرية في اميركا تتحدث في موضوع الدفاع عن هذه الجزائر ، والوسائل لذلك الدفاع ، حالة ان اليابان ، لما رأت أمة غربية تقتحم جيرتها الجنوبية ، استعملت هذا الاقتحام في الدعاية لزيادة أسطولها

على ان الغرض من استعداد اليابان الحربي والبحري حينئذٍ لم يكن اميركا ، بل روسيا . ولما نشبت الحرب بينهما في مطلع هذا القرن كان موقف الرئيس تيودور روزفلت ، موقف عطف على اليابان حينئذٍ

فلما وقعت الحكومة الصينية ، معاهدة سنة ١٩١٥[1] التي اجابت بها مطالب اليابان الصارمة ، اعلنت حكومة الرئيس ولسن ، انها لا تعترف بأي تغيير ، تحدثه المعاهدة يضر بمصالح اميركا . فلما حاول الرئيس ولسن ، في مؤتمر الصلح ، ان يخرج اليابان من شانتنغ (وهي منطقة في الصين كانت ملك المانيا قبل الحرب ، وانتزعتها منها اليابان خلال الحرب ، ولها شأن تجاري وحربي) ظن

(١) معاهدة عقدت بين اليابان والصين بعد انذار نهائي من جانب الاولى ، سلمت الصين بمطالبه مرغمة، وهي ٢١ مطلباً من شأنها تثبيت قدم اليابان على البر الصيني

الاميركيون ان ما يفعله ولسن ، انما هو حب بالانسانية وبمساعدة الصين على تحرير نفسها ولكنهُ كان في الواقع خدمة لمصالح التجارة الاميركية في الشرق الاقصى. اما اليابانيون فحسبوا ذلك تعدياً وتدخلاً في منطقة من الشؤون ترجح فيها مصالحهم على مصالح اميركا . فلما عقد مؤتمر وشنطن البحري ، وعاد المستر هيوز — وزير خارجية اميركا حينئذ — الى الموضوع واقنع اليابانيين بأخلاء شانتنغ والغاء معاهدتها مع انكلترا لقاءَ معاهدتين عقدتا بين الدول ذات الشأن على الاحتفاظ بوحدة الصين وسياسة الباب المفتوح ، ثبت لاميركا حق التدخل في شؤون الشرق الاقصى

***

اما في العهد الحديث فقد راقب اليابانيون ، باهتمام وحذر ، تدخل المستر ستمسن (وزير خارجية اميركا في عهد هوفر) في موضوع الخلاف على منشوريا . فالمستر ستمسن ، كان يدافع عن حرمة المعاهدات المعقودة ، والسلام العام . ولكن اليابانيين ، لشدة انشغالهم بمكافحة المظالم التي يشكون منها ، لم يروا ان اثبات حقوقهم ، في بلاد تجاورهم ولكنها عرضة للفوضى المستمرة ، من طبيعتهِ ان يقلق السلام العالمي . انهم لم يدركوا ، ان الاميركيين لا تهمهم منشوريا ، بقدر ما يهمهم تنظيم السلام العام في الشرق الاقصى حتى تبقى سبل التجارة ميسّرة فيهِ . فخطة وزارة الخارجية الاميركية ، كانت من قبيل التدخل في شؤون الشرق الاقصى ، الذي ايده المستر هيوز ، بمعاهدات ١٩٢٢ اذ أقنع اليابان بالخروج من شانتنغ وإلغاء معاهدتها مع انكلترا وهذا ما يرفضهُ الياباني الآن

ان جماعة الشبان والشابات اليابانيين الذين كانوا يحاولون أن ينشئوا برفضهم حلقة بين اميركا واليابان ، والحوادث التي قبض فيها على اميركيين بتهمة التجسس ، يمثلان قوتي الجذب والدفع بين اميركا واليابان ، فحيث تتوافر المعرفة الشخصية تعقد اواصر الصداقة والثقة والعطف . اما حيث تقتصر العلاقة على الاعمال الرسمية وخطب رجال السياسة في المواقف العامة ، وجهل صغار الموظفين وتسرع الصحف تجد التوجس والحذر والريب

﴿ الحرب والاشاعات ﴾ في ظل هذا التوتر في الصلات الاميركية اليابانية ، بدأ الهمس بحرب تقع في المحيط الهادىء . ثم ارتفع الهمس اذ اقدمت اميركا على زيادة اسطولها حتى يصبح حيث تسمح لها به المعاهدات البحرية المعقودة . هنا يتمهد الميدان لاصحاب « العلم اليقين » من مروجي الاشاعات . قال المستر هيوبياس انهُ قبيل كتابة مقالهِ ، جاءَهُ اميركي سأله هل صحيح ما يقال في هنولولو (عاصمة جزائر هواي وهي جزائر تابعة لاميركا في وسط المحيط الهادي) من ان اليابان تستعد لغزو هذه الجزائر . وان هذه الغزوة سوف تكون المرحلة الاولى في حرب اليابان مع اميركا . وقال كذلك انهُ قيل له ان اميركا محتفظة بأسطولها على قدم الاستعداد للنزال في المحيط الهادي استعداداً للطوارىء وان ٢٧ الفاً من الجيش سوف يضمون قريباً الى حامية الجزائر

وما يقال في الناحية الاميركية يقال في الناحية اليابانية ، فقد زار احد الاميركيين اليابان حديثاً وتعرَّف الى اعلى طبقاتها الاجتماعية ، فلاحظ ان كل حديث مع كل ياباني كان يدور حول السؤال الآتي : « هل تقصد اميركا ان تحارب »

ان اليابانيين يسألون، لماذا تريد اميركا أن تتدخل في شأن منشوريا ، وهي التي فصلت في مشكلتي كوبا وبناما بالقوة المسلحة . فاذا اجيبوا بان حل المشكلتين الكوبية والبنامية بالقوة تمَّ قبل عهدة كلوج ، وان حل مشكلة منشوريا بالقوة تمَّ بعدها ، قلب الياباني شفته ولم يزد . ولسان حاله يقول : « لماذا لا تتركوننا وشأننا . اننا لا نتدخل في شؤونكم في اميركا . فلماذا تريدون أن تتدخلوا في شؤوننا في منشوريا »

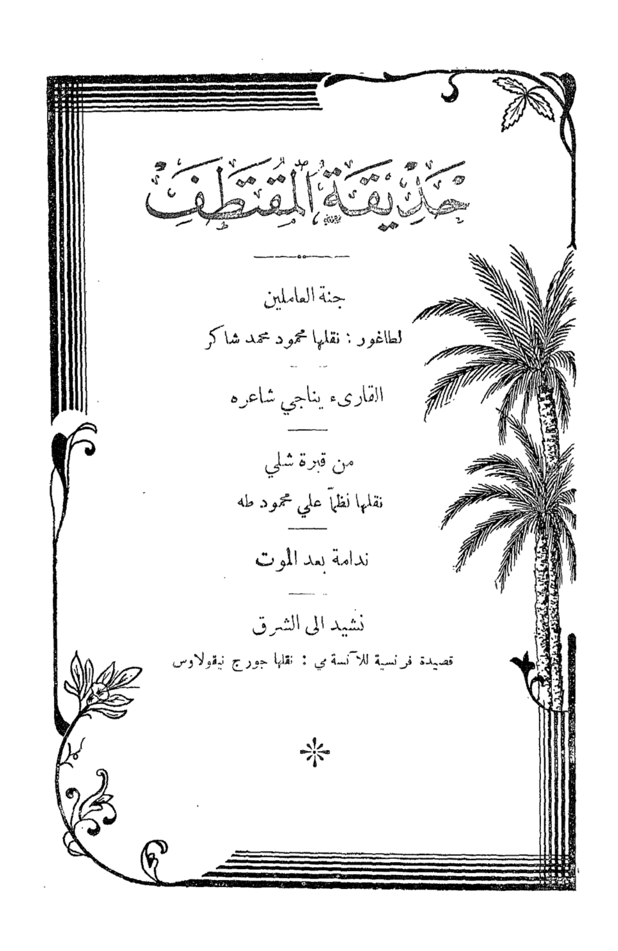
﴿ حيرة الياباني ﴾ لذلك ترى الياباني متحيراً ، لان الامة التي كان لها اكبر وأوسع نفوذ ثقافي في ترقية بلاده ، هي البلاد التي تتصدى له وتقف في وجهه إذ يحاول ان يوسع ملكه الضيق . ان البلاد التي يعجب بها كل الاعجاب ، ويحسب وسائلها واساليبها آخر وأرقى ما أبدعهُ الانسان ، هي البلاد، التي يخشاها اكثر من جميع البلدان . ويزيد هذه الحيرة أثراً في النفس ان الامة التي تقف في سبيله ، هي اغنى امة على وجه الارض ، غنيٌّ فعليًّا ، وغنيٌّ كامناً ، وان بلاده ، هي بالنسبة الى كثرة سكانها ، وجفاء ارضها ، أفقر الامم

لذلك يجب ان تذكَر المصاعب التي تواجهها اليابان، إذ تعدَّد اخطاؤها

ولكن اذا كانت اليابان قد اتخذت خطة خطيرة ولم تحسب حساباً لاحد — اي مغامرتها في منشوريا — فيجب ان نذكر ، ان اليابان كانت قد بلغت في حراجة موقفها الاقتصادي حد اليأس. ان حالة الصين — بلاد سكانها نحو ٤٠٠ مليون نسمة — المضطربة تثير المخاوف . ماذا تفعل اميركا ، لو كانت الصين مكان كندا ؟ او لو كانت كندا كالصين ، قلقة مضطربة ، فيها بذور الفوضى والثورة والانقلاب ، كالمارد لا تعرف ما تكون الخطوة التالية التي تتخذها

***

لا ريب ان في خطة اليابان خطراً على السلام في الشرق الاقصى ، ولكن اليابانيين يحيّرهم ، ان المصاعب التي يواجهونها، لم تدرس بعطف ، وان الاعمال الجليلة التي اتموها، لم تقدر التقدير الجدير بها . انهم يرون انفسهم بلاداً، تحترم الملك الخاص ، والامن العام ، وتنفيذ القانون ، وتحمي الحرية الفردية ، وتؤيد التعليم العام ، ودستورها مبني على اصول برلمانية ، أي انها تحترم المبادىء الاساسية التي تحترمهـا اميركا . ثم هي ترى نفسها العنصر الوحيد المستقر في قارة ضربت فيها الفوضى — فيدهشها ويؤسفها ان لا تحسبها أميركا الاَّ « الولد الشقي » الذي يجب ان ينهَر او ان يؤدب



حديقة المقتطف

جنة العاملين

لطاغور : نقلها محمود محمد شاكر

القارىء يناجي شاعره

من قبرة شلي

نقلها نظماً علي محمود طه

ندامة بعد الموت

نشيد الى الشرق

قصيدة فرنسية للآنسة مي : نقلها جورج نيقولاوس

نقلها محمود محمد شاكر

١ — جنة العاملين

لرابندرانات طاغور

كان صاحبنا لا يدين ابداً بثمرات العمل ؛ فطفق ينغمس في بدوات من جنونه اذ لم يرَ عملاً نافعاً يعمله .... واخذ نفسه بعمل الدُمى الصغيرة في صور رجال ونساء وقلاع ، واخرى من أواني الفخار مرصعة بأصداف البحر ، وكان حيناً يصوّر بألوانه ما شاء ، وبذلك اضاع ايامه فيما لا يجدي ولا ينفع . وقد أثار الناس حتى سخروا منهُ . فكان يعقد العزم وينذر على نفسه ان ينفضَ من رأسهِ هذه البدوات المخبولة ولكن هذه البدوات ما كانت لتدعهُ وما إن تزال متعلقة بهِ

ان بعض الصغار لا يقرأ من كتبه شيئاً ولكنهُ مع ذلك يجتاز الامتحان وكذلك كان أمر صاحبنا فانهُ أنفق عمره على الارض فيما لا يجدي وحين فاضت روحهُ فتّحت لهُ أبواب السموات . ولكن القدر يجري حتى في السموات ، فقد حدث ما حدث فان الروحَ الذي وكّل بهِ اخطأ القصدَ وانزلهُ في « جنة العاملين »

وانك لتجد في هذه الجنة كلَّ ما تتوهمهُ الا الفراغ ، فهناك يقول الرجال « ربّنا ما لنا من ساعةٍ نستريح اليها » وثَمَّ النساء يقلنَ « الوحَى الوحى . يا أحبابنا — فان الزمن يطير » والجميع يقولون « الزمن غالٍ ثمين » « ان أيدينا لا تخلص ساعةً من اعمالها ، وإنا لنستفيد من كل دقيقة بالعمل » ثم يتنفسون الصعداء ، وقد كانت هذه الكلمات نفسها تشعرهم اللذّة والسعادة

ولكن هذا الواغل — الذي صرف كل حياتهِ على الأرض خليًّا لا عمل لهُ — كان شذوذاً في اسلوب الحياة في « جنة العاملين » فتقاذفته الطرق هائماً مذهوباً بعقله يصطدم بالرجال الدائبين على عجل ، وكان حيناً يلقي بيدنهِ على نبات الارض فيسلقهُ الزارعون بألسنة حداد اذ كان أبداً لَقيً في طريق غيره

وثَمَّ كانت تمرُّ فتاة يجري بها الدؤوب ويستفزُّها النشاط — لتملأ ابريقها من مندفع سيل (وقور صامت) — سيل صامت وان السيل في « جنة العاملين » ليأبى ان تضيع اسباب نشاطه في التصويت والطرب

وكانت خطوات الفتاة على الطريق أشبه شيء بالحركة السريعة من بنانِ ماهر بارع على اوتار قيثار ، وكان شعرها مرسلا في غير عناية وترى خصلات منه يفيّئها النسيم على جبينها وكأنها تشرف على سحر نظرات عينيها

وكان هذا الفارغ الخليُّ واقفاً على النبع لا حراك بهِ . وكما ترى الملكة من خلال

النافذة سائلاً منبوذاً فتأخذها الرحمة فكذلك رأت الفتاة الالهية هذا الخلي فأخذتها الرحمة . فسألتهُ : « ها . أما لك عمل بين يديك تعمله ! »

فأرسلها صاحبنا زفرة « عملٌ .... ! ما اجد من ساعة افرغ فيها للعمل »

فحارت الفتاة في معنى ما يقول ثم قالت « لئن احببت لأهيئنَّ لك عملاً تعمله »

قال « يا ابنة السيل الصامت . هل لك ان ترمي اليَّ بابريق من اباريقك ؟ »

« ابريق ... ! اتودُّ ان تستقي من مجرى السيل »

« لا ..... بل أودُّ ان اصوّر على ابريق بعض التهاويل »

فبرمت به الفتاة وقالت . « ما اجدُ لي ساعة اضيعها مع مثلك ، لأدعنَّك » وتركته وسارت لطيتها . ولكن — كيف يعلو انسان عامل بالغلبة على من لا عمل له؟!

وجرى الزمن وهما يلتقيان في كل يوم وفي كل يوم يقول لها «يا ابنة السيل الصامت ارمي اليَّ بابريق من اباريقك لأصور عليه بعض التهاويل» واخيراً لان له قلب الفتاة ، ورمت اليه بابريق

وبدأ صاحبنا يصوّر ، واخذ يمدُّ خطاً بعد خط ويضع لوناً الى لون فلما فرغ رفعت الفتاة بابريقها ومدت اليه عينين ملؤها الحيرة والعجب وقوست الدهشة حاجبيها ثم سألتهُ : «اي معنى ترمي اليه هذه الخطوط الكثيرة وهذه الالوان العديدة ثم ما الغرض منها ؟ » ثم حملت اباريقها وولّت ، وفي دارها — وقد بعدت عن العيون المتجسسة — رفعت ابريقها الى الضوء وادارته يمنة ويسرة تنظر الى الصورة من كل ناحية . وحين ارخى الليل سدوله قامت من مضجعها ، واشعلت نبراسها وحدجتهُ بالنظرات في صمت وحيرة . ولاول مرة في حياتها ترى ما لا معنى له ولا غرض منهُ

وفي اليوم التالي نهضت الفتاة الى عملها والعجل الذي كان يمدُّ خطواتها قد بدأ ينقص اذ ثارت في ذهنها الافكار التي لا غرض لها ولا معنى فيها

فلما بلغت موضع مسيل وجدت هذا الفارغ الخلي هناك فسألتهُ مغيظة محنقة « ويلك ايها الرجل ... بل ماذا ... ماذا تبتغي مني » ؟

« ما ابتغي شيئاً الا عملاً اظفر به من يديك » « واي عمل تريد » !

« ذريني انسج لك عَصَباً ملوناً تعصبين بهِ شعرك ، ان بلغت بهذا رضاك»

« ولماذا ... ! ! » « لا لشيء»

وصنع لها العَصَب يَزْهَرُ بألوانه ... وهنا اخذت الفتاة الدائبة في جنة العاملين تنفق اوقاتها كل يوم في وضع هذا العَصَب على شعرها ، وفرَّت الساعات وراءها الساعات ضائعة مضيّعة ، وبقي عمل على عمل لم يتمّ . وبقيت الاعمال في جنة العاملين ناقصة

من ذلك الوقت ، واصاب الفتور كثيراً ممّن كان قبل لا يمسّهُ نصبٌ ولا لغوب واضاعوا الساعات الغالية فيما لا ينفع كالتصوير وصنع التماثيل

فلق شيوخ الجنة ودعوا الناس اليهم واجمعوا الرأي على ان هذا حدثٌ عجيبٌ لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الجنة . وبينا هم كذلك اذ اقبل الروح الذي وكّل بصاحبنا وانحنى للشيوخ اجلالاً واقر بما فعل . «اني اتيتكم خطأً برجل تقع عليه وحده تبعات هذا الحدث»

فنودي بهِ فدخل ورأى الشيوخ بزته العجيبة ، وآلات تصويره ، ولفائف صوره التي في يده ، فَقرَّ في أنفسهم ان ليس مثل هذا من رجالِ جنة العاملين فقال لهُ الرئيس متجافياً مُغَلِّظاً : «ليس هذا مكانك ايها الرجل ، فعليك ان ترحلَ عنا لساعتك»

فأرسلها صاحبنا زفرةً وجمع أَداته وآلته وهَمَّ وبينا هو على نوَى الرحيل اذ جاءت « ابنة السيل الصامت » من اقصى الجنة تسعى

« تَلَبَّثْ قليلاً ، فأنا أيضاً راحلة معك». فأخذ العجب كل مأخذٍ من الشيوخ فما جرَى يوماً ما في جنة العاملين حدث كهذا لا غرض له ولا معنى فيه

٢ — القارئ يناجي شاعره

لرتشرد لا غالين

ويحكَ ، ايها الشاعر ، اما ينتفض بك الحسُّ اذ تجدني اضم الى قلبي اغاريدك ، وان انت الاّ رِمّة وتراب ، وحين آوي بها مع الليل الى وسادي اقبلها قبل ان يعقد الكرى اجفاني ثم اصبّحها بقبلة على وجه الفجر الندي حين يستشرق من وراء الليل

ويحكَ ، أما اني لادع الشمس تفيض على صفحاتها من ضوئها الطهور ، واهبها لنسمات الفجر ترتاح بين اوراقها كما ترتاح بين اوراق الورد

واني لأحمل ديوانك بين يدي فأدسُّ وجهي في صفحاته كما دفنته بالأمس في فؤاد زهرة ندية .... كلاَّ بل فيما هو اعزُّ منها ومن فؤادها مكاناً واشهى

تعلَّمْ ايها الشاعر ، ان الوفاَ من الورى يحبونك كحبي اياك

وان الحبيبات ليبلغ بك حبهنّ الى مكان هو فتنة المتمني

اسعيد انت ايها الشاعر ? وان من امانيَّ حيناً بعد حين ان احيى في مثل ما تحيى فيه من المحبة والاحدوثة ، ومن افراح قلبي ان اتغنى بمثل اغانيك ثم اسلم الروح

نبّئني ، ايها الشاعر ، اما تمنحني مجدك هذا وعليَّ ان اردَّ على بواليك ميعة شبابي؟ باذلاً لك حياتي وأيامي في ضوء الشمس لاظفر بواحدة من مثل اغاريدك الجميلة

الى طائر صداح

من « قبرة » الشاعر العبقري شلي

[نقل الشاعر علي محمود طه المهندس هذه القصيدة الخالدة مراعياً في النقل دقة التعبير عن معاني الاصل الانكليزي ومحافظاً على مقتضيات البيان الشعري العربي وجامعاً ما امكن بين الاثنين]

من أنتَ ؟! يا من يجوب الليل منفرداً ... ولم تقعْ لي عليهِ بعدُ عينان ؟
أيٌّ الخليقة قل لي انت تشبهُ ؟؟ ... وايها منك في اوصافهِ داني ؟
وهذه السحب أصباغاً مشكلة ... في رائع من فريد اللون فتان
لا ينزل الغيثُ منها مثلما نزلتْ ... شتى اغانيك في سحريّ ألحان

كشاعر في سماء الفكر مختبيء ... دلَّ الوجودَ عليهِ لحنهُ العالي
ألحان اغنية امسى يرتلها ... كمرسل من نشيد الخلد سيال
أسلْنَ بالعالم السالي خوالجهُ ... حتى استحال شجوناً قلبهُ السالي
بعثنَ من ألمٍ فيهِ ومن أمل ... ما لم يكن منهُ في يوم على بال

كأنَّ حوريةً في ظلِّ شاهقةٍ ... من البروجِ تقضي العيش في خلسِ
لم يُغمض النومُ عينيها ولا خمدَتْ ... نيرانُ قلب لها في لجة الغلسِ
باتتْ تلطف آلاماً تساورها ... في عزلةٍ — بنشيدٍ ساحرِ الجرسِ
تطوفُ الحانُ موسيقاهُ تخدعها ... كأنهُ الحبُّ في ايقاعهِ السلسِ

كأنَّ بين الرُّبا التفَّتْ خمائلُها ... فراشةٌ من سبيكِ التبر جلواءُ
يا حسنَ أجنحةٍ منها مذهبةٍ ... قد رَقشتها من الاسحارِ انداءُ
تُري السماءَ صفاءً فهي ان خطرت ... فللسماءِ بهذا اللونِ اغراءُ
تجلو الازاهرَ والاعشابَ طلعتها ... اذا بدتْ ولها فيهن اخفاءُ

كزهرةِ الحقلِ في غيناء سرحتها ... لم يملأ النورُ منْ أجفانها حدقا
حتى اذا لفحتها الريحُ هاجرةً ... زكتْ وأربتْ على املودها ورقا
وأرَّجَ الحقلَ من انفاسها عبقٌ ... يشوقُ كلَّ جناحٍ نحوها خفقا
تهفو اليها من النسماتِ أجنحةٌ ... منْ كلِّ منطلقٍ من عطرها سرقا

ووقع لحنك في الاسحار أرخم من وقع الندى فوق أعشاب البساتين
قد نقَّط العشب المنضور سلسلهُ وجاد بالطلِّ أفواف الرياحين
يا من على صوتهِ في الافق منسجماً تصحو الازاهر في أفنانها الغينِ
كلُّ البدائع مهما افتنَّ مبدعها لم تعدُ لحنك في صوغٍ وتلحينِ

قل لي أمن ملكوت الروح منطلق!؟ ام طائرٌ انت في الآفاق هيمانُ !؟
اي الخواطر من حسنٍ ومن بهج يشيعها منك في الارواح وجدانُ !؟
لم تشرئبُّ قلوبٌ من اضالعها لغير صوتك او تنصبُّ آذانُ
حديث حب وخمر بات يسكبهُ من جانب الله النغام والحانُ !!

من أينَ تلك الاغاني أنت ترسلها !؟ من أي مطردِ الينبوع منسجم !؟
من أي فائرة الامواج زاخرة !؟ وأي تلك المروجِ العذبة النسم !؟
من أي ضاحيةِ الآفاق صاحية !؟ أي السهولة والاغوار والقمم !؟
وأي حبٍّ أليفٍ منك أو وطن !! وأي جهلٍ لما نلقاهُ من ألمٍ !؟

وفي منامك والآفاقُ ساهمةٌ وفي انتباهك والظلماء إصغاء
لا بدَّ من نبإٍ للموت تعرفهُ وفي ضميرك منهُ اليوم أشياء
لأنت اعمق رأياً في حقائقهِ مما نراهُ ونحن اليوم احياء
او لا !؟ فكيف انسجام اللحن مضطرداً يجريهِ من رائق البلور لألاء !؟

انا نفكرُ في ماضٍ بلا اثرٍ ومقبل من حياةٍ كلها غيبُ
ومستحيلٍ نرجّي برقَ ديمتهِ وكلُّ ما نرتجيهِ منهُ مختلبُ
وكم لنا ضحكاتٌ غيرُ صادقةٍ ما لم يشب صفوها التبريح والوصبُ
وإنَّ أشهى الأغاني في مسامعنا ماسالَ وهو حزينُ اللحن مكتئبُ !؟

هبنا على رغم هذا ليس يجمعنا بالحقد أو كبرياء النفس أوهاقُ
فلا القلوب لدى البأساءِ جازعةٌ ولا بهنَّ اذا روّعن إشفاقُ
واننا قد درجنا في خليقتنا بلا دموع تذريهنَّ آماقُ
فكيف كنا إذاً نلقاكَ في صلةٍ !؟ او يغمر الروح لحنٌ منك رقراقُ !؟

يا أعذبَ الطير موسيقى وأروعها من كلِّ رائق أنغام وألحانِ
ويا أعزَّ لنا من كلِّ ما جمعت نفائسُ الكتب من دُريٍّ تبيانِ
ياما أحقَّ اقتداراً منكَ قدرتهُ بشاعر لبقٍ التصوير فنانِ
أنت المبرَّأ في حبٍّ وعاطفةٍ يا من تعاليتَ عن أرضٍ وانسانِ

***

أما تُعلمني مما يفيضُ بهِ غناؤكَ العذبُ تطراباً وتحنانا ؟
ذاكَ الجنونُ الذي يهدي توافقهُ إليَّ من صدَحات الخلدِ ألحانا !
ألستَ تلهمني وحياً يفيض بهِ فيَّ فأملأُ قلبَ الكون إيمانا ؟
أشدو فيلقي إليَّ الكونُ مسمعهُ يصغي إليَّ كما أُصغي لك الآنا ؟؟

ندامة بعد الموت

لبودلير : عن الترجمة الانكليزية

عند ما ترقد يا طيف جمالي القاتم ، تحت تمثال من الرخام الاسود ، في كهف مخدعك الرطب ، وتحت قبو مغارة ذلك المأوى ، وعند ما يعصر الحجر الكبير بثقله المروّع جوانب صدرك ، هنالك في خفة حالمة بهجة سيقف ذلك القلب عن ضرباته ورغائبه ، وهذه الاقدام المتقحّمة المغامرةَ عن عدوها

وهنا — هذا القبر — (يشير الشاعر الى قلبه) الذي ساهمني هواجسي وأنا مستغرق في شرودي الازلي ، طيله تلك الليالي ، حيث لا نوم لك بعد الآن ، سيهمس قائلاً . . . . . .

« لمن وقع هذا الخطى ! ؟ »

« من أنت أيتها الاقدام الفاجرة ! ؟ أنت التي لم تعرفي ما هي دموع الموتى ! ! »

وكوخزات تأنيب الضمير ستمضي الديدان في التهام جسدك . . . . . ***

نشيد الى الشرق

[نقله جورج نيقولاوس]

[الآنسة « مي » اشهر من ان تعرف . فكتاباتها منتشرة في كل صقع، واسمها ملء الافواه والاسماع . ولكن لا نظن ان كثيراً من قراء العربية يعرفون ان هذه النابغة شاعرة فرنسية وكاتبة بلغة ابناء السين لا يشق لها غبار . ولذلك ارتأينا ان ننقل لها هذه القطعة وهي من الشعر المنثور ليجتلي القراء محاسن كتابتها الفرنسية ، كما اجتلوا محاسن كتابتها العربية]

ايها الشرق !

يا شرقي الفسيح الجموح الليّن العريكة !

ياشرق العظمة واللطف والشهامة والحماسة والشهوة العاصفة في شدة كسموم الصحراء !

ان تصوراتي تتمثلك كأنك ضمنَ إطار . وها هو فكري تتبيّن له نقائصك وشدائدكَ ، واحتياجاتك وتضاربُ نزعاتك . انت فقير بنظمك وترتيبك ومناهجك ، انت اعزل قد جردك قضاء الزمن . غير ان معائبك كان فعلها في تجريدك اكثر من فعل قضاء الدهر وقدره . ان العلومَ تنقصُك ، ومواردك العديدة المبعثرة متملصة منك . وانت مُقسّمٌ لا مجموع لك

اعرف هذا كلّه . ولكن ثقتي بمستقبلك راسخةٌ لاتتزعزع ، مثل ثقتي التامة بالحياة

فما هي اذن هذه القوة التي تربطني بك ؟ لماذا يحبّب اليّ من كلامك تلك النبرات الشجية المتناسقة ، التي تبعث في القلوب الحنينَ الى الوطن ، وتلك اللهجات الحلقية السريعة ، وتلك الصيحات الداوية بخيلاء الجنس ، التي تنشر إتقادَ مناطقك الحارة ؟

ما هي تلك المجانسات العديدة الفائتة غير الممسوكة ، التي تربطني بشعوبك المتراكمة في بلدانك الكبيرة ، وفي ظلّ طلولك المجيدة وآثارك الخالدة ، كما تربطني بأعرابك الرُحّل الذين يتفيأون الخيامَ في صحاريك القاحلة المجدبة ، وبالقبائل المبعثرة على ضفاف انهارك او المتجمعة حول ينابيعك ، وبالقوافل التي تجدُّ أنجادك وأغوارك وبجميع تلك الفضائل المنتشرة في جبالك ووديانك ؟

بأيّ سرٍّ غريب أفضت اليّ هذه اللغة العربية في غابر الأزمان ، حتى اني عند ما اسمع لهجة من لهجاتها اشعر وكأني وجدت تفسيراً لما لا يفسرُ في نفسي ؟

لماذا كلما وقعتْ عيني على فردٍ من افرادك استشعر عرفاناً للجميل يختلج في داخلي ،

وتحناناً لا يستشعرهُ المرءُ الاَّ في لقاء قد قطع منهُ الرجاء بعد فراقٍ طويل الأمَدَ ؟

كلُّ غريزةٍ فيك ملحّة بعيدة الأغوار، تتملّكني وتسخّرني لك ، أيها الشرق ، أنا الذرّة الطفيفة بين مليارات المليارات من ذرّاتك ! ورغماً عن صِغَري ، لقد أودعتَ فيَّ صحاريك ومروجك ، وقُننَك البعيدة المنال ، وأغوارَ اوديتكَ ، وسيئاتك وحسناتك ، وزعازع مُناخك المَهُول ، ونشيدَ مزاميرك النائح ، ولياليك المخملية العميقة ، ووطيسَ شمسك المحرق ، وقلوبَ بنيك المقدامة الشديدة الحمية ، وقواك الابتكارية المتلازمة التي لا يَنْضبُ لها معين !

أترى هذه السماء ، التي هي سماؤك ، تنبسطُ في لونها المَمْنَجُوني الزاهي الموشَّى بالذهب والفضة والأرْجُوان ، وقد تمازجت هذه الالوان وتداخل بعضُها ببعض ؟

انها السماء التي أوْحتْ باعظم الرسالات الى الانسانية ، وأظَلّتْ تفتُّح الحياة وسيول الوحيِ والنبوّات . لانك عُيّنْتَ ، ايها الشرق ، لتكون الوطن الاول للعبقريات الأولى وللأبطال والملْهمين !

لقد كنتَ في حاجةٍ الى الراحة ثلاثة قرون اكتسبتَها بعد كل تلك القرون المليئة كدًّا ومجداً ، وكان مشروعاً ان مدّ مدنياتك المحسن العظيم يرتدّ لزمن ما بجزْرٍ محتوم ، تحت ضغط سنة التعاقب الظالمة التي لا تهادن ولا ترحم

ولكن ها تلك السنّة نفسها، التي تتحكم بمد البحر وجزره الجديدين وتضبطهما، تقرع ساعة اليقظة والسير الى الامام . فنهوضاً اذن ، رغم قيودك ورزاياك ، وانكسار عزمك وخمود همتك !

نهوضاً !

حولك يناضلُ الاقوياء ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليهِ الغَلَبة ! فهلاَّ سمعتهم مع ذلك يئنّون في الظلام : « الى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

مساكين انتم ايها الاشداء والاقوياء الضعفاء ! ايها العلماء العُظام ، الذين يجهلون الابجدية !

أيمكن أن يتلألأ الفجر دون ان يَغْمر النورُ المشرقَ ؟

أنت برج الضياء ، ايها الشرق ! انت مُوزّع اشعة الحياة !

فنهوضاً اذن ، والى العمل لتثقّف نفسك ! وعندئذٍ يبزغُ في أُفُقِك مشعلُ الاضواء واللهب !



مملكة المرأة

القوة والجمال : الاحتفاظ بهما

حياة الحب والزواج : اسئلة وأجوبتها

مقام المرأة اليابانية في ميدان الاعمال

قصص الحياة : موت يحيي حباً

طور الطفولة المبكرة

الاحداث وحكم لافونتين

القوة والجمال

والاحتفاظ بهما

التحول لا بدَّ منهُ

اذا استطاع الانسان ان يحتفظ بما اودعتهُ الطبيعة من الجمال [1] الى ما بعد الزمان الذي تزول نضارة الشباب فيهِ ويأخذ ذلك الجمال في الانحلال، فذلك مما لا يضيع فيهِ جهد الباحث ولا يذهب تعبهُ سدًى . ولا يؤخذ من هذا القول انهُ يمكن حفظ بضاضة الجلد ونعومتهِ ولونهِ ولون الشعر الى ما بعد الكهولة اذ تلك المزايا من مزايا الشباب ولا بدَّ ان تفارق الاجسام بمفارقتهِ. فكلُّ ما يبذل من الجهد في هذا السبيل لا يأتي بطائل . نعم ان عناية الانسان بجسمهِ واقتصاده في قواه واعتداله قد تؤخر تغضُّن جلده ولكن لا بدَّ ان يحول لونهُ متى حان الاوان . وليس ذلك بالامر المستنكر المستهجن اذ هو من قبيل وضع الشيء في محله فان ما يليق بالشاب لا يليق بالكهل والحكمة تقضي على كلٍّ ان يجعل منظره ملائماً لسنهِ

على انهُ يمكن تأخير الطوارىء والتغيرات التي تطرأ على شكل الجسم وموازنتهِ وحركاته في المشي والجلوس والنهوض وتناسب اعضائهِ وغيرها مما ينشأ عن اهمال التدابير الملائمة . فان التاريخ حافلٌ بذكر اناس أدركوا الحقائق المتقدمة فعرفوا وهم متقدمون في السن باعتدال قامتهم وخفة حركاتهم وانتظامها وتناسب اعضائهم . وما من احد الاَّ ويعرف رجالاً ونساءً بلغوا من الكبر عتيًّا وصار لهم الاولاد والاحفاد ومع ذلك بقي لهم الشيء الكثير من محاسنهم الاولى

كان معظم الناس الى عهد قريب اذا بلغ احدهم او احداهنَّ سنَّ الخامسة والثلاثين او الاربعين رغب عن الملابس الباهية الزاهية فخلعها وارتدى الملابس البسيطة القاتمة بدلاً منها كأنهُ يحدُّ على شبابهِ وذلك لانهُ اذا انحصرت واجبات الزوجين في دائرة منزلها واصبح معظم همهما تربية ولادهما قلَّ تفكيرهما في المحافظة على الامور التي تكفل إدامة الشباب ومحاسنهِ لهما . ولكن الحالة تغيرت الآن فصار الناس فريقين فريق الشباب وفريق الشيوخ . اما الكهول فدرجوا ضمن الفريق الاول حتى صاروا يعدون منهُ . وبناءً على ذلك انصرفت العناية الى إدامة الشباب والمحافظة على محاسنهِ ما استطاع الناس الى ذلك سبيلاً

---

(١) ان الجمال الذي يريده كاتب هذه المقالة هو نفس ما ورد في تعريف بعضهم للجمال تمييزاً له عن الحسن حيث قال ان الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة أعضائه . بل ان هذا الكاتب يذهب الى أبعد من ذلك ويريد بالجمال جمال اعضاء الجسم كله لا الوجه وحده

ولا ينكر على الزوج رغبتهُ في ان يرى زوجتهُ متمتعة زماناً طويلاً بالصفات والمزايا التي شوقتهُ الى اختيارها زوجة له . وحسن الوجه وجمال القدّ هما الصفتان اللتان عليهما مدار الزواج ولكنهما تختلفان باختلاف الاذواق . ومن المشاهد ان الزوج كثيراً ما ينتقي زوجتهُ لا لحسن حازتهُ ولا لجمال انفردت بهِ بل لتمازج بين الروحين وتلاؤم بين الطبعين ولكن الملاحة [١] هي المرجع الاخير في كلّ حال

جمال القد

والناس مختلفون في ماهية المليح والقبيح باختلاف اقاليمهم وعاداتهم وازيائهم . ولكننا اذ صرفنا النظر عن الفرق الشديد بين اذواق المتوحشين كاهالي اواسط افريقية ووادي الامازون والمتمدنين كاهالي نيويورك وباريس رأينا انهم متفقون على قواعد معلومة يجرون عليها الاَّ في احوال نادرة . ولو جئنا نبحث في الوجه وملامحهِ وتقاطيعهِ لضاق بنا المجال ولكننا نحصر كلامنا في القد وشكلهِ وحركاتهِ لان جمال القد هو الجمال الذي في طوقنا المحافظة عليهِ اكثر من غيره فنقول ان اعتدال القامة وسهولة حركة الجسم هما اساسُ جمالهِ ولا بدَّ لذلك من ان يكون الظهر عمودياً والبطن غير بارز ولا مترهل كما في السمان او الذين عضلاتهم مرتخية والكتفان غير مرتفعين والاضلاع على زوايا قائمة مع العمود الفقري والرأس قائماً على عنق مستقيمة مستديرة منحنية الى الامام قليلاً واذ مد خطٌّ عمودي من مؤخر الرأس وقع وسط الكتفين . فاذا اجتمعت هذه الصفات في انسان امكن تدقيق خصره من غير ان يلحق الجسم ضرر

واذا كان الحوض مستوياً والفقرات التي فيهِ مستقيمة كان عمل الجدار البطني صحيحاً فدعم الاعضاء المرتخية التي ضمنهُ وبقي الخصر دقيقاً . ولا يكون الخصر الدقيق جميلاً الاَّ اذا كان بروز الوركين مما يليهِ قليلاً . ولكن اذا كان بروزهما كثيراً ظهر الخصر مثل خصر النحلة وارتخت انسجة البطن والخاصرتين والظهر وضعفت اعضاء الهضم والاعضاء الرئيسية الاخرى وفقد القدُّ جماله باكراً . ويجب ان يكون الصدر عريضاً ممتلئاً والترقوتان غير ظاهرتين والاَّ كان ظهورهما دليلاً على ارتخاء عضلات الصدر والكتفين والظهر وعلى ان قمتي الرئتين لم تتسعا الاتساع الكافي . ويجب ان تتدلى الذراعان بسهولة من الكتفين وتقع الكفان امام الوركين واقلُّ عسر (يبوسة) في الذراعين او الكتفين او الكوعين يذهب برشاقة القد . ويجب ان يكون الجذع عند المشي مستوياً والصدر بارزاً قليلاً فتتحرك الركبتان بسهولة ويقلُّ الضغط عن العقبين . واذا كان الماشي يضرب الارض بعقبيهِ فقد الجسم رشاقته . ويجب ان يكون خطران الذراعين عند المشي مائلاً الى الامام نحو خطٍّ عمودي يمرُّ

(١) يراد بالملاحة الحسن والجمال معاً

في وسط الجسم . وميلهما في خطرانهما الى وراء الظهر عيب قبيح يجب اجتنابهُ بارجاع الرأس الى الوراء بحيث يقع طرفا الاذنين فوق رأسي الكتفين

الاقتصاد في القوى

ومن أهم الامور للمحافظة على الجمال اعتياد الاقتصاد في جميع القوى الطبيعية واجتناب الاسراف فيها وقت الانهماك في مشاغل الحياة . وقد يعترض على ذلك بأنهُ يكاد يستحيل على المرء ان يترك اعماله واشغاله ويتفرغ للاهتمام بنفسه والمحافظة على قواه صوناً لها من الاسراف . وجواباً عن هذا الاعتراض نقول ان الاقتصاد في قوى الجسم لا يستلزم ترك الاعمال والاشغال كما يخيل للمعترض . بل يتوصل الى الاقتصاد المذكور ان يوجه المعلمون والوالدون عنايتهم الى الاولاد الذين يوكل أمر تربيتهم اليهم ويمرنوهم على رباطة الجأش وسكون البال في مصائب الدهر وغيَر الزمان . والحق يقال ان السلامة من الاحزان والكوارث لا تسمو بالنفس الى المراتب العليا ولا ترقي العقل في الفضيلة بل تربي في المرءِ خلقاً تنقصه الاوصاف الجوهرية التي تدني النفس من الكمال وتكسب الوجه حسناً رائقاً . والصبر والثبات وغيرهما من الصفات التي تكوّن الأخلاق كل هذه لا تنمو في المرءِ وهو ملازم الهدوء والسكينة في المعيشة . ثم ان الاشغال والاعمال ومصاعب الحياة لا تضرُّ الجسم ولا النفس الاّ اذا أثرت فيهما تأثيراً يورثهما الضجر والقلق ويفضي بهما الى النكد او اليأس

واعظم عوامل الاقتصاد في القوى الحيوية المحافظة على القوة العصبية . وانفاق هذه القوة على وعين اما مباشرة واما بواسطة . فالاول ابسط واقلُّ ضرراً وامثاله ان تجهد عضلات ذراعك عند رفع ثقل ما الى حد ان تنفق من القوة العصبية ضعف ما يقتضي رفع الثقل حقيقة . والثاني اعمُّ من الاول وهو ان تجهد من عضلاتك اكثر مما يلزم لعمل عمل ما فتنفق القوة العصبية سدًى . ولا بدّ ان يتخلّل الاعمال العضلية فترات ترتخي العضلات فيها بعد طول انقباضها فتسترد قوتها التي انفقتها والاّ كلّت عن العمل . مثال ذلك اذا شرع رجلان في عمل يقتضي تعباً واحداً وجرى احدهما على مبدإِ الاقتصاد في القوى ولم يراعه الآخر فان الاول يتمهُ وهو لا يشعر بتعب والثاني يتمهُ وهو متعبٌ معييٌ . والانسان يدرّب جهازهُ العصبي من المهد الى اللحد تخيرٌ ان يكون عملهُ دقيقاً يراعى فيهِ جانب الاقتصاد من ان يفرّط فيهِ . وشرٌّ من الافراط التفريط . وكلاهما يفضيان الى اطفاء سراج الحياة وتقويض اركان الجمال

مرونة نسج الجسم

واول ما يجب الانتباه اليه لاطالة زمن الحسن والجمال المحافظة على مرونة نُسُج الجسم وعليهِ يمكن ان تعرّف الشيخوخة بأنها طور تصلّب الانسجة . ومنع ذلك او الشفاء منهُ يقومان باستعمال

حركات الجسم الطبيعية استعمالاً قانونيًّا . فاذا كانت اعمال الانسان تجري على وتيرة واحدة بلا تغير او كانت محدودة او غير ملائمة في نوعها وصفتها تصلبت النُسُج قبل الاجل المعتاد. واذا كانت عضلات الجسم لم تتناسق ولم تنم النموَّ الكافي ظهرت تلك التغيرات باكراً وكانت اكثر وضوحاً

وكثيراً ما يعدُّ الشيوخ طور الشيخوخة شرًّا يخاف او آخرةً تبكى وتندب ولكن الفلسفة تناقض ذلك . ثم اننا نعرف اناساً كثيرين بلغوا طور الشيخوخة ولا تزال وجوههم تفيض بشراً وقلوبهم تطفح رضىً وسروراً . فان الشيخوخة في الانسان تاج اكرام واحترام وبيدهِ ان يزين ذلك التاج او يشينهُ . اما المرأة التي تتقدم في السنّ فانها ان كانت من اللواتي ينظرنَ الى ظواهر الاشياءِ دون بواطنها عدّت الشيخوخة مثل بئرٍ خُتم بابها فماد الانسان لا يرى ما فيها فمالت الى اهمال جسمها ولباسها . فلتقاوم هذا الميل لانهُ ذنب الى الله ومواهبهِ الحسان . فان كثيرات من النساءِ اللواتي بلغنَ الستين والثمانين بقينَ ملكاتٍ في المحافل التي كنَّ يترددنَ عليها

والحسان بين النساءِ قلال واقل منهنَّ اللواتي يستطعنَ المحافظة على ما قسم لهنَّ من الملاحة الى ما بعد الزمان الذي تذوي فيهِ نضارتهنَّ عادةً . ومن الحقائق الفسيولوجية المقررة ان الملاحة يمكن ان تزاد لصاحبها ولكن لا بدَّ من التذرُّع بالفطنة والحكمة لبلوغ ذلك . وقد يتفق ان الطبيعة تخص فرداً بكثير من مقوّمات الملاحة ولكنهُ يسيء التصرف فيها . وربَّ سائل يسأل هل تزاد الملاحة بالوسائط الصناعية وهل تمكن المحافظة عليها الى ما بعد سن الكهولة . والجواب نعم وتمكن زيادتها كثيراً حتى في الذين لم يكن لهم حظٌّ وافر منها أيام الصبا والمحافظة عليها حتى الموت . وذلك يتمُّ بالمواظبة والصبر واحتمال بعض الاتعاب البدنية والالمام بقوانين الصحة والطعام والراحة والنوم والاستحمام والاعتناء بالجلد والاسنان والشعر والظواهر الخارجية من ملبس وما أشبه . وقد يخيل لكلٍ منا انهُ يعرف الشيء الكافي عن هذه الامور ولكنهُ اذا رام البحث فيها مفصلاً رأى انهُ يجهل كثيراً منها

***

واول ما نوجه الخواطر اليهِ في هذا الشأن ان جمال القد يتوقف على حسن اتصال العظام بعضها ببعض ومرونة النُسُج . ولا بدَّ لحفظ موازنة الجسم من مرونة العضلات وسهولة حركة اربطتها وحركة الاوتار . وكلما تقدم الانسان في السن واخذت نتائج الامراض والملاذّ تظهر عليهِ اشتدَّ العناء على بعض الاعضاءِ الحيوية مثل الاوعية الدموية والاعصاب فاضطرب سير الدم ومجرى الاعصاب في الجسم حتى اذا جاوز سنَّ الكهولة كان بعض اعضائهِ الحيوية معطلاً وكثير من انسجتهِ فاقداً بضاضتهُ وغضاضتهُ . فلا تعود العين والاذن والدماغ مثلاً تتناول ما يكفيها من الغذاءِ فيكفُّ البصر او يكل وينبو السمع ويبلد الذهن

الرياضة البدنية

والرياضة البدنية خير الوسائط لاتقاء ذلك ولكن الناس مختلفون في نوع الرياضة التي يحتاجون اليها فما يصلح منها لزيد قد لا يصلح لبكر . فانك اذا قلت لرجل طاعن في السن شوهت الايام والاسقام اعضاءه وحدبت ظهره ويبست مفاصله ان ينتصب امامك ويرجع كتفيه الى الوراء ويرفع رأسهُ فانك انما تنادي غير سامع وتأمر غير طائع . ولا بد لك قبل ذلك أن تبين عيوب بنيانه الخصوصية وتصلح النسج الضعيفة أو المنكمشة . والانكماش يصلح بالمط والدلك المتكررين . والمرونة تتأتى بتحريك أعضاء الجسم مثل الذراعين والكتفين والعنق والرجلين والظهر والحقوين وأعضاء البطن

ومما يجب ذكرهُ ان الرياضة لازمة غالباً لتطهير الدم وما يتبعهُ من تغيرات الخلايا ولابقاء اعضاء الجسم سائرة سيرها الطبيعي ولنومه نوماً هنيئاً . ومن الممكن ان تسير تغذية الجسم سيراً طبيعياً في بعض الناس مدة طويلة وفي احوال معلومة وهم لا يروضون اجسامهم الا قليلاً . ولكن اهمال الرياضة خطر عظيم . ومن الناس من يقول ان اجهاد القوى العقلية كاف لدفع اعضاء الجسم الى اتمام وظائفها مثل الرياضة البدنية وهذا صحيح . فأن بعضهم يكتفي بالحديث المسلي والضحك وسماع الآلات الموسيقية وعليه فأن صحة هذا البعض تقوم بالاقتصار على الرياضة العقلية دون البدنية ولكن على شرط ان تكون احوال المعيشة صحية مطردة ووظائف الجسم منتظمة فلا تحمل فوق طوقها ولا يطرأ على الجسم خلل في تغذيته يتطرق الفساد به اليه

ولكن الرياضة المنتظمة مفيدة في الصغار والكبار لحفظ صحة العقل والجسد على أتمها . وكثيراً ما يعترض في سبيل الجسم عوارض توقع الخلل والاضطراب في نظام حركاته وتحولها عن مجراها الطبيعي . واول تلك العوارض عيوب خلقية في بناء الجسم يكون بها بعض اعضائه اقوى من البعض الآخر فيتعب القوي منها الضعيف عند العمل معاً . وثانيها اللباس فكلما اشتد ضغط الملابس لعضو من اعضاء الجسم تغير تركيبهُ وقل نموهُ . وهناك مؤثرات اخرى تؤثر في شكل الجسم وحركته مثل العادات والازياء واجهاد القوى او عدم اجهادها والصنائع والحرف . خذ مثالاً للحرف التعدين فان المعدن (اي العامل في المناجم لاستخراج المعادن من الارض) يضطر ان يضطجع على الارض او ينحني الى الامام ساعات كثيرة وهو يعمل ويجهد قواه فيشوه ذلك شكل جسمه كثيراً . غير ان الحركة المستمرة يمنع الاعضاء ان تفقد مرونتها سريعاً كما في الحرف التي لا تدعو الى حركة كثيرة

الطعام والملاحة

اما الطعام فلما كان تأثيره في الصحة عظيماً فان تأثيره في الملاحة اعظم . واول ما يجب الالتفات

اليهِ في هذا الصدد الاسنان فان على العناية بتنظيفها مدار الامر كلهِ غالباً . ومن الغريب ان امراض الاسنان بين المتمدنين كثيرة مع شدة عنايتهم باسنانهم وحرصهم على نظافتها. وكثير من هذه الامراض وخصوصاً امراض اللثة سببٌ لسوءِ الصحة حتى بين الطبقة العالية من الناس

واهمُّ شيءٍ في المحافظة على صحة اعضاء الهضم مقدار الطعام وكيفية تناولهِ لا نوعهُ وماهيتهُ وخير قاعدة لاختيار الطعام ان يأكل الانسان مما حضر برضى منقاداً بالقابلية الطبيعية . ولا بدَّ في اختيار نوع الطعام ومقدارهِ من مراعاة حالات الجسم المختلفة من تعب وانفعال ورياضة وقعود وما اشبه . ولا يجوز ان يأكل الانسان لقمة واحدة تزيد عما تشتهيه نفسهُ الاَّ في احوال مرضية خصوصية يأمر الطبيب بها . وتجب ايضاً مراعاة السنّ فان قليلاً من الطعام يكفي الكهل والشيخ لأن الطعام يؤكل في هذا السن لحفظ الحياة لا لبناءِ الجسم ما لم يطرأ على الجسم مرض طويل معيٍ يقتضي اصلاح ما فسد وبنيان ما تقوَّض. واول شرط في الطعام نظافتهُ ثم بساطتهُ . اما التأنق في علاجهِ واستكثار الاقوات واستجادة المطابخ فمن الأمور العرضية الثانوية بل الوخيمة العاقبة لأن الاكثار من البهارات والتوابل ومطيبات الطعام يعطل قوة الهضم ويفسد حاسة الذوق

***

ولنا كلمة في المشد (الكورست) فأن كان الغرض من لبسهِ اظهار كسم الملابس حول الخصر جرياً على قواعد الزي الحديث فلا بأس بهِ ولكن ان كان الغرض منهُ دعم الانسجة البطنية فلا حاجة الاَّ اذا كان هناك ضعف في بنائها . وان كان الغرض منهُ تحسين القد فالمرأة ذات البنية القوية والتركيب الحسن لا تحتاج الى وسائط صناعية لتحسين قدها والشاهد على ذلك ان البنت الجميلة القوام لا تلبس المشدّ اذ ترى انها ليست في حاجة اليهِ . وعليهِ فان اللواتي يصررنَ على لبسهِ يعترفنَ ضمناً ان قدودهن مشوَّهة . وتشويه القدّ اما طبيعيٌّ واما اكتسابيٌّ فان كان الاول فليلبسنَ المشدَّ اذا كان لا بدَّ لهنَّ من اتباع الازياء الحديثة وان كان الثاني فهو ناشئ عن عدم الاعتناء بهيئة الجسم في الجلوس والنهوض والانتقال او عن القعود او النهم او عن هذه الثلاثة معاً . وهذا مما يمكن الشفاء منهُ بالعزم والثبات كما يمكن الشفاء من الامراض العادية

ثم ان النساء صنفان صنف له ظهور قصيرة وصنف لهُ ظهور طويلة فالمرأة ذات الظهر الطويل بل والخصر الطويل او التي بين صدرها وجذعها فسحة واسعة لا يضرُّ المشدُّ بها مثلما يضر بالمرأة ذات الظهر القصير لان معظم ضرره ناتج عن ضغطهِ لاجزاءِ الرئتين السفلى واعاقتها عن عملها وذات الظهر الطويل لا يضغط المشد رئتيها لارتفاعهما عنهُ . والمرأة التي ظهرها قصير وخصرها طويل لا بأس اذا لبست مشدًّا واطئاً ضيقاً . اما التي ظهرها قصير وخصرها قصير ايضاً وليس فان المشد يضر برئتيها وكبدها وكليتيها ومعدتها بضغطه لها فتهبط نحو البطن وينشأ عن ذلك اسقام وامراض كثيرة في هذه الاعضاء وفي اعضاء الولادة أيضاً

أسئلة وأجوبتها

[الاسئلة خاصة بحياة طائفة من الفتيات الانكليزيات ، تتعلق بنواح من حياة الحب والزواج ، ولكن الاجوبة تحتوي على احكام عامة ، وأقوال حكيمة في هذه الموضوعات ، لا تقتصر حكمتها على الفتاة الانكليزية]

س : احبُّ احد الشبان حبًّا عظيماً . ولكن والدتهُ تكرهني . وهو يطلب ان تعقد خطوبتنا . ولكنني احسُّ انهُ يجب عليَّ الاَّ اخدع امهُ . فماذا أفعل ؟

ج : اظن انهُ خيرٌ لك ان تكوني صريحةً معها . اذهبي اليها وحدثيها واستطلعيها ما تأخذهُ عليك

س : مضى عليَّ عشرون سنة . متزوجة من رجل احبُّه واحترمهُ . وقد كانت سنو زواجنا حافلة بالسعادة والرغد . ولكنهُ افتتن اخيراً بصبيَّة ، في الخامسة والعشرين من عمرها . وقد بلغ من اندفاعها ، ان صرحت أنها سوف تبذل ما تستطيع لتسلبني اياهُ . وهو يقول انهُ لا يزال يحبني . ولكنهُ عاجز عن مقاومتها . فأرجوكِ ان تشيري عليَّ بما افعل

ج : هذا النوع من الفتنة معروف في الكهول او في من تخطى الكهولة منهم . وما هي الاَّ محاولة من ناحيتهم — تثير الاشفاق — لاسترداد شبح شبابهم . والراجح ان الفتنة لا تدوم . بل لعلَّ الفتاة نفسها تكون السابقة الى التعب والانصراف عنها . وانما يشترط عليك ان تحتفظي برباطة جأشك ، امام زوجك وببسمة على ثغرك . والغالب انها ليست فتاة ذات خلق متين ، والاَّ لما تصرفت هذا التصرف ، فدعيه يقابلها ماشاء ، وعندئذٍ لابدَّ ان يكشف لهُ عن حقيقة امرها

س : مضى عليَّ ستة اشهر منذ عقدت خطبتي . ولكن خطيبي لم يذهب بي في خلالها مرة واحدة الى بيتهِ . ولا قدمني الى والديهِ . مع انهُ لا ينفكُّ يزورنا ، وهذا اقلقني . لأن الالسنة بدأت تتقول

ج : ارى ان تسأليه ، لماذا لا يذهب بك الى بيتهِ ويقدمك الى والديه ثم سلمِّي بما يقول . فلعل باعثهُ على ذلك يتعلق بخلق والديه ، وعليك ان تثقي بهِ وتطمئني اليهِ في هذا كما تثقين بهِ وتطمئنين اليهِ في امور اخرى اذا كنت قد قبلت بهِ عن حبٍ وروية

س : ينتظر ان يعقد زواجنا بعد شهرين وبعد سنة ، يتوقع زوجي ان يذهب الى الصين ، ليعمل في احد فروع شركتهِ ثلاث سنوات . ثم يعود الى منصب حسن في انكلترا ، وهو يريدني ان اذهب معهُ ولكننا لا نعلم ، هل من المستحسن ان يكون لنا ولد ، عقب الزواج او ننتظر حتى نعود من الصين . كلانا في الثالثة والعشرين من العمر

ج : الافضل ان تنتظرا . فأنتما لا تعلمان ما تكون عليهِ احوال الاقليم والمعيشة في البلدة الصينية التي تستقران فيها . وقد لا تلائم هذه الاحوال صحة الطفل . ولما كنتما في مقتبل الشباب ، فامامكما الوقت الكافي للبدءِ في انشاء اسرة بعد عودتكما

مقام المرأة اليابانية الحديثة

في ميدان الاعمال

اجتازت اليابان في ما انقضى من القرن العشرين من مراحل التقدم ، ما لا تضاهيها فيه شعوب اخرى في قرون . فاكتسحت البلاد من اقصائها الى اقصائها روح التقدم والنشاط فهب الجميع متناسين منازعاتهم الداخلية ، وتفرقوا في مختلف بقاع الارض يطلبون العلم والنور ثم عادوا الى بلادهم ، يشيعون في ارجائها النور الذي اقتبسوه مبددين الظلمات باعثين في مواطنيهم الحياة ، ونافضين عن البلاد ، رداء الفتور والجمود . فلما تم لهم ذلك راحوا يشيدون المصانع ، وينشئون المتاجر ويبنون دعائم عظمة بلادهم الاقتصادية حتى ذهلت البلاد التي تلقوا فيها اصول العلم ، للنصيب الذي احرزوه في ميدان الصناعة العظيم . وقد اشتركت المرأة اليابانية في كل ذلك فعاونت الرجل ونافسته فأذكت بمنافستها له عزيمته وأورت زناد تفكيره وارادته ، حتى صح القول بأن اليابان الحديثة قامت على اكتاف المرأة اليابانية النحيفة ، قيامها على اكتاف الرجل

فالمرأة اليابانية تتقلد عدداً كبيراً من اعمال الدولة ، ذلك ان كثيرات من اليابانيات يعملنَ امينات لسر رجال الدولة المسؤولين ، او كواتب على الآلات الكاتبة أو في بعض المناصب الكبيرة حيث لكل منصب تبعة عظيمة تلقى على عاتقي مديره

وقد غزت المرأة اليابانية المصالح التجارية المختلفة ، وكادت تستقل بها جميعها دون الرجال ، فاذا دخلت متجراً كبيراً من متاجر طوكيو ، واجهتك حقيقة غير ملحوظة في عواصم البلاد الاوربية نفسها ، اذ ترى ان ٨٠ في المائة من الذين يشتغلون هناك ، فتيات لا فتيان ، هذه تستقبلك على الباب وتحدثك عن طلباتك بشتى اللغات ، واخرى ترشدك الى المكان الذي فيه حاجتك ، وأخرى تبيعك السلع ورابعة تحاسبك على ما ابتعت وهن في كل ذلك يعاملنك معاملة رزينة لبقة بحيث يجعلنك تشعر باحترام المتجر من جهة ، وبرغبتك في الشراء منهُ من جهة اخرى

اما الرجال فلا يتولون في المتاجر الا المناصب الفنية القليلة ، او الاعمال التي تقتضي قوة بدنية ، كالبوابين والفراشين

والعاملات في المصانع على اختلاف انواعها يتقاضينَ اجوراً اقل من اجور الرجال فيفضلنَ عليهم حين تحتاج المصانع الى زيادة عمالها او الى سد نقص في صفوفهم . وهن نشيطات ذكيات يجدن ادارة الآلات ويحذقن الاعمال الصناعية التي تقتضي قوة ملاحظة ومهارة يدوية وهذه حقيقة ملموسة تشهد بصحتها الصناعات اليابانية

ومنهن نساء يعملنَ مرشدات ، يرشدنَ روّاد المكاتب الحكومية والمحال التجارية وغيرها

الى حيث يقصدون . وهذه الطائفة تنتقى من الفتيات الجميلات وهنّ يرتدينَ ملابس جميلة محتشمة على الطراز الاوربي ، ويتقنّ ادب السلوك ، واصول المعاملات ويجدنَ عدة لغات

ومما هو جدير بالذكر ان دور الملاهي في اليابان توظف النساء مرشدات للجمهور الى المقاعد على الضد مما هو معروف في مصر . اما في اوربا فجانب كبير من دور الملاهي يعتمد على الفتيات في القيام بهذا العمل . وهؤلاء المرشدات اليابانيات يرتدين سراويلات من قبيل سراويلات اللباس الاوربي ولكنها اوسع ، وجاكتات قصيرة عليها ازرار من النحاس اللامع ، ويضعن على رؤوسهن قبعات من نوع « البيريه » ويحتذينَ بأحذية من المطاط ، منعاً لاحداث الصوت عند السير بين المقاعد أو الاروقة ، وجميع ملابسهنّ مصنوعة من الحرير الفاخر الثمين

وشركات السيارات الكبيرة الخاصة بالركّاب (اوتوبيس) تستخدم عاملات يلبسنَ لباساً خاصًا لقرض تذاكر الركّاب ، فيقمنَ بهذه المهمة خير قيام ويشرنَ الى سائق السيارة بالتحرك او بالوقوف كلما دعت الحاجة الى ذلك . اما في مركبات الترام ففريق منهنّ يتولى بيع سلع دقيقة من مخزن صغير في مؤخر المركبة كما يبعنَ الجمهور الصحف والمجلات . وهذا الفريق يختار من الجميلات الحاذقات اللائي يجد الجمهور نفسه معهنّ امام الامر الواقع ، تناوله الجريدة او المجلة او السلعة ، وتصحبها بابتسامة حلوة يصعب على الرجل صدها او تجاهلها ، ولذلك كانت مهنتهنّ رابحة دائماً

والفتيات الصغيرات في كوريا ، يعوّدنَ الصبر والجلد على مزاولة الاعمال من نعومة اظفارهنّ وأول ما تتعوده البنت ان تحمل جرار ماء الشرب من النهر الى المنازل مدة التمرين بمحاولة حمل الجرّة باتزان وانتظام

وقد انشئت شركات سينمائية في اليابان، وأقبلت اليابانيات اقبالاً عظيماً على الانتظام في المدارس المؤهلة للظهور على الستار الفضي ، لتتعلمنَ الاوضاع الفنية ودرس الملامح والحركات اللازمة . وقد نبغت منهنّ كثيرات ولولا مسألة اللغة لأصبحت الافلام اليابانية تكتسح الاسواق ، كما تكتسحها بضائعها الاخرى . ومن اليابانيات راقصات ماهرات ، وشركات السينما تسخو على اخراج مشاهد استعراضية تسترعي النظر وتفوز بالاعجاب . واليابان يمكنها ان تبز غيرها في هذا الميدان لرخص المنسوجات اليابانية اللازمة لمشاهدة الاستعراض

وفي طوكيو مدرسة جديدة لتعليم النساء الطيران تخرّج منها عدد كبير من الطيارات الماهرات، ولم تكتف المرأة اليابانيــة بغزوهـا جميع مرافق الحياة بل تحولت ايضاً الى منافسة الرجل في مظهر رجولته الاكبر فكثيرات من اليابانيات متطوعات في الصليب الاحمر ، وفي مصانع الاسلحة وفي مكاتب الجيش ، وهن يطالبنَ اليوم بقانون يجبر المرأة على الخدمة العسكرية كالرجل

والمرأة اليابانية تضطلع بوجه عام ، بمهمة المنتج في المصانع ، أما الرجل فيتولى مهمة التصريف فيوزع البضاعة في جميع الاصقاع على جمهور المستهلكين

موت يحيي الحب

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر حوادث حياتها خطراً ، وأثراً في نفسها ، فما هي هذه الحادثة في حياتك يا ليلى ؟ وفي حياتك يا نادية ؟ وفي حياتك انت يا سلمى ؟ الا تقصيها على قراء المجلة ، فيجدون فيها عبرة ، او تسلية ، او تفكهة على الاقل ؟ هذا وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر في اعداد متتابعة منها ، قصص الحياة كما وقعت لصاحباتها ، بلا تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح او حذفه ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف منها ما تحلو قراءته ، او تجل فائدته . ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها ، وفي بعضها مهاوٍ تستطيع نساؤنا ان تجتنبها ، وفيها على الحالين ، نواح من حياة المرأة الغربية ، يحسن بهن الاطلاع عليها]

قضت المصادفات الغريبة ، بأن يؤتى بطفل رالف الى المستشفى الذي كنت اشتغل ممرضةً فيه . ذلك ان سيارة اصطدمت بأخرى امام المستشفى ، فأصيب توني — ابن رالف — اصابة خطيرة، فحمل الى المستشفى بين الموت والحياة . فوضع في غرفة صغيرة خاصة ، وعهد اليّ في العناية به، فبقيت بضع ساعات وأنا لا اعرف من هو . ولكنني عرفت ذلك ، اذ خرجت من غرفته فواجهت والده رالف ، وعلى وجههِ الشاحب ، امارات الالم والريبة في امكان إنقاذ طفله

كنت قد رأيت رالف لآخر مرة ، قبل خمس سنوات ، لما واجهتهُ في غرفة المحقق ، على أثر وفاة ابني «بوبي» بحادثة سيارة صدمتهُ ، وكان رالف صاحبَ السيارة وسائقها . كانت تلك الليلة ماطرة ، فزلقت السيارة رالف عند انعطافها وصدمت ابني الذي كان واقفاً على الرصيف يتفرج على واجهة أحد المخازن فقتلتهُ في الحال بين سمعي وبصري . وكان من المتعذر ان تلوم رالف خاصةً في الاحوال التي وقعت فيها الحادثة . ولكنني كنت اعلم ان رالف يدمن المشروبات الروحية، مما جعلهُ في سوق السيارة متهوراً بعض التهوُّر . اعلم ذلك لانهُ سار بي بعد الحادثة الى المستشفى فرأيت في عينيه بريقاً ، وفي يديه ارتجافاً ، وفي نفَسهِ رائحة ، لا تخطئها

فكانت تلك الفاجعة نهاية صداقتي مع رالف او ما يصح ان يكون اكثر من صداقة . كان كلانا يحسُّ بالوحدة الاليمة في حياته . فقد كان هو رجلاً طلقتهُ زوجه ، ولا أحد لهُ في الدنيا الاَّ ابنهُ «توني» . وكنت انا ارملة ولا احد لي في الدنيا الاَّ ابني «بوبي» . فمال اليّ وملت اليهِ ، مع انهُ كان مشهوراً في حيّهِ بأنهُ يدمن الخمر ويميل الى الصخب . ولكنني أحسست انهُ اصبح كذلك لشعوره الشديد بألم الوحدة وانهُ اذا تغيرت احوال معيشته، واتيح لهُ من يحبهُ ويعنى بهِ فلا بد ان يتغير

ولكن مقتل ابني على يده كان ختام صداقتنا . فبعد مقتله بنحو اسبوع من الزمان ، تركت الحي الذي كنت اقطنهُ ، ولم ارَ رالف بعد ذلك ، وها هو ذا الآن ، وقد عهد اليَّ بتمريض ابنه الذي اصيب في حادثة تشبه الحادثة التي اصيب بها ابني . فأشفقت عليه اذ رأيتهُ ، يمزقه الالم ، لان

الحادثة كانت قد هزت اعصابهُ فاصبح وهو على وشك ان يسقط إعياءً . فبذلت ما في وسعي لتهدئة اعصابه ، وأكدت له ان لابنه املاً كبيراً في الشفاء

ولما مرت قليلاً مع رالف وانا احدثهُ برفقٍ وحنان ، عطفاً عليهِ ، مررنا بالممرضة « جين » فاحسستُ بان عينيها تراقباني . كانت هـذه الممرضة تمقتني ، وتصرح بذلك . كانت فتاة مديدة القامة ممتلئة الاعطاف تدفعها الشهوة ولا غرض لها في الحياة الاّ ان تتزوج . ولما كنت قد وطّدت صلة الصداقة بيني وبين طبيب المستشفى ، ولمـا كان كثيرون من المرضى يدعونني الى التنزه معهم في اوقات فراغي ، بعد خروجهم من المستشفى ، كانت هذه الممرضة تلتهب غيرة مني . فبذلت وسعي لتجاهل موقفها هذا ، بل وللاحتفاظ بظواهر الصداقة معها ولـكن على غير جدوى . فبعد ان مررنا امامهـا شعرت بداهةً انها تفكر فينا فتقول في نفسها ، لو انني عُيـنت محلّها للعناية بذلك الطفل ، للقيت والده ، وعطفت عليهِ في مصابهِ بابنهِ ، ووثقت صلة الصداقة معهُ ، ولسنحت لي فرصة قد تفضي الى زواجنا

كان الـكفاح مع الموت في سبيل حياة الطفل كفاحاً عنيفاً ، ولـكننا جنينا ثمرة الـكفاح ، لما اعلن الطبيب بعد انقضاءِ عشرة ايام على الحادث ان الطفل قد جاز منطقة الخطر . فاخبرت رالف بذلك . فقبض على كلتا يديّ ، وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال : ليباركك الله يا ماري . انني لا استطيع ان اقول اكثر من هذا ، يا عزيزتي . فعلمت حينئذ اننا لا نزال حبيبين رغماً عن الفاجعة التي فقدت فيها ولدي وضربت بيننا حجاباً كثيفاً . فتركته وفي قلبي انشودة الفرح ، وفي عروقي حرارة الغبطة

في تلك الليلة مات توني متأثراً بسمٍ احتوت عليهِ خطأً جرعة دواءٍ وصفهُ لهُ الطبيب

انني لأعجز عن وصف الاضطراب الذي تلا وفاته والالم الذي كاد يمزقني . كنت انا قد جرّعت توني الدواء ، الذي أُرسل الى حجرتهِ من مستودع المستشفى الخاص . وكان قد كتب على الزجاجة اسم الدواء الصحيح ومقـدار الجرعة . فليس ثمة خطأ في هذا . فحاولنا في المستشفى ان نكتشف من اخرج زجاجة الدواء من المستودع . وهنا واجهت حقيقة هالتني . ذلك ان مستودع الادوية كان في عهدة الممرضة « جين » وانها هي التي بعثت بزجاجة الدواء لتوني مع احد المستخدمين ولـكنها اقسمت امام المحكمة ، انني نزلت الى المستودع ، في غيابها وجهزت الدواء بنفسي

كان كلامها كذباً فاضحاً ، خطف نفَسَي بجرأتهِ وهولهِ ، ولـكنني ما كنت املك حيلة ادفع بها هذا الـكذب الصراح . فعشت الايام التالية ، يؤرقني الم الفاجعة ، ويجثم فوق صدري شبح الموت

كانت الممرضة « جين » عند مقدمي الى المستشفى ، قد تظاهرت بصداقتي ، فعلمت مني قصة رالف ومقتل ابني « بوبي » . فلما دعيت للتحقيق في قضية وفاة « توني » ، لمّحت للمحقق بأن وفاة توني قد لا تكون عرضاً على الاطلاق . وانهُ من العجيب ان يكون رالف قاتل ابني ، وان يموت ابن رالف وهو في عهدتي في المستشفى . فلما سمع رالف كلامها ، صاح بأن قولها « كذب » . . . . ولست

أدري ما حدث بعد ذلك ، لانهُ أغمي عليَّ ، ولما افقت من اغمائي ، وجدتني في احدى حجرات المحكمة ، ورالف قربي يهدىء من روعي ويحنو عليَّ . وهو يقول «يا حبيبتي ، لا تهتمي ، ولا تهلعي ، فلا بدَّ من ظهور الحقيقة » . عند ذلك انزاحت كل الحواجز بيننا فتعانقنا

ولكن حبنا كان مهدداً ، بتهمة القتل العمد ، توجه اليَّ ، فما استطعت ان انام ولا ان اتناول شيئاً من الطعام المقدم اليَّ . وحاولت ان ارى الممرضة «جين» على حدة ، لاواجهها بما ادعته عليَّ كذباً ، ولكنها كانت ترفض مقابلتي ، لشدة خوفها . فلما اعيد فتح التحقيق في صباح تالٍ ، جاءتني ورقة منها ، تطلب اليَّ ان اوافيها على عجل الى غرفتها . فهرولت اليها ، وعند ما بلغت بابها رأيت الطبيب خارجاً فقال «لقد حاولت ان تسم نفسها . ولكنها نجت . وهي تريد ان تراك »

فدخلت ووجدتها وقد جردت من تلك القساوة في نظرتها ، ملقاة على سريرها ، شاحبة تثير الاشفاق ، وفي عينيها كسفة الخجل

قالت : اتغفرين لي ؟ فانني ما كنت ادرك معنى ما اقول . انا الذي اخطأت في وضع اسم الدواء على زجاجة لا تحتوي عليهِ .... كنت اكرهك .... حاولت ان اموت ....

مسكينة تلك الفتاة . طوقت عنقي بذراعيها وجعلت تنتحب ، فأحسست انها في اشد الحاجة حينئذ الى العطف والحنان

اما انا فتزوجت رالف بعيد ذلك، ولنا الآن ولد ننعم بحبه . ففيه نحسُّ ان روحَيْ ولدينا قد امتزجتا ـ ولدينا اللذين فقدناهما في فاجعتين مؤلمتين ، فكان فقدانهما سبيلنا الى السعادة في ثالث من لحمنا ودمنا نحن الاثنين .

طور الطفولة المبكرة [1]

وضرورة انشاء مربى (Nursery)

مما لا شك فيهِ ان الناموس الطبيعي للعالم لا يتغير برغم تشابه الاشياء وتباينها ، وتغير الحوادث ولكن الطفل لا يعرفها كذلك ، ذلك بانهُ لا يميزها حالاً ، حتى ولا يعرف نفسه من الاشياء المحيطة بهِ

كل شيء يظهر له في حالة همجية وخيال ضعيف ، ولكن وسط هذا الخلط وهذا الغموض ، هناك بعض ألفاظ وبعض اصوات كثيراً ما يعيدها الآباء دلالة على اشياء موجودة ، وتدريجيًّا ترتبط الاسماء بمسمياتها والالفاظ بمعانيها والحركات بما اريدت من اجله ، ثم تستقر ، هذه النتائج الاولية حتى تعرف الاشياء الدنيوية ، وتسهل هذه المعرفة فيما بعد ، وببطء يعرف الطفل ان ما

---

(١) من يوم الميلاد الى السنة الثالثة وهو فصل للآنسة زينب الحكيم في كتاب الدكتور شخاشيري الذي عنوانه « تربية الطفل »

استجمعهُ عقله مختلف عن نفسه ، وانهُ منفرد عنها . هذا وبتقدم الطفل في السن يعيد العمل الذي يعين وجود قوة التعليل فيهِ مهما ظهرت بسيطة مطلقة

لما كان من ضمن اغراض حياة الطفل الهامة ، القيام بالاعمال الدنيوية التي توضح الجهاد الذاتي وبذلك تصقل نفسه ، ولما كانت جميع الاشياء الظاهرية التي تحيط بالطفل تضطره ان يحفظ طبيعتها ويميز رابطتها بعضها ببعض فقد امده الخالق بحواس متعددة،وقوى عقلية مختلفة واستعداد فطري يمكنه من اظهار كوامن نفسه وتعرّفه الاشياء الخارجية

ولما كان نموّ الحواس مشفوعاً بنمو قوة ضبط الجسم والعضلات ، وقوة الضبط هذه بدورها تتوقف على حالة الطفل الصحية ، وعلى قيمة الاشياء التي تحيط بهِ — وجب تنميتها بعناية ، ووجب ان تكون الاشياء التي تحيط بالطفل جاذبة له وموقظة فيهِ ما كمن . والاّ طالما كانت هذه الاشياء قريبة وثابتة فانها لا تلفت الطفل اليها ولا تسترعي انتباهه مطلقاً ، ولكنها اذا كانت متحركة او لامعة فانها تدعو الصغير الى الانتباه والمسك ، ولو كانت بعيدة عنهُ تدعوه للتقرب منها وبذلك تربي عنده قوة استعمال اعضائه للجلوس والنوم ، وللمسك والحمل وللمشي والجري ، وتربي قوة استعمال قواه العقلية للتفكير والتدبير

من هذا يمكننا القول، ان حياة الصغير وجدت بعد المشاهدات الدقيقة ممتلئة بالحركات الجسمية والحسية والعضلية غير المقصودة للعين المجردة والمقصودة الى حدّ بعيد للعين المدققة ، فتحريك الطفل لليدين والرجلين والاصابع ، والشفاه واللسان ، والعينين والوجه ، انما تدلُّ على اشياء قصدت منها طالما ان الطفل يولد وعنده إحساسات وميول وغرائز ، الاّ اذا ظهرت هذه الحركات في غير موضعها اثناء اللعب او اشتغال الطفل بشيء معين مثلاً فكل هذه الحركات واشباهها من الحركات الجسمية المبكرة لا تعبر عن شيء عقلي خاص اذ ان ذلك يكون فيما بعد ، لهذا يلزم ملاحظة الطفل بدقة حتى يمكن توجيه هذه الحركات الى ما قصد منها والاّ شب الطفل على طباع حركية في غير موضعها وبالضرورة تكون لا معنى لها ، وخصوصاً حركات الوجه — ومعنى ذلك الفصل بين الشعور وطرق التعبير الطبيعي التي ربما ادت الى الخداع في المستقبل والى التواء سبل التربية تباعاً

اما ما نشير به لمنع اشباه هذه العادات ، هو انهُ يلزم عدم ترك الاطفال مدة طويلة في اسرتهم او حجرتهم دون وضع شيء خارجي يشغل نشاطهم ، والاّ تسبب ارتخاء الجسم وبلادة العقل ومن ثمَّ فساد الاخلاق المبكر ، خصوصاً اذا قلد الطفل حركات الخدم الجهلاء والآباء عصبي الحركات وما اكثر هذه البيئات حوله واخطرها عليهِ . وعلى الام او المربية ان تصرف وقتاً كبيراً مع طفلها للعناية به دون ان تجعله المحور الوحيد امام ناظريها ، تحملهُ من انفعالات نفسها كل لون تتلون بهِ ، او تحرص على سلامته وراحته بشكل يأتي بنتائج عكس ما رغبت فيهِ من حرصها وبالغ عنايتها ، فانها ان جعلتهُ شغلها الشاغل دون حكمة فانها تنشئه طفلاً قلقاً يراع لجأة لاقل سبب وبذلك تضره بدل ان تنفعهُ

ولما كان يلزم كل طفل ان ينتفع بتجاربه الخاصة مبكراً وان يجد منفذاً صحيًّا لنشاطه الذاتي وجب وجود حجرة مربى Nursery في كل منزل اسرة تقصد ان تخرج رجالاً اصحاء للامة ، وهذه المربى ينبغي ان تحتوي على اكثر ما يمكن من انواع اللعب والوسائل التي تلائم الاطفال في مختلف اطوار نموهم بحيث يمكن اشغال حواسهم وعقولهم وتمرين اجسامهم في رفق وتدرج

فاذا انتقل الصغير من هذا الطور « طور الطفولة المبكر » الى طور الطفولة الثاني او « الصبوة » من ٣ — ٧ او ٨ فهناك مميزات توضح ذلك الانتقال ، فيسلم الطور الاول الى الثاني ، عند تغلب القدرة العقلية على القوة الحسية والجسمية والعضلية ، وعند ما تصبح احوال الحياة العقلية المختلفة في حالة قوية كائنة . فيبدأ الصبي تحصيل اللغة ، وبذلك يبتدىء التمييز ، واستنباط الفروق لهذا الادراك الحسي القاصد ، فيحفظ الصبي كيف يستعمل الحقائق العملية التي تحيط بهِ كوسائل لتحصيل الاغراض التي توعز بها اليهِ نفسيته الداخلية

من هذا نرى ان هذا الطور تبتدىء معهُ التربية الفعالة التي يجب الاَّ تكون مباشرة بحيث توقف نمو الطفل الطبيعي (أعني ان تكون التربية مباشرة دون ظهور) وعقل الطفل في هذا الوقت يتطلب ملاحظة وعناية اكثر مما يتطلب الجسم ، وينفرد لهذه التربية الام والاب والعائلة التي لا يزال الطفل معهم بحالة ارتباط طبيعي متواصل

لذلك كان الشطر الاول من طور الصبوة (او الطفولة المتأخرة) مهمًّا جدًّا لان الصبي اول ما يبتدىء ، يبتدىء بفهم طبيعة بيئتهِ التي هي الحياة الخارجية ، وسواء اظهرت له هذه الحياة في حالة نبيلة عالية او بالعكس او ظهرت له كمجرد وسيلة لنيل مطامع النفس او كشيء نزيه او العكس ، فان فهمهُ لها على اي صورة مهم دون ريب

ومن الواجب ان يكون كل ما يسمعه ويراه ويقلده ظاهراً صحيحاً منظماً بقدر ما يمكنه وان يتعوَّد تحمل المسئوليات طالما امكنه ابداء رغباته وتقدير العواقب ، خصوصاً وانهُ في هذا الطور يلاحظ على الطفل كثرة التكلم فيما يعنيه ، وهو يتابع ذلك اثناء اللعب وهذا دليل على انه لا يفرق بين نفسه وبين الكلام (اي انهُ هو المتكلم نفسه) ولا يميز بين الاسماء ومسمياتها ، فاللعب والكلام هما العنصران اللذان يعيش بينهما الصبي الآن ، ولذلك يظن ان كل شيء حوله متمتع بنفس عيشته — يظن ان دميته ، ولعبه ، والحصى والازهار ، والحيوان افراداً وجماعات ، يمكنها السمع والحس والتكلم ، فيحكي لها الحكايات ويطالبها بالمثل ، ويخدمها ويطالبها بأن تخدمه . فمثلاً يغسل الطفل ثياب دميته ويحفظها ويلبسها غيرها ويطالبها بعمل ذلك له مستقبلاً عند ما تكبر .

وها هو ذا ابن شقيقتي « فريد » عمره $7\frac{1}{2}$ سنوات موجود بحجرته الخاصة قريباً من حجرتي اسمعه يداعب دبه الكبير ، ويقدم له الطعام واليك حديثهُ معهُ : — « كل يا فرفر الرز » — « ما تعزبنيش احسن اخليك تأكل لوحدك مش معانا على السفرة » — « ما عندناش اولاد وحشين مايكلوش

الرز» الى غير ذلك . بربك تصور (الدب المسمى فرفر) موضوعاً على مخدة ، ومستند الظهر الى الحائط ومطالباً جديًّا بالأكل بيده اليمنى ، والطفل « فريد » لا يتنازل عن تناوله الطعام ، ثم بعد وقت ليس بقصير اسمعه يشكر الدب لأنهُ اكل الارز (كما يتصور بخياله) ويغسل له يديه ، ويضعهُ في سريره لينام . وغير ذلك كثير جدًّا مما يدور بينهُ وبين مختلف لعبهِ

فالواجب على الوالدين والعائلة اذن ان يعتبروا لعب الطفل ولعبهُ وعلاقتهُ الطبيعية بوالديه وعلاقته بما يحيط بهِ ، من اهم الوسائل الفعالة في نموه وتكوين حياتهِ التي يجب جعلها ممتلئة وغزيرة بقدر الامكان وعليهم تنمية قواه الغريزية وتنبيهها كل عضو من اعضائهِ الجسمية وقواه العقلية بصحة، ومراعاة تقوية شعوره الاجتماعي وتدريبهِ على معرفة الواجب

ولما كان اللعب هو احسن الطرق الموصلة لذلك ، لانهُ حياة الطفل الطبيعية من المبدأ ، وجب مراعاة انتظام اوقاته وترتيب وسائله وفق ما يطابق اطوار نموه ويناسبها . وان تراعى الاحوال الصحية فيتحرك الطفل بكل حرية واناقة ويعبر عن نفسه بطلاقة ولباقة ، وان يلعب بنظام كي ينمو بلا عائق جسمي او عقلي او خلقي ، وان توجه عناية كبيرة الى آداب اللعب وحدوده

فاذا عجزنا عن تكييف الطفل وارشاده بما يناسب مواقفه المختلفة، فلنترك القيادة له فيظهر كوامن نفسه ، وبهذا نستطيع ارشاده ومساعدته وتوجيهه الوجهة الصالحة وهــذا ما يجدر اتباعه من المبدأ

وهنا نجد ثانياً الحاجة ماسة الى انشاء مربى في بيوتنا لاطفالنا وافساح أماكن خاصة بهم في حدائقنا لا سيما وانهم قبل ان ينتظموا في المدرسة يقلدون أعمال من بالمنزل من شبان وكهول ، ومحال منعهم من ذلك وتلافي ما يتبعه من نتائج ، ما لم يكن في منازلنا المربى الذي يستطيعون فيهِ اشغال حواسهم وتشغيل قواهم جميعاً ، وليست مسألة انشاء مربى بالمنزل بالأمر المعضل ، ولا بالمشروع الذي يتطلب نفقات لا نقدر عليها كما نتوهم . فليس ضروريًّا ان نشتري كل شيء يجب ان يوجد فيهِ ، وانما يمكننا امداد الطفل بكثير من الاشياء المستغنى عنها في المنزل، كبكرات الخيط بعد استعمال ما عليها وعلب السجاير والكبريت وقصاصات الاقمشة وعلب المشتريات ، وجانب من القش وفروع الشجر وكثير من انواع الحشرات النافعة (كدود القز والنحل الكرنيولي) والضفدع والنباتات الممكن انباتها بحجرة المربى ، ومقدار من الرمل والحصى ، ونماذج للفواكه الى غير ذلك مما يتوقف نجاح استعماله والانتفاع بهِ على حسن الترتيب وتنظيم اوقات استعماله وهذا الى جانب اللعب من دمى وقطارات وسيارات وسلال وعربات وطائرات الخ الخ . فاذا راعينا حالة الطفل الصحية وفق ما أوضح الدكتور شخاشيري في كتابه وسرنا عليها بنظام الى جانب ما ننشده من سبل تربية الطفل بيقظة ونظام على اساس علم النفس والتربية ساعدنا الطفل والبيت والمدرسة التي سيذهب اليها مساعدة كبيرة، وحققنا أمنية طالما تمنيناها ، وهي اخراج اطفال أصحاء مثقفين ، يسيرون في طريقهم ليكونوا رجال غد يعرفون الواجب عليهم نحو انفسهم وبلادهم فيسعدون امتهم ويعزون اوطانهم

امثال لافونتين بالعربية

شرع الاب الوقور نقولا ابو هنا المخلصي في نقل امثال الشاعر الفرنسي المشهور لافونتين ، نظماً ، الى العربية ، وعلق على النقل شروحاً وتفسيرات تاريخية ولغوية وميثولوجية ، حتى تتم فائدتها . وقد جاءتنا الكراسة الاولى من هذه المجموعة ، فاذا ما اشتملت عليه يدل على ان الاب المحترم قد اجاد النقل والتعليق . والى القارىء القصيدة الاولى وهي تنطوي على مثل «الصرّار (الجدجد) والنملة»

قد قضى الصرار صيفاً وهو لاهٍ يتغنّى
فأتى فصل شتاءٍ مزمهرٍّ فاستكنّا
ليس في مأواه شيءٌ شاغل ضرساً وسنّا
فنحا جارته النملة يشكو الجوع مضنى
قال : « يا جارة عطفاً وارحمي قلب المعنّى
اقرضيني بعض زادٍ وابسطي للجود يمنى
فتريني قبل آب حينما اثري وأغنى
موفياً مالك أصلاً ورباً كيلاً ووزنا
قسماً أوفي فأبقي قسمي عندكِ رهنا »
انما النملة تأبى قرضها للقوت ضنا
فأجابت : « كيف قضّيت مدى الصيف ؟ أفِدنا »
قال : « اني كنت اشدو وأغني مطمئنا
انشد الذاهب والآئب ما قد طاب لحنا
افلا يعجب هذا الـ ـعمل المولاة حسنا ؟ »
فأجابت : « نِعمَ هذا الـ ـفن في الاعمال فنا !
إن تكن غنّيت قدماً فارقص الآن مهنّا »

وقد حذفنا التعليق والشرح لان هذا الباب لا يتسع لهما جميعاً . وعندنا ان اعتماد هذه الامثال في دروس الاحداث ، يفيد فائدتين اما الاولى خلقية لان حكم لافونتين غنية عن التعريف ، وأما الثانية فأدبية لغوية ، تؤخذ من حسن السبك في الترجمة ، وحسن الشرح في الحواشي

باب المراسلة والمناظرة

الحروف الشمسية والحروف القمرية

سيدي محرر المقتطف الاغر هدانا الله بعلمهِ

تحية وبعد فسَّم اللغويون حروف الهجاء الى قمرية وشمسية وقالوا ان القمرية هي التي تظهر معها لام ال التعريف والشمسية هي التي تختفي معها هذه اللام ثم عددوا الحروف القمرية والحروف الشمسية وفرضوا على الدارسين استظهارها . . . ولم اجد في كل ما وقع تحت يدي من كتب الصرف القديمة والحديثة تعليلاً لهذا التقسيم او لماذا يجب اظهار اللام مع حروف وإخفاؤها مع اخرى حتى كشف لي ذلك « على زعمي » منذ نحو عشر سنوات وانا ادرس بعض المبتدئين في هذا المهجر السحيق فلقّنتهُ تلاميذي بكل اختصار هكذا

ان الحروف بدلا من تسميتها شمسية وقمرية كان ينبغي ان تسمَّى لسانية وغير لسانية وانهُ لما كانت اللام حرفاً لسانيّاً اسقطوها قبل الكلمات التي تبدأ بحرف لساني تلافياً لمشقة التلفظ بحرفين لسانيين متتابعين

وبناءً على هذه القاعدة البسيطة يكون حرف الجيم اقرب الى الشمسي منهُ الى القمري اي هو حرف لساني لصعوبة التلفظ بهِ مع اللام وقد ادرك العامة في الشام هذا بالسليقة فقالوا « اجّبل » لا الجبل كما تعلمنا في كتب الصرف خطأً . اما المصريون فجيمهم اقرب الى الكاف والغين منها الى الشين ولذلك تدخل عندهم في عداد الحروف غير اللسانيــة . لقد عرضت هذا التعليل على بعض لغويينا هنا وفي مقدمتهم الاستاذ قربان فاستصوبوهُ . فهل لسائر علمائنا الافاضل في الاقطار العربية ان يتلطفوا بنفيهِ او اثباتهِ كما عودونا العناية بكل جليل ودقيق في لساننا الشريف ولاسيما في بدء نهضتنا هذه المبشرة بالخير العظيم ان شاءَ الله ؟ ! ولكم جميعاً الفضل والشكر سيدي

سان باولو برازيل

رشيد سليم خوري
[الشاعر القروي]

ذكريات وتصويبات

حضرة الاديب فؤاد افندي صروف المحترم

ورد في المثل المأثور الفرنسي « صديق اليّ صديق صديقي » يضارعه في اللغة العربية « حبيب الى قلبي حبيب حبيبي » .

ربما لا تعلم مكانة الصداقة بين عمك المغفور له الخالد بذكره يعقوب صرُّوف وبين تلميذه كاتب هذه الاسطر — أحببته منذ كنت يافعاً أتلقى العلم عليه في مدرسة الاميركان العليا بطرابلس (لبنان) High School of Tripoli وكانت زاهرةً تحت ادارته في سني ١٨٧٢ — ١٨٧٤

ولما انتقل المرحوم عمك الى التدريس في كلية بيروت (جامعة الاميركان) ثم انشأ مع رفيقه وصديقه الحميم الدكتور فارس نمر (ورفيقهما النشيط الاديب المرحوم شاهين مكاريوس) مجلة المقتطف سنة ١٨٧٦ كنت بالغاً ١٧ عاماً فامتلأ قلبي حبوراً ونظمت مع حداثة عمري قصيدة تعبر عن شعوري وسروري وارسلتها الى استاذي وقد وجدت نسختها مبعثرة بين اوراقي القديمة التي انا مهتم بجمعها لاطبع منها كتاباً على حدة وعن قريب أنجز هذا المجموع من القصائد والمقالات

وحبذا لو مررتَ باسكندرية وآنستني بزيارة فترى بينها كتاباً من المرحوم عمك ارسله اليَّ بعد شفائي من العملية الجراحية الكبرى التي اجريت لي في باريس سنة ١٩٢٦ وكانت كما وصفتها انت في المقتطف « سلسلة عجائب جراحية » وكان عمك متغيباً في عزبته — ما أرق شعوره وأصدق احساسه وقد ذكر لي بكتابه انهُ شاخ والتي عليك حمل المقتطف . وربما تروم ان تقرأ القصيدة الآنف ذكرها فأذيل كتابي هذا بأبيات تستنتج منها ان المقتطف كان رفيقي منذ ظهوره حتى سنة ١٩٣٠ لما أسدل على نظري غشاء « الكاتاركت » ومنعت عن القراءة ولبثت فاقداً هذه اللذة مدة عامين الى ان أنعم المولى عليَّ بردجزء من بصري عقيب عملية جراحية في سويسرا سنة ١٩٣٢

والآن صار بامكاني العود الى قراءة المقتطف والعود احمد فأرجو ارساله لي ابتداء من الجزء الاول من المجلد الخامس والثمانين وهكذا احفظ مقالة الصحافي الاديب نقولا افندي شكري المطبوعة في الجزء الثاني من هذا المجلد — وحبذا لو اطلعني حضرة الكاتب على مقالته قبل نشرها حتى كنت ارجوه ان يحذف منها ما نظره من اوصافي بتلسكوب عين الرضى فبالغ في الثناء فوق ما انا اهل له ثم كنت اصحح بعض اغلوطات في تاريخ حياتي : اولاً لم اكن متزوجاً لما سافرت سفرتي الاولى سائحاً سنة ١٨٨٩ ثانياً المعرض اقيم بالسنة المذكورة وليس في سنة ١٨٩٠ ثالثاً اني سميت كتاب سياحتي « سفر السفر الى معرض الحضر » وليس السمير الى السفر » وقد نفدت طبعتهُ الاولى رابعاً انني بالغ من العمر ٧٥ عاماً وليس سبعين

واليك بعض ابيات القصيدة التي ارسلتها الى عمك لما لاح بدر « المقتطف » في شهر يونيو سنة ١٨٧٦

من كل فن مقتطف مجموع علم قد صدر
من روضه فاح الشذى من عرفه الطيب انتشر
آراؤه ورواؤهـــــا أشهى فكاهات السمر
لما تبدى نورها أيقنت ان الليل مر
من جال في ارجائه نظر الكواكب والقمر (١)
يعقوب ذاك الفذ من عشق العلوم من الصغر
انبأنا كيف بحارنا بتبخر تلك المطر (٢)
ومنها : ورفيقه من مرصد يروي لنا احلى خبر
اسماه اهله فارساً صدقوا غدا بطل الحضر

اجتزيء بما ذكر — كتابي هذا مرسل اليك خاصٌ بك ، لكن اذا رغبت في نشره بالمقتطف فأنت حرٌ بذلك واهديك تحياتي الصادقة

ديمتري خلاط

(١) اشارة الى مقالة بالعدد الاول بقلم الدكتور فارس نمر (٢) اشارة الى مقالة بذات العدد بقلم الدكتور يعقوب صروف

مكتبة المقتطف

في علم النفس والتربية

١ — الطرق العملية لدراسة الحياة العقلية

تأليف نظله الحكيم ومحمد مظهر سعيد

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه طائفة من التجارب النفسية التي ترمي الى قياس بعض النواحي العقلية كالذاكرة وسرعة الحفظ والنسيان الى آخره . يجمع هذه التجارب كما يجمع الانسان بعض الثمار من غير ان يبين شيئاً عنها ، لا بل من دون ان يسأل نفسه ما هذه وما تلك . او ما نفع هذه وما فائدة تلك . واليك مثلاً مما ورد في صفحة ٣٥ من الكتاب تحت عنوان «الصور الذهنية»

يطلب الى الموضوع Subject ان يضع امامه كتاباً مقفلاً ، وينظر اليهِ بضع ثوان ، ثم يغمض عينيه ويحاول ان يستحضر كل التفاصيل التي يذكرها عن هذا الكتاب ، ويدون هذه التفاصيل ويجيب عن بعض الاسئلة التي وجهها اليهِ المؤلفان في كتابهما ، وانتهينا من الموضوع . ثم نجدنا وقد اخذنا بسبيل موضوع آخر . من دون ان يدري القارىء العادي ماذا يراد منهُ وماذا يريد هو من هذه التجارب ولماذا يتعب نفسه فيها اصلاً

والواقع او على ما يظهر لنا ان القصد من الكتاب ان يستعمله المعلمون لجمع الحقائق الخاصة بهِ ، اي ان الغرض منهُ استقرائيٌّ احصائي

نحن نعرف المؤلفين معرفة جيدة ، ونعرف مكانهما العالي بين اساتذة علم النفس في هذا البلد ، وكنا نتوقع منهما ان يقدما لنا دراسة تفصيلية لهذه الاختبارات مع بعض الامثلة التي تسهل لنا فهم هذا الموضوع ، فالاستاذ مظهر سعيد كفء لهذه الدراسة وله الاستعداد والمقدرة على الاضطلاع بهذا الامر — لا بل نظن انهُ من القلائل في هذا البلد الذين يستطيعون ان يكتبوا في هذا الموضوع عن دراية ومعرفة تامتين

وللاستاذين عذرهما فان هذا هو الكتاب الاول ، وهو بطبيعة الحال انما وضع تمهيداً لما سيتلوه فأرجو منهما ان يلاحظا هذا الامر في كتابهما التالي ، وهو ان الجمهور مقبل على علم النفس ، لم تُتَح له الفرصة الكافية ولا الكتب الكافية لهذا النوع من الثقافة فهو يريد ان يلم بالمبادىء الاولية التي تبني عليها امثال هذه الاختبارات ، وبعبارة اخرى نريد دراسة تمهيدية لاختبارات الذكاء وجميع الاختبارات العقلية ، لماذا نستعمل هذا الاختبار او ذاك ، وماذا ينتج من اجرائهِ وكيف نستطيع ان نحكم

على قيمة نتائجهِ وما هي دلالة هذه النتائج. بعد هذا كلهِ يصح ان نحاول اجراء هذه الاختبارات على انفسنا

اظن هذا الكتاب قد وضع لطلبة الاستاذين او لهم ولطائفة من المدرسين ، فاذا كان هذا هو الواقع فمن الواجب على الطلبة ان يدرسوه وعلى المعلمين الذين يهمهم الموضوع ان يجربوا التجارب ويجروا الاختبارات ويدونوا نتائجها ويبعثوا بها الى المؤلفين لتكون نواة لكتابهما المقبل يلخصان فيهِ النتائج الاحصائية

٢ — الجزء الثالث من علم النفس

تأليف محمد عطية الابراشي وحامد عبد القادر

هذا كتاب من خيرة الكتب في علم النفس في اللغة العربية يجمع ما يمكن جمعه بين دفتي كتاب واحد ، لا بل اظن انهُ يجمع اكثر مما ينبغي ان يجمع ، فعلم النفس علم واسع جدًّا ، وما كتب فيه لا يمكن تلخيصه مع حفظ قيمته ، فلا بدَّ من ان يضر التلخيص فيه بمن يريد ان يطلع على شيء من هذا العلم الحديث

فاذا كان الغرض من وضع هذا الكتاب هو الالمام السريع بأبواب السيكلوجيا وموضوعاتها ، الماماً لا يسمن ولا يغني من جوع ، المامَ حصر لا المام تفصيل فقد حقق هذا الكتاب الغرض من تأليفهِ على خير وجهٍ وعرج على كل شيء ينسب السيكلوجيا ، واقتطف من كل شجرة ثمرة ومن هذه الوجهة اظن ان هذا الكتاب من خير ما وضع في لغتنا في علم النفس ، ويصحُّ ان يعد من الكتب القلائل التي وضعت في اللغة العربية

ولكني كنت افضل شخصيًّا ان لا يحاول المؤلفان الاحاطة بالموضوع من جميع جهاته ، ذلك لان هذه المحاولة في رأيي كثيرة على استاذين اثنين ، وكثيرة ايضاً على كتابين او ثلاثة ، الاَّ اذا كان الغرض التعريج على المواضع والالماع اليها الماعة سريعة . كنا نفضل ان لا يحاول الاستاذان ، هذا ، وانما كنا نريد منهما ان يقصرا جهودهما على بعض موضوعات السيكلوجية ، ويدرساها دراسة تفصيلية مستطيلة تلم بها من جميع النواحي ، مع الافاضة والشرح وضرب الامثال مما يقع تحت حس القارىء العادي في منزله وديوانه وفي الطرقات العامة . وليس يخفى بالطبع ان السيكلوجية هي محاولة الكشف عن الدوافع النفسية للتصرفات المادية ، وهذه بالطبع دراسة يقوم بها كل انسان من يوم الى يوم بغض النظر عن مقدار حظه من الثقافة ، اما وان الاستاذين قد حاولا جمع شوارد هذا العلم بين دفتي كتاب فقد اضطرا بحكم ذلك ان يقتصرا في كثير من الاحيان عن الشرح المستطيل بوضع تعريف لبعض النواحي النفسية ، والتعريف في جملة او جملتين بموضوع من موضوعات هذا العلم خطر كبير يجب ان نتجنبه بعد ان وصلنا الى هذه الدرجة من الثقافة

الحق اني معجب بهذا الكتاب واظن انهُ من واجب جميع المشتغلين بالتربية ان يقرأوه .

خصوصاً اولئك الذين لا تتاح لهم دراسة هـذا العلم في احدى اللغات الاجنبية . ولكنني ارجو المؤلفين ان يزيدا التفصيل حتى وان تناولا موضوعاً محدوداً من السيكلوجية فقط

٣ — في التربية

تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي

هذه رسالة قيمة للدكتور علي عبد الواحد وافي وضعها للدكتوراه ، وهي كجميع ما يكتب للفوز بالدرجات العلمية ، دراسة اكاديمية لا موضع فيها للامور العملية ، او بالحري تأتي المسائل العملية فيها في المحل الثاني ، ولا يعاب المؤلف في هذا لأن الغرض الاصلي من الرسائل العلمية هو اشعار مراجع الجامعات بأن الفرد قد حصل على قسط لا بأس به من العلم يتناسب مع الدرجة التي يسعى اليها ، بغض النظر عن اثر هذا في الحياة العادية للافراد والجماعات

والرسالة نفيسة حقًّا فذة في بابها لا اذكر ان احداً تناول موضوعها قبل الآن في اللغة العربية ، الفصل الاول فيها بحث قيم بديع في اللعب يجب ان لا يفوت المشتغلين بالتربية بحال من الاحوال ، وكم كنت اتمنى ان المؤلف قصر كتابه على هـذا الباب مع الاطالة في الشرح والتفصيل بحيث يرينا اثر اللعب في حياة الفرد الخلقية والاجتماعية ، وكيف ان اللعب يكوِّن الافراد ويكوِّن الامم ، كنت اريد ان هذا البحث يدور حول الاخلاق والاجتماع

وانا لا الوم الدكتور في شيءٍ وقعت فيهِ انا ، وكنت اود لو لم اقع فيه ولكن ظروفنا التي نحن فيها تتطلب من امثال الدكتور أن يتقدم للجمهور برسالتهِ العلمية اولاً ، ويجب على كل حال ان يتلوها برسالة عملية نستنير بها في حياتنا الاجتماعية الراهنة

وبحثهُ في ماهية اللعب ، والدوافع النفسية والبدنية لهُ ، جمع كثيراً من الآراء والمذاهب المنوعة ثم اعطى لكل رأي قيمته وقدره ، وعقب على هذا برأيهِ الخاص ، وعقب على هذا كلهِ باظهار الفرق بين اللعب والعمل ، ورأيهُ في هذا الفرق يتقارب من رأي قنديل في احد كتبهِ ، ويستند الى كثير من علماء التربية ، وان كنت شخصيًّا لا ارى هذا الرأي من الوجهة النظرية وان كنا متفقين عمليًّا ، فاللعب والعمل من الوجهة النظرية لا يمكن التفريق بينهما بحال من الاحوال ، فهو في الواقع تفريق بين الغايات والوسائل ، وهذه في رأينا لا يمكن التفريق بينها من الوجهة النظرية

والكتاب ينتهي بقائمة كبيرة من المراجع التي لا يمكن أن تستغني عنها رسالة علمية ، ولكن هذه القائمة ينقصها كتب في اللغة العربية وكان من المستحسن ان يذكرها المؤلف او يشير الى انهُ اطلع عليها الحق انهُ كتاب يجب على كل المشتغلين بالتربية وعلم النفس ان يدرسوه بامعان وتدقيق

يعقوب فام

الثورة العربية الكبرى

تأليف امين سعيد — نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي — ثلاثة مجلدات صفحاتها ١٤٠٠

ان من اجل الكتب التي ازدانت بها خزانة التاريخ السياسي في اللغة العربية في الفترة الاخيرة كتاب « الثورة العربية الكبرى » للاستاذ امين سعيد . ولو قدر للمستر (روبرت جرايفز) ان يقرأه ويرى الاخبار الواردة فيه والوثائق المسجلة بين طياته لاسترجع ما فرط منهُ من القول عن ان تاريخ (الكولونل لورنس) للثورة العربية لا يشق العرب غباره ولا يأتون بمثله[1]

والواقع ان هذا السفر النفيس الذي اتحفنا به كاتبنا العربي هو مرجع خصب للمتتبعين من اهل الاجيال القادمة وموسوعة في الموضوعات التي تناولها لا يمكن الاستغناء عنه بوجه من الوجوه . وقد ضم بين دفتيه من اخبار النهضة القومية العربية منذ فجرها عقب الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ الى اليوم ما لا يترك زيادة لمستزيد فاستعرض فيه الوقائع والحوادث ما ظهر منها بالصورة المكشوفة وما بطن وراء ستار الدسائس على طريقة حرية بالتدبر والاعجاب . فهنالك وصف مستفيض للجمعيات العربية التي تألفت من بعد ما كشر الاتحاديون الترك عن نابهم وباشروا خطتهم المحفوفة بالمهالك من تتريك العرب والقضاء على قوميتهم وثقافتهم تحت برقع من الاخاء الديني ثم جاءت الحرب العامة فاتخذ السفاحون الطورانيون اعلانها فرصة للقضاء على النابهين من رجالنا فنصبوا المشانق لافذاذ منا لو بقوا في قيد الحياة لتعذر على المستعمر الاوربي ان يدنس ارض الوطن المقدس بقدميه وساروا بمظالمهم ومغارمهم يجللونها بدعاية من الدين كاذبة حتى ارغموا العرب على امتشاق الحسام . ومن اقذر الهنات التي يزل بها زعيم هؤلاء الطغاة احمد جمال باشا ما ابرزه كتاب « الثورة العربية الكبرى » من الوثائق السرية التي نشرها البولشفيك في اواخر الحرب العامة وفيها ادانته بالخيانة الوطنية العظمى ضد الترك والخلافة العثمانية وذلك بمحاولته الانحياز الى جانب الروس والانكليز والفرنسيين لتأليف سلطنة يجلس على عرشها وتكون لخلفه من بعده ولكن من سوء حظه ان الحلفاء انفسهم ردوه رداً منكراً

اعلن الشيخ الوقور حفيد من اسس مجد العرب الثورة العربية في سنة ١٩١٦ وما زال النصر حليفها في حلها وترحالها حتى دخل فيصل بن الحسين دمشق في اواخر سنة ١٩١٨ من بعد ما لاقى العرب الاهوال في سبيل حريتهم فتأسست حكومة وطنية في عاصمة الامويين ترعاها الآمال وتحف بها الاماني ولكن الجنرال غورو ممثل الفتح العسكري الاوربي والبسطة الاستعمارية الغربية اكتسحها في شهر يوليو سنة ١٩٢٠ فداس تلك الوعود والعهود الشفهية والخطية التي قدمها الحلفاء للعرب وآخرها تصريح نوفمبر سنة ١٩١٨

وصف الاستاذ امين سعيد الحكومة الوطنية السورية واعمالها وصفاً دقيقاً ثم ذكر العراق

(١) ظهر هذا الكتاب بالانكليزية لاول مرة سنة ١٩٢٧ واسمه « لورانس والجائزة العربية » وطبع غير مرة

وانتقاضه على البريطانيين والادارة العسكرية الاجنبية في بلاد الرافدين ومبايعتهُ للملك فيصل ثم أشار الى امارة شرق الاردن والامير عبد الله وعرج على فلسطين وغليانها والانتخابات ومقاطعتها والجهود التي صرفت للخلاص من كابوس الاستعمار المزدوج حتى انتهى الى الثورة السورية الكبرى وخوارق الاعمال التي ظهرت فيها مما يعيد الى الخاطر ذكريات عصر الفروسية في الجاهلية فكانت هذه الاخبار عن الثورات التي نشبت في البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية حجراً في فم المتخرصين الذين حاولوا ان يقدحوا في وطنية العرب ويقللوا من شغفهم بالحرية والاستقلال

والكتاب كله نفع ولكن في عقيدتي ان انفع ما فيهِ وصف نهضتنا القومية في مهدها وكيف صادمنا فتيان الاتحاديين عقيب الانقلاب العثماني ولم نستكنْ لهم والمظالم والمغارم التي حلت بالبلاد على ايديهم وذكر قوافل الشهداء التي ذهبت الى سدد المشانق في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ والاقوال التي قالوها قبل ان تعلق الحبال في رقابهم مما كان له كلهُ ابلغ الاثر في انتباه وعينا القومي

وفي الحق انني لا اعد شيئاً مستغرباً في جميع ما ذكره كتاب «الثورة العربية الكبرى» من اعمال البطولة الخالدة التي قام بها العرب لمحاربة الاستعمار وذلك لان نيات المستعمرين الغربيين واغراضهم المادية واضحة وبدهية الى درجة ان الذين كانوا يعدونهم قبل الحرب العامة منقذين اصبحوا بعد حين يعدون وجودهم نكبة على البلاد

ولكن ان تعجب أيها القارىء لشيء فعجب ان يرى رجالات العرب بفكرهم الثاقب ونظرهم البعيد دسائس الاتحاديين الترك وما كانوا يضمرونه للعرب من شر ويحاولونه من تتريك فينهوا في وجوههم على قلتهم غير هيابين تلك الدعايات الدينية الباطلة التي أثاروها ولا مكترثين لتلك الخلافة المزوقة المموهة التي أحاطوها بأنواع الدبدبة والطنطنة ليحاربوا بها رجالنا ويسحقوهم من غير ان يعتقدوا بها، وحسبنا ان يكون ابناء جلدتهم والذين انقذوا تركيا من الدمار هم الذين قوضوا اركانها وقضوا على معالمها

وهذا السفر النفيس وان وصف الثورة العربية خير وصف وبرز رجالها والقائمين بها خير تبرير الاَّ انه لم يحجم عن ان يشير الى الخونة والمأجورين الذين اندسوا بينهم شأن سائر النهضات القومية الوطنية المقدسة التي لا تخلو من عباد المنافع وارباب المصالح الذاتية الحقيرة

وعلى كل حال فهذا الخبر الطويل الحافل بأدق الملاحظات عن الثورات التي هبت في العالم العربي لانقاذه من براثن الاستعمار على انواعهِ هو التراث الثمين الذي سيفتخر به الابناء والاحفاد كما يفتخر الأميركيون اليوم بأعمال واشنطن وزملائه الامجاد وويل ثم ويل للامة التي تطمح ان تكون في مصاف الامم الحية وهي تبخل على حريتها بالمهجة والدينار لأن الذي يطلب عظيماً يجب ان يخاطر بالعظائم

وان الفراغ الذي ملأه الاستاذ امين سعيد في تاريخ تدرجنا السياسي الحديث فراغ عظيم

طالما شعرنا بوجوده لسببين اثنين (الاول) لان النشء الحديث من ابنائنا على ما فيه من وطنية تغلي كالمراجل لا يعرف الاَّ النزر اليسير من اعمال الذين اسسوا له الوطنية العربية الملتهبة فهو في حاجة الى مصادر يستوثق منها كمصادر (الثورة العربية الكبرى) و (الثاني) لان بعض الاقطار الشرقية بقيت في حيرة وارتباك بين ما سمعت بأذنها من الدعايات المأجورة التي انتشرت على العرب من جهة وما رأت بعينيها من اعمال البطولة الخالدة التي قاموا بها لمصارعة الاستعمار الغربي من جهة اخرى فهي والحالة هذه في حاجة الى من يدلها على اخبار النهضة العربية في مهدها والغايات النبيلة التي ذهب الى المشانق من اجلها شهداؤنا الغر الميامين ليكون ثمة تطابق بين السمع والبصر وهذا ما فعله كتاب (الثورة العربية الكبرى) وأقام الدليل عليهِ بالحجج الدامغة والاخبار الممتعة

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

تاريخ الوزارات العراقية

صدر الجزء الثاني من تاريخ الوزارات العراقية بقلم الباحث المحقق السيد عبد الرزاق الحسني الكاتب العراقي المشهور . وهو في ٢٤٠ صفحة بالقطع المتوسط وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد صقيل في مطبعة العرفان بصيدا

وهذا الجزء متمم للجزء الاول وقد صدر في السنة الماضية ووصفهُ المقتطف ويتضمن تاريخ العراق السياسي في الفترة الممتدة من قيام الوزارة العسكرية الثانية في اول نوفمبر سنة ١٩٢٦ حتى استقالة وزارة ناجي باشا السويدي في شهر مارس سنة ١٩٣٠ مع ملحق يحتوي على صك الانتداب البريطاني للعراق والدستور العراقي الصادر يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٥ . والكتاب دائرة معارف في السياسة العراقية لا يستغني عنهُ كاتب ولا باحث فقد ضم في جزئيه الكبيرين تاريخ العراق السياسي من قيام دولته في سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٠ . وانا لنرجو ان يوفق حضرة مؤلفه الى اخراج الجزء الثالث جامعاً لتاريخ العراق السياسي في الفترة الجديدة من سنة ١٩٣٠ حتى الآن فهو خير من يضطلع بهذه المهمة وافضل من يتصدى لها

ولقد اتبع المؤلف طريقة طريفة في تبويب مؤلفه الثمين فهو بعد ان يثبت نص المرسوم الصادر بتأليف الوزارة يذكر العوامل التي ادت الى تبوُّءها الحكم ثم ينشر برنامجها ويتبعه برسوم اعضائها الشمسية كل واحد على حدة ثم يورد تاريخها ويسرد الاعمال التي عملتها والعقود التي عقدتها ان كان هنالك عقود ، والمشروعات التي شرعت بها ، والقوانين التي سنتها والانظمة التي نظمتها وبالاجمال فهو لا يدع شاردة ولا واردة من تاريخها السياسي والاداري الاَّ اثبتها ودوَّنها

فنثني على حضرة مؤلفه الذي اختط خطة جديدة في كتابة التاريخ السياسي باللغة العربية راجين له التوفيق في اصدار الجزء الثالث وآملين لكتابه من الرواج والاقبال ما يستحقه

الألحان الضائعة

نظم حسن كامل الصيرفي — طبع بمطبعة التعاون بمصر — صفحاته ١٠٤

شعر هذا الديوان اكثره مما سبق نشره على صفحات المقتطف من اوائل عام ١٩٢٩ تقريباً وقد كانت مجلة العصور قبل ذلك بعام، أول ميدان ظهر فيه نشاط هذا الشاعر في نشأته الاولى. لذلك لا نظن أحداً من قرّاء المقتطف يجهل لون هذا الشعر أو فنّ هذا الشاعر

لحسن كامل الصيرفي في ديوانه الألحان الضائعة شاعر وادع النفس، رقيق القلب، متزن العقل ثم هو بعد ذلك رشيق الاسلوب، واضح البيان احياناً، قويّ الخيال يصدر في شاعريته عن فكرات تلابس معظمها الروعة الفنية فتجد المعاني المبتكرة كفاءها من اللفظ المختار ويظهر ان الموسيقى التي تتجاوب بها قصائد الديوان مستمدة من نفس شاعرها فهي هادئة وادعة، قد تستدعي الانتباه أحياناً وقد تمر على اذن القارىء كما يمرّ الحلم بالعيون الواسنة

ظهر هذا الديوان في عام حفل بظهور الدواوين الشعرية وأخصها (الملاّح التائه) لعلي محمود طه و (وراء الغمام) لابراهيم ناجي فأثارا من الضجة في مصر والعالم العربي مما لم يكن ليدور في خلدنا فدل ذلك على يقظة الروح الفني وتحفز النزعات الادبية في الشرق العربي وان المادة عادت لا تشغل الناس كلّ الشغل عن متعة الروح. لهذا حمدنا لحسن كامل الصيرفي اظهار ديوانه في العام نفسهُ بجانب الدواوين الاخرى ليتاح لنا ان نسمي هذا العام بعام الشعر

أظهر السمات في شاعرية الصيرفي هي التصوير — والتصوف — والطبيعة — والعاطفة أحياناً. فأما شعره التصويري فتتجلى لك براعته في قصيدتي « حياتي » و « موت عزرائيل » وغيرهما. أما سمة التصوف فتتجلى لك في بعض قصائد « الشاعر » ومقطعات « اغاني الربيع » وغيرها. اما الطبيعة فله فيها قصائد « جفاء الطبيعة » و« موت البلبل» و « الشجرة العارية ». واما العاطفة فتبدو في قصائد « دعيني » و « تحت ضوء القمر» وغيرها. والصيرفي في اكثر قصائده ذو نزعة تجديدية فهو يميل دائماً الى التحرر من القافية والى بعض الاخيلة الغامضة التي يسمونها بالفرنسية mance والتي يمكن ان تعتبرها في بعض الاحايين رمزية وهو في حبه لانطلاقه من وثاق القافية يقارب الروح الغالبة بين شعراء المهجر. كما انهُ يتلاقى في بعض قصائده الاخيرة مع بعض الشعراء المصريين

وقد جرت مناقشة على صفحات المقتطف من عهد قريب، بين الشاعر وأحد النقّاد، أخذ بها على الشاعر خروجه في بعض أبياته عن أحكام العروض. واننا لنرجو من صاحب الالحان الضائعة ان يستمّ عدتهُ من هـذه الناحية، وان يعني بالاستزادة من ثروته اللفظية، مبالغةً منهُ في إفراغ ظلال المعاني في قوالبها الأصيلة. وليس هذا عليه بعسير

(٠٠٠)

تربية الطفل – اسرار المراهقة

تأليف الدكتور شخاشيري

مضى على الدكتور شخاشيري نحو عقدين من السنين وهو لا يألو جهداً ولا يدّخر وسعاً في كتابة المقالات والقاء الخطب وتأليف الكتب، في موضوع صحة الاطفال والاحداث، وما يجب على الوالدات والوالدين حيالهم من العناية والارشاد، لانهُ يدرك ككل طبيب يهتم بالناحية الاجتماعية من عمله ان صحة الامة الجسدية فالعقلية رأسمالها في معترك الحياة. فاذا فرّطت فيه لم تغنها عنهُ ثروة مطمورة في الارض او هابطة من السماء.

وقد اصدر في خلال الصيف الماضي كتابين نفيسين احدهما تربية الطفل (طبعتهُ مطبعة عيسى البابي الحلبي) والثاني الطبعة الثانية لكتاب اسرار المراهقة في الفتى، (اخرجتها المطبعة العصرية لصاحبها الياس انطون الياس). وكلا الكتابين مما لا تستغني عنهُ اسرة شرقية، تطمح الى تنشئة ابنائها على احدث الاساليب الصحية واحكم القواعد

فالكتاب الاول (تربية الطفل) يشتمل على فصول، اجراها المؤلف حديثاً بين طبيب وام او بين طبيب وأبٍ، وعالج فيها باسهل اسلوب استحمام الطفل وتنظيف اعضائهِ وملابسهِ وحجرتهِ ونزهتهُ ووزنهُ واسنانهُ، وغذاءَهُ في ادوار طفولتهِ المختلفة. وفي القسم الرابع من هذا الكتاب مباحث او احاديث تتعلق بصحة الطفل والامراض التي يتعرَّض لها. والقسم الخامس يشتمل على المحاضرة النفيسة التي القاها في المجمع المصري للثقافة العلمية وعنوانها التأمين على صحة الطفل، وهي مما يصحُّ ان يكون دستوراً للعناية بالطفل الشرقي. والدكتور شخاشيري يكتب بقلم الطبيب والوالد الخبير الذي انشأ اسرة يفتخر بصحة ابنائها وخلقهم. فكتابهُ هذا يصحُّ ان يكون مرشداً للاسرة الشرقية في العناية باطفالها

اما الكتاب الثاني (اسرار المراهقة في الفتى) فيتناول ناحية اخرى من صحة العائلة، نعني حياة الاحداث اذا تتفتح غرائزهم عن تلك الاسرار التي لها صلة باخلاف النسل وبقاءِ الجنس. فالاحداث في هذه الفترة من حياتهم يتعرضون لاضطرابات نفسية وعصبية، او لامراض وبيلة، يمكن اجتنابها اذا ادرك الوالدان اسرار هذا الدور من حياة ابنائهما، والسبل الصالحة لارشادهما الى مواطن الصحة الجسدية والسلامة النفسية والعقلية. والكتاب كما يقول المؤلف: «صحي علمي اجتماعي، يشمل سلسلة من المحاورات بين اب طبيب وابنهِ، تبحث في شؤون دور البلوغ، ومكانة اعضاءِ التناسل، وكيفية الاحتفاظ بها سليمة، ونصائح قيمة عليها تتوقف صحة الابدان ونضارة العمران»

وقد ضمَّ المؤلف الى الكتاب الفصلين اللذين نشرناها هذه السنة في المقتطف بعنوان «العلم والحياة الجنسية» والمحاضرة التي القاها في جامعة القاهرة الاميركية بعنوان «دور المراهقة وتبعة الوالدين» (وقد نشرناها في المقتطف عددي يونيو ويوليو ١٩٣٣). ومما تحسن الاشارة اليهِ ان الدكتور

استفتي بعض قادة الفكر والتربية في مصر ، عقب محاضرته ، في موضوع التربية الجنسية ، فجاءته ردود حكيمة من الدكتور شاهين باشا والدكتور طه حسين والسيدة انصاف منصور فهمي وسلامه موسى وعبد القادر حمزه والدكتور زكي مبارك فننشر فيما يلي جواب الدكتور طه حسين قال :

أوافق كل الموافقة ان تكون التربية الجنسية شيئاً تعترف بهِ الاسرة في البيت والدولة في المدرسة في غير حرج ولا نفاق ، فهي كغيرها من انواع التربية الجسدية والعقلية ضرورة من ضرورات الحياة . وربما كان الشر الناشيء عن اهمالها اعظم جدًّا من الشر الذي ينشأ عن اهمال غيرها من اساليب التربية فهو يمس صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد اصلين من أصول الحياة الاجتماعية

الحموضة والقلوية

في نظرية الشوارد Ions

دفع اليَّ رئيس تحرير المقتطف نسخة من هذا الكتاب النفيس — تأليف العالم محمد صلاح الدين الكواكبي الدكتور في الصيدلة والكيمياء ، والاستاذ المساعد في مخبر الكيمياء في المعهد الطبي العربي في دمشق — لكي اطالعهُ واكتب عنهُ للمقتطف . ولكن الكتاب لا يطالع مطالعة بل يجب ان يُدرَس درساً بانعام نظر لان مباحثه علمية بحتة في موضوع من اهم موضوعات العلم الحديث يرتكز عليهِ علم كيمياء الحياة Biochemistry وعلم الكيمياء المرضية Patho-Chemistry ايضاً . فصدور هذا الكتاب بلغتنا العربية يضيف قدراً كبيراً من الثروة العلمية اليها كسائر مؤلفات هذا العالم المنتج في حين ان العربية فقيرة جدًّا جدًّا بالعلوم الحديثة

وقد قرأت جانباً من هذا الكتاب القيم وادركت ما فيهِ من دقة البحث وعمقهِ وما للمؤلف من سعة المعرفة العلمية والاضطلاع بفروع العلم الحديث وشعرت بما عاناه في خلال تصنيفهِ في اختيار الالفاظ العربية الممكنة للاصطلاحات العلمية

الكتاب مدرسي محض والبحث فيهِ عويص جدًّا فيتعذر على الطالب ان يحصّل ما فيهِ من معرفة بلا استاذ يشرح له البحث أثر البحث ، اللهمَّ الاَّ اذا كان الطالب ملمًّا بشيءٍ من اطراف الموضوع من قبل . واظن ان غرض الدكتور الكواكبي ان يكون هذا الكتاب متناً بين ايدي تلامذته يرجعون اليهِ للذكرى بعد ان يشبع اذهانهم بشروحهِ في محاضراته لهم . وكنت اتمنى ان يكون الغرض منهُ اعم بحيث يستفيد منهُ الطالب الهاوي غير المتلمذ ايضاً . ولذلك تمنيت ان يكون قسم « المعلومات النظرية » الذي استهلَّ بهِ الكتاب مطولاً نحو ضعفيه ولا سيما في اوائله اي ان تشرح فيهِ النظريات الاساسية التي تمهد البحث للدارس الهاوي ، كشرح معنى الحموضة والقلوية ومعنى اختبارها وشرح التأين Ionisation الكهربائي شرحاً وافياً ، وشرح المراد بالتعادل

والتكاثف ، والتبسط في شرح التحلل او التفكك الكهربائي Electrolysis الى غير ذلك من الامور التي تظهر خارجة عن موضوع الكتاب ولكنها بالحقيقة اساسية له وبدونها لا يفهم . ولزيادة تسهيل التناول على القارىء كان حسناً ان يضاف الى الكتاب معجم صغير في بضع صفحات تفسر فيه الاصطلاحات العلمية تفسيراً فنيًّا ملحقاً بالمرادفات لها في احدى اللغات الافرنجية لكي يعود القارىء الى هذا المعجم كلما تكررت لفظة امامه اذا كان قد نسي المراد منها

ولعل الدكتور الكواكبي شرح تلك المعلومات النظرية في مؤلفاته الاخرى شرحاً كافياً فاجتزأ بما شرحه هناك عن التطويل في هذا الكتاب . ولكنهُ لو اعاد في المقدمة الشروح التمهيدية اللازمة لكان الكتاب اتم فائدة للقارىء الذي لا تسمح له احوالهُ بالرجوع الى المطولات والمتون . وقد استدرك المؤلفون الافرنج هذا الامر اذ ترى مؤلفاتهم العلمية تتقدم للقراء بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع تسهيلاً لتفهم الموضوع نفسهِ . فمؤلف الكيمياء مثلاً يمهد بفصل طويل عن بعض المواضيع الفيزيائية اللازمة لابحاثه . ومؤلف الفلك يمهد بفصل او فصول عن الكهرباء والنور والحرارة لكي يسهل للقارىء فهم ما يراد منها في معرض مباحثه الفلكية

على ان الدكتور الكواكبي يقدم لطلاب العلم العرب لؤلؤة نفيسة جدًّا ، ولكنه نسي ان يقدم معها العلبة التي تودع فيها . او لعلّ العلبة في احد مؤلفاته الاخرى . فلا ادري . ليتهُ اشار اليها . بيد ان اللؤلؤة لامعة في كل حال . اعتقد ان القارىء يقدر مما تقدم القيمة الغالية لهذا الكتاب فيشكر معي للمؤلف عظيم الشكر نقولا الحداد

الدليل العام للقطر المصري والخارج

سنة ١٩٣٥ — يصدره اميل مكاريوس — صفحاته ١٩٨٢ من حجم اربعات — طبع بمطبعة المقطم بمصر

لقد اصبح اصدار دليل جامع كهذا الدليل عملاً شاقًّا بقدر ما هو عمل مفيد ، فجمع الحقائق والاسماء والعناوين وارقام التليفونات من قطر كالقطر المصري سكانه خمسة عشر مليوناً ثم تبويبها وترتيبها ووضع فهارس لها واخراجها في مجلد يضم الفي صفحة كبيرة عمل دونه خرط القتاد ولكنه عمل مفيد لان موظفي الحكومة على اختلاف اعمالهم والتجار والاطباء والصحافيين يحتاجون اشد الحاجة اليه . ماذا تطلب ؟ عنوان فلان في مكتبه او بيته ورقم تلفونه في كليهما ؟ لك ما تريد . افتح باب الصحف ان كنت تطلب صحافيًّا او باب التجار ان كنت تطلب تاجراً او باب الاطباء والصيادلة ان كنت تطلب طبيباً او صيدليًّا تر الاسم والعنوان ورقم التليفون . فوزارات الحكومة كلها مبوبة تبويباً متقناً وفيها اسماء الموظفين جميعهم واعمالهم واماكن سكنهم والمديريات كذلك

وقد صدر دليل هذا العام حافلاً بكل ما تقدم من المعلومات مبوبة احسن تبويب حتى يسهل تناولها والبحث عنها . وهو يحتوي على طائفة كبيرة من الصور ومقدمة طويلة في تاريخ مصر القديم والحديث . فنهنىء منشئه ومخرجه بهذا العمل الجليل ونتمنى لدليله ذيوعاً هو جدير به

مجلة الدهور

اذا صحَّ القول بأن « الصحافة مرآة للامة » ففي سورية اليوم ظاهرة صحافية جديدة لا بدَّ من الاشارة اليها لانها تدل على تطور اجتماعي خليق بالدراسة والمتابعة . كانت الصحافة في سورية وما برح اكثرها الى اليوم يعالج السياسة المحلية بالمسكنات والمخدرات فما فكر رجالها قط ولا عنوا بمعرفة العلة التي اوجبت المرض السياسي الذي كاد يتأصل ويزمن في جسم المجتمع السوري

ليس لي الآن ان المح تلميحاً الى الناحية السياسية لارتباطها بما أهميته في الصحافة السورية تطوراً في الاجتماع ، ولولا الاضطرار الى الاكتفاء بالتلميح والاستغناء عن التوضيح لكنت وازنت بين اعمال الصحافة واعمال رجال السياسة ، واظهرت مدى الارتباط الواقع بينهما ، ومعيار التطور الذي يحدثه هذا الارتباط الذي بهِ تعرف الامة من مرآة صحافتها ، ولكن ليس الآن مجال هذا البحث

انما غرضنا ان نشير الى التطور الاجتماعي في سورية لانهُ آتٍ عن طريق شقتهُ الصحافة جديداً وعبدتهُ بحيث اصبح جادة سلطانية توصل الى المحجة التي ينشدها الشباب المتطلعون الى غيرهم ، الحريصون على سعادتهم بأن تكون مكفولة فيهِ

أما الظاهرة الصحفية الجديدة التي أحدثت التطور الاجتماعي الملموس في سورية فهي اولاً في انشاء مجلة الدهور بثوبها الحالي وثانياً في جعل هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه جماعة من أدباء الشباب تسموا « بجماعة التحرير الفكري » وثالثاً في نهج هؤلاء الشباب نهجاً يختلف عن تفكير الشيوخ الذين ألفوا معالجة الادواء السياسية والاجتماعية بالمسكنات والمخدرات وحسبان هذه المعالجة الفاسدة حكمة واصالة رأي

من يتصفح مجلة الدهور التي يصدرها في بيروت « جماعة التحرير الفكري » وعلى رأسهم الاستاذ سليم خياطة يجد ان هؤلاء الشباب يرمون حقيقة الى تحرير الفكر قبل تطلعهم الى التحرر من ربقة المحتلين ، ويدعون الى الاخذ بالنظم الاجتماعية الحديثة واعتناق تعاليمها لانها — في نظرهم — أقطع وأمضى من اسلحة النار والحديد الذي ألف الاقوياء المتمولون قتال الضعفاء والمستضعفين بها. وينادون بالمدنية الانسانية التي تجعل العالم بأسره وطناً للانسان المتمدين المتحضر ، ويهيبون بالناس الى الاقلاع بله التمرد على النظم الاجتماعية التي وضعت في الاصل على أسس من الفساد والفوضى ، ويجأرون في وجوه الرجعيين والمحافظين لانهم دعاة الخضوع للأمر الواقع

هذه لمحة من طرائف رسالة « جماعة التحرير الفكري » تقرأها صريحة في هذه المجلة الراقية التي لا يقتصر كتابها الافاضل على التأليف وحده بل يعتمدون على الترجمة عن جهابذة الكتاب العالميين والاقتباس من ناضج افكارهم وروائع انتاجهم العقلي ، وبذلك يجلون مرآة امتهم ويجعلون من مجلة الدهور رجع صدى نفسها الطامحة الى التحرير الفكري والاجتماعي والسياسي

حبيب الزحلاوي

الفجر

مجلة نصف شهرية غرضها خدمة الآداب والفنون والثقافة العامة تصدر بالخرطوم — السودان — في ٢٥ صفحة تقريباً من القطع المتوسط ١٦ × ٢١ ½ سم لمنشئها ومحررها عرفات محمد عبد الله. ثمن العدد قرشان صاغ واشتراكها السنوي عن مصر والسودان ٥٠ قرشاً صاغاً

هذه المجلة المفيدة يصدرها ويتولى تحريرها في القطر الشقيق فريق من ادباء الشباب الحر الطامح الى مجد الوطن واسعاده عن طريق نشر الثقافة العامة بين المواطنين والسير في الطريق الذي سلكتهُ الامم الشرقية الحاضرة من حيث يقظة الروح الادبيّ والاخذ باسباب الادب الجديد والحدث من الفنون الرفيعة

ولقد تصفحنا الى الآن عشرة اعداد من هذه المجلة فراقنا كثيراً حفولها — على قلة صفحاتها — بالشائق الطريف من الموضوعات العصرية فآخر اعدادها مثلاً فيهِ مقال ممتع عن الفردوسي على ذكر عيده الالفي لمحرر المجلة . ثم مقال نفيس عن الحياة السودانية المقبلة ومثلها العليا للأديب الشاعر محمد احمد محجوب ثم خواطر متداعية للكاتب البارع محمد عشري الصديق ومقالات غيرها في علم الكلام وحفيد الملك من شؤون الادب وبحث طبي للدكتور محمد زكي مصطفى عن حمى التيفود وبعض القصص الوطني وباب المكتبة كما انها لم تخل من باب للشعر العصري الذي ينشره الشاعر المهندس يوسف مصطفى التني

ويسرنا عناية هذه المجلة بالحركة الادبية في مصر ولها في بعض المؤلفات الاخيرة آراء حكيمة سديدة فنرحب بها ونتمنى لها الذيوع والانتشار

طريقة منسي

جريدة فرنسية نصف شهرية تعليمية أدبية فكاهية جامعة عامة يصدرها الأستاذ احمد ابو الخضر منسي دخلت في عامها الثالث وهي فكرة مبتكرة لتعليم اللغة الفرنسية من غير معلم سواء للمبتدئين او المتقدمين فيها . مفيدة للتعليم والمطالعة لجميع الناطقين بالضاد وخاصة طلبة المدارس الثانوية على اختلاف درجة معرفتهم باللغة الفرنسية بما حوت من ضروب المختارات من الجرائد والمجلات وكتب الادب الفرنسية مترجمة ترجمة حرفية

رحلات الصيف

رحلتان قام بهما الاستاذ عمر الركباني الاولى الى باريس والثانية الى فاس وقد وصف فيهما المؤلف ما شاهده من الجبال والانجاد والمروج والغابات وما عملته يد الانسان من القصور والمسارح والمتاحف ووصف مدينة فاس ومتاحفها وحماماتها المعدنية وجمعياتها الخيرية — طبعت في مطبعة الاتحاد بتونس ٤

باب الأخبار العلمية

الطيران العجيب

من لندن الى ملبورن

لما اجتاز بلريو الطيار الفرنسي بحر المانش الضيق بطائرته من شاطىء فرنسا الى شاطىء انكلترا سنة ١٩٠٩ عمّ الاعجاب الدنيا كلها واشتهر اسم الطيار وقبض جائزة مالية قدرها عشرة آلاف جنيه

واليوم وبعد انقضاء ربع قرن يطير طياران من انكلترا الى استراليا فيقطعان عشرة آلاف ميل في يومين وخمس يوم (مدة الطيران بين ملدنهول وبورت داروين باستراليا) هي مسافة يستغرق قطعها بالبواخر شهراً او اكثر .

وقد قسم طريق الطيران في هذه المباراة العظيمة الى مراحل اولاها بين ملدنهول بانكلترا وبغداد عاصمة العراق وطول هذه المرحلة ٢٥٣٠ ميلاً . والثانية من بغداد الى اله آباد في شمال الهند وطولها ٢٣٠٠ ميل . والثالثة من اله آباد الى سنغافورة وطولها ٢٢١٠ اميال . والرابعة من سنغافورة الى بورت داروين في شمال قارة استراليا وطولها ٢٠٨٤ ميلاً منها نحو ٥٠٠ ميل فوق بحر تيمور الفاصل بين جزر آسيا وقارة استراليا وهو بحر تكثر فيه القرشان . والخامسة وهي في استراليا بين بورت داروين وملبورن وطولها ٢١٧٦ ميلاً

وبين هذه المحطات الرئيسية محطات ثانوية يجوز للطيارين النزول فيها اما لاخذ الوقود او لاصلاح خلل او نحو ذلك وهناك معدات لتسجيل هذه الوقائع وحسابها

وقد علم القراء مما طالعوا في التلغرافات ان الفوز في هذه المباراة كتب للطيارين سكوت وبلاك بطيارة انكليزية من طراز « كوميت » . وتبعتهما الطائرة الهولندية متأخرة عنهما في الوصول عشر ساعات . ومن الطف ما حدث ان ادارة الطيران الهولندية كتبت الى وكيلها في ملبورن بأن يهدي الى الطيارين الانكليزيين عند وصولهما اكليلاً من الغار كتب عليه « علامة الاعجاب العظيم والاقدام والمثابرة » وهو روح الرياضة الحقيقي ممثل هنا خير تمثيل

واضطرت إيمي موليسون (جونسون) وزوجها الى الكف عن الطيران بعد ما بلغا الهند وكان انصارها يرجون لهما الفوز بعد ما تقدّما جميع المتبارين في الوصول الى بغداد وكراتشي

وغنيٌّ عن البيان ان ما صنعهُ سكوت وبلاك لا يمكن ان يصنعهُ سائر الطيارين وان هذه السرعة تذكر المرء ببساط الريح كما قالت والدة سكوت ولكن الفوز بها يشير الى الاحتمالات العظيمة في المستقبل القريب فقد يصير في الامكان انشاء خط جوي بين بريطانيا واستراليا مثلاً تكون محطاته هذه التي ذكرنا فتطير طائرة من انكلترا

الى بغداد وتكون في انتظارها هناك طائرة اخرى مستعدة لنقل ركابها وبريدها في الحال والطيران بهم وكذلك في اله آباد وسنغافورة فيقطع الراكب والبريد ما بين شمال اوربا وقارة استراليا في ثلاثة ايام وهو ما يشبه تحقيق الاحلام

العنصر الحادي والتسعون

يطلق الالمان على العنصر الحادي والتسعين اسم بروتكتينيوم Protactinium . واما علماء الانكليز فيطلقون عليهِ اسم بروتو اكتينيوم Proto-actinium . وهو من العناصر المشعة كالراديوم . وذرتهُ تتفجر تفجراً عنيفاً كتفجر ذرة الراديوم ولكنها اطول من ذرة الراديوم عمراً . فذرة الراديوم تستمر متصلة الاشعاع نحو ٢٥٠٠ سنة ثم تخمد بتحولها الى احد نظائر الرصاص isotopes . وأما ذرة البروتكتينيوم فتعمر خمسين الفاً من السنين. ومقامه في الجدول الدوري بين عنصر الثوريوم وعنصر الاورانيوم وقد تنبأ مندليف بوجوده من ستين سنة ، وظلَّ وجودهُ موضع ريب الى ان اثبتت طائفة من علماء الالمان والانكليز ، ان نوعاً خاصًّا من أشعة او دقائق الفا ، صادرة من عنصر جديد لا بدَّ ان يكون العنصر الحادي والتسعين. وقد جاء في « رسالة العلم » الاسبوعية ان الدكتور ارستيد فون غروس أحد علماء قسم الكيمياء في جامعة شيكاغو خطب امام الجمعية الكيمائية الاميركية باسطاً طريقته في استفراد هذا العنصر النادر . ويظهر ان طائفة من علماء الالمان في معهد القيصر ولهلم ببرلين استفردوا كذلك عنصر البروتكتينيوم من مقادير كبيرة من نفاية ركاز الراديوم المستخرج من مناجم جواكمستال بتشكوسلوفاكيا ، يقدر وزنها بنحو خمسة اطنان ونصف طن. وتقول جريدة نايتشر ان المركب الكيمائي الذي استحضره العلماء الالمان هو (بروتكتينيوم — بوتاسيوم — كلوريد) وان هذا المركب يحتوي على نصف غرام من العنصر الصرف (راجع مقتطف فبراير ١٩٣٠ صفحة ١٥٢ — ١٣٥)

أمٌّ في السابعة من عمرها

في انباء ولاية تنيسي الاميركية ان فتاة في الحادية عشرة من عمرها حملت وولدت طفلاً . ولكنها مع ذلك ليست اصغر أم عرفت في تقارير الاطباء. والراجح ان أصغر أمّ عرفت هي فتاة مسلمة من سكان دهلي عاصمة الهند، التي ولدت طفلاً كامل النموّ وهي في السابعة في عمرها . قالت الدكتورة كين Keane في مقالة عنها نشرتها في «الجورنال الطبي الهندي » انهُ أُتي بهذه الفتاة الى مستشفى فكتوريا زانانا بدهلي ، وهي تشكو شيئاً في معدتها ، وقال أبوها ان عمرها سبع سنوات ، فلما روجع عمرها في كشف المواليد تحقق قول أبيها . وبعد الفحص ثبت ان كل ما تشكوهُ هو الحمل وانها على وشك ان تلد . فعملت لها عملية (قيصرية : اي لاستخراج الطفل من الرحم بشق البطن) فأخرج الطفل حيًّا تام النمو وكان وزنه اربعة ارطال وثلاث اوقيات . وبعد ما خفَّ الذعر الذي استولى عليها في الايام الاولى التي عقبت العملية ، استطاعت ان ترضع طفلها تسعة اشهر ، فزاد وزن الطفل في خلالها نحو سبعة ارطال فأصبح وزنهُ نحو ١١ رطلاً . اما

الفتيات التي يحملن ويلدن وهنَّ في العاشرة من اعمارهنَّ ، فلسن نوادر في الهند

قياس حرارة النجوم

استنبط الدكتور جول ستبنز احد علماء جامعة وسكنصن خلية كهرنورية شديدة الاحساس ، تمكن الباحث من ان يقيس بها مختلف انواع الاشعاع او الضوء التي تشع من احد النجوم . فبدأ بها الدكتور أبُت مستسرّ المعهد السمثصوني الاميركي بحثهُ في قياس نور النجوم . ذلك أنهُ اخذ ضوء احد النجوم وقسمه اقساماً هي الالوان المؤلف منها اي حلّهُ الى طيفهِ فاستطاع كذلك ان يقيس بهذه الخلية قوة الاشعة فوق البنفسجية فيه ، وقوة الاشعة البنفسجية ، فالاشعة الزرق الى الاشعة الحمر الى التي تحت الاحمر . فلما انتهى من قياسهِ على هذا النمط ، كان في امكانهِ ان يعرف اي جانب من نور النجم مما تمكن رؤيته ، واي جانب منهُ مما لا تمكن رؤيته

فضوء احد النجوم الزرق الكبيرة ، اثبت حله ان حرارته تفوق حرارة شمسنا ثلاثة اضعاف بيد ان معظم قوتهِ من الاشعة فوق البنفسجية وهذه الاشعة مما يسهل امتصاصهُ في خلال اختراقهِ لطبقات الهواء العليا حيث يكثر الاوزون

اما النور المنطلق من النجوم البيض فيخترق جوّ الارض ويمتدُّ جانب من طاقتها الى منطقة الاشعة التي تحت الأحمر . ولكن الطاقة التي تطلقها شمس صفراء من قبيل شمسنا ، خاصة بالمنطقة الممتدة من الاصفر الى الاخضر في الطيف ثم هي تمتدُّ الى ما وراء اللون الأحمر . واما النجوم الحمر ، فأكثر اشعاعها تحت الاحمر ، اي في منطقة اشعة الحرارة . فاذا شبهنا النجم الازرق المبيضّ بأتون شديد الحماوة كان النجم الأحمر اقرب ما يكون الى موقد يوشك ان يخمد

ارخبيل من العوالم الجزرية

اطلق علماء الفلك لفظ « العوالم الجزرية » Island Universes على السدم اللولبية المنثورة في رحاب الكون خارج مجرتنا لان كلاًّ منها اشبه شيء بجزيرة كبيرة في محيط مترامي الاطراف . وقد صرح الدكتور كاربنتر مدير مرصد ستيوارت بجامعة اريزونا الاميركية في رسالة تلاها على الجمعية الفلكية الاميركية من عهد قريب ، انهُ كشف عن ارخبيل من هذه الجزائر ، اي انه كشف مجموعة من السدم اللولبية ، تشبه عنقوداً من النجوم Cluster او ارخبيلاً من الجزائر في البحر

وارخبيل الدكتور كاربنتر ، مؤلف فيما يرجح من ٢٥٠ سديماً ، كل منها يماثل المجرة وقطر بعضها يبلغ عشرة آلاف سنة من سني الضوء . ومع ان هذه السدم قريبة بعضها من بعض ، بالقياس الى المسافات الشاسعة التي تفصل بين السدم اللولبية ، الاّ ان متوسط المسافة بينها لا يقل عن ١٦٠ الف سنة ضوئية . وعند الدكتور كاربنتر انهُ متى اعيد تصوير هذا الارخبيل الكوني بتلسكوب اكبر من تلسكوبهِ ، تبيّن ان عدد الجزائر التي فيهِ قد يرتقي الى ٥٠٠ جزيرة

جائزة نوبل الطبية

جاء في الانباء البرقية في اواخر اكتوبر ان جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٤ منحت لجماعة الاطباء الاميركيين الذين اكتشفوا طريقة علاج الانيميا الخبيثة بالكبد وما تبع الكبد من استعمال خلاصته ثم مسحوق معدة الخنزير المجففة ، وهم الدكاترة مينو Minot ومرفي Murphy وهوبل Whipple

القزَم والمقرَقم

يخلط بعض الكتّاب بين طرازين من الناس لانهما يتشابهان في صغر الجثة ، وبوجه خاص عند الترجمة من اللغة الانكليزية . ففي هذه اللغة لفظان هما Pigmy و Dwarf ويترجمان عادة بالقزم مع ان في اللغة الانكليزية فرقاً كبيراً بين معنى اللفظين . فاللفظ الاول Pigmy — وترجمتهُ الصحيحة قزَم — يدل على قبيلة من الناس صغار الجثث ولكن في جثثهم تناسباً بين الاعضاء . واما اللفظ الثاني Dwarf فيدلّ على فردٍ صغير الجثة في قبيلة او طائفة من الناس ، جثث رجالها ونسائها سويّة في طولها وعرضها ووزنها . واللفظ العربيّ الذي يدلّ على هذا هو لفظ المقرَقَم وتعريفهُ في محيط المحيط «الصبيّ الذي لم يشب» . واغرب من الخلط اللفظي بين الكلمتين الخلط العلمي . ذلك انك لا تجد قبيلة من قبائل الاقزام تدنو في صغر جثتها من جثث المقرقمين المشهورين في التاريخ . فليس بين المقرقمين المشهورين من زاد ارتفاع قامتهِ على ٣٦ بوصة (ثلاث اقدام انكليزية او يردة انكليزية) وكثير منهم كان لا يبلغ ثلاثين بوصة . فالمقرقم قد يكون ابن اي سلالة من السلالات . حالة ان قبائل الاقزام نادرة الآن والراجح في رأي العلماء انها بقايا القبائل التي نفرت الى الجنوب من آسيا الوسطى لما اشتدّ جفافها

وقد عرف الاقزام من قديم الزمان فالمؤرخ هيرودوتوس وغيره من الكتّاب الاقدمين يشيرون الى قبائل الاقزام في افريقية . وقد رسمهم المصريون الاقدمون على جدران المقابر المصرية من نحو اربعة آلاف سنة . وعلماء الانسان يفرقون بين ضربين من قبائل الاقزام ، فثمة القبائل الافريقية وثمة القبائل الاسيوية . وينطوي تحت الفريق الثاني اقزام جزيرة اندمان وشبه جزيرة ملايا . والراجح ان الفريقين نتجا من أصل عام يقيم في جنوب آسيا فلما افترقا مكاناً وزماناً اختلفت صفاتهما . فقبائل الفريق الثاني ، تتشابه في بعض الصفات سواء اكان مسكنهم في الفيلبين ام في غيرها

احصاءات التلفونات في العالم

نشرت مجلة « المخاطبات الكهربائية » في عدد يوليو الماضي احصاءات لآلات التلفون المستعملة في مختلف البلدان فاذا ٥٣ في المائة منها مستعمل في الولايات المتحدة الاميركية في يناير ١٩٣٣ ، و ٤ في المائة في كندا ، و ٩ في المائة في المانيا و٥ر٦ في المائة في بريطانيا العظمى و ٤ في المائة في فرنسا و ١٤ في المائة في سائر بلدان اوربا و ٩ في المائة في سائر بلدان العالم . اما من حيث احصاء التلفونات المستعملة في المدن ، فمدينة سان فرنسسكو تتقدم جميع مدن العالم ، حيث يوجد ما متوسطهُ ٥ و٣٦ تلفون لكل مائة من

سكان وتليها وشنطن العاصمة حيث المتوسط ٢٣ لكل مائة من السكان، ثم استوكهلم عاصمة السويد (٨و٣١)

اما لندن فتوسط عدد تلفوناتها لكل مائة من السكان ٨٦٨ وباريس ١٥ وبرلين ١١٦١. ولا يعني هذا ان عدد التلفونات المستعملة في هذه العواصم يقل عن العدد المستعمل في سان فرنسسكو او وشنطن وانما يقتصر على النسبة بين التلفونات وعدد السكان. ومن غريب ما اشتملت عليه هذه الاحصاءات ان سكان تشكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الاميركية وزيلندا الجديدة يفوقون سائر سكان العالم في استعمال التلفونات. فتوسط المحادثات التلفونية في تشكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٢ لكل فرد من السكان كان ٢٢٤٥ محادثة اما في زيلندا الجديدة فبلغ ٢٠٥٩ واما في الولايات المتحدة الاميركية فبلغ ٢٠٤٦

الفردوسي وشاهنامته

تابع المنشور على الصفحة ٢٨٠

﴿الفردوسي﴾ ولد في قرية بار اوشاداب او رزان من توابع طوس في سنة ١٣٢٣ او سنة ١٣٢٤ وكنيته ابو القاسم ولقبه الفردوسي وهو مشهور بهما واختلف في اسمه واسم ابيه فقيل اسمهُ حسن او احمد او منصور واسم ابيهِ علي او اسحق او احمد. وكذلك اختلف في تاريخ حياتهِ واحواله اختلافاً كبيراً

اشتغل بالعلم والأدب ولاسيما باللغة العربية والبهلوية فأراد تتميم الشاهنامة التي بدأها الدقيقي ونظم منها الف بيت والظاهر انه شرع في ذلك في عهد السامانيين ونظراً لان السلطان محمود كان محبًّا للعلم والادب توجه اليهِ لتتميم مقصده واتصل بالعنصري والفرخي والمسجدي الذين كانوا من اوائل الشعراء في عصره وخواص شعراء السلطان فبعد ما رآه وعلم بمقصده وهو تتميم الشاهنامة هيَّأ له محلاً خاصًّا وتكفل بمؤنته وعين لهُ خدماً وزين بيتهُ بصور الأبطال والملوك الايرانيين والاسلحة المتنوعة للحرب حسب طلبه حتى أتم الشاهنامه وعلى ما يظهر كان نظره من صلة السلطان محمود بالشاهنامة تجهيز بنته وسد خزان طوس وان تكون مدداً له في شيخوخته ووعده ان يكافئه بستين الف دينار ولكنهُ عملاً بمشورة بعض المغرضين بدل الدينار بالدرهم والذهب بالفضة فغضب من ذلك الفردوسي وقسم الاموال بين حمامي وبائع شراب وحامل الدراهم ثم هجا السلطان محمود هجاء شديداً متضمناً التحذير من الايذاء والاغترار بالدنيا ثم ترك الغزنة وهرب الى الهرات وقيل رجع الى طوس ويقال ان الشاه محمود ندم على ما فعل بنصيحة ناصر لك احد الحكام في ذلك الوقت حيث بعث اليه خطاباً محتوياً على الوعظ والنصيحة وعدم وفاء الدنيا وبقاء الذكر الحسن ويذكره بتعب ثلاثين سنة للفردوسي وآماله في ذلك واسباب اخرى وندم السلطان محمود وامر بستين الف دينار للفردوسي ولكن حينما كانت الدنانير تدخل باب بيتهُ كانوا يخرجون جنازة الفردوسي من باب آخر وكم في هذه الحياة من عجائب ومدهشات وكأنما اراد الله بذلك ان يكون كل اجره معنويًّا لا ماديًّا واخرويًّا لا دنيويًّا

مرتضى الحسيني الفاضلي الايراني

الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

مـ	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « « (طبعة ثالثة)
٧٠	« « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	« المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« « عربي انكليزي فقط
١٥	« « انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« « « « « وبالعكس
١٠	التحفة المصريه لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة « «
١٠	الاراء والمتقدات « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في امیرکا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥	حكايات الاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
٥	« « ثالث « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

مـ	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠	تاييس « « « « «)
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨	« الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	« روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ازابو، ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠	« عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦	« كابيتان، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« فلمبرج، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الحسناء «
٥	« مروحة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« الغلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨	النبي « « «)
٥	آلهة الارض « « «)



الموناليزا صورة ليوناردو ده ڤنشي المشهورة

[راجع وصفها في صفحتي ٤٣٧و٤٣٨ من هذا الجزء]

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ٢٣ شعبان سنة ١٣٥٣

اثر العلم الحديث

في خلق الفرد وخلق الجماعة (١)

— ١ —

موضوع حديثنا الليلة ، « اثر العلم الحديث في خلق الفرد وخلق الجماعة » . وهو موضوع مترامي الاطراف وبعيد الغور في آنٍ واحد . لا نستطيع ان نَلُمَّ اطرافهُ ولا ان نحيط بجوانبه في خطبةٍ واحدة ولا في كتاب واحد . وقد لا يكون ذلك في مستطاع رجل واحد . فالعلم الحديث يمتدُّ في الناحية النظرية من الذرّة واقسامها الى الشموس الكبار والسدم العظيمة المنثورة في رحاب الكون المتباعدة بعضها عن بعض ، ومن دراسة الاحياء على اختلاف قُبُلها واقسامها وانواعها واسرار كفاحها واساليب توارثها الصفات على كرّ الدهور ، الى دراسة الانسان سيّد المخلوقات ، بل هو يسمو او يحاول ان يسمو الى دراسة العقل الانساني وخفايا التفكير واطوار النفس على نزعاتها المتباينة . اما من الناحية العملية فالعلم الحديث متغلغل في بناء الحضارة الحديثة ، لان الآلة اساس هذه الحضارة ، تسيطر على نواحي العمل فيها ، واحوال الاجتماع البشري ، فلا نكاد نعيش ساعة واحدة من دون ان نحتاج في خلالها الى الآلة او الى بعض منتجاتها

وخلق الانسان هو مجموعة الطبائع والتقاليد والمقاييس الادبية والاجتماعية التي يقيس بها اعماله كفردٍ ، او كعضوٍ في جماعة من حيث الضرر والنفع والخير والشر . فهو متصل باطوار اجتماعه

(١) المحاضرة التي القاها رئيس تحرير المقتطف في نادي جمعية الشبان المسيحية في القدس بدعوة منها

على سطح الارض ، متأثر باحوال معاشهِ واقتصاده ، وقواعد تفكيرهِ واصول علمهِ ، متلوّن بوجهٍ عام بنظرتهِ العامة الى الكون والحياة

ولكنَّ هذا التشعُّب في الموضوع ، وهذه العواصة المنبثَّة في ارجائهِ ، المستمدَّة من اتصالهِ باصول الحياة الانسانية وادوار الاجتماع البشري ، يجب ان لا تحول دون المامةٍ تجلى ببعض نواحيهِ . بل ان هذه الالمامة السريعة لا بدَّ لنا منها ، لان الامر ، غير مقتصرٍ على فكاهة عقلية ، نتمتع بها ساعة وننساها ، بل هو متغلغل في حياتنا اليومية ، وتفكيرنا في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، وسلوكنا الاجتماعي بوجهٍ عام افراداً وجماعات

***

فنحن ايها السيدات والسادة ، نعيش في عصر تسير امجاد العلم في ركابهِ ، وتباري مواكب الامم في ظلّ لوائهِ الخفّاق ، وتنبثُ حقائقهُ واصوله في كل ما جلّ وهان من شؤون حياتنا اليومية سواءٌ أكانت عملية ام غير عملية

سرحوا الطرف في جنبات هذه الزّدهة الزاهية بحضوركم ، فماذا ترون ? انواراً متلألئة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة في ذرات المادة المتناهية في الصغر ، وجدراناً أقامها العلم وسوّاها على اصول محكمة من الهندسة والكيمياء ، وحريراً صنعهُ العلم من مادة الخشب فغلب دودة الحرير في ميدانها ، وملابس اتقن العلم فتل اليافها وصبغها وغزلها ونسجها بآلات كأنها الاحياء ذكاءً ، ولكنها تفوق الاحياء قوة ودقة ومضاءً

او زوروا حقلاً من حقولكم الزراعية ، تروا فيها الاسمدة الكيمائية ، وقد حبس فيها نتروجين الهواء الطلق ، بقوة الكهرباء وحيلة التأليف الكيمائي ، واصنافاً من النبات والحيوان ، ثبَّت فيها العلم الصفات والمميزات التي يرغب فيها الانسان ، وأمراضاً قد دانت لصبر العلماء وذكائهم وشوقهم الى استطلاع المجهول

او تأملوا أجسادكم ، كيف مكن العلم الاطباءَ من اسرار حياتها وقواعد صحتها واسباب مرضها ووسائل علاجها . فمن سبعين سنة كان الانسان لا يعرف شيئاً عن الجراثيم التي تسبب الامراض فاذا الهواء في نظرنا الآن يعجُّ بهذه الأحياء الدقيقة ، المفيدة احياناً في التخمير والتحليل والدباغة والتجبين ، المضرّة احياناً اخرى بما تنفثه في اجسام الاحياء من بواعث السقَم . وقد أصبحت معرفتنا هذه سبيلنا الى استعمال المطهرات ومضادات الفساد واساليب التلقيح والحقن ، فنتقي بها عوادي الاوبئة قبل وقوعها ، او ندفع كوارث الامراض عن طوائف كبيرة من المصابين بها

أتيت مدينتكم التاريخية المجيدة أمس ، على جناح طيارة ، قطعت المسافة بين القاهرة واللدّ في بضع ساعات ، مع ان بني اسرائيل قضوا في اجتياز صحراء سَيْناء اربعين سنةً . او لم يأتكم نبأ الطيارين سكت وبلاك ، كيف اجتازا المسافة بين لندن وبورت داروين باستراليا في يومين وخُمس يوم ، مع ان

أسرع البواخر لا تقطع هذه المسافة في أقلّ من شهر أو اربعين يوماً ؟ ولو شاء مستسرٌ جماعتكم الهمام ، ان أخاطبكم وانا الى مكتبي في القاهرة ، لتمّ لهُ ذلك . فالامواج غير السلكية اطوع لنا الآن من خاتم البنصر ، انها تحيط بالأرض حاملة على أجنحتها السحرية ، الصور والأنباء : أنباء النجاح وانباء الخيبة ، انباء السرور وانباء الحزن ، انباء الحرب وانباء السلم ، انباء المكتشفات الخطيرة التي تنشيء في التاريخ الانساني حدوداً للزمان ، وانباء الصغائر والمكائد التي تدلنا على ان هذا الانسان الذي بلغ تلك القمة من الابداع العقلي ، لا يزال طفلاً في مهد الروح

او تصوروا الطاقة العظيمة التي هي رهن تصرفنا الآن . زرت من بضع سنوات معمل هَيْلند بارك في دترويت ، حيث تصنع طائفة من سيارات فورد ، فدخلت الغرفة التي تولّد فيها الطاقة الكهربائية ، فاذا مولداتها الكهربائية تطلق اطلاقاً مستمرّاً طاقة قدرها ستون الف حصان او تزيد . وهي رهن اشارة مهندس فرد ، او نفر قليل من المهندسين ، يسيطرون عليها ويتصرفون بها كما يشاؤون . او خذوا سيارة من سيارات السباق التي استعملها السر ملكم كمبل على شاطىء ديتونا في اميركا . فالطاقة التي تنطلق بها السيارة كالسهم المارق تبلغ قوة الف حصان مجتمعين . او تأملوا الطيارة التي كسب بها الملازم الايطالي «اجلي» قصب السباق في السرعة اذ بلغت سرعتهُ نحو ٤٣٠ ميلاً في الساعة تجدوا طاقتها تحصى بأكثر من الف حصان . ولقد قدر احد علماء الاحصاء المحدثين ، ان الطاقة الميكانيكية المستعملة في الولايات المتحدة الاميركية المستمدة من الفحم ومساقط المياه وغير ذلك ، اذا وزعت على سكان تلك البلاد البالغين مائة وعشرين مليوناً او يزيدون ، بلغ متوسط ما يصيب الواحد منهم طاقة ثلاثين حصاناً !

او اخرجوا في ليلة صافية الاديم ، وارفعوا بصركم الى السماء ، واتخذوا من الفكر والتصور مطية ، ومن السر جيمز جينز دليلاً ومرشداً ، تروا الكواكب تعد بالملايين او عشراتها ، والمسافات بينها لا تقاس الاّ بملايين من سني الضوء ، ومع ذلك فأنتم لا ترون الاّ كتلة واحدة او مجموعة واحدة من النجوم تعرف بالمجرّة ، وراءها مجرات لا تحصى ، كأنها الجزائر الكبيرة منثورة في رحاب هذا المحيط الزماني المكاني الذي ندعوه الكون

فاذا كلَّ البصر وزاغ العقل لعظمة ما تشهدون ، تحولوا مع رذرفورد او احد اعوانهِ ، الى الجهة المقابلة ، الى الذرة التي منها مبدأ الكون المادي واليها المصير ، تروا فيها عالماً معقد البناء ، مؤلفاً من الكترونات وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات ، وكلها اصغر من ان يدركها اقوى ميكرسكوب يستطيع الانسان ان يصنعهُ ، بل ان رؤيتها معجزة وستبقى معجزة ، ما زال السبيل الى رؤيتها امواج الضوء الذي بهِ نرى الاشياء . من هذه الدقائق التي لا تُرَى ، وانما تعرف بأثرها ، تتألف العناصر ، غازية وسائلة وجامدة ، لينة وقاسية ، بيضاً وصفراً وحمراً ، الى آخر ما هنالك من صفاتها المتباينة . فاذا قيل لكم ان هذه الدقائق المادية ليست الاّ كتلاً او مجموعات من الامواج ، وان

الخشب الذي تجلسون عليهِ والاحمر الذي تلوَّنَ بهِ الشفاه ايها السيدات وهذه الاجسام الحية التي نعيش بها وتتطلع الى المثل العليا ، ليست الاَّ امواجاً ، قلتم حديث خرافة ، ولكنهُ الحقيقة على قدر ما يستطيع العلم ان يعرف ما هي الحقيقة في وقت ما

فاذا تأملنا انواع الاحياء من حيوان ونبات، على ضوء مذهب التطور، اضطررنا ان نرتدَّ مئات الملايين من السنين الى الوراء ، الى العصر الذي كانت فيهِ صنوف الاحياء تقتصر على اصول قليلة العدد ،بسيطة التركيب ، فما زال بها التحول الفجائي ، والتنازع على البقاء ،واحداث الصخر والجو والماء ، حتى تطورت هذا التطور الرائع ، في تحوله وتعدد نواحيه

— ٢ —

ايها السيدات والسادة : ان جسم الانسان يغتذي بعناصر البيئة التي يعيش فيها. غيّروا عناصر غذائهِ تصيبوا تغييراً في بنائه ، وصفاته الجسمانية وما يقوم عليها من احوال العقل والروح ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى ان قصر القامة في شعوب الصين واليابان عائد الى غذائهم الخاص . وان مرض الغواتر وما يتبعهُ احياناً من بلادة العقل في بعض المقاطعات السويسرية سببهُ قلة اليود في غذاء سكانها

كذلك العقل الانساني، يغتذي بعناصر البيئة العقلية التي تحيط بهِ ولا يستطيع ان يفلت منها . بدّلوا هذه البيئة، ولابدَّ من ان تحدثوا تبديلاً ، في صورهِ الذهنية ، واساليب نظره الى الاشياء، والاغراض العليا التي يسمو اليها . وهذه الصورة المصغَّرة التي رسمناها ، للعلم الحديث ، امرٌ جديد في حياة البشر، يعود تاريخهُ الى النصف الاخير من القرن الماضي . فقد لا استغرب ان يكون بيننا الليلة ، من يذكر المعارك العقلية التي حمي وطيسها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بين اشياع التطور وخصومهِ، بين القس ولبرفورس والعلامة هكسلي . او من لايزال يذكر الانباء الاولى عن التخاطب التلفوني وكيف قوبلت بالاعراض والريب . حتى السر وليم طمسن (لورد كلفن) امير علماءِ عصره ، دهش واعجب حين رأى تلفون « بل » الاول فصاح : إنها تتكلم

فليس بالامر العجيب ، اننا ونحن نعيش في عصر ، يحصي النجوم والمجرات بالوف الملايين ، ويقيس المسافات بيراسك[1] الضوء ، وتاريخ الحياة على الارض بالوف القرون ، ويرجع الى الآلة في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة — في الزراعة والصناعة ، في المأكل والملبس ، في التعليم والفن ، — اقول ليس من العجيب ان تتأثر بهذا الجو الفكري ، حياتنا العقلية وصورنا الروحية ، والمثل الخلقية التي نرمي اليها . بل العجيب كلّ العجيب ان تظلَّ بعزلٍ عنهُ غير متأثرةٍ بهِ

***

ان أثر العلم في حياة الانسان ينبع من ثلاثة مصادر . الاول هو الانتفاع بفوائده التطبيقية وهي الفوائد التي نجمت عنها وسائل حفظ المدوَّنات وتسهيل نشرها بطبع الوف من النسخ وتوزيعها في

مختلف الاقطار . وطرق المخاطبات والمواصلات السريعة ، التي قربت الامم والافراد ، بعضهم الى بعض وازالت الحواجز الجغرافية وتخطت الحدود السياسية . ونتائج العلوم الحيوية في اتقان طرق الزراعة وتحسين أنواع النباتات والحيوان وما انبثق منها من علوم الطب والصحة العامة التي مكنتنا من مكافحة الاوبئة واطالة متوسط العمر . واساليب الصناعة الواسعة النطاق ، التي تمكن رجلاً كفورد من اخراج ثلاثة آلاف سيارة في اليوم ، او مصنعاً كأحد مصانع لنكشير واليابان الكبرى التي تنسج الوف اليردات من القطن او الصوف او الحرير في الساعة ، والتي مكنت أحد المهندسين من بناء آلة تصنع ثلاثة آلاف زجاجة في الساعة من دون ان تمسّها يد او ينفخ فيها نافخ

اما المصدر الآخر ، فهو الاسلوب العلمي في البحث ، الذي بنيت عليهِ جميع هذه المكتشفات والمخترعات. هذا الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة والمشاهدة، ولا يكتفي باستنباطها من التأمل في النفس او باستنتاجها من اقوال الائمة الاقدمين . قد يستعمل الاسلوب العلمي الاستنتاجَ في بعض مراتبهِ المتوسطة ، ولا هو يستغني عن انشاء النظريات لتفسير ما يجهله وتخطي ما يصدُّ سبيله . ولكن صفتهُ المميزة هي التجربة ، ومرجعهُ الاخير هو المشاهدة . فهو في قول العلاَّمة ويذم « محكمة الحقائق » . وقد أصبحنا بعد ان تغلغل هذا الاسلوب في طرق تفكيرنا لا نحاول ان نمتحن الاقوال التي تقال ، والآراء التي ترتأى ، بقياسها الى ما قالهُ ارسطوطاليس او افلاطون اوغيرهما. بل نبحث عنها بالرفش والمعول والنظارة المقربة والمجهر المكبّر والمطياف وانابيب الاغلاء والاحماء . فالحقائق التي كشف عنها هذا الاسلوب والآلات على اختلاف انواعها التي أفضى اليها تطبيقهُ ، بل والصفات التي يقتضيها من ممارسيهِ ، قلبت نظر الانسان ، الى الكون والحياة

أما المصدر الثالث فهو التحوُّل الدائم في مذاهب العلم والتنقيح المستمرُّ في اصولهِ ومبادئهِ ، والتعديل الذي لا ينفكُّ يدخلهُ العلماء على حقائقهِ متفرقة ومجموعة . فالحقيقة العلمية ابداً بنت البحث المستمرّ وقلّما يسري الظنُّ الى عالم بأن ما يكشفهُ هو الحقيقة المطلقة . والاَّ فهو ليس بالعالم العامل. فنحن اذ نرى المذاهب العلمية المختلفة ، التي مكنتنا من حساب الخسوف والكسوف وبناء الآلات المختلفة بدقة متناهية ، تتبدَّل وتتغير وفقاً لما يكشفهُ البحث ، وتنهار ثم يقوم مكانها ما يقتضيه التنسيق العلمي ، يصعب علينا ان نؤمن بأن قواعد السلوك الانساني مطلقة ، وانها افرغت في قوالب ووضعت لها حدود لا يمكن ان تتعدَّاها

— ٣ —

كان الانسان في عصور الحضارات البدائية ، يعتقد ان الطبيعة متقلبة الاطوار ، وكان يسند الحوادث المختلفة ، التي تخيفهُ او تبهرهُ الى آلهة مختلفة ، فللغاب اله وللجبل اله وللنهر اله وللبحر اله. فكان الناس يعالجون خوف الجوع بالذبائح والقرابين البشرية ارضاءً لروح الحنطة ، وكانوا يتقربون بالضراعة الى روح النهر عند فيضان الانهر وطغيانها . وكانت صورة هذه الآلهة منتزعة في الغالب

من صور الناس انفسهم . فأنت تستطيع ان تداهنها وتتملقها بالعطايا والقرابين ، وتستثيرها بالآثام وتسترضيها بالدعاءِ . اما ان تجري هذه الآلهة ، في صلاتها بالناس وفقاً لنظام له سنن ونواميس ، يمكن الكشف عنها واستطلاع خفاياها بالبحث والدرس ،فظلَّ فكراً بعيداً عن عقل الانسان بوجهٍ عام، رغم الالماع اليهِ في اقوال بعض العلماءِ المتقدمين . فلما استخرج غليليو نواميس القوة والحركة واستنبط مبادىء الاتساق في بعض الافعال الطبيعية، وتمكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلكية فوقعت في المواعيد التي ضربوها ، اقتضى نجاحهم احداث تغيير اساسي في تفكير الناس ونظرهم الى تلك القوة العجيبة القائمة من وراءِ ظاهرات الكون العجيب

وكان « يهوه » في نظر الآباء العبرانيين ، اله القبيلة او الامة ، يدافع عنها في الحروب ، ويقيها شرَّ اعدائها، ويوطد لها سلطانها على الارض . وصوَّر غيرهم الربَّ قاضياً جالساً في محكمتهِ العليا وامامهُ القسطاس يقضي في الناس بالعدل او اباً رحيماً يرحم بقدر ما يعدل

ولكن لما اثبت غليليو وكوبرنيكس وكبلر ، ان الارض ليست مركزَ الكون ، وانها ليست الاّ سياراً صغيراً يدور حول شمس متوسطة بين الوف الالوف من الشموس ، في مجرَّة هي احدى ملايين المجرّات ، اصبحت صورة الله الجالس للدينونة على عرشهِ العلوي صعبة الاستحضار في ذهن رجل ، يرى في علم الفلك الحديث ، هذه الصورة الرهيبة ،في امتدادها الكونيّ والزمنيّ . فالصورة الشخصية للاله الديّان الذي يرقبنا بعيني رحمتهِ وعدله ، ويحصي علينا هفواتنا ، ويعاقبنا عليها او يصفح عنا اذا ابتهلنا اليهِ واستغفرنا ، لا تتسق وصورة الكون الجديدة ، التي تشمل ملايين المجرات والوف الملايين من النجوم ، دع عنك السيارات وتوابعها كارضنا وقمرها

فلما طلع علينا علماءُ التطوُّر ، بادلتهم المستخرجة من الصخور والطبقات المنضدة في قشرة الارض ، والعظام وما فيها من آثار ، والدماءِ وما تخضع له من تجارب ، وثبت ان الانسان ، انما هو رأس مملكة الحيوان ، ولكنهُ مع ذلك ليس الاّ حيواناً، سقطت تلك « القدسية »التي كنا نتسم بها ، اذ جعلنا ارضنا مركز الكون وجنسنا ابناءَ الله المختارين

فالمكتشفات الفلكية الحديثة من عهد غليليو الى الآن ثلّت عرش الانسان في الفضاءِ ، والمكتشفات البيولوجية الحديثة من عهد داروِن الى يومنا هذا قوّضت اركان عرشهِ على الارض

وجاء في أثر هؤلاءِ وهؤلاء علماء النفس المحدثون ، فذهبوا الى ان نوازع الانسان ، ليست الاّ افعالاً عكسية ، تحولت بفعل البيئة التي نشأ فيها ، وان دوافعهُ النفسية الاساسية ، التي تلوّن سلوكهُ ، ليست الاّ دوافع جنسية ، غرضها اخلاف النسل وضمان بقائهِ او نوازع تبغي السيطرة والتفوق على الاقران ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات ، واصبح الفرق بيننا وبينهم فرق كمٍّ لا فرق كيف

كان اسلافنا يرون في الاحداث الطبيعية والامراض والاوبئة ، قصاصاً يستحقهُ الآثمون-

فالصرع والجنون والعمى ، والزوابع والزلازل والاعاصير والفيضانات وانفجار البراكين ، الوان من العقاب يوقعها العليّ على من خرج من ابناء عليه . اما اليوم فاننا نبحث عن بواعث الامراض في عوالم الميكروبات ، لا في خفايا الذنوب . فاذا طلع على الناس واعظ — كما يفعل بعض الوعاظ الاميركيين — وقال لهم ان اعصاراً في فلوريدا او زلزلة في اليابان ، ليسا الاّ اعراباً من قبل الله جلّ جلالهُ ، عن غضبهِ وحنقهِ ، أشاح الجمهور عنهم ، في رأي القس الدكتور سوكمن الاميركي ، ووضع اصابعهُ في آذانهِ دونهم ، وارتاب في صحة تجلي الحقيقة الالهية لهم ، وخاصة اذ يرى نواطح السحاب النيويوركية ، حيث توارى آثام لا تحصى ، واقفة كالمردة ، لا ينالها زلزال ولا أعصار . كان عصر وكان تفشي وباءٍ بين الناس يبعث بهم الى كهنتهم لينوبوا عنهم في الاستغفار وطلب الخلاص ، فاذا تفشى بينهم وباءٌ من الحمى التيفودية ، اليوم ، او الطاعون ، هرعوا الى الكيماويين ، ليبحثوا في نقاءِ الماء الذي يشربونه والى البكتيريولوجيين في فحص الفيران التي تغادي البيوت وتراوحها والى الاطباء ورجال مصلحة الصحة بوجه عام ، ليعيّنوا وسائل الكفاح ويصفوا العلاج الناجع او العلاج الواقي في هذه الحالة او في تلك

— ٤ —

ان شريعة آداب النفس التي لاتتحول الاّ تحولاً بطيئاً كل البطء ، تتبدد اليوم بين سمعنا وبصرنا فكأنها ضباب الضحى او غيم الصيف ، والعادات المتصلة اصولها بنشأة الانسان على الارض ، الممتدة الى اغوار في التاريخ لا تبلغها الذاكرة الانسانية ، تتهاوى بين ايدينا كأنها بيوت من الورق هزّها اعصار ، او اساليب من السلوك تطفو على سطح الحياة ولا تتصل بجذورها

ففروسية القرون الوسطى ، التي بدت في عصرنا مفرغة في قالب الادب الخاص في معاملة النساء بلطف وكياسة واحترام ، لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادي . لقد قبل الرجل — مرغماً — تحدي المرأة اذ طلبت المساواة بهِ ، فصار يعسر عليهِ ان يعبد جنساً قسرتهُ الاحوال الجديدة على النزول من العرش الذي جلس عليهِ الى الميدان والشارع . ونحن ما نزال في الشرق متأثرين بذلك الادب القديم ، الرائع الجمال ، فننهض في المركبات العامة لنخلي مكاننا لسيدة واقفة ، ولكن من يعش في مدينة مثل نيويورك او لندن او باريس حيث بلغت المرأة كامل حريتها الاقتصادية ، لا يحفل بسيدة واقفة ، بل يعاملها على قدم المساواة بالرجل ، على انها احد طلاّب الرزق ، احد المنافسين له في ميدان العمل . اما الزواج الذي كان سبيل الاجتماع ، الى حفظ النوع على اسلوب منظم ، ووسيلة الى افراغ الحياة الانسانية والسلوك الانساني في قالب مستقر ، فقد اخذ يفقد استهواءهُ واغراءهُ ، لأن الانسان بعد اطلاعهِ على اساليب بعض العلوم الحديثة ، ادرك انهُ يستطيع ان يجني بعض مسرات الزواج من دون ان يتعرض لجميع تكاليفهِ ، ولان الاعباء التي يحملها الزوجان في عصر الصناعة هذا

تقضي بمد سن العزوبة وتأخير سن الزواج . والاسرة التي كانت مربى الاخلاق ، قد لانت للنزعة الفردية في حياة المدنية الصناعية فتفرقت بدداً ، والبيوت التي كانت تبنى بمكابدة الوالدين لتؤوي الابناء والبنات ، اصبحت مهجورة ، وافرادها متفرقين في مختلف المدن ، يأوون الى حجر في فنادق صغيرة ، او يشترك بعضهم مع بعض في استئجار شقق ضيقة الجوانب ، كفايتهم منها سرير يضطجعون عليه ، بعض ساعات الليل او بعض ساعات النهار

وانا لندهش ، عند قراءة التاريخ ، اذ نتبيَّن مدى ما يصيب ، قواعد الاخلاق وآداب السلوك من التغيُّر والتحوُّل مع انها قد تبدو لنا ثابتة راسخة لا يأتيها التحوُّل اذا حصرنا النظر في فترة قصيرة من الزمن . فقد استنكر القديس اغسطينوس ، ان ابرهيم كان متعدّد الزوجات ولكنهُ اصاب حين بيّن ان ذلك لم يكن عملاً « غير ادبي » لانهُ كان من تقاليد ذلك العهد ، ولم يكن فيه اي ضرر على الجماعة . بل ان تعدُّد الزوجات في عصر تلهبهُ الحروب وتمزقهُ ، عملٌ اجتماعي مفيد لان متوسط الوفيات بين الرجال في حروب القبائل ، كان اكبر جداً من متوسط وفيات النساء . فتعدّد الزوجات كان النتيجة المنطقية لزيادة عدد النساء على عدد الرجال . فكانت المرأة تفضل ان تشاطر غيرها رجلاً من الرجال ، على ان لا يكون لها رجل على الاطلاق . وليس الاكتفاء بزوجة واحدة ، الا نتيجة من نتائج نشر السلام بين القبائل في مطلع الحضارة الزراعية

***

اننا لا نعلم ، في اي عصر من عصور التاريخ ، انتقل الانسان من طور الصيد والقنص الى طور الزراعة اي من دور الهيام الى دور الاستقرار . ولكننا نعلم ان هذا الانتقال ، اقتضى تحوُّلاً عظيماً في نظر الانسان الى الفضيلة والرذيلة . فبعض ما كان يحسب رذائل أصبح بفضل هذا الانتقال من قبيل الفضائل ، وامسى بعض الفضائل في عداد الرذائل . فالاجتهاد في عصر الزراعة كان مفضلاً على الشجاعة مع ان الشجاعة كانت على رأس الفضائل في عصر القنص . وفيه كان يؤثر الادّخار على السلب ، ويُرى السلام اجدى من الحرب . ثم ان الانتقال الى عهد الزراعة ، بدَّل من مقام المرأة فالمرأة اجدى على الجماعة في دور الزراعة منها في دور القنص ، لكثرة ما تستطيع عمله في الحقل وفي الدار . فكان خيراً للانسان في بدء عهد الزراعة ان يتزوج ، بدلاً من ان يستأجر امرأة للقيام بهذه الاعمال . ثم ان المرأة تلد اولاداً ، فلا يلبث ابناؤها ان يصبحوا عوناً لآبائهم في الحراثة والزراعة والحصاد . فالاجتماع الزراعي كان لا يقتضي من الآباء النفقات التي يتعرَّض لها آباء اليوم قبل ان يصبح ابناؤهم اهلاً لخوض معترك الحياة . لذلك كانت الامومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو ادركت وسائله عملاً غير أدبي لأنه يقلل الولد حيث تجب زيادتهم وكانت الأسر الكبيرة حسنة في نظر الشيوخ والكهان

في ذلك العهد ، نبتت اصول شريعة الآداب التي نأخذ اليوم بجانب كبير منها على الاقل ،

ففي المزرعة في ذلك العهد البعيد ، كان الفتى يبلغ باكراً في العقل وفي قدرته على الارتزاق . فكان اذا ادرك سن العشرين . قادراً ان يفهم اعمال الحياة ، كما يفهمها ابن الاربعين ، وكان كلٌّ ما يحتاج اليهِ حينئذٍ ، محراثاً وذراعاً قوية ، وعيناً تتبيّن احوال الجوّ من تقلبات الهواءِ . فكان يبكر الى الزواج ، حالما تعدُّهُ الطبيعة لهُ ، فلا يضطرُّ ان يعاني ما يعانيهِ ، الوف وعشرات الالوف من شبان اليوم ، في الفترة التي تنقضي عليهم بين المراهقة والزواج المتأخر . فاهل ذلك العصر لم يعانوا بطبيعة البيئة التي نشأوا فيها المشكلة الجنسية كالتي نتعرض لها اليوم ، لانهم كانوا يحلونها بحسب مقتضيات الطبيعة . اما فيما يتعلق بالنساءِ فقد كانت العفّة لا مندحة عنها لانها قد تجلب في اثر الاعتداءِ عليها ، امومة لا حامي يحميها

فلما افرغت المسيحية هذه الشريعة في قانونها الادبي الخاص ، وحتّمت على ان يكون الزواج عقداً بين رجل واحد وامرأة واحدة ، وان لا ينسخ العقد مدى الحياة ، كان ذلك مما يوافق البيئة التي تمّ فيها هذا الافراغ . فزوجة الفلاح تلد لهُ عدة اولاد ، ومن الحق والانصاف ان يحافظ الوالدان على عهد الامانة احدهما للآخر ، لكي يتاح لهما ان يوجّها عنايتهما الى اولادهما حتى يشبّ اصغرهم فاذا بلغ هذا دور الشباب ، والتفتَّ الى الوالدين ، رأيت الرغبة في التنقل قد تبدّدت في اجهاد الجسد واندماج الروحين

فهذا النظام الصارم من الآداب ، كان على صرامتهِ ، مما تمكن ممارستهُ في الحقل ، فانشأ في اميركا مثلاً عندما هاجرت اليها طوائف «البيورتان» قبيلاً من الناس ، يستطيع ان يتغلّب على قارة بفضائل يرتدُّ اساسها الى كبح جماح النفس واخذها بالشدة

مضى على هذا النظام بعد انشائهِ نحو الفين من السنين ، وهو قائم ، على العفّة والزواج الباكر والاكتفاء بزوج واحدة وولادة اولاد كثيرين ، وكان هذا ما تتطلبهُ حالة العصر ، لان الاسرة كانت وحدة الانتاج على الحقل . حتى لمّا اهلّت طلائع الصناعة على الحضارة ، كانت صناعة بيتية ، يقوم بها الناس في بيوتهم لا في المصنع ، فكان كلّ شيءٍ مما يوثق العلاقة بين الاب والام من ناحية ، وبينهما وبين اولادهما من ناحية اخرى

— ٥ —

ثم اخذت المصانع في الظهور ، وشرع الرجال والنساء والاولاد ، يهجرون البيوت ، لينتظموا في المصانع . فانحلّت بذلك وحدة الاسرة وضعفت سلطة الوالدين ، وصار كلٌّ من افراد الاسرة فرداً في جماعة غير جماعتها ، اذ اصبح المصنع وحدة الانتاج لا الاسرة . ونشأت المدن وازدحمت بهجرة سكان الريف اليها ، وفيها بدلاً من ان ينصرف الناس الى الحرث والبذر والحصاد ، كما كانوا يفعلون في الحقول ، خاضوا كفاحاً ، هو كفاح الحياة والموت ، في مخازن ضيقة قذرة قاتمة ، اومصانع تدوّي فيها اصوات الآلات ولا يرى فيها الا العجلات تدور والسيور تتحرك واذرع واسنان من الحديد

والفولاذ . وتوالت المستنبطات الميكانيكية آخذاً بعضها برقاب بعض ، فصار الاولاد يتأخرون في ادراك سن البلوغ العقلي ،حتى اذا نظرت الى الفتى في العشرين من العمر في احدى المدن الصناعية ، رأيتهُ اشبه بالطفل القاصر ، ازاء تعقيد مشكلات الحياة وتواليها . فطال زمن المراهقة العقلية وامتدّت فترة التعليم اذ اصبح التعليم لا ندحة عنهُ لتوجيه العقل وملاءمته لمشكلات الحياة المنوّعة

وما ان اتى هذا الانقلاب على حال البشر ، هذا الانتقال من الزراعة الى الصناعة ، حتى اخذ من تلقاءِ نفسهِ يؤثر في شريعة الآداب الموروثة من عصر سابق . فتأخر عهد البلوغ العقلي، رافقهُ تأخر السن التي يبلغ فيها الانسان استقلاله الاقتصادي . بل ان هذا الاستقلال لم يكن ليتاح الاّ لقلائل من الناس ، لان تعقّد الحياة الاقتصادية والتواءَ سُبُلها ، كانا ابداً كالسيف المصلت فوق رأس العامل ، يهدّدهُ بانتزاع عمله منهُ

في هذا المعترك العنيف ، رأى الرجل المرأةَ وقد جرّدت من نفعها الاول في حياة الحقل. فاذا تزوج وجب عليهِ وفقاً لشريعة الآداب التي ورثها من ذلك العصر ان يحفظ زوجهُ في بيتٍ جرّد الآن من معناهُ الاصليّ المتصل بالعمل في الحقل . ذلك ان جلّ العمل الذي كانت تعملهُ الاسرة في الحقل غدا يتمُّ في الغالب في مصانع المدن ، وكل ما تحتاج اليهِ الاسرة يجب ان يُوفّى بعمل الرجل في المصنع . فاذا اصبحت الزوج امّاً ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل . فالامومة في المدن الآن ، سلسلة محبوكة الحلقات من الاطباءِ والمستشفيات والممرضات والادوات والادوية ترهق الموسر دعْ عنك العامل او متوسط الحال . وكلما زاد عدد الاولاد التي تلد ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل المتوسط.لان زمن التتلمذ والتعلم امتدّ الى ما بعد العشرين . يضاف الى ذلك ان نفقات التعليم بعد مراتبهِ الاولى كبيرة لا يقوى عليها . ثم ان كثرة الاولاد تقتضي توسيع المسكن وهذا يقتضي زيادة الاجرة وتحول دون السفر للنزهة ، او دون التفسيح عن الصدر في الملاهي والمراسح . والاولاد يقتضون خلع احدث الملابس عليهم ، كلٌّ وفقاً للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، فاذا بلغوا السن التي تمكنهم من كسب رزقهم نفروا من البيت الى المصنع والمتجر ، في المدينة التي ولدوا فيها ، او في مدينة اخرى ، وفقاً للرياح التي تدفع تيارات الانتاج والتوزيع وتوجهها

لذلك بدا للناس ان الامومة في البيئات الصناعية ، أشبه ما يكون بضرب من الاستعباد ، او ضرب من التضحية السخيفة في سبيل النوع ، وان المرأة البارعة لا تقبِل عليها الاّ متأخرةً، بعد ان تقضي الشطر الاكبر من شبابها في ظلّ لواءِ الحرية

فلما وضعت فلسفة ضبط النسل وكشفت وسائله العملية ، شاعت هذه الفلسفة الجديدة في الأوساط الصناعية ، وانتشرت وسائلها ، ثم تعدّتها رويداً رويداً الى غيرها

***

ولهذه الناحية من حياة الانسانية وجه آخر . ان الانسانية ، بفعل التقدم في علوم الطب والصحة

العامة ، اخذت تكشف عماً في سلامة الجسد وصحته ، من الروعة والجمال ، فالعناية التي توجهها الانسانية الى الرياضة البدنية وتأليه ابطالها ، والثروات التي تنفق في البحث الطبي ووسائل الصحة العامة ، شاهد بليغ على ذلك . ولا تنحصر عناية الانسان الحديث ، بالصحة من وجهة روعتها وجمالها فقط ، بل تتعداها الى الشعور بأن الصحة واجب عليه ، لشخصه اولاً ، وللانسانية المقبلة متمثلة في ذريانه ثانياً . فزعماء الحركة اليوجنية — اي حركة اصلاح النسل — لا ينون عن تذكيره ، بأن عليه تبعة عظيمة نحو اولاده تقضي عليه بأن يورثهم جسداً سليماً من الاوصاب ، وعقلاً سليماً من الآفات . ونزعة التضامن الاجتماعي ، تذكره كذلك ، بأن عليه نحو المجتمع تبعةً ، تقضي عليه بأن يورثهُ جماعة من الذريات تتألق عافيةً جسدية ، وصحة عقلية . فهو الآن لا يبحث عن سر مرض من الامراض في غضب الله على سلف من اسلافه ، بل يبحث عنهُ بالمكرسكوب في عناقيد الكروموسومات ، وبكواشف الكيمياء في كريات الدم . ويحسب كل مرض يناوله الوالدان الى ابنائهما ، امتهاناً للمجتمع . ومن هنا الحركة التي ترمي الى تعقيم الرجال والنساء الذين لا يصلحون لاخلاف النسل ، بعمليات جراحية بسيطة في الغالب . ومع ان هذا الموضوع ، ما زال من ناحيته العلمية في مهده ، الاّ ان بعض البلدان قد سنت قوانين خاصة بتنفيذ التعقيم . فقد سُنَّ في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية مثل هذا القانون وكذلك في بعض ولايات كندا وفي المانيا والدنمارك وبعض مقاطعات سويسرا

فموضوع اخلاف النسل ، الذي كان حتى العهد الاخير ، من الامرار المقدسة في حياة البشرية وعليه بني في الماضي أعظم جانب من شريعة الآداب ، قد مزقت عنهُ الحجب التي كانت تحيط بهِ واخذ يخضع لتعاليم العلم الحديث . بل قد أصبح زعماء التعليم يقولون بوجوب التعليم الجنسي ذاهبين الى ان « الاسرة يجب ان تعترف بهِ في البيت ، والدولة في المدرسة ، لانهُ كغيره من انواع التربية العقلية والجسمية ضرورة من ضرورات الحياة وربما كان الشر الناشىء عن اهماله أعظم جداً من الشر الناشىء عن اهمالها فهو يمس صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد أصلين من اصول الحياة الاجتماعية »(١)

— ٦ —

قلت في مطلع الحديث اننا نحاول عبثاً اذا حاولنا ان نحيط بالموضوع . وقد ذكرت لكم حتى الآن طرفاً من تأثير العلم الحديث في الصورة الذهنية التي يتمثلها الانسان الحديث للرب عزَّ وجلَّ ، وبينت لكم أثر العلم الحديث متمثلاً في قيام الصناعة ونشوء المدن وتحرر المرأة الاقتصادي وعلوم الطب والصحة ، في شريعة الآداب من ناحية النسل واخلافهِ والجنس والمحافظة عليهِ . ولكنني لا اريد ان اختم هذه الناحية من الموضوع قبل ان اشير الى ناحية ادبية اخرى يتجلى فيها او في ما يلابسها اعظم خطر تتعرض لهُ الحضارةُ الحديثة

(١) الدكتور طه حسين في كتاب اسرار المراهقة بالفتى تأليف الدكتور شخاشيري

من الاركان التي قامت عليها شريعة الآداب ، التي ورثناها من العصور القديمة ، فكرة الزهد، كأساس للخلق النبيل . فالزهد في حقيقته ، هو القول بأن حياة الانسان لا تعتمد على المأكل والمشرب والملبس، وان الحياة الصالحة ، يمكننا ادراكها من دون المتع المنوعة التي نطلق عليها اسماء الرخاء والترف . وهذه العقيدة طبيعية ومعقولة ، في كل جماعة تعيش على شفا الجوع ، ولا تكاد تنتزع من الأرض الا كفايتها لصد الموت . ففي بدء الحضارة الزراعية ، لما كانت وسائل الزراعة ضعيفة وقاصرة ، ادمج الزعماء الروحيون هذه النزعة في تعاليمهم فقالوا ان فقر الانسان لا يضيره ، وانهُ رغماً عن الفقر والقلة يستطيع ان يحيى الحياة النبيلة ، ويبلغ اسمى الاغراض. فبوذا ترك اسرتهُ ومملكتهُ وثروتهُ ليبحث عن الخلاص في مسالك الانسان العادي . اي ان تلك الجماعات ، جعلت من الزهد فضيلة حيث قلت الاشياء التي يستطيع ان يزهد فيها الانسان

وقد اتفق ان النهضات التاريخية التي كان لها اكبر أثر في شريعة الآداب التي توارثناها كانت في حالة مادية من هذا القبيل . ففي ايام السيد المسيح ، كان النزاع محصوراً بين فريق يسير ضعيف من الناس وسلطان روما الامبراطورية . فكانت رسالتهُ الى اتباعهِ ان لا يبحثوا عن ملكهم المرموق على الارض بل في السماءِ ، فقال «في بيت أبي منازل كثيرة» وحثهم على ممارسة الزهد والطهر والمحبة للمستبد

ثم تقلبت هذه النزعة في اشكال مختلفة في عهد الامبراطورية الرومانية ثم في القرون الوسطى لما أصبحت الصومعة والدير ملجأً لاصحاب النفوس التي تطلب الخلاص من محن العالم

ولكن في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، دبّ دبيب الحياة في عروق التجارة العالمية ، واخذ فريق من الناس في البلدان التي أمدّتها الجغرافية باسباب النجاح التجاري، يجمع ثروة ، فجعل هذا الفريق يرى امكان الفوز بالخلاص على الارض . ولكن التاجر الاميركي من المتمسكين بشريعة الآداب المسيحية، ظلّ الى اواخر القرن الماضي لا يرى امامهُ الا نضالاً عنيفاً اذ واجه قارة بكراً. والنضال العنيف يقتضي الحكمة والحرص والتوفير والعمل المستمر والامتناع عن تبديد النشاط في ساح الملاهي . فالعفة وتوجيه القصد الى العمل كان مناط الامل الوحيد ، في فلسفته العالمية . هذه الجماعة من الناس التي بدأت تخرج من قتام الماضي المهدد بالقلة والجوع ،وضعت امام عيونها ، مثل العمل والاكباب على العمل والتفاني في العمل ، هدفاً روحيًّا لها ، فالنتيجة في نظرها كانت لا تعنيها كثيراً ، وانما الجهاد قبل الوصول الى النتيجة هو كل شيء ، وهذا هو الخلاص على الارض

وما لبثت ان توالت المخترعات العلمية والصناعية على الحضارة ، فانقذت الناس من شبح الجوع الجاثم فوق الصدور .وما تمكن الانسان من السيطرة على مصادر الطاقة في اشكالها المختلفة ، حتى نمت الثروة العامة نموًّا ، لم يدُرْ في احلام الاقدمين ، فأصبح في ميسور الناس — وخاصة طوائف كبيرة منهم — ان يتمتعوا بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف ، لم يرنُ اليها القياصرة . ففي عصر توافرت فيهِ هذه الوسائل لتسهيل اسباب الحياة وتوفير العناء ، ترى ماذا بقي من نزعة الزهد الصحيحة ،

والتسليم والدعة والاحتمال ؟ واي انسان يرى نفسهُ غير محتوم عليهِ ان يلقي ببالهِ الى الغد ، يستطيع بسهولة ، ان يوجه سعيهُ فقط الى صفاء الروح ونقاء القلب . قال الاستاذ جون هول في كتابهِ « حضارتنا المتحولة » — « فما كاد الاميركيون يغزون براري بلادهم المترامية الاطراف ، وينشئون فيها المدن والمصانع حتى رأيناهم في مجموعهم ، يهزأون من الحرص والحريص ، والعفة والعفيف ، ويحسبون التسليم كفريات المتحفات من بقايا العصور القديمة ، واصبح مثلهم اللهو والمتعة لا الطهر والصلاح . انهم يبحثون في حياتهم عن تلك المسرات ، التي عجز عنها ابناء الحضارات السابقة فأسندوها الى الآلهة » . فالمشكلة التي تواجه العصر هي ابتداع مثل روحية تفضي الى الحياة الصالحة النبيلة لا بالتخلي عن الثروة وما تيسره لنا من المتع بل بالرغم من ذلك

***

ونحن اليوم في الشرق ، على رغم اختلاف كبير في الاحوال بين معيشتنا ومعيشتهم ، وعلى الرغم من ان الاحوال الناشئة من انتشار الصناعة ، لم تتوافر بعد بين ظهرانينا ، حتى تفضي الى نفس النتائج التي افضت اليها في البلدان الاخرى فاننا مع ذلك نعاني المشكلة التي يعانونها بالتقليد والاقتباس . فالتحول في شريعة الآداب عندهم ، له صدى في حياتنا ، خافت اليومَ ولكنهُ لا بدَّ ان يقوى غداً . لاننا نقرأ كتبهم ونرى افلامهم ونزور مدنهم ونخالط طوائفهم ونلوّن افكارنا وطباعنا بتعاليمهم ونعيش — اي المتعلمون منا — في جو كالجو الذي يعيشون فيهِ ، وانما الفرق بيننا اننا نخلقه في الغالب تصوراً واما هم فيتنفسونهُ في غدواتهم وروحاتهم كل صباح وكل مساء

فالمشكلة التي نعانيها ، هي هي المشكلة التي يعانونها هم . واساسها الحيرة ، التي جهر بها طائفة من كبار كتابهم ، وحاولوا ان يجدوا لها حلاً في ابتداع « المذهب البشري » Humanism . هي مشكلة ناشئة عن اننا واقفون بين عالمين — احدهما ذهب في سبيله الى جوف الماضي ، والآخر لم يولد بعد ، او هو لا يزال في المهد . فلا بدَّ من ان تكون الحيرة نصيبنا كما هي نصيبهم مدى جيل من الزمان على الاقل . اننا نبحث عن شريعة للآداب ، تكون اكثر ملاءمة للاحوال الجديدة ، من شريعة الآداب التي ورثناها من العصر الزراعي ، شريعة تقوم على الذكاء بدلاً من الخوف ، وعلى القوة وحسن استعمالها بدلاً من الزهد وتلمُّس العزاء عن فقدان العالم ، فتقنع المتعلمين منا لشدة ما نراهُ فيها من الملاءمة بين نواحيها والاحوال التي تطبق فيها

هذه هي المشكلة الادبية التي يعانيها العالم . اين الحكمة واين الذكاء في استعمال قوة العلم والآلة ، استعمالاً صحيحاً ؟ ليس في تراثنا الادبي جواب على هذا . فكيف نستطيع ان نصدق ما نعلّم ، اذ يقال لنا اصدفوا عن العالم ، وانصرفوا عن المسرات

وفي هذه الهوّة بين القوة العظيمة التي ابدعها العلم ، وتقصير الحكمة البشرية عن تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية اعظم مصدر لما يحيق بالحضاوة من الخطر . وقد اشار الى ذلك الفيلسوف

برغسن في الخطبة التي القاها عند تسلمهِ جائزة نوبل الادبية من بضع سنوات . فاذا افلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بهذا العبء اتجهت هذه القوى العظيمة الى التدمير والتخريب والتقتيل بدلاً من ان تتجه الى الانتاج المجدي وتوفير الفراغ للانسان فينفقهُ في طلاب المثل العليا

— ٧ —

ومن الغريب ايها السيدات والسادة : ان نظريات العلم التي قلبت نظرنا الى الله والكون، وتطبيقات العلم التي احاطتنا بأحوال من المعيشة افضت الى انشاء هوة بين الحياة التي نعيش والقواعد الادبية التي تنظم هذه الحياة ، قد ينطوي في تطوراتهِ الحديثة ، على بذور الحل لهذه المشكلة

فالعلم الطبيعي ، الذي احرز انتصارات عظيمة في اواخر القرن الماضي ، افضى بالعلماء الى الاعتقاد ، بأن الكون آلة خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس التي كشفت. فكان ذلك سنداً قوياً لفلسفة الماديين . لانهُ اذا كان في الامكان تفسير كل دقيقة وصغيرة ، بنواميس الحركة والطاقة والجذب من اجرام السماء الى خلايا الجسم الحي ، فما الحاجة بنا الى فرض قوة من وراء العقل، ومن وراء الطبيعة لتفسير ذلك . ولكن العلم الطبيعي نفسه ، كان وهو يصرح هذه التصريحات على عتبة انقلاب ، يتصل بصميمه ، وهو لا يدري . فما اثبت السر جوزف طمسن وجود الالكترون في آخر القرن الماضي، وما تمادى العلماء في درس اللبنات الدقيقة التي تتركب منها الذرة — ومن الذرة تتركب جميع الاجسام — حتى بدأ الشك يتسرب الى عقول العلماءِ في كفاية النواميس الطبيعية لتعليل كل ما هنالك . لذلك نرى علماء الطبيعة الذين يعالجون نظرية «المقدار» (الكونتم) يقولون ان الاوليات العلمية ، ونواميس العلة والمعلول تتهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الدقائق الاولية كالكهرب والاويل . ولما كانت جميع الاشياء المادية مبنية من الالكترونات والبروتونات ، فمعنى قولهم هذا انهم لا يؤمنون الآن بالسببية او بالجبرية . والاثر النفسي الذي احدثه هذا الانقلاب ، هو ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها صوراً ذهنية لا تطابق الحقيقة. لذلك اصبح علماءُ هذا العصر فلاسفة تغلب عليهِ سمة جديدة من سمات التصوُّف والايمان امثال جينز وادنغتن وبرتران رسل وملكن واينشتين ، والامل معلق الآن باتحاد العلم والفلسفة في الوصول الى نظرة جديدة ، لا يرتاب العارفون ، في انها سوف تكون وافية الى حدٍّ بعيد باشباع ذلك الشوق الى المجهول ، الذي يتردَّد في صدر الانسان

اما الاسلوب العلمي الذي مكَّن الناس من كل ما تمتاز بهِ حضارتنا الحديثة، من الآراء والنظريات والاساليب ، فهو في صميمهِ ، مدرسة للخلق العالي . فقواعدهُ التجرُّد عن الهوى ، والانصاف بين الآراءِ وبين اصحاب الآراءِ ، والصبر والمثابرة في التجربة والامتحان ونكران النفس في سبيل الحقيقة . وكل صفة من هذه الصفات اذا لم يتصف بها الباحث العلمي ، سقطت قيمة بحثهِ . وهي في الوقت نفسهِ ، الصفات التي نرى وجوب توافرها في الخلق العالي

بل ان العلم التطبيقي في ناحيتهِ الاجتماعية، مدرسة جديدة لخلق الجماعة .فالمواصلات والمخاطبات

الحديثة قد قربت بين الامم ومهدت سبيل التعارف بين الشعوب . وكلما مضينا في تطبيق نتائج العلم الحديث تبين لنا انها تصدف عن الفوارق التي تفصل بيننا ، سواء اجغرافية كانت ام جنسية ام سياسية ام اجتماعية . فالانسولين الذي استنبطهُ الدكتور بانتنغ الكندي وصحبهُ في جامعة تورنتو لا يفرق في شفاءِ البول السكري . بين الكندي والمصري ولا بين المسيحي والمسلم ولا بين الشيوعي والفاشستي ولا بين العامل وصاحب المال . ثم ان تاريخ العلم تاريخ مشترك . ولكل امة من الامم ابطال ادَّوا نصيبهم في اعلاءِ مناره او سقطوا في ميادين الجهاد . فامجاد العلم المشتركة تؤلف بين الامم كما تجمع المصائب بين بلدان الشرق . ولعلكم لم تنسوا قول شوقي رحمة الله عليه : قد قضى الله ان يؤلفنا الجرحُ وان نلتقي على اشجانهِ

***

نعم ايها السادة ان العلم قد قلب اوضاعنا الفكرية ، ومثلنا الادبية ، ووضع في ايدينا قوة ، اذا اسأنا استعمالها افضى بنا ذلك الى التدهور . ولكن اتجاه العلم الحديث ، واسلوب العلم الحديث ، ينطويان على بذور فلسفة علمية ادبية جديدة ، قد نجد فيها خلاصاً من الحيرة التي تكاد تمزقنا .

كنت اقلب اوراقاً من أيام ، فوقعتُ على صورتين تمثلان غرق الباخرة تيتانيك . أما الصورة الاولى فتمثل الباخرة العظيمة وقد اصطدمت بجبل الجليد فشقَّ جنبها ، واخذت تميل الى الغرق وقد كتب تحت الصورة : « ضعف الانسان — قوة الطبيعة » . اما الصورة الاخرى فتمثل قارباً مدلّى من جانب الباخرة التي تكاد تبتلعها الأمواج ، وامام القارب الحافل بالركاب ، رجل يهم بالنزول ليجلس او يقف في آخر محل فيهِ لينجو مع الناجين ، ثم تراهُ وقد ارتدَّ ليخلي المكان الاخير في القارب لسيدة وراءَه وهو يعلم انهُ شارب كأس الموت لا محالة . وقد كتب تحت هذه الصورة : «ضعف الطبيعة — قوة الانسان».

ان عصر الآلة لم يسحق حتى الآن ، ولا هو فسر لنا النوازع الروحية في القلب البشري . انها لا تزال هناك ، مادة تصلح ان تبنى بها او تبنى عليها شريعة الآداب الجديدة

أما انا فلا يخامرني شكٌّ في حكمة البشر . فالذكاء الانسانيُّ برهفة التعليم وتصقلهُ المرانة ، والارث الثقافيُّ يوسعهُ البحث ويمحصهُ الاختبار . ولا بدَّ ان يجيء يوم — لن ندركه نحن وقد لايدركه اولادنا — تلحق فيهِ عقولنا بالآلات التي استنبطتها . وترتفع حكمتنا الى مستوى المعارف التي انتزعناها من صدر الطبيعة . وتسمو اغراضنا سمواً يمكننا من السيطرة على القوى الصناعية العظيمة رهينة اشارتنا وتوجيهها

عند ذلك ندرك ان اعظم رجال الدولة كأعظم المعلمين ، من يرشد بالمعرفة والعطف ، لا من يستفزُّ بالتحكمُّ والعنف ، وان اعظم الجماعات ، جماعة لا تخضع للقوة بل تعنو للحكمة . عند ذلك يكون العلم قد اندمج في اغراض الروح العليا تخرج لنا من البوتقة إكسير الحكمة المصفّاة

سر الحياة في الكربون

لنقولا الحداد

الحياة نشوء آخر يختلف في ظاهراته كل الاختلاف عن نشوء الاجسام المادية غير الحية . هو درجة ثانية من درجات الوجود اعلى من درجة المادة « الميتة » ، كأنهُ كون آخر مستقل في ذاتيته وطبيعتهِ كل الاستقلال عن الكون المادي . ولكنهُ بالحقيقة ماديٌّ الجوهر والحركة ، بمعنى ان الجسم الحي مؤلف من ذرات المادة ، ولكن بنظام آخر يختلف عن نظام المادة . فهل هو متمشٍّ على نفس سنن الطبيعة الاساسية كالجاذبية والالفة الكيماوية ؟ ام ان له سنناً اخرى خاصة بهِ ؟

الظاهر لنا ان الحياة لأنها قائمة بالمادة هي خاضعة لنواميس حركة المادة . واذن حركتها مستمدة من نفس القوى الفاعلة في المادة — جاذبية وألفة كيماوية — وحركتها ذاتية بمعنى انها تختزن القوة المادية ثم تتصرف بها تصرفاً خاصًّا يلائم كيانها . وحركتها نتيجة هذا التصرف . وهذه الحركة نوعان . حركة في داخل الجسم الحي بين اجزائهِ ، شائعة في النبات والحيوان . وحركة تنقل الجسم الحي كله من حيز الى حيز . وهي خاصة بالحيوان على الغالب . فما هو سر الحياة الذي هو مستودع القوة الحيوية ؟ وما هو مصدر هذه القوة ؟

لا نعرف وجوداً للحياة كما نعرفها الاَّ على ارضنا . فلا شأن لنا بها اذا كانت موجودة في جرم آخر سواء اكانت هناك بنفس الخواص التي نعرفها هنا او كانت تختلف عما نعرفه

نعرف ان الجسم الحي مهما كان نوعه مؤلف من جزيئات Molecules عديدة الذرات جدًّا ليس لها مثيل بكثرة ذراتها في سائر جزيئات الغازات والسوائل والجوامد ، لا على الارض ولا فيما استُدِل عليهِ في الاجرام الحارة وفي الاجرام الباردة ، من انواع الذرات والجزيئات . فكأن سر الحياة مودع في الجزيء العديد الذرات . فلنبحث عنهُ في هذا الجزيء

الجسم الحي من ابسط انواعهِ : الاميبا ، الى اكثرها تركباً وتعقداً ، الانسان ، مؤلف من ثلاثة اصناف من المركبات الكيماوية وكل صنف منها عديد الانواع بتعدد انواع الخليات . وهي :

اولاً — الكربوهيدرات (النشائيات ونحوها وسلاسل البارافينات وسلاسل الكحل الخ) وجزيئاتها تحتوي على بضع ذرات الى بضع عشرة ذرة . وهي الوقيد الذي تصدر منهُ القوة لاصدار الحركة

ثانياً — الدهنيات ونحوها . وجزيئاتها مؤلفة من عشرات الذرات . وهي وقيد آخر مدَّخر ولا سيما في الاحياء المتنوعة الاعضاء الوظيفية

ثالثاً — البروتاينيات (الزلاليات) . وجزيئاتها مؤلفة من مئات الذرات او الوفها في بعض الاحيان . وهي هيكل بنية البروتوبلاسم الذي هو جوهر الحياة الاول

يلحق بهذه الثلاثة الماء . وهو الوسط الذي تتنقل فيه جزيئات المركبات الحيوية ، فضلاً عن انها تتحد احياناً بجزيئات منهُ

ولا نعرف في الطبيعة جزيئات مؤلفة من ذلك العدد العظيم من الذرات الاَّ في الجسم الحي . وفي غيره لا يتجاوز عدد ذرات الجزيء البضع او البضع عشرة ذرة . اذن سرُّ الحياة في الجزيئات العديدة الذرات . فلنبحث عنهُ في ذرات هذه الجزيئات لكي نعلم في ايٍّ منها مقامه

***

التحليل الكيماوي يرينا ان اصناف هذه المركبات الثلاثة العديدة الانواع مؤلفة من اربعة عناصر رئيسية فقط ، اي من اربعة اصناف من الذرات وهي الهيدروجين والاوكسجين والنيتروجين والكربون . واما ما يرى فيها من العناصر الاخرى — الكلسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والمغنيزيوم والحديد واملاحها الكلورات (كلوريد) والفصفات والسلفات والنترات والكربونات الخ فوظيفتها ثانوية وسيطة Catalysis : فلنر اي هـذه العناصر الاربعة ذو الشأن الاهم في تأليف الجزيئات العديدة الذرات

اما الهيدروجين والاوكسجين وحدها فلا يتألف منهما الاَّ بضعة انواع من الجزيئات لا يزيد الواحد منها على اربع ذرات . واذا دخل النتروجين معهما او مع احدها فلا يتألف منها جزيئات تزيد على بضع ذرات ايضاً ، حتى لو دخلت عناصر اخرى ثانوية غير هذه الثلاثة فلا يناهز عدد الذرات في الجزيء الواحد البضع عشرة ذرة. ولكن اذا نزل الكربون الى الميدان رأيناه يؤلف مع العناصر الثلاثة التي نحن بصددها جزيئات تعدُّ ذراتها بالمئات واحياناً تتجاوز الالف. فاذاً في الكربون سر الحياة

(هذه ملاحظة وردت عرضاً في كتاب « الكون المحجّب بالاسرار » تأليف السير جيمز جينز . ولكنهُ لم يشرح هذه النظرية)

فماذا في هذا العنصر — الكربون — من الخواص او المزايا التي تخوله القدرة على تكوين البروتاينيات والكربوهيدرات والدهنيات التي تتألف منها الخلية الحية Cell ؟ . فلنبحث في كلٍ من هذه العناصر الاربعة

هـ = الهيدروجين ذو بروتون وكهرب واحد حر

و = الاكسجين ذو ١٦ بروتوناً و٨ كهارب حرة ما عدا المتحدة ببروتوناتها

ن = النيتروجين « ١٤ « و٧ « « « « «

ك = الكربون « ١٢ « و٦ « « « « «

فلنضرب صفحاً عن البروتونات لان الالفة الكيماوية التي تؤلف الجزيئات لا تتوقف على عدد البروتونات في الذرة الواحدة بل على عدد الكهارب الحرة فيها فقط

ولقد علمت من مقال كاتب هذه السطور عن «فناء المادة» في العدد السابق من المقتطف ان الكهارب الحرة تدور حول النواة (مجموعة البروتونات) في مناطق : الاولى معدة لكهربين فقط . والمنطقة الثانية التي بعدها معدة لثمانية كهارب . ولا شأن لنا بالمنطقة الأولى ولا بالمناطق التي بعد الثانية . لانه ليس في ايٍّ من هذه العناصر الاربعة ما يشغل اكثر من المنطقة الثانية . ولان المناطق الاخرى التي بعدها خاصة بعناصر غير عناصر الحياة

اذن الكهارب التي تدور في المنطقة الثانية هي : —

في الاكسجين ٦ يبقى محل لكهربين (٢) في المنطقة الثانية (شفع اي زوج)
« النتروجين ٥ « « لثلاثة كهارب (٣) « « « (وتر)
« الكربون ٤ « « لاربعة « (٤) « « « (شفع)

فلعلَّ كون الكربون شفعي الكهارب الموجودة وشفعي الكهارب الناقصة لتتمة المنطقة، هو الامر المسهل له الاتحاد بالعناصر الاخرى مهما اختلف عدد الذرات في الجزيء . يساعده على ذلك الاكسجين الشفعي الكهارب ايضاً ويساعدها الهيدروجين لاتمام ما ينقص المنطقة من الكهارب في تأليف الجزيء ولا سيما متى دخل النتروجين فيه وهو وِتريُّ الكهارب . وبهذا التسهيل يتضح تآلف الذرات الثلاث باستقرار ومن دون تقلقل . مثال ذلك في الحامض الكربوني (كربون داي اوكسيد = ك و ٢) الذي يدخل جزيئهُ كثيراً في المركبات الحيوية ، يأتلف الكربون مع الاكسجين فيشرك كلاًّ منهما بكهربين من كهاربه الاربعة وتصبح المنطقة الثانية لكل منهما تامة . والجزيء يستقرُّ بهذا الاختلاف متعادل الشحنة الكهربائية ، ولا يتفكك الاَّ اذا طرأ عليهِ جزيء آخر فيندمج الاثنان معاً في جزيء جديد

واذا انعمت النظر في مركبات الكربوهيدرات والدهنيات وجدت ان ائتلاف الكربون والاكسجين يحدث على هذا النحو . وفي حالة ان الجزيء ينقصه كهرب يدخل الهيدروجين بكهربهِ . والهيدروجين مطواع يدخل بكهربهِ من معظم الجزيئات لاتمام النقص . (هذا بحث دقيق جداً لا يكفي التوسع فيه وشرحه مقال او اكثر)

واما النتروجين فلأَنه وتري الكهارب (٣ في المنطقة الثانية) فغالب الظن ان ائتلافه مع الجماعة لا يسهل الاَّ بتعدد الذرات الكثيرة في الجزيء الواحد بحيث يستطاع تأليف جزيئات متعادلة الشحنة الكهربائية . ولذلك لا يدخل الاَّ في تألف البروتاينيات التي تعد ذرات الجزيء الواحد فيها بالمئات . او ان اندماجه فيها هو سبب تعدد ذراتها . ولكنهُ لا يدخل في الكربوهيدرات والدهنيات لانهُ بدخوله يجعل الجزيء عديم الاستقرار كما يستدل من معظم مركباته اذ يظهر فيها قلقاً دائماً

لا يكاد يستقر في مركب منها ، فكأن قوة ألفته Affinity ضعيفة جداً (خلافاً للكربون) فلأقل طارىء يتنافر مع العناصر الاخرى ويتركها او تتركه . ومن أبسط الامثلة على ذلك النشادر Ammonia وهو مركب من نتروجين واحد وثلاثة هيدروجينات = ن هـ ٣ — ولكنه في هذه الحالة لا يمكن ان يوجد مستقلاً لان كهاربه في المنطقة الثانية ٣ وكهارب الهيدروجينات الثلاثة ٣ والمجموع ٦ فتبقى المنطقة ناقصة كهربين ويبقى الجزيء ايجابيًّا غير متعادل . لذلك لا يوجد النشادر مستقلاً البتة ، بل لا بدّ من اتحاد جزيئهِ بجزيء آخر كجزيء الماء مثلاً ليكوّن منهما هيدروكسيد الامونيوم ذائباً في الماء (ن هـ ٣ + هـ ٢ و = ن هـ ٤ . هـ و) ومجموع كهاربها جميعاً ١٦ تشغل منطقتي الاكسجين والنتروجين ، مع ذلك يبقى هذا النتروجين الشاذ المتمرد قلقاً لا يطيق التقيد باخويهِ ، فيتطاير بشكل ن هـ ٣ من الماء كما نعلم من رائحته التي لا تطاق ويفلت بانحلال الجزيء برمته . والنشادر موجود ايضاً كضلع Radical في البولينا Urea ولذلك يشعر برائحته في المباول التي طرأ عليها الاختمار المحلل له

ومن الادلة على قلق النتروجين وتمرده انهُ داخل في المواد المفرقعة كالنيتروجليسرين وغيره وهو سبب تفرقعها لان التفرقع ليس الاَّ تنافره مع الذرات الاخرى وافلاته منها فتنحل الجزيئات الى ذرات تتمدد بسرعة فائقة

يستدل مما تقدَّم : اولاً ، ان وظيفة الاكسجين والهيدروجين في الحياة ايجاد الوسط (الماء) الذي تنتقل بهِ الحركة ، ثم اشتراكهما مع الكربون في ايجاد الوقيد الذي هو مصدر القوة فالحركة

ثانياً ، ان وظيفة الكربون جمع العناصر الاخرى معهُ وربطها بالالفة الكيماوية لبنيان هيكل الجسم الحي على اختلاف انواع خلياته من الميكروبات المتنوعة ذات الخلية الواحدة Unicellular الى ما فوقها من الاحياء المتعددة الخليات Multicellular ولولاه لما تألف جزيء حيوي

ثالثاً ، فيما ان وظيفة الكربون البناء تكون وظيفة النتروجين الهدم (من غير اطلاق معنى الهدم) وهي وظيفة ذات شأن لازمة للحركة والنمو ولتطور حياة الخلية . فمعظم عملية دخول «الغذاء» الى الخلية وتمثيله فيها ثم خروجه منها بشكل مختلف عن شكل دخوله (اي عملية التحول Anabolism) يتم بتقلقل النتروجين في مركبات البروتايين المختلفة . فمنذ ولادة الخلية الى ان تزول تحدث تحولات كيماوية متنوعة عديدة متوالية تتجدد بها حياتها، تحدث بواسطة الكربون وتقلقل النتروجين

في اثناء هذه التحولات التي تحدث بسبب تقلقل النتروجين يحدث تأكسد الكربوهيدرات واحياناً الدهنيات ، اي احراقها . والنتيجة حرارة والحرارة صورة من صور الطاقة كما تعلم . وليس ذلك فقط بل ان تقلقل النتروجين وتنقله من شكل جزيء الى شكل جزيء آخر يحدث التأين Ionisation اي انسلاخ بعض الكهارب من الجزيئات وحدوث شحنات كهربائية سلبية او ايجابية ،

ولا سيما في الجهاز العصبي اذ يمكن استكشافه هناك واثبات وجود تيار كهربائي ضعيف فيهِ . وحدوث هذا التيار هو من جملة مصادر القوة والحركة في الخلية وسائر اعضاء الجسم

بقي ان نبحث قليلاً في كيفية حدوث الحركة في الحي او على الاقل في خلية الحي

ابتدأ البروتوبلاسم ، اول اشكال الحياة ، هلاميَّ القوام (جلاتينيًّا) بسيطاً ذا نوع واحد من انواع البروتاينيات . وتألفت جزيئات هذه البروتاينيات بسيطة جدًّا ، ابسط ما يمكن ان يكون من هذا الصنف من المركبات الكيماوية الرباعية (ذات العناصر الاربعة) . تألفت تحت تأثير نور الشمس وحرارتها المعتدلة وتأثير الفوتونات المنتشرة منها وسائر انواع التشعع مما لا بد ان يحدث التأين في هذه العناصر تارةً بعد تارةٍ . فهذه العوامل المختلفة تؤدي الى سلسلة من التركبات الكيماوية المختلفة التي منها البروتايين

وابتدأت جزيئات البروتايين متصلة بعضها ببعض لما فيها من لزوجة وبواسطة جاذبية الملاصقة Cohesion . فلا تنحل في الماء ولا تذوب فيهِ وانما ينفذها الماء ويتخللها Osmosis بما فيهِ من مركبات كيماوية بسيطة كالحامض الكربوني مثلاً ، وبعبارة علمية « مضللة » ، تمتصه وتمتص معه ما يذوب فيه من المركبات والذرات اللازمة لها لكي تتمثل فيها وتنبذ منه ما لا حاجة لها به

ولا يخفى ان عملية الامتصاص والنبذ هذه تستلزم حركة انتفاخ وضمور متعاقبين في الجسم الهلامي . وبين هذه الحركة وما في البيئة المائية (الحياة ابتدأت في الماء) من الحركة الميكانيكية تفاعل لا بدَّ منهُ . اي لا بد من حدوث تفاعل بين الجسم الحي وبيئتهِ اخذاً وردًّا ، او امتصاصاً ونبذاً . وفي اثناء هذا التفاعل الطبيعي Physical يجري السائل في غضون الخلية او خلالها حاملاً مواد خارجية مختلفة كالحامض الكربوني والاملاح من كربونات ونترات الخ . وفيما هذا السائل يتسرب الى غضون الخلية تحدث تفاعلات كيماوية متوالية بين المواد التي يحملها وبين جزيئات الخلية . تحدث هذه التفاعلات باستمرار ما دامت مواد جديدة تدخل وما دام النتروجين ينشز من جزيء الى جزيء وما دام الكربون يتفنن في تجديد الجزيئات بحسب الذرات التي ترد اليه . وفيما يحدث هذا التفاعل الكيماوي يكون من نتائج التحولات انفلات بعض الذرات من المركبات بحالتها الغازية . وهذه الحالة تحدث الانتفاخ والضمور المتعاقبين اللذين اشرنا اليهما سابقاً . وبالتالي يحدث مجرى سائلي في غضون الخلية

فترى انهُ ما دام الامتصاص يدخل الى جسم البروتوبلاسم جزيئات جديدة واحياناً ذرات ايضاً فهذا التفاعل الكيماوي يحدث باستمرار على التوالي وبسرعة . ففي كل هنيهة يحدث حل وتركيب في الخلية مجددان لحياتها ونموها . فتخرج منها جزيئات وذرات قد استغنت عنها كما دخلت اليها جزيئات وذرات اندمجت في جزيئاتها اندماجاً كيماويًّا . فكأن البروتوبلاسم معمل كيماوي دائم العمل — الحل والتركيب — ما دامت الخلية تستطيع ان تمتص من البيئة وتنفث فيها

ولأن سطح الخلية الكروي الخارجي ملابس للبيئة والتفاعل الاول يقع بينهُ وبينها ، فلا بد ان تكون جزيئاته مختلفة ولو بعض الاختلاف عن جزيئات داخل الخلية . وطبيعة هذا التفاعل تجعل ذلك السطح كغلاف امتن مما هو ضمنهُ واقبل للامتصاص . وهكذا تقضي سنّة التطور ان تكون وظيفة هذا الغلاف الامتصاص والنبذ ، وحماية الداخل من التفاعلات المنافية لمصلحة الخلية التي لا يستطيع داخلها ان يتوقاها كما يستطيع الغلاف اتقاءها . وهكذا يصير جسم الخلية ذا عضوين مختلفي الوظيفة . الغلاف الذي وصفناه . والنواة التي وظيفتها الرئيسية العمل الكيماوي المنمي بالتجديد والتحول Metabolism & Katabolism وبينهما مجرى السائل الذي يحمل المواد الداخلة والمواد المنبوذة

وما دامت البيئة المختلفة ذات عوامل مختلفة في احوالٍ مختلفة فلا بدَّ من تنوُّع مناطق الجسم او اجزائهِ بوظائف مختلفة لكي تقابل مفاعيل البيئة وتنتفع بها . وهذا التفاعل المنوع يسبب تنوعاً يضاهيهِ في العمليات الكيماوية . وكذلك تتنوع جزيئات الاجزاء المختلفة الوظائف . كذا نشأت اصناف البروتاينيات والكربوهيدرات والدهنيات على تمادي الزمان بحكم قانون التطور . ففيما كانت الجزيئات تتجمع في هلام كانت تتنوع في بروتوبلاسم

***

ليس غرضنا من هذا المقال الاسترسال في وصف العمل الحيوي والتطورات التي تتعاقب على البروتوبلاسم وتنتج انواعاً . فان هذا البحث من خصائص البيولوجيا . وانما غرضنا ان نستقصي سرّ الحياة الى اعمق ما يستطاع . وفيما استقصيناه من بيئة الذرات الاربع التي تتألف منها جزيئات البروتوبلاسم لم نجد الاّ تفاعلات كيماوية متوالية متعاقبة خاصة بالعناصر الاربعة تحت تأثير حرارة معتدلة وتأثير تشعُّعات الشمس المختلفة . وقد رأينا ان الدور الاهم في هذه التفاعلات هو الدور الذي يلعبهُ الكربون لانهُ لولاه لما امكن تكون البروتاينيَّات . ويليهِ في خطر الشأن الدور الذي يلعبهُ النتروجين بنشوزهِ وشذوذه

فهل سر الحياة هو في الالفة الكيماوية التي تتلاعب بهذه العناصر الاربعة ، ام هو في هذه الالفة مع شيءٍ آخر يستخدمها ولا زلنا نجهلهُ ؟ ربما كان الكيماوي يقتنع بان الالفة الكيماوية هذه كافية لاصدار الحياة لانهُ لا يرى شيئاً آخر غيرها وراءها . وربما كان غير الكيماوي لا يرتاح الى هذا التعليل فتبقى الحياة سرًّا غامضاً لهُ . فاذا صحَّ ان الحياة الفة كيماوية بين ٤ عناصر خاصة تحت تأثير حرارة خاصة وتشععات خاصة ايضاً فتكون قد ظهرت على الارض صدفة اي غير مقصودة في الوجود المادي ولا هي مضمرة في الفوتونات التي تألفت منها البروتونات والكهارب . والله اعلم

شبرا . مصر نقولا الحداد

السيكولوجية الحديثة

الغريزة الجنسية في التحليل النفساني

ليعقوب فام

في سنة ١٨٥٥ كان فرويد في باريس يدرس تحت ارشاد شاركو ضروب العلاج بالتحليل النفساني وكان مما يقوله هـذا الأخير لفرويد ان « السبب الأصلي في كل عقدة نفسية هو المسألة الجنسية » فكان فرويد يعجب لماذا لا يضع الاستاذ نظريته هذه ويدافع عنها أمام الناس . وعلى كل حال لم يفعل شاركو شيئاً من هذا وترك هذا الميدان دون ان يزعم هذا الزعم بطريقة رسمية

ثم بدأ فرويد يعلن هـذه النظرية للناس وينضح عنها بكل ما اوُتي من جهد وقوة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تمادى في هذا الفرض تمادياً جعلنا نعتقد انهُ لا يرى في الانسان شيئاً او منزعاً الأ من هذه الغريزة ، لا بل نستطيع ان ندعو هذه المدرسة بمدرسة السيكولوجية الجنسية من غير ان نكون متعنتين او مفترين بوجه من الوجوه

كنت أتحدث في هذا مع صديق لي من المشتغلين بالسيكولوجية في مصر . فكان مما قاله لي اني لا افهم فرويد كما يجب ان يفهم ، قلت قد يجوز ، فأنا لا أدعي اني معصوم من القصور في الفهم ، ولا ادعي اني افهم كل ما يمرُّ بي في مطالعاتي . اذ اني أذكر مرة اني قرأت كتاباً عدد صفحاته حوالي الاربعمائة وثمنه سبعون قرشاً دفعتها من مالي الخاص دون ان افهم من هذا الكتاب شيئاً على الاطلاق ، فلا يجب ان اقطع برأي في مسألة فرويد ، ولا يجب ان أتعنت في طريقة عرضي لآرائه ، ولكن ما قولك في ان كل من قرأتهم من علماء النفس متفقون على أنهم فهموا ما فهمت منهُ أنا ، وما قولك في انهم يفهمونه على ان نظريته في السيكولوجية مبنية في الاغلب على « الغريزة الجنسية » وعلى كل حال سواء أكان اتهام صديقي لي على حق أم على غير حق فاني اعتزم ان اترك الحكم للقرّاء في هـذا الموضوع ، اريد ان أبسط امامهم نظريته ولهم وحدهم ان يحكموا في هـذا النزاع

ينـكر فرويد الزعم بأن سيكولوجيته مبنية على الغريزة الجنسية فقط . ينـكر هذا ويلحُّ في الانكار . ولكنهُ يزعم ان أهم شيء في التحليل النفساني هو العوامل الجنسية . هـذا من جهة ، واما من الجهة الأخرى فان جميع حالاته يرجعها الى عوامل جنسية في تحليله ، لا بل يفسر جميع الظواهر النفسية على هذا الاساس ، فكأنهُ ينقض باليمين ما يبنيه باليسار ، واظن ان الخلاف بينه

وبين أدلر نشب في هذا الميدان ، وانفصل التلميذ عن استاذه لهذا السبب دون غيره . واستعرت بينهما الحرب لهذا وليس لشيء آخر ، فبينما يزعم فرويد ان جميع الحالات النفسية التي عالجها ترجع الى نزاع جنسي في النفس او الى نزوع جنسي لم يتحقق بشكل من الاشكال ، بينما يزعم فرويد هذا يقول أدلر ان رغبة التسلط هي الحافز لنا في جميع انواع النشاط ، وان الالتواء في هذه النزعة او القصور في تحقيق غاياتها هو السبب الاساسي في الاضطرابات النفسية ، وتكفي ان تكون المسألة الجنسية هي محور الخلاف وسبب القطيعة بين الاثنين لكي أكون مطمئنًّا الى اني لم أعدُ الصواب حين ازعم ان محور التحليل النفساني على طريقة فرويد هو المسألة الجنسية ، واذا كان صديقي الذي اوردت قوله فيما سبق لم يقتنع بعد فليرجع الى اسباب الخلاف بين فرويد وبين يونج ، فان يونج فهم ما فهمت ، واختلف معهُ فيما اختلف معه فيه الآن ، فما ذنبي يا ترى اذا كان الجميع قد فهموا من فرويد ما فهمت

ونظريات فرويد في الغريزة الجنسية يتلو بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض حتى لا نكاد نفيق من كثرة تزاحمها امامنا . فالانسان في رأيه لا يأكل او ينام او يلهو او يجد او يفكر او يحلم الاَّ بدافع من الجنس . وقد يكون واعياً للدافع الجنسي ، وقد لا يكون واعياً ، ولكن الدافع الجنسي موجود بلا شك في جميع الحالات

طفل في السنة الاولى او في الشهور الاولى من حياته ، تضعه أمه على صدرها وترضعه فيشبع ويعاف الطعام ويريد ان يترك لنفسه ليلهو بنفسه ويلعب، يشاهد الدنيا حوله ويتتبع الحركات فيها بعينيه ، وبينما هو يراقب المناظر الطبيعية والاجتماعية حواليهِ يضع ابهامه في فمه ويمتصه ، ثم يمتصه وقتاً طويلاً ، تدور انت تبحث عن الدافع لهذا العمل فتجد اجوبة تتعدد بتعدد المجيبين والدوافع الممكنة لمثل هذا العمل ، قد تقول ، وقد تصيب فيما تقول ان هذا الطفل يلهو بهذا العمل ، وقد يقول غيرك لثته مهتاجة فهو يضع اصبعه فيها ليبرد من هياجها . قد يقول أحدنا هذا او شيئاً مثله ، وقد نخطيء او نصيب في البحث عن العلة في تصرف الطفل ، ولكن فرويد يزعم ان عمل الطفل هذا هو الغريزة الجنسية بعينها ، او هو وظيفة هذه الغريزة عند الاطفال ، وبالطبع هذا زعم لا نقبله لانهُ لا يقوم عليه دليل اولاً ، ولانهُ يتعارض مع الذوق العقلي في أبسط مظاهره

ومثل آخر على ما يراه فرويد في شأن هذه الغريزة التي اوشك ان لا يرى في الانسان سواها — انسان يرى فيما يرى النائم انهُ يتسلق سلّم منزله او اي منزل آخر . بالطبع لا تكون هذه الحقيقة هي كل محتويات الحلم ، وانما يتبعها مشاهد ومظاهر اخرى ، فلو سألني هذا الانسان في معنى حلمه لأجبته ان معدته ليست على ما يرام او ان احد اعضاء جسمه لا يؤدي وظيفته كما يجب ان يؤديها ، او ان حرارة جسمه ارتفعت في اثناء النوم لسبب من الاسباب ، وان لم يعجبهُ واحد من هذه الآراء اقول له انها اضغاث احلام . اما فرويد فيفسره هكذا : في صعود السلم توافق من الحركات

الايقاعية Rythm ، فالابعاد بين الدرجات متساوية ، والحركة التي يأتيها الانسان في صعوده تكون بالتالي متوافقة ، ثم يجب ان لا ننسى ان الحركات التي تستتبع تحقيق الغريزة الجنسية فيها توافق ايضاً ، فيكون معنى هذا الحلم هو في الواقع تحايل من تلك الغريزة على تحقيق غاياتها بشكل غامض مبرقع ، فهذه الغريزة تريد ان تتحقق على اي حال ، ولما كان تحقيقها تقوم في سبيله صعوبات جمة لا قبل للواعية بالتغلب عليها ، فتحقق بطريقة لا تستطيع ان تعترض عليها الواعية

وهذا التفسير لا يستقيم لافهامنا على اي حال ، لانهُ مناقض لابسط قواعد الذوق السليم Common sense ولا ارى ان هنالك علاقة بين صعود السلم والغريزة الجنسية ، ومسألة التوافق هذه ان هي الاَّ تكأة لا تصلح لتدعيم هذا الرأي بحال من الاحوال ، لأني ارى هذا التوافق او هذا الايقاع Rythm في المشي والعدو والعوم ، واراه في الطيور وهي تطير والحيوان وهو يسير ، واراه في جريان الماء واهتزاز الاشجار واراه في الموسيقى وفي الشعر والنثر ، وبالاختصار انا ارى هذا التوافق في كثير من المظاهر الطبيعية من النجوم في افلاكها الى الذرات في مداراتها ، وبالطبع لا يستطيع انسان ان يزعم ان جميع هذه هي مظاهر للغريزة الجنسية بشكل من الاشكال

يقولون ان الغريزة الجنسية عند فرويد لا يقصد منها ما نقصده عادة من هذا الاصطلاح في اللغة العادية وانما يقصد امراً اوسع واعرض مما تواضع عليهِ الناس ، فليس هو قاصراً على الدوافع الطبيعية التي تجذب الذكر الى الانثى من جميع الاحياء ، وليس الغرض منهُ فقط إخلاف النسل واشباع الرغبة الطبيعية ، وانما معناه عند فرويد اعم واوسع من هذا بكثير ، فحب الجمال من الغريزة الجنسية وحب السلطان والشهرة منهُ كذلك ، وغريزة حب البقاء والنسل من الغريزة الجنسية

ونحن نظن ان هذا تعسف في التفسير ، ومن قبيل تسمية الاشياء بغير مسمياتها ، فشأنهم في هذا شأن من يطلق مرضاً معيناً على جميع الامراض ، او لوناً معيناً على جميع الالوان ، وعلى هذا القياس يصبح ان نسمي مجموعة الوان الطيف الشمسي احمر او اصفر ، على زعم اننا نقصد باللون الواحد جميع الالوان ، مع ان هذا لا يصحُّ لان فيهِ كثيراً من الخلط والارتباك الذي لا يعود بفائدة على احد لا بل فيهِ ضرر كثير وتشويش للافهام

وعلى هذا القياس نزعم انهُ سواء اراد فرويد بالغريزة الجنسية ما نريد ، ام اراد بها اكثر مما نريد فالنتيجة في الحالين سواء ، هي انهُ اغفل من حسابهِ معظم الدوافع النفسية التي تحفز الناس على العمل والحركة والسعي للحياة في مجموعها

يتبين هذا الاغفال للدوافع النفسية المتباينة من كثير مما كتب فرويد ، ومن مذاهبهِ في علم النفس حتى وان كنا نحن لا ننبه الى هذا الاغفال ، فمثلاً يزعم فرويد ان الصبي يميل لامه ويحبها اكثر مما يحب اباه . وينصب نفسه عنها مدافعاً ويقف منها موقف القوي يحمي الضعيف ، وتحب الابنة اباها اكثر مما تحب امها ، وتظهر لابيها العواطف الرقيقة المحببة ، التي تظهرها الانثى عادة

للذكر وليس هذا فقط ولكنها تفاخر بأبيها وتعجب به وتزعم انهُ اقوى جميع الآباء وامضاهم عزيمة واشدهم بأساً

ويزيد فرويد على ما تقدم ان الصبي يغار من ابيه للعلاقة القائمة بين الوالد والوالدة ، ويحقد عليهِ ويود لو اختفى ابوه وترك الام للصبي وحده ، وكذلك البنت تغار من امها ، وتود لو احتلّت هي المكان الممتاز عند أبيها الى آخر هذه المزاعم ، ثم يختم فرويد مزاعمه هذه بأن يعطي لهذه الظاهرة اسماً قديماً حتى تبين عليها المسحة الكلاسيكية ، فيدعم الاسم الطنان هذا التخريج الذي اقل ما يقال فيهِ انهُ قد لا يكون هو الواقع

اما ان هذه الظاهرة النفسية تظهر على بعض الاولاد فقد يجوز لا بل ربما نزعم انها محتملة ، ان الابن يحب امهُ اكثر من ابيه ، ويجوز انهُ يغار من الاب ايضاً ، ثم يجوز ان هذه الظاهرة النفسية تبين على البنت ، ولكن ماذا بعد ذلك ، قد نسلم ان هذه الظاهرة النفسية موجودة في الواقع ، فكيف نعللها ؟ وهل لا يمكن تعليلها الاّ عن طريق الغريزة الجنسية ألا يمكن بحال ان تكون هنالك دوافع نفسية غير هذه ؟ هل اثبت فرويد بما لا يدع مجالاً للشك ان الدافع لهذه الظاهرة هو الغريزة الجنسية ؟ الحق انهُ لم يفعل شيئاً من هذا وانما هو قد زعم هذا الزعم وذهب هذا المذهب ، ولكنهُ لم يقم الحجة القاطعة على صحته

ثم ما قول هذه المدرسة في هذه الظاهرة ؟ ابن يحب اباه اكثر من امه ، وابنة تحب امها اكثر من ابيها ، هل هذا مستحيل ؟ هلاّ يمكن ان نجد هذه الظاهرة بنفس الكثرة التي نجدها في الظاهرة الاخرى ؟ وهل هذا الحب وهذه الغيرة في هذه الحالة ناتجان ايضاً من الغريزة الجنسية

الحق ان هذه المدرسة تغالت في توكيد الغريزة الجنسية الى حد انها فقدت توازنها ، وعرضت نفسها للنقد الشديد ، لقد امعنت فيهذا المذهبحتىاصبحتلاترى في رضاعة الطفل من ثدي امه مظهراً من مظاهر الغريزة الجنسية ، واظنه من المعقول ان نزعم ان حركات الرضاعة ان هي الاّ عمليات عضلية تتطلبها الرضاعة وكفى ، فكل عمل يتطلب بعض الحركات العضلية من غير ان تكون لتلك الحركات غاية خارجة عنها ، كتحريك الذراعين عندما يجري الانسان ، وهذا بالطبع لايستدعي منا ان نبحث له عن دوافع نفسية ، اذ يكفي ان نقول فيه انهُ حركات يستلزمها الجري

ومع كل ما تقدم نستطيع ان نؤكد للقارىء ان الفرويدية خدمت السيكولوجية الحديثة خدمة لا تقدر ، وانهُ لولا هذا المذهب لبقي كثير من المسائل النفسية مستعصياً على الفهم ولصار من المتعذر على علماء النفس ان يعرفوا الدوافع لكثير من تصرفات الانسان ، ولعجزوا ايضاً عن فهم كثير من الاسباب الاساسية لبعض المشكلات النفسية

فان كنا قد تعرضنا لفرويد بالنقد فذلك لاننا نشعر بما له علينا من الفضل في الكشف عن بعض المبادىء الاساسية للسيكلوجية الحديثة

أناتول فرانس

بعد عشرة أعوام من وفاته

لعلي كامل

مقدمة

بلغ اناتول فرانس في حياته اسمى ما يمكن ان يبلغهُ كاتب عبقري . فوصل اسمه الى اقصى البلاد . وترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات الحية وغير الحية. وطبعت كتبه مئات الطبعات . ونال من الجوائز والمراتب ارفعها شأناً واعلاها ذكراً مما تتقطع دونها أعناق أعاظم الكتّاب . فمنذ خط طريقه الى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ وفي عام ١٨٩٦ انتخب عضواً في الاكاديمي فرانسيز . وفي عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر الفاً من الجنيهات تبرع بهاكلها لأهل روسيا ايام المجاعة !

على ان اناتول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقاد يحاسبونه حساباً عسيراً . ينهشون اعماله ويحللون ويناقشون افكاره فانتهى الكثير منهم الى ان اناتول فرانس قد نال في حياته من المجد اكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنهُ كان على نقيض ما اراد ان ينشره حول اسمه ونجح فيهِ بفضل « ادعائه ودجله » ! فقد اراد ان يظهر بمظهر الرجل الذي جاءَ الى هذا العالم ليغرس الرحمة في قلوب البشر المتحجرة . ولكنهُ كان في نظرهم ابعد الناس عن الرحمة والرثاء للضعفاء والمساكين . قالوا : كيف يمكن ان يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً وهو الرجل الذي سخّر حياته للسخرية من صرعى الحياة . رجل جاء الى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من اكبر عدد ممكن من الناس . نعم كيف يفهم آلام الغير ويحس باوجاع المتألمين انسان لم يشعر بالألم الحقيقي مرة واحدة في حياته الطويلة لانه كان يكره الألم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً الى سماء اللذات ومتع الحياة !

ولقد كان اناتول فرانس في كتاباته واقواله ديموقراطيًّا بل شيوعيًّا ثائراً . ولكم سخر منهُ في ذلك ايضاً فريق ناقديه . ألم يهزأ بالثورات ورجالها في قصته (الآلهة ظمآى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانساني والثقافة العليا ؟ !

ولقد اضاف النقاد الى ما سبق فاعتبروا اناتول فرانس (لصًّا بارعاً) مرق كل ما جاءَ بهِ من الافكار من آداب وفلسفة الرومان والاغريق على الخصوص . ولقد خرج الناقد اندريه ليّي Lilly عن

ذلك الى اعتبار اناتول فرانس (مفكراً من الدرجة الثانية)(١) اما الكاتب العظيم اندريه جيد Gide فقد قال عنهُ (كان يمكن ان يفيض حبي لاناتول فرانس اكثر مما هو الآن لولا ان عدداً من قليلي التبصر والدراية ارادوا ان يجعلوا منهُ كاتباً ممتازاً . . . . . . ان قيمة الكاتب كما يقول ستندهال هي في قدرته على هزّ قارئهِ وانا حين اقرأ أناتول فرانس لا اشعر مطلقاً بأقل اهتزاز)(٢)

ولسنا نود ان نذكر شيئاً من التحقير والتشهير الذي وجههُ جماعة الـ Surréalistes الى أدب اناتول فرانس لانهُ يتعدى حد النقد المعتدل البريء

على ان اناتول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجه الى (الاستاذ الاعظم) — كما كان يسميه الفرنسيون — حتى اعتبره ميشيل كورداي في كتابه عنهُ (نصف إلـه)

يا له من تناقض عجيب ! ان الانسان ليشعر بالعجز المذل حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على اننا سنحاول ان نتجرد من التأثر برأي كل من الفريقين . ولننظر الى اناتول فرانس كما كان هو ينظر الى الناس . لننظر اليه متعالين متكبرين . لان التعالي والكبرياء ينفعاننا في الحكم عليهِ دون التأثر بتحزب عدو او الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال اعماله المجردة ولنستعن الى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال هذه السنوات العشر التي انقضت على وفاته ، من اصدقاء واعداء على السواء

﴿ حياته واعماله ﴾ ولد اناتول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من ابريل عام ١٨٤٤ وكان والده — ويدعى فرانسوا نويل تيبو — بائع كتب . فنشأ اناتول بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون ان يدري كنهها وقيمتها . فلما شبَّ قليلاً وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب وابدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الاسفار

على ان احوال حياته العائلية قد أعانته أيضاً اكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة فلقد عرفنا الآن ان أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيًّا ان يقضي الصبي اناتول معظم يومه في الشوارع والطرقات بين أمثاله من الصغار . لذلك كانت طفولته أقرب الى التشرد والاضطراب منها الى الهدوء والاستقرار الذي تخلقه الحياة المنزلية الوادعة . ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول Craincabille وقد ظهر كل ذلك واضحاً في قصتهِ . وعند ما شبَّ اناتول فرانس اشتغل مساعداً لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه ما يحبها وما يكرهها . فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون

(1) André Lilly : La litterature française contemporaine p. 152

(2) André Gide : Morceaux choisis. 20eme édition p. 137.

وكان اناتول فرانس يعتز الى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر انهُ كان يعلق بها شأناً خاصاً في توجيه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذي كان يمتاز بهِ. وهذا هو ما دعاه لأن يقول في (كتاب صديقي) Le livre de mon ami هذه العبارة القصيرة التي تضم روح الاعتزاز والغرور (إني باريسي بكل نفسي وبكل جسمي) لذا لكي ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحه يجب ان نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث

باريسي صميم — ابن بائع كتب — طفولة متشردة

***

لم يكن اناتول فرانس طالباً مجداً. وكان اهتمامه بقراءة الادب وبناء آمال ادبية اكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية . بل انهُ كان يعتبر ان حياة المدرسة ودروسها كانت حائلاً بينه وبين العلم الحقيقي اذ يقول (انني لم ابتدىء في التعلم الاّ عند ما انقطعت عن الدراسة المدرسية)

وكان اناتول طول حياته المدرسية فتىً مشاغباً دائم السخرية من أساتذته. ومجموعة ذكريات حياته التي كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التي تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة بروح ساخرة ماجنة !

وكانت والدة أناتول فرانس — كسائر الامهات — تؤمن ايماناً صادقاً بأن ولدها سوف يصادف النجاح في جميع مراحل حياته . أما والده فكان على الضدّ شديد الخوف على مصير ولده وانك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبهُ عام ١٨٦٨ وكان أناتول فرانس في الرابعة والعشرين . قال فيه

(ان ولدي لا يتبع نصائحي فهو لا يزال دون عمل . انه يكتب . بل يجب ان اقول انهُ يكتب بأسلوبه الرديء يشوه بهِ الصفحات ! [1] ان ما كنت اخشاه منذ صغره قد شاء القدر ان يتحقق الآن . لقد عيل صبري في مقاومته . فهل سيكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع ان يعول نفسه . واأسفاه ! وا أسفاه !)

أجل لم يقبل أناتول فرانس ان ينتظم في عملٍ من الاعمال يحقق بها رجاء والديه . بل ظلّ يقاوم مشيئتهما بعناد مثابراً على اعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغهُ بعد جهد جهيد

نعم بعد جهد جهيد . فقد كان الدور التحضيري لمجده الادبي طويلاً مملاً ، اذ قضى سنين طويلة يعمل في مكتبة ابيه . وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد ان يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة . وكان يشتغل في ذلك الوقت ايضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت اولاها رسالة عن الفريد دوفيني (١٨٦٨) ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر فنظم عدداً من المقطوعات جمعت في مجموعتين الأولى بعنوان Les Poèmes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان Noces Corinthiennes (١٨٧٦) وكانت جميع هـذه الاعمال — بأجماع النقاد — خالية من التفكير

(١) سيرى القارىء فيما بعد ان النقاد يجمعون على ان اناتول فرانس خير من كتب الفرنسية من الثورة الفرنسية الى الآن !

النيّر والذهن الصافي فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفي عام ١٨٧٩ نشر اناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته في التأليف القصصي وهما Jocaste et le chat maigre فلم تسترعيا اليهما الانظار

وفي عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) Le Crime de Sylvestre Bonnard فخرج اسمه بهذه القصة مرة واحدة من الظلمة الى النور . وتوالت بعد هـذه القصة اعماله الادبية فكتب قصة (آمال جان سرفيان) Les Désirs des Jean Servien و (كتاب صديقي) Livre de mon ami (١٨٨٥) وهو الكتاب الاول من كتبه الاربعة التي ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب Balthazar و (تاييس) Thaïs (١٨٩٠) و L'Etui de nacre و (آراء جيروم كوانيار) Opinions de Gérôme Coignard و La Rôtisserie de la reine Pédauque [1] و Lys Rouge و Jardin d'Epicure و Puits de Sainte Claire (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ الى عام ١٨٩٢ كان اناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الادبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الادبية Vie littéraire

الى ذلك الوقت كان اناتول فرانس مخلصاً لفنه واقفاً حياته عليهِ حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبتهُ الى غمار السياسة ووقف معارضاً لدوداً لتلميذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الاربعة في (التاريخ المعاصر) Histoire contemporaine وهي Le Mannequin d'osier و L'orme du mail و L'Anneau d'Améthyste و M. Bergeret à Paris

وفي اثناء هذه المدة ظهرت قصتاه Clio و Pièrre Nosière وهو الكتاب الثاني من ذكرياته

ومضى اناتول فرانس يوالي انتاجه القصصي وهو يسعى جهده في ان يغير طابع اعماله الادبية من قصص تشرح افكاره الفلسفية ونظراته العلمية الى اخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه المراحة فكتب في هذه الفترة من حياته من النوع الاول قصصه Sur la pierre blanche و L'Ile des pingouin و Vers les temps meilleurs ومن النوع الثاني Histoire comique و Les Contes de Jacques Tournebroche و Les Sept femmes de Barbe—bleue

وفي عام ١٩٠٨ نشر اناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك) Vie de Jeanne d'Arc الذي حاول بهِ ان يخرج عن طريقته في معالجة التاريخ كقصاص الى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على ان اناتول فرانس قد اخفق في تحقيق ما تمنى

وفي عام ١٩١٢ نشر اناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les Dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La Revolte des Anges وبكتابيه Le petit Pierre و La vie en fleur أتم

(١) يكاد يجمع النقاد ان قصته La Rôtisserie de la Reine Pédauque هي خير قصص اناتول فرانس . على ان هذا الرأي لا يتفق ورأي اناتول فرانس نفسه . اذ هو يقول (اذا اعدت كتابة كل قصصي . فان القصة الوحيدة التي اعيدها كما هي . كلمة بكلمة . هي قصة : Histoire Comique) فهي في نظره خير قصصه

اناتول فرانس كتبه الاربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر في ختام كتابه الاخير La vie en fleur ان هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والاخلاق والعادات) وان التغيير الذي حدث ينحصر فقط في تغيير الاسماء واحوال معظم اشخاصها

﴿ كلاسيكية اناتول فرانس ﴾ تفتحت عينا اناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجري صور الحياة في هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شيء) كما شبهها اناتول فرانس . وكان غرامه النادر بالكتب والدرس يجعله يهيم بأرصفة نهر السين (القديمة الحزينة — كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل . أجمل مكان في العالم . حيث تجتمع الاشجار والكتب . وتمر النساء أمام العيون). وكانت نفسه الشاعرة الفنانة تدفعهُ الى طول التأمل في (اللوفر) وفي (كنيسة نوتردام) وغيرها من آثار قرون المجد السالفة . تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبا بعد بازدحام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة . فلم يكن غريباً اذن ان يطبع كل ذلك نفس اناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين الى الماضي السحيق فانكبَّ منذ صغره على دراسة آداب الاغريق وعلومهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوقريطس او أهل المجون مثل ابيقوروس ولقد تأثر فرانس ايضاً بالآداب اللاتينية وان كان تأثره بمظاهر الحياة اكثر من تأثره بأفكار الكتَّاب : كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره . ولا يجب ان ننسى أيضاً ما كان بين أناتول فرانس ومفكري القرن التاسع عشر مثل رينان وشوبنهور وداروين من التجاوب الروحي والفكري

من ذلك نرى ان اناتول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى انه يؤثر عنهُ قوله : — لست اعثر على شيء جديد الاَّ في كتاب قديم

﴿ نفسيته ونظرته الى الحياة ﴾ ان فن اناتول فرانس ما هو الاَّ صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرها . كذلك الآراء التي سردها على لسان ابطاله هي فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل اليهِ فهمه للحياة والناس

كان اناتول فرانس سطحيَّ النظرة الى الحياة . ولعل هذا هو السبب في خلو افكاره من العمق الفلسفي . فهو لم يحاول أن يتغلغل الى اعماق عوالم يجهلها ليكشف عن اسرارها ثم يصبها في فنه وأدبه بل كان ينظر الى الحياة نظرة متفرج . كأنهُ قائد جلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قابع مستريح . ولقد شرح اناتول فرانس فلسفته في ذلك فقال (لقد كنت دائماً ميالاً في كل وقت الى النظر الى الحياة كما ينظر الانسان الى منظر من المناظر الطبيعية . فلم اكن يوماً من الايام ملاحظاً مدققاً لأن الملاحظة لا بد لها من طريقة توجهها وانا ليس لي طريقة من الطرق . ان

الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجهها الوجهة التي يريدها . اما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعاً بما تراه.لقد ولدت متفرجاً وسأحافظ طول حياتي—كما اعتقد— على السذاجة العظمى التي تميز اطفال باريس . تلك السذاجة التي تجعلهم يحبون كل شيءٍ والتي يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون)

والواقع الذي لا سبيل الى إنكاره ان اناتول فرانس قد جمع في نفسه سجايا المتكبر المغرور ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية وهي ام الثقافات جميعاً. فاصبح ينظر الى الجيل الذي يعيش فيهِ كما ينظر اجدادنا وآباؤنا الينا . انهم ينظرون الينا بعيون ملؤها الاشفاق والرثاء كأننا مهما نلنا من سعادة مُتَصَوَّرة او علم نزهى بهِ وهو في نظرهم قشور. لايمكن ان نبلغ ما بلغوا من سعادة ولايمكن ان تحوي عقولنا ما حوته عقولهم من علوم ومعارف ! تلك كانت نفسية اناتول فرانس وكأنهُ كان يقصد نفسه بقوله(متى توصل الانسان الى فهم كل شيء لم يرد شيئاً) لذا كان أناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفي عليهِ من الامور .كان كبرياؤه العجيب يدفعهُ الى الايمان بأن كل ما يجهله لا يستحق ان يعرف ! ولذا لم يكلف نفسهُ عبء التغلغل الى صميم الاشياء لكي يصل الى فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذي يقول (ان علم الحياة الحقيقي هو احتقارٌ كريم للناس اجمعين)

لقد فرض اناتول فرانس الشر في كل شيء وكان يجد العزاء الواسع في احضان الملذات ينتهبها انتهاباً.وكان ايمانه بمذهب ابيقوروس في التمتع في الحياة بأكبر لذة مستطاعة انما وصل اليهِ بعد تفكير هادىء رزين . ولقد بلغ بهِ حبه للذة لمجرد اللذة ان أنكر الغيرة (التي لم اشعر بها قط طول حياتي) كما قال [1] كما انهُ انكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية)

﴿ تفكير أناتول فرانس ﴾ كان تفكير اناتول فرانس يدور حول أمرين

(١) الشك Scepticisme (٢) الاشتراكية

فالامر الاول يحدد نفسيته العامة ورأيهُ في الاديان ، والامر الثاني يبين فكرته السياسية والاجتماعية

﴿ شكه ﴾ ان شك اناتول فرانس ليس شك الرجل الذي يؤمن بعظم مسائل الكون وضآلة تفكيره حين يمعن في التعمق فيها بل شك العالم المستهتر الذي ركبه الغرور فصار يهزأ بكل رأي ويسخر من كل فكرة فجميع الآراء والنظريات في نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها وأي سخرية تلك التي دفعته لان يقول على لسان أحد أبطال قصة (آمال جان سرفيان) هـذا القول (ان رأي العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى ان أناتول فرانس كان ينظر الى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازىء بكل من حوله حتى دفعه ذلك الى القول (كل قاعدة بحثت في اصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الامر

(1) Michel Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs p. 220 et p.224

حتى علمت انها لم تكن قاعدة) ! وفي (حديقة ابيقور) يقول :

— كلما فكرت في الحياة الانسانية زاد اعتقادي في ان السخرية والشفقة هما الوسيلتان الوحيدتان للنظر اليها والحكم عليها . اذ ان السخرية والشفقة ناصحان رفيقان فالسخرية تحبب الينا الحياة . والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التي أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . انها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، انها السخرية الهادئة الكريمة . فالابتسامة الساخرة تسكن سورة الغضب وهي التي تعلمنا التهكم بالاشرار والحمقى وبدونها نضعف ويتسلط علينا الحقد والضغينة

ولقد اراد أناتول فرانس ان يرسم نفسه في كتابه (آراء جيروم كوانيار) ففي مقدمة الكتاب تراه يحلل شخصية (جيروم) فيصفه بأنهُ : (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما في نظر أناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هـذا (فيلسوف ومسيحي) تأثر باثنين كان لهما الأثر الاكبر في تفكيره : الاول ابيقور Epicure الذي اكتسب منه انطلاق الرأي وحرية الفكر والثاني سان فرانسوى داسيز Saint François d'Assise الذى أخـذ منهُ بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول . والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوانيار) لا يلبث ان يحس بذلك الجموح الذي يغمر آراء جيروم وبتلك الروح الماجنة الساخرة التي تجعله يعصف بالدين والاخلاق والتشريع والفكر الانساني وكل ما اصطلح على تمجيده وتقديسه

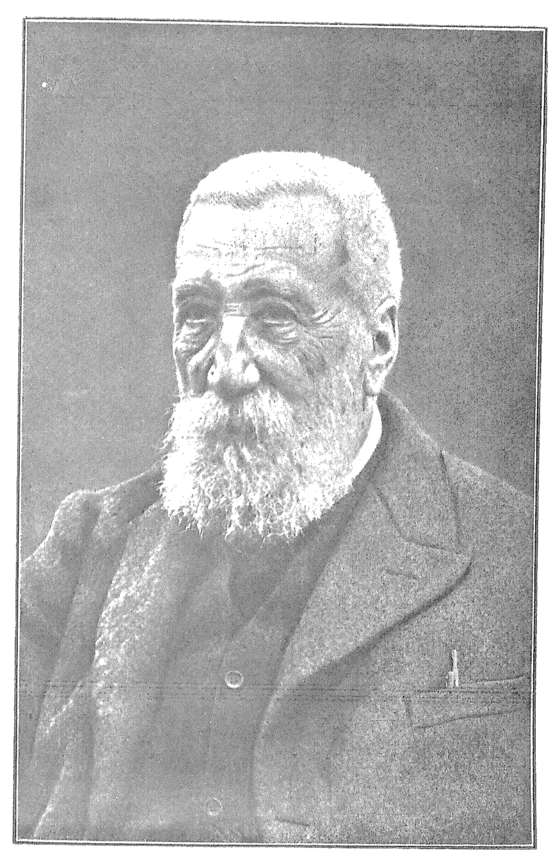
فالهدم . الهدم . هو صفة أناتول فرانس العظمى . ان كلَّ صفحة يخطها هي احتقار لتقليد من التقاليد أو تسفيه لفكرة سائدة من الافكار . خذ المجتمع الانساني مثلاً . أنهُ حين يذكره تراه قد انقلبت شخصيته وتحول استهتاره ومجونه الى قسوة لا رحمة فيها فينزل على المجتمع وعلى تقاليده واخلاق ابنائه بسياط من نار . حتى العقل الذي طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته اذ يقول في نهاية (آراء جيروم كوانيار) — اذا أردنا ان نخدم الناس فيجب ان ننبذ كل منطق وتفكير . ونلقي بهِ كما نلقي بأثاث يضايقنا . يجب ان نطير على أجنحه العـاطفة والحميـة . أما التفكير والتمعن فلا . ان الانسان اذا فكر فانهُ لن يتقدم مطلقاً تقدماً محسوساً

﴿ اناتول فرانس والدين ﴾ كان طبيعيًّا ان يؤدي شك أناتول فرانس الى عدم الايمان بالله فقد كان ماديًّا عنيداً وكان احتقاره للكنيسة وسخريته من رجالها لا مثيل له . اذ كان يعتقد انها العدو اللدود لكل فكر حر ورأي مستنير

ان جميع كتب اناتول فرانس تجيش بالحاد راسخ . ولقد بقي حتى آخر لحظة من حياته محافظاً على إلحاده مخالفاً بذلك لكثير من المفكرين الملحدين الذين حين تتقدم بهم الشيخوخة و تخور قوة أعصابهم وينطفي جموح شبابهم يهرعون الى صفوف المؤمنين كأشد الناس ايماناً واعظمهم تديناً

ولقد لخَّص اناتول فرانس كل آرائه في الدين في كتابهِ (احاديث عن وجود الله) [١]

(١) راجع تلخيص هذه الآراء في كتاب ميشيل كورداي : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs من ص ١٨٩ الى ص ١٩٧



اناتول فرانس قبيل وفاته

سنة ١٩٢٤

Entretiens sur l'existence de Dieu الذي كتبه في آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمهُ الى صديقه الكاتب ميشيل كورداي وعهد اليه في نشره فظهر بعد موته بعام

كان هذا الكتاب آخر ما خطته يدا أناتول فرانس في عالم التأليف وهذا وحده يكفي لان يبرهن لنا ان اناتول فرانس بقي ملحداً حتى آخر لحظة من حياته . اسمعه وهو يقول : —

— نعم انني بالتأكيد ملحد . لقد فكرت وكل من وصل الى قدر معين من الذكاء لايستطيع ان يكون غير ذلك . انني لا أبغي شيئاً من وراء اعلان إلحادي . وكل ما اريد قوله هو أنهُ حتى في العهود التي كان الدين مسيطراً فيها على كل شيء كان هنالك عدد من الكافرين اكثر من عددهم الآن . وكل ما هنالك انهم كانوا عاجزين عن اظهار ما يبطنون

وأناتول فرانس كغيره من الماديين يرى انهُ ليست هناك قوة خارجية تسيّر الكون . وان كل هذه القوانين الطبيعية التي تتحرك بمقتضاها الكواكب والرياح وغيرها هي قوانين تحدث من تلقاء نفسها ولا تتغير . فالكون في نظره هو مجموعة قوانين يتوقف كل قانون منها على الآخر ويؤثر فيه[1]

على ان اناتول فرانس يرى ان الدين كان حدثاً لا بدَّ منه . ذلك ان الدين في نظره وليد العذاب والشقاء . وما دام العذاب والشقاء لا يفارقان هذا العالم . فاذن كان لا بدَّ من ظهور الاديان وسيادتها (فالمؤمن المتدين — في نظر اناتول فرانس — هو الشخص الغارق في الخطيئة الذي يأمل بتدينهِ الصفح والغفران او المعذب اليائس الذي فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة)[2]

وكثيراً ما ترى اناتول فرانس يمزج انكاره لوجود الخالق بنوع من السخرية الجريئة التي هي اول خصائص تفكيره كقوله (ان علينا من واجبات الحياة ما فيه الكفاية فلمَ نخلق في تصورنا واجبات نحو إله لا وجود له) وقوله لقد جعل الناس من الله شخصية مخيفة . فكيف يمكن لانسان ان يتوسل ويبتهل الى كائن ثقيل الظل — .Les hommes ont fait de lui un personnage odieux Comment peut-on prier un être aussi antipathique ? وقوله ايضاً (ان عجز الله لا حدَّ له)[3] L'impuissance de Dieu est infinie ولنختم الكلام عن الحاد أناتول فرانس بهذه العبارة التي تريك كيف يجد في الإلحاد والكفر نعيماً نفسياً لا يقبل التنازل عنه — ان الحزن الفلسفي قد فسر نفسه اكثر من مرة تفسيراً رائعاً مكتئباً . فكما ان المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حدٍّ من الجمال المعنوي يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع . كذلك العالِم الذي اقتنع بأن كل ما يحيط بنا ما هو الا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء . ان الذين يتذوقون

---

(١) Emmanuel Chrysostome : Anatole France p. 40

(٢) راجع تلخيص الامير شكيب ارسلان لكتاب نيقولا سيجور Ségur المسمى Coversations avec Anatole France, ou, Inquiétudes de l'intelligence الملحق بكتاب (اناتول فرانس في مباذله) تأليف بروسون وتعريب الامير شكيب (ص ٦٤ و٦٥)

(٣) Michel Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs p. 191 et 192

جمال ذلك الهم الدفين لا يقبلون ان يستبدلوه بالمسرات الجامحة والاماني الوهمية التي تلازم رجل الشارع ﴿ اشتراكيته ﴾ رأينا ان الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن اناتول فرانس . وانت اذا اردت ان تفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدتهما يرجعان الى خيبة امله في النفس الانسانية والفكر الانساني فنحن كما كنا منذ عشرات القرون لا نزال ننغمس جميعاً في حمأة الرذائل والنقائص الاخلاقية والفكرية فاذا اردت ان تعرف بعد ذلك السبب الذي اليهِ يرجع اناتول فرانس معظم هذه الرذائل والنقائص وجدته يرجعها الى شيءٍ واحد وذلك الشيء هو المال

فالمال . المال عند اناتول فرانس هو الاساس الذي قامت عليهِ دعامة معظم الرذائل الانسانية لذلك نرى ان اناتول فرانس رغم استهتاره بكل شيءٍ ونظرته المتشائمة اليائسة كانت تمر على ثغره بين حين وحين بسمات مضيئة من الامل العريض في مستقبل الانسانية . فقد كان يعتقد ان شيئاً واحداً لو تحقق انارت العالم موجة من السعادة الخالدة والهناءة العميمة . ذلك الشيء هو تحطم سلطة المال وانهيار صرح النظام الاجتماعي الذي تعيش الآن في ذيله ليحل محله نظام اشتراكي ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغني وعبودية الفقير ذلك ان (الاخاء بين الناس — كما يقول — هو النتيجة المحتمة للاشتراكية)وهو يقول ايضاً (ان السلام العالمي سوف يتحقق يوماً من الايام لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليهِ الآن — فليس من السهل التعلق بهذا الامل — بل لان نظاماً جديداً للاشياء او علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة في الماضي ان يعيشوا في حالة حرب دائمة)

وكان اناتول فرانس يرى رأي كارل ماركس في ان اتحاد العمال من الوسائل الاكيدة لحفظ السلام العالمي .وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب .وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة (يظن البعض ان المرء يموت في الحرب من اجل الوطن . كلاَّ . انهُ يموت من اجل اصحاب المصانع)

على ان اناتول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة انسانية عظمى كان لا يؤمن بسيادة البراهين وبالتالي كان لا يؤمن بالديموقراطية . ولذا هاجمهُ النقاد واتهموه بالتذبذب والرياء والتجرد من اولى صفات الاديب العظيم وهي التعلق بمثال انساني أعلى . واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء واحتقاره للمال والاغنياء نوعاً من الدجل الفكري الذي اتخذه سلماً لبلوغ قمة المجد الادبي. على ان اناتول فرانس رغم عدم ايمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهوري على غيره من نظم الحكم الراهنة (لانه اخف من غيره ايذاءً واقل ضرراً . فهو ليس العدالة ولكنهُ اقرب الى الطبيعة والبساطة من غيره من النظم)

واناتول فرانس من هذه الناحية شديد التأثر بالفيلسوف ارنست ريناني [1] فقد كان هذا شديد

(١) André Billy : La littérature française contemporaine p. 152.

الطعن في الديموقراطية متهماً اياها انها تتعارض والمدنية لانها تعوق التقدم الفكري . على ان رينان اعترف في النهاية بأن الديموقراطية لا تتعارض مطلقاً والمدنية بل هي من اكبر العوامل على دفعها الى الامام في سبيل السمو والكمال . ومثل رينان كان اناتول فرانس فقد كان هذا الاخير رجلاً ثورياً يتخذ الاشتراكية مثله الاجتماعي الاعلى . على انه كان يعتقد الى جانب ذلك ان الفكر لا ينهض الا في احضان الارستقراطية لذا كان يرى ان رسالته ككاتب واديب فنان تقضي عليه ان يوفق بين الثورة والثقافة فاذا كان يرى ان سيادة الشعب تسيء الى الفكر الانساني فهو لا يتردد في ان يظهر قلقهُ من سيادة الجماهير مبيناً عيوب النظام الديموقراطي وان كان هو نفسه يفضله على غيره من نظم الحكم لما فيهِ من الفضائل التي تفوق نسبياً فضائل النظم الاخرى

ويفسر أميل فاجيه[1] كره اناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بأن اناتول فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ صورتها كالثورات العنيفة . ذلك ان الجماهير التي عض احشاءها الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين — هذه الجماهير حين تنفجر انفاسها المخنوقة في ثورة تأكل في طريقها الاخضر واليابس نراها تتخذ مثل الثورة الاعلى ديناً تمجده كسائر الاديان فتتعصب له وترتكب في سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام التي يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم . وقد اظهر ذلك اناتول فرانس بطريقة بارعة في قصته (الآلهة ظماى)

ان اناتول فرانس يمتاز بأنه لا يأخذ بفكرة من الافكار على ان في تحقيقها بلوغ الكمال المطلق . لذا تراه رغم ايمانه الصارخ بالاشتراكية كان لا يفتأ يوجه اليها نقداً لا يقل في مرارته عن النقد الذي يوجهه اليها اعداؤها الالداء . من ذلك قوله في حديث له مع جوريس رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي اغتيل عام ١٩١٤ — ان من البين ان تحول الانواع الحية لا يطابق المساواة فنظرية داروين في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي او التاريخ بالاجمال كل اعتمادها على الفروق . والمخلوقات لا ترتقي الا بالبعد عن المساواة . ان في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على انه لا سبيل لوجود شيء الا بوجود المتفوقين والتفوق هو نقيض التساوي[2]

وليس هنا مجال القول ان الاشتراكية — كما اجابه جوريس — لا تساوي بين كفاءات الاشخاص بل تساوي بينهم في الحقوق ودرجات الرفاهية وتوزيع العدل . وانما الذي نريد بيانه ان اناتول فرانس كان لا يتردد في انتقاد الاشتراكية واظهار ما يراه فيها من عيوب . وان كان يرى انها المثل الاعلى لنظم الحكم جميعاً حيث بها يمكن تحقيق اكبر قسط ممكن من العدالة الانسانية ومحو اعظم قدر من الشقاء الانساني ان لم يكن كله

والواقع ان هذه الطريقة التي يفكر بها اناتول فرانس لا تعيبه ولا يجب ان تكون موضعاً

(١) Emile Faguet: Pettite histoire de la littérature françase p 306 et 307

(٢) راجع كتاب (اناتول فرانس في مباذله) ص ٧٢ و ٧٣

للوم او نقد بل هي في نظرنا دليل سعة الفكر والعقل الراجح فقد تعوَّدنا ان نرى الشخص الذي يؤمن بمبدأ من المبادىء السياسية او الاجتماعية يتعصب له تعصباً شديداً ويدافع عن مبدئه في الحق والباطل . ينسى رذائله ويتشبث بأتفه فضائله . اما اناتول فرانس فلم يكن كذلك وكان اعتزازه الذي لا حد له وفكره الواسع المترامي يجعلانه لا يشعر بالنقص الذي يشعر بهِ غيره من الناس حين يعترف بنواحي الضعف في الفكرة التي يؤمن بها . وكانت طبيعة الشك التي تغمره تساعده على استكشاف مواضع الخطأ قبل مواضع الصواب في كل شيء يراه او يفكر فيهِ

ان الذي لا ريب فيه ان اناتول فرانس كانت تجري في دمائه روح العدل والمساواة وكان قلبهُ الكبير يفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر . واذا كان همه طول حياته السخرية والتعالي فهي سخرية الأب الرحيم بتصرفات اطفاله الصغار الذين يحمل لهم في قلبهِ اعظم الحب واقدس الوفاء . ولقد بقي اناتول فرانس حتى آخر نسمة من حياته يردد هذا القول

— ان الاشتراكية هي ضمير العالم وان النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهي الاَّ باختفاء هذه الطبقات

﴿ اسلوب اناتول فرانس ﴾ اذا كان النقاد قد اختلفوا في تقدير قيمة اعمال اناتول فرانس وتفكيره فان سوادهم متفق على انهُ خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية الى الآن . بل ان الناقد اندريه بيّي يعتقد ان ما يمتاز بهِ اسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له في الآداب الفرنسية جميعاً

لقد كان اناتول فرانس هو المنقذ الاكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور والانحطاط بعد الثورة الكبرى . ورغم انهُ كان في تفكيره ثائراً فنيذ الافكار جميعاً الاَّ انهُ كان بالعكس من جهة اللغــة محافظاً فأعاد لها مجدها القديم . مضيفاً الى ذلك عبقريته الخاصــة في حسن الصياغة والدقة النادرة في الاحساس بجمال الالفاظ والتعابير

ولقد كانت سهولة اسلوبه وابتعاده عن التكلف هي ميزته الكبرى . وكان يفتخر قائلاً (ان كمية الفاظهِ اللغوية محدودة فقيرة) وكان ايمانه بوجوب السهولة المطلقة في الاساليب تدفعه للاعتقاد — بخلاف الكثيرين — ان الصحافة تساعد على تقدم اسلوب الكتابة لانها بإرغامها الكاتب الصحفي على الاسراع في الكتابة تحول بينهُ وبين التكلف والافتعال فيخرج اسلوبه طبيعيًّا مستقيماً سلساً»

لقد كان اسلوب اناتول فرانس — كما يقول الناقد بول سوداي — فريداً لا يمكن تقليده ولقد صدق جول لومتر في قوله : (لقد كان اسلوب اناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى اثر اساليب راسين وفولتير وفلوبير ورينان . . . . . واسلوب اناتول فرانس دائماً)

المراجع — (١) Michle Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs
(٢) Emmanuel Chrysostome : Anatole France
(٣) (اناتول فرانس في مباذله) تأليف بروسون وتعريب الامير شكيب ارسلان . وبه ايضاً تلخيص كتاب نيقولا سيجور
(٤) René Lalou : Histoire de la littérature française contemporain
(٥) André Billy : La littérature française contemporaine
(٦) Emile Faguet : Histoire de lalittérature française

الانسان الاخير[1]

لسيد قطب

صحا ذات يوم حين تصحو البواكرُ … وتستيقظ الدنيا ، وتجلو الدياجر
ويشرق وجه الصبح في غمرة الدجى … كما تشرق الآمال واليأس غامر
وتضطرب الانفاس خفضها الكرى … وتخفق ارواح ، وتذكو مشاعر
وحين يعج الكون بالصوت والصدى … وبالكدح تزجيه المنى والخاطر
وبالصرخة الهوجاء ، والضحكة التي … يضج بها الأحياء ، والدهر ساخر !

***

ولكنهُ لم يلف للكون نأمة … تنم على حيٍّ ، ولم يهف خاطر
ففي نفسه ما يشبه الموت سكرة … ومن حوله موت تمته المقابر
جلالٌ كأن الله أطلعَ وجهه … عليه ، فقرّت في النفوس الضمائر
وصمتٌ فما في الكون صوت ولا صدى … ولا خفقة يُحيي بها الكون شاعر
فأدرك في اعماقه عن بديهة … نهاية ما صارت اليه المصائر !

***

وما همّ بالتنقيب عن اي صاحب … ففي نفسه يأس ، من النفس صادر
ولكنه التى بها عبرَ نظرةٍ … على الكونِ والأيام وهي دوائر
ركام واشلاءٌ وأطلال نعمةٍ … وبؤسٍ ، وشتى ما حوته الأداهر
وفي نفسه من مثلها كل ذرّة … فهاتيك اشلاء ، وهذي خواطر !
تجمّع فيها ما تفرّق في الورى … وما ضمنت تلك السنون الغوابر
خلاصة اعمار ، وشتى تجارب … ومجمع اشواق بها الكون حائر

***

وأوغل في إطراقةٍ ملؤها الأسى … فمرّت عليه الذكريات العوابر
تحث خطاها موكباً إثر موكب … وقد جاورت فيها المآسي البشائر
وأقبلت الآمال واليأس حولها … تمزقها انيابه والاظافر
وجمّع فيها الخير والشرّ رابطٌ … من النفس مشدود إليها مخامر

(١) من ديوان تحت الطبع يصدر اول يناير .

وشتى عبادات ، وشتى عقائد ... يؤلفها الايمان وهي نوافر [1]
وفيها من المجهول سرٌّ وروعة ... ورغبة محرومٍ وخوفٌ مساورُ
وقد كان في المجهول مطمح كاشف ... تحجبه عن طالبيه الستائر
فيا ليته يدري بما خلف ستره ... فيختم سفر الناس في الارض ظافر [2]

***

وعادت له الآمال اذ جدَّ مطمح ... يُرجَّى وأذكاه الخيال المغامر
لعلَّ وراء الكون مفتاحَ لغزه ... وطلسمَ ما ضمت عليه السرائر
وما هي الاّ ومضة تكشف الدجى ... ويخلع هذا الجسم ، والجسم جائرُ
ولولا مواثيق الحياة تشده ... اليها ، لأمضى عزمه وهو صابر
وخلّف هذا الجسم للموت والبلى ... وأشرق روحاً حيث تصفو البصائرُ

***

وعاوده حب الحياة لذاتها ... وقد اجفلت تلك النوازي الكوافر [3]
وهاجت به الاطماع حبّ امتلاكها ... له وحده والناس ميتٌ ودائر !
فعاد الى الدنيا العريضة مالكاً ... ولا من يغاديهِ ، ولا من يشاطر
ولكنه لم يستطب ملكه الذي ... تمحّض لا يسعى به او يغامر
وما فيه من كد ، ولا من تسابق ... ولا سابقٌ في الكادحين وقاصر
وليس يطيب العيش إلاّ تزاحماً ... فيربح مجدودٌ ويخسر عاثر

***

هنالك دوّت في السماكين صيحةٌ ... دعاءٌ لعزرائيل والكون سادر
«برمت بهذا الكون همدان موحشاً ... برمت بملك ربه فيه خاسر »
« فهيا اذن الموت اروح رحلة ... لتكشف استارٌ ويهدأ ثائر »

***

وفيما يعاني سكرة الموت رقرقت ... الى مسمعيه هاتفات سواحر
« هو السر : ان تهفوا الى السرّ لهفةً ... وان تشتروا الآتي بما هو حاضر» !

(١) مختلف العبادات والعقائد المتناقضة تجتمع عند عاطفة الايمان بالمجهول رغبة او رهبة (٢) ظافر بالسر الذي يبحث عنه الاحياء جميعاً فيما وراء المنظور (٣) النوازي الكوافر جمع نازية كافرة وهي التي كفرت بالحياة في نفسه ودعته ان يخلع الجسم .

عبقرية محيطة

— ليوناردو الرجل —

لاديب عباسي

في يوم من ايام الربيع الضاحكة عام ١٤٥١ قام مسجّل العقود پيترو دافنشي من مدينة فلورنسا يؤمُّ قريته فنشي . ولكن عرض له ان يعرج على قرية صغيرة في الطريق . وبعد ان قضى حاجته بدا له ان يزور حانتها ويروي غُلَّته مما في دنانها من خمور واشربة سائغة . وكان رويُّ الحانة فتاة قروية ساذجة في منتصف العقد الثاني من عمرها ، شخَص نهداها واعتدل قوامها ونضجت أنوثتها ورآها پيترو تغدو وتجيء بين الشرب ، ولكن في وقار وحشمة . على ان پيترو المجرّب لم يحفل هذا المظهر من مظاهر الوقار والحشمة في الفتاة ، وآلى ألاَّ يفوته هذا الصيد الطريف . وتلكَّأ هناك بحجة صيد السماني ، واخذ الفتى ينصب شراكه ويعدُّ شباكه ، ولكن لا ليصطاد السماني ، بل ليصطاد القروية العذراء كاترين . وقاومت الفتاة فتنة الرجولة الكاملة والأثواب الزاهية والالفاظ المعسولة ، واستنجدت العذراء وتحصَّنت بجميع القديسين ، ولكن پيترو — برغم ذلك — استطاع ان يصطاد سماناه المشتهاة

ودار الفلك دورته ، واذا كاترين تضع بشراً سويًّا ، واذا پيترو يفرُّ فراراً ، واذا الشائعة تطير وتقع في مسمع الشيخ انطونيو والد پيترو واذا الشيخ تغلي مراجله ويرسلها شواظ لعنات تترى لتنصبَّ على رأس هذا الابن الفاسد المفسد ، ثم يدفع بهِ فوراً الى فلورنسا ويعقد على خودٍ دميمة ، ولكنها ذات ثراءٍ وفي نسب

اما الفتاة — وكانت يتيمة — فقد رأى الشيخ ان يزفها الى عامل فقير من عمَّاله ورضي هذا ان يُسبل عليها ستره ويغطّيها بشرفه مقابل كرم من الزيتون يُوهبه . واستكانت المسكينة لتدبير الشيخ ، كما استكان الابن من قبل ، وان كان ذلك على كرهٍ منه ، وكان يؤثر الاَّ تقطع بينهُ وبينها جميع الاسباب

وضمَّ الجدُّ حفيده اليهِ وعهد بتربيته الى زوجه . وظاهر من فعلة الشيخ وحدبه على الصغير ان حوادث السفاح والولادة غير الشرعية لم يكن يُنظر اليها اذ ذاك نظرة الاحتقار والزراية . ودليل ذلك ان ليوناردو شبَّ وترعرع لايشعر بمهانة ولا يحسُّ حقداً او موجدةً على والدته التي ترخّصت واسلمت نفسها لأثم ابيهِ فأتت بهِ سفاحاً . بل هو — على العكس — لم ينسها قط ، ولم ينسَ ان

يتسلل في سواد الليل من حضن الجدة ، وهي تغط ، ويفتح النافذة وينحدر على اغصان تينة دانية ثم يذهب يعدو كالظليم على الاحجار شاغبة الاسنان والاشواك مشرعة كالاسل لينعم بعض ساعات بحنو الأم . فاذا اقبل الفجر ايقظته الأم ليعود الى حيث كان فلا تعلم الجدة بهذه الزورات الليلية

***

وشب ليوناردو بين اترابه ولداته غريباً عنهم بعض الغرابة بعيداً عنهم بعض البعد . فلم يكن يروقه ما يمارسوه من العاب عنيفة ويرتكبونهُ من قسوة ، ولم يكن يطيق ان يرى الفراشة الجميلة في ايديهم يُنتَف جناحاها وتطوح على الارض لتدب بدل ان تطير وتحبو بدل ان ترف . ويروي مترجمو ليوناردو انهُ اضرب عن اكل اللحوم زمناً غير يسير لانهُ رأى خادماً في بيت جده يضرب خنوصاً رضيعاً ضرباً مؤلماً . ويروون ايضاً انهُ شاهد ذات يوم صبية تعلقوا بخلد كانوا قد احتالوا على اسره ، وبعد ان ارووا رغباتهم الجامحة من تعذيبه ربطوه بخيط ليطوحوا بهِ ويلقوه بين فكي كلبٍ من كلاب الصيد . وادرك ما يوشكون ان يصنعوا فهجم عليهم ، وفي لكمات سريعات قوية صرع ثلاثة من الصبيان واختطف الخلد وانطلق يعدو لا يلوي على شيء . ولم يفق الصبية من دهشة المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها من الفتى المسالم حتى اصبح منهم على بعدٍ غير يسير . وعندها قاموا يلعبون ويضحكون ويصفرون ، ثم اندفعوا وراءهُ يحرقون الأرم . وكان اكبرهم سناً يكبر ليوناردو بخمس سنوات . فلم يمضِ الا القليل حتى لحق بهِ وامسك بتلابيبه . ولحقت بهِ بقية الزمرة واشتبك معهم ليوناردو في نضال عنيف ما كان ليخرج سالماً منهُ لولا ان قيض له الحظ بستاني جده فأسرع حالاً الى نجدته وخلصهُ من قبضة هذا الرهط الحانق الموتور . واستطاع ليوناردو في اثناء العراك ان يطلق الخلد من يده ، فراح هذا يعدو ناجياً بجلده . وهكذا نال ليوناردو بغيته من تخليص الخلد من اذى آسريه

هذا وقد زاد في حب ليوناردو للعزلة في طفولته انهُ كان في تفكيره وذكائه يسمو درجات فوق مستوى الصبيان في سنهِ . فلم يكن يرتاح الى الاختلاط بهم ومشاركتهم في متعهم الصبيانية

اضف الى هذا ما كان يعانيه من عنت اخوته الكثيرين (تزوج والده اربع مرات) وحسدهم الذي كان يشبهُ في صدورهم ويذكيه ما كان عليهِ من بروز في الصفات الجسمية والعقلية على السواء . وقد زين الحقد لهؤلاءِ الاخوة ان يستغلوا ولادة ليوناردو غير المشروعة ليحرموه من ارثه . الا ان هذه العداوة لم تؤثر فيهِ قط . وذلك ان العالم كان في نظره اوسع من محيط العائلة الضيق . لهذا لم يحقد على اخوته ولم يختزنها لهم . بل نحن نرى من اريحيته وكرم طباعه انهُ يوصي في وصيته بمبلغ من المال لهؤلاءِ الاخوة الناقمين

واعتزم الجد ان يعلم الحفيد ، واختار ان يكون هو اول المعلمين لهُ . الا ان ميول الشيخ واذواقه كانت غير ميول الفتى العبقري ، فلم يمضِ الا القليل حتى برم التلميذ بمعلمه واخذ يسعى



ليو ناردو ده ڤنشي

Leonardo da Vinci

اشدّ السعي ليتخلّص من مجالس الشيخ التدريسية وعلى كل لم تلبث ميول الفتى الصحيحة ان تكشّفت واسفرت ، فراح بذلك واستراح

***

وفي ذات يوم وقعت في يدي الأب صورة مما كان يصوّره ليوناردو عابثاً ، فرآها على شيء تستحق من أجله ان تعرض على ارباب الفن ، فأخذها وسار بها الى صديق من اصدقائه الفنانين . فتبين الفنان توًّا مواهب الفتى الفنّية . ونصح للأب ان يدفع ابنه في هذه الناحية، ورضي هو ان يكون مدرِّبه واستاذه . ولم يكن في فلورنسا اذ ذاك فنان أنبه منهُ شأناً وارسخ قدماً . الاّ ان الفتى المتوقد لم يلبث حتى بزَّ الاستاذ وحتى لم يبق لهذا الأخير ما يستطيع ان يعلل بهِ نهم هـذا الطالب الى المعرفة والاستزادة من أسباب التجديد في الفن . ولم يجيء عام ١٤٧٢ حتى كان ليوناردو عضواً في نقابة المصورين في فلورنسا

بيد ان ليوناردو لم ينجح نجاحاً ماديًّا في فلورنسا مع انهُ كان في نظر القوم خير من تمخضت عنهُ النهضة واشرف من أنجبته . واحسَّ في فلورنسا بغربة الغريب الذي يشعر انهُ مخلوق لغير هذا المحيط وموجود لخلاف تلك البيئة . والذي كان ينقص ليوناردو من عناصر النجاح المادي عناصر المغالبة والاندفاع مع الدعوى العريضة واجادة الاعلان عن النفس . وهي صفات أبعد ما تكون عن طبيعة ليوناردو المتأبية وعرفانهِ قدر نفسه . لهذا نراه في سن الثلاثين قد انتقل الى ميلان وانتظم في خدمة الدوق وانبرى في تنفيذ رغائبه المتعددة دون ان يبدو منهُ شيء من السأم او ايثار نوع من العمل على نوع آخر . ولعلَّ هـذا ناشئ من اعتقاد ليوناردو اعتقاداً قويًّا ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة لا تفاضل ولا ترجيح بينها ، وان الفرق بين شيءٍ وآخر انما هو فرق في العرض دون الجوهر . بل لقد ذهب ليوناردو الى أبعد من هذا وقال ان جميع اشكال المادة يمكن تحويلها بعضها الى بعض

***

ولبث ليوناردو ثلاث سنوات في ميلان يعمل اعمالاً فنية وعلمية مختلفة أهمها صورة العشاء الرباني . وبعدها بعام قطع الفرنسيون جبال الالب وأسروا دوق ميلان ، فرأى ليوناردو عندها ان يغادر المدينة الى البندقية . الاّ اننا نعود فنراه وقد رجع ثانية الى فلورنسا . وذلك في فاتحة القرن السادس عشر . وهناك انكبَّ انكباباً على الهندسة والتشريح دون ان يعنى بالتصوير الاّ أقل العناية وأهم اعمال ليوناردو الفنية في هذه الفترة صورة موناليزا : وهي امرأة بارعة الجمال فقدت وحيدها فخيَّمت عليها سحابة ملازمة من الحزن . رآها ليوناردو ذات يوم فراعهُ جمالها ، وعرض عليها ان

يصوّرها فقبلت راضية . ولكي يبدد ليوناردو عنها هذه السحابة المخيفة من الحزن كان يستأجر جوقة موسيقية تعزف امامها واناساً يجيدون العبث ليُسَرُّوا عنها فيستطيع الفنان ان يسترق من شفتيها تلك الابتسامة العجيبة ويخلدها على القماش . ولقد سلخ ليوناردو اربع سنوات في رسم هذه الصورة مما اطلق الالسنة بالاقاويل عن علاقة الفنان بأنموذجه . وليس ثمّ غير هذه الاقاويل والاّ هذا الحرص الشديد من ليوناردو على الصورة اشياء تشير الى نوع العلاقة التي كانت بين الفنان وأنموذجه . ولم يتخلَّ ليوناردو عن الصورة طيلة حياته . فكان ينقلها من محل الى آخر بين اقدس الاشياء لديهِ ، وظلّت هي وقمصان صوفية من صنع والدته أعزَّ ما يحرص عليهِ ويتمتع بهِ الى ان وافاه أجله . على ان مرجفسكي يلتمس عذراً للفنان على هذا الولوع بالصورة ان ليوناردو قد سكب في طلائها روحه ومزج في ألوانها بعض شخصه . فهو اذ يحرص عليها يحرص على بضعة من نفسه . هذا ويجب ألاّ ننسى ان ليوناردو ظلَّ اعزب طيلة حياته . ومخطوطاته على كثرتها لا يرد فيها ذكر للمرأة الاّ مرة واحدة ، وذلك في صدد الكلام عن امرأة قبيحة المنظر أحبَّ ان يرسم صورتها : وهنا يحسن ان نشير الى ان جميع الاشكال والصور كانت عند ليوناردو على مستوى واحد من حيث استحقاقها للتخليد والبقاء . فكان يرسم القبيح والمليح على السواء . وذلك ناشيء — في اعتقادنا — من نظرته الفلسفية التي ألممنا بها فيما سبق : وهي ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة وان وجودها محتوم لا محيص عنه ، ولكن هذا الوجود لا يسيطر عليه السخف انما تسيطر عليهِ الحكمة او المنطق والقوانين الكونية والرياضية الخالدة . لهذا كان أشرف ما يمارسه المرء ويسعى اليهِ اكتشاف هذه القوانين والتنبيه اليها

ويعلل احجام ليوناردو عن الزواج والنساء بانصرافه الانصراف كله الى الفن والعلم اللذين لا شك سموا بهِ عن مستوى اللذائذ الحسية . وليوناردو نفسه يقول في هذا الشأن : «ان الاندفاع الفكري يطرد الشهوة ، وان عمل النسل وكل ما يتعلق بهِ لمن الكراهة بحيث كان يزول الجنس البشري من الوجود لولا أنَّ ثمة وجوهٌ جميلة وميولٌ شهوية »

***

ولما طُرد الفرنسيون من ميلان شخص ليوناردو الى روما . وهناك انتظم في خدمة البابا . الاّ ان هذا لم يعرف لليوناردو قدره . ولم يستطع ان يفهم استقلاله برأيه وإباءه التزلف وبطئه في العمل بالنسبة الى رفائيل الذي كان يخرج للبابا إذ ذاك مثل ما تخرجه آلة التصوير في هذه الايام وبعد ان صرف ليوناردو عامين في روما جاءته دعوة من فرنسيس الاول ملك فرنسا . ولبيَ الدعوة حالاً . وأُحلَّ في فرنسا محلاً ممتازاً واعدّ له الملك منزلاً جميلاً ولم يكلفهُ قطُّ عملاً من الأعمال ، وما كان يستطيع ذلك ولو كلّفهُ . فقد شُلّت يده وعاد لا يستطيع العمل

وفي عام ١٥١٩ لفظ الفنان آخر نسمة من نسمات هـذه الحياة الحافلة مستودعاً روحه الاله الأعظم والعذراء ماري وجميع الملائكة والقديسين

كذلك عاش ليوناردو موزعاً بين العلم والفن جاهداً في سبيلهما كل الجهد منصرفاً اليهما كل الانصراف . على ان هذا الجهد وهذا الانصراف لم يفقدا الفنان صفته الانسانية . وهو ما يتعرض له المنصرفون الى الاعمال العقلية في الغالب . وظلَّ على اتصال شديد بالحياة محبًّا للناس مؤثراً لهم كريماً رفيقاً بتلاميذه عطوفاً عليهم الى حدٍّ بعيد . وقد اتخذ خصوم ليوناردو هذه العلاقة المحببة بين المعلم وتلاميذه تكأة يتكئون عليها في نسبة ليوناردو الى الشذوذ الجنسي والميل الى الغلمان . وقد نسي هؤلاء المشنّعون ان عطف ليوناردو لم يضق حتى عن الحيوان . وقد رأينا كيف ظهرت ميوله الرقيقة مذ كان يافعاً او صبيًّا

وهذا العطف من ليوناردو على الحيوان قاده في الشطر الأخير من حياته الى الانصراف عن اكل اللحوم والاستعاضة عنها بأكل الخضر والبقول والحبوب ليس غير

اما المعتقد فالراجح ان ليوناردو كان على ايمان وطيد ، ولكن ليس هذا الايمان الذي كان شائعاً لعهده ، انما هو ايمان العالِم سما عقله عن مستوى الخرافة وتُنزّه عن تصديق المستحيل

وقد تساءل مرجفسكي في عرض الحديث على معتقد ليوناردو فقال : أيعقل ان يكون ملحداً من يرسم صورة كصورة العشاء الرباني ؟ ! ومن يكون اقرب الى المسيح من مصوّر هذه الصورة ؟ !

وكان ليوناردو يميل الى البساطة في كل شيء . فلم يكن يطيق الالوان القوية في اللباس . وكان يكره التضمّخ بالطيب من اي نوع كان . وهذه البساطة لم تكن مقتصرة على هذه النواحي المادية وحدها انما كانت بادية في سلوكه وعلاقاته مع الناس . ولكنها كانت بساطة الرجل العظيم تحفّها المهابة ويجلّلها الوقار ويُعلي من قدرها في نفوس اصفيائه واصدقائه ما وهبهُ من ذكاء خارق وعبقرية نادرة

ويروى من تساهله ودماثة خلقه ان الفنان الناشيء ميخائيل انجيلو انفجر يوماً في وجهه انفجاراً شديداً لتوهمه ان ليوناردو نال منهُ في مناسبة من المناسبات . وخاطب ميخائيل ليوناردو بكلام جارح وعيَّرهُ بأنه لم يستطع ان يكمل تمثالاً من تماثيله الضخمة عجزاً وقصور باع . وكان كل رد ليوناردو على هذا الفتى الثائر ابتسامة هادئة مسامحة

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن هذه العبقرية ، آملين ان نكون قد جلونا لقراء « المقتطف » الأغر في هذا المقال والمقال السابق صورة لا شك انها من اروع صور العبقرية وابقاها على الدهر

أجل الانواع والامم[1]

للدكتور شوكت موفق الشطي
الاستاذ بمعهد الطب العربي في دمشق

تختلف اعمار الأنواع اختلافاً عظيماً فنها ما يعيش ابداً كأنواع الحيوان والنبات الإبتدائية التي يتركب فردها من خلية واحدة تتكاثر تكاثراً مستمراً فينشأ منها فردان مماثلان للأصل تماماً وينتج من انقسام كل من هاتين الخليتين خليتان اخريان وهكذا دواليك . ولذلك نعت رهط من المؤلفين هذه المخلوقات البسيطة بالخلود . الاّ ان ما يشاهد في العوالم الدنيا لايبدو في غيرها اذ يعرض للمخلوقات المركبة من خلايا كثيرة عوارض تعوق توالدها فتموت بعد حياة تتباين مددها . ولكن بعض الخلايا التناسلية في الحيوانات العليا مستمتعة بالخلود كالحييوينات المنوية اللاقحة وهذا ما دعا فيسمن الى تقسيم الخلايا فئتين

١ً — خلايا بدنية (Soma) فانية

٢ً — خلايا تناسلية (germen) خالدة . تستطيع هذه الخلايا اذا توافرت لها بعض الشروط ان تولد مخلوقاً جديداً مشابهاً لأصليه . واما الخلايا البدنية فتعيش مدة من الزمن ثم تموت وتعود جثة تداعبها عوامل الفناء فهي والحالة هذه خلايا موقتة خلقت لتعيش اجلاً مسمى وليس الأمر كذلك في الخلايا التناسلية التي خصّت الطبيعة بعضها بتخليد النوع وبقاءِ الامة

﴿ عمر النبات ﴾ لاتعيش بعض القطور والأشنيات وبعض انواع النبات الكمئية الاّ اياماً معدودة. وحياة الطحلب قصيرة ايضاً على ان بعض مربي النبات جففوا الطحلب وحفظوه مجففاً عشرين سنة ثم اعادوا اليه الحياة باروائه وتبليله ويصح ان يتخذ ذلك دليلاً على ان هذا النبات لم يمت بالتجفاف بل وقفت فيه ظواهر الحياة طول هذه المدة فلم يبد التجفيف الخلايا وما فيها من الغرويات بل ثبّتها تثبيتاً وابطل المبادلات فيها لأنه حرمها من الماء ولا يمكن ان تتجلى الظواهر الحيوية في مخلوق من المخلوقات ما لم يتوسط الماء ذلك وقد جاءَ في القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي »

ان انواع النبات الوحيدة الفلقة كالقمح والشعير والقطاني وغير ذلك لا تعيش الاّ سنة واحدة . وكذلك انواع النبات ذات الفلقتين كالقطاني (فول حمص وغير ذلك من البقول) وقد اشار الامام ابو حنيفة بتقسيم النبات الى ما هو باق منه وما هو بائد فقسمه ثلاثة اصناف : شيءٌ باق على

(١) الامم اي اجناس الحيوان

الشتاء اصلهُ وفرعهُ ، وشيءٌ آخر يبيد الشتاء فرعه ويبقي اصله فيكون نباته في ارومته تلك الباقية ، وشيءٌ ثالث يبيد الشتاء فرعه واصله فيكون نباته مما ينتثر من بذوره

ويعيش الشمندر او الشمندور [١] سنتين وقد استطاع المختبرون اطالة بقائه ٤ — ٥ سنوات ويعتقد فريز (Frise) ان الحؤول دون موت بعض انواع النبات ممكن بنزع الازهار ابتساراً . جُرِّب ذلك في بعض انواع النبات فعاشت سنتين بدلاً من سنة واحدة . ولا يخفى ان العشب اذا اجتزَّ قبل التنوير دام سنين عديدة . وهذا ما دعا بعض النباتيين الى القول بأن من دواعي موت النبات نفاد قواه الحيوية في الإحباب [٢] ويعيش نبات الصبر الاميركي مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة ولا ينوّر الاّ مرة واحدة ويموت أثر ازهاره . وذكر هيلدبراند (Hildebrand) ان النباتات السريعة التنوير والإحباب قليلة البقاء لأنها تصرف قواها الحيوية الكامنة في الإبزار [٣] فتموت سريعاً . واما النباتات التي لا تنوِّر الاَّ بعد سنين عديدة فتعيش مدة طويلة

ومن النبات ما يزهر ويثمر في كل حول دون ان يؤثر ذلك في مدى حياته . ويزعم هيلدبراند وغيره من المؤلفين ان النبات يغتذي وينمو سعياً وراء غاية اساسية وهي التكاثر فمتى تمَّ له ذلك مات . وينطبق هذا الزعم على بعض انواع النبات ولا يجوز اتخاذ هذه الفكرة قاعدة جامعة مانعة

بحث ميتالينكوف في كتابه الخلود والاشباب عن اسباب الموت السريع في بعض انواع النبات فقال : يموت النبات دون ما سبب ظاهر وآفة مؤذية او عامل ضار . وتَبيدُ بعض انواع النبات قبل حلول الشتاء مع انها لا تصاب بالنفاد وليس التنوير فيها عاملاً مؤدياً الى الموت كما وان كثيراً من النباتات تنوّر وتثمر ولا يؤثر ذلك في اجلها . وقد جرب كليبس ان يطيل عمر نبات الشوع فأخذ عقاقيله [٤] وشنغوبه [٥] وغرسها في الارض فنبتت ونمت ودامت . يؤخذ من ذلك ان موت النبات في مدة معينة ليس امراً محتماً وان اطالة العمر ممكنة . لذلك جدَّ المؤلفون في البحث عن اسباب الموت الطبيعي الاّ ان هذه الابحاث لم تثمر بعد الثمر المطلوب لأن بابها لم يقرع الاّ في العهد الحديث

وقد عرف ان الاشجار ذات الخشب الابيض الاسفنجية الخفيفة كالحور وغيره تعيش مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة وان الاشجار القاسية الخشب البطيئة النمو تعمر عشرات العصور . ذكر لوبينكو في ابحاثه ان الزان يعيش ٣٠٠ سنة وان الصنوبر يبقى ٥٧٠ سنة وان العرعر يدوم ٦٠٠ سنة وان ارز سيبريا يحيي ٧٠٠ سنة وان اجل التنّوب اوصنوبر القطران ١٢٠٠ سنة وان الكستنة والبلوط يبقيان ٢٠٠٠ سنة وان السرو والفشاغ taxus baccata والأرز تعمر ٣٠٠٠ سنة وان البقس Baxus (شمشير) والزيتون والبرتقال يبقى عصوراً . وقد جاؤا على ذلك بأدلة

---

(١) تأويل Bettrave وتسميه العامة شوندر وصحيحها الشمندر كما اثبتنا وهو نبات غليظ الاصل يتخذ منه السكر (الافصاح) ويعرف في مصر بـ « البنجر » (٢) أحب الزرع صار ذا حب
(٣) ابزر النبات وبزر ادرك بزره (٤) عقاقيل الكرم ما غرس منه ولم يذكر لها واحداً (اللسان)
(٥) الشنغوب والشغنوب والشنخب اعالي الاغصان

خاصة منها: بزر دوكاستيل في العصر الخامس عشر بزرة برتقال في بستان فرساي فنبتت ولا تزال حتى الآن . وفي حديقة الكونت كوبر في انكلترا بلوطة يبلغ عمرها اثني عشر عصراً . وفي جادة القيرا كروز في المكسيك بهاء[1] التجأ اليها فرناند كورتز يزيد عمرها عن خمسة آلاف سنة وفي القدس زيتون شهد المسيح وفي الهرمل شجرة استظل بها عيسى عليهِ السلام وفي كاليفورنيا رُبُض عُمارة (باووباب) يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ متراً ومحيطها عن ٣٠ متراً وعمرها بضعة آلاف من السنين

وقد بحث الامير مصطفى الشهابي في المقال الذي نشره في هذه المجلة الزاهرة[2] عن الارز وعن بقائه فقال عن ارز بشري : اعظم حراج الارز شأناً واقدمها سناً حرج بشري فهو الذي يطلقون عليهِ اسم ارز لبنان تعميماً الى ان يقول :

وتعلو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة اما الكبيرة ففيها جلال مسوِّق الشجر العظام ولقد قست ساق كبراها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من الفي سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢ و١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنها اكثر من الف سنة في الغالب

﴿أجَل الامم «اجناس الحيوان»﴾ تعيش الامم الدنيا المشابهة للنبات مدة طويلة ويبدو تكاثرها بنمو طبقات جديدة كما في النبات وتراكب بعضها فوق بعض وتعيش اكثر الحشرات المتحولة كذوات الاجنحة المغلفة وذوات الاجنحة الغشائية وذوات الجناحين سنة واحدة او سنتين وتموت عادة بعد الاخلاف وقد تبلغ الحيوانات القشرية والأصداف خمس سنوات من العمر . اما الاسماك فتعمر كثيراً وقد اصطاد الصيادون سمكة من بطائح القيصر فبلغ طولها تسع عشرة قدماً ووزنها ١٦٠ ليبرا وكانت مطوقة بقطعة من النحاس نقش عليها « ان هذه السمكة وضعت في البحيرة عملاً بأمر الامبراطور فردريك الثاني » وقد حسب الفرق بين تاريخ وضعها في البحيرة ويوم اقتناصها فاذا بها تبلغ مائة وسبعة وستين سنة من العمر . ويعيش القمل مدة تختلف من ٢٧ — ٦٤ يوماً والثول (ذكر النحل) مدة ٤ — ٥ اشهر والنحل العامل ١٦ شهراً والزنباد سنة واحدة والرتيلاء من سنة الى سنتين والعصفور التُنفاحي خمس سنوات والأرنب والسنجاب ٧ سنوات والجرذ والبزاق ٨ سنوات والعصفور والسماني والدجاج والنعّار والحسّون والطيهوج[1] والخروف ١٢ عاماً والبط والبلبل والسنونو ١٥ سنة والثعلب والثور ١٦ سنة والبقر والخنزير والظبي والحمام والقط والكلب والذئب ٢٠ سنة والحصان ٢٥ سنة وكذلك الطاووس والبرقش .

(١) مفرد السرو (٢) ارز لبنان ومغارة قاديشا للامير مصطفى الشهابي في المقتطف المجلد ٨١ جزء ٤ ص ٤٠٤
(٢) تأويل rougegorge وقد جاء في حياة الحيوان للدميري : الطيهوج بفتح الطاء طائر شبيه بالحجل الصغير غير ان عنقه ومنقاره ورجلاه حمر

وأما الحمار فيعمر ٣٠ سنة والببغاء والغراب والنسر والحدأة من ٦٠ الى ١٠٠ وكذلك السلحفاة وأما الصقر والباز فيعيشان مدة تختلف من ١٠٠ الى ١٥٠ سنة ويلبث الفيل ٢٠٠ سنة والتمساح ٣٠٠ عام. يتضح من ذلك ان مدة الحياة في مملكة الحيوان تختلف كثيراً كما اختلفت في مملكة النبات فمنها مايعمّر كثيراً ومنها ما لا يعيش اكثر من ساعات محدودة . ولم يعرف السبب حتى اليوم في تباين الأعمار واختلاف الآجال

﴿ عمر الانسان ﴾ لايزيد عمر الانسان في عهدنا الحاضر عن مائة سنة . وقد تساءل البحاثون هل تبدَّل عمر الانسان وعاد في زمننا غير ما كان في الزمان السابق ؟

اذا بحثنا في الكتب المقدسة رأينا ان آدم عاش ٩٣٠ سنة وان شيث لبث ٩١٢ سنة وأنُوش عمَّر ٩٠٥ سنين وقينان بقي حيًّا ٩١٩ سنة ومهلئيل ٨٩٥ سنة ويارد ٩٦٢ سنة وأخنوخ ٩٦٥ سنة ولامك ٧٧٧ سنة ونوح ٩٥٠ وسام ٦٠٠ سنة وأرفخشاد ٣٣٨ سنة ولا نعهد في التاريخ المعروف نظير هذه الاعمار وأما التاريخ القديم فمجهول تماماً وقد تكون سنتهم غير سنتنا

وعاش يعقوب مجتمعاً ببنيه سبع سنين وادركته الوفاة فقبض لمائة وعشرين سنة من عمره وعاش يوسف ١١٠ سنين وقبض الله موسى اليه لمائة وعشرين سنة وقبض هارون لمائة وعشرين سنة ايضاً

ولبث ابقراط في قومه ١٠٤ سنين وبلغ جالينوس ١٤٠ سنة من العمر وبقي سقراط الخطيب حيًّا ١٠٦ سنين . ومن شعراء العرب المعمرين عمرو بن كلثوم ويؤخذ ذلك من وصية قالها لبنيه « يا بنيَّ قد بلغت من العمر ما لم يبلغه احد من آبائي ولا بدَّ ان ينزل بي ما نزل بهم من الموت » وكان الحارث اكبر سنًّا من عمرو وعاش ١٥٠ سنة على رأي بعضهم

ويجمع الرواة على ان زهيراً كان من المعمرين ويقول زهير نفسه في معلقته :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا ابا لك يسأم

وعاش لبيد بن ربيعة اكثر من مائة وعشر سنوات ونسب الرواة اليه عدة ابيات في ايامه الطويلة تدل على عمره منها واحد قاله وهو ابن سبعين

كأنّي وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عن منكبيَّ ردائيا

وآخر قاله في السابعة والسبعين :

باتت تشكّي اليَّ الموت مجهشةً وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

وقال في العاشرة بعد المائة :

اليس في مئة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عُمُرا

وقال لما بلغ مائة وعشرين :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

غلب الرجال فكان غير مغلّب دهرٌ جديد دائم معدود

يوم ارى يأتي عليّ وليلة وكلاهما بعد المضاء يعود

﴿ اخبار المعمرين في العصر الحاضر ﴾ ذكرت الصحف سنة ١٩٠٩ خبر وفاة امرأة عن عمر يناهز ١٢٠ سنة ونبهت الجرائد الى ان السيدة مارك غورك ولدت سنة ١٧٨٠ وماتت سنة ١٩١٠ اي عاشت ١٣٠ سنة وذكرت القبس الدمشقية خبر معمر كان يكرمه جلالة المغفور له الملك فيصل بلغ من العمر مائة وعشرين سنة وما زال نشيطاً.وتذكر الصحف بين حين وآخر طرفاً كثيرة عن اخبار المعمرين وقد تقصى اخونا الاستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة خبر الشيوخ المعمرين فقال :

ادركنا من الشيوخ المعمرين في دمشق ممن بلغوا القرن او كادوا ثلاثة اجلة احدهم الشيخ عبد الله السكري الركابي وهو فقيه كبير ولد فيما اخبر به سنة ١٢٣١ ﻫ واخذ الفقه عن فقيه الشام الشيخ سعيد الحلبي المتوفي سنة ١٢٥٩ ﻫ والحديث وغيره عن المحدث الشهير الشيخ عبد الرحمن الكزبري المتوفي سنة ١٢٦٢ ﻫ وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ ﻫ . الشيخ الثاني : الشيخ عبد الله الحموي وهو مقرىء جليل ادرك الخطاط المعروف الشيخ عبد اللطيف الشطي المتوفي سنة ١٢٥٢ ﻫ وحدث عنه بنوادر طريفة وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ ايضاً . الشيخ الثالث : الحاج علي الشطي وهو معمر قضى حياته بالتجارة والزراعة والكد وقد ادرك ابراهيم باشا المصري واخبر عنه بأنه تغلب على الشام تسع سنوات من عام ١٢٤٧ الى عام ١٢٥٦ ﻫ وكانت وفاته سنة ١٣٣٤ ﻫ وهؤلاء جل من ادركنا من المعمرين الذين تمتعوا بصحة جيدة وعقل وافر حتى آخر حياتهم

وذكر بلنيوس Pline خبر قوم من الهند الشرقية يعيش بعض افراده ٤٠٠٠ سنة يغتذون بالثعابين والحيات ثم يسأل هل كان لذلك شأن في طول بقائهم

اذا انعمنا النظر فيما اوردناه حتى الآن جاز لنا ان نستنتج من ذلك ان عمر الانسان في العهد الماضي لا يختلف عن مدى عمره اليوم . واما ما ذكر عن اللبث مئات من السنين فذلك دليل على ان الواحد القياسي للسنة فيما سبق يختلف عن واحد السنة القياسي اليوم . ويشاطرنا في هذا الرأي المفسرون العصريون مثل العالم الجليل طنطاوي جوهري

﴿ اختلاف متوسط مدى الحياة ﴾ يتضح من الاحصاءات الصحية العامة ان متوسط عمر الانسان قد زاد في القرنين الاخيرين بفضل الطرائق الحديثة المتبعة اليوم في مكافحة الاوبئة كالجدري والطاعون والهيضة والربيض(التيفوس التي كانت تتفشى فتجترف ملايين) . فقد وقع في حلب طاعون سنة ٨٢٠ فأربى من هلك فيها وفي ضواحيها على مائتي الف انسان.وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهالكين بدمشق في كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم الفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمائة وبالرملة مائة [1] ويقدر عدد من هلكوا في القرون الوسطى بالطاعون بـ ٢٣ مليوناً من البشر فمات في باريس سنة ١٤١٨ ثمانين الف شخص من ٣٠٠٠٠٠ شخص وهو

(١) خطط الشام ج ٢ ص ٢٠١

مجموع عدد سكانها اذ ذاك وهلك في اوروبا خلال اربع سنوات اي من سنة ١٦٦٣ الى سنة ١٦٦٧ اكثر من ٥٠ مليون ولا يأخذك العجب ايها القارىء من ذلك فقد روى الرواة ان الطاعون حل بدمشق فأهلك من فيها الا خمسين شخصاً اجتمعوا حول الجامع الاموي . ولا يخفى ان دمشق كانت مأهولة بعدد اوفر من السكان. ان كشف الجراثيم والتعرف على طرائق التلقيح الحديثة وتقليل امراض العمال والعناية الصحية ومكافحة السرطان والسل قد ساعدت على تخفيف وطأة العوامل الخارجية في تقصير العمر

ولم يك في الماضي من سبيل الى تخليص الطفل المولود في بيئة مسلولة من مخالب السل الا ابعاده عن البيت الذي ولد فيه وارساله الى حيث لا يجد بيئة ملوثة غير ان اكتشافاً حديثاً باهراً ابتدعته عبقرية العلاّمة كالمت ومؤازره غاران التي في ايدي البشرية سلاحاً جديداً ماضياً يقي الطفولة الاولى من شر هذا الداء نعني به اللقاح المسمى (ع . ك . غ B. C. G.) اي «عصيات كالمت وغاران» من مؤسسة باستور في باريز[1] . بدىء باستعمال هذا اللقاح اولاً في فرنسا متداول تموز(يوليو) سنة ١٩٢٤ ثم في بلدان اخرى . وقد أبان الاحصاء ان معدل وفيات العائشين في بيئة مُسلّة ولم يلقحوا هو ١٦ — ٢٥ ./ بين الشهر الاول والسنة الاولى . وقد هبط هذا المعدل في الملقحين الى ٤./ واذا فصل الطفل بسرعة شهراً واحداً عن والديه بعد ولادته وتلقيحه هبط معدل الوفيات بالسل الى ما يقرب من الصفر . ومعدل الموت بالامراض الاخرى الى النصف . وقد افادت مستوصفات السل ايضاً فائدة كلية فهبطت نسبة الوفيات بعد ان انشئت هذه المستوصفات في فرنسا هبوطاً محسوساً واذا قسنا نسبة الوفيات في انكلترا بعد انشاء هذه المستوصفات وقبل ثلاثين سنة من انشائها تحققنا انها هبطت هبوطاً معادلاً لـ ٧٢ ./ وقد بلغت الوفيات بالسل في برلين ٥٨٠٠ في سنة ١٩٢٠ و٤٣٠٠ في سنة ١٩٢٨ و٤٠٠٠ سنة ١٩٣١ . وصفوة القول إن لقاح «ع . ك . غ» والمستوصف وقفا حصناً منيعاً في وجه هذا الداء الجارف وقد اشتركت خمس وثلاثون دولة في مكافحة السل وتألف من مجموعها (اتحاد مكافحة السل الدولي) الذي يلتئم مندوبوه في كل سنة للبحث في الطرق الحديثة التي يجب اتخاذها

***

ويؤخذ من احصاءات شركات التأمين الاميركية ان متوسط عمر الانسان زاد ١٢ سنة من اوائل هذا القرن الى الآن . ولا ريب في ان زيادة متوسط عمر الانسان سببها تقليل الوفيات بين الاطفال ، وعدد الرجال والنساء الذين يجتازون سن الخمسين او الخامسة والاربعين اكثر الآن مما كان قبلاً[2] . فيتبين لنا من ذلك ان العوامل الخارجية المميتة ابتسارا قد خف شأنها ولم يتبدل مع ذلك حدّ التعمير الاقصى لان العوامل الباطنة التي تحدد عمر كل امة من الأمم لم تعرف بعد ولا يزال عليها ستار كثيف من الغموض

(١) من محاضرة القاها الدكتور لوسركل Lecercle الاستاذ في معهد الطب بدمشق وترجمها الدكتور غرة بك مريدن

(٢) فتوحات العلم الحديث لمحرر المقتطف فؤاد صروف ص ٣١٠

﴿ العوامل التي تنظم عمر الامم (اجناس الحيوان) والانواع ﴾ سعى بعض الحيويين الى تعليل اختلاف عمر انواع النبات فزعمت طائفة منهم ان الشجرة ليست مخلوقاً واحداً ولكنها مخلوقات عديدة مجتمعة تحيي حياة مشتركة وتتكاثر وتبقى كذلك حتى ينفذ الغذاء من الارض ولا يعود كافياً لادامة حياتها فتموت . ينطبق هذا الزعم على بعض المخلوقات الدنيا ولكنه لايناسب ما يقع في انواع النبات والامم العليا التي تتركب من اعضاء مختصة بوظائف نوعية خاصة عويصة . ان لهذه المخلوقات العليا في الحيوان والنبات دورة حيوية خاصة تختلف باختلاف الانواع والأمم . ولكنها ثابتة نوعاً في النبات الواحد او الامة الواحدة

وقد زعم بعضهم ان لطول عمر النبات صلة بقساوة بنائه وان العصارات الراتنجية او العطرية التي يفرزها بعض انواع النبات تقيهِ شرّ المؤثرات الاقليمية والخارجية فيطول عمره وان كثرة السماد وغزارة الاخصاب من العوامل المبيدة للنبات . قد ينطبق هذا القول على بعض انواع النبات غير انهُ لا يبين لنا السبب في نظام مدة الحياة واختلافه بتباين الامم والانواع . ويقول بعض المؤلفين ان السبب في طول حياة النبات حرمانه من الجملة العصبية الاّ ان ياغاديس شوندر Yagadis Chunder وغيره من جهابذة العلماء لا يقرون هذا الرأي كما وان النبات غير محروم من الاعصاب وقد نبه الى ذلك الدكتور يعقوب صرُّوف في كتابه «فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان».

ودليل آخر على فساد هـذا الزعم هو ان الحيوانات الدنيئة التي لا تعرف للعواطف معنى ولا تقيم للاحساس وزناً ولا تدرك للضمير مغزى تموت في برهة وجيزة بينا يعيش الانسان عصراً او اكثر من ذلك . وقد استنتج من ذلك بعض المؤلفين ان شأن الجملة العصبية في تقصير العمر او اطالته ثانوي . الاّ اننا لا نشاطر اصحاب هذا الرأي ولا نستنُّ بسنتهم لان الخلية العصبية النبيلة المميزة تتكاثر فلا يرى في هيولاها جسيم مركزي ولا في نواتها صور الانقسام المعتنف. واما الخلايا العصبية التي لا تتكاثر فهي التي لا تزال في دور الفتوة ولا تكون قد اكملت نموها وتميزها . وما دامت الخلية العصبية محرومة من خاصة التوالد كانت معرضة للموت لا محالة ويقدر العلماء امكان بقائها نشيطة وفعالة مدة ١٤٠ سنة ولذلك يجوز ان يبلغ عمر الانسان الاقصى هذا الحد

ويعتقد اوغست لومبار ان للعامل الأساسي في اطالة العمر صلة بحادثة التكاثر الخلوي فما زال التكاثر نشيطاً دامت الحياة وتناءت الشيخوخة ومتى بطل الانقسام فسدت الغرويات وشاخت الخلايا ثم تموت بسبب رسوب الغرويات فيها او ذوبانها

ان لهذا الرأي قيمة علمية وهو رأي من جملة الآراء المقترحة على ان الفكرة المستندة الى الرسل وعملها اصح وعدد مناصريها كبير اليوم . وليس من الصعب التوفيق بين الرأيين فالرسل تدعو الخلايا الى التكاثر وتحفزها على الانقسام ومتى تم ذلك تجددت الغرويات واستمرت المبادلات فيها وسوف نفرد بحثاً او ابحاثاً خاصة نبين فيها ما عرف عن صلة الرسل والغدد الصم بالإشباب

غرائب الاعداد

وعجائب المعادلات

لقدري حافظ طوقان

لايخلو الكون من غرائب في نواحيه المتعددة المختلفة ففي بعض الظواهر الطبيعية غرائب وفي بعض الحوادث غرائب ، وفي بعض العادات غرائب ، وفي بعض التقاليد غرائب ، وفي بعض العلوم غرائب . وتختلف هذه الغرائب اختلافاً بيناً ويصعب في حالات كثيرة تعليلها وفي بعضها يستحيل. وقد تختلف غرائب العلوم عن غيرها فيمكن تعليلها عند التدقيق والتعمق في البحث واذا اتفق ورأينا غرائب ولم نجد لها تعليلاً فالذنب يقع على الانسان الذي لم يستطع اكتشاف السبب وادراك كنه التعليل . وكثيراً ما نجد في علم الفلك ظواهر وحوادث تبدو غريبة عجيبة لاول وهلة ولكن عند البحث نجد ان لا غرابة فيها وهي فوق ذلك ليست خارجة عن دائرة القوانين والانظمة التي تسيطر على علم الهيئة . ألم يبد الراديو للناس غريباً ؟ الم يكن الحديث عنهُ كحديث السحر والسحرة لغرابته ؟ ولكن الملم بقواعد العلوم الطبيعية والواقف على بعض اسرارها يرى ان عمل الراديو مبني على مبادىء بسيطة كشف عنها الانسان وعرف كيف يستغلها لمنفعته . وما قول القارىء في التلفزة ؟ اليس الحديث عنها يثير الدهشة والاستغراب ؟ افرض ايها القارىء ان قال لنا قائل قبل عشر سنين ان عالماً يقول بأنهُ يستطيع رؤية الاشياء عن بعد وان لديه آلات تمكنه من ذلك ! ! ما ذا كنا نقول عن ذلك القائل وذلك العالم ؟ من الطبيعي اننا لا نصدق قولهُ . ومما لا ريب فيه اننا نرمي العالم بالشعوذة وقد نتساهل في التعبير فنقول ان ذلك العالم ذو خيال رائع . والآن اليست التلفزة حقيقة لا يمكن نكران مبادئها وآلاتها ؟ والذي يدرس المبادىء التي تقوم عليها التلفزة لا يجد فيها ما هو فوق العقل فالقوانين السائدة عليها معروفة والاساس الذي تستند اليهِ غير غامض وقد استطاع الانسان ان يكشفه وينتفع من تطبيقه

قد لا يصدق القارىء اذا قلنا ان في الاعداد وفي بعض فروع العلوم الرياضية غرائب وعجائب من الصعب تعليلها، ولكن اذا انعمنا النظر في هذه نجدها على غير ما تبدو لاول وهلة اذ ليس فيها ما يبعث على الاستغراب والدهشة فهي ترتكز على مبادىء اساسية وقوانين ثابتة . ومن البديهي انني في هذا المقال لا استطيع ان آتي على جميع غرائب الاعداد وعجائب المعادلات . فغرائب الاعداد لاتدخل تحت حصر عدا كون بعضها يحتاج الى استعمال ما قد يدخل السأم والملل على نفوس القراء. واما عجائب المعادلات فسنأتي على ذكرها تنويهاً اذ تحتاج الى استعمال الصعب من القوانين الرياضية

والمعادلات العويصة وهذا ما سنحاول تجنبه في مقالنا هذا . ولكننا سنأتي على بعض امثلة بسيطة من غرائب الاعداد وعجائب المعادلات من التي لا تحتاج الا الى المام بسيط في قواعد الحساب ومبادىء الجبر الاولية

خذ الكسر $\frac{1}{7}$ وحوله الى كسر عشري فينتج لدينا الكسر الدوري البسيط (١٤٢٨٥٧ و٠) ومعنى ذلك ان ارقامه تعيد نفسها اذا ما مضينا في عملية التحويل . واذا ضربنا هذا العدد (١٤٢ ٨٥٧) في ٢ ينتج العدد ٢٨٥ ٧١٤ . انعم النظر في العددين ، تجد ان ارقام العدد الاول هي نفس ارقام العدد الثاني والفرق بين الاثنين اختلاف في ترتيب الارقام فقط . واذا ضربنا نفس العدد في ٣ او ٤ او ٥ او ٦ ففي كل حالة ينتج معنا عدد ارقامه نفس ارقام العدد المذكور ويكون الاختلاف في منازل الارقام . ومن الغريب الطريف اننا اذا ضربنا العدد نفسه في ٧ ينتج لدينا عدد متكون من ست خانات تحتوي كل واحدة منها على الرقم ٩ اي ان ١٤٢ ٨٥٧ × ٧ = ٩٩٩ ٩٩٩

وكذلك خذ الكسر $\frac{1}{13}$ وحوله الى كسر عشري ينتج الكسر الدوري البسيط الآتي : ٩٢٣ ٠٧٦و٠ واذا ضربنا هذا العدد في ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ كان الحاصل في كل حالة متكوناً من ارقام العدد المذكور نفسها مع اختلاف في الترتيب فقط ، ولكننا اذا ضربناه في ٢، ٥، ٦، ٧، ٨، ١١ نتج لدينا في كل مرة ست خانات تحتوي على الارقام ١، ٥، ٣، ٨، ٤، ٦ مع اختلاف في الترتيب

ومن الاعداد ما اذا ضربته في عدد آخر يصبح عدداً قد يبدو غريباً اذ تحتوي خاناته كلها على نفس الرقم . خذ العدد ١٢٣٤٥٦٧٩ ولنفرض انهُ يضرب في عدد بحيث يتكون حاصل الضرب من خانات كل منها يحتوي على الرقم ٥ ، فلدى البحث نجد انهُ اذا ضرب العدد المذكور في ٤٥ ينتج معنا عدد يحقق الشرط المطلوب . اي ان ٦٧٩ ١٢٣٤٥ × ٤٥ = ٥٥٥ ٥٥٥ ٥٥٥ واذا كان الشرط ان تحتوي الخانات على الرقم ٨ فما عليك الاّ ان تضرب العدد في ٧٢ وهكذا

اليس هذا عجيباً ومثيراً للاستغراب ؟ ولكن ما لنا ولهذا النمط من الغرائب فقد لا يكون ممتعاً وقد لا يجد فيهِ القارىء ما يحمله على متابعة قراءة المقال . والآن لنأخذ نوعاً آخر غير الذي ألمحنا اليهِ . يوجد في الجبر بعض حالات تقودك الى نتائج تناقض الحقائق المسلم بها وتناقض المنطق. ومن الغريب انك اذا تتبعت الخطوات التي توصل الى النتيجة الغريبة تجدها منطقية ومبنية على قوانين حسابية وجبرية نسلم بصحتها ولا يختلف فيها اثنان ، وبديهي انهُ لا يوجد في علم الرياضيات حقائق ومبادىء أساسية تسير بك الى متناقضات او الى ما هو مخالف للواقع والحقيقة وقد يسأل غير واحد : اذن . كيف اوصلتنا هذه الخطوات المنطقية الصحيحة الى متناقضات بل ومضحكات في بعض الاحايين ؟ والجواب على ذلك بسيط ويتلخص في القول بأن احدى الخطوات تكون مغلوطة وغير صحيحة ولا يظهر فيها الغلط الاّ عند التفكير العميق وهي (بذاتها) التي اوصلتنا الى ما

اوصلتنا اليه ، وقد يكون من الصعب جداً اكتشاف الخطوة المغلوطة كما انهُ قد لا يكون . ويمكن الاتيان بأمثلة عديدة على ذلك . ولكننا نكتفي بإيراد مثلين يجدها القارىء في اسفل الصفحة ينتهي بنا الى المتناقضة ١ = ٢ . والثاني ايضاً الى ان ١ = ٢ ، ومن مطالعة الطريقة الاولى [١] التي قادت الى ان ١ = ٢ يتبين ان الخطوات المتبعة فيها لا غبار عليها يحيط بها (كما يظهر) المنطق من كل جانب وتسري فيها القوانين الاساسية للجبر. ولكن لدى التفكير يجد القارىء انه توجد خطوة ما كان لنا ان نستعملها بل ومن الخطأ الذي لا يغتفر (في عُرف الرياضيين على الاقل) المرور بها والسكوت على ذلك . ومن مطالعة الطريقة الثانية [٢] التي انتهت الى ان ١ = ٢ نجد انهُ يصعب اكتشاف الغلط اذ يحتاج اكتشافهُ الى وقت وتفكير ، والنتيجة في الحالتين مضحكة حقاً ومثيرة للاستغراب . والخطوات التي اوصلتنا اليها لا تخالف (كما يظهر) قواعد الرياضيات واساساتها . ولكن ضمن الخطوات خطوة لا يجوز استعمالها ، فهل للقارىء ان يكتشفها ؟ !! . . .

وفي الهندسة طرق تظهر كأنها صحيحة ومنطقية وتنتهي الى نتائج غريبة تناقض الحقائق المسلم بها ، تنتهي الى متناقضات مضحكة !! ومن هذه الطرق ما يجعل القارىء ان يبرهن على انهُ يمكن انزال عمودين من نقطة خارجة الى اي مستقيم معلوم وان الزاوية تعادل جزءها . وان الخط يساوي جزءهُ ايضاً

وانه يمكن ان يبرهن على ان اي مثلث يكون متساوي الساقين وانه يمكن اتباع خطوات هندسية توصلنا الى ان الواحد يساوي صفراً . وفي هذه الحالات قد يجد الانسان لذة في قراءة حلولها وقد يجد متعة عند المحاولة لايجاد الغلط او الخطوة التي لا يجوز استعمالها والتي ادت الى نتيجة غير معقولة . ولكل هذه فائدتان مزدوجتان : الاولى ان فيها شيئاً من التسلية والتفكهة والثانية انها تثير في قارئها رغبة في اكتشاف الغلط ، وفي هذا بعض الفائدة للراغب في التعمق في علم الهندسة وفي الوقوف على بعض دقائقها

---

(١) افرض ان س = ص ∴ س٢ = س ص
اطرح ص٢ من الطرفين ينتج س٢ — ص٢ = س ص — ص٢
اي ان (س — ص) (س + ص) = ص (ب — ص)
اي ان س + ص = ص وبما ان س = ص ∴ ٢ص = ن
اي ان ٢ = ١ ———

(٢) لو (١ + س) = س — ١/٢ س٢ + ١/٣ س٣ — ...... واذا كانت س = ١
ينتج لو ٢ = ١ — ١/٢ + ١/٣ — ١/٤ + ١/٥ — ١/٦ + ١/٧ — ١/٨ + ...
اي ان ٢لو٢ = ٢ — ١ + ٢/٣ — ١/٢ + ٢/٥ — ١/٣ + ٢/٧ — ١/٤ + ...
اي ان ٢لو٢ = ١ — ١/٢ + ١/٣ — ١/٤ + ١/٥ — ١/٦ + ... = لو ٢
اي ان ٢لو٢ = ٢ ∴ ٢ = ١

حسب المعادلات انها تسهل حل الاعمال الصعبة الى درجة كبرى وتوفر وقتاً في ايجاد اقرب الطرق للوصول الى النتيجة ، وتعبر عن كلام كثير برموز قليلة وحسبها ايضاً انها سهلت الاختراع والاكتشاف ووسعت مجال الاستفادة من القوانين الطبيعية ، وفوق ذلك فللمعادلات فوائد اخرى هي من خطورة الشأن بمكان عظيم . لقد استطاع بعض العلماء بفضل استعمال المعادلات واكتشاف بعض انواعها ان يقدموا للحضارة الصناعية خدمات جليلة . وقد استخرج غاليليو من العلاقة الموجودة بين الكتلة والحركة معادلة لولاها لما تمكن الانسان من صنع آلات تحركها القوى على اختلاف انواعها وقد لاحظ ملكن العالم الاميركي الشهير الفوائد التي جنتها الحضارة الصناعية من القوانين والمعادلات الرياضية فقال « اننا اذا ازلنا من العمران الحالي احد القوانين الرياضية التي ابتدعها وحققها نيوتن لوجب ان نزيل كل آلة بخارية فنكل سيارة وكل محرك وكل مولد كهربائي بل كل آلة تستعمل لتحويل القوة الى حركة لانها كلها بنيت على هذا القانون الرياضي الشامل . . »

***

ولعلَّ اغرب شيء في المعادلات انها استطاعت ان تتنبأ عن اشياء كانت مجهولة وحوادث ماكانت معروفة وظواهر لم يلتفت لها الانسان في بادىء الامر . ولا يخفى انهُ ليس في استطاعة كل واحد ان يرى المجهولات في المعادلات او ان يتنبأ بواسطتها فهذا ما لا يستطيعهُ الاَّ القليلون الذين عكفوا على دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والذين مارسوا هذه سنين كثيرة وتفهموا دقائقها ووقفوا على اسرارها وغاصوا على كنوزها بقصد التعمق والتثبت . ولا ارى بأساً من ذكر قصة اكتشاف بعض السيارات ففيها ما يؤيد قولنا بخصوص التنبؤ من المعادلة . لقد اقتنع بعض العلماء كنتيجة لبحوثهم بانهُ يوجد اضطراب في فلك اورانوس وقالوا بان هذا الاضطراب يجب ان يكون ناتجاً عن سيار غير معروف ، ولم يكن في الامكان التثبت من ذلك ومن وجود سيار الاَّ باستعمال الرياضيات فقام ادمس ولفريه واستطاعا بالمعادلات ان يتأكدا من وجود كوكب سيار جديد قبل ان يروهُ . اما الكوكب المكتشف فهو نبتون ، وتنبأ الاستاذ لول بوجود سيار وراء نبتون وكان تنبؤه عن طريق المعادلة وقد شغل جانباً كبيراً من حياته في حساب بعده وقدره وجرمه وسرعتهِ واستطاع ان يعين الفلك الذي يسير فيهِ السيار الجديد الذي سمي بالسيار بلوطو . واتفق العلماء على ان اكتشاف بلوطو من اهم الاعمال العلمية التي جاءت مؤيدة لكثير من مبادىء علم الفلك وقوانينه ومشيرة الى الارتباط المحكم المتين بين الرياضيات والفلك وسائر العلوم الطبيعية . وقبل الختام اود ان أوجه النظر الى ان الاسلوب العلمي او الطريقة العلمية الحديثة التي هي اساس الاكتشاف والاختراع والتي ميزت هذا القرن عن غيره ، ترتكز الى درجة جديرة بالاعتبار على المعادلة . اذ بالمعادلة توسع مجال الدقة واصبح في الامكان وضع كثير من المبادىء والقوانين في قالب رياضي وفي هذا توسيع لدائرة الاستفادة العملية من العلوم المختلفة والفنون المتنوعة . . .

الأثير : لغز الدهور

تحول صورته في اذهان العلماء والفلاسفة [1]

من نيوتن الى اينشتين

نشأ القول بالاثير عن حاجة الانسان الى تعليل التفاعل بين اجسام بعيد بعضها عن بعض . ولم تبدُ هذه الحاجة مُلحّة الاّ بعد ما وضع نيوتن قواعد الجاذبية . ذلك انوزن الجسم كان الى عهد نيوتن شيئاً مستمرّاً يتوقف على الجسم وحده دون اى جسم آخر . فلما بيَّن نيوتن ان وزن الجسم يمكن تعليله بالتجاذب بين كتلتي جسمين ، وان تطبيق هذه القواعد على القمر تعلّل حركتهُ سأل المفكرون كيف يتم هذا الفعل وليس بين الارض والقمر صلة مادية تصلح ان تكون وسطاً لنقل القوة الجاذبة . ومما لا ريب فيه ان انتقال الحرارة وغيرها من مظاهر الطاقة تحتاج الى وسط ينقلها .

وقال احدهم : ايستطيع جسم من الاجسام ان يفعل حيث لا يكون الجسم نفسه . فكان الجواب المبني على الاختبار ان ذلك متعذر . فرغبةً في توحيد القوى الطبيعية ، قيل ان الجاذبية تفعل في الظاهر من دون وسيط ، ولكنها في الواقع تنتقل عن طريق وسطٍ متصل يملأ الكون ، لا فجوة فيه ولا انقطاع ، ودعي هذا الوسط ، الاثير . ولكن لم يشر احد الى تصرف هذا الوسط في نقل القوة الجاذبة . بيد ان نيوتن لم يعلق بهِ شأناً كبير ، لانه كان يراهُ استنتاجاً محضاً ، لا عاملاً اصيلاً في نظريته في الجاذبية

***

وكانت الخطوة التالية في نظرية الاثير ، اخراج النظرية الموجية للضوء على يد العلاّمتين هوجنس وينغ . ومؤدّاها ان الضوء ظاهرة موجيــة ، ذات نبضات مستطيلة . وكانت هذه النظرية في حاجة الى وسط تنقل بواسطته طاقة الشمس ضوءاً وحرارة ، اذ المعروف ان ضوء الشمس وحرارتها يجتازان الفضاء بين الشمس وسياراتها ، فاذا كانا ضرباً من الامواج وجب ان يكون هناك شيء في ذلك الفضاء يستطيع ان يتموّج

وتلا ذلك تكهن العلماء بخواص هذا الوسط . فقيل اولاً انهُ شفاف كلّ الشفاف اي ان الطاقة التي تخترقه لا تفقد شيئاً من قوتها ، والاّ لما استطعنا ان نرى النجوم والسدم القصية ، لأن ضوءها لا يتبدد في اختراق مسافات شاسعة من الاثير

---

(١) تلخيص مقالة نشرت في مجلة السينتفك اميركان

ثم قيل ان من خواصّهِ ان الاجرام لا تحتكُّ بهِ في خلال اختراقها اياه ، والاَّ لما استطاعت ان تمضي في افلاكها من دون عائق يعوقها

ولما كان الاثير ، ينقل امواجاً مستطيلة ، فيجب ان يكون سائلاً او من قبيل السائل ولكن لا يمكن ان يكون لزجاً لان اللزوجة تقتضي الاحتكاك بين الاثير والاجرام. واما نقلهُ الحركة الموجية بسرعة عظيمة هي سرعة الضوءِ فيقتضي ان يكون شديد المرونة

هذه هي الخواص التي كانت تسند الى الاثير لما اعلن فرنل Fresnel الفرنسي (١٧٨٨ — ١٨٢٧) مباحثهُ في الضوءِ المستقطب polarized التي اثبت بها ان الضوءَ امواج مستعرضة transverse لا مستطيلة longtitudinal فاقتضى هذا التعديل في نظرية الضوءِ الموجية تعديلاً يقابلهُ في الاثير الناقل للضوءِ . فالقدرة على نقل امواج ما على الاطلاق يقتضي مرونةً ، ولكن نقل امواج مستعرضة يقتضي مرونة من ضربٍ خاص هي المرونة الخاصة بالاجسام الجامدة او مرونة الشكل . وبكلمة اقتضى اكتشاف فرنل ان يكون الاثير جامداً ومرناً في آن

ثم تباحث العلماءُ في موضوع حركة الاثير ، او حركة بعض اجزائهِ ، وخرجوا من مُباحثهم الى انهُ لا بدَّ للاثير من ان يكون مستقرًّا لكي يمكن تفسير تجربة فيزو Fizeau (١٨٥١) التي اثبت بها ان سرعة الضوء لا تتغير ، سواءٌ كان الضوء متجهاً مع مجرى من الماءِ او ضدَّهُ . بل قالوا حينئذٍ انهُ لا يشترك في حركة الاجسام ، وان اجزاءهُ لا تتحرك بقياس بعضها الى بعض ، الاَّ حركتها الخاصة بالتموّج

وشرع الحاسبون يحاولون ان يقرّروا هذا الخواص تقريراً رياضيًّا . فقالوا ان كثافتهُ تفوق كثافة الرصاص ١٠ ملايين مرّة ، وان قصور inertia سنتمتر مكعب منهُ يفوق قصور سنتمتر مكعب من الماءِ مليون مليون مليون ضعف . وقالوا كذلك انهُ لما كان الاثير ينقل امواجاً مستعرضة بسرعة الضوءِ فيجب ان يكون جسماً جامداً صلابتهُ تفوق صلابة الفولاذ مليون مليون مرة

هذه هي الاركان التي قامت عليها صورة الاثير في اذهان علماءِ القرن التاسع عشر الى مطلع نصفه الثاني وقد كانوا يظنون ان معرفتهم بالاثير وخواصه تضاهي معرفتهم بالمادة وخواصّها

ولكن هؤلاءِ العلماءِ كانوا في مأزقٍ . فليس من المستطاع ان تنتقل طاقة الضوءِ والحرارة في الفضاءِ من دون وسط تنتقل فيهِ ، ولكن انتقالها امواجاً مستعرضة ، اقتضيا في هذا الوسط خواصَّ عجيبة تناقض الخبرة الانسانية

كان الطبيعيون الى هنا ينظرون الى الاثير نظرهم الى المادة ، فوجدوا ان هذه النظرة تقضي عليهم باسناد خواص للاثير ، لا تتفق وخبرتهم العملية ، فحملهم ذلك على القول بأن خواص الاثير لا يمكن ان تحدَّد بما حدّدت بهِ خواص المادة

فلما خابت النظرة المادية الميكانيكية الى الاثير ، تطلعوا الى ميدان الكهربائية والمغنطيسية .

واول من أدخل الأثير في هذا الميدان من ميادين البحث كان العلامة ميشيل فراداي . وقد كان علماء الكهربائية يقولون حتى عهد فراداي بشيءٍ دعوهُ الشحنة الكهربائية تستقرُّ على الجسم المكهرب وتؤثر في الاجسام المكهربة ، البعيدة عنهُ ، على نحو ما تؤثر الاجسام بعضها في بعض بفعل التجاذب . بل كانوا قد افرغوا تلك القوة الكهربائية في معادلات رياضية . ولكن فراداي لم تَرُقهُ فكرة التفاعل عن بعد . وقد أشار مكسويل في مقدمة كتابهِ (رسالة في الكهربائية والمغنطيسية) الى فراداي فقال : ان فراداي رأى بعين عقله خطوط القوة تخترق الفضاء ، حيث رأى الرياضيون مراكز القوة تتفاعل عن بعد . ففراداي رأى وسطاً حيث لم يروا هم الاَّ مسافةً . لذلك بحث فراداي عن مركز هذه الظاهرات في الافعال الحادثة في هذا الوسط »

وفي نظر فراداي كان هذا الوسط ينقل الكهربائية

ولما كانت القوى الكهربائية تنتقل في الفراغ فرض فراداي ان الوسط الذي تنتقل فيهِ هو الاثير ، وان خواصهُ تتغير بوجود المادة فيهِ ، وبهذا يعلل نقص القوى الكهربائية بين جسمين مكهربين اذا توسَّط بينهما لوح من الزجاج

وعلى هذا النحو كذلك فسّرت الظاهرات المغنطيسية

وبعيد ذلك جرَّب فراداي وكار Kerr تجارب ادخلت في روعهما ان الضوء والكهربائية والمغناطيسية تنتقل في الوسط نفسهِ — اي في الاثير

***

وأوحت مباحث فراداي الى مكسوِل البحث العظيم الذي تفرَّد بهِ ، فأثبت بالمعادلات الرياضية أنهُ اذا وجد وسط كالوسط الذي فرضهُ فراداي وجب ان يكون في الامكان احداث اهتزازات متساوية فيهِ قوتها قوة المجال المغنطيسي والكهربائي ، وتتصف بصفات الأمواج . وبعيد ذلك تمكن هرتز من توليد هذه الامواج الكهرطيسية (اللفظ منحوت من كهربائي ومغنطيسي) واثبت انها من قبيل الضوء وان الفرق الوحيد بين نوعي الامواج انما هو في طولها فقط

فنجم عن تجارب هرتز ان رسخت دعامة النظرية الاثيرية ولكن تحوَّلت من ناحيتها الميكانيكية الى ناحيتها الكهربائية والمغنطيسية بل ان العلماء تطرفوا في هذا التحوُّل حتى لنرى هرتز يحسب المادة والاثير شيئاً واحداً وان المادة ليست الاَّ اثيراً قد اصابه التنويع . وقد قاده الى هذا الاعتقاد ما رآه من اختراق الامواج الكهرطيسية لأصناف مختلفة من المادة ، من دون ان يعوقها عائق ما

وكانت الحال على ما تقدَّم لما خاض الاستاذ لورنتز Lorentz الميدان فوفّق بمباحثهِ الرياضية ومعادلاته بين النظريات السائدة حينئذٍ وحقائق الخبرة الانسانية العملية ، فالأثير في نظرتهِ كان مجرداً من خواصه الميكانيكية القديمة . والمادة من خواصها الكهرطيسية . وما يرى في المادة من الظاهرات الكهرطيسية (خواص نقل الضوءِ والكهربائية والمغناطيس) لم يسند الى الذرَّات بل

الى الاثير الذي يتخللها وينبثُّ فيها . فعلَّلت هذه النظرية تعليلاً بديعاً ما يشاهد من ضعف الضوء بعد اختراقهِ لا شدّ الاجسام شفوفاً ، وكذلك علّل بها ما يشهد من زيادة امتصاص الاشعاع الكهرطيسي بزيادة كثافة المادة . وعلى ذلك لم يبق من خواص الاثير الميكانيكية الا خاصة الاستقرار ، وهي خاصة تلتئم وتجربة فيزو القديمة ومباحث ولسن C. W. Wilson الحديثة

اما اليوم فليس للاثير شأن خاص في النظرية الكهرطيسية . فاذا كتب عالم هذا الموضوع فرض وجوده بوجهٍ عام ثم قال كما قال ادنغتن في كتابهِ « الفضاء والزمن والجاذبية » : « ان في نقطة معينة فيهِ مقداراً كهرطيسيًّا لهُ كتلة واتجاهُ ويمكن قياس قوتهِ » وبعدها يعود الباحث لا يعني بالأثير ، بل بخواص هذا المقدار . والمفروض ان هذا المقدار يمثل حالة الأثير « ولكن الاثير ليس عاملاً فعَّالاً في النظرية»

فلما بدا للعلماء ان الاثير مستقرٌ قالوا : اذن نستطيع ان نتبين سرعة الارض فيهِ . ولكننا نعلم اننا لا نستطيع ان نتبين سرعة جسم ما الاَّ بالقياس الى جسمٍ آخر . فكيف نستطيع ان نتبين سرعة الارض بالقياس الى الاثير المستقر ؟

المقرّر ان الضوء يسير في الاثير، فاذا بعثنا بشعاعة ضوءٍ في اتجاه حركة الارض وجب ان تنقص سرعة الضوء الظاهرة ، لانهُ لا بدَّ من طرح سرعة الارض من سرعتهِ ، لأنهما سائران في اتجاه واحد

من هنا نشأت تجربة ميكلصن ومورلي المشهورة . فتعذّر عليهما ان يتبينا بها سرعة الارض في الاثير ، فظنَّ اولاً ان الآلات التي استعملاها لم تكن على جانب كاف من الدقة . ولكن هذه الآلات كانت شديدة الاحساس يستطيع الباحث ان يتبين بها حركة دقيقة أدق من حركة الأرض حول الشمس . ثم أُعيدت هذه التجربة ، أعادها ميكلصن نفسهُ بعد وفاة زميله واعادها غيرهُ كذلك ، فلم يظفر أحدٌ بما يدلُّ على حركة الأرض — الاَّ عالم يدعى دايتون ملر — فتعدَّدت أساليب التفسير الى ان جاء اينشتين بنظرية النسبية الخاصة ففرض فيها ان سرعة الضوء في الفضاء ثابتة لا تتغير ، وانها مستقلة عن حركة مصدرها ومشاهدها . ولذلك لا يمكن تبيُّن حركة الارض في الاثير عن طريق الاختلاف في سير شعاعتين من الضوء احداها سائرة في اتجاه الأرض والأخرى في اتجاه معامد للاوّل

وكذلك فقد الاثير اخرى الصفات الميكانيكية التي اسندت اليهِ

والواقع ان الاثير لم يكن يوماً ما حقيقة اقيم الدليل على وجودها ، بل كان يتصف بخواص تناقض خبرتنا العملية ، وهو الآن في نظرية النسبية فرض لا ضرورة لهُ

ونختم هذا التلخيص بكلمة للسر اوليفر لدج قال : « صحيح اننا نستطيع ان نمضي في الحساب الطبيعيّ والاكتشاف العلمي من دون ان نستند الى الاثير ، ولكن اذا اردنا ان نتفلسف وجدنا انهُ لا مندحة لنا عن ان يتصف الفضاء بخواص طبيعية وانهُ جدير بشيءٍ اكثر من اسم هندسيّ » !

معلم مصري ينظر في

تقرير هادو (١)

واصلاح التعليم في انكلترا

لعلي حسن الهاكع

عرف عن الانكليز عدم النزوع الى التغيير المفاجيء العنيف، وها هي الثورات السياسية والاقتصادية تعصف بأنحاء العالم، فلم ترحم قوماً ولم تسه عن امة الا وعبثت بها ما عدا انكلترا. فهي الامة الهادئة العملية، لا تزال أمنع من أن تستهويها فكرة او نظرية، ولا تحترم الا الأمر الواقع والتجربة الناطقة. فاذا أخذت أي ناحية من نواحي حياتها السياسية والاجتماعية فلن تعثر الا على نمو بطيء وتعديل فوق تعديل. وكما يميل الانكليز الى التريث في الاخذ بالآراء الحديثة حتى يستبينوا قيمتها فانهم اذا ما أخذوا بها كانت يقيناً وديناً، اذ يضعون قوتهم كلها في دعمها ولا يتراجعون قبل تحقيقها

لذلك لم يكن عجيباً أن ينبت هذا المجتمع الناضج اقوم الآراء وامتن الحجج. أليست انكلترا خالقة النظام النيابي ومنشئة العناية بالأبدان والألعاب ومبتكرة حركة الكشافة؟ وانك اذا احتككت بأفرادهم في مجتمعاتهم او اطلعت على منتجاتهم العقلية وجدت فارقاً جلياً بين تفكيرهم وتفكير غيرهم من الامم حتى البارزة منها. وقد تجد في الصحف اللاتينية كالايطالية والفرنسية حماسة ولهيباً في اسلوب رشيق جذاب وفي الالمانية غزارة في العلم وتعمقاً في الفكرة. اما الانكليزية فهي لا تتعمق ولا تصخب وانما تبسط الحقائق المحسوسة بأسلوب عملي خالٍ من الاسهاب والتجميل. ومن هنا كان الأدب الانكليزي غير متذوق كثيراً لدى غيرهم من الامم الحالية التي لا يشبعها الا السطحي الضحضاح من الادب الذي لا يحرك الا الغرائز الفطرية. وهذا لون من ألوان التسمم العقلي

ومن هنا كانت للآراء الانكليزية في مختلف ميادين النشاط العقلي قدر ممتاز بين خاصة المفكرين فاذا ما صدر الرأي في صحيفة او مجلة تناولته اسلاك البرق بالاهتمام لما عرف عن هؤلاء القوم من الأناة والتريث ووزن الحقائق. لذلك أحث قومي على التزود من الآراء الانكليزية الناضجة في مختلف الشؤون

وكرجل مرب يدهشني حقاً ان يصدر في عام ١٩٣١ تقرير لجنة — برآسة السير هادو «Sir Hado» — كلفتها الحكومة فحص حالة التعليم العام بانكلترا، ثم لا تقرأ كلمة عنه في صحفنا. فبعد جلسات كثيرة عقدتها اللجنة واتصال مباشر بكبار علماء النفس والتشريح ورجال الاعمال اصدرت اللجنة تقريرين طافحين بزبد الآراء النظرية والعملية. وقد اخذت الحكومة فعلاً بجل ما جاء في التقريرين حتى اصبحت روح التقريرين هي المتسلطة في ميدان التربية الانكليزية

Hadow Report (١)

ولضيق وقتي لم افرغ من قراءة التقرير الخاص بالتعليم الابتدائي الاَّ منذ بضعة شهور ، فاذا به كنز قيِّم لا يقتصر على آراء أئمة المربين بل يتناول آراء كبار المفكرين وعلماء النفس والتشريح ورجال الاعمال الذين استطلعت اللجنة آراءَهم في سبيل اصلاح التعليم العام . وانني لا ارى مندوحة عن جلاء نقطة هامة في هذا الصدد . وذلك ان التقرير خاص بالمدارس الابتدائية الانكليزية، وفي انكلترا وفي سائر بلاد العالم لا تجد مرحلة في التعليم العام اسمها التعليم الاولي واخرى اسمها التعليم الابتدائي كما هو الحال في مصر مع الاسف المرّ بل هناك مرحلة واحدة تسمى في بلد « ابتدائية» وفي آخر « اولية» وفي ذلك ضمان لوحدة الامة وعدم التحطيم بين طبقاتها وألوان حياتها كما في مصر

ومع الفارق العظيم بين مستوى التعليم في انكلترا وبينه في مصر فانك تجد مقابلات كثيرة بين الحالين ففي كثير من المواضع تستعرض نفس المشكلات المصرية كمشكلة تعليم اللغتين الثنائيتين في ويلز وهي تقابل مشكلة اللغات الاجنبية هنا . ومما يزيد في قيمة هذا التقرير استناده الى ملحقين علميين نفيسين في ذيله يشملان أحدث وأقوم ما وصلت اليهِ الحقائق العلمية بشأن الطفل وطبيعته. فالملحق الأول خاص بجسم الطفل من الولادة الى سن الانتهاء من التعليم الابتدائي من الوجهة التشريحية والفسيولوجية ، والملحق الثاني يتناول خصائصه النفسية . ولما كانت مهمة اللجنة البحث في مناهج الدراسة وخاصة ما اتصل منها بالاوساط الريفية، كانت تلك الآراء عظيمة القدر للباحثين من المصريين

يقول التقرير في المقدمة « ان المشكلات عديدة وخطيرة »

فالمدرسة محيط طبيعي ومحل تربية للعقل وجمعية روحية في وقت واحد

ويعجبني من التقرير انهُ بعيد عن الرجعية بعده عن الثورية ، اذ لم يغفل أحدث الأساليب في التربية ، وأخذ منها الكثير الذي طبقته الحكومة الانكليزية ومجالسها المحلية

واني أحثُّ اخواني المدرسين ، وبصفة خاصة القائمين بشئون التعليم في مصر كباراً وصغاراً على التزود من هذا التقرير النافع إذ انهُ كما قلت خلاصة دسمة ثمينة للنظريات العلمية ونتائج التطبيقات العملية لها كما قطعت بهِ التجربة والاختبار. فهو لذلك يغني من لا يتسع له الوقت عن قراءة عشرات من الكتب . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان في استعراض مشكلات التربية كما استعرضها واضعو التقرير من جهابذة ، خير مرشد لنا في معالجة مشكلاتنا وبالاخص في الطريقة العلمية النافذة التي تتطلبها مثل هذه المعالجة

يبدأ التقرير بمقدمة عن مهمة اللجنة ، يتلوها استعراض تاريخي لمشكلة التعليم الابتدائي بانكلترا وتطوراتها ، ثم فصل علمي ممتع عن نموّ جسم الطفل الى سن ١١ آخذاً بأحدث الآراء كالرأي القائل بنموّ الطفل في مراحل محدودة على نوعين امتلاء ثم انفراد ثم امتلاء وهكذا . ومن اهم ما جاء في هذا البحث ان مرحلة التعليم الابتدائي تتفق مع مرحلة امتلاءٍ (filling out) ويسميه البحث «تمكيناً» أي (Consolidation) تستطيع فيه التربية الحقة ان تصلح العيوب الجسمانية

واعداد الجسم للمرحلة الانفرادية الثالثة في البلوغ عند ما يكثر استعداده للامراض المعدية الخطيرة كما أثبتت الابحاث التشريحية الاخيرة . ان عظام الكتف والحوض لا يتم نموّها ولا تحكم مفاصلها الاّ في سن ١٦ سنة تقريباً وبذلك يتبين الخطر من اجهاد الجسم في حركات عنيفة قبل بلوغ هذه السن. وقد اثبتت الابحاث أيضاً ضرورة الراحة الجسمانية وبخاصة بعد تناول الطعام ، وكيف ان الطفل يجنح بالغريزة الى جلسة التربع (Squatting) .

ومما هو جدير بالذكر ان واضعي التقرير لزموا ، في المواضع التي لم يأت العلم فيها بجديد ، جانب الصراحة باقرار العجز عن المعرفة ، كتلك المفاجأة الهامة بالاقرار بعجز العلم الى الآن عن معرفة معظم التفصيلات عن المخ وأدوار نموه وعلاقته المحكمة بالاحوال النفسية والعقلية . وحثه علماء التشريح والفسيولوجيا على توجيه عناية كبيرة خاصة الى هذه الناحية الرئيسية

ثم يلي فصل عن نموّ عقل الصبي في نفس الفترة مع التعرض المستمر لناحية التربية التطبيقية applied وهو يأخذ اجمالاً بالرأي الحديث الذي يقول به الاستاذ Spearman وهو ان التفكير ادراكٌ للعلاقات . ويشيد بالتفكير الاستنباطي inductive فيقول بأنهُ اسهل للطفل من التفكير القياسي deductive . اي عكس ما هو مألوف . ثم يأتي فصل نفيس عن الناحية الذوقية aesthetic والعاطفية في الطفل ثم بحث يتناول علاقة المحيط بالصبي ومن ذلك يخرج الى بحث سن التخرج في التعليم الابتدائي وعلاقته بالتعليم الاولي من جهة والتعليم الذي يتلوه من جهة اخرى ، ويحث التقرير على ضرورة التعاون والاتصال الدائم بين القائمين بالتعليم في هذه المراحل بعضهم ببعض ، ويقرر بأنه مع التسليم بضرورة جعلها مدارس منفصلة احتراماً لطبيعة النشء المتباينة عنها في الاخرى ، فان النمو المستمر والانسجام يتطلبان هذا الاتصال ويتلو ذلك فصل في توزيع التلاميذ على الفصول وادارة المدارس

ثم ينساب الى فصل ممتع جمع بين العلم والتجربة القيمة عن ضعاف العقول مقسماً اياهم الى طبقات متفاوتة في الضعف ويرى ضرورة وضع الضعاف في فرق معزولة تحت عناية خاصة مبنية على دراسة للضعف العقلي من جانب القائمين بتدريسهم . ولم يكتف بذلك بل ابان اسباب ذلك الضعف وضرورة عزل الطلبة من مبدأ الدراسة وبذلك يُقتصد مجهود عظيم مع كل من الضعفاء والعاديين ويحسن توجيه الصبيان الى المهنة المقبلة . ويرى التقرير عدم الاقتصار على تخصيص فرق خاصة بل مدارس منفصلة للممعنين في الضعف العقلي اي الذين يقربون من البله idiocy

ثم يتلو ذلك فصل عن المنهج ثم فصل عن توزيع العمل واعداد المدرسين ثم فصل عن بناء المدارس واثاثها ووسائل الايضاح ويحث في الاخذ بالوسائل الحديثة من سينما وراديو الخ

ويلي ذلك فصل ممتع في الامتحانات وفيه يأخذ التقرير بأحدث الآراء من حيث الاخذ باختبار الكفاءة والمقدرة لا المعلومات Capacities not attainments وان يكون النقل على هذا الاساس . ويسمح بأن يعاد النظر بين حين وحين في حالة التلاميذ كأن ينقل تلميذ سبق تقرير اعادته . ونص

التقرير على التسهيل في الامتحانات كأن يقصر اختبار الدخول في المدارس الثانوية على اللغة والحساب (هذا رأي المستر مان في تقريره الممتع عن التعليم في مصر) وبذلك يُجتنب ذلك الارهاق وتلك القدسية الصناعية التي اسبغت على الامتحانات العامة . وقد تعرض لاختبارات الذكاء الجمعية group tests فوصل الى انه مع التسليم بفائدتها لا يرى الاقتصار على الارتكان عليها

وقد اتى بشيء جديد حقّاً عن الاختبارات الشفوية ذلك ان الاختبارات المألوفة التي يتيه المختبر فيها مع الطالب كما تسوقه خواطره لا فائدة منها ، بل يجب ان يكون الشفهي اختباراً أعدّت اسئلته ونواحيه . ويرى فائدة كبيرة في الاختبارات الفردية للذكاء كوسيلة منتجة لتوجيه الطالب في حياته الدراسية . وبذلك قضى هذا التقرير قطعيًّا على الامتحانات كما هي شائعة ويرى ان يستبدل بها في تقرير مستوى المدارس والتلاميذ تفتيش دقيق نزيه . ثم يتلو ذلك تقرير تفصيلي عن مواد المنهج مادة مادة وهي صفحات جدير بكل معلم ان يقرأها بعناية لانها زبدة قيمة لاحدث الابحاث كما سبق ان بينت . وعلى ذكرها يحسن ان نبين ان المناهج في انكلترا ليست موحدة كما في مصر . اذ لكل مجلس مقاطعة بل لكل مدرسة ان تضع منهجها غير متقيدة الا بحدود عامة

ويأخذ التقرير في المناهج بكثير من النظريات والطرق الحديثة ويدمجها بدون ازعاج الأنظمة القائمة . ولما كان هذا الفصل ممعناً في التفصيل لا أرى لبسطه محلاً هنا ولعلي اعرض له في فرصة اخرى وانما لا يفوتني التنويه بما اجمعت عليه المذاهب الحديثة وما اقره التقرير من ضرورة الاخذ بالعمل قبل المعرفة action . ولذلك يقرر ضرورة الاتصال بالحياة وشئونها في كل شيء والترابط بين المواد بعضها ببعض في ذلك الاتصال ويعلق شأناً عظيماً بالأعمال اليدوية كدروس الاشغال والرسم وتربية النباتات والحيوانات وعمل نماذج لمختلف المشاهدات من اعمال وصناعات وسائر ما يتصل بالحياة العملية حتى يشبّ الصبي مندمجاً في بيئته ، نافعاً لمجتمعه ، خبيراً بالحياة ، بعيداً عن اوهام النظريات والمعلومات التي تتطاير بمجرد فوات الامتحان

وهنا يسترعي نظرنا عيب رئيسي لايزال قائماً في مصر . هو ان الطالب في مدارسنا الابتدائية يُوَجَّه من قِبَل عدة مدرسين كلٌّ يوجههُ في ناحية معينة اسمها علم . فهذا يدرسهُ العربية وآخر الانجليزية وآخر الحساب وهكذا ، وبذلك يُقضى على وحدة الملاحظة والتوجيه وما يتبع ذلك من ربط وانسجام بين سائر المواد ويتسلط على الناشيء اكبار واعظام للمعلومات فيشحن حافظته بحقائق كل مادة . ويصبح الامر حشواً لا تربية حقة

هذا تنويه بسيط بذلك التقرير النفيس الذي لم احظ بأشارة ولو بسيطة اليه في مجلة او صحيفة علمية او ادبية !! واني اطلب الى اخواني المعلمين عامة والى كبار القائمين بالتعليم خاصة ان يقرأوه وينعموا النظر فيه . ولعلَّ وزارة المعارف تعنى بترجمته وتوزيعه على المعاهد . ففيه فائدة لا تقدر لاستخلاصه زبدة الحقائق العلمية واحتوائه على نظرات ثاقبة عملية في احدث الطرق والاساليب في التربية

روح الصومعة[1]

في معترك الحياة المادي

سادتي :— تهجع روح الشعب دهراً او دهوراً ، ثم تستيقظ . ويلبث الشعب امينا مستقراً ثم تغمره اليقظة كموجة طاغية تدفعها ريح عاتية ، وتعصف بحياته المستتبة كفتنة مجتاحة ، وبنظامه المستقر كاعصار مكتسح . واذا الامة الهاجعة المطمئنة تتلظى بحمى الحياة شيباً وشباناً ، نساءً ورجالاً تهب جذوتها من اشتباك النصال آناً او تقبس شعلتها من منائر الآداب وصروح العلم آونة اخرى

وشد ما اخشاه ايها السادة ، ان يمنعنا اندفاعنا في تيار الحياة العصرية ، والسير مع رياحها ، والاخذ بكل ما يثير ويدهش من بدائعها ، عن التريث للتأمل في هذه المظاهر . اهي تتصل باعماق النفوس وتنبثق من قراراتها ، فيلقنها الجيل الحاضر للجيل المقبل ، ويترك الآباء الامانة في اعناق الابناء ، ام هي مظاهر تطفو على وجه الحياة ، كالحباب على سطح الكأس ، ولا تتصل بجذورها ؟

ان قراءتي للتاريخ ، ولعبر العمران ، تدلني على ان المحك في كل ذلك هو امر واحد

المحك هو الحرية الروحية ، التي يدفعنا اليها اتساع افق النفس ، وسمو معاني الحياة ، والطموح الى غايات من الرفعة والنبل والجمال لا يشتاقها الاّ الانسان الكامل . ثم ان الحرية الروحية ، وما يلازمها من الحرية الفكرية ، أساس كل نهضة ، ولا اقول سياسية او اجتماعية او علمية ، لأن هذه المظاهر ، انما هي نواح لحقيقة خالدة ، ولا يمكن ان تجلى هذه الحقيقة ولا ان تكمل تلك النهضة الاّ اذا اندمجت هذه المظاهر بعضها ببعض واتصلت باعماق النفوس

قد يقال ان التفكير الحر يفضي الى تراخ هنا وانحلال هناك وانقلاب وفوضى هنالك . اما انا فأقول : لا تسألوا عما يفضي اليه التفكير الحر ، بل دعوه يسير ، يقاوم ويقاوم ، وتصطدم حريته بحريات اخرى ، وثقوا بأن النصر النهائي لا يكون الاّ للفكر الصحيح . فاصطدام الافكار ينقيه ، والاختبار يمحصه ، والتنازع على البقاء في عالم الفكر كالتنازع في عالم الاحياء ، يستبقي الاحسن والاصلح

وليس المقام مقام تحليل لنهضتنا الشرقية ، ولا هو مقام موازنة نبغي منه التعرف على مكانة هذا الركن الاساسي من اركان النهضات ، في حياتنا ، فأنا اعرف وانتم تعرفون اسماء عشرات من المفكرين الاحرار ، احياءً وامواتاً ، قد عانوا ما عانوا في سبيل هذه الحرية ، فلم يلينوا ولم تغمز لهم قناة . ان ذكريات هذا الاضطهاد الذي لقوا ، او تلك المقاومة التي وعّرت امامهم السبيل ، لن تذهب ادراج الرياح ، في امم تتوثب الى النور ، وتتلظى بحمى الابداع في ميادين الجهاد الانساني . كلاّ ورب الحق ! ان

(١) من الخطبة التي القاها رئيس تحرير المقتطف على جمهور كبير من اعيان نابلس ووجهائها في لوكاندة فلسطين بدعوة من الوجيه قدري حافظ طوقان

الذاكرة الشعبية تختزن هذه الذكريات ثم تطلقها قوة تدفع الى الامام،وحكمة ترشد الى الطريق القويم

فروح الشعب تهجع ثم تستيقظ . ويلبث الشعب آمناً مستقراً ، ثم تغمره اليقظة كموجة ، وتعصف بحياته كفتنة ، وبنظامه كاعصار ، فتهز حياته من اركانها

قال الدكتور بطلر، رئيس جامعة كولومبيا من سنوات في مقال جليل ، ان مركز الثقل في العمران الحديث،انتقل من سياسة المبدأ الى سياسة المنفعة ومن العناية بمشكلات الحرية الى العناية بمشكلات الثروة ولو ان الناس يعنون في مقدمة ما يعنون به، بالشعر والفلسفة والحياة الروحية،لكان اعظم الاحياء واعلاهم مقاماً واعظمهم نفوذاً، هم الشعراء والفلاسفة والحكماء ... أما انهم ليسوا كذلك فدليل على روح العصر

هذا حكم غربي على روح الحضارة الصناعية الاقتصادية الغربية التي تكاد تكتسحنا

أما نحن القائمين على القنطرة التي تصل بين الشرق والغرب،حيث يلتقي المشرقان والمغربان، فجدير بنا ان نمهد لجعل هذه البقاع المباركة ، مهداً لنهضة روحية غرضها اخضاع وسائل المادة لاغراض الروح العليا ، فنجعلها وسيلة لبناء الحياة الأدبية السامية في الافراد والامم، ورابطة تحكم ما بين الشعوب بصلة الصداقة والتفاهم والتعاون لتحقيق تلك الاغراض

هذا يجب ان يكون لبّ الثقافة الشرقية الجديدة ، والى هذا الهدف الاسمى يجب ان نتجه

ولكن الشقة طويلة . والمخاطر جمة ومهاوي السقوط تغوينا . ننظر الى حضارة الغرب فنؤخذ بما فيها من ابداع ونخلد الى نفوسنا فنقول بلسان عالمها الصناعي — ولا أقول بلسان عالمها الفيلسوف: —

ما أعجب الانسان . ينقذ جماهير العمال من العمل المضني بآلة. ويبلغ السدم القصية بنظارة . ويطير الى القطبين على جناحين من النسيج والحديد. ويجلس في القدس فيصغي الى لندن او يخاطبها وغداً قد يراها . اننا نؤخذ بكل هذا . ولكن أرضى ان نغدو عقولاً متحجرة تديرها آلات صنعتها آلات اخرى ؟

قد يناجي الشباب نفسهُ فرحاً هازجاً وهو قابض على زمام سيارة : لاسيرنَّ بسرعة مائتي ميل الى القمر . . كل ما تفعله يا أخي رهن الروح التي تقبل بها على عملك . أتتقدم اليهِ كقطعة مندفعة من الانسانية لا تعلم من اين أتت ولا الى اين تقصد ولا لماذا تسير ؟ ومتى وصلت الى القمر فماذا يمثل لك القمر اذا لم تأخذ اليهِ الاّ عقلاً ضيقاً وروحاً مستعبدة تحيط بها كرة او اسطوانة من الفولاذ؟

اننا نؤخذ اذ نرى الاعلوبة الميكانيكية ! ! أفنكتفي بذلك أم نؤثر ان نكون جميعاً ،الرجل الذي يحلم احلاماً ويرى رؤى ويظل يحلم ويرى حتى تصير احلامه ورؤياه قواعد واصولاً تقوم عليها صلته باخيه الانسان ! ليس في هذا الكلام دعوة الى الاعراض عن الغرب، ولكن فيهِ دعوة الى اخضاعه . انا لا اقول اعرضوا عن العلم، بل اقول ارتفعوا بالعلم الى مستوى الروح حتى يندمج الاثنان في سبيل الخير العام . أنا لا اقول اصدفوا عن الصناعة بل اقول يجب ألاّ تلهينا الصناعة عن قوى الابداع التي وراءها. انا لا اقول لكم اقبعوا في صوامعكم واعتصموا بقمم جبال بل اقول انزلوا الى ميادين الحياة ولا تنسوا روح الصومعة في التغلب على سخائف الحياة ، او روح القمة التي تشرف على السهل الفسيح

كذلك علمنا أنبياؤنا في قديم الزمان . وكذلك يجب ان نعلم العالم اليوم

تاسيس القاهرة

— ٢ —

بقلم الكابتن كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية

Capt. K. A. C. Creswell

ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿ اسوار القاهرة وابوابها ﴾ يمكن تتبع حدود سور جوهر في اكثر اجزاء دائرته بكثير من الضبط بفضل المعلومات التي امدَّنا بها المقريزي ، ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية ،فاننا ليس لدينا تفاصيل عنهُ

ولما كانت الاعمال الاولية قد تمت في اثناء الليل وبعجلة كبيرة فقد لحظ في الصباح التالي لوضع الاسس ان هناك اضطراباً في تخطيط القصر وان الخطوط لا تسير على استقامة . وكانت هذه بلا شك حال اسوار المدينة ايضاً . ومع ذلك فقد كوّنت مربعاً منتظماً تقريباً تواجه اضلاعه الجهات الاربع الاصلية . فيواجه الجانب الجنوبي منهُ الفسطاط ويسير الغربي محاذياً للخليج . ويواجه الشرقي المقطم والشمالي الخلاء . وكانت هناك سبعة ابواب كما يلي :

ففي الجنوب باب زويلة المزدوج الاقواس : وفي الغرب باب الفرج وباب السعادة : وفي الشمال باب الفتوح وباب النصر : وفي الشرق باب البرقية وباب القراطين الذي سمي فيما بعد بالباب المحروق

ولا يوجد الآن شيء من هذه الابواب ولكن يمكن تعيين مواقع الكثير منها بكثير من الدقة كما بين ذلك رافيس وكازانوفا

﴿ باب زويلة الاول ﴾ يمكن تحديد موقع باب زويلة الاول اعتماداً على ما رواهُ القلقشندي والمقريزي [1] من ان قسماً منهُ كان لا يزال موجوداً في عصره بالقرب من مسجد سام بن نوح . واذا اجتاز الانسان باب زويلة الحالي وسار تاركاً مسجد المؤيد على يساره فانهُ يجد نفسه امام سبيل تركي من العهد الاخير (سمي مدرسة العقادين على خريطة مصلحة المساحة $\frac{1}{500}$) وفي ركن هذا السبيل القريب من باب زويلة باب صغير لمسجد سام بن نوح وهو يعطينا نقطتنا المحددة لموقع باب زويلة الاول

(١) « كان باب زويلة عند ما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح. فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذي بقي منه الى اليوم عقد ويعرف بباب القوس فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الالسنة ان من مر به لا تقضى له حاجة . وقد زال هذا الباب ولم يبق له اثر اليوم » مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٩

﴿ باب الفرج ﴾ لا يعرف بالضبط موقع باب الفرج وقد جمع كازانوفا ما ورد في المقريزي عن هذا الباب كما يلي

١ — « كان في الجانب الغربي من القاهرة وهو الجانب الذي يواجه الخليج الكبير بابان : احدهما باب السعادة والآخر باب الفرج »

وهناك اشارات اخرى في خطط المقريزي الى ان هذا الباب كان يقع في الجانب الغربي

٢ — « رَبْع السلطان خارج باب زويله بين باب زويله وباب الفرج وتعرف هذه البقعة الآن بهذا الاسم ويطلقون عليها اسم تحت الربع » ولا يزال تحت الربع موجوداً

٣ — « وفي منتصف جمادي الثانية ٨١٨ بدأوا بهدم السور الحجري بين باب زويله وباب الفرج »

ويضيف كازانوفا ان شارع سكة الشيخ فرج — الذي ربما كان تذكاراً لهذا الباب — موضح على خريطة القاهرة في عهد نابوليون (١٧٩٨) بجانب شارع تحت الربع بقرب الخليج

ومن ذلك نستخلص انهُ كان يقع بالطرف الجنوبي من الجانب الغربي وليس كما يضعه كازانوفا بالطرف الغربي من الجانب الجنوبي على عكس رواية المقريزي التي كررها في كتابه اربع مرات انهُ كان يقع في الجانب الغربي

ولنحاول الآن تعيين موقع هذه الزاوية من السور فاذا رسمنا خطاً وهمياً متجهاً الى الغرب من مسجد سام بن نوح فاننا نجد جنوبيه مباشرة شارعاً يسمى القسم الغربي منهُ سكة النبوية والقسم الشرقي شارع الاشراقية ، وعلى شمال هذا الخط الوهمي نجد عدداً لا يحصى من الشوارع الصغيرة المسدودة والازقة المغلقة بدلاً من ان تفتح على شارع سكة النبوية . فلماذا تقف كل هذه الشوارع والازقة الملتوية مقفلة عند هذا الطريق

اننا نرى انها تقف جميعاً امام سور جوهر الذي كان يمتد جنوبيها وان تخطيط الشوارع قد احتفظ بالنظام الذي كان عليهِ منذ ذلك الوقت الى الآن

ولدينا دليل آخر في شيء مشابه لهذا هو انهُ لا توجد فتحات مطلقاً في الجانب الشمالي من شارع تحت الربع الذي نعرف انهُ كان يسير خارج السور الجنوبي الذي انشأهُ بدر الجمالي ، وان كان هذا السور قد ازاله المؤيد منذ خمسمائة عام

فاذا قبل هذا الرأي ، وكان صحيحاً ، فان السور الجنوبي كان لابد أن يتصل بالسور الغربي في المكان الذي تشغله الآن محكمة الاستئناف ويكون موقع باب الفرج في هذه النقطة

﴿ باب السعادة ﴾ يضع رافيس باب الفرج وباب السعادة في الجانب الغربي ، ولكنهُ يجعل الباب الاخير بقرب الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة . ولما كان المقريزي يتكلم عن ربع السلطان خارج باب زويلة ، بين باب زويلة وباب الفرج ، فمن المؤكد ان هذين البابين كانا متجاورين ، وان باب السعادة كان ابعد منهما ، وبمعنى آخر كان موضعه الى جهة الشمال اكثر من باب الفرج

ويضع كازانوفا باب السعادة بالقرب من الطرف الجنوبي للسور الغربي لما رواه المقريزي من ان هذا الباب قد سمي باب السعادة تيمناً باسم سعادة بن حيان الذي قدم من مراكش بعد ان بنى جوهر القاهرة ونزل بالجيزة . فذهب جوهر لمقابلته وتلا ذلك ان دخل سعادة بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب سنة ٣٦٠ (مايو سنة ٩٧١) وعسكر بها

ويرى كازانوفا ان سعادة لابدَّ قد عبر النيل الى الفسطاط على الجسر الذي كان مقاماً من المراكب ثم سار الى القاهرة من الجنوب ولدخوله من باب سعادة — الذي نعرف انهُ كان في الجانب الغربي — يرى كازانوفا ان هذا الباب لا بد كان قريباً جداً من الطرف الجنوبي لهذا الجانب

ولو كان سعاده بن حيان عازماً على دخول القاهرة من اول باب يلقاه في طريقهِ لكان هــذا الاستنتاج صحيحاً

ولكننا نعلم انهُ قد امتنع من الدخول من باب الفرج وهو اول باب يلقاهُ

لذلك فنحن لا نوافق كازانوفا على رأيهِ . اذ من الواضح انهُ قد اختار باب سعادة لانهُ اصلح الطرق الموصلة الى قصر الخليفة او الى القصور الاخرى التي كان يدعوه الواجب الى التوجه اليها

ولا يزال يوجد شارع يسمى درب سعادة يحفظ لنا ذكرى هذا الباب ونظراً لان هذا الشارع يسير موازياً للخليج من باب الخلق الى مسجد السلطان جقمق فربما كان موقع هذا الباب الى جهة الشمال بالقرب من هذا المسجد

﴿ باب الفتوح الاول ﴾ يقول المقريزي انهُ كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الاول اجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية وان هــذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من جنوبيّها دون جدار الجامع الحاكمي [١]

وقد بدىء في بناء هــذا المسجد في رمضان سنة ٣٨٠ (نوفبر — ديسمبر ٩٩٠) وكان خارج أسوار ذلك العهد

ولذلك فباب الفتوح الاول لا بدَّ كان يقع قريباً من ركن هذا المسجد الغربي

﴿ باب النصر الاول ﴾ كان يقع باب النصر الاول قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد روى المقريزي [٢] انهُ رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربي للمــدرسة القاصدية حيث كانت توجد رحبة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لمسجد الحاكم

وهذه المدرسة لا توجد الآن ولكن يظهر على خريطة القاهرة في عهد نابليون التي رسمتها البعثة العلمية سنة ١٧٩٨ مسجد يسمى مسجد الشيخ قاصد . فلذلك نرى ان موضع هذا الباب كان بشارع باب النصر قريباً من الركن الجنوبي لمسجد الحاكم . ويظهر ان تخطيط هــذا الشارع واتجاهه بقي على حاله ولم يتغير

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١١ (٢) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٠

﴿ باب البرقية ﴾ ان تحديد موقع باب البرقية امر صعب التحقيق لأن الفصل الذي عالج فيه المقريزي ابواب القاهرة يقف عند عنوان باب البرقية

ويقول كازانوفا ان الفصل الخاص بباب البرقية غير موجود في جميع مخطوطات المقريزي التي رجع اليها في باريس بل ان بعض هذه المخطوطات لا يوجد به حتى عنوان هذا الفصل

ولا يوجد الآن باب بهذا الاسم . كما انهُ لا يوجد على خريطة القاهرة في عهد نابوليون سنة ١٧٩٨ باب بهذا الاسم ايضاً . اضف الى ذلك اننا لا نعرف بالضبط موقع الجزء الشمالي من السور الشرقي

﴿ باب القراطين ﴾ يمكن تعيين موقع باب القراطين تعييناً أقرب الى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حلّ محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق (١) وقد اطلق عليه هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الامير اقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢هـ (٦ اكتوبر ١٢٥٤م) ففي اثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر اذ كانت تغلق ابواب مدينة القاهرة في الليل . فأوقدوا النار في الباب « حتى سقط من الحريق » وخرجوا منه ، ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق

ونظراً لان المقريزي يخبرنا انهُ كان يوجد حتى سنة ٨٠٣ هـ (سنة ١٤٠٠—١م) جانب كبير من السور الذي بناه جوهر بالطوب بين باب البرقية ودرب بطوط . وان هذا السور كان يبعد خمسين ذراعاً خلف سور صلاح الدين

فلذلك نقرر ان موقع باب القراطين الاول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي

واذا رسمنا خطًّا متجهاً نحو الشرق من مسجد سام بن نوح الى نقطة تقع تماماً على امتداد الموقع الذي قررناه آنفاً لباب القراطين الاول فمن المحتمل ان نكون قريبين جدًّا من سور القاهرة

ومن المهم ان يلاحظ ان هذا الخط يمكن رسمه بين نهايات عدد من الشوارع والازقة المغلقة التي تقع على جانبيه كما رأينا عند ما رسمنا خطًّا متجهاً الى الغرب من المسجد نفسه . ولا يخترقه الاَّ شارع واحد متعرج هو شارع حيضان الموصلي الذي يقع فيهِ مسجد الامير سودون القصروي

***

﴿ باب القنطرة ﴾ بعد ان مضى عامان على تأسيس القاهرة اضاف جوهر باباً آخر هو باب القنطرة(٢) الذي سمي باسم القنطرة او الجسر الذي أقامه فوق الخليج ليوصل المدينة بميناء المقس حين تقدم القرامطة في شوال ٣٦٠ هـ (يوليو — اغسطس ٩٧١م)

ونضيف نحن ان جسراً يدعى القنطرة الجديدة كان يوجد هنا حتى ردم الخليج في نهاية القرن

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٣

(٢) المقريزي ص ٢١٣ جزء ثان

التاسع عشر . وقد جمع كازانوفا ما ورد بالمقريزي عن هذا الباب . واني اذكره هنا مع تغيير يسير في الترتيب حتى يكون اقرب الى الوضوح والتسلسل المنطقي

١ — « ان خط باب القنطرة كان يعرف باسم المرتاحية والفرحية » وهذا الحي الأخير تبعاً للمقريزي هو نفسه سوق أمير الجيوش

٢ — «ويوصل سوق امير الجيوش الى باب القنطرة» ويخبرنا ابو المحاسن ان اسم امير الجيوش قد غير الى مرجوش فنستنتج من ذلك ان باب القنطرة كان يقع في النقطة التي يقطع فيها هذا الشارع الخليج . ولا يزال يطلق على هذا الشارع الاسم الاخير أي مرجوش

٣ — « والى جانب باب الفتوح يقع طريقٌ يوصل لحارة بهاء الدين وباب القنطرة » وهذا الحي تبعاً للمقريزي يقع بين باب الفتوح القديم وباب الفتوح الجديد أي بين السورين القديم والجديد . وفي الحقيقة يسير شارع بين السورين متجهاً الى الغرب من الركن الجنوبي الغربي لمسجد الحاكم حيث وضعنا باب الفتوح الأول

وأهم من ذلك انهُ يميل بزاوية قائمة عند طرفه الغربي ليلتقي بسوق مرجوش عند نفس النقطة التي قررنا انها كانت موضع باب القنطرة . وفي نفس هذا الموضع في الجانب الشمالي من نقطة اتصال الشارع بالخليج وجد باتريكولو اثناء عمليات الحفر التي باشرها منذ اثني عشر عاماً قاعدة البرج الشمالي للباب مع واجهة نصف دائرية شبيهة بالابراج التي تقع الى جانب باب الفتوح وباب زويلة

ويرى في القسم الخلفي من البرج الجزء الاسفل من سلم حلزوني والى الشمال منهُ وعلى بعد كبير من سطح الارض الحالي يوجد الجزء الاسفل من حائط حجري يسير شمالاً موازياً لشارع الخليج المصري او بمعنى آخر موازياً للخليج القديم

***

﴿ باب حديدي منقول من الفسطاط ﴾ لحظ ريتمر انهُ كما كان العرب مغرمين عند انشائهم مدناً جديدة في العراق بنقل ابواب المدن القديمة الى المدينة الجديدة فكذلك فعل جوهر حين انشأ القاهرة اذ نقل اليها باباً حديدياً من قصر الامارة بالفسطاط . ولكننا لا نعلم بالضبط اين وضع هذا الباب . ومن المحتمل ان جوهر كان يقصد بذلك ان ينافس المهدية التي كان لها كما روى البكري بابان من الحديد . وربما كان اشهر الامثلة لوضع ابواب حديدية للمدن هو ما يأتي : —

استولى الخليفة المعتصم على عامورية سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) بعد حصار دام ٥٥ يوماً سويت بعده المدينة بالارض ثم اخذ باب المدينة الى سرَّ من رأى وبعد ان هجرت سرَّ من رأى اخذ الباب الى الرقة . وفي سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤م) ارسله سيف الدولة الى القرامطة ليسد حاجتهم الى الحديد . ثم نسمع بعد ذلك ثانية انهُ استخدم في حلب . استخدمه الملك الناصر يوسف ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) عند ما اعاد اصلاح باب قنسرين . وعند ما اخذ المغول حلب ١٢٥٨ كان هذا الباب اول ما

نهبوه . ولكن استردّه منهم بيبرس عند ما اخذ المدينة . ثم مزق الصفائح الحديدية التي كانت بواجهته وأرسلها هي والمسامير الكبيرة المستخرجة منهُ الى القاهرة

***

﴿ الخندق ﴾ رأينا فيما سبق ان موقع القاهرة قد اختير لغرض سريع هو تغطية الاماكن القريبة من المدينة الثلاثية الفسطاط والعسكر والقطائع وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يغيرون وينهبون ويخربون السهل ويهدون الفسطاط

فتنفيذاً لهذه الخطة الدفاعية امر جوهر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة اذرع كان يتجه غرباً من المقطم الى منية الاصباغ . وقد بدىء فيهِ في شعبان ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١م) وتم حفره سريعاً وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة عقب ذلك بقليل احداها في ربيع الاول ٣٦١ هـ (دسمبر ٩٧١) والثانية في ٣٦٣ هـ (٩٧٤م) وقد استطاع القرامطة ان يعبروا الخندق في الغارة الثانية ولكنهم لم يستطيعوا ان يستولوا على القاهرة

***

﴿ الطوب المستعمل في بناء الاسوار والابواب ﴾ ليس لدينا مع — الاسف الشديد — تفاصيل معمارية عن الاسوار والابواب التي بناها جوهر الاَّ ما رواه المقريزي مما سبق ذكره من ان اللبن الذي بنى منهُ ذلك الجزء من السور الذي كان قريباً من باب البرقية كانمقاسه ذراعاً × ٢/٣ ذراع

وقد كان استعمال الطوب الكبير الحجم من خصائص العمارة قديماً في فارس وبلاد النهرين

ويقول أشر ان الطوب المبني منهُ السور القديم لمدينة نينوى كان متوسط مقاسه ١٥ بوصة وسمكه ٥ بوصات . كما شاهد بالقرب من اصفهان بقايا سور معبد قديم من معابد النار كان مبنيًّا بطوب كبير الحجم ايضاً

ورأى Ferrier طوباً محروقاً في القهان مقاسه ٢٠ بوصة × ١٥ بوصة في خرائب بلخ . بل وجد أحياناً قوالب من الطوب طولها تقريباً ثلاثة اقدام وسمكها اربع بوصات مبعثرة في قلعة فرح في سستان وذكر ايضاً طوباً تبلغ الواحدة منهُ ياردة مربعة في رود بار وپولكار على نهر هلمند

وذكر الكولونيل ث. ا. ييت انهُ شاهد طوباً كبير الحجم مستوي السطح مساحته قدم مربع وسمكه بوصتان او ثلاث بوصات في اكوام وخرائب بسستان بين مرجان وجلال أباد على نهر هامون وكذلك في جسر متخرب ذي عقدين يسمى تختپل بالقرب من پلجي

وشاهد ايضاً في جومش تيپي (او التل الفضي) — وهو تل يقع على شواطىء بحر قزوين يبلغ ارتفاعهُ عشرين قدماً تقريباً ومملوء بقوالب الطوب المهشمة — بعض هذه القوالب ومتوسط حجمها ١٤ بوصة مربعة × ٣½ بوصة

وذكر الكولونيل ايضاً اربعة جسور هي پل خاتون وماروشاك وترپل وپل خشتي (عند التقاء

نهر الكوش بنهر مرغاب) مبنية جميعها بالطوب المستوي المحروق الكبير الحجم الذي مساحة الواحدة منهُ قدم مربع

وذكر أيوان سميث طوباً محروقاً مساحته ١١ بوصة مربعة بقلعة الفتح في سستان كما تكلم عن خزان في ناد علي مبني بالطوب الكبير الحجم. وتقول Lady Shiel ان معاقل ڤيرامين التي تبلغ مساحتها نصف ميل مربع ومحصنة بأبراج على مسافات قصيرة قد بنيت بلبن كبير الحجم. ومع انهُ لا يوجد اي شك في قدم هذه الامثلة فانهُ لا يمكن تحديد تاريخها بالدقة. ولكنها مع ذلك تدلنا على ان استعمال الطوب الكبير في البناء كان واسع الانتشار

***

ولنذكر الآن بعض الامثلة المعروفة التواريخ. فقد بنى السور الداخلي لمدينة المدائن بفارس (طيشفون) على اساس مكوّن من مداميك من ثلاث طبقات من الطوب المحروق المطبوع عليهِ اسم بختنصر (٦٠٤—٥٦١ ق. م.) المأخوذ من خرائب بابل. وكان مقاس هذا الطوب ٣١ الى ٣٣ سم مربع ويتراوح سمكه من ٦ الى ٧½ سم

اما طوب السور الخارجي وبقية السور الداخلي فيبلغ حوالي ٣٦ سم مربع وسمكه ١٣ سم.

كذلك الطوب الذي استعمل في بناء ايوان كسرى بالمدائن الذي اثبت العلامة هرتسفيلد انهُ من عمل شابور الاول (٢٤١—٢٧٢م) فان مقاسه ٣٠—٣٢ سم مربع وسمكه ٨—٩ سم وفي تل مسماي التي تبعد عن المدائن بمسافة يقطعها الراكب في ساعتين وجد الكومندر جون لبناً مساحة الواحدة منه ١٤ بوصة مربعة ونوعاً آخر كبير الحجم من المحروق في القهائن. وبالقرب من دستجرد وجد هرتسفيلد سور مدينة مبنيًا بطوب مساحتهُ ٤٢ سم وسمكه ١٢½ سم. كما ان اسوار مدينة بغداد المستديرة التي اسسها المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) قد بنيت بالطوب المجفف في الشمس وبعضه مربع طول كل ضلع من اضلاعهِ ذراع وزنتهُ مائتا رطل. وبعضه طوله ذراع وعرضه نصف ذراع

وقد بني السور المحيط بمسجد الرقة سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بلبن مساحتهُ ٤٣ سم مربع وسمكه ١١ سم

اما احدث الامثلة المعروفة لنا فتوجد بشرجاز في ميل نادرى في مئذنة يرجع عهدها الى القرن الحادي عشر او الثاني عشر مبنية بالطوب المحروق الذي تبلغ مساحته ١٤×١٢×٢ بوصة

***

لذلك يمكننا ان نقرر اعتماداً على الحقيقة المعمارية الوحيدة المعروفة لنا عن سور جوهر — وهي حجم الطوب — ان هذا السور مظهر من مظاهر تأثر فن البناء في مصر بالفن الفارسي حيث ان الطوب الذي كان يستعمل بمصر الى ذلك العهد كان معتدل الحجم

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

لمحمد مظهر سعيد

استاذ علم النفس في معهد التربية وكلية اصول الدين

تناولت هذا الموضوع الهام في عدة مقالات بينت فيها كيف صارت لغة هذا العلم خليطاً غريباً من كل صنف . من فلسفي قديم ينوء تحت عظمة مجده وتاريخه القديم . الى دخيل من علوم اخرى لم تردّ عاريته . الى حديث موضوع لم يجف مداده بعد . وعرضتُ نماذج متعددة لكلمات تخيرتها من الوف مصطلحات هذا العلم في اللغة الانجليزية تظهر بأجلى وضوح مبلغ اختلاف اللغات الاجنبية — بل اللغة الواحدة — والمدارس السيكولوجية في تحديد مدلولها ، ومبلغ تضارب العلماء المصريين من رجال التعليم الذين درسوا علم النفس دراسة منظمة ودرّسوه للطلاب ورجال الادب الذين لم يدرسوه دراسة تعمق وتخصص ، في نقلها الى العربية . او اقتصار الواحد منهم على لفظ او مدلول واحد يستعمله في جميع مؤلفاته وكتاباته . كل هذا لاستطرد الى النقطة الجوهرية التي دفعتني الى خوض هذا المضمار . وهي صعوبة نقل هذه المصطلحات الى العربية ومبلغ العناء الذي سيجدهُ المجمع اللغوي في تأدية هذه المهمة اذا حاول ان يقوم بها وحده على مكانة اعضائه من اللغة وتملكهم لناصيتها . ذلك لأن الكثير من هذه المصطلحات يصعب تحديد معناهُ بكلمة عربية واحدة . ويشق نقله على المترجم الذي يعتمد الاعتماد كله على قواميس اللغة ومعاجمها وألفاظها المثبتة فيها ، من غير ان يدرس جميع فروع علم النفس دراسة محكمة مستفيضة تتناول جميع ادواره ونظرياته ومدارسه المختلفة وآراء علمائه واحداً واحداً . واذا كان هذا في الكلمات العادية المألوفة التي يستخدمها المدرسون والطلاب كل يوم والنوع الواحد من علم النفس الذي يدرّس في مدارسنا وهو علم النفس التعليمي ، فكيف يكون الحال في الكلمات البعيدة كل البعد عن القراء العاديين او التي تتناول فروعاً اخرى في علم النفس لم تصل الى علمهم بعد ولم تدخل في ميدان تأليفهم واطلاعهم . وهي داخلة لا محالة اذا اردنا ان نهض بهذا العلم ونحله المكانة اللائقة به بين العلوم كما فعل الغرب ؟

***

وما بالك بالكلمات الجديدة التي يضعها العلماء لتبيان ظاهرة خاصة درسوها هم ولم تصل بعد الى علم سائر المشتغلين بالعلم ، ولم تثبت في قواميس اللغات ككلمة Abience التي وضعها Holt للدلالة

على النزعة لتجنب زيادة التهيج العصبي او كل ما يهيج الجهاز العصبي الى اكثر من طاقتهِ الطبيعية . وعكسها كلمة Adience للدلالة على النزعة او الاستعداد لاستبقاء الحالة المهيجة

والكلمات التي لا تفيد ترجمتها الحرفية شيئاً من معناها على الاطلاق لانها حددت تحديداً خاصاً في لغة مدرسة من المدارس السيكولوجية . فعبارة Absolute Factor التي تدل في لغة مدرسة Gestalt تعلم الحيوان اختيار احد شيئين لميزة يمتاز بها عن الآخر ، لا تفيد اي معنى اذا ترجمت حرفيًّا (العامل المطلق) ولذلك نرى ان تترجم (عامل التعلم المطلق) . ومثلها عبارة Problem Achievement الدالة على الطرق التي يتسنى بها للانسان ان يقوم بكل عملية أولى من نوعها . ويجب ان تترجم (مشكلة العملية الاولى) لان الترجمة الحرفية قاصرة . والصفات التي تلحق بالمصطلحات فتحدد معناها تحديداً خاصًّا تحتاج الى شيء من التفسير فالفعل العادي Habitual Action يختلف عن الفعل الآلي Mechanical Action في ان الاول يقول بهِ الانسان من غير ضرورة بحكم تعوده القيام بهِ في احواله المناسبة كتدوير زنبرك الساعة كلما أخرجت من الجيب. والثاني يقوم بهِ الانسان بطريقة آلية من دون تفكير او شعور كامل بهِ لتعوده او اتقانه كربط الحذاء مع ان الكثير من الناس لا يفرقون بين الصفتين—عادي وآلي . وهذان بدورهما لهما معنى آخر غير معنى mechanistic و automatic

والكلمات الاخرى التي اذا ترجمت حرفيًّا لم تجعل المعنى غامضاً كالسابقة فحسب وانما هي قد تضلل القارىء . فنحن نطلق على الصورة الذهنية التي تحدث في العقل على اثر تأثره بمؤثر ما مدة طويلة after-image فاذا كانت مطابقة للاصل تماماً Positive او Homochromatic (من نفس اللون) اذا كانت لوناً. واذا كانت عكس الاصل تماماً negative وفي حالة الالوان تسمى مكملة Complementary فاللون الاخضر مثلاً يعطي بعد زواله صورة حمراء . ولا معنى لترجمتهما بالصورة الموجبة او السالبة اذ لا محل للحالة الايجابية او السلبية والأفضل ان نترجمهما بالصورة المتخلفة المطابقة اوالعكسية اوالمكملة

***

وكذلك اسماء الأجهزة والآلات التي تستطيع اللغات الافرنجية ان تضع لها كلمة واحدة ولها في الأصول اليونانية واللاتينية خير معين فالجهاز Algesimeter هو آلة قياس مقدار الألم اللمسي الناتج من ضغط الجلد بشيء مدبّب . ولا نستطيع ان نختصر الترجمة فنقول مقياس الألم لان هناك جهازاً آخر كالسابق يقيس النهاية القصوى للألم اسمه Algometer والأفضل ان نسميهما باسميهما الافرنجيين الجيزمتر والجومتر. والكلمات التي لا يمكننا ترجمتها حرفيًّا كعبارة All-or-none التي تطلق على طائفة من الاحساسات الغشومة المختلطة غير المحدودة وهي تسمية يرتاح اليها العالم الفسيولوجي السير هنري هيداك اكثر من كلمة propopathic وخير ترجمة لها الاحساسات الغشومة

والكلمات القديمة المعروفة التي اختلفت المدارس الفلسفية والسيكولوجية في تحديد معناها. مثل كلمة Apperception فقد استخدمتها مدرسة هربارت الالمانية للدلالة على تمثيل العقل للمعلومات وهضمه لها. والمدرسة الانجليزية التجاريبية Empirical ومن اقطابها ستاوت وجيمس وسلى ودارو اعتبرتها مجرد اعطاء الآثار الحسية او المواقف الجديدة معنىً محدوداً مستمدًّا من التجارب القديمة او من كتلة المدركات القديمة وزادت مدرسة هوفدغ وفنط الالمانية على هذا اندماج المواقف الجديدة بعد تحديد معناها بكتلة الآثار القديمة المماثلة لها حتى تصير جزءًا منهما. ولكن الرأي الحديث يعتبر تحديد المعنى ادراكاً حسيًّا. اما هذه العملية فهي تثبيت الموقف في الذهن بعد تحديد معناه عن طريق اندماجه فيما يماثله في المدركات القديمة ولذلك ترجمتها (تثبيت المدركات الحسية)

***

ولعلَّ القارىء المنصف بعد هذا البيان يغفر لنا ما سيجده من نقص في معجمنا لمصطلحات علم النفس الذي اضعه انا والسيدة حرمي لنؤدي شيئاً من الواجب نحو اللغة التي نقدسها والعلم الذي وقفنا حياتنا عليهِ. أما مجلة « المقتطف » الغراء فلا استطيع أن أفيها هي وصديقي العزيز الاستاذ فؤاد صروف حقهما من الشكر. جعلهما الله منارة للعلم. ولهما من العلماء كل تقدير واعجاب

السهم والاغنية

للشاعر الاميركي لونغفلو

اطلقت سهماً الى الفضاء فهوى على الارض حيث لا أدري

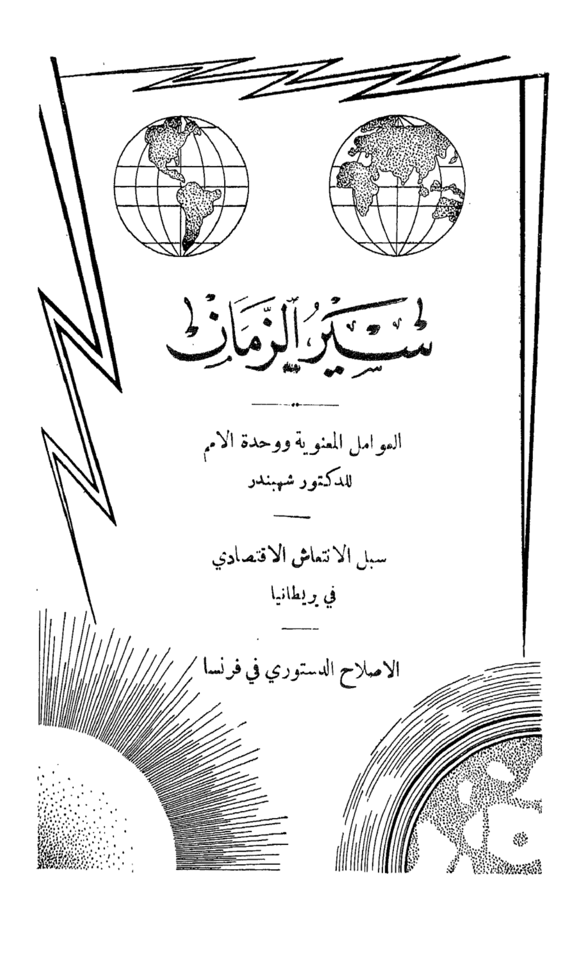
انطلق السهم بسرعةٍ فعجز البصر عن تتبعهِ في خلال انطلاقهِ

وارسلتُ اغنية في الهواءِ فوقعت على الارض حيث لا ادري

اذ من يملك بصراً حادًّا يستطيع ان يتتبع امواج الاغنية

وبعد انقضاء زمن طويل ، وجدت السهم سليماً في شجرة من البلوط

والاغنية من اولها الى آخرها ، وجدتُها ثانيةً في قلب صديق



سير الزمان
العوامل المعنوية ووحدة الامم
للدكتور شهبندر
سبل الانتعاش الاقتصادي
في بريطانيا
الاصلاح الدستوري في فرنسا

العوامل المعنوية

ووحدة الامم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

* الفن والوطنية * لا ادل على ان الوطنية شعور داخلي وفيض معنوي من التفاعل القائم بين الفن وحب الوطن ، فكم من وطنية خاملة ايقظتها عبقرية الشاعر وقومية ذابلة انعشتها ألحان المغنين ، وكم من فن ميت احيته الانتصارات في الحروب وادب صامت انطقته اعمال الابطال المجددين ، والفن من الاصل ميزة وطنية خاصة تنفرد بها الامة بل هو عصارتها والافراز الداخلي من غددها الصُم الذي يوقظ انتباهها الى نفسها وشعورها بحوزتها ، في حين تكون العلوم والمعارف وقفاً على جميع الشعوب ، فنرى العامل الميكانيكي في الحجاز مثلاً يتلذذ بدرس السيارة وتفكيكها والاطلاع على سرها كما يتلذذ العامل في سويسرا ولكنهُ لا يرى لذة في شعر السويسريين كما يراها ابناؤها . ذلك لان الفن نتيجة انفعالات الامة مما اصابها من الاختبارات الخاصة بها على ظهر سفينة الحياة ، فاذا كان البحر هادئاً كان الفن سهلاً سلس القياد والاَّ كان هائجاً مضطرباً تتخللهُ الانقلابات والثورات ، فلا عجب والحالة هذه ان يكون كبار اهل الفن من كبار الوطنيين وذلك للمهمة الروحية التي يقومون بها من الافصاح عن الهواجس التي تجول في افئدة الامة التي ينتمون اليها . قال الاستاذ (بايندر) وتتوقف عظمة اهل الفن على طاقتهم ان يقدموا للمجتمع موضوعات طفحت بانفعالاتها انفسهم وان يشرحوها للقوم من وجهة نظرة الشريك المساهم لا من وجهة نظر المشاهد المحايد ، يعني اذا اراد الفنان والاديب ان يفصحا عن مواهبهما خير الافصاح فعليهما ان ينتخبا الموضوعات المعاصرة جهد الطاقة ، وهذا هو سر الفن جميعاً ، وعليهما ان يعرضاها من الوجهة الوطنية لان روح الامة تتطلب الافصاح والتجلي بطريقتها الخاصة واسلوبها الممتاز .

وحدث لنا اننا لما كنا في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٤ دعينا الى حفلة اقامتها بعثة هندوكية في احد مسارح نيويورك وفيها شنف مسامعنا اعضاؤها بمنتخبات روحية من اغاني (الفيدا) الشعرية الجيدة مع رقص مقدس غاية في الاحكام كانت تتوسل به الراقصة الى الآلهة الهندوكيين ، وكان الى جانبي عين من اعيان الاميركيين الحريصين على العرب ونهضتهم فقال لي اذا كان عندكم فن من الفنون الجميلة فهاتوه الى هنا لانهُ يكون خير دعاية تبثونها لقضيتكم ولاظهار العرى المعنوية التي تربط افراد امتكم بعضهم ببعض وتدلون الاجانب بواسطته على ما في بلادكم من الذخيرة الروحية الادبية . فاذا كان هــذا فعل الفن في ايقاظ اعجاب الأجنبي بنا فما أحوجنا اليهِ في ايقاظ اعجابنا بأنفسنا — بوطننا وبجدودنا وبأوضاعنا وتاريخنا

ولما كانت الوطنية في الاصل كما قلنا شعوراً داخليًّا متأصلاً في اعماق النفس فهي تحتاج الى الفنان ليفصح عنها ويبرزها بصورتها الفتانة وثوبها القشيب ، وهنا يتجلى فضل اللغة على النهضات الوطنية لانها هي المادة التي يستعين بها الفنانون من أهل الادب . وقد قال أهل التتبع من علماء فلسفة التاريخ ان الامة التي ليس لها شعراء وملحّنون وكتّاب متأججون وغيرهم من أهل الفن تموت سراعاً ما لم تحصل على ما يعادلهم بطرق اخرى

ونكون قد اغفلنا مسألة جوهرية في بحثنا هـذا اذا نحن لم نشر هنا الى بعض المتحجرين منا ممن جعلوا ديدنهم محاربة الفن،وقد يتلمس لهم المرء بعض العذر عند ما كانت ستائر الجهل مسدولة على النهضات الحديثة في ديار الغرب والادوار الخطيرة التي مثلها الفن فيها ، ولكن ما عذرهم اليوم والامم تجمعهم شبكة وثيقة من ثقافة لايتعذرعلىأحد ان يحيط بمُجْمَلاتها.ثم ان هذه الحياة ثقيلة على الرجل الحسّاس مع كل هـذه الفنون الخلابة ، فليت شعري ماذا يكون الحال لو نجح هؤلاء المتحجرون فجردونا منها ؟ ألا يصبح المجتمع حينئذٍ شبيهاً بحلقة درس عقيم او مجلس نواب جامد غلب على اعضائه النعاس ؟

﴿ المجد والوطنية ﴾ تزداد الامة تصلباً وتماسكاً بقدر ما كان لها من مجد غابر تمت اليه بأنسابها ، فالابطال المتقدمون من افرادها ممن دوخوا الممالك ومصروا الامصار ووطئوا بسنابك الخيل عروش الملوك هم النواة التي تجتمع حولها مشاعر الافراد وتتعاون بواسطتها عقولهم وتخضع لها ارادتهم . وكذلك شأن من كان لها من العلماء المبرزين والمخترعين المتفوقين والفنانين العبقريين وسائر الرجال من افرادها ممن تركوا وراءهم في المجتمع المادي والعقلي والروحي دويًّا وأثاروا عاصفة من الدهشة والاعجاب ، وقد كان للخلفاء الراشدين في هـذا المضمار ولمن اختاروا من اهل القيادة والزعامة من الاثر في تكوين العرب خاصة والمسلمين عامة ما لا يتطلع الدهر الى محوه . وكذلك الحال في تلك الشموس التي أنارت حندس الليل في القرون الوسطى بعلمها وأدبها وفنها من أبي الطيب المتنبي وابي العلاء المعرّي وابن رشد وابن تيمية الى ابن خلدون ، ومما نورده من الامثلة الحديثة في العالم العربي على شأن الرجل العظيم في تكوين الأمم ان الملك فيصلاً أفاد الجامعة العربية ليس في حياته فقط بل بعد مماته ايضاً . فالمآتم التي اقيمت له في طول البلدان العربية وعرضها وعُـدّدت فيها مناقبه والمثل الاعلى الذي وضعه نصب عينيهِ أثارت موجة من الانتباه الى القرابة بينها لم يشهد التاريخ مثلها منذ دهور

ولا مراء ان الحضارة العربية التي اسبطرت واخضرّ عودها في الشام والاندلس ومصر والعراق والفتوحات التي طوقت اوربا من جانبيها الشرقي والغربي ما فتئت موضوع شعرائنا وكتّابنا ورواد الاصلاح فينا منذ دبّ فينا وعينا القومي . ذلك لأن تذكير الامم بمجدها الغابر بصور معقولة هو اشبه شيء بتوجيه نظر الفرد الى عظمة آبائه وجدوده يولد الأنفة واحترام النفس والابتعاد عن الذلّ والمسكنة

﴿ الالم والوطنية ﴾ رأينا البلدان المغلوبة على امرها والخاضعة لمصالح الاجنبية والممصوصة بمراشف الاستعمار تشعر بالكثير من الاشتراك في العواطف التي تغلي في صدور ابنائها . فاذا كان وراء هذا العامل السلبي القائم على الكراهية والنفرة من المستثمرين الطفيليين عوامل اخرى ايجابية من العوامل الوطنية التي عرضنا لها ازداد تأثيره فكان من اكبر الدواعي الى توحيد الجبهة ، لا جرم اننا رأينا المحنة التي تعانيها فلسطين من وعد بلفور الجائر مثلاً تحدث في الاقطار العربية الاخرى استياء يبلغ حد المشاركة ، وكذلك الحال في الظهير البربري الذي اعلنته فرنسا في المغرب الاقصى لفصل البربر عن اخوانهم العرب ، وقد امتلأت الصحف السيارة بالاحتجاجات على المستعمرين من أجله وعقدت الاجتماعات في شتى البلدان لاظهار الصخب والسخط مما دلّنا على شدة التماسك بين أبناء العربية . ومما لحظه علماء الاجتماع ان الافراح المشتركة هي مثل الدواعي المؤدية الى الشعور بالمجد تسبغ على الوطنية حلة من الزهو والابهة في حين تلقي عليها الآلام المبرحة ستاراً حالكاً من نكد وغم وتنفث فيها ما دعاه الاستاذ (باينلدر) شعوراً تصوفيًّا من حيرة واسرار ، ويصاب أهل الآلام بمرض الاكثار من التشكي قد يبلغ حدّ (الهستريا) في المرأة العصبية مع اقلال من العمل يجعل صاحبه في حكم المقعد ، ولحظنا في بعض الأحيان افراطاً عظيماً جدًّا في التشدق بالعظمة المدفونة تحت الثرى والتمدح بالماضي والافاضة في ذكر محامد الجدود حتى ضاق صدرنا كما يضيق صدر كل احد بالفقير الحافي الذي يجعل ديدنهُ في الحياة التغني بما كان «للمرحوم» جده من الاحذية ! وليس من مصلحة الامة في شيء ان نجعل المثل الاعلى للنشء الحديث الرضى بالانتساب الى العظماء فقط

اننا نمجد الآباء والجدود ونبني على محامدهم الصحيحة وطنيتنا الناهضة ولكننا لن نعبدهم ، ويكون فارغاً من كان خالياً من جميع المزايا الاّ ما يدعيه من كرم المحتد

ولعلّ الموسيقى العربية وما فيها من أنّات وآهات وبكاء واحزان ورجيع وحنين هي المدره المعبر عن الالم المتأصل في شعوب العالم العربي ، وقد ينحط هذا التوجع في بعض المغنين حتى يصير تخنثاً ويفقد جميع اسباب الرجولة، ولم يصَبْ فننا الموسيقي بمصيبة أكبر من تلك البدعة المبتذلة الثقيلة المعنعنة الباردة التي يكررها المغني في كل محفل وهي « ياليلي » فليت شعري متى يزول الظلام عن الافق فيلمع الشرق بنور الفجر ليصيح المغني « يا نهاري » ؟ والالم نافع ما بقي حافزاً للعمل منبهاً لعزة النفس ولكنهُ متى صار اداة للتسول والاستجداء والاستعطاف وعلامة على القنوط فهو حشرجة الصدر ساعة الموت . وقد بقيت الموسيقى التركية الى السنين الاخيرة على هذا النمط ولكن الانقلاب السياسي الخطير الذي تناول تركيا من بعد الحرب اخذ يحدث أثراً ظاهراً في ألحانها فلا يمضي زمن طويل حتى تتخللها اصوات شديدة تردّد اصوات قعقعة السلاح في صقاريه وكوك صو ويتلألأ منها في صدور سامعيها لمعان ينعكس عن وميض سيوف الغازي وقنابله المتفجرة

وقد طاب الاستاذ (باينلدر) على اهل البلدان الضعيفة المرهقة استعمالهم التورية والتمويه في كلامهم

وتجنبهم الصراحة حتى في ابسط الامور فلو انك سألت الواحد منهم عن صحة زوجه او عن عمله او عن الحدث السياسي المنتظر اجابك جواباً مطلقاً من كل قيد وربما اصحبه باشارة ذات معنى او بهز الكتف . وبدهي ان مثل هذا الموقف يحمل الظالم على حسبان المظلوم بليداً او غداراً في حين يتهم المظلومون اسيادهم بكل انواع الجناية ويعلون كما قال (نيتشه) الى التخلق باخلاق العبيد لحماية انفسهم وللاحتفاظ بالبقية الباقية من حرمتهم القومية [1]

وقد لحظنا شيئاً آخر في بعض بلدان العالم العربي غير ما اشار اليه الاستاذ (بايندر) وهو ما يدعو الى الاشمئزاز كثيراً ويستحق أصحابه الاستنكار الشديد لانه يطبع في نفس الاوربي فكرة سيئة عن المشتغلين بالقضايا العامة ، فقد اعتاد بعض ابناء البلاد انهم اذا ظهروا على المسرح امام الجمهور ابدوا من التطرف في الوطنية الشيء الكثير فهم لا يفاوضون مثلاً — اذا كان هنالك حديث مفاوضة — الا اذا القى الاجنبي بقضه وقضيضه في البحر ، ولكنهم متى خلوا بهذا الاجنبي نفسه اظهروا من اللين « والكياسة » ما كانوا يعدونه على المسرح خيانة عظمى في الآخرين ، فالخروف الذي رفضوه في الوليمة أمام المدعوين الآخرين بحجة قلة الغذاء والدسم قبلوا في الخلوة محله كسرة من الخبز ، ومثل هذا الموقف المداجي المخزي يدعو المحتل الى تجنب الامة والطمع في الافراد يقوم بمساومتهم للحصول على ما يعتقد انه متعذر مع الشعب

﴿ الوطنية تعصب للوطن ﴾ نحن نعترف هنا بمنتهى الصراحة ان التربية الاممية الحرة وما يلازمها من نظرة سمحة عامة وعقيدة تعاونية مشتركة هي تربية لا تتفق والتعصب على انواعه في شيء — سواء في ذلك التعصب الديني والتعصب الجنسي والتعصب الوطني — ولو كانت الامم سمحة لا يفكر بعضها في استثمار بعض وتسخيره لغاياته الحقيرة لفقدت الوطنية ركناً من اعظم الاركان التي تعتمد عليها وهو ركن التعصب . وطالما قلنا ان التعصب الديني في القرون الوسطى كان السور الوحيد الذي يحمي ذمار الجماعات لان الرابطة الدينية كانت اساس ارتكازهم ومبنى حوزتهم وقد حلَّ محلها في القرون الحاضرة عند معظم الامم الراقية التعصب الوطني لان الوطنية اصبحت اساس هذا الارتكاز ، فالوطنية بهذا المعنى اذن دين من الاديان . وقد تصدر من بعض كبار الوطنيين المتصفين بالعلم والنباهة والاخلاق اقوال وأعمال لتمجيد الوطن تكاد تكون في نظر العالم الحكيم السمح هزءاً وسخرية ولا تقل سخافة عن بعض الذين جعلوا ديدنهم في الحياة وصناعتهم في كسب المعاش الطعن المنكر في الاديان جميعها الا الدين الذي وجدوا عليه آباءهم عرضاً ، فمن ذلك ما كان يزعمه قادة السياسة البريطانية من ان الله ارسل انكلترا رحمة للعالمين ، وكان الامبراطور غليوم يزعم انهُ مرسل من الله على رأس الامة الجرمانية لقيادة العالم ، وما حاربت امة امةً اخرى الا اعلنت على رؤوس الاشهاد يوم شهر الحرب ان الله انحاز الى جانبها ، ومن اعجب المظاهر الوطنية السخيفة ان

(1) Major Social Problems p. 213

كتب الفرنسيين في تاريخ العلم والادب والسياسة تنسب كل اختراع او ابتكار او اكتشاف الى رجل من الفرنسيين حتى لو ان فرنسيًّا استبدل بتفاحة (نيوتن) رمانة مثلاً ما خجلوا ان ينسبوا اليهِ ناموس الجاذبية محتجين بأن الرمانة غير التفاحة! وفي احد الكتب الجرمانية المنتشرة في الايدي كثيراً عبارة مضحكة عن ميزة اللغة الالمانية وفضلها على غيرها ذكرها الاستاذ (بايندر) وهي « ان الفرنسي يقبع في كلامه كما يقبع الخنزير والانكليزي ينخر من انفه نخراً ولكن الجرماني هو الوحيد الذي يتكلم » وسئل احد المبشرين وهو يستعرض المعجزات والخوارق الواردة في الكتاب المقدس وما لها من الشأن في تأييد دينه عن كرامات الاولياء في الاسلام فقال هذه من عمل الشيطان وأما تلك فمن عمل الرحمن!

لقد رجعت الى نفسي وحللت عقيدتي في التعصب فوجدتها تنحو هذا النحو من الاستهجان وهذا ما يجب ان يتصف به كل من كانت له نزعة علمية مجردة عن الهوى، بيد انني ويا للاسف مرغم على القول بمنتهى الصراحة ان التعصب الوطني قد يكون العلاج الوحيد الذي ينقذ امتنا من براثن عبدة المادة من المستعمرين المستنزفين، وانني اصف هذا الدواء على مضض مني كما يصفه كل طبيب غيري يرى مثل هذا الخطر المهلك محدقاً بالمريض الذي يداويه. لا جرم ان الامم المغلوبة على امرها تبالغ في شأن لغتها وعاداتها وتعاليمها وعقائدها وأدبها وفنها وعلمها وجمال بلادها مبالغة تتجاوز المعقول في بعض الاحيان كما ذكرنا سابقاً وتنقب عن المستعمرين بعين مجهرية فتذكر عيوبهم ومساويهم وتكرّه ابناءها بهم وبالروائح المنبعثة من اوضاعهم لان دواء الافاعي في نظرها جـمّـل الرجفة من منظر هذه الافاعي والخوف من انيابها غريزة طبيعية

وكانت كلمتا مؤمن وكافر في عصر التعصب الديني سبب رعشة عند الامم لما يحدث مدلولها في الاذهان من النفرة المستنكرة، وسترغم الدول الاوربية المستعمرة اهل البلدان المقهورة على جعل كلمة افرنجي في نظرهم سبب رعشة ايضاً لانها تمثل في اذهانهم تلك المغارم والمظالم التي شهدناها بام العين فلا يحق لاحد ان يجادلهم او يجادلنا بها. والبغض المتوارث يزداد شدة باستمرار الدواعي التي احدثتهُ وينتهي بالانفجار الخطير عند حدوث الشرارة الاولى

❁ القناعة الاقليمية خطر على الارتقاء! ❁ لقد أيدنا في هذه المقالات « الجامعة العربية » تأييداً كليًّا وابتعدنا عن السياسة الاقليمية او الموضعية ابتعاداً كبيراً لسبب اجتماعي يعد في المقام الاول وذلك لما عرف عند علماء الاجتماع من ان الارتقاء يسير سيراً حثيثاً متى كان للافراد المتحدين وجهات نظر يختلف بعضها عن بعض وميزات خاصة متباينة في حد ذاتها ولكنها لم تبلغ في تباينها هذا حدّ النفرة او ما يدعو الى التفتت بل هي مشدودة برباط الوطنية الوثيق، فاذا ما طلبنا تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض فلا نعني ابداً اننا نريد طبع افرادها على غرار واحد بل نريد ان يترك للفرد فيها مجال تظهر فيهِ ميزاته الخاصة ضمن الوحدة العقلية الاجتماعية الشاملة،

والفرد الواحد لا يخرج عن دائرة الجمود التي يأسن فيها ولا يشعر بالحوافز التي تبعثهُ على الحركة والعمل الاَّ بالاحتكاك بغيره ممن اختلفت مزاياهم وبرزت خصالهم ، فلو قدّر له ان يعيش دائماً بجانب من هم على شاكلته بحيث يطابقهم ويطابقونه حفراً وتنزيلاً لم يتغير ولم يتغيروا ، وهذا التبـاين الفردي هو سر الجلاء الذي يكتسبه اهل السياحات ممن يختلطون بالامم الاخرى ويمازجونها ، والميزات الفردية الخاصة التي تطبع صاحبها بطابعهـا الممتاز لا تتيسر الاّ في الامم الكبيرة ، فقد رأينا اهل القرية الصغيرة اكثر تشابهاً واتساقاً فيما بينهم من اهل المدينة الكبيرة لذلك كانوا اقرب الى الجمود والسير في الحياة على نمط واحد حقباً من الزمن

وهذا ما حمل كبار الوطنيين في الامم العظيمة الناشئة على محاربة السياسة الاقليمية وما تؤدي اليه من اقتصار على البقاع الموضعية ، ويكون من الضربة الاجتماعية قاصمة الظهر ان يقتصر زعماء البـلدان العربية كل منهم على خدمة القطر المحلي الخاص الذي يعيش فيه ويغفل شأن الخصائص الموجودة في الاقطار الاخرى ، ولقد اصاب الاستاذ (بايندر) المحزّ حين قال « ليسَ للامم الصغرى او المظلومة حرمة مقدسة وسياستها سياسة وضيعة غالباً تكاد تكون على نسبة مساحة ارضها بالضبط والعطايا التي تتحف بها الانسانية هي مادّة لتسلية الامم الاخرى غالباً »[1] وقد حمله كرهه لمثل هذه الامم الصغيرة على التمسك بأهداب مذهب النشوء وتنازع البقاء وبقاء الانسب فلا رحمة في قلبه لمن ليس في طاقته ان يخلع بقوة ذراعه نير الاستعباد ، والضعيف محكوم عليه بالخضوع والتسخير سواء كان انساناً ام حيواناً ، لاجرم انه يأبى ان يمد يد المساعدة للمقعد الذي لم تنبت له اطراف يقوم عليها ، فليتذكر متسولو الاستقلال وشحاذو الحرية هذا الكلام اللاذع وهذه العبرة البالغة . ثم ان هذا التباين المعقول في الميزات الفردية لا يأتي بالثمرة المطلوبة من التقدم والارتقاء بحيث تتولد من الاحتكاك بين الافراد المتباينين شرارة النهضة الاّ اذا كان هنالك تربية وطنية تتحلى من اساسها بالتسامح الداخلي وسعة الصدر وبعد النظر بحيث تستطيع مع الزمن تعرُّف الصالح والطالح من خصائص ابناء العشيرة

﴿الارادة العامة والوطنية﴾ وقد تجتمع عوامل التجانس التي ذكرناها جميعاً المادية منها والمعنوية ولكن الجماعة المزدانة بها لا تؤلف الوحدة المنشودة ، وذلك لفقد عامل اجتماعي خطير عليه المعول في توحيد الافراد وهذا العامل هو تنظيم هؤلاء الافراد في داخل الجماعة تنظيماً يجعل لهم رأياً عامًّا وارادة شاملة مرتكزة عليه ، فكل شعب مهما بلغت فيه عوامل التجانس من الظهور لا يحسب وحدة ما لم يفكر تفكيراً واحداً ويجزم جزماً واحداً ويرد ارادة واحدة — ولا عبرة بالشذوذ الذين خرجوا على الجماعة وانشقوا عن الدولة . ويجرنا هذا الكلام الى البحث في الزعامة وضرورة افراد باب لها لأن هذا التنظيم المعنوي الذي جعلناه اس الوحدة هو عمل الزعماء والسرّ الذي تبنى شخصيتهم عليه ، فحيث لا توجد زعامة صحيحة لا يوجد رأي عام خير ولا ارادة عامة صادقة

(1) Major Social Problems, p. 216.

سبل الانتعاش الاقتصادى

في بريطانيا

بحث في تاريخ السنوات الثلاث الاخيرة

الانتعاش الاقتصادي الذي اصابتهُ بريطانيا في السنوات الثلاث الاخيرة ، مثل بليغ على مآثر الزعامة الحكيمة في عصر تكاد تكون آيتهُ الاضطراب والاخفاق. اذ قلما يزور لندن زائر في هذه الايام من دون ان يحس بأنها مدينة لا تجثم على صدرها اشباح القلق والخوف من المستقبل . فلندن اكثر العواصم رخاءً في العالم اليوم، يستطيع الاحصائي ان يثبت ذلك بالارقام تتناول الثروة العامة واتساع نطاق العمل ومقدار ما يستهلك من العروض . ولكن الزائر الاجنبي لا يحتاج الى برهان ، ذلك انهُ يحس عند وصوله الى لندن بطمأنينة لا يحس بها في العواصم الأخرى . فانهُ اذا قدمها من برلين شعر بفرج يطلق لسانهُ في تناول المشكلات العامة بكلام هادىء صريح . واذا جاءها من باريس نسي حوادث الشغب وانباء الارتكاب وشبح الاضطراب محوِّماً على مجلس النواب . اما إذا أتاها من ناحية الولايات المتحدة الاميركية فانهُ يرى فيها أمةً سمتها الطمأنينة والثقة بالنفس

الاّ أن لندن ليست نموذجاً لسائر المدن والمقاطعات البريطانية ، ففي شمال بريطانيا وويلز مناطق اكتسحها الفقر وغلب عليها القنوط. ولكن بريطانيا بوجهٍ عام اصابت انتعاشاً ملموساً ، أعاد ألوفاً من العمال الى العمل ونثر عن جمرة الثقة رماد الاستكانة واليأس

من الاقوال الشائعة ان البريطانيين ادركوا هذا الانتعاش بتركهم القوى الطبيعية تفعل فعلها . ونحن لا ندري ولا المنجم يدري مدى ما كانت تصيبه بريطانيا من الانتعاش لو أنها حقيقة تركت القوى الطبيعية تفعل فعلها اي لو أنها امتنعت عن انشاء الحكومة القومية ، والخروج عن قاعدة الذهب ، وإحاطة أسواقها بحواجز جمركية ، وخفض دخل المموّلين ثلاثين في المائة بعملية تحويل القروض ، وتشجيع الزارعة بتنظيمها وامدادها بالاعانات المالية

***

ان تاريخ الشعب البريطاني من سنة ١٩٣١ الى الآن شبيه بتاريخ رجل فرد من بعض الوجوه . فالرجل يحكم في شؤونهِ المختلفة احكاماً متباينة فيكون بعض احكامهِ غاية في الحكمة ويكون البعض الآخر اعتباطاً فتؤاتيه الاقدار فيدرك بهِ الامل المنشود كلهُ او بعضهُ . كذلك القرارات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في خلال هذه السنوات الثلاث . فقد كان بعضها بالغاً منتهى الحكمة والحصافة ، وكان البعض الآخر مما آتتهُ الاحوال فاصاب الهدف . بل ان واحداً منها على الاقل كان اشبه بحال الفقير البائس أتى على آخر فلسٍ عندهُ ، ثم اصاب في ارضهِ كنزاً ثميناً

فلنبدأ بالحادث الذي مهّد لهُ الحظُّ سبيل النجاح . وليس الحظ عاملاً يصحُّ ان نغفلهُ في درس التاريخ الاقتصادي . فالكشف عن منجم ذهب ، يؤثر في مصير بلاد او مقاطعة بأسرها . ولكن الكشف عن المنجم امر لا يمكن القطع فيهِ ، وخاصةً في بلادٍ لم يعدَّن فيها الذهب من قبل . فيكون كشفهُ حينئذٍ مرهوناً بالحظِّ الى حدٍّ بعيد

فماذا حدث في بريطانيا ؟ كانت الحكومة القومية قد انشئت للدفاع عن قاعدة الذهب . وكان المستر مكدونلد قد اثار مخاوف البريطانيين بحديثهِ عن ملايين الماركات تدفع لقاء طابع بريد واحد ، في عهد التضخم المالي في المانيا . وكان الحائل الوحيد بين بريطانيا والتضخم ، مبلغ ما في خزائن بنك انكلترا من الذهب ، وتوازن الميزانية البريطانية . اما احتياطي الذهب في خزائن البنك فكان قد رهن لقاء القروض التي عقدت في باريس ونيويورك لسدِّ مطالب الذين طلبوا سحب اموالهم من انكلترا وكان ميعاد توفية هذه القروض قد اوشك . وكانت البلاد لا تملك زيادة في صادرها على واردها لتشتري بها فرنكات او دولارات لتوفية ما عليها . ولم يكن للخزينة البريطانية اموالٌ في الخارج ولا سبيل لها الى الحصول عليها الاَّ باللجوءِ الى ما يملكهُ الافراد الانكليز من الاموال في البلدان الاجنبية . نعم كانت الحكومة البريطانية قد عمدت الى مثل هذا العمل في خلال الحرب ، اذ كانت النزعة الوطنية تبعث على البذل . ولكن اعادتهُ الآن وسير الحوادث ينذر بالخراب المالي ، متعذر او مستحيل . فاذا بعثت انكلترا بما تملكهُ من الذهب لتوفية هذا الدين ، فقدت لندن مكانتها المالية العالية . وإذا عجز البنك عن توفية قروضهِ حقّر بين البنوك

ما العمل ؟ ! لا مكدونلد يدري ، ولا وزير ماليتهِ يدري ، ولا رجال وزارة المالية يدرون

***

ما كادت بريطانيا تخرج عن قاعدة الذهب حتى اتجه اليها جدول من الذهب ، من نبع غير منتظر . ثم ما لبث هذا الجدول ان تحوَّل الى نهر كبير ، فصبَّ في لندن في خلال سنتين نحو سبعين مليوناً من الجنيهات . وكذلك استطاع بنك انكلترا ان يوفّي دينه لباريس ولاميركا ، قبل ميعاد الاستحقاق ، فأخذت بريطانيا تستعيد مكانتها المالية ، التي هزَّها الخروج عن قاعدة الذهب ، وتطلع الناس الى البريطانيين يعجبون بمقدرتهم المالية

على ان هذا الذهب لم يستخرج من منجم جديد ، بل من مخبإٍ عظيم هو بلاد الهند . ذلك ان عشرات من السنين كانت قد انقضت على شعب يُربي على ٣٠٠ مليون نفس ، وهو يخزن الذهب . فكان يصوغ بعض الذهب أساور وحليًّا للنساءِ ، ويحفظ بعضهُ سبائك او نقوداً مسكوكة

فلما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب ، لم يفقد الجنيه الاسترليني من مقدرتهِ على الشراء لا في بريطانيا ولا في الهند . اي ان قيمة الذهب زادت من حيث مقدرتهُ على الشراء . واصبح خازن الذهب يستطيع ان يخرج ذهبهُ ويبيعهُ فيجني من بيعهِ ربحاً غير يسير . وكان الهنود يحتاجون الى

المال ، فأخرجوا نقودهم وسبائكهم وصهروا الاساور والحليَّ ، وبعثوا بها جميعاً الى لندن

وادركت الخزينة البريطانية في الحال قيمة هذا الاتجاه . فأنشأت « حساب التسوية والمبادلة » لتجهّز الحكومة بالمال اللازم لشراء الذهب في الهند وافريقية الجنوبية . نعم كان لهذا الحساب غرض آخر هو منع سعر الجنيه الاسترليني من الهبوط كثيراً او الارتفاع كثيراً ، ولكن غرضهُ الاساسي كان شراء الذهب ، وقد حقق الغرض على أوفى وجهٍ ، لان المخزون من الذهب في انكلترا بلغ من نحو سنة أعلى ما بلغهُ في التاريخ . فذهبُ الهند أنقذ بريطانيا من موقفها العصيب

ولكن الهند ما كانت تستطيع ذلك لولا حدوث حدث آخر ما كان في مكنة أحدٍ ان يتنبأ بحدوثهِ . ذلك أنهُ لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب لم يدر أحدٌ ، هل ترتفع أسعار العروض بالنقد الورق او تهبط اسعار العروض بالذهب . فالتجاريب السابقة في فرنسا والمانيا وايطاليا كانت تشير الى هبوط اسعار النقد الورق اي الى ارتفاع اسعار العروض بعد الخروج عن قاعدة الذهب ، وهذا يفضي الى زيادة المطبوع من ورق النقد فالى التضخم النقدي . والراجح ان مكدونلد كان يرى هذا والاَّ لما انشأ الحكومة القومية جاعلاً هدفها الاول الدفاع عن قاعدة الذهب ، ولما بثَّ الخوف في طول البلاد وعرضها من تضخم شبيه بتضخم النقد في المانيا سنة ١٩٢٣

الاَّ ان الحوادث اتت على غير ما كان يتوقع . ذلك انهُ لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب هبطت اسعار العروض بالذهب، ولم ترتفع اسعارها بالنقد الورق . وجرت بلدان اخرى مجرى بريطانيا في التخلي عن الذهب كأساسٍ للنقد واتخذت الجنيه الاسترليني اساساً لنقدها ، فاصبح الجنيه في اسواق العالم المالية اقوى من ان تسيطر عليـهِ قوة الذهب . والانكليز يجملون لك هذه الحالة في قولهم ، انهم لم يخرجوا عن قاعدة الذهب ، ولكن الذهب خرج عن قاعدة الجنيه الاسترليني

وكذلك احتفظ الجنيه بقدرتهِ الشرائية ، وفي الوقت نفسهِ خفض اسعار البضائع البريطانيـة بالقياس الى نقد الامم الباقية على قاعدة الذهب ، فنشطت تجارة الاصدار البريطانية . وهذا كلهُ كان من بواعث اقبال الهند على اخراج ذهبها المخبوء ، وابدال جنيهات استرلينية بهِ لجني الربح من الفرق فاستعادت لندن مقامها المالي بين عواصم العالم

***

قلنا ان « الحكومة القومية » الاولى انشئت في بريطانيا لانقاذ قاعدة الذهب . فلما اضطرَّت الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب ، كانت نزعة التعاون القومي وتأييد الوزارة القومية ، قد استساغها الشعب البريطـاني ، فاستطاعت الحكومة ان تتقدم الى البلاد في انتخاب عام احرزت فيهِ كثرة ساحقة . فكان لذلك أثر عظيم في الانتعاش الاقتصادي ، لان الثقة بالوزارة القومية مكّنت الشعب البريطاني من اجتياز تلك الايام العصيبة في اواخر سنة ١٩٣١ التي تلت الخروج عن قاعدة الذهب وما عقبهُ من القلق لما يكنّـهُ المستقبل في ثناياهُ . فلما فازت الحكومة القومية بتأييد البلاد

في الانتخاب العام ،مكّنها جمع أعنّة السلطة في يدها من اتخاذ الخطط التي رأتها كفيلة باجتناب الانهيار بل واعادة الرخاء

كان الشعب البريطاني ينفق حينئذٍ اكثر مما يجني . فكان يبتاع في الخارج اكثر مما يبيع . وهذا الخلل في ميزانهِ التجاري مضافاً الى العجز في ميزانية الحكومة ،كان سبب الازمة التي اخذت الامة البريطانية بخناقها في اواخر سنة ١٩٣١ ، لانهما افضيا الى سحب الاموال المودعة في لندن ، وقرار الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب . فكان الغرض الاول الذي يجب ان تتجه اليهِ الحكومة اعادة التوازن الى الميزان التجاري والميزانية معاً

لم ترَ الحكومة صعوبة ما في موازنة الميزانية . بل ان حكومة العمال السابقة كانت مستعدة لموازنتها وكانت تستطيع ذلك لولا إحجام بعض اعضائها عن الموافقة على نقص الاعانات التي تمنح للمتعطلين عن العمل .فلما جاءت الحكومة القومية ، ضربت بفأس التوفير، مرتبات رجال الحكومة -فنقصت مرتبات الموظفين والمعلمين ورجال البوليس وغيرهم — اسوة بمُنَح العمال المتعطلين

ولم يكن في عملها هذا اي خروج على مبدإٍ مقرر . غير ان اعادة الموازنة الى الميزان التجاري احتاجت الى التوسل بوسيلة غير مألوفة عند الانكليز — نعني انشاء حاجز جمركي عام . ولكن مسألة الحاجز الجمركي ، لم تُثَر في الانتخاب العام صراحة ليبدي الجمهور رأيهُ فيها . والراجح انهُ لو اثيرت لكان في وسع المعارضين ان يقنعوا الجماهير البريطانية بأن اقامة هذا الحاجز يعني ارتفاع اسعار الاغذية ، ولخسرت الحكومة القومية الانتخاب.

لذلك عمدت الحكومة القومية الى عبارة كان لها اكبر أثر في فوزها ، اذ طلبت من الشعب البريطاني ان يمنحها وصاية تامة كما يمنح المريضُ طبيبَهُ وصاية مطلقة في علاجه . وليس في هذا التشبيه اي نشوز . لان العجز في الميزان التجاري كان مرضاً يحتاج الى افعل اسباب العلاج ولو لم يكن بعضها مألوفاً . فلما فازت الحكومة في الانتخاب طلبت الى مجلس النواب الموافقة على اقامة الحاجز ففعل . فهذا تدخل صريح من جانب الحكومة البريطانية في فعل القوى الطبيعية . بل ان جل علماء الاقتصاد في بريطانيا ، كانوا يذهبون الى انه من الاثم اقفال الاسواق الصغيرة في وجه الامم الصناعية . فاقفال اكبر الاسواق العالمية — اي سوق بريطانيا — كان اثماً كبيراً بحسب زعمهم . ولكن الحكومة البريطانية اقدمت على اقفاله من دون ان تحس بأنها اجترحت اثماً ولا هي اعتذرت عن ذلك للبلدان التي كانت تعيش في الغالب من بيع منتجاتها في بريطانيا

ولا ريب في ان جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي ، يعود الفضل فيه الى الحواجز الجمركية لانها فتحت السوق البريطانية نفسها لاصحاب المصانع البريطانية بعد ان كان اصحاب المصانع الاجنبية يزاحمونهم فيها . ولكن هذه الفائدة التي جنتها بريطانيا لم تكن خالصة . لان نقص مقدرة الامم التي تعامل بريطانيا على الشراء، اسفر عن نقص في صادرات بريطانيا . الاّ ان تجارة الصادر البريطانية

كانت تمتاز في ذلك العهد بنقص في اسعار العروض لخروج الجنيه عن قاعدة الذهب . يضاف الى ذلك ان العالم حينئذٍ بدأ يلمس تحسيناً في التجارة العالمية ، فكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه العوامل — اي زيادة تصريف البضائع البريطانية في بريطانيا نفسها ، ورخص المصنوعات البريطانية لخروج النقد الانكليزي عن قاعدة الذهب والتحسُّن الملموس في التجارة العالمية — ان زاد الطلب على مصانع بريطانيا ، فازداد الطلب على العمال وقلّ التعطُّل . ولعلّ ابلغ مثل على هذا الانتعاش صناعة الحديد والصلب التي ضعفت حتى كادت تتلاشى ، لشدة المنافسة التي اصابتها من الصناعات التي تقابلها على البرّ الاوربي ، فأصبحت بعد التحوُّل الجديد تنتج تسعين في المائة مما تستطيع انتاجهُ

على ان الحواجز الجمركية ليست حافزاً كافياً للانتعاش الاقتصادي . بل ان الحواجز لا تجدي كثيراً الا في بلاد مستعدة ان تتخلى عن صادرها بقدر ما تتخلى عن واردها . ولا ريب في ان خروج بلدان كثيرة عن قاعدة الذهب سلب البضائع البريطانية بعض الميزة التي كانت تمتاز بها في سنة ١٩٣٢ . بيد ان الرأي السائد في بريطانيا الآن هو ان الحواجز افادت واذن فيجب الاحتفاظ بها . على ان ذلك لا يكفي . ولابدّ لبريطانيا من ان تعنى باعادة تنظيم صناعاتها ملاءمةً للنقص في صادراتها . فبريطانيا في الغالب ، تبيع ٣٠ في المائة من مصنوعاتها في الخارج ، ولكن الزيادة في ما تستهلكه السوق البريطانية بعد احاطتها بالحواجز الجمركية ، لا يقرب من هذا ولا من نصفهِ . فالانتعاش الى درجة الرخاء ، عن طريق الحواجز غير مرجَّح ان لم يكن متعذراً . وقد ترى بريطانيا قبل انقضاء زمن قصير ، ان هذا الحاجز سوف يصبح سلسلة من الابواب ، كل باب منها يمثل معاهدة تبادل تجاري مع البلدان التي يهم بريطانيا ان تعاملها

***

وعلى كل حال لا نستطيع ان نعلل الاّ جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي بالحواجز الجمركية . وأما الجانب الآخر فيمكن تعليله بتلك العملية المالية العظيمة التي تعرف باسم « تحويل قروض الحرب » من قروض فائدتها ٥ في المائة الى قروض فائدتها ٣½ في المائة فوفّر على الخزينة دفع فائدة قدرها ١½ في المائة على مبالغ كبيرة من المال كل سنة . وقد كان لهذا التحويل أثر اجتماعي كبير ، الاّ ان نجاحهُ كان يقتضي ان ترضى طبقة المستثمرين البريطانيين — وهي غنية وذات حولٍ — بخفض دخلها من الاموال التي تثمرها في هذه القروض ثلاثين في المائة

كان مقدار دين الحرب الذي فائدتهُ ٥ في المائة ، الفي مليون جنيه . فكان على الحكومة اذا شاءت ان تنجح في عملية التحويل ان تدبر تدبيراً يمكنها من اقناع اصحاب السندات ، بأن مصلحتهم تحتّم عليهم قبول التحويل . وهذا في ظاهره كان متعذراً ، اذ كيف تستطيع ان تقنع الناس ، بأن يقبلوا مختارين نقصاً في دخلهم يبلغ ثلاثين في المائة ؟ ولكن وزير المالية البريطانية المستر نفيل

تشمبرلين ابدع كل الابداع في معالجة الامر . وقد آتتهُ الاحوال الاقتصادية العامة في ما فعل ذلك ان الصناعة كانت راكدة حينئذٍ ، وتثمير الاموال في الخارج لا يغري ، بل ان الحكومة البريطانية كانت تثني الناس عنهُ . وكان المال يتجمع في الخزائن وليس ثمة سبل لتثميره او استغلاله. فقال وزير المالية في ذات نفسهِ ، ان عملية التحويل تصيب النجاح المرغوب ، اذا بدا لاصحاب الاموال، ان سبل التثمير في البلاد ضيقة او غير ميسَّرة ، وان السندات الوحيدة المأمونة التي يمكن تثمير المال بشرائها هي سندات الحكومة البريطانية ، ولو كانت فائدتها يسيرة

ونظرت الحكومة البريطانية الى الحالة الاقتصادية العامة في بريطانيا ، فرأتها يسودها القتام ، فعمدت اولاً الى موازنة ميزانيتها واستعادة مكانتها المالية كمقترض في سوق المال . ثم عمدت الى منع اصدار سندات جديدة الا اذا عرضت عليها اولاً ونالت قبولها. ثم حظرت بيع السندات الاجنبية في السوق البريطانية . ولما كانت واثقة من ان حال الصناعة لا تغري بتثمير الاموال فيها ، لبثت قليلاً تنتظر وهي واثقة من ارتفاع اسعار سندات الحكومة . فارتفعت اسعارها لشدة الاقبال عليها. ومضت في الارتفاع حتى اصبحت نسبة الفائدة الاصلية الى ثمنها الجديد لا تزيد على ½ ٣ في المائة

هنا تقدمت الحكومة البريطانية واعلنت مشروع التحويل ، وقالت انها في تاريخ معين تقبل ان تسدّد لاصحاب السندات سعرها الاصلي نقداً — كان سعرها في السوق حينئذٍ أعلى من السعر الاصلي — او ان تعطيهم سندات جديدة بفائدة ½ ٣ في المائة بدلاً من ٥ في المائة . ورغبة في اغراء الناس بالتحويل وعدت ان تدفع للمموّلين مبلغاً نسبيّاً معيناً ، لا يكفي ليعوضهم مما يخسرونهُ بنقص الفائدة ، ولكنهُ يغري على كل حال . وارفقت الحكومة نداءها المتقدم باستفزاز الشعور الوطني . ولكن الوطنية لم تكن العامل الفعّال في الاقبال على التحويل . لان اصحاب السندات قالوا اذا نحن لم نقبل التحويل واستوفينا ثمن سنداتنا نقداً فماذا نفعل بالنقد ولا سبيل امامنا لتثميرهِ

فكانت النتيجة ان تسعة أعشار أصحاب السندات اقبلوا على التحويل ، والعشر الباقي استوفى ثمن سنداتهِ بسعرها الاصلي فكان المبلغ الذي استوفوه مائتي مليون جنيه . وكانت عملية التحويل هذه باعتراف كبار الماليين اكبر عملية مالية في التاريخ. ومما لاريب فيهِ ان احوال الصناعة والاقتصاد حينئذٍ ساعدت وزير المالية في تحقيق غرضهِ . ولكن ذلك لا ينتقص من البراعة التي عالج بها الموضوع . فالمستر سنودن وزير مالية العمال ، كان يرغب قبل ذلك كل الرغبة في تحويل قروض الحرب ، ولكنهُ لو حاولهُ لباء بالخسران ، لأن الاحوال لم تكن مؤاتية لهُ حينئذٍ

بقي علينا ان نبين أثر هذا التحويل في انتعاش بريطانيا الاقتصادي. وهذا الأثر يبدو في ناحيتين الاولى ان النقص في عبءِ الدين العام افضى الى نقص يسير في ضريبة الدخل . اما الناحية الثانية وهي أهم من الاولى فارتفاع اسعار السندات المأمونة مجاراة لسندات الحكومة . فارتفعت كذلك قيمة السندات المحفوظة في خزائن الشركات الصناعية البريطانية . وكانت نتيجة هذا انتعاش الصناعات . ذلك ان اسعار السندات

كانت قد هبطت عند حدوث الازمة فاضطر أصحاب الصناعات ان يحولوا جانباً من ربحهم في الصناعة لتوفية خسارتهم في ما كانوا يجنونه من السندات. فلما تمت عملية التحويل، وجد أصحاب الصناعات ان قيمة سنداتهم قد زادت، فتمكنوا من تجديد مصانعهم او توزيع ارباح على مساهميهم . وهذا افضى بدوره الى زيادة الطلب على الآلات من صناعها من ناحية ، والى زيادة المال المتداول الناتج من توزيع الارباح على المساهمين ، من ناحية اخرى

وقد يتعذّر على الباحث ان يعين نصيب الحواجز وعملية التحويل والتحسُّن الاقتصادي العام في انتعاش بريطانيا . ولكن يرجح ان نصف انتعاش بريطانيا الاقتصادي يعود الفضل فيهِ الى عملية التحويل في قروض الحرب ، وهو النصف الاهم ، لانهُ ينطوي على بزور الانتعاش الصحيح ، حالة ان التحسُّن الناشيء عن الحواجز الجمركية ، محدودٌ في اثره ومداه

***

اما انتعاش الزراعة البريطانية فلم يكن عاملاً اساسيًّا في الانتعاش العام ، مع ان مقدرة الزراع الشرائية قد زادت زيادة لا بأس بها . وانما يهمنا ان نشير اليهِ لأنهُ مرتبط بشخصية رجلٍ يقولون ان الدهر يعدُّ له مكان الصدر في سياسة البلاد نعني المستر ولتر اليوت وزير الزراعة . فهو رجل يميل الى التنظيم في شؤون الحياة القومية زراعية وصناعية وغرضهُ ان يجعل الجزائر البريطانية من الناحية الزراعية قادرة على كفاية نفسها بنفسها . ولتحقيق هذا الغرض نظم الزرّاع البريطانيين حتى يتمكنوا من منافسة زرّاع البلدان الاخرى التي تبيع منتجاتها في السوق البريطانية . ولا يخيفهُ ان يفضي عملهُ هذا الى ارتفاع اسعار الاغذية . فاذا قال لهُ دعاة التجارة الحرة ان تجارة الصادرات البريطانية تضعف اذا نقص ما تبيعهُ البلدان الزراعية في بريطانيا ، ردَّ عليهم ان صناعة الصادرات البريطانية تستطيع ان تبيع الفلاحين البريطانيين متى بدأ هؤلاء يجنون ربحاً من زراعاتهم . وقد انشأ المستر اليوت نظماً تعاونية للحاصلات الزراعية الرئيسية خاصة بتنظيم الانتاج والبيع وتعيين الاسعار. وما على جماعات الفلاحين الاَّ ان يأتوا اليهِ جماعة جماعة ويعربوا عن رغبتهم في وضع نظام خاص لكل جماعة منهم فيضع لهم مشروعاً ثم يعرضهُ على البرلمان ويفوز في الغالب باقراره. فالمستر اليوت اشبهُ ما يكون الآن بدكتاتور سوق الاطعمة في بريطانيا ، فانه اذا وجد مثلاً ان ما تصدرهُ الدنمارك الى بريطانيا من لحم الخنزير ينافس ما ينتجه الانكليز انفسهم منافسة قوية يصدر انذاراً الى الدنماركيين بوجوب نقص ما يصدرونهُ والاَّ طبَّق عليهم نظام الحصص ، فيفضي هذا في الغالب الى اتفاق ودي قائم على اساس من التبادل . ولهُ في بريطانيا معجبون كثيرون يرون فيهِ رئيساً للوزارة البريطانية في المستقبل . اما مقاوموه فجلُّ مقاومتهم لهُ تستند الى انهُ يعوق القوى الطبيعية عن ان تفعل فعلها . ولكن البريطانيين بوجهٍ عام يدركون الآن انهُ اذا تركت القوى الطبيعية تفعل فعلها قضت على الزراعة في بريطانيا قضاء مبرماً

فرنسا والاصلاح الدستوري

بحث تاريخي دستوري

في اكتوبر سنة ١٩٣٢ كتب المسيو غاستون دومرج مقدمة لكتاب اصدره الشيخ موريس وردينير عنوانهُ « المساوي الدستورية ومشكلة التنقيح » . قال فيها : — ان فرنسا تتوق الى السلم الداخلي توقها الى السلم الخارجي ، ورغبتها الشديدة هي ان تجد وسيلة تمكنها من تحقيق السلمين معاً . ان نتيجة من هذا القبيل لايمكن الحصول عليها من دون تعديل شرائعنا الدستورية ، لانها هرمت كما تهرم كل الاشياء ، ويجب ان تعدل حتى تتلاءم مع الاحوال الجديدة السائدة في حياتنا العامة »

وقد يبدو للباحث ان اقل تعديل في الدستور الفرنسي ، يجعل النظام البرلماني ، اعلى مكانة وأصلح حالا مما هو الآن . وموطن الضعف في النظام البرلماني الفرنسي ، انما هو في منح سلطة عظيمة لمجلس النواب . فرئيس الجمهورية ، هو من الناحية النظرية ، رئيس السلطة التنفيذية ولكنه في الواقع ليس الاّ صورة . ورئيس الوزارة هو رئيس السلطة التنفيذية الفعلي . ثم انه واعضاء وزارته مسؤولون امام مجلس النواب ، وفي السنوات الاخيرة اصبحوا مسؤولين امام مجلس الشيوخ كذلك

ومجلس النواب الفرنسي ، مؤلف من احزاب كثيرة ، قيل انها سبعة عشر حزباً في المجلس الحالي وقد تزيد. والفرق بين الحزب الواحد ، والحزب الذي إلى يمينه او الى يساره ، قد لايكون إلاّ يسيراً ، ولذلك يقتضي انشاء الحكومات الفرنسية ، انشاء كتل مؤتلفة من طوائف من الاحزاب ، لها كثرة في المجلس . فاذا عرضت مسألة يختلف فيها رأي الاحزاب المؤيدة للحكومة ، استردَّ بعضها تأييدهُ للحكومة فتسقط الوزارة ، فيعهد الى من يستطيع انشاء كتلة اخرى مؤتلفة من الاحزاب ، في تأليف الوزارة التالية . وهذا محتمل إلى حدٍّ ما . ولكن اذا عجز مجلس النواب عن ايجاد اكثرية مستقرة بعض الاستقرار تستند اليها الوزارات المتعاقبة ، تضطرب الحالة اي اضطراب ، وتعجز الحكومات عن تصريف شؤون الامة . وهذا ما حدث في مجلس النواب الفرنسي الذي انتخب سنة ١٩٢٤ ، وفي مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ وفي الحالين ، كانت الاكثرية لاحزاب الميسرة — الاشتراكيين ، والراديكاليين الاشتراكيين — وفي الحالين كذلك انشأ هذان الحزبان ائتلافاً دعي « كتلة اليسار » Cartel des Gauches في خلال الحرب الانتخابية، فاستطاعا معاً ان يفوزا بأكثرية المقاعد في المجلس. فلما اجتمع المجلس المنتخب فُضَّ الائتلاف ، لان الاشتراكيين يرفضون الاشتراك في حكومة اذا لم يكونوا وحدهم يستطيعون ان يؤلفوها من دون ان يستندوا الى تأييد حزب آخر. ولكنهم مع رفضهم كانوا يؤيدون الحكومات التي يؤلفها زعماء حزب الراديكاليين الاشتراكيين على شروط خاصة لكي يظلوا احراراً في استرداد تأييدهم متى شاءوا

وكانت حكومات الراديكاليين الاشتراكيين تستند الى احزاب الوسط او ما يليها من احزاب الميمنة ، اذ تفقد تأييد الاشتراكيين لها وكذلك كانت حكومات الرايكاليين الاشتراكيين — ومن

زعمائهم هريو ودالاديه — في مجلس ١٩٢٤ و١٩٣٢ رهناً باهواء من يؤيدها من الاحزاب ، ومن هنا منشأ التقلقل والاضطراب ، وسقوط الوزارات وقيامها ، بين عشية وضحاها

اما الاصلاح الدستوري الرئيسي الذي يراه المسيو دومرج وعلى صخرته تحطمت سفينة وزارته القومية هو ان يمنح رئيس الوزارة حق حل مجلس النواب بعد موافقة رئيس الجمهورية . فالدستور الفرنسي الذي وضع سنة ١٨٧٥ يمنح رئيس الجمهورية الحق في حل مجلس النواب ولكنه يحتاج في حله الى موافقة مجلس الشيوخ . وقد كان الغالب ان مجلس الشيوخ يرفض ان يمنح هذه الموافقة

ذلك ان هناك منافسة بين مجلسي الشيوخ والنواب في فرنسا ، واتجاها المجلسين متعارضان دائماً فاذا اتجه مجلس النواب ، الى اليسار والتطرف ، اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليمين والاعتدال او المحافظة . والعكس بالعكس . اي اذا اتجه مجلس النواب الى اليمين والمحافظة اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليسار والتطرف . خذ مثلاً على ذلك مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ ، فقد كان أكثر تطرفاً من المجلس الذي سبقه ، لذلك اتجه مجلس الشيوخ ، أكثر مما كان قبلاً ، الى المحافظة . ولو أن أحد رؤساء الوزارات الراديكالية الاشتراكية طلب في خلال السنتين الماضيتين ، حل مجلس النواب الفرنسي ، لكان فعل ذلك وهو واثق او متأمل على الاقل ، ان تزداد أكثريته في المجلس . وهو غرض لا يتفق ونزعة مجلس الشيوخ المحافظة ، ولذلك كان يرجح في هذه الحال ان يرفض مجلس الشيوخ التسليم بالحل ، لانه طبعاً لا يرضى ان يجيء مجلس جديد تكون فيه قوى احزاب اليسار ، اعظم مما هي

ومن هنا نرى ، ان مجلس النواب الفرنسي ، لم يحل قبل ميعاد حله الطبيعي إلاَّ مرة واحدة ، في خلال تاريخ الجمهورية الفرنسية الثالثة

فاذا قابلنا هذه الحالة بما يماثلها في بريطانيا ، وجدنا ، ان لرئيس الوزارة البريطانية ، ان يطلب الى مليك البلاد حل مجلس النواب والمليك قلما يرفض ذلك الطلب . فاذا احسَّت وزارة من الوزارات البريطانية ، أنها أخذت تفقد أكثريتها التي تستند اليها في المجلس ، أو اذا اختلفت مع المجلس على خطة أساسية من خططها او تشريع مهم ، يرمي الى اصلاح معين تقيم له الوزارة شأناً كبيراً ، — لان المجلس لا يدري حقيقة ما يطلبهُ الرأي العام في صدد هذا التشريع — طلب رئيس الوزارة حل المجلس واجراء انتخاب عام ، على أساس المسألة المختلف فيها . فاذا كان الرأي العام مؤيداً للتشريع المقترح من قبل الحكومة ، أقبل على انتخاب مرشحيها في الانتخاب العام وكذلك يعود حزب الوزارة الى المجلس وهو اقوى مما كان ويعاد تأليف الوزارة فتستطيع ان تقر التشريع المطلوب . كذلك فعل بلدوين سنة ١٩٢٤ فقد كان له أكثرية في مجلس النواب ولكنه اراد ان يدخل الحماية الجمركية ولكن المجلس الذي انتخب قبيل ذلك وكان لبلدوين أكثرية فيه لم يكن قد انتخب على أساس الحماية الجمركية لذلك رأى بلدوين انه لا بدَّ من استفتاء الشعب ، فطلب حل المجلس الى المليك ، فحل واجري انتخاب بريطاني عام ، على أساس « الحماية الجمركية » فخذل أنصارها اي بلدوين واتباعه وانشئت حكومة العمال الاولى برآسة

المستر مكدونالد . وعلى الضد من ذلك تجري الانتخابات الفرنسية العامة في مواعيد معينة ، اى عند ما تنتهي مدة مجلس النواب اي مرة كل اربع سنوات وقد يحدث — وهو الغالب — ان لا يكون على الناخبين ان يبدوا آراءهم في مسألة خطيرة بعينها وقت الانتخاب فيتسع المجال للمشعوذين السياسيين ووعودهم الخلابة . هذا فيما يتعلق بالاصلاح الدستوري الاسامي ، الذى يطلبه المسيو دومرج

ثم هناك نظام الاستجواب في مجلس النواب الفرنسي . فان النواب يتمادون فيه لاغراض خاصة في الغالب، فيستجوبون الوزير المختص او رئيس الوزراء في اقل مسألة ادارية ، ورئيس الوزراء مسئول عن وزارته بوجه الاجمال ، وقد يفضي الجدال العنيف في مسألة لا شأن لها على الاطلاق ، الى سقوط الوزارة وحدوث اضطراب في الدوائر السياسية ، مع ان تلك المسألة قد لا يكون لها اي اثر في سياسة الوزارة بوجه عام . ومع ان البلاد تكون راضية عن الوزارة وخططها

بل ، ان نظام الاستجواب هذا ، غير المقيد بقيد ما ، يصرف النظر عن العناية بشؤون التشريع الخطيرة ، ويفضي في الغالب الى التراشق بالتهم والمؤاخذات الشخصية . ولما كان نظام الاحزاب في مجلس النواب الفرنسي ، مضطرباً كالزئبق ويهم الوزارة ان تحتفظ بالاكثرية التي تؤيدها ، افضى نظام الاستجواب ، الى قسر الوزارة على العناية ، بموضوعات الاستجوابات المختلفة — واكثرها تافه — وكذلك تراهم ينصرفون مرغمين عن العناية بما هو اهم منها من الاعمال الادارية الخاصة بهم

ثم هنالك نواح اخرى . فبعضهم يفكر مثلاً في نقص عدد النواب والشيوخ ولا يخفى ان عدد النواب في المجلس الفرنسي ٦١٥ وعدد الشيوخ ٣٠٠ شيخ . يضاف الى ذلك التفكير في منح السلطة القضائية الحق في الفصل في شرعية القوانين التي تسن وهو النظام الذي تسير عليه الولايات المتحدة الاميركية . وقد قرأنا اخيراً ، انهُ ثبت من تحقيق فضيحة ستافسكي ، ان طائفة كبيرة من النواب تنتظم انتظاماً صورياً في شركات مختلفة ، بقصد ان تستفيد الشركات من نفوذهم ومقامهم ، وان هذا العمل افضى الى ضروب من الفساد والارتكاب ولذلك . يفكر البعض في اقتراح تعديل او سن قانون دستوري ، من شأنهِ ان يحول دون امثال هذه الفضائح التي تضعف من مقام الحكم الديمقراطي في نفس الشعب الفرنسي . وطريقة ادخال تعديل على الدستور الفرنسي ، هو ان يعرض التعديل على مجلسي النواب والشيوخ ، كل على حدة ، فيقترع كل مجلس على التعديل كأنهُ مشروع قانون عادي . فاذا وافق المجلسان — كل على حدة — على التعديل، اجتمعا في هيئة مؤتمر، واقترعا عليه مجتمعين ، والاكثرية المطلقة تكفي لادخال التعديل على الدستور حينئذ

لما الَّف المسيو دومرغ وزارتهُ القومية في فبراير كان احد اغراضه تعديل الدستور الفرنسي تعديلاً يتفق ورأيه المتقدم . ولكن وزراء الحزب الراديكالي الاشتراكي رفضوا تأييده في هذا الصدد خوفاً من ان تفضي الزيادة في سلطة رئيس الوزراء الى تحكم دكتاتوري من جانب رئيس وزراء ليس في خلق دومرغ الدمقراطي . فسقطت وزارتهُ في اوائل نوفبر وتألفت الوزارة الحالية برآسة المسيو فلاندان



مملكة المرأة

ضامنات الحب

وهي محاورة بين فتاة وأبيها

لحنا نمباز

الوالد : من ملك جوهرة حرص عليها . والحب اثمن جواهر الوجود . فيهمنا وقايته بما نملكه من ضامنات

الفتاة : الذي أفهمه يا والدي ان للحب آفات وان له ايضاً ضامنات . ولقد أحسنت في انك قدّمت هذه على تلك

الوالد : واول ضامنات الحب : تبادل المصلحة : وارجو ان نتفق في الكل وان اختلفنا في الجزء

الفتاة : فهمتك يا والدي . فانك تؤسس العلاقات البشرية على المصلحة ، على جلالة قدر تلك العلاقات كالحب والدين

الوالد: ألا تعلمين يا عزيزتي ان المرء عبد مصلحته ؟ فاذا فقدت المصلحة زال الحب . فالمصلحة ، مادية او روحية ، هي ضالة الانسان ، ينشدها حيث يجدها . فهو ابداً انتفاعي، في سياسته ، والمصلحة بعد كل حساب هي فوق كل عامل في الوجود . وفي حبه وفي دينه

الفتاة : مع ميلي للتسليم بذلك ، ارجوك ان تزيدني ايضاحاً

الوالد : هل رأيتِ الفلاح يدفن البذار في التربة ؟

الفتاة : مراراً

الوالد : فلو حكّمت النظر دون الاختبار لجزمتِ بأنهُ مجنون . لانهُ ينفق قوته عبثاً ؟

الفتاة : والحال انه يبذل القليل ليجني الكثير فهو ليس بمسرف

الوالد : هذا هو سنّ الانسانية الاسامي: بذار واستغلال. ناموس عام في جميع الدوائر الانسانية ومنها:

١ : الطالب في المدرسة : يقضي السنين الطوال ، وينفق بدر الاموال رغبة في احراز العلم ليتمكن من تحصيل الاموال والمراتب واللذائذ

٢ : الوالدون : ينفقون كثيراً على اطفالهم . آملين انهم في مستقبل الزمن يكونون سنداً لهم

٣ : كذلك الشركاء ، والمتضامنون

الفتاة : وهل التدين ، ومحبه الله هو من هذا القبيل ؟

الوالد : الديانة حسب وضعها الاصلي هي اما رغبة في ثواب ، او رهبة من عقاب . فهي مذهب نفعي

الفتاة : اولا يوجد تدين لله ؟ لا رغبة في جنة ، ولا رهبة من نار

الوالد : لا اظن واليك نصوص التوراة ، وهي المرجع الديني الاسمى عندنا

١ً : اكرم أباك وأمك لكي تطول ايامك على الارض الخ
٢ً : ان سمعتم واطعتم تأكلون خير الارض
٣ً : وان ابيتم وتمردتم يأكلكم السيف
٤ً : ان سمعت لكلامي وحفظت اقوالي : فمباركاً تكون في خروجك ومباركاً تكون في دخولك الخ

***

الفتاة : كان ذلك يا والدي في طفولة الديانة وطفولة الانسانية . ولكن لما ارتقى الانسان تنزه تدينه عن المصلحة فقال له تعالى : اعبدك لا طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، بل حبًّا بك

الوالد : ذلك ما يقوله الفم . اما الحياة اليومية فدلتنا على ان : البشرية لا تزال في طور الطفولة فعلاً ، وهي اسيرة المنافع . واعلمي يا عزيزتي ان للفلاسفة في الفضيلة ثلاثة مذاهب

١ : ان الفضيلة تُراد لذاتها
٢ : انها تُراد للخيرات الناتجة عنها
٣ : انها تُراد للامرين معاً ، لذاتها ونتائجها

فالأول مذهب الرواقيين والكلبيين والمتصوفين اتباع الأفلاطونية وجميع النساك من كل المذاهب ، نصارى ومسلمين ويهود وهندوكيين وبوذيين ومنهم رابعة العدوية صاحبة القول المشهور : احبك لا رغبة الخ

٢ : مذهب الهيدونيين والابيقوريين ومدرسة بنتام ، وكارل ماركس وجميع الماديين في كل عصر وفي كل مصر . وهذا المذهب هو محور التمدن ، وقاعدة السياسة . وهو المذهب النفعي : Utilitarianiom : وهو بخار ميكانيكا الحياة البشرية في كل العصور

٣ : مذهب افلاطون وارسطوطاليس وكنت وسبينوزا وليبنتز . وتوافق تعاليم الاديان التي تقرن الفضيلة بالثواب ، والرذيلة بالعقاب . ولذا كانت الاديان افلاطونية بهذا الاعتبار ، اي ان الفضيلة تُراد لذاتها ، ولنتائجها . وهذا المذهب نظري اكثر من كونهِ عمليًّا . والحب يتمشى على القاعدة نفسها . قال افلاطون افرضْ انّا سئلنا قراءة كتابة بحروف من قطع صغير ، وعن بعد ، فلم نتمكن من تبيُّنها . ولكن احدنا اكتشف ان تلك الكلمات نفسها مكتوبة في موضع آخر بحروف كبيرة . وعلى رقعة واسعة . فمن المعقول انّا نقرأ الكلمات الكبيرة الحروف اولاً . ثمَّ نحوّل نظرنا الى الكتابة ذات الحروف الصغيرة ، ونفحصها لنرى هل الكتابة واحدة في الرقعتين : وهو ، في ما ترين ، رأي حكيم فلننتجُ نحو افلاطون في درس الحب ، فندرسهُ اولاً في الدولة ، ثم في الفرد ، فنتبين حقيقتهُ

الفتاة : اوافقك في ذلك يا بابا فما الحب بين الدول ؟

الوالد : هوذا اليابان وروسيا والمانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا وبولونيا والولايات المتحدة

الامريكية . هل من واحدة من هذه الدول تحب اختها « لله » ؟ . واذا كتب صحافي ان : فرنسا تحب بولونيا لله : افلا تضحكين ؟ . فلماذا تصدقين ان الفرنسي يحب البولوني لله ؟ افليس الفرنسي جزءًا من فرنسا ، وله طبيعتها ؟ فكيف يصح في الفرد ما لا يصح في المجموع ؟ والرأي الفطير هو هذا :

تتألف الدولة من الافراد ، فتعلن طبائعهم وصفاتهم . والحكم في الفرد وفي الدولة واحد . وكما ان المصلحة حافز حب الدولة وضامنها كذلك الحال في حب الفرد . هنالك مصلحة حفزت الى ذلك الحب وضمنته . فالمصلحة اول ضامنات الحب لذا قالوا : حبيبي من نفعني :

الفتاة : اراني يا بابا قد بدأت افتح عيني لنور الحقيقة . فالمرء نفعي في كل شؤونه حتى في حبه

الوالد : الحمد لله . فما قولك في من تزعم انها تحب مع ضياع المصلحة ؟

الفتاة : ارى انها مجنونة — بحسب قياسك —

الوالد : فالمصلحة اولاً . هذا هو الحكم العام . والحب ضد المصلحة ليس مبدءًا انسانيًا ، بل هو مرض نفسي

الضامن الثاني : عدالة المحب . والعدالة ضرورية . وذلك لاربعة اسباب

١ : اخلاقي : لا ثقة بالخائنين الظالمين

٢ : اقتصادي : الحذر من الخسارة

٣ : فنّي : فان الظالم قبيح والعادل جميل والجمال هو المحبوب

٤ : اختباري : عند التناهي يقصر المتطاول

فدرس الشخص يتقدم فتح القلب لحبه ابداً . ومن خالف هذا القانون جنى على نفسه . فالحب لاول نظرة ضلال مبين . والقانون هو امتحن اولاً ثم احكم . واحكم اولاً ثم احب . فالحب قبل الحكم ، وقبل المعرفة ، سخافة وجنون . نعم ان النظرة الاولى قد تقرع ابواب القلب . ولكن العقل لا يسلمها المفاتيح قبل التحقق من سلامة العواقب

الفتاة : ان كلامك هذا يا ابت يوافق رواية شهدناها بالامس في مسرح ديانا وقد استمطرت دموعي

الوالد : وخلاصتها ؟

الفتاة : شاب يتودد الى فتاة . فتمنعت اولاً قائلة له : انك بعد ان تنال مني تتركني . فأغلظ الاقسام انه لن يتركها . فاستسلمت لحبه الزائف . ولما ولدت ثمرة ذلك الحب ، قلاها وانكر حبه وابنته . ولما همت بأن تشكوه للحكومة ، وهو موظف ، وقد خشي سوء العاقبة ، عمد الى الحيلة . فتظاهر بالتوبة وعاد يتودد الى الفتاة . فعادت واستسلمت له كما في المرة الاولى . ولكن هذه المرة اوردها الحتف المريع فركب معها قصد التسلية . ولما بلغا وسط النهر تقلب ذلك الافعى في صورة انسان . والقى بها الى اللجج فماتت غرقاً ، وقد رأيتها تستغيث ولا مغيث

الوالد : فاذا انتفت المداللة ، فلا ضمان للحب . والاّ فأين الوجد والغرام الذي كان بين هذا وتلك وهو الآن يلقي بها الى التهلكة ؟

والضامن الثالث : خلق المحبوب . اي الخلق الحسن . واذا فقد المحبوب الخلق الحميد فلا ضامن لثبوت الحب بل على الضد من ذلك ينقض الحب سريعاً . عرفت فتاة قبل نحو ثلاثين سنة ، في شرخ الصبا ، وهي آية في الجمال كالبدر وجهاً ، والمهى عيناً ، والورد خداً ، والغصن قداً ، والرمان نهداً ، مقببة الصدر ، نحيلة الخصر ، مصقولة النحر ، مجدولة الساعدين ، ريا المخلخلين ، بسامة ، هيامة ، طروب لعوب . كالصبح طلعتها والليل طرتها والند نكهتها

الفتاة : وماذا فعلت بها يا بابا ، قبل الثلاثين ؟

الوالد : كما يفعل من كان مثلي ، بمن كان مثلها ، اي اني شغفت بها سريعاً . هذه هي النظرة الاولى ولكنها شرعت تتكلم ، فاذا هي بليدة ، ثم اخذت اعاشرها ، فاذا هي حمقاء . فشرع قلبي ينسحب ويتراجع ، حتى صار قلبي في الشرق وهي في الغرب . فأن حسنها جذبني اليها ، ولكن خلقها دفعني عنها

الفتاة : وهوت شامخات حبك يا بابا

الوالد : الى ادنى الدركات يا فتاتي

الفتاة : وجمالها ؟

الوالد : توارى بالحجاب

وما ينفع الفتيان حسن وجوههم اذا كانت الافعال غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كلُّ مصقول الحديد يماني

ان سوء الخلق يرغم العاقل على هجر الحبيب . فيطير الغرام كندى الصباح . والخلق الحميد هو السيد الازلي على القلب ، لانه له قد خلق وله يدين

والضامن الرابع : ملاءمة الاحوال

الفتاة : احتجاج يا بابا . فانك تعلّق الحب على الاحوال والحب لايخضع لحكم الاحوال بل هو فوقها

الوالد : وهل عليَّ من حرج وانا اقرر الواقع ؟ فقد تتحكم الازمات المالية في الناس فيصيرون الى الفاقة بعد الثراء ، والالم بعد اللذة ، فتذوي يانعات الحب بريح السموم الهابة عليه

الفتاة : اراك تلاشي الحب يا أبت

الوالد : لاني عن عقل أتكلم لا عن هوى

والعقل والهوى على طرفي نقيض . واراهما في كفتي ميزان . فحيث رجح العقل خفَّ الهوى . ولا يرجح الهوى الاّ وقد رُجح العقل . ذلك في ما ارى ناموس الاجتماع والسيكولوجيا . اجل قد يتغلب الحب على الاحوال ، ولكن ذلك في واحدة من الف . فلا تنسي التسعمائة والتسع والتسعين . لان الحكم على الناموس العام . والنادر لايقاس عليه

الفتاة : لقد احزنتني على روحي وعلى الحب وعلى بني حوّاء . ابهذا المقدار حبهم تحيف وبه يفخرون ؟

الوالد : مهلاً . فهنالك ضامن خامس للحب وهو ضامن وثيق

الفتاة : رجاءً . فما هو ؟ . اني اراك نسفت الحب نسفاً

الوالد : مهلاً . هل تذكرين انك شربت من ينبوع صافٍ ؟

الفتاة : في لبنان لا في مصر

الوالد : وهل تذكرين العودة الى الارتشاف المرة بعد المرة ؟

الفتاة : اذكر ذلك ولي فيه سرور عظيم

الوالد : فلماذا لا يأسن ماء النبع كما يأسن ماء البرك ؟

الفتاة : لأن ماء النبع متجدد . وماء البرك غير متجدد ، بل هو راكد

الوالد : ذلك ما ارمي اليه

فتجدُّد اللذة هو ضامن ثبوت الحب . والحب ارتشاف من ينبوع فياض . اما اذا كان من بركة لا يتجدّد ماؤها . فالعاقبة وخيمة . لان الماء الآسن تعافه النَّفس . هذا داء الحب الدفين

الفتاة : افصح عن مرادك . ماذا تريد بالتجدُّد هل تجدُّد الرغبة في نفس المحب ، او زيادة الكشف عما في المحبوب من مجالي الجمال ؟

الوالد : اريد هذا الثاني بالاكثر

للحب موضوعات واغراض . ولهذه الاغراض اثر في النفس . فاذا كان المحبوب غنياً في حقيقة الجمال . كان اعلان ذلك الجمال نبعاً فياضاً تتجدّد مياهه فلا يأسن . فيظل المحب منفعلاً انفعال القطار بتجدّد البخار . واذا انقطع البخار وقف القطار . واذا جمد المحبوب ذوت يانعات الحب في نفس من يهواه

واراني كدت المس الحقيقة الازلية وهي : الحب الخالد هو حب النفس : لأن الجسد يشيخ ويهرم ويذبل فالحب المرتبط بنضارة الجسد وبريق العيون هو كالبخار في الجو . يظهر قليلاً ثم يضمحل . اما النفس فلا تشارك الجسد في هرمه . بل تزداد صبوة وجمالاً كلما تقدّم المرء في السن . فلا تشيخ النفس الجميلة مع الزمان ، بل تتجدّد مجالي جمالها ونضارتها . فمن اهم ضامنات الحب ان لا يكون محصوراً في الظاهرات . فزعازع الحب وآفاته كونه سطحياً . وليس للسطحيات حظ من الخلود . ان الخلود حظ اعمق اعاميق الوجود

الفتاة : شكراً لك يا بابا . فقد رأيت الحب غير ما كنت اتوهمه قبلاً

الوالد : ولسوف ترين اكثر مما رأيت الآن . فليس ما امليته على مسمعك الساعة الا قطرة من يمّ او قليلاً من جم

الحمية في الامراض

للدكتور عبده رزق

متى يجب اطعام المريض وفي أية حالة يجدر بنا ان نحتم عليهِ اتباع الحمية ، اعني الامساك عن الطعام ؟ تلك امور لا يجهلها احد من الناس تقريباً لكن اذا ما اتى دور التطبيق العملي وخصوصاً دور التفصيلات الدقيقة في كيفية الاعتناء بالمرضى فالتردد يمنع في غالب الاحيان اتخاذ قرار جازم للعمل به . ولذلك يتريث بعضهم وينتظر ما يأتي بهِ الغد علَّهُ يوحي بفكرة يركن اليهــا ، او ان ينتهي الامر على احسن حال من تلقاء نفسه من دون معرفة حقيقية للطريقة المثلى الواجب اتخاذها من هذه الناحية

ويلاحظ من بضع سنين عند فريق من الاطبــاء ميل جديد الى تفضيل الاطعمة الجامدة على سواها وقت حدوث الامراض المعدية . فهذه الطريقة المبتكرة في اتباع الحمية التي يتخيل لاصحابها تحقيق نجاحها ، لا تعود فقط بنا ٢٥٠٠ سنة الى الوراء قبل ولادة ابقراط ، بل انها تؤدي الى اوخم العواقب اذا كان القصد منها تخفيف وطأة تلك الامراض او إزالتها

وغير خاف ان الحمية تقوم بتقليل الطعام ، فهذا التقليل يمكن ان يؤول في بعض الحالات الى منع كل طعام سائلاً كان ام جامداً ، وفي احوال اخرى تقتصر الحمية على التغذية المائية او اللبنية . اما اذا كان المرض خفيف الوطأة او في دور النقه فلا مانع يمنع اضافة بعض الاطعمة الجامدة الملائمة

فلكل من هذه الطرق المختلفة في اتباع الحمية ظروف استعمالها ويمكننا ان نقسمها هنا بايجاز الى ثلاثة اقسام وهي : (١) ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة (٢) الاقتصار على الاطعمة المائية او اللبنية (٣) تقليل الاطعمة السائلة والجامدة

١ — ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة

تكون طريقة هذه المداواة بنوع خاص في امراض الجهاز الهضمي . وبين الاعراض الموجبة لاستعمال الطريقة المذكورة بصورة مطلقة القيء الدموي مع التقيوآت الاخرى المختلفة . فالقيء الدموي تختلف اسبابهُ ويكون في اغلب الاحيان ناشئاً اما عن وجود قرحة في المعدة ، او سرطان ، او مرض في الكبد (يرقان مزمن) او قد يكون احد امراض الدم العمومية كالحميات الحادة والملاريا والاسقربوط ، فالمداواة العاجلة لهذه الحالات هي واحدة مهما كان سبب القيء ، وعلى كل يجب ترك الوقت اللازم للدم المتخثر الذي يغطي المكان المتأكل في المعدة ريثما تتكون فيهِ الالتحامات الجديدة ثمَّ اندمالها

فاراحة العضو المريض اذن بالحمية عن السوائل والجوامد تتركان له والحالة هذه الوقت اللازم لاصلاحه وإعادته الى حالته الاصلية . أما مدة الانقطاع هذه فتختلف باختلاف طبيعة القيء الدموي : ففي السرطان أو أمراض الكبد مثلاً لا يتطلب النزف الدموي بوجه عام أكثر من يومين او ثلاثة لاراحة العضو ، بينما في قرحة المعدة تكون مدة الاراحة اطول . وعند ما يكون النزف شديداً يمتنع المريض عن كل طعام مدة تتراوح بين الثمانية ايام والاثني عشر يوماً وفي خلالها يحقن كل ساعتين او ثلاثة بـ ٢٥٠ غراماً من الماء الفاتر (المغلى قبلاً) مضافاً اليهِ ٢ بالالاف من ملح الطعام منعاً لجفاف انسجة الجسم . ومن الحكمة ألاّ يزيد عن ذلك مقدار الماء المذكور في كل مرة خشية من تهيج غشاء المعدة المخاطي وحصول فعل عصبي عكسي ينشأ عنهُ افرازات العصارة المعدية الحامضة في مقادير وافرة ومعلوم ان افرازات هذه العصارة تكون زائدة في حالة وجود قرحة في المعدة

واذا ما اعترى المريض دوار أو اغماء يخشى منهما على حياته فيعمل له حينذاك حقنة صغيرة شرجية بالماء مع قليل من الكنياك . اما اذا استمرّ القيء رغماً عن ذلك فيستحسن أن يغذّى بالحقن المغذّية

أما التقيوآت الاخرى فأشدها خطراً هي التقيوآت الناجمة عن التسممات البولية Urémie وهي كثيراً ما تؤدي الى الوفاة في أيام قليلة . اما فيما عدا هذه فالتقيوآت بوجهٍ عام تهدأ بسهولة بالراحة التامة للمعدة ويساعدها على تحسين الحالة سريعاً منع المريض عن كافة الاطعمة

وهناك حالات اخرى من التقيُّؤ ، وهي فجائية ، لا علاقة لها بالهضم فيجب ان نخشى إذ ذاك من وجود فتق مختنق . فالالم المحلي الذي يسببه هذا الفتق ، لا سيما عند المرأة ، يكون احياناً خفيفاً جدًّا والمريض لا يشعر بهِ ولا يشكو منه ، حتى اذا اقتضت الضررة بعدئذٍ العلاج الجراحي ولم يبق مفرٌّ منهُ يكون الوقت قد فات .

أما تقيّوآت الحمل المستعصية فتتطلب في بعض الحالات ايضاً منعاً تامًّا عن الاطعمة وذلك لمدة بضعة أيام ، والاكتفاء في خلالها بحقن ٢٠٠ غرام من الماء المالح (٥ بالالف) مرة كل ثلاث ساعات

٢ — الاطعمة السائلة وظروف استعمالها

ان هذه الحمية للمريض يمكن ان تقتصر على الحليب . فالحمية المائية ليست الاّ مداواة اضطرارية تستعمل في احوال خاصة ولا يمكن ان تدوم اكثر من أيام قليلة لكنها ذات فوائد لا ينكرها باحث واستعمالها المذكور يكون عادة في الساعات التي تعقب المنع التام عن الاطعمة ، وكواسطة أيضاً لتعويد المعدة الرجوعَ الى الطعام . كذلك في الزائدة المعوية والالتهاب المعوي الصفراوي . او وقت ابتداء الامراض المعدية والتسمم البولي

فعلاج الزائدة المعوية يلخص في الامور الثلاثة التالية : (١) وضع كيس ثلج على مكان الألم ، (٢) حقن مورفين تحت الجلد (نصف سنتغرام) مرتين الى ثلاث يوميًّا ، (٣) الاقتصار على شرب الماء أثناء الستة أو العشرة الايام تقريباً ، اي طيلة وجود الالم الموضعي الحاد ، وانه لا مانع في هذه

الحالة من شرب منقوع ماء الزيزفون او البقلة او الشاي الخفيف ايضاً . واذا كان المريض متقدماً في السن فلا بأس ايضاً من السماح له، ابتداء من اليوم الثالث بتناول صحن او صحنين من مرق بعض الخضروات المطبوخة من دون سمن (٦٠ غراماً من البطاطس والجزر والفجل والفاصوليا الخضراء في ١٠٠٠ غرام ماء وتغلى الى ان تصير الى ثلث حجمها ثم تصفى بعد ذلك)

ومن الضرر الكلي استعمال اللبن الحليب في الزائدة المعوية ، لانهُ يساعد على تولد الاختمارات المعوية كما انهُ لا يصلح بوجهٍ عام في الالتهابات المعوية المختلفة سواء أ كان ذلك عند الرضيع أم عند البالغ . واللبن الحليب الذي يعطى للمريض عن جهل في حالة كهذه لا يعمل الاَّ على اطالة المرض ان لم يزده تفاقماً . هـذا عدا ان في بعض الحالات المزمنة يجب الامتناع عنه بتاتاً مدى بضعة شهور والاكتفاء في خلالها بمرق بعض انواع الدقيق الغذائي من دون لبن حليب . وقد اعتاد بعضهم حين ابتداء الامراض المعدية ان يصف للمريض الحليب والمرق فهذه الطريقة قد تكون غير صالحة . . ويظهر ان الالتهابات المعوية بل وبعض الامراض الاخرى ايضاً ترتاح الى الحميـة المائية . كالانفلونزا والتهاب اللوزتين والخناق التي اتضح انها تشفى بأسرع وقت في الست وثلاثين الساعة الأولى . ومما هو جدير بالذكر ان مدارس الطب في القرن الثاني للميلاد كانت تصر كثيراً على هذه النقطة فتوصي اولاً باستعمال الماء الحار ومن ثم ماء الارز والشعير ، وفي احيان اخرى ، كما في الانفلونزا والذبحة الصدرية، كانت توصي باستعمال الماء الحار في اليوم الاول والحليب والمرق المجرد عنهُ الدسم بعد اليوم الثاني او الثالث

***

أما في الحمى التيفية فالاقتصار على شرب الماء خلال مدة المرض يُعدُّ مغالاة وتجاوزاً للحدّ في نظرنا . وفي الواقع يمكن اعطاء المريض بعد اليوم الثالث او الرابع ، الحليب ومرق البقول او مرقاً خفيفاً من لحم الدجاج او الثور بعد نزع الدسم منهُ (لتر ونصف حليب ، ونصف لتر مرق، ولتران الى ثلاث لترات ماء) ، ويحسن عدم الاكثار من الحليب ، لأنهُ ، على ما ذكرنا سابقاً ، مهيج للاختمارات المعوية ، ومعلوم ان الجهاز الهضمي يكون في حالة سيئة عند المصاب بالحمى التيفية ، كذلك يستحسن عدم الاكثار من المرق لانهُ مملوح والملح يصعب طرده في الامراض الحادة . اما الاطعمة المغذية التي يوصى بعضهم باستعمالها منذ بضع سنين فلا يخلو استعمالها هذا من الخطر

اما ظروف استعمال اللبن الحليب وفوائده الجمة في كثير من الامراض فغنية عن الشرح والبيان، ففي كافة الامراض التي يشار فيها بتناول الماء يعقب ذلك تناول الحليب . غير انه في بعض الحالات (كالالتهابات المعوية الهيضية وغيرها) يجب الاحتراز في هـذا الاستعمال بتناول مقادير قليلة لأنه كثيراً ما يسبب رجوع الاضطراب الى تلك الامعاء

وبين الامراض التي ترتاح بنوع خاص الى استعمال اللبن الحليب يجب ان نذكر بعض امراض المعدة والقلب والاوعية الدموية والكليتين والمثانة ومن هذا نفهم ان الحليب لا ينجح في كافة امراض المعدة ، وكما انه يفيد في حالة ازدياد العصارة المعدية الحامضة تكون فائدته معدومة بالعكس وقت نقص هذه العصارة لا سيما في الاختمارات المعوية . اما الحالات التي يجب الاقتصار فيها على الحليب فيعطى المريض كل ثلاث ساعات ، من الساعة ٧ صباحاً الى ١٠ مساء ، نصف لتر حليب يؤخذ بجرعات صغيرة في مدة نصف ساعة وذلك لمدة عشرة ايام تقريباً . لكن في قرحة المعدة قد تطول هذه المدة الى الثلاثة الاسابيع والشهر و الشهرين ايضاً حتى اذا زال الالم يضاف الى الحليب ملعقة او ملعقتان من الدقيق الغذائي ويغليان قبل الاستعمال وافضل طريقة لتحمل شرب الحليب بسهولة تكون باضافة قدر ملعقة حساءٍ (شوربا) من ماء الجير الى كل كأس من الحليب او نحو ١٠٠ غرام من ماء الجير في الاربع والعشرين ساعة

***

أشرنا فيما تقدم الى منافع اللبن الحليب ايضاً في بعض امراض القلب والاوعية الدموية ، لكن تطبيق هذا الاستعمال هو هنا عمل معقد يحتاج الى شرح واف لا يتسع لهُ هذا المقام . اما في امراض الكلى فشهرة تلك المنافع لا ينازعهُ عليها منازع لانه العلاج الممتاز في كافة التهاب الكلية الحادة : فيؤخذ منه اذ ذاك حتى ثلاثة لترات يومياً وتستمر الحال على ذلك مدة ١٥ الى ٣٠ يوماً ، ويستحسن ان يضاف اليه ، ابتداء من اليوم الخامس عشر ، قليل من الدقيق الغذائي ليصير بشكل ثريد غير مملح . لكن في التهابات الكلية المزمنة قد فقد الحليب شيئاً من مكانته الممتازة منذ ان عرفت فوائد التغذية غير المملحة Regime dechlorure وفي هذه الحالة يعطى المريض يومياً قدر لتر حليب مع بعض الخضروات وقليلاً من اللحم غير المملح

ولا يفوتنا ايضاً ذكر منافع اللبن الحليب في التهابات المثانة خاصة وقت ابتداء التهابها الحاد على ان يكون تناوله باعتدال .. لأن الافراط في شرب السوائل من شأنه ان يسبب تمدد المثانة ويزيد في التهابها . وخلال مدة استعمال الحليب يمكن للمريض ان يأخذ مشروبات ملينة مدرة للبول : كالخطمية وغيرها ، ثم بعد عشرة ايام من ذلك يبدأ بمداواة سبب الالتهاب

٣ — تقليل الاطعمة الجامدة والسائلة

ان الاطعمة على انواعها قد تكون خطرة على صحة الانسان سواء من جهة مقدارها ام من جهة نوعها . وفي حالة المرض بنوع خاص هناك شرطان مهمان لا بد من العمل بهما : اولاً انتخاب ما يوافق من تلك الاطعمة . ثانياً عدم الافراط في تناولها . فالمواد الغذائية المعروف انها غير مضرة تعرّض المريض لعواقب غير محمودة حينما تؤخذ مقادير كبيرة منها . وكما ان الافراط في تناول الاطعمة الجامدة يتعب القلب والجهاز الهضمي ، كذلك الافراط في تناول الاطعمة السائلة يتعب

الكلى والاوعية الدموية . فلتران من السوائل يومياً يكفيان عادة للشخص السليم ، حالة ان المقدار نفسهُ قد لا يكفي للشخص المريض ، وهذا المقدار يختلف باختلاف كل حالة

وفي امراض المعدة من الضروري تجنب بعض الاطعمة الفجة وغير المطبوخة ، والمعجنات والمواد الشحمية . كذلك في امراض الكبد يجب الابتعاد على التوابل والمشروبات الكحولية ويجب الامتناع في امراض الكلى عن اللحوم والمرق الدسم والاطعمة الزائد ملحها ايضاً

اما في امراض القلب فالذي يؤذي بنوع خاص مقدار الاطعمة سائلة كانت ام جامدة، والتي فضلاً عن انها تمدد المعدة وتعوق بهذا وظيفة القلب ، تحدث امتلاء الاقنية الدموية فيتضاعف بذلك شغل القلب ، وتزداد الحالة سوءًا

***

ومن الحكمة في دور النقه من الامراض المعدية (كالحمى التيفية او الحصبة مثلاً) اعطاء الطعام الى المريض بصورة تدريجية . ففي الحالة الاولى (الحمى التيفية) يجب التريث حتى هبوط الحمى لتحت الدرجة ٣٧ وحينئذ يعطى مدة اربعة ايام بعض انواع الحساء ، واذا سهل تحمل هذا فيعطى بعدها شيئاً من اللحوم الحمراء ، اما اذا عادت الحمى فيجب الرجوع الى الاطعمة السائلة ، لكن في الحصبة يجب الاقتصار خلال الخمسة عشر يوماً (دور النقه) على الاطعمة اللبنية والنباتية

واخيراً في الزائدة المعوية لا يجب اطعام المريض الاَّ بعد زوال الالتهاب الموضعي اي بعد مضي عشرة ايام تقريباً ، اذ لا توجد قاعدة عامة يعمل بها بصورة مطلقة . فالخواص الشخصية تخلق كثيراً من الشذوذ بين كل فرد وآخر

٤ — خلاصة فوائد الحمية والاسباب الموجبة لها

إن فوائد هذه الحمية تنحصر في الامور التالية : إراحة العضو او الاعضاء المريضة، توفير التعب على المسالك الهضمية ، تنزيل درجة الحرارة في الحميّات وما اليها ، المساعدة على ازالة الانتفاخ في أمراض القلب والكلى ، عدم تهيئة محيط صالح لنمو أنواع البكتريا المعوية بما يتناوله المريض من الطعام وأخيراً تقوية مناعة الجسم ، أي مقاومته لميكروبات الامراض وسمومها . وإثباتاً لهذا قد أخذت طائفة من الحيوانات وحقنت بسموم مكروبات مرضية : فالتي ابتلعت منها طعاماً كان فتك المرض بها أسرع بكثير من تلك التي لم تعط أي طعام

أما اضرار الحمية — اذا كانت هنالك اضرار بمعناها الحقيقي — فطفيفة ، والخوف منها أقل بكثير من الخوف الذي يعقب الافراط في الطعام فكل ما يمكن أن يعتري المريض هو قليل من الضعف اذا ما طالت مدة الحمية ، ولذا يجب أن يحفظ مقياس مناسب لكل حالة وعدم الافراط في مدة هذه الحمية فالمسألة مسألة فهم ومعرفة تامة لحالة المريض

قصص الحياة — ٢

رجلٌ وغدٌ

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً وأثراً في نفسها . وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تحلو قراءته او تجل فائدته ، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها مهاو تستطيع نساؤنا ان تجتنبها وفيها على الحالين نبراح من حياة المرأة الغربية يحسن بنسائنا الاطلاع عليها والقصة التالية مبنية على ان الضرار او تزوج الرجل اكثر من زوجة واحدة جريمة يعاقب عليها في القوانين المسيحية]

أتملكينَ من وقتكِ خمس دقائق تفرغين فيها لقراءة قصتي ؟ اذن لنازعتكِ بعد قراءتها عاطفتان ، عاطفة المقت او عاطفة الرثاءِ لحالي . ولست اجد في ايهما ما يخفف عني. ولكنكِ في الحالين لا تستطيعين ان تضرّي بي ، لانني عدت لا اقيم وزناً لآراءِ الناس . فقد كنت فتاةً من اللائي يتصفنَ « بالبراءة » فجلب عليَّ العار والبؤس رجلٌ لاخلاق له ، فحوّل الحلاوة في كأس حياتي الى مرارةٍ ، ومحا آية الغبطة من شبابي

التقيت بتريفور في لندن ، فأحببتهُ وتزوجتهُ في خلال شهر واحد . لم اجد فيهِ عطفاً خاصًّا عليَّ ، ولا تجاوباً خاصًّا بين روحهِ وروحي ، ولكن استرعى عنايتي بهِ ما بدا في تصرّفهِ من كمال الرجولة والخبرة ، ثم ما كانَ ينطوي عليهِ تودُّده اليَّ من شباب ملتهبٍ واغراءٍ قويّ

كنت وحيدة في لندن . وكان يبدو لي ان جميع من ارى من الناس لهم معارف واصدقاء يخففون عنهم ألم الوحدة والعزلة ، او بيوت يأوون اليها فيجدون فيها الدفء والراحة . اما انا فلم يكن لي الاّ غرفة باردة آوي اليها بعد عملي ، ولم يكن لي اصدقاء احدثهم او اختلف معهم الى دور الصور المتحركة او الملاهي او النزه الخلوية

وفي ذات ليلةٍ ذهبت لأتناول الشاي في دكان حلواني قرب المكتب الذي اعمل فيهِ وجلست الى مائدةٍ من دون ان انظر الى اثنين جالسين اليها . ثم التفتُّ فاذا احدهما رجل ، كان قد تردد على المكتب في الايام الاخيرة ، فبسم لي فرددت بسمتهُ بمثلها . كانت عيناهُ زرقاوين وفي وجههِ ملامح ذكرتني بوالدي . وكان يجيد الحديث ، وفي كلامهِ رنةٌ تقرّبهُ اليك ، فشكرت في ذات نفسي للمصادفات التي منحتني ، بعد ما اشقتني بوحدتي ، صديقاً يملأُ ذلك الفراغ في نفسي

حاولت ان احدثهُ ، بعد ما توثقت معرفتنا ببعض ما يقع لي وما كنت احسُّ بهِ قبل تعرفنا ، ولكن جوابهُ الوحيد كان تقبيله اياي ، لكي أنسى ما قاسيتهُ من ألم في الأيام السابقة . فاذا حاولت الآن ان أتذكر الحديث الذي كان يدور بيننا في تلك الأيام ، ذكرت انهُ قلما فاه بشيءٍ عن حياتهِ الخاصة الاّ انهُ مقيم في اميركا الجنوبية وانهُ قادم لانكلترا في رحلة خاصة بعملهِ

كانت تربيتي وبداهتي تصرخان في وجهي ان انصرفي عن هذا الرجل . وكنت اعلم عند التأمل ان الرجل ليس من النوع الذي يوافقني ، وانهُ لا يحسن بي ان اصادق رجلاً لقيتهُ مصادفة ، ولكنني كنت احاول ان اكون فتاة عصرية ظنًّا مني ان هــذا يغريهِ ، وكنت أخشى ان يسأم صداقتي فأعود الى حياة الوحدة التي عانيت آلامها. وكنت متوهمة ان شعوري يتغير عند ما نتزوج

ذلك انهُ كان قد طلب ان اصبح زوجاً لهُ . ولست ادري الآن ما بعثهُ على ذلك . ولست اعرف تعليلاً لذلك ، الاّ انهُ كان رجلاً لا يعرف معنىً لكلمة «التبعة» . ولست ادري هل كان هو وحدهُ الملوم . ولكنني أرى انهُ كان ملوماً كلَّ اللوم بعد كلّ ما بدا من خفاياهُ

انني امقتهُ ، لانهُ كان خسيساً كلَّ الخسة في معاملتي . فقد كان يشتهيني ، وكان يعلم ان لا سبيل لهُ لتحقيق غرضهُ الاّ بالزواج ، فعرض عليَّ الزواج فقبلت وأنا جاهلة غرضهُ الحقيقي ، فكانت حفلة الزواج مقدسة في نظري ، ومن قبيل السخرية في نظره

تزوجت واستأجرنا شقة صغيرة رثـة في احدى ضواحي لندن الجنوبية . ولا اريد ان ادّعي انني كنت سعيدة في الزواج ، مع انني حاولت ان اقنع نفسي بأنني كنت سعيدة . كنت قد نشأت في قرية حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ، فكان اليأس يستولي عليَّ إذ يهجرني للاختلاط بجيراننا ومصادقتهم ، ثم كان يغضب إذ أحاول ان اتعرف بهم ، فكان يقول سوف يتسع امامك الوقت لكل هذا في المستقبل اما الآن فيجب ان تكتفي بي . ولما كان زوجي كنت أنقاد لمطالبهِ

وفي ذات يوم تجلّت لي الحقيقة القاسية ، فهبطت بي الى ادنى دركات اليأس . ذلك ان تريفور قال لي ذات يوم انهُ مضطرٌّ الى السفر الى جنوب اميركا ، وانهُ متى استقرّت بهِ الحال هناك ، بعث يستقدمني اليهِ . وفي اليوم الذي ابحرت بهِ الباخرة تسلّمت كتاباً يقول فيهِ ان لهُ زوجاً واولاداً هناك . فثارت نفسي على هذه الخيانة العظيمة . ولبثت بضعة ايام بعد ذلك مريضة لا اقوى على النهوض ، بل امتنعت عن الاكل والشرب بغية الموت

وكان لنا جارة تعرفتُ عليها قبيل ذلك من دون ان يدري تريفور بذلك ، فجاءت لزيارتي ، لما لاحظت غيابي ، فعطفت عليَّ عطفاً عظيماً ، ولما رأتني استردُّ قوتي قالت لي ، انني لا بدَّ حامل

على انني خجلت كل الخجل ان اقول لها انني في عرف القانون لست صحيحة الزواج ، ولكنها لم تزعجني باسئلتها بل امدّتني ما استطاعت بمعونتها وارشادها ، ودبرت لي تأجير احدى غرف الشقـة لاستعين بايجارها على نفقاتي . وارجو ان تنال تلك السيدة يوماً ما جزاءَ ما صنعت ، فانها اجدر بهِ من اي انسان اعرفهُ

وقع كل هذا قبل سنتين . اما الآن فلي طفل استعذب في سبيله متاعب الحياة رغماً عن الشقاء الذي احاط بولادتهِ . على انني احياناً اخشى ان يعرف والدهُ بهِ فيسلبني اياهُ ، ولكنهُ لن يفوز بهِ ، ولو اضطررت الى قتل الرجل بيديّ

وصايا للزوجين

للزوجة

١ — لا تكوني مسرفة فكل رجل يرغب في ان يكون مستقلاً استقلالاً ماليًّا وهو لذلك يفقد كل لذة في العمل وكسب المال اذ وجد ان ما يجنيه بعرق جبينه ينفق من دون حساب — ٢ — إحفظي بيتك نظيفاً مرتباً لان في البيت النظيف المرتّب يجد الرجل المتعب راحة وطمأنينة — ٣ — أعني بهندامك لان المرأة التي لا تتقن هندامها ولا تعنى بمظهرها الاّ عند الذهاب الى زيارة الاصحاب او دور الصور المتحركة تغري زوجها بالافتتان بغيرها — ٤ — لا تبدي اهتماماً بما يوجهه اليك الرجال من العناية الخاصة فكثيراً ما توغر الغيرة والريبة قلب الرجل من دون سبب الاّ عناية المرأة بثناء الرجال وعبارات التودُّد والثناء المألوفة التي يفوهون بها — ٥ — لا تقاومي زوجك اذا شاء تأديب اولادكما وكان التأديب معقولاً — ٦ — لا تقضي وقتاً طويلاً عند والدتك — ٧ — لا تقبلي نصحاً من أهلك او جيرانك في مسائل تتعلق ببيتك قبل ان تتأملي في امورك وتخاطبي زوجك في شأنها بصراحة تامة فأنت وزوجك شريكان والرأي الصالح وليد المباحثة الهادئة الصريحة — ٨ — شجعي زوجك على الدوام ونشطيه واعربي عن اعجابك بما يجيده — ٩ — كوني بشوشة — ١٠ — لا تنسي ان الامور الصغيرة كبيرة الشأن فكوني حذرة واعمدي في معاملة زوجك الى وسائل العطف والاغراء فالرجال يكرهون ان يقادوا ولكن يسرّون ان يمنحوا ما يطلب منهم بكلمة لطيفة ترافقها بسمة حلوة او ألقة في العينين

للزوج

١ — لا تكن بخيلاً مقتّراً ، فللزوجة حقٌّ في ان تحصل على ما يقوم بنفقاتها وهي اذا دعت الحال قادرة ان تقتصد الى درجة لا تصدّق — ٢ — لا تتعرّض لشؤون المنزل الخاصة بالزوجة ، فهي افضل منك ربة بيت واحكم — ٣ كن بشوشاً لان الرجل المقطب الحاجبين يشقي زوجتهُ وقد يدفعها الى البحث عن الهناءة في غير منزلها — ٤ — لا تجرح شعور زوجتك فالمرأة في الغالب تكون سريعة الانفعال واقرب من الرجال الى التأثر بكلمة قاسية واحدة — ٥ — لا تتوقف عن اظهار محبتك لزوجتك بمظاهر مختلفة بعجلة تبتاعها لها او علبة حلوى او حلية صغيرة او كلمة لطيفة — ٦ — لا تجفو في كلامك معها فهي ندّتك لا خادمك — ٧ — لا تسكن مع اهلها ولا مع اهلك بل انشئا بيتاً مستقلاً — ٨ — لا تسكن في منزلك عائلة اخرى — ٩ — اعنَ بهندامك ولا تقضي يومين من دون حلق ذقنك — ١٠ — انصف اولادك فاذا لم تنصفهم انحازت اليهم عليك

الزوجة ونجاح الرجل

كتب احد الكتاب في مجلة اميركية قصة صريحة عن حياته الزوجية بيّن فيها كيف حالت زوجتهُ بينهُ وبين النجاح التام باستسلامها لاهوائها وضيق نظرها، وذيّل قصتهُ بذكر خمس طوائف من الزوجات يُقعدنَ رجالهنَّ عن ادراك غاياتهم البعيدة

الاولى — المرأة التي لا تبقى زوجةً بعد ان تصبح امًّا فينحصر اهتمامها باولادها وتلهو بذلك عن زوجها وعن مشاركته في الشعور والرأي والاهتمام بعمله

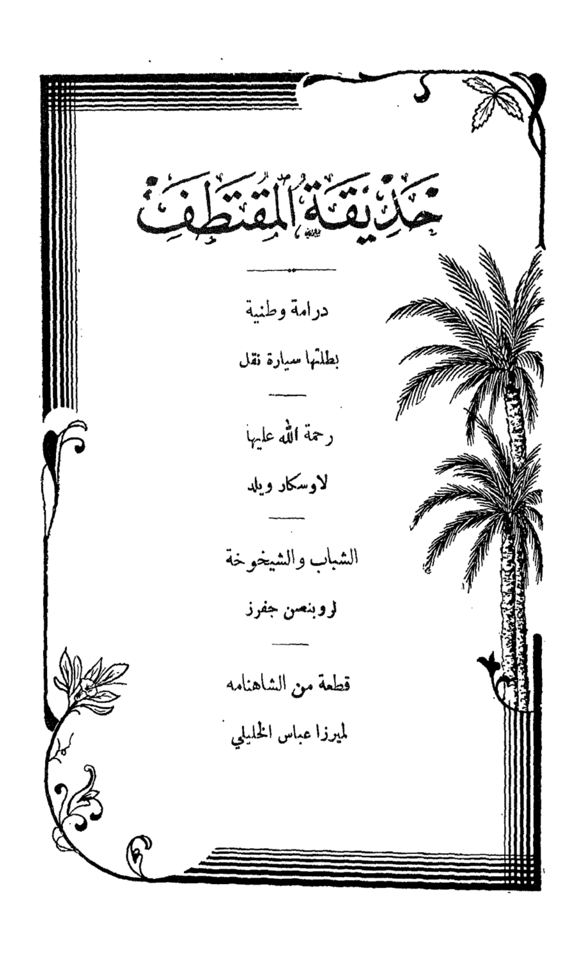
الثانية — المرأة التي تبقى ابنةً لوالديها بعد ان تتزوَّج اي ان افكارها تبقى منحصرة في اقاربها لا تفكّر الاّ بهم ولا تهتمّ الاّ بامورهم ولا تعمل الاّ برأيهم. فكل رجلٍ بالغاً ما بلغ من الوداعة والمسالمة، يتململ حينما يرى ان رأي غيره سائد في بيتهِ لا رأيهُ وان زوجتهُ تهتمُّ بسواه ولو كانوا اقاربها الادنين اكثر من اهتمامها بهِ وبراحتهِ وبشؤونهِ بوجه عام

الثالثة — الزوجة التي تريد ان تبقى حيث هي. على الرجل ان يقطن حيث مجال العمل والكسب متسع امامه. وزوجته يجب ان تكون جنباً الى جنب معهُ حيث يرحل وحيث يحلُّ. فالمرأة التي ترفض ان تلحق بزوجها اوترغمهُ على البقاء في مدينة دون مدينة، او مدينة دون قرية، مهما تكن الاسباب التي تبعثها على ذلك تضع العراقيل في سبيله وتحول بينه وبين ادراك النجاح الذي يسعى اليهِ في سبيلهما معاً

الرابعة — الزوجة التي تقابل زوجها بغيرهِ من الرجال فتراهُ مقصراً عنهم وهي لا تعلم ان كل رجلٍ يختلف عن سائر الرجال وان ما هو موطن ضعف في الواحد قد يكون موضع قوة في الآخر. اما الزوجة الحكيمة العاقلة فتدرس خلق زوجها وتعلم ان سرّ نجاحه رهن معاونتها وحثها اياهُ على الاجتهاد والمثابرة، واغتباطها بما يصنع وفرحها بكل فوز يناله، وسعيها لحمله على احترام نفسهِ وثقتهِ بها، بما تظهره من احترامها لهُ واعجابها بهِ

الخامسة — الزوجة التي تريد ان تبقى عائشة مع زوجها في دائرة ضيقة من المعارف والاصدقاء وذلك مخالفٌ لما هو معروف عن اسباب النجاح التي منها ان مبلغ نجاح الانسان يكون على قدر ما يحيط بهِ من المعارف والاصدقاءِ، وان اتساع دائرة الاصدقاءِ يزيد اختبار الانسان ويوسّع أُفق نظرهِ الى أُمور الحياة

اذا أردت ان يكون ما تصنعينهُ من الهلام Jelly مختلف الألوان فلوّني كلَّ جزءٍ منهُ على حدة باللون الذي تختارينهُ وقطعيهِ قطعاً غير منتظمة، واحشكي هذه القطع جميعها في قالب واحد واصنعي قليلاً من هلام الليمون باللبن بدل الماءِ وصبيهِ في القالب فوق أجزاءِ الهلام المختلفة الالوان فتلتحم بعضها ببعض ويصير منهُ هلام مختلف الالوان



حديقة المقتطف

دراما وطنية

بطلتها سيارة نقل

رحمة الله عليها

لاوسكار وايلد

الشباب والشيخوخة

لروبنصن جفرز

قطعة من الشاهنامه

لميرزا عباس الخليلي

دراما وطنية

بطلتها سيارة نقل

الفن والحث الوطني لا يجتمعان. كذلك يقول بعض النقدة. وحجتهم في ذلك ان الفن اذا خرج من نطاق الاعراب الفني عن خوالج النفس وأثر البيئة او الطبيعة فيها الى ميدان العظة الخلقية أو الحث القومي، أصبح نوعاً من الدعاية. والدعاية ابداً مشوبة بالغرض. غير ان القطع الفنية، لابد ان تصور او تردد في الحانها والوانها اوكلماتها او قسماتها حالة العصر الذهنية والادبية والاجتماعية الذى انجب أصحابها. فاذا كان بعضها مما يثير الشعور الوطني ويوقظه، أو يحث على ضرب معين من السلوك الاجتماعي، وكان ذلك عن طريق الايحاء والرمز، تعذر اخراجه من ميدان الفن وحصره حصراً مطلقاً في ميدان الدعاية

نقدم هذه الكلمة توطئة لدرامة حديثة، قد تكون فتحاً جديداً في ميدان الادب المسرحي مع انها تعيد الى الذهن في الوقت نفسه درامات الاغريق الاقدمين من ناحية اخراجها. وهي درامة ايطالية، اخرجتها جماعة الفاشستيين الجامعيين في مدينة فلورنسا. والغرض منها دعاية لاريب فيها، للنظام الفاشستي. ولكن الدعاية فيها تجيء عن سبيل الايحاء والرمز في الغالب. بطلها او بطلتها سيارة نقل، واستعمال هذه السيارة ينطوي على رمز بديع تتلخص فيه المثل الروحية العليا التي ترنو اليها ايطاليا في بعثها العجيب. بل ان اساليب هذه الدرامة الجديدة وأثرها في العين والاذن، يصح ان يكون فاتحة تحول جديد في هذا الضرب من الادب او الفن. فهي تنصرف عن الكلام — الا اليسير منه — الى الاصوات والالوان فتؤلف من ذلك وحدة فنية متناسقة، غرضها بيان فضل الفاشستية على ايطاليا الحديثة

مثلت هذه الدرامة في الساعة التاسعة من احدى امسيات الربيع العطرة وحضرها عشرون الف مشاهد. وكان مؤلفها الساندور لاستي، قد اختار قطعة مخضلة من الارض في جوار فلورنسا، مساحتها نحو ٣٠٠ متر مربع، امامها نهر الأرنو، ووراءها آكام توسكانا ترصعها قرى الفلاحين. وجعل مقاعد المشاهدين امام النهر، يتطلعون عبره الى الساحة التي تجري عليها حوادث الرواية وتتوالى. وكان المشرفون على اخراجها قد حفروا في هذا المسرح الفسيح، خنادق كخنادق الحرب، وانشأوا طرقاً وعرة كطرقها، واقام المؤلف في غرفة صغيرة تشرف على الساحة وحوله جماعة من الكهربائيين فجعلوا يديرون مشاهد الرواية بالوسائل الكهربائية. والغرض منها عرض ثلاثة مشاهد على الجمهور كل مشهد منها يمثل دوراً في تاريخ ايطاليا الحديث

فالمشهد الاول مشهد معركة من معارك الحرب الكبرى على نهر البياڤي بين الايطاليين

والنمسويين . والنمسويون في هذا الفصل يصلون الجيش الايطالي ناراً حامية : فالمدافع تبرق وترعد ، والايطاليون في حالة يرثى لها من النصب والسغب ، والانوار تتماوج فوق هـذا المسرح الطبيعي فتلقي في روع المشاهدين بأس الجيش المهاجم . ثم تتجه الانوار وقد اتخذت لوناً ازرق الى ناحية معينة من الميدان . هو ذا رتل من سيارات النقل يحمل للايطاليين المؤونة والذخيرة . وفي مقدمة الرتل السيارة ١٨ B. L. بطلة الرواية

القنابل منطلقة في الجو على جانبي الطريق الذي يسلكه الرتل وامامهُ ، والدخان منعقد كالسرادق ، والمقذوفات الجهنمية تقع على الارض فتسفو التراب وتنثر الحجارة ولكن الرتل يمضي في سيره البطيء والاضواء تتماوج فوقه وامامه حتى يرى المشاهدون ما يعتور سبيله من العقبات . هنا يتفرق الرتل ، وتأخذ كل سيارة سبيلها الى خندق من الخنادق وتتقدم السيارة ١٨ B. L. الى اشد المواقع خطراً . هل تبلغه وتنجد الواقفين فيه موقف الدفاع عن الوطن او تصيبها قنبلة من قنابل العدو ؟

هنا ينتهي المشهد الاول . وفي الفترة يتسلى الجمهور بمشاهدة الالعاب النارية

اما المشهد الثاني فيمثل ايطاليا تمزقها انياب الفوضى بعيد الحرب . فالجو فوق الساحة تتماوج فيهِ الاضواء الحمر ، رمزاً الى الحركة الشيوعية . وانت تسمع في جمهور المشاهدين ، همسات يريد اصحابها ان ينددوا بها بروسيا السوفيتية وشيوعيتها . ثم ينكشف المشهد عن معمل فيهِ إضراب وامامه ساحة فيها العمال هائجون مائجون بفعل الدعاية التي بثها بين صفوفهم زعماء الشيوعية . واذا السيارة ١٨ B. L. التي شاهدناها في المشهد الاول تتقدم نحو المعمل، وفيها طائفة من شبان الجماعات الفاشستية الاولى. فما يكاد العمال يرونها حتى يلمحوا رمزاً للحرب والاستعباد . فيتقدمون اليها يحملون الاعلام الحمر ويحيطون بها احاطة السوار بالمعصم، وهم يصيحون ويتوعدون، والابواق تضخم صيحاتهم حتى يحس الجمهور المشاهد انهُ على مقربة منهم

عندئذٍ تنشب معركة بين الفريقين . فينهض سائق السيارة ويقف في مقعده ، فنرى ثوبه الفاشستي الاسود ، يختلف عن الجو الاحمر المسردق فوق الساحة ، فيهجم عليهِ العمال . هل قضوا عليهِ ؟ ان ذلك لا يهم لان وراءهُ شاباً آخر يتقدم ليحل محله فيسير بالسيارة الى الامام . هذه السيارة ترمز الى ايطاليا ، التي تسير في طريقها ، كائنة العقبات التي تعتور تلك الطريق ما كانت . انها رمز لايطاليا التي لا تقهر . واذ يرى العمال الحمر هذه العزيمة على المضي ، يتقهقرون ، وعندئذٍ يتحول الضوء الاحمر الى ضوء مصفر ، فتراهم فيه ضعافاً هزالاً دلالة على هزيمتهم امام حيوية ايطاليا وقوتها

وعند ما يخلو الميدان يظهر فيه اعضاء البرلمان وهم يلغطون ويتنازعون ثم يحمى بينهم وطيس الجدال فيقتل بعضهم بعضاً، ومن ورائهم رجال الماسون يدسون للدولة الدسائس

وبعد قليل تعود السيارة مخترقة الميدان أمام المعمل، فيقف سائقها في مقعده وينادي فتردد الآكام التوسكانية نداءه بعد ما تضخمهُ الابواق. ومما يقوله: لقد خسرت ايطاليا مائة وثلاثين مليوناً في حاصلاتها الزراعية في المنطقة المجاورة لروما فقط بسبب دكتاتورية الاشتراكيين، واقوالاً اخرى من هذا القبيل

لقد اسدل ستار الليل الكثيف على الميدان. وقد انتهى الفصل الثاني. وشعور الجماهير قد بلغ درجة الغليان. فاذا كانت الفترة الثانية، زاد غليان الشعور بالموسيقى الفاشستية تعزفها الجوقات، وبطوائف من شبان الفاشست منبثة بين الصفوف تنادي على اعداد من جريدة البوبولو ديطاليا تاريخ ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢، وهي النسخة التي اعلن فيها موسوليني انهُ تقلد زمام الامر في الدولة. ثم تظهر طيارة على ارتفاع يسير توزع المنشورات الفاشستية، فيعجز الجمهور حينئذ عن كبح جماح شعوره وحماسته

اما المشهد الثالث فيمثل دور التعمير وهو فصل يسوده السكون والطمأنينة. فالعمال يعملون في ظل النظام الفاشستي بهدوء، في المعامل وبسلام مع اصحابها. هوذا الحقول حافلة بالفلاحين والمزروعات فيها تبشر بخير وفيض وجماعات الفاشستيين في كل مكان ينظمون ويعلمون وطوائف الشبان والشابات من الفلاحين يرقصون رقص الطرب في الحقول

المشهد مشهد زراعي. لقد رُدِمت خنادق الحرب، ومهّدت الطرق الوعرة، وظهرت المحاريث الحديثة تشق الارض وتعدها للزرع، وجففت البطائح القديمة الوبيئة

ان عمل التعمير سائر على قدم وساق بحماسة ولا حماسة الجيوش في الحرب والسيارة B. L. ١٨ التي كان لها شأن كبير في الحرب الكبرى، وفي دور الانتقال من الفوضى الى النظام، لها شأن كبير كذلك، في دور التعمير. ها هي تظهر من جديد على المسرح الطبيعي، تحمل للفلاحين ادوات الزراعة واكياس السماد. ولكن طال عليها القدم فهي تسير في طريقها متعبة، لطول ما قاستهُ في خدمة بلادها. واذ هي تحاول الوصول الى جماعة من الفلاحين، تطلق نفَسها الاخير وتقضي في الميدان. عند ذلك ينزل سائقها ويرديها في حفرة كان العمال قد حفروها في تمهيدهم طريقاً جديدة، ويهيل عليها التراب، لكي تعود الى الارض التي نبتت منها وكافحت في سبيلها. نعم قضت البطلة في خدمة بلادها، ولكن السيارات الجديدة القوية آتيةٌ وراءها لتتم العمل الذي بدأت

وكذلك تنتهي الرواية بهذا الرمز الوطني البديع

رحمة الله عليها

لاوسكار وايلد

[عني محمود محمد شاكر بنقل هذه القصيدة نقلا حرفياً وتوخى علاوة على ذلك ان يكون في الترجمة العربية شيء من الايقاع الموسيقي المعهود في الشعر المرسل باللغات الاجنبية]

خفف الخُطا   إنها قريب ْ   تحت الضريب ْ(١)

واخفض الصوتا   انها تكادْ   تسمعُ النبتا   وهو ينمو

وفرعها الجثلُ   يلمعُ كالتبرِ   خبا به الصَّدا

تلك التي كانت   غريرةً طَفَلَةْ   قد ضمَّها التراب ْ

زنبقةً كانت   بيضاء كالضريب   ما علمت يوماً

بأنها انثى   فشبَّ عودها   في رقة ولين

هذا هو التابوت   والحجر الصلدُ   يقسو على الصدرِ

دعني انا وحدي   اعذب القلبا   فإنها ترتاح

صَهِ صَهِ صَهِ   لن تسمع الغناء ْ   ولا حنين الناي ْ

كلُّ مُنى حياتي   مدفونة هنا   سُنُّوا عليها التُّرْب ْ

---

(١) الضريب : الثلج



الشاعر محمود خيري

(راجع مقتطف يوليو ١٩٣٤ صفحة ٥٠٥)

بعد نشر القصيدتين اللتين نقلناها عن الشاعر المصري الممتاز محمود خيري في مقتطف يوليو الماضي طلب الينا القراء نشر صورته وها هي ذي منشورة هنا نقلاً عن صورة شمسية للمصوّر « البان »

الشباب والشيخوخة

لروبنصن جفرز — شاعر اميركي معاصر

زَكِّ دَمَ الشباب الفائر ما بدا لك، فإن السعادة لا تتحقق لأحد الأحين يخوض الحياة في الشباب والدم الفوّار . . . . الى شتائها حيث يسع الرجل ان يتلبّث ويتذكّر ما مضى

في الشباب والدم الفوّار فتنة وجمال، ومثل ذلك في السكينة

في بحر الشباب جزر عارضة، ولكن الكبر كلّه جزيرة وقمة عالية

وفي الكبر وهن غير قليل، ولكن الشباب جميعه حمّى دائمة

لأن تلفت في سكينة الى آثار صنع الله مملوءَ القلب بالمحبة، اجدى عليك فيما ارى من ان ترتضع ثديَ الأمّ او ثدي الحبيبة

. . . . لن تجد فيما تملك ابقى عليك من الذكرى

ولكني حين ابلغ تلك الجزيرة الغبراء واعلو قمتها فكل المنى ان تكون بعيني منازل احبابي الاقدمين — ببحورها وجبالها، فامدّ الطرف متأملاً في بحر الموت بظمأ ابلغ من ظمأي الى الكبر

إن الذي يشتدّ به الظمأ الى الحياة لهو اشدّ بعدُ ظمأً الى الموت

[افرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر]

قطعة من الشاهنامة

من كتاب «بيران»

أحد قوّاد الترك الى «كودرز» أحد أمراء الفرس

ميرزا عباس خان الخليلي صاحب جريدة «اقدام» الفارسية اديب يجيد اللغتين الفارسية والعربية وله في المقتطف مقالات نفيسة في شعراء الفرس وقصائد تلمس فيها صور الفرس الشعرية الزاهية. وقد نظم في اوقات فراغه وايام تشريده السياسي جانباً كبيراً من شعر الفردوسي وأتحف المقتطف بهذا المقطع وقد قال في الكلمة التي صحبته: «ولا اشير الى حكمة شاعرنا في ذم الحرب وحب السلم والحنان بأكثر من قولي انه ما ترك لاحد من شيء وما نظمي بحجة ولكن «الشاهنامه» أعظم دليل على ذلك»

أنذروا «پيران» بالموت وما … من يد الموت مفرٌّ لو درى

فانبرى يحتال حقناً للدما … ودعا كاتبه كي يسطرا

قال: فابدأ حامداً رب السما … واستعذ بالله من شر الورى

أنا ارجوكَ الهي كرما … وفؤادي معلنٌ ما استترا

ان تبيد الحرب من لوح الوجود

وتزيل الضغن عن قلب الجنود

انت يا «كودرز» ان شئت الخصام … فتروّي من دم الترك التراب

فاحسبنْ انك قد نلت المرام … ثم سدت الخلق من شيخ وشاب

ثم عمّرت طويلاً الف عام … بعد ذا قل لي الى اين الذهاب؟

ويك قد جندلت من قومي الكرام … كلٌّ ندبٍ فهو نهبٌ للحراب

كم عن الابدان فرّقت الرؤوس

ويك فاخشى الله واليوم العبوس

قد تركت الحب ظهريًّا ، ألا ترعوي صفحاً فتدري ما الحنان

هيك احرزت بذي الحرب العلى وارتوى الصارم منكم والسنان

تحسب السفاك يُسمى بطلاً ، والكمي الشهم من يفري الجنان؟

نهتَ ، فالباسلُ من بات على كرمٍ والناس منهُ في أمان

والشجاع القرم يرعى الذمما

لا الذي عادتُهُ سفك الدما

اين فرسانُ بني الترك الأباة ؟ خلفونا بين شيخ ووليد

نحن ضحينا لايران الكماة ثم بالطارف جُدنا والتليد

فاذا ما حان يوم المكرمات وبهِ بُلّغت اقصى ما تريد

فاجعل الرأفة من خير الصفات واعصمنْ كفك عن حز الوريد

أ لثارِ الميت والعظم الرَميم

تقتل الاحياء ؟ ذا إثم عظيم[1]

اتخال الدهر يبقى ابدا ؟ سوف تفنى ثم يطويك الدثور

ان بعد اليوم لو تدري غدا لست يا «كودرز» الاّ في غرور

لا تذب جسمك فينا كمدا وأعذ روحك وانعم بالسرور

ويك لا تسرف فما الخلق سُدى ودم الانسان لا يشفي الصدور

سوف تُبقي العارَ ان حان رداك

فابق والعار إن الخير عداك

ان ترَ إبيضَّ من الرأس السواد فاعلمنْ ان الردى قد قربا

(١) لقد سبق القائل (الانتقام عدالة المتوحشين)

أنا أخشى ان نذير الحرب عاد وبشير السلم عنا غربا
والتقى الجمعان في يوم الطراد ان تطير الهام في الجو هبا
ويدوم الضغن ما بين العباد وينال السيل بالغدر الزبى

بعد ذا من يعلم الظافر من ؟
ايّنا يغلبه جور الزمن ؟

واذا لم يجدكم نصحي وهل ينفع النصح اذا شبّ الغرام
وخطبت الحرب والمهر الأسل وتجبرت وطلقت السلام
جئتكم حرًّا بجندي والخول وأبيت الذلّ والذلّ حرام
فلأم الجاهل الباغي المبل إنّ بنو الترك ارتضوا حد الحسام

لأبيدنّ جيوش العجم
ثم أحمي عرض قومي بدمي

واناديهم جميعاً للهياج يا لقومي جاست الدار الذئاب
سوف لا يبقى لكم «تخت» و«تاج» فاغمدوا الصارم ضرباً في الرقاب
وانفروا واكسوا الفضا ثوب العجاج وليكن قائدكم (افراسياب) (١)
اشربوا عذب الدما قبل الاجاج ثم خوضوا من أعادينا العباب

ثم نطوي بعده حلس الحروب
فيعود السلم عفواً ويؤوب

طهران

ميرزا عباس خان الخليلي
صاحب جريدة اقدام ومطبعتها

(١) احد القواد الذين اشتهروا في التاريخ الفارسي

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

« في كل جزء كلمة »

الاستاذ عبد الرحيم بن محمود غني عن التعريف لان قراء المقتطف يذكرون له مباحثه النفيسة في « نظامنا الاجتماعي » و « تاريخ الغناء العربي » ومساجلاته الادبية واللغوية مع كبار علماء اللغة مثل المغفور له الاستاذ الشيخ محمد الخضري والاستاذ اسعد خليل داغر والاستاذ مصطفى جواد وغيرهم . وها هوذا يقدم لقراء المقتطف سلسلة جديدة من مباحثه اللغوية الدقيقة نرجو ان يعيروها عنايتهم العظيمة

(قَدَمِيّة)

نرى الترك وهم مسلمون ينقون لغتهم مما يزينها ويزيدها ثروة أي من الألفاظ العربية ويكتبون صحفهم وكتبهم بحروف لاتينية ولم يخترعوا حروفاً يصطلحون عليها لتدل على استقلالهم اللغوى كتابة كما استقلوا نطقاً . فطلقوا الحروف العربية لأنها غير تركية فهل الحروف اللاتينية تركية ؟ ! لا . لا . وإذا أرادوا أن يتقربوا من الدول الغربية باستعمال حروفها فأوربا وأمريكا لا يشعران بأن هذه الحروف المرسومة على طريقتهم وسيلة للتعارف والتقرب. وللترك لغتهم وللغربيين لغات متقاربة وبينها وبين التركية بعد المشرقين والمغربين . « عمرك الله كيف يلتقيان » ولكن الغلو في القومية جعل القوم يتركون كل شيء حتى القرآن والآذان !! — وليتهم تركوا الحروف أو أبقوها على ما كانت عليه ولهم في دولة الفرس ودولة الأفغان أسوة حسنة فانهما دائبتان في استعمال الحروف العربية على حين أن الشعوب الغربية تتقرب اليوم إلى العرب ولغتهم . والمستعربون منهم في تكاثر وإن كان أكثرهم لا يدينون بدين العرب على أننا نرجو لتركيا حياة حرة سعيدة دائمة

وإذا كان الترك قد غلوا في قوميتهم فقد غلونا نحن المصريين في هجرنا كثيراً من ألفاظنا العربية الفصيحة وقد وصلنا أقلامنا بالغريبات الغربيّات — وبنات شفاهنا أولى بمصاهرة أقلامنا

فأطباؤنا وهم من خيرة المتعلمين وصحفيّونا وهم من نخبة المتأدبين وأساتذتنا وهم من صفوة المربّين وأبناؤنا وهم من نجباء الناشئين المتعلمين يجب عليهم أن يتحسّسوا من الألفاظ العربية ويعملوا على إذاعتها بألسنتهم وأقلامهم ولاسيما فيماله اتصال بأعمالهم فعليهم أن يذكروا (القدميّة) التي استعملها اجدادنا القُدامى بدلاً من ڤزيت ويذيعوها بوسائل الإذاعة كلما اقتضاها المقام

فإن اللفظ ڤزت (visit) الانجليزى واللفظ ڤيزيت (visite) الفرنسى هما وليدا الفعل اللاتينى ڤيزيتارى (visitare) ومعناه يذهب ليزور فالطبيب يسعى إلى المريض« وسعيه زيارة » فيتعرّف مرضه فيعرفه بأعراضه . والقدميّة — المنسوبة إلى القدم — هى اللفظة الجديرة بهذا المعنى .

وقد استعملها أطباء العرب من قبل كما أخبرني صديقي الطبيب اللغوي محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك الآن وقد أثبتها في معجمه اللغوي الطبي العربي المرتب ترتيب الحروف العربية والافرنجية ولما يطبعه . وقد أطلعني عليه مخطوطاً « وأنا معه »

وإطلاق اللفظ الأجنبي المذكور فزت أو فزيت على الأجرة هو إطلاق مجازي لأن الذهاب بالقدم أو ما ناب عنها كالسيارة إلى المريض تلزمه الأجرة وكذلك يقال في القدمية المستعملة بمعنى الأجرة التي يستحقها الطبيب جزاء سعيه إلى المريض لاكتناه مرضه ومعالجته فقد أطلق العرب المتحضرون (القدميّة) وأرادوا لازمها أي الاجرة أو يقال إنهم أطلقوا القدمية التي هي سبب لاستحقاق الاجرة وأرادوا تلك الأجرة — وللمجاز المرسل علاقات —فتخيّر منها أهداها إليهِ سبيلاً . واجعل المقام عليها دليلاً

فإذا قيل ما قولك في الطبيب الذي يسعى اليهِ المرضى في مستوصفه فهل تطلق على الأجور التي ينالها من المرضى قدميّات أيضاً على أنهُ لم يسر اليهم بقدم ولا بسيارة ونحوها قلت نعم لأنهُ سار من منزله إلى مستوصفه ليستقبل مرضاه فلهُ الأجر على ذلك لأنهُ ما سعى سعيه حيث المستوصف الا لأجل مرضاه وما قصد بذلك الا القصد من وقته والتيسير على نفسه وعليهم بخدمة كثير منهم في المستوصف وقد لا يستطيع أداء هذه الخدمة في ذيّاك الوقت فنفعهُ إياهم وهم مجتمعون اكثر من نفعه لهم وهم متفرقون والأجر الذي يناله من المريض وهو في المستوصف أقل منه وهو في منزله — فالقدمية محققة في كلتا الحالين —

ولا يقال إن العرب في حضارتيها العباسية والأندلسية قد نقلت معنى اللفظ اللاتيني المذكور أو نقلت معنى وليده الفرنسي أو الانكليزي فقالت القدميّة لأن هذا المعنى مما تقضي بهِ الحياة المشتركة في الامم كلها ولو تطابق اللفظان أيضاً في المعنى حقيقة ومجازاً في تلك اللغتين العربية واللاتينية كما تقدم

ومما يجب أن أوجه إليه أنظار القرّاء أن المعنى اللاتيني العام قد خصص عند الانكليز والفرنسيين ونحوهم فإني بالبحث في المصادر الموثوق بصحتها رأيت الفعل اللاتيني فيزيتاوي (visitare) ومعناه (يذهب ليزور) لصداقة أو لحب استطلاع أو للفحص عن مرض مريض أو لأيّ غرض كما في الشرح — فتخصيص القدميّة بسعي الطبيب إلى المريض أو إلى المستوصف لتشخيص المرضى وعلاجهم المستوجبين الأجر قد وافق أيضاً تخصيص الإفرنج (فزت أو فيزيت) بذلك أيضاً . وليس ذلك بسرقة بل هو من باب اتفاق الخواطر فليت شعري هل كان شيطان العرب والافرنج واحداً ؟ ! فأرجو أن نعمل على إحياء لغتنا في مشارق الارض ومغاربها فننقيها مما يشينها ولا يزيدها لأن مغاص المفردات والأساليب العربية قد زخر باللآلىء الثمينة فلنغص عليها فنستخرجها « وإن أجهدتنا » ونقلّد بها أجياد الصحف والمجلات ونلسّطها الناطقين بالضاد في كلّ البلاد

لغة الضاد كاد يقضى عليها في زمان فيه اللّغى تتقدّمّ !!

عبد الرحيم بن محمود

النثر الفني

في القرن الرابع : تأليف الدكتور زكي مبارك

تفضل صديقي المفضال الدكتور (زكي مبارك) فأهدى اليّ مؤلّفه العظيم (النثر الفني في القرن الرابع) فشكرت له هذا التفضل ، ثم أقبلت على قراءة ذلك الكتاب الحافل ، قراءة معنيٍّ بموضوعه ، معجب بمادته واسلوبه ، مغتبط بجمال طبعه وحسن تقسيمه ، مقدّرٍ لمؤلفه الفاضل غزارة مادته ، وانسجام عبارته ، وطرافة بحثه ، وكمال استيعابه ، مدرك تمام الادراك عظيمَ جهده وحسن بلائه ، ومقدار صبره ، حتى أبرز هــذا الـكتاب الجليل في ذلك الثوب القشيب ، في زمن طغت فيه المادة ، وفترت عزائم الادباء

ان كتاباً يتناول موضوع النثر الفني ، في جزأين حافلين ، فيأتي بذلك المظهر الرائع ، لهو كتاب خالد ، وان مؤلفاً يتوفر على بحثه تلك السنين الطوال ، بين متاعب الحياة ، ومشقة الاغتراب ، فيأتي بهِ على هذه الصورة لهو مؤلف عظيم

اول ما ينال اعجاب القارىء من كتاب (الدكتور زكي مبارك) هو جلال الحجم ، وجمال الطبع فقلما رأينا في هذا الجيل كُتباً تجمع المزيتين ، ثم يزداد الاعجاب متى رأى القارىء اثر عناية المؤلف بجمال التبويب ، واتساع نطاق البحث ، وتتبع المسائل — في صبر عجيب — بالتنقيب والتقصّي ، حتى يردّ الاشياء الى اصولها ، ثم يبلغ الاعجاب نهايته متى اوغل القارىء في درس الـكتاب ، ولم يشعر في ذلك بضجر ولا ملل ، لما يتذوقه من حسن البيان ، ووضوح الفكر ، وجزالة العبارة ، وقوة الروح . واطّراد البحث في غير قلق ، وكثرة المفاجآت التي تشيع في جزأي الـكتاب ، فتنقل القارىء من هدوء شامل ، الى جدال قائم ، لا يخلو من الطرافة واللذة ، وفيه من بواعث الشوق ما فيه ، وبخاصة اذا كان القارىء ممن اعتادوا البحث العميق الذي لا يخلو من تعارض الآراء ، فيوازن ويرجح ، وينتهي من ذلك الى رأي حاسم ، قد يكون للمؤلف او عليه ، وهو على كلتا الحالتين شاكر للمؤلف ان اتاح لهُ تلك الفرص التي تجعل للبحث جدّةً ، وتمتع القارىء برياضة روحية

لقد وفّق الدكتور الى كل اولئك ، واندفع أيمــا اندفاع في تيار المفاجآت والمعارضات ، فما يكاد يخلو رأي يعرض لهُ من مفاجأة او معارضة ، فبينما هو يهاجم صاحب (العمدة) واذا بهِ يكر على (الحريري) او على المعاصرين ، سواء منهم الشرقي والغربي ، وتلك عادة في الدكتور زكي مبارك تحسّ آثارها في اكثر ما يكتب او يؤلف ، ولعلها نتيجة الدرس العميق او الثقة بالنفس او هما معاً ، وانما أُلمُ بتلك الظاهرة لأقرر بصددها ما اسلفتهُ ، ثم اصارح الدكتور اني برغم ما قرنته أراه قاسياً في مواطن كثيرة ، وخير من ذلك العنف في الحِجاج أخذٌ باللين والهوادة ، ومناقشة

لآراء المعارضين في رفق وتؤدة ، ولن يؤثر هذا في قيمة الحق ، ما دامت الحقيقة واحدة ، وفي الناس قرّاء منصفون ، يطلبون الحق أنى وجدوه

هذا رأيي في شكل الكتاب ، وأسلوبهِ الأدبي ، ومنهاجه الجدلي ، وأما موضوعه فطريف جليل ، وهو بوصفه هـذا حسنة من حسنات العصر الحالي ، ويدٌ من أيادي المؤلف يسبغها على الادب والمتأدبين ، وما ظنك بكتاب يتصدى لدراسة (النثر الفني في القرن الرابع) ويتقدم الى الناس بهذه السمة ، ثم هو لا يدع شاردة ولا واردة مما يتعلق بالنثر الا عرَض لها ، وخاض فيها ، وأقرّها او نفاها ، وتناولها بالبحث المستفيض ، على نمط يربي ملكة النقد ، ويذكي روح البحث ويشبع نَهم الخاصة ، ويبعث شوق الشادين في الادب الى درسه والتعمق فيهِ ؟

ذلك شأن الكتاب ، يعرض للنثر فيوازن بينه وبين النظم ، ثم يوغل في جوف الماضي ، حتى يتناول النثر في العصور الاولى ، ثم يساير النثر في جميع أعصره ناقداً مؤرخاً ، حتى يصل بهِ الى القرن الرابع ، وهنا يبسط شعاع بحثه ، فيلمُّ بأشتات الموضوع ، ويبين كيف صار النثر صناعة فنية ، وكيف سيطرت المحسنات على اقلام الكتّاب في ذلك العصر ، وما الذي دفعهم اليها ، او دفعها اليهم ، وهل كان لها عناصر في ادب القرون الخالية ، وما قيمة تلك العناصر ، ثم يتناول اعلام النثر الفني بالدرس العميق ، وما خلفوه من آثار ، أو سنّوه من سنن ، ومن قفّى من الكتّاب على آثارهم ، ومقدار توفقهم او ابتكارهم فيما اتبعوا من سنن او ابتكروا من حديث ، واذ كان دأبه الدرس العميق والبحث الدقيق فقد خصَّ (المقامات) وهي ابرز مظاهر النثر الفني بجانب كبير من عنايتهِ ، وترجم لبديع الزمان ، والحريري ، ووازن بين مقاماتهما ، اسلوباً وموضوعاً ، ولم يهمل في هـذه الناحية (ابن دريد) بل عني بهِ ، وعدَّه مبدع (فن المقامات) واستاذاً (لبديع الزمان) نتيجة خطإ ألحقه (بالحريري)

وهكذا يسير الاستاذ في دراسته تحدوه ثقافة واسعة ، ويدفعه شوق شديد لخير الأدب والمتأدبين . وهناك ظاهرة تبدو في غير موضع من الكتاب ، هي تعصب الدكتور للثقافة العربية وانحيازه الى جانبها ، فقد ذهب مؤرخو الأدب الى اعتبار المقامة فارسية الأصل ، فجاء الدكتور برأي جديد ، يردّ المقامة الى اصل عربي ، ثم هو يقرر في الجزء الاول (صفحة ٢٠٣) ان (بروكلمان) يرى ان فن المقامة نقل من العربية الى الفارسية ويقول عقب ذلك (وكان الدكتور ضيف يرى العكس) ، ولكن المؤلف الفاضل ، لم يعرض أدلة الرأيين ، وكأنما جاء برأي (بروكلمان) معززاً فحسب لما ذهب اليه ، ثم لم يجد بعدُ من حاجة الى عرض ادلة الطرفين ما دامت نظرية (بروكلمان) تساير نزعة المؤلف التي حاول اثباتها ، وهي نزعة مشكورة على كل حال ، غير ان الانصاف يوجب علينا ان نقول ان بحوث الدكتور (ضيف) ما زالت تقرر ان المقامة فارسية الاصل ، وان الحق كما يبدو لنا يؤيد هذا الرأي ، سواء أكان مبتدع المقامة (بديع الزمان) ام كان مبتدعها (ابن دريد) ،

اذ الاول فارسي الاصل ، والثاني أقام بفارس ، وكتب لابني (ميكال)

هذه ناحية مما لا نوافق الدكتور عليهِ ، ونعتقد ان الاعجاب بعمله الجليل لا يمنعنا ان نجهر بذلك ، كما لا نعتقد ان ذلك الاعجاب يحول بيننا وبين ايراد المسائل الآتية : —

١ — يأخذ الدكتور على مؤرخي الادب العربي ما رآهُ غضاً من قيمة الادب الجاهلي ، ويقول في صفحة (٣٣) من الجزء الاول (لقد اتفق مؤرخو المسلمين ومؤرخو اللغة العربية وآدابها على ان العرب لم يكن لهم وجود ادبي قبل النبوة) ، ثم يستطرد في ذلك حتى يقرر ان للعرب قبل النبوة حياة ادبية تسمح لهم بفهم القرآن الكريم وتدبر معانيه ، ثم يغلو في ذلك حتى يقرر (ان القرآن نص جاهلي) ثم هو الى جانب هذه الغيرة المتقدة ينفي ما أثر من النثر الجاهلي حتى خطبة (قس بن ساعدة)

ونحن نوافق الدكتور على ان للعرب قبل البعثة ادباً له قيمته ، وانهُ لولا ذلك لما خوطبوا بذلك الكتاب الكريم الذي امرهم ان يتدبروا آياته ، ونقرر للدكتور ان مؤرخي الادب العربي لم يناقضوا ذلك ، بل قرروه بالعبارات الصريحة التي لا تحتمل تأويلاً ولا تكذيباً ، هذا (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) يقول بصدد الكلام في اعجاز القرآن (بعث الله محمداً صلى الله عليهِ وسلم اكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، واحكم ما كانت لغة ، واشدّ ما كانت عدة) وهؤلاء اصحاب (المجمل) من الاساتذة المعاصرين يقولون (والامة العربية كغيرها من الامم القديمة الراقية لها ادب ممتع ، فيهِ الشعر الرائع ، والنثر البليغ) الى غير ذلك مما قررهُ مؤرخو الادب في القديم والحديث ، اما القول بأن القرآن الكريم (نص جاهلي) فقول نسمح لنفسنا برده ، مهما يكن في هذا التعبير من التجوز ، ومهما يكن له من أثر في الحكم على الآداب الجاهلية ؛ وحسب العرب دليلاً على سموّ ملكاتهم ، وحياة آدابهم ان خوطبوا من الله بذلك الكتاب المجيد ، وان فهموا مقدار بلاغته ، وسمو عبارته ، فاعترفوا بها ؛ وحسبهم بعد هذا ما أثر لهم من النثر الرصين ، وان قلّ المأثور منهُ ، لعوامل لا تخفى على الباحثين ، وبعد فلا يكفي للحكم بانتحال كل النثر الجاهلي ان يشك الباحث في بعضه ، وقد نسلم للدكتور بوضع بعض ما نسب الى بعض الكهان ، ولكنا لا نوافقهُ البتة على نفي خطبة (قس بن ساعدة) التي رويت بطريق واضح لا سبيل الى الطعن فيهِ والتي سمعها النبي عليهِ الصلاة والسلام من (قس) في سوق عكاظ قبل البعثة ، كما روى ذلك ابو الفرج في (الاغاني) بسند صحيح عن (ابن عباس)

٢ — ردّ الدكتور (في صفحة ٦٩ من الجزء الاول) على المسيو (ديمومبين) غضه من قيمة ما نسب من الخطب (لعلي كرم الله وجهه) ، وهذا رأي له مكانته ، ولكن صديقي الدكتور يعتمد في رده على قول الجاحظ (ان خطب علي وعثمان كانت محفوظة في مجموعات) وما ارى هذا كافياً في الدفع الذي قام به الدكتور ، وقد يكون لديه وجوه اخرى اقوى من كلام الجاحظ ، فماذا يمنع ان يكون كلام (علي) كرم الله وجهه مجموعاً في صحائف ثم يزيد فيهِ من اراد المزيد ؟

٣ — قرر الدكتور ان عدة مقامات (بديع الزمان) خمسون لا (اربعمائة) معتمداً على دليلين

اولهما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) والاحاديث المنسوبة الى (ابن دريد) اربعون حديثاً ، والمعارضة تقتضي التقارب دائماً في الكمية وثانيهما ان مقامات البديع لم يحفظ منها سوى خمسين (كما قرر الدكتور)

واجب ان يسمح لي الدكتور بمناقشة هذين الدليلين ، فاما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) فامرٌ متوقف على الجزم بأسبقية (ابن دريد) في فن المقامات ، وهذا رأي غير متعين التسليم ، اذ لبعض الناس ان يشك في المشابهة بين المقامات وما نسب من الاحاديث الى (ابن دريد) ، وله ان يسأل: اين هي الاربعون حديثاً المعزوة اليهِ ؟ واذاً لا يلقى الا جواباً يشوبه شيء من الشك، ويعتمد كثيراً على مجرد الترجيح . واذا لم نقطع بأسبقية (ابن دريد) لم يعد لنا الحق في جعل البديع معارضاً لهُ ، وبالتالي لا يلزم ان تكون مقامات (البديع) خمسين لانها تعارض احاديث (ابن دريد) وعدتها اربعون ، واما ان ما حفظ من مقامات البديع خمسون مقامة فحسب ، فلا يصلح دليلاً حاسماً على نفي ما عدا هذه الخمسين ، لانهُ لا يبعد ان يقول الرجل اربعمائة مقامة، ثم تقصر لسبب ما على تدوين خمسين

وبعد فلا يمنعني ما اراهُ قابلاً للمناقشة فيما قرأت من الكتاب ان أُعلن عظيم اعجابي بهِ موضوعاً واسلوباً ، وان اهنيء الادب بهذا الكتاب الحافل ، واهنيء صديقي الدكتور بهذا الاثر الخالد

محمود علي البشبيشي
المدرس بدار العلوم العليا بمصر

الطرق العملية لدراسة

الحياة العقلية

تفضلت مكتبة المقتطف فقدمت كتابنا الجديد الى قرائها في العدد الماضي بعبارة بالغة حد الرقة وجميل التقدير . ولو انها بالغت في المديح والاطراء بما اخجلنا فلحضرة كاتبها الفاضل منا جزيل الشكر . وإنا لنحمد له حث الطلاب والمدرسين على اجراء ما فيهِ من تجارب وارسال نتائجهم الينا وان كان الكتاب كما قلنا في مقدمته « قد وضع بحيث يستطيع كل انسان ان يجد فيه المدى الذي يوافقه ويناسب معلوماته » . اما ما كان يتوقعه من تقديم دراسة تفصيلية لهذه الاختبارات مع بعض الامثلة التي تسهل فهم الموضوع ولم يجده ، وطريقته التي اشار علينا بملاحظتها في كتابنا الثاني وهي البدء بالمبادىء الاولية ثم التجارب حتى يعرف المجرب ما يقوم به — فليعذرنا ان خالفناه فيها . فنحن لم نخرج البتة على الطريقة التي يعمل بها جميع علماء النفس التجريبيين بما يجده في الكتب الافرنجية . وقد قصدنا هذا النظام الذي وضعنا به الكتاب ولم يأت عفواً لأن الخبرة الطويلة بالتدريس والاساليب الحديثة فيه عودتنا ان نبدأ بالتجارب غير مقيدين برأي او نظرية تسهل على

المجرب طبخ نتائجه حتى تتفق معها ثم نوجه الطلاب بالاسئلة المرتبة المتدرجة نحو الطريق التي يوصلهم الى النتائج بأنفسهم ومعرفة تطبيقها والكتاب مليء بها . وبعد ان ينتهي المجرب من الكتاب كله نعطيه مفتاحاً مستقلاً نلخص فيه اهم القواعد والنتائج المقطوع بصحتها ليقابل به نتائجه

ولعلَّ الكاتب لم يقرأ مقدمة كتابنا . وقصدنا ايضاً ان يتأخر المفتاح عن الكتاب ستة شهور و لعله لاحظ ان كل ما في الكتاب وضع لغرض خاص من نوع الورق والكتابة المقلوبة والهوامش التي في بعض الصفحات وليست في البعض الآخر واختلاف بنط بعض السطور عن الأخرى . وكنا نرجو كذلك ان لايترجم كلمة Subject بموضوع لأنها تأتي بهذا المعنى في الانشاء ومواد الدراسة فقط اما في علم النفس فتدل دائماً على المجرب أو الذات او الشخص او الفاعل أما الموضوع فترجمة Object . والكلمة لم ترد في كتابنا بهذا النص كما قد يفهم القارىء

ولا يسعنا بعد هذا الاَّ ان نقدم جزيل الشكر وعظيم الامتنان لحضرة الكاتب المحترم ونرجو ان يكون لكتبنا المقبلة نصيب من ملاحظاته القيمة

نظلة الحكيم ومظهر سعيد

المقتطف في اللغة

كنا قد شهدنا بعض الكتاب في الصحف يخطىء كلمة « المقتطف » زاعماً ان الفعل « اقتطف » لا وجود له في اللغة العربية ، معولاً في ذلك على عدم وجود الكلمة في معاجم اللغة ، وليس الامر في ذلك كله يرجع الى المعاجم ، اذ ان هناك كلمات كثيرة سقط على مؤلفيها ان يلتفتوا اليها ، فلم تحظ منهم بتدوين

من هذه الكلمات « اقتطف » التي نحن بصددها ، فقد رأيتها في بيت للاعشى وهو :

لما امالوا الى النشاب ايديهم   ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

من قصيدته التي مطلعها :

لو ان كل معد كان شاركنا   في يوم ذي قار ما اخطأهم الشرف

وقال ابن رشيق في مستهل العمدة « اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب واقتطف زهر الآداب . . الخ »

وقال الحريري في مقامته الرملية « حتى خلت ان الجن اختطفته او الارض اقتطفته . . الخ »

فها نحن ألاء نرى الكلمة عريقة في العربية مقتطفة من دوحتها ، ودليلنا قول الاعشى ، وناصرنا ومعزز دليلنا استعمال الحريري وابن رشيق ، فليس ثمة مجال لتخطئة « المقتطف » الذي هو اسم مفعول من « اقتطف »

فالمقتطف — وان لم تقتطفه المعاجم — مقتطف من اللغة العربية ومن ثمراتها الطيبات

عباس حسان خضر

مكتبة المقتطف

رسالة من باريس — لبشر فارس

كتب شرقية جديدة

بالغة الفرنسية

الزواج عند مسلمي العرب

٢٩٩ ص من القطع المتوسط

Le Mariage chez les Musulmans en Syrie par Khalid Chatila
Editions Geuthner, Paris.

ألَّف هذا الكتاب صديقي الاستاذ خالد شتيلة وبهِ نال شهادة الدكتوراه من السوربون . وقد صنع اليَّ جميلاً اذ استند الى كتابي « العرض عند عرب الجاهلية » فيما كتب ، غير مرَّة

ان كتاب الأستاذ شتيلة يعدُّ معاونة (Contribution) ذات شأن على فحص احوال الزواج وشرائطه عند المسلمين . وهو على ثمانية أبواب : الباب الاول في الخطبة ، والثاني في اعمار الطرفين و « البلوغ » ، والثالث في قبول الطرفين واهلهما ، والرابع في مساواة الطبقات الاجتماعية ، والخامس في المَهر ، والسادس في موانع الزواج ، والسابع في اشكال الزواج الخارجية ، والثامن في طريقة عقد الزواج

وبعد فان الاستاذ شتيلة أحسن في البحث عن احوال الزواج لهذا العهد . غير انهُ لم يذهب فيما كتب عن الجاهلية والاسلام مذهباً بعيداً ، والسبب في ذلك أنهُ لم يعول على الكتب العُمَد . فانك لتراهُ يرجع الى تآليف المؤرخين والعلماء المعاصرين أمثال الخضري والالوسي وزيدان وعبدالله عفيفي واليافي وعلي عبدالواحد وبشر فارس من الشرقيين ، وجودفروى دومامبين وغيره من المستشرقين

ولقد كان يحقّ بالاستاذ شتيلة ان يرجع الى الاصول ، ومن الغريب انهُ لم يعوّل على الشعر الجاهلي (لا شعراء النصرانية ولا الحماستين ولا الجمهرة وما اليها) ولا على الاغاني ولا طبقات ابن سعد ولا كتب الأدب والتاريخ (الاَّ انهُ اعتمد على سيرة ابن هشام وكتاب التاج وكتاب الحيوان) فتراه ان تكلم على المهر في الاسلام لم يستند الاَّ الى القرآن ولسان العرب . وقد رجع الى حديث البخاري مرة واحدة والى منهاج الطالبين مرة واحدة (لا الاصل ولكن الترجمة ؟)

والذي ترتب على هــذا النقص في البحث ان الاستاذ شتيلة لم يجمع لاشتات الموضوع زمن الجاهلية والاسلام ، ولربما اضطربت آراؤه الحين بعد الحين لفراغ يديهِ من النصوص . ومما يزيد في

ذلك الاضطراب انهُ يدأب دأبه في تطبيق نظريات جماعة من علماء الغرب على عادات العرب الاولى . فالذي قاله في مساواة العرب يتطلب المراجعة، والذي قاله في اسباب المهر يقتضي التحقيق، واما الذي قاله في «المفاخرة» فغير وافٍ . وما ضرَّ الاستاذ شتيلة لو قصر موضوعه على الزواج لهذا العهد في الشام [١] . فوالله لو فعل لكان عزّز لباب بحثهِ ونحّى عن كتابهِ مواطن الضعف

مقدمة ابن خلدون

٢٢٦ ص من القطع المتوسط

Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun Editions Geuthner, Paris.

هل هنالك حاجة الى تعريف ابن خلدون ، ذلك العَلَم ؟ ان قراء المقتطف يعرفون عنهُ الشيء الكثير ولاسيما ان مقدمتهُ متداولة والمباحث عنهُ مستفيضة متداركة بالعربية واللغات الاوربية

وبعد فان مقدمة ابن خلدون في المحل الاول عند علماء الفرنجة . وقد فطن المستشرقون الى عظمة شأنها ورفعة مكانتها من زمان . فقلبوا النظر فيها واشادوا بذكرها وقد نقلها (البارون دي سلان) الى اللغة الفرنسية حوالي سنة ١٨٦٠ . فاقبل العلماء من مستشرقين وفلاسفة واجتماعيين واقتصاديين على المقدمة يبحثونها ويستمدون منها آراء ويوازنون بينها وبين غيرها من المؤلفات التي تجري مجراها حتى اصبحت نسخها عزيزة ندرة

واليوم عزم ناشر فرنسي على طبع ترجمة المقدمة مرة ثانية . فظهر الجزء الاول وسيليه الثاني والثالث

ومثل هذا العزم يدل على أن مكانة ابن خلدون ما تزال في صعود وكيف لا تكون كذلك وهو مرسل طائفة من الآراء العصرية في الاجتماع والاقتصاد . ثم ان في طيات مقدمته ما يسمونهُ اليوم « الفكر الحديث » ذلك الفكر الذي اخذ بهِ علماء النهضة الاوربية وبلغ بهِ (ديكارت) الى الغاية المثلى . ومن دعائم هذا الفكر : نبذ النقل وتحليل الوقائع وتعليل الحوادث . فكأن عقل ابن خلدون صفوة عقول العلماء الاقدمين وباكورة عقول العلماء المحدثين

سلمان پاك والمقدمات الروحانية في الاسلام الايراني

تأليف لويس ماسينيون ٥٢ ص من القطع المتوسط

Salmân Pâk et les prémices Spirituelles de l'Islâm Irânien par Louis Massignon.

اشتغل الاستاذ لويس ماسينيون (عضو المجمع اللغوي الملكي) بالتصوف زماناً حتى اصبح العالم الثقة بهذا الفن ، واليهِ تنصرف الانظار فيهِ وعنهُ تؤخذ مسائله . وها هوذا يؤلف رسالة في منشإ

(١) كان يحسن بالاستاذ شتيلة ان يحدد لنا الشام. فان الشام La Syrie شيء غامض وبخاصة من بعد دخول فرنسا بلاد سوريا

الشيعة والتصوف مستنداً الى سيرة سلمان الفارسي . وفي هذه الرسالة نقد دقيق لتلك السيرة . وقد انتهى المؤلف في بحثه الى الزيادة في تقويم المنهج الذي به تميز الاحاديث الصحيحة من الموضوعة . وطريقه في هذا أن يرتب رواة الحديث بحسب انسابهم وقبائلهم

دولة اشتراكية لاحد عشر قرناً قبل المسيح

٢١٢ ص من القطع المتوسط

Un socialisme d'Etat onze siècles avant J.—Ch. par Serge Dairaines
Éditions Geuthner, Paris.

يعلم الذين اطلعوا على تاريخ الاقتصاد السياسي ان الالماني (فردريك لِست) List طلع على قومه بمبدإ قائم على القومية سمَّاهُ الاقتصاد القومي ، وذلك في القسم الثاني من القرن الماضي

وهذا فرنسيٌّ عالم بالمصريات يدعى (ديرين) يخبرنا بانَّ ذلك المبدأ كان شائعاً في مصر لاثنين وثلاثين قرناً قبل (فردريك لست) في عهد (أمينوفيس الرابع) الفرعون الشاب

ان بحث الاستاذ (ديرين)ناهض على فحص الاوضاع المصرية لذلك العهد البعيد والحياة الزراعية والاقتصادية والتجارية ومسئلة السكة والامتلاك ومختلف المعاملات داخل القطر وخارجهُ

والذي يستخرج من هذا البحث ان الفرعون (وهو ممثل الدولة على الاطلاق)كان يناسب بين الحاجة والانتاج ثم يجعل الانتاج يساير مقدرة القطر عليهِ ثم يوزع الوان الانتاج بحق وعدل . ومما يجب ذكره ان العدل كان غاية لا دافعاً. وهذا مظهر من مظاهر الانسانية لم يبرز في العالم قبل ذلك العهد

ثم ان المؤلف في خاتمة الكتاب اخذ يعارض اقتصاد مصر ايام الاسرة الثامنة عشرة بنظريات (لست) و(روبرتس) وغيرهما من الاقتصاديين الذين قالوا بالاقتصاد القومي

معاونة على بحث النزاع القائم بين المسلمين في الهند

٢٥٢ صفحة — من القطع المتوسط —

Contribution à l'Etude du conflit Hindou—Musulman par Rahmat Ali
Editions Geuthner, Paris.

يفحص الاستاذ رحمت علي صاحب هذا الكتاب عن السبب الذي من اجله يضطرب حبل المسلمين في الهند وتختلف كلمتهم حتى انهم لا يقدرون على ان يخرجوا بنتيجة من بين ايدي الانجليز

يرى الاستاذ رحمت علي ان مسلمي الهند على ثلاثة مذاهب : مذهب المحافظين الذين يعتمدون على لندن ويستمدون منها عزَّهم وجاههم ، وهؤلاء المحافظون من الخاصة والامراء . فمذهب القوميين المائلين ميل غاندي المتعصبين له ، وهم بين الخاصة والعامة ورئيسهم الدكتور أنصاري . ثم مذهب المفكرين المتشيعين لآراء (كارل ماركس) ابي الشيوعية في اوربا ، وهؤلاء المفكرون يعللون

اضطراب الهند وانكسار شوكتها بما بين جنبيها من المناقضات الاقتصادية . والظاهر ان صاحب الكتاب ممن يذهب هذا المذهب الاخير

على ان هذا الكتاب وان يعمل لبث العدل في الهند ونشر الوفاق فيها ليفشىء بعض المشكلات واعظم هذه المشكلات شأناً مسايرة الاسلام لمذهب (كارل ماركس)

هذا وان في ثنايا الكتاب ما لا يشرح الصدر ، ذلك ان المؤلف لا يخفي ان السبب في استحكام الشقاق بين الهنود والمسلمين يرجع — آخر الامر — الى نزاع ديني (ص ١٤٠) مستورٍ على الغالب

الدراسات الاسلامية

تأليف جودفروى دومبامبين — ١٠ ص ، من القطع المتوسط

Les Etudes Musulmanes (La Science Française)
par Gandefroy Demombynes, chez Larousse, Paris.

هذه رسالة صغيرة تبسط للقارىء تاريخ الدراسات الاسلامية في فرنسا منذ القرن السابع عشر حتى اليوم . وتمتاز هذه الرسالة بالجمع بين الاجمال والاستيعاب في اسلوب سهل مشرق. ولا غرو ان تأتي هذه على ذلك النحو من الحسن ، فان صاحبها من أولي العرفان ومن ذوي البسطة في فن الاستشراق

التاريخ العام للفنون (الفن القديم)

Histoire Universelle des Arts (L'Art Antique)
Librairie Armand Colin, Paris, 1930.

ان الدراسات التي تتعلق بالفن من بنايات وتصوير ونحت ونقش وما اليها قد بلغت في السنين الاخيرة مبلغاً عظيماً . وذلك يرجع الى ان علماء الاجتماع انتهوا في مباحثهم الى ان الفن من اكبر الدلائل على عقلية الامم

والكتاب الذي نحن بصدده يبحث عن منشأ الفن وقدمه . ففيه فصل طويل عن آسيا ومصر يمتد من التاريخ الغابر حتى سنة ٣١٠٠ قبل المسيح اي في الزمن الذي لم يكن الحكم بين يدي الامر . ثم فصل يمتد من سنة ٣١٠٠ الى ٢٠٠٠ ثم آخر من سنة ٢٠٠٠ الى ١٠٠٠ ثم آخر من سنة ١٠٠٠ الى عهد المسيح. اذ لكل من هذه المدد خصائص تذهب مذهبين احدهما مصري والآخر آسيوي . ثم ان فن فلسطين ملتقى هذين المذهبين

وهذا الكتاب يبحث عن روما واثينا اذ يفرغ من آسيا ومصر . وان بحثه ليمتد في الزمان امتداده هنالك . وخيرما في هذا البحث الاخير مقابلة بين اتجاه فن الرومانيين واتجاه فن الاغريقيين قائمة على الفحص عن الآثار والظواهر على اختلاف انواعها

كتابان في الحيات

اماي كتابان طُلب مني نقدها وها في موضوع يكاد يكون واحداً وارجو ان يكون النقد ما يراد بالنقد اي بلا تحامل ولا افراط في المدح او بيان المساوىء دون غيرها والكتابان بحسب تاريخ ورودها على رئيس تحرير المقتطف هما الكتابان الآتي ذكرهما

الكتاب الاول

المصطلحات العلمية العربية وما يقابلها باللاتينية والانجليزية والفرنسية لاسماء الحيّات

بقلم جرجس فيلوثاوس عوض ودكتور رمسيس جرجس

واني استأذن الزميل الفاضل قبل كل شيء في ان اضيف اداة التعريف الى كلمة دكتور واقول الدكتور رمسيس جرجس فان كلمة دكتور وان تكن غير عربية فان اللغة العربية تقتضي اضافة اداة التعريف اليها في هذا الموقف فهي رتبة علمية يحملها كثيرون من الاطباء والادباء ولا يحق لاحدٍ ان يكتبها كما يشاء . اما الآن وبعد هذه المداعبة فاني ابدأ في نقد الكتاب فأقول :

هو كتاب جمع فيه المؤلفان الفاضلان اي الاب والابن — ولكليهما شأن في عالم الادب والعلم — اسماء الحيّات على انواعها فذكرا نحو الف من الانواع وذكرا لكل واحد منها اسم الجنس واسم النوع باللاتينية فعرّبا اسم الجنس وترجما اسم النوع ثم ذكرا لكل واحد منها الاسم العربي والانجليزي والفرنسي فجاء كتاباً وافياً ذكرت فيه انواع كثيرة من الحيات المعروفة . اما الاسماء العربية فانهما ذكرا نحو مائتي نوع منها مما ورد في كتب اللغة والمؤلفات العربية ولم يقصرا في ايراد الاسماء العامية احياناً اما اعتمادهما فكان على الفصيح منها ولما كان يتعذر ضبطها دائماً فقد جمعاها في آخر الكتاب مضبوطة بالشكل الكامل . ومما يعود عليهما بالشكر انهما اوردا جميع المصادر التي اخذا عنها وهي المصادر العربية والاعجمية فنسبا لكل قائل قوله شأن كبار العلماء

ويتعذر على الناقد ان يفي هذا الكتاب حقه بلا بحث دقيق قد لا يجد فيهِ عامة القراء ما يلذ لهم وانما على الناقد تبعة كبيرة فعليهِ ان يبين اوجه النقص ولا سيما في كتاب علمي مثل هذا الكتاب فاستأذن العالمين الفاضلين في الاشارة الى بعضها فنها ما يأتي

الطبع — كنت اود ان يكون احسن من هذا فالطبع ليس نموذجاً من النماذج الحسنة التي نراها عادة في ايامنا فالحرف صغير جدًّا والحروف قديمة يتعذر تمييزها ولو كان الحرف اكبر قليلاً وجديداً لجاء الطبع أحسن من ذلك

التعريب — لا بأس بهِ وكنت افضل ان لا يتصرف المؤلفان في تعريب الكلمات العلمية بل يتركانها كما هي مثال ذلك فانهما عربا الكلمات الآتية Typhlopidae و Typhlops و Uropeltis و Boidae و Boinae بما يأتي : طفلبية وطفلب ويربلط وبوية وبونية واني افضل تعريبها بما يأتي طفلبيدة

وطفلبس ويربلطس وبويدة وبوينة . الا ترى انهما اضطرًا في تعريب ما يأتي على الصورة الآتية Viperidae و Viperinae فبردية وفبرينية لكي يميزا بين الفصيلة والعشيرة واني افضل تعريبهما كما يأتي فبريدة وفبرينة وذلك للتمييز بين الفصيلة والعشيرة وهو بحث دقيق جدًا قد لا يلذ لعامة القراء

ومما يؤخذ عليهما في التعريب هو انهما عرّبا Naja haje ناغة حية فان هذا الحرف الذي عرّباه بالغين هو ياء اي انهُ Naia haie وكثيراً ما يكتب كذلك فيجب ان يعرب بالياء كما فعل صاحب دائرة المعارف فانهُ عرّبهُ بالياء وحوّله عيناً وكتبه ناعية ونقل ذلك عنه المؤلفان ولا أدري لأي سبب كتبه صاحب دائرة المعارف بالعين فقال ناعية ولعله ظنّ اما خطأً او صواباً ان اصل الكلمة ناعية فهذا الاسم الجنسي ليس لاتينيًّا في الاصل ولعلّ اصله ناعية فكتب باللاتينية على هذه الصورة كما تكتب كلمة يسوع Jesus واحياناً Iesus فيقال يسوع ويوسف وبايازيد وهلليويا وامثال هذه الالفاظ وهي كثيرة . وعلى كل فانهُ لو كان لفظ هذا الاسم الجنسي كالجيم فانهُ ينبغي كتابته بالجيم لا بالغين ولكنهُ ليس جيماً بل ياء فينبغي ان يقال في تعريبه ناية او ناعية

الترجمة — ترجمة الانواع حسنة جدًّا وانما اخالفهما في بعضها مثل Carinata , Carinatus في ص ١١ فانهما ترجماها بالقاعي ثم عادا في ص ٤٥ وترجماها بالجؤجؤي وهو الصواب فهذه الكلمة نسبة الى Carina وعربيّها الجؤجؤ وهو من الطائر والسفينة الصدر اي انهُ هذا الشيء الناشز فيهما ويكون في صدر الطائر واسفل السفينة الى صدرها . كذلك اخالفهما في ترجمة Class فقد ترجماها بالفصيلة ولا اعلم احداً ترجمها كذلك فالفصيلة هي Family وعليه جمهور المؤلفين في مصر والشام وهي التي سماها المؤلفان بالعائلة وهذه عامية ويفضل اهمالها . ومما أخالفهما فيه ترجمة Blindworm snakes ص ٨ فقد ترجماها بالحيات العمياء وافضل الحيات العمي لجمع اعمى واصم وابكم واحمر وابيض عمي وصم وبكم وحمر وبيض ومثله جمع عمياء وصماء وبكماء وحمراء وبيضاء فيقال الحيات العمي والصم والكريات الحمر والكريات البيض . وفي سورة البقرة « صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ » الآية فان قيل هذا للعاقل وللمذكر قلت قد جاء في غيرها لغير العاقل وهو . . . . « ومن الجبال جُدَد بيض مختلف الوانها وغرابيب سُودٌ » الآية . واني لا انكر انهُ يجوز ان يقال حيات عمياء لكن العرب لم يقولوا قط الحيات او الافاعي الصماء . بل قالوا الصمّ فلو وصفوا الحيات بالعمي لسموها بالعمي قياساً على الصمّ

تحقيق اسماء الحيات — لا ارى تحقيقاً دقيقاً في اسماء الحيات فقد ذكرا حيّات في اميركة واسترالية ووضعا لها اسماء عربية فصيحة وردت في كلام العرب ولا دليل عندنا على ان العرب كانوا يعرفون اميركة او استرالية قبل تدوين لغتهم فاذا كان هذا الوضع استعارة لهذا الغرض فلا بأس بهِ ولكن ينبغي ان يشار الى ذلك لكي يعلم انهُ استعارة او انهُ احياء لالفاظ مهجورة لايعرف ما هي تمام المعرفة . ففي مجمع اللغة العربية علماء محققون لايجوز عليهم مثل ذلك فورود كلمة فصيحة في كتب اللغة لا يكفي لتعيينها اسماً لنوع من الحيات بلا تحقيق دقيق ، واذكر ان عالمين من علماء هذا المجمع

تتبعا كلمة فونقس واخواتها مدة خمسة وعشرين سنة حتى عثرا عليها في اساطير الاولين وقادها صاغرة ذليلة الى كتب اللغة فأمثالها لا يكفيهم قولنا ان العنظب مثلاً هو النوع الفلاني من الافاعي في استرالية والعرب لم تعرف استراليا قبل تدوين لغتها وامثال ذلك كثيرة . على ان للمؤلفين الفاضلين فضلاً كبيراً في جمع ما جمعاهُ من الالفاظ التي وردت في المؤلفات العربية ولكن الجمع وحدهُ لا يكفي

وارجو من حضرة المؤلفين الفاضلين ان لا يظنا نقدي هذا تحاملاً بل هي حقيقة اقولها . ثم ان كثيراً من انواع الحيات التي ذكرا لها اسماء علمية مختلفة هي حقيقة لنوع واحد جاء باسمين مختلفين

الكتاب الثاني — الثعابين

بحث يتناول الثعابين عامة والانواع المصرية خاصة

تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

اطلعت على هذا الكتاب قبل نشره وقدمتهُ للقراء بالكلمة الآتية :

كنت في سنة ١٩٣١ كثير التردد الى حدائق الحيوانات في الجيزة . واتفق ان دخلت يوماً لزيارة صديقي المرحوم محمود حلمي السمّاع فلقيت عندهُ شابًّا منهمكاً في فحص الافاعي فظننتهُ موظفاً في الحدائق ثم علمت انه ليس موظفاً فيها بل في وزارة المعارف وفي المنيا وقد اخذ اجازة انقطع اثناءها الى موالاة زيارة حدائق الحيوانات والتوفر على دراسة الحيات ولا سيما ما كان منها سامًّا قتالاً كالأسود والناشر والافعى القرناء وذي الطفيتين وغير ذلك . وانقضت اشهر لم أره فيها ثم ما لبث ان سافر الى بلاد الانجليز وغيرها لزيارة حدائق الحيوانات ومتاحف التاريخ الطبيعي والدرس على الخبيرين بهذا العلم في ممالك اوربة المختلفة وعاد ثم زارني في احد الايام ومعه نسخة مخطوطة من كتابه هذا . وانه ليسرني ان اقدم هذا للجمهور ولا ادري كيف اقدمه واقدم مؤلفه واني لا اعرف قدر ما يعرف عن هذا العلم

فقد قرأت الكتاب من اوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة واسلوب علمي سهل المنال . مما يثبت ان اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمي لمن اراده . هذا من جهة اللغة . اما العلم فقد بحث المؤلف بحثاً وافياً في الحيات ولاسيما ما كان منها في مصر وما جاورها . وذكر اسماءها العربية الفصيحة والعامية واذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الاسم العامي . وبحث في الحيات والانسان وانواع الحيات واشكالها بوجه عام ثم بحث في تشريحها ووصفها وعضلاتها وحركتها واسنانها وانسلاخها ودورتها الدموية وتزاوجها وتناسلها وغير ذلك . ثم بحث في السم وانواعه واعراض التسمم والمصل في علاج الملدوغين . ثم ذكر انواع الحيات واحداً واحداً ووصفها وصفاً علميًّا دقيقاً

وهو مجهود بذله المؤلف لم يسبق اليهِ في اللغة العربية

واني لأُهنئهُ عليهِ واقدم هذا الكتاب النفيس الى الجمهور مثلاً باهراً من التخصص العلمي في الشرق ينتفع منهُ ابناء العربية انتفاعاً قائماً على أساس علمي صحيح . اه

على ان ذلك لا يمنع ان ابيّن اوجه النقص منها استعمال الحية والثعبان والافعى كأنها الفاظ مترادفة مع انهُ ذكر اسماءَها العلمية في محلها فقوله الثعابين في عنوان الكتاب ينبغي ان يكون الحيات فالحية اسم عام تشمل الثعابين والافاعي فالثعابين عادة الطوال من الحيات والافاعي القصار ومن امثلة الثعابين هذه الحية المعروفة بالحنش الاسود وهي طويلة جدًّا اما الافعى فقصيرة ومن الخطإ الفاحش ان بعض الجرائد تكتب احياناً انهُ قتلت افعى طولها خمسة امتار فالافاعي في الشام ومصر قصار لا تكاد الواحدة تبلغ المتر الواحد في طولها ولكنها سامة جدًّا . ومما يؤخذ عليه قوله الثعابين العمياء واظن لو قال العمي كان اصلح وقوله الزواحف واظن لو قال الزحافات بصيغة المبالغة كان اصلح وقد وقعتُ نفسي بما يشبه هذا الخطأ فقلت القوارض وكان ينبغي ان اقول القراضات وهذا بحث طويل لا متسع له هنا

هليوبوليس امين المعلوف

الغذاء والمطبخ والمائدة

لحياتنا العائلية

تأليف بسيمة زكي — ثلاثة اجزاء — مجموع صفحاتها ٦٥٠ — مطبعة وديع ابو فاضل

هذا الكتاب دليل عملي لسيدة البيت في صنع مختلف الوان الطعام والفطائر والمربيات ، ومرشدٌ صحي لتغذية الطفل والمرضى بالبول السكري وغيرهم ممن يحتاجون الى الوان خاصة من الغذاءِ . فالجزء الاول خاصٌ بالفطائر الحديثة ولكنه يحتوي على مقدمة مسهبة في الغذاء وما يجب ان يشتمل عليهِ من العناصر ومقدار ما يحتاج اليهِ الانسان كل يوم منها وتلخيصٌ حسنٌ في الجهاز الهضمي والغدد المتصلة به . ثم يليهِ فصل عام في المائدة وترتيبها والاستضافة على مائدة الافطار والغداءِ والعشاءِ وآداب المائدة . ثم كلام عام على الفطائر والمواد التي تصنع منها والقوالب التي تفرغ فيها والموازين والمكاييل المختلفة . ويلي ذلك عشرات من الوصفات للبسكويت والكعك والبودنج. وكل وصفة تحتوي على مقادير دقيقة للمواد التي تتألف منها وطريقة خلطها وطبخها وما الى ذلك ، بحيث لا تحتاج سيدة البيت الاَّ الى يسير من العناية والدقة في اتباع التعليمات لتفوز بالنتيجة المتوقَّعة

والجزء الثاني يشتمل على الطبخ الحديث والوان الطعام القومية . وفيهِ مقدمة كذلك في اصول الطبخ وقواعده واجهزة المطبخ الحديث ومواد الطبخ من لحم وسمك وطير وحبوب وما شاكل . اما الفصل الثاني فيشتمل على وصفات لصنع الحساءِ (الشوربة) والصلصة والوان المكرونة والبيض والخضراوات والاسماك والسلطات وما يصنع من لحوم العجول والبقر والضأن والطيور والارانب. وفي الفصل الثالث وصفات للالوان القومية المختلفة التي اشتهرت بها المانيا وفرنسا وايطاليا والنمسا وغيرها من البلدان . وقد خصِّصَت الفصل الاخير بفن تقطيع اللحوم والطيور على المائدة والادوات

اللازمة لذلك . اما الجزء الثالث ففصول منها فصل خاص بتغذية الطفل وآخر بصنع المربّيات والمسكّرات وآخر بالالوان النباتية والالوان التي تصلح للمرضى بالسكّر

والكتاب من اوله الى آخره غرضهُ النفع العملي ، فهو مكتوب بلغة مفهومة ومزيّن برسوم وصور كثيرة . ونحن نعرف طائفة من سيدات الغرب او سيدات الشرق المثقفات بثقافة الغرب ، يلتفتنَ في مقدمة ما يلتفتنَ اليهِ في المجلات الاوربية والاميركية الى ما تحتوي عليهِ من الوان جديدة للطعام او الفطائر او المربيات ويجرّبنَ عملها بايديهن مع ان بيت الواحدة منهنَّ لا يخلو من طباخ ماهر ، ولا يجدنَ في ذلك غضاضة بل يجدنَ لذة عظيمة

فنحن نشكر للآنسة بسيمة عنايتها باخراج هذا الكتاب على هذا الوجه المتقن ولا نغالي اذا قلنا انهُ يجب ان يكون في متناول كل سيدة شرقية .

المطبوعات الجديدة

[اجتمعت لدينا طائفة من نفائس المطبوعات الجديدة ولكن ضاق عنها نطاق هذا الجزء فأرجأنا النظر فيها الى الاعداد القادمة فنكتفي الآن بذكرها]

« الاسلام والحضارة العربية » تأليف محمد كرد علي طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ونشرته لجنة الترجمة والتأليف والنشر

« الشخصيات البارزة » تأليف الدكتور احمد فريد رفاعي . نشرته مطبعة المعارف بمصر

« ايام بغداد » تأليف امين سعيد نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

« أثر قديم في العراق » تأليف كوركيس حنا عواد طبع بمطبعة النجم بالموصل

« احسن ما كتبت » مختارات لاكابر كتاب العصر . نشرته دار الهلال بمصر

« علم الطبيعة » الجزء الرابع في الكهرباء تأليف هاشم الفصيح وتوفيق المنجد وانطون الجنادي مطبعة الترقي بدمشق

« قصص الاطفال » لكامل كيلاني — قصة جلفر في جزئين . نشرتهما مطبعة المعارف بمصر

«اساطير الف يوم» لكامل كيلاني — ابو القاسم المصري وقصص اخرى . نشرتها مطبعة المعارف بمصر

«كتاب الام » بحث فيه للدكتور زكي مبارك طبع بمطبعة حجازي بالقاهرة

« علم قياس المثلثات » تأليف توفيق علوش طبع بمطبعة السلامة في حمص سورية

« مشاكل العصر الحديث » تأليف عطية الجداوي طبع بمطبعة الصاوي درب الجماميز مصر

« كيف تعالت روسية » تأليف المؤرخ احمد رفيق التركي وترجمة العقيد بهاء الدين نوري

[Schistosomiasis (Bilharziasis) by Dr. Rameses Girges. Published by John Bale Sons, and Danielsson Ltd. London.]

[The Tarriff of Syria 1919 – 1929 Norman Burns M. A. American University of Beirut.]

[A Controlled Experiment on Rural Hygiene in Syria. Stuart C. Dodd Ph. D. American University of Beirut.]

[Criteria of Capacity for Independence Walter H. Ritsher. American University, of Beirut.]

باب الأخبار العلمية

رحلة جوية الى فلسطين (١)

قد يكون من قبيل الامتهان لعقول القراء ان تقول اليوم ان الطيران ارتقى او انهُ آخذ في الارتقاء، وبوجه خاص لان الصحف تشير في كل فرصة سانحة الى فعال الطيارين وآثارهم العجيبة في السرعة والتحليق وقطع المسافات الطويلة. فاجتياز المسافة بين لندن وملبورن في أقل من ثلاثة أيام من قبيل المعجزات، وسرعة الملازم آجلو الايطالي عندقطعه ما معدله ٤٤١ ميلاً في الساعة، تكاد تقرب من سرعة الصوت، وعلى ذلك فقد لا يدهشهم ان تجتاز الطائرة الخاصة بشركة مصر للطيران المسافة بين الماظه واللد في ثلاث ساعات

ولكن يجب عليَّ ان انبه الى ان هناك فرقاً كبيراً بين الطائرات التي تصنع للسباقات، ويطير بها الطيارون لغرض خاص، كالتفوق في السرعة او طول المسافة من غير وقوف او غير ذلك، والطائرات التي تصنع لتنظيم خطوط الطيران التجاري وهي التي يعتمد عليها في امانة جانبها ودقتها في المحافظة على مواعيد القيام ومواعيد الوصول وراحة المسافر في اثناء الطيران. فهذه الطائرات تصنع في الغالب لتكون «وسطاً ذهبيًّا» جامعاً بين اهم مميزات الطيارة — وهي سرعة الانتقال وقواعد الاقتصاد في ما تنفقه من وقود وما يجب ان تتقاضاه من الركاب

وطائرات شركة مصر للطيران جامعة لهذه المميزات على اوفى وجهٍ

***

لقد اتيح لي من قبل ان اقطع المسافة بين لندن وباريس مراراً بالطائرة فلم الق في رحلاتي السابقة من راحة في السفر، او عناية ولطف من قبل رجال الشركة في مكاتبها المختلفة اكثر مما لقيت في رحلتي الاخيرة بين مصر وفلسطين. فمواعيد العمل في جميع تفصيلاته مضبوطة لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر دقيقة. وعبارة الرجال من سائق السيارة الى سائق الطائرة الى رجال المكتب جميعاً عبارة كلها لطف وادب. حتى ولو جفا كلامك قليلاً على غير قصد منك. بل ان سائق الطائرة نفسه يهتم بالركاب في اثناء الطيران، فيكتب على قطعة من الورق احياناً اسم المكان المحاذي للطيارة على الارض وسرعتها وعلوها، لان حديث العهد بالطيران لا يستطيع ان يتبين جميع هذه الحقائق من مراقبة الخارطة

---

(١) دعي رئيس تحرير المقتطف الى القدس لالقاء محاضرة في نادي جمعية الشبان المسيحية فيها فاختار ان يذهب اليها طائراً وفي هذا المقال وصف لرحلته الجوية

او مقياس السرعة والعلو . ولما كان السفر بالطائرات يقع احياناً حوالي الظهر او بعيده ، يجد كل راكب في كرسيه علبة طريفة تحتوي على قطع من الصندوتش الفاخر وفاكهة جيدة وزجاجة ماء معدني مع الاداة التي تفتحها وكأساً من الورق ولوحاً صغيراً من الشكولاته . وعلى العلبة رقعة كتب عليها « مع تحيات شركة مصر للطيران » . وانني على ما اذكر الآن دفعت ثمن مثل هذه العلبة في اوربا نحو اربعة شلنات . ومما يحسن ذكره هنا اننا قرأنا صحف مصر الصباحية يوم الاثنين في اثناء عودتنا بعد ظهر ذلك اليوم ، لان الشركة كانت قد وضعت في الطائرة الذاهبة صباحاً الى فلسطين نسخاً منها . واغرب من ذلك انك قد تكون وحدك بين الركاب قاصداً الى القدس فتقدم لك الشركة مع ذلك سيارة خاصة تسير بك من اللد الى مقرك

فشركة مصر للطيران من هذا القبيل مثل يضرب في اتقان الخدمة ورعاية المسافرين

***

أفطرت في بيتي بالقاهرة في الساعة السابعة صباحاً وذهبت الى فندق الكونتننتال حيث تنتظر سيارة الشركة فركبتها مع مسافرين آخرين الى مطار الماظة في الساعة السابعة والنصف فبلغناه حوالي الساعة الثامنة حيث وزن كل من الركاب وأمتعته ثم فتشت هذه الامتعة من قبل مصلحة جمارك مصر وبصمت جوازات السفر . ودخلنا الطيارة فتحرك الركاب العالي في الساعة الثامنة والربع تماماً . درجت الطيارة على الارض مئات من الأمتار ثم رفعت ذيلها وزادت سرعتها فاذا هي في الجو متجهة الى بور سعيد ، فبلغناها في نحو ساعة — والمسافة بين ألماظة وبور سعيد مائة ميل في خط مستقيم — مارين فوق بلبيس وفاقوس وبحيرة المنزلة

لم نقف في بور سعيد ، لان جميع الركاب كانوا قاصدين الى فلسطين ، فبلغنا البحر المتوسط مارين فوق أحياء المدينة الغربية فرأينا بيوتها وشوارعها ومدخل القنال وبور فؤاد ، كأنها رقعة يبني عليها الطفل بالحجارة والمكعبات بيوتاً ويخطط مدناً . ثم اتجهنا الى الشرق الشمالي وسرنا محاذين للشاطىء ، صحراء سينا الى يميننا والبحر الى يسارنا ، فررنا قبالة العريش ورفح وغزة الى ان بلغنا الرمال التي الى جنوب يافا . فتحولت الطيارة الى اليمين محلقة فوق منطقة البرتقال المشهورة فرأينا « البيارات » واستطعنا ان نتبين مبلغ اشجارها من النمو ، باختلاف ما يظهر من التربة الحمراء بين الاشجار ورأينا الخطوط المنتظمة التي غرست فيها . وفي الساعة الحادية عشرة والربع نزلت الطيارة في مطار اللد ، والمسافة بين مطار ألماظة ومطار اللد في الخط الذي سرنا فوقه نحو ثلاث مائة ميل

هنالك فحصت جوازات السفر وفتشت الامتعة ، او سئل الركاب عما فيها ، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف كنا في القدس فتناولنا طعام الغداء فيها على أحسن حال .

وقد سرنا في الخط نفسه عند العودة ، فطارت بنا الطيارة في الساعة الواحدة والنصف تماماً من مطار اللد فبلغنا الماظه في الساعة

الخامسة الاّ ثلثاً ، لأننا وقفنا في بور سعيد لنزول سيدة وصعود مسافر قادم من بورسعيد الى مصر . وقد حلقت الطيارة اذ كانت محاذية لغزة الى علو ٧٥٠٠ قدم فرأيناها كأنها تحتنا مع أن بعدها عن الشاطىء ليس يسيراً

***

وطيارات شركة مصر للطيران التي تسير على هذا الخط نوعان احدهما يحمل ستة ركاب والآخر يحمل ثمانية . وقد قيل لي انه ينتظر قريباً وصول طائرة تحمل ستة عشر راكباً

ولكل طائرة محركان قوة كل منهما ١٣٠ حصاناً ، احدهما كاف للطيران بها ولكن بسرعة اقل ، فاذا تعطل احدهما في اثناء الطيران كان الآخر كافياً لاتمام الرحلة ، او على الاقل للنزول على الارض من غير تعريض الطائرة وركابها لخطر ما . ولكن هذا التعطيل لا يحدث ، لان العناية كبيرة جداً بالمحركات وامتحانها قبل كل سفر

***

اما المقاعد فغاية في الراحة ، وهي من النوع الذي يتحرك ظهره ليستطيع المسافر ان يتمدد قليلاً اذا شاء . واذا كان صوت المحرك يزعج المسافر فله قطن يضعه في اذنيه ، ولكن صوته لم يزعجني قط ، فقرأت واكلت وتفرست في الاماكن التي مررنا فوقها وصوت المحركات لا يصرفني عن كل ذلك ولا احس منه بأي ضيق . بل اذا شئت ان تقف في الطائرة منحنياً — لأن سقفها لا يزيد علوه على متر ونصف — لتطل من نافذة غير النافذة التي قربك على المشاهد المختلفة كان لك ذلك من دون ان يؤثر عملك في موازنة الطيارة على شريطة ان تكون في مقعدك عند ما تهم بالنزول على الارض .

ولتهوية الطيارة طريقة بديعة تستطيع ان تدخل لها الهواء من ثقب انبوب بالقدر الذي تريده

وقد يسأل القراء عن الدوار فأقول لهم انني لم احس في وقت ما بشيء منه ولا راودتني نفسي عليه ، ولا احسّ به احد من الركاب في الرحلتين وان الطائرة كانت اثبت جداً في الجو من القطار او السيارة التي تسير في طريق غير تامة الاستواء . ولولا اعلام من الغيم احياناً وقرى وحقول مررنا فوقها لما عرفنا ان الطيارة تتحرك على الاطلاق — فذكرني بذلك بصندوق اينشتين العظيم — والطائرة مع ذلك تسير بسرعة مائة ميل في الساعة

وهذا الخط منتظم ثلاثة ايام في الاسبوع هي الاثنين والاربعاء والجمعة . تطير الطائرة في كل من هذه الايام من الماظة في الساعة الثامنة والربع صباحاً الى فلسطين وتغادر مطار اللد في الساعة الواحدة والنصف من اليوم نفسه عائدة الى الماظة . ولا اعرف مواعيد الوصول الى حيفا او القيام منها لأن حيفا نهاية هذا الخط ولم أطر اليها . اما اجرة السفر فستة جنيهات في الرحلة الواحدة و ١١٤٠ قرشاً ذهاباً واياباً وهي لا تزيد على اجرة السفر بالسكة الحديد علاوة على انك توفر وقتاً وتعباً ونوماً في القطار وغباراً في الصحراء

استدراك

في الصفحة ٥٠٩ س ٧ كلمة (الآذان) بالمد وصوابها (بالهمز)

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ـــه	
٣٥	القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « « (طبعة ثالثة)
٧٠	« « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	المدرسي « عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« « عربي انكليزي فقط
١٥	« « انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« « « « « وبالعكس
١٠	التحفة المصريه لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة « «
١٠	الاراء والمعتقدات « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠	اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠	جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠	الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥	حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
٥	« « ثالث « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ـــه	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرى وانتي خلقتهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد
١٠	تاييس « « « «)
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨	« الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	« روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠	« عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦	« كابيتان ، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« فلمبرج ، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الحسناء «
٥	« مروحة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« الغلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨	النبي (« « «
٥	آلهة الارض (« « «

